مذكرات حرب أكتوبر

الفريق سعد الشاذلي

الطبعة الرابعة ٢٠٠٣

دار بحوث الشرق الأوسط الأمريكية

سان فرانسيسكو ٢٠٠٣

الفصل الأول

المشاريع الاستراتيجية

لم نكف عن التفكير في الهجوم على العدو الذي يحتل أراضينا حتى في أحلك ساعات الهزيمة في يونيو ١٩٦٧، لقد كان الموضوع ينحصر فقط في متى يتم مثل هذا الهجوم وربط هذا التوقيت بإمكانات القوات المسلحة لتنفيذه وفي خريف ١٩٦٨ بدأت القيادة العامة للقوات المسلحة تستطلع إمكان القيام بمثل هذا الهجوم على شكل "مشاريع استراتيجية" تنفذ بمعدل مرة واحدة في كل عام، وقد كان الهدف من هذه المشاريع هو تدريب القيادة العامة للقوات المسلحة- بما في ذلك قيادات القوات الجوية والقوات البحرية وقوات الدفاع الجوي، وكذلك قيادات الجيوش الميدانية وبعض القيادات الأخرى- على دور كل منها في الخطة الهجومية. لقد اشتركت أنا شخصيا في ثلاثة من هذه المشاريع قبل أن أعين رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة. لقد اشتركت في مشاريع عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ بصفتي قائداً للقوات الخاصة (قوات المظلات وقوات الصاعقة)، واشتركت في المرة الثالثة عام ١٩٧٠ عندما كنت قائدا لمنطقة البحر الأحمر العسكرية. وقد جرت العادة على أن يكون وزير الحربية هو المدير لهذه المشاريع، وأن يدعى رئيس الجمهورية لحضور جزء منها، لكي يستمع إلى التقارير والمناقشات التي تدور خلالها، وقد استمرت هذه المشاريع خلال عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢ أما المشروع الذي كان مقررا عقده عام ١٩٧٣ فلم يكن إلا خطة حرب أكتوبر الحقيقية التي قمنا بتنفيذها في ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

وحيث إن إسرائيل كانت تتفوق علينا تفوقاً ساحقاً في كل شئ خلال عام ١٩٦٨ والأعوام التالية، فقد كان مديرو هذه المشاريع الاستراتيجية يفترضون امتلاكنا لقوات مصرية ليست موجودة واقعياً، وذلك حتى يكون من الممكن تنفيذ مشروع الهجوم بأسلوب لا يتعارض مع العلم العسكري. وبمعنى آخر فإن المديرين كانوا يضعون الخطة الهجومية على أساس ما يجب أن يكون لدينا، إذا أردنا القيام بعملية هجوم ناجحة. ولا يمكن أن نعتبر هذا خطأ كبيرا حيث إن مثل هذه الخطط وإن كانت غير واقعية، فإنها تظهر بوضوح حجم القوات المسلحة التي يجب توافرها لكي يمكن تنفيذ خطة هجومية ناجحة. وفي خلال السنوات ٦٩ وما بعدها أخذت قواتنا المصرية تزداد قوة، وأخذت خططنا في تلك المشاريع الإستراتيجية تبدو اقل طموحا- نتيجة ربط الأهداف بالإمكانات الواقعية- وبذلك أخذت الثغرة بين إمكاناتنا الهجومية وخططنا الهجومية في المشاريع الاستراتيجية تضيق شيئا فشيئا، حتى تم إغلاقها تماماً في أكتوبر ١٩٧٣. وهكذا

أصبحت خطتنا الهجومية عام ٧٣ مطابقة للإمكانات الفعلية لقواتنا المسلحة.

الفصل الثاني

إمكاناتنا الهجومية

عندما عينت رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية (ر.ا.ح.ق.م.م) في ١٦ من مايو ٧١، لم تكن هناك خطة هجومية، وإنما كانت لدينا خطة دفاعية تسمى "الخطة ٢٠٠"، وكانت هناك أيضا خطة تعرضيه أخرى تشمل القيام ببعض الغارات بالقوات على مواقع العدو في سيناء ولكنها لم تكن في المستوى الذي يسمح لنا بأن نطلق عليها خطة هجومية، وكانت تسمى "جرانيت".

بدأت عملي بدراسة إمكانات القوات المسلحة الفعلية ومقارنتها بالمعلومات المتيسرة عن العدو بهدف الوصول إلى خطة هجومية تتمشى مع إمكاناتنا الفعلية، وقد أوصلتني تلك الدراسة إلى النقط الرئيسية التالية:

١- إن قواتنا الجوية ضعيفة جداً إذا ما قورنت بقوات العدو الجوية. أنها لا تستطيع أن تقدم أي غطاء جوى لقواتنا البرية إذا ما قامت هذه القوات بالهجوم عبر أراضي سيناء المكشوفة، كما أنها لا تستطيع أن توجه ضربة جوية مركزة ذات تأثير على الأهداف المهمة في عمق العدو.

٢- أن لدينا دفاعا جويا لا بأس به يعتمد أساساً على الصواريخ المضادة للطائرات SAM ولكن -وللأسف الشديد- هذه الصواريخ دفاعية وليست هجومية، إنها جزء من خطة الدفاع الجوي عن الجمهورية، وهى لذلك ذات حجم كبير ووزن ثقيل وتفتقر إلى حرية الحركة (لم يكن لدينا في هذا الوقت الصاروخ SAM6 الخفيف الحركة والذي يستطيع أن يتحرك ضمن تشكيلات القوات المهاجمة)، وبالتالي فأنها لا تستطيع أيضا أن تقدم غطاء جويا لأية قوات برية متقدمة عبر سيناء إنها سلاح مناسب في الدفاع حيث يمكن أن توفر لها الوقاية بوضعها في ملاجئ خرسانية يتم إنشاؤها خلال بضعة أشهر، أما إذا خرجت من هذه الملاجئ لترافق القوات البرية المهاجمة، فأنها تصبح فريسة سهلة لقوات العدو الجوية وقوات مدفعيته.

٣- كانت قواتنا البرية تتعادل تقريبا مع قوات العدو. لقد كان لدينا بعض التفوق في المدفعية- في ذلك الوقت- ولكن العدو كان يختبئ وراء خط بارليف المنيع، والذي كانت مواقعه قادرة على أن تتحمل قذائف مدفعيتنا الثقيلة دون أن تتأثر بهذا القصف، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت قناة السويس - بما أضافه العدو إليها من موانع صناعية كثيرة- تقف سداً منيعاً آخر بين قواتنا وقوات العدو [١].

٤-أما قواتنا البحرية، فقد كان من الممكن أن نعتبرها أقوى من بحرية إسرائيل، ولكن ضعف قواتنا الجوية قلب الموازين وأحال تفوقنا البحري إلى عجز وعدم قدرة على التحرك بحراً.. لقد كان في استطاعة العدو أن يتجول في خليج السويس ببعض الزوارق الصغيرة وهى لا تحمل سوى بعض الرشاشات دون أن يكون في استطاعتنا أن نتحدى تلك القوارب الصغيرة بقطع بحرية هي أكثر قوة وافضل تسليحا. لقد كانت تلك القطع البحرية المعادية تعتمد على قوة الطيران الإسرائيلي الذي يستطيع أن يغرق أية قطعة بحرية مصرية تتعرض لها. ولم يقتصر تحدي العدو لبحريتنا على تقييد حركتها في أعالي البحار، بل انه استفاد من ضعف دفاعنا الجوي في منطقة البحر الأحمر، فكان يقوم بتوجيه عدة ضربات برية ضد قطعنا البحرية ونجح في عدد من الحالات في إغراق بعض قطعنا البحرية وهى راسية في الميناء . لم يكن بإمكاننا أن نحقق دفاعا جويا مؤثرا بواسطة الصواريخ عن جميع أهدافنا داخل الجمهورية، ولذلك فقد كانت هناك أسبقيات تنظم توزيع هذا الدفاع، وكانت جبهة قناة السويس والعمق يستحوذان على إمكاناتنا كلها تاركين منطقة البحر الأحمر شبه عارية من وسائل الدفاع الجوي، اللهم إلا بعض المدافع التقليدية المضادة للطائرات. والتي لا تشكل أي تهديد خطير للطائرات النفاثة الحديثة، والمجهزة بصواريخ جو ارض ذات مدى طويل يجعلها قادرة على أن تصيب أهدافها دون أن تدخل في مدى مدافعنا المضادة للطائرات وفي هذه الظروف استطاع العدو أن يحصل على السيطرة البحرية في خليج السويس والجزء الشمالي من البحر الأحمر بواسطة قواته الجوية، وذلك على الرغم من تفوقنا العددي والنوعي في القطع البحرية على إسرائيل.

ونتيجة لهذه الدراسة فقد ظهر لي انه ليس من الممكن القيام بهجوم واسع النطاق يهدف إلى تدمير قوات العدو وإرغامه على الانسحاب من سيناء وقطاع غزة، وان إمكاناتنا الفعلية قد تمكننا- إذا احسنا تجهيزها وتنظيمها- من أن نقوم بعملية هجومية محددة تهدف إلى عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف ثم التحول بعد ذلك للدفاع، وبعد إتمام هذه المرحلة يمكننا التحضير للمرحلة التالية التي تهدف إلى احتلال المضائق،حيث أن المرحلة الثانية سوف تحتاج إلى أنواع أخرى من السلاح والى أسلوب آخر في تدريب قواتنا، وقد كانت فكرتي في القيام بهذا الهجوم المحدود متأثرة بالعوامل الرئيسية التالية:

ا- كان العامل الأول هو ضعف قواتنا الجوية، كما سبق أن قلت. لقد كنت حريصا ألا نزج بقواتنا الجوية في معارك جوية غير متكافئة مع العدو. لقد دمرت قواتنا الجوية مرتين على الأرض. كانت المرة الأولى إبان العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي عام ١٩٥٦،

وكانت المرة الثانية إبان الهجوم الإسرائيلي المفاجئ عام ١٩٦٧. وفي خلال السنوات الأربع الماضية قمنا ببناء ملاجئ خرسانة لطائراتنا، كما أقمنا شبكة دفاع جوي بالصواريخ حول قواعدنا الجوية، وبذلك اصبح لدينا بعض الضمانات ضد تدمير قواتنا الجوية بضربة جوية مفاجئه، كما تم في الحالتين السابقتين ولكن بمجرد أن يقلع الطيار بطائرته في الجو فإنه سوف يعتمد اعتماداً كليا على مهارته وعلى كفاءة طائرته عند اشتباكه مع الطائرات المعادية، ومن خلال الاشتباكات المتعددة التي تمت بين طائراتنا وطائرات العدو بعد ١٩٦٧ ظهر تفوق الطيران الإسرائيلي في هذه الاشتباكات بشكل واضح وحاسم، وقد دار كثير من الجدل والمناقشات حول هذا الموضوع: هل هو نقص في تدريب طيا رينا ومهارتهم؟ أم هو عدم كفاءة طائرة الميج ٢١ بالمقارنة مع طائرات العدو؟ كان طيارونا يلقون بأسباب فشلهم في هذه الاشتباكات على الطائرة، في حين كان الخبراء السوفيت يلقون باللوم علي الطيارين المصريين. وفي اعتقادي أن فشلنا في هذه الاشتباكات كان يعود إلى كل من الطيار والطائرة ،وكذلك إلى الظروف التي كان العدو يفرضها علينا في هذه الاشتباكات. فعندما كان العدو يخطط لمثل هذه الاشتباكات فإنه كان ينتقي لها افضل طياريه ويرسم لها خطة محكمة يبدأها عادة بأن يخترق أجواءنا في الوقت والمكان والاتجاه الذي أنتخبه ضمن خطته، وعندما نقوم نحن باعتراض تلك الطائرات المعادية، فإننا نعترضها بواسطة من يتصادف قيامهم بخدمة العمليات في أعلى درجات الاستعداد، وقد يكون من بينهم بعض الطيارين حديثي الخبرة وهؤلاء لا يمكن مقارنتهم بأي حال من الأحوال بالنخبة المختارة من الطيارين التي دفع بها العدو للتحرش بهم، وبالإضافة إلى ذلك فإن طيارينا ينطلقون بطائراتهم الإعتراضية إلى الجو دون أية خطة مرسومة معتمدين على ما سوف يحصلون عليه من معلومات من الموجهين الأرضيين، وحيث أن الموجهين الأرضيين هم الآخرون يقومون بدور خدمة عادي، فقد يكون منهم الموجه الجيد أو الموجه دون المستوى المطلوب.

ونتيجة لذلك كله، فإن العدو يقابلنا بأفضل طياريه وبخطة مرسومة، بينما نقابله نحن بما هو متيسر لدينا في الخدمة من طيارين وموجهين ودون أية خطة، ولذلك فقد كانت النتائج دائماً في مصلحة العدو. في كثير من الحالات أفاد طيارونا بأنهم اسقطوا بعض طائرات العدو، ولكن لم يقم دليل قوى على ذلك في معظم الحالات. لم يكن طيارونا تنقصهم الشجاعة، ولكن كانت تنقصهم الخبرة والتجربة. لقد كانت الغالبية العظمى منهم تقل ساعات طيرانهم عن ١٠٠٠ ساعة طيران، في حين كان متوسط ساعات طيران الطيارين الإسرائيليين يزيد على ٢٠٠٠ ساعة. لقد كانت القوات الجوية الإسرائيلية تسبق القوات الجوية المصرية بعشر سنوات على الأقل، وإذا أضفنا إلى

ذلك كله أن طائراتنا كـــانت اقل كفاءة من طائرات العدو، ولاسيما من حيث المدى وقوة التسليح والتجهيز بالأسلحة الإلكترونية وجدنا أن طيارينا كانوا يقاتلون عدوهم في ظروف غير متكافئـــة، ومن هنا بدأ يتولد عندي أسلوب جديد في استخدام قواتنا الجوية يعتمد على مبدأين: المبدأ الأول، هو تحاشي المجابهة مع العدو في الوقت والمكان اللذين يختارهما هو. والمبـــدأ الثـــاني هـــو أن نستخدم قواتنا الجوية عندما تشتعل الحرب بتوجيه ضربات مفاجئة في الأوقات والأمـــاكن التـــي نستبعد فيها أي تدخل من جـــانب قوات العدو الجوية. وبمعنى أخر، فقد كنت أهدف إلى أن اجعل القوات البرية والأهداف الأرضية الإسرائيلية تتأثر نفسيا بهجمات قواتنا الجوية، وفي الوقت نفسه نحاول أن نتجنب أية معارك جوية. لقد كنت مقتنعا بأنه ما لم نستخدم قواتنا الجوية بحرص وذكاء فمن الممكن أن نخسر قواتنا الجوية للمرة الثالثة مع فارق بسيط هو أننا هذه المرة نخسرها **وهي** في الجو بدلا من خســـارتها وهي على الأرض، كـــما تم في المرتين السابقتين.

٢ ـــ كان العامل الثاني هو قدرات صواريخنا المضادة للطـــائرات SAM ومـــداها فـــي المعركـــة الهجومية. لقد أثبتت صواريخنا كفاءتها خلال حرب الاستنزاف ما بين ٦٨ و٧٠، وكذلك خـــلال الاشتباكات والتحرشات مع طيران العدو بعد وقف إطلاق النار في ٧ من أغسطس ٧٠ وحتى قيام حرب أكتوبر ٧٣. إن إسرائيل لم تحترم قط وقف إطلاق النار، واستمر طيرانها يقوم بـــاختراق مجـــالنا الجوى كلما سنحت له الفرصة بذلك، ولكننا لاحظنا بكل فخر انه كان دائما يحـــاول أن يتفادى اختراق المناطق التي يعلم أنها تحت مظلة من صواريخ SAM ، وقد كان ذلك في حد ذاته شهادة رسمية من العدو تنطق باحترامه وخشيته من صواريخنا. لقد كـــان أحـــد دروس حـــرب الاستنزاف هو أن القوات الجوية المعادية تكون ذات تأثير ضئيل ضد القـــوات المخندقـــة، وذات تأثير كبير ضد القوات الأرضية إذا ما هوجمت في العراء وهى خارج مدى مظلة دفاعنا الجـــوى بالصواريخ SAM .ومن هنا كان علينا أن نقيد حركتنا شرق القناة في أية عمليـــة هجومية، وان نربط هذه الحركة بقدرة دفاعنا الجوى على مدى الوقاية التي يستطيع أن يحققها لقواتنا البرية. وقد كانت إمكاناتنا في الدفاع الجوي – بعد القيام ببعض الإجراءات الخاصة– قادرة على تحقيق دفاع جوي مؤثر شرق القناة بمسافة تتراوح ما بين ١٠ و١٢ كيلومترا، وان أي هجوم برى يتجـــاوز هذه المسافة قد يقود إلى عواقب وخيمة.

٣–لقد كان العامل الثالث هو الرغبة في أن نرغم إسرائيل على قتالنا تحت ظروف ليست مواتية لها. إن إسرائيل ذات الثلاثة ملايين نسمة تعبئ وقت الحرب حوالي ٢٠% من قوتهـــا البشـــرية للانضمام إلى القوات المسلحة وقوات الدفاع الإقليمي، وهي نسبة عالية جدا لم تستطع أية دولة في

العالم أن تصل أليها. وإسرائيل نفسها لا تستطيع أن تتحمل مثل هذه التعبئة لمدة طويلة لأنها ترهق اقتصادها القومي وتصيب خدماتها وجميع نشاطاتها الأخرى بالشلل الكامل. ونتيجة لهذا الموقف، فإن لإسرائيل مقتلين: المقتل الأول هو الخسائر في الأفراد، والمقتل الثاني هو إطالة مدة الحرب. إن إسرائيل لا تهتم كثيرا إذا هي خسرت الكثير من الأسلحة المتطورة Sophisticated من دبابات وطائرات ولكنها تصاب بالهلع إذا خسرت بضع مئات من الأفراد. إن لديها رصيدا هائلا من المعدات، وهناك من يقوم نيابة عنها بدفع ثمن فواتير السلاح، أما خسائر الأفراد، فإن رصيد الشعب اليهودي من البشر رصيد محدود، ومن الصعب تعويض هذه الخسائر. كذلك فإن إطالة الحرب هي السم الذي يضعف مقاومة إسرائيل يوما بعد يوم. إن الجندي الإسرائيلي الذي يستدعى في التعبئة هو نفسه العامل والمهندس في المصنع، وهو نفسه الأستاذ والطالب في الجامعة، وهو نفسه الذي يقوم بجميع النشاطات الأخرى في الدولة، فكيف يمكن لهذه الدولة أن تعيش لو امتدت الحرب ستة أشهر فقط ،وما بالك بأكثر من هذا؟ لقد كانت إسرائيل في جميع حروبها السابقة تفضل أسلوب الحرب الخاطفة Blitzkrieg. لذلك فقد كان من صالحنا أن نفرض عليها حربا بأسلوب ليس في صالحها. فلو أننا توقفنا شرق القناة بمسافة تتراوح ما بين١٠ و ١٢ كم، فأننا سنخلق لها موقفا صعبا، فإذا هي قامت بالهجوم على مواقعنا شرق القناة فستكون لدينا الفرصة لأن نحدث في قواتها المهاجمة خسائر كبيرة سواء في القوات الأرضية أم القوات الجوية التي تساندها، نظرا لوجود تلك المنطقة تحت مظلة دفاعنا الجوي، وإذا هي عزفت عن الهجوم فسوف تضطر إلى الاستمرار في تعبئة قواتها المسلحة، وبذلك تستنزف قوتها الاقتصادية.

٤ـ أما العامل الرابع الذي أثر على تفكيري، فقد كان "تعلم الحرب بواسطة الحرب"، أو بمعنى أخر تدريب الضباط والجنود على الحرب الكبيرة –التي سوف تتم في مراحل قادمة– عن طريق الزج بهم في حرب محدودة يستطيعون فيها أن يكتشفوا ذواتهم وان يكتسبوا خبراتهم بأنفسهم. لقد تعلمت من خدمتي في القوات المسلحة واشتراكي في خمس حروب سابقة أن ميدان المعركة هو أنسب الأماكن لتدريب الرجال على فنون الحرب. إننا مهما حاولنا خلال التدريب أن نخلق المناخ الذي يتشابه مع مناخ الحرب، فإننا لن نستطيع أن نخلق الأثر النفساني الذي تولده الحرب في الجنود، هذا الأثر الذي هو خليط من الخوف والشجاعة، خليط من الكبرياء وحب البقاء. هذه الآثار النفسية على المقاتل لا يمكن أن تكتشف إلا عن طريق الحرب الحقيقية. لقد كنت أتوقع أن يلعب نجاحنا في هذه الحرب المحدودة دورا مهماً في رفع معنويات قواتنا المسلحة بعد أن تكبدت ثلاث هزائم أمام إسرائيل خلال الخمس والعشرين سنة الماضية. لهذا كنت أرى أن الحرب القادمة

يجب أن تكون مخاطرة محسوبة، ويجب ألا تكون بأي حـال من الأحوال نوعـاً مـن أنـواع المقامرة.

هوامش الفصل الثاني:

(١) ذكر اليعازر رئيس أركان حرب القوات المسلحة الإسرائيلية خلال حرب أكتوبر ٧٣، انه أثناء مناقشة احتمال قيام المصريين بالهجوم عبر القناة علق دايان ساخرا " لكي تستطيع مصر عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف فإنه يلزم تدعيمها بسلاحي المهندسين الروسي والأمريكي معا". وكان الجنرال بارليف يؤيد دايان في هذا القول. إن هذه الشهادة من قادة العدو هي شهادة نعتز بها لأنها تظهر عظمة التخطيط وروعة الأداء اللذين تم بهما إنجاز هذا العبور العظيم.

الفصل الثالث

تطور الخطة الهجومية

قبل مرور شهرين على تعييني رئيساً للأركان العامة، كنت قد أصبحت مقتنعاً بان معركتنا القادمة يجب أن تكون محدودة ويجب أن يكون هدفها هو "عبور قناة السويس وتـدمير خـط بـارليف واحتلاله ثم اتخاذ أوضاع دفاعية بمسافة تتراوح ما بين١٠ و ١٢ كم شرق القناة" وأن نبقى فـي هذه الأوضاع الجديدة إلى أن يتم تجهيز القوات وتدريبها للقيام بالمرحلـة التاليـة مـن تحريـر الأرض. وعندما عرضت هذه الأفكار على الفريق أول محمد أحمد صادق بصفته وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة عارض هذه الفكرة بشده وقال إنها لا تحقـق أي هـدف سياسـي أو عسكري، فهي من الناحية السياسية لن تحقق شيئاً. وسوف يبقي ما يزيد على ٦٠٠٠٠ كيلو متر مربع من سيناء، بالإضافة إلى قطاع غزة تحت الاحتلال الإسرائيلي. ومن الناحيـة العسـكرية سوف تخلق لنا موقفا صعبا فبدلا من خطنا الدفاعي الحالي الذي يستند إلى مانع مائي جيد، فـأن

خطنا الدفاعي الجديد سوف يكون في العراء وأجنابه معرضة للتطويق. وبالإضافة إلى ذلك فسوف تكون خطوط مواصلاتنا عبر كباري القناة تحت رحمة العدو. لقد كانت فكرته في العملية الهجومية هي أن نقوم بتدمير جميع قوات العدو في سيناء، والتقدم السريع لتحريرها هي وقطاع غزة في عملية واحدة ومستمرة ! قلت له كم أود أن نقوم بتنفيذ ذلك، ولكن ليس لدينا الإمكانات للقيام بذلك سواء في الوقت الحالي أم في المستقبل القريب، رد قائلا: "لو أن السوفيت أعطونا الأسلحة التي نطلبها فإننا نستطيع أن نقوم بهجومنا هذا في خلال عام أو أقل". لم أوافقه على رأيه هذا وأخبرته أننا قد نحتاج إلى عدة سنين لكي نحصل ونتدرب على الأسلحة اللازمة لمثل هذا الهجوم. وأعدت ذكر الأسباب التي تفرض علينا القيام بعملية هجومية محدودة. وبعد مناقشات مطولة وعبر جلسات وأيام متعددة وصلنا إلى حل وسط وهو تجهيز خطتين: خطة تهدف إلى الاستيلاء على المضائق، وأخرى تهدف إلى الاستيلاء فقط على خط بارليف.

أطلقنا على الخطة الأولى اسم "العملية ٤١ "، وقمنا بتحضيرها بالتعاون مع المستشارين السوفيت بهدف إطلاعهم على ما يجب أن يكون لدينا من سلاح وقوات لكي نصبح قادرين على تنفيذ هذه الخطة. أما الخطة الثانية، فقد أطلقنا عليها الاسم الكودي"المآذن العالية". وكنا نقوم بتحضيرها في سرية تامة. ولم يكن يعلم بها أحد من المستشارين السوفييت، كما أن عدد القادة المصريين الذين سمح لهم بالاشتراك في مناقشتها كان محدودا للغاية، وفي خلال يوليو وأغسطس ١٩٧١ كانت الخطتان قد تم استكمالهما. كانت الخطة ٤١ غير قابلة للتنفيذ إلا إذا توافرت أسلحة ووحدات افترضنا وجودها، أما خطة المآذن العالية فقد كانت أول خطة هجومية مصرية واقعية. وبناء على الخطة ٤١، قمنا بتحرير كشوفات بالأسلحة والعتاد المطلوب الحصول عليهما من الاتحاد السوفيتي، وكالعادة دارت مناقشات مطولة بيننا وبين المستشارين الروس بخصوص هذه الكشوفات، فقد كان الروس يتهموننا دائماً بالمغالاة في مطالبنا، بينما كان الجانب المصري يتهم الروس دائما بعدم الاستجابة إلى مطالبنا العادلة والضرورية وفي أكتوبر ١٩٧١ سافر الرئيس السادات والفريق أول صادق إلى موسكو، حيث تم الاتفاق على صفقة أسلحة كانت تعتبر اكبر صفقة أسلحة مع السوفيت حتى ذلك الوقت ورغم ضخامة هذه الصفقة فأنها لم تغط جميع الأسلحة اللازمة لتنفيذ " الخطة رقم ٤١". ورغم أن هذه الصفقة كانت تشمل ١٠٠ طائرة ميج ٢١ FM وفوج صواريخ كوادرات مضادة للطائرات خفيفة الحركة (سام ٦)، فأن قدراتنا في الدفاع الجوي- حتى بعد التدعيم بهذه الأسلحة الجديدة- لم تكن بقادرة على حماية أي تقدم لقواتنا البرية في اتجاه المضائق طبقا لمتطلبات "الخطة رقم ٤١"، كما أن الأسلحة والمعدات التي تقرر وصولها

قبل نهاية عام ٧١ لم يكن في استطاعتنا أن نستوعبها قبل إبريل ١٩٧٢ في أحسن الظروف.وعلى الرغم من هذه الحقائق ، فقد أخذ السادات يدق طبول الحرب بعد عودته من الاتحـــاد الســـوفيتي، ويصرح في كل مناسبة وأحيانا دون مناسبة بان عام ٧١ هو عام الحسم، ولكـــي يقنـــع الجميـــع بجديته في ذلك أعلن نفسه قائدا عاماً للقوات المسلحة اعتبارا من ٣١ من أكتوبر ٧١، وفي الوقت نفسه أخذت وسائل الإعلام المصرية -التي تسيطر عليها الدولة- تتحدث عن الحـــرب القادمـــة بحرية غريبة كأنها نوع من حفلات المبارزة التي يعلن مسبقا عن ميعادها ومكان انعقادها. لقـــد كان موقفاً غريباً وشاذاً مما اضطرني إلى أن أفاتح الفريق صادق في هذا الموضوع، حيث قلـــت له: "إن الرئيس يضعنا في موقف صعب إذا كنا حقاً سنخوض المعركة هذا العام فـــأن الـــرئيس يحرمنا من المفاجأة التي يمكن أن نحققها لو أنه ظل صامتاً، وإذا كنا لن نقوم بالمعركة هذا العام، فإنه بتصريحاته هذه يمكن أن يدفـــع إسرائيل إلى أن تقوم بضربة إجهاض ضد قواتنا، أو علـــى أقل تقدير فقد تأخذ هذه التصريحات ذريعة لطلب أسلحة جديدة من الولايات المتحدة!" قال لي أنه يتفق معي في وجهة نظري هذه، وإنه ناقش هذا الموضوع مع الرئيس وانه يعتقـــد أن الـــرئيس يلعب لعبة سياسية. لم اقتنع بمثل هذه الخدع السياسية وعكفت على تدقيق وتجهيز خطة "المـــآذن العالية" حتى لا أجد نفسي مفاجأ بقرار سياسي بالهجوم دون فترة إنذار معقولة.

وفي خلال عام ١٩٧٢ أخذنا ندخل بعض التعديلات الطفيفة على كل من "الخطة رقم ٤١" و"خطة المآذن العالية"، وذلك بناء على التغير المستمر في حجم قواتنا وحجم قوات العدو، ولكن جـــوهر كل خطة بقي كما هو عليه، ولكن تم تغيير اسم "الخطة ٤١" لتكون "جرانيت ٢"، وبنهايـــة عـــام ١٩٧٢ بقيت "خطة المآذن العالية" هي الخطة الوحيدة الممكنة، بينما كانت الخطة جرانيت ٢ هي خطة المستقبل التي يشترط لتنفيذها حدوث تغييرات أساسية في إمكانات قواتنا المســـلحة. كـــان مازال هناك ثلاث نقط ضعف رئيسية تحد من قدراتنا على تنفيذ الخطة "جرانيت ٢"، وكانت أولى هذه النقط هي ضعف قواتنا الجوية. فلم يكن لديها الإمكانات التي تمكنها من تصـــوير وتفســـير وتسليم الصور الجوية في وقت يسمح بالاستفادة من هذه المعلومات. كذلك لم تكن القوات الجوية بقادرة على توفير الدفاع الجوي للقوات البرية أثناء تحركها. وكانت نقطة الضعف الثانية هي عدم توافر كتائب صواريخ SAM خفيفة الحركة بالقدر الذي يمكنها من أن تحل محل القوات الجويـــة في توفير الغطاء الجوي للقوات التي تتقدم شرقاً. وكانت نقطة الضعف الثالثة هـــي عـــدم قـــدرة غالبية عرباتنا على السير عبر الأراضي، أي خارج الطرق الممهدة وعبر الأراضي الرملية. لقد تعلمنا من خبراتنا السابقة في الحرب أن العربات ذات العجلات التي لا تتمتع بمقدرة مقبولة على

السير في الرمال خـــارج الطرق تشكل عبئا ثقيلا على كاهل القوات المقاتلة، فعند ما يقوم طيران العدو بتدمير بعض هذه العربات أثناء سيرها على الطرق المرصوفة، فإن هذه العربات تقوم بسد الطريق مما يدفع العربات اللاحقة- في محاولة لتفاديها- إلى الخروج عن الطريـــق المرصـــوف فتغرز في الرمال ويتكرر الأمر نفسه حتى يختنق الطريق تماماً بما يعادل حوالي ٥٠ متراً مـــن كل جانب بالعربات المعطلة أو المغروزة.

عندما عين الفريق أحمد إسماعيل وزيراً للحربية وقائداً **عاماً** للقوات المسلحة خلفاً للفريق صادق في نهاية شهر أكتوبر ١٩٧٢، عرضت عليه خططنا الهجومية لمناقشتها معه. لقد كنت أعلم مسبقاً وجهة نظره عن الحرب من تقرير كان قد تقدم به بصفته مديرا للمخابرات العامة فـــي النصـــف الأول من عام ١٩٧٢، وفي هذا التقرير ذكر أن مصر ليست على استعداد عندما بدأت في وضع اللمسات النهائية على خطة "المآذن العالية" كان يتحتم علينا أن نوسع عدد القـــادة الـــذين يلمـــون بالخطة ومناقشة كافة المشكلات والاحتمالات للقيام بحرب هجومية، وحذر من أنه لو قامت مصر بشن الحرب تحت هذه الظروف فإن ذلك قد يقود إلى كارثة وكان هذا التقرير قد رفع إلى رئيس الجمهورية وأرسلت صورة منه إلى القيادة العامة للقوات المسلحة، وأيد رئيس الجمهوريـــة هـــذا التقرير في مؤتمره الذي عقد في القناطر الخيرية [١] يوم ٦ من يونيو ١٩٧٢. وعندما كنت أناقش الموقف العسكري مع الفريق احمد إسماعيل بصفته الجديدة كوزير للحربية ذكرته بتقريره السابق وقلت له: "لم تحدث اختلافات كبيرة في القوات المسلحة منذ تقريرك، وبالذات فيما يتعلق بالدفاع الجوي، ولكنني أعتقد أنه بإمكاننا أن نقوم بعملية هجومية محدودة"، ثم عرضـــت عليـــه الخطـــة "جرانيت ٢" وخطة "المآذن العالية"، وقد اقتنع بعدم قدرتنا على تنفيذ الخطة "جرانيـــت ٢" وانـــه يجب علينا أن نركز على خطة "المآذن العالية " وتحدد ربيع ١٩٧٣ كميعاد محتمل للهجوم.

المنتظرة وفي أثناء هذه المناقشات برز سؤال مهم "متى وكيف سيقوم العدو بهجومه المضاد؟". في جميع المشاريع الاستراتيجية السابقة كنا نفترض أن العدو سيقوم بهجومه المضاد التعبوي بواسطة لواءاته المدرعة والميكانيكية ضد رؤوس الكباري بعد فترة تتراوح ما بين ٣٦ و ٤٨ ساعة مـــن بدء الهجوم. لقد كنا طبعاً نتوقع بعض الهجمات المضادة الصغيرة بقوة تتراوح ما بـــين فصـــيلة وكتيبة دبابات خلال الساعتين الأوليين من الهجوم، ولكننا لم نكن نهتم كثيرا بمثل هذه الهجمـــات المضادة، حيث أن قواتنا كانت قادرة على صدها بسهولة. ولكن عند مناقشة تفصـــيلات الخطـــة قدرت هيئة العمليات أن الهجوم المضاد للعدو ينتظر وقوعه بعد ٢٤ ساعة فقط من بدء الهجـــوم، لقد بني تقديرهم على أساس انه على الرغم من جميع ما نقوم به من إجراءات خداعية فأن العدو

سيكتشف حتما استعداداتنا قبل بدء الهجوم بثلاثة أيام، وبالتالي يكون لديه الوقت اللازم لتعبئة قواته وحشدها في أماكن قريبة من القنال تسمح له بتوجيه ضربته بعد ٢٤ ساعة فقط من بدء الهجوم. أما إدارة المخابرات الحربية، فقد كانت أكثر حذراً ولم تعترف بان خطتنا الخداعية قادرة على خداع العدو، سوف يكشف نوايانا الهجومية بمجرد بدء العد التنازلي ١٥ يوما قبل المعركة، وان هذا الوقت الكافي سيسمح له بتعبئة قواته في سهولة ويسر، وانه سيتمكن من حشد ١٨ لواء في سيناء قبل أن نبدأ هجومنا. وبالتالي فأن مدير المخابرات الحربية أشار في تقريره إلى انه يتوقع أن يقوم العدو بتوجيه هجومه المضاد العام في خلال ٦-٨ ساعات من بدء هجوم قواتنا.

لقد كان واضحاً أن مدير المخابرات الحربية يبالغ في قدرات العدو حتى يؤمن نفسه فيما لو استطاع العدو أن يقوم بهذا الاحتمال البعيد، أما إذا لم يستطع العدو تنفيذ هجومه المضاد في خلال ثماني ساعات فلن يتوجه أحد باللوم لمدير المخابرات. لم اكن مقتنعاً برأي مدير المخابرات، ومع ذلك فلم يكن من الممكن إهمال هذا الرأي، وكان علينا أن ندخله في حسابنا على الرغم من المشكلات الكبيرة التي خلقها لنا. لقد كانت خطتنا في العبور تتلخص في عبور أفراد المشاة المترجلين في قوارب مطاطية حاملين معهم أسلحتهم الخفيفة التي يستطيعون حملها أو جرها على الشاطئ البعيد، وكنا ننتظر أن تبدأ المعديات في العمل ما بين سعت س+ ٥ وسعت س+٧، أما الكباري فكنا نعتقد أنها ستكون جاهزة ما بين سعت س+٧ وسعت س+ ٩ [٢]، وبحسابنا لقدرة جميع المعديات والكباري المنصوبة، فإن الدبابات والأسلحة الثقيلة الضرورية ستحتاج إلى حوالي ٣ ساعات على الأقل للعبور والانضمام إلى المشاة أي أن قواتنا العابرة لن تكتمل إمكاناتها الدفاعية لكي تصبح قادرة على صد هجوم العدو المضاد الرئيسي قبل سعت س+١٢ ساعة وفي احسن الظروف سعت س+١٠ ساعة، فإذا قام العدو بهجومه المنتظر ما بين س+٦ وسعت س+٨ ، كما جاء في تقرير مدير المخابرات الحربية، فمعنى ذلك انه يسبقنا بحوالي ٤ ساعات، وتكون لديه فرصة جيدة لتدمير مشاتنا قبل أن تصل إليها دباباتنا وأسلحتنا الثقيلة لزيادة إمكاناتها الدفاعية، ولمواجهة هذا الاحتمال اتخذنا الإجراءات التالية [٣]:

ا- قمنا بزيادة عدد الصواريخ المضادة للدبابات التي يحملها المشاة معهم أثناء العبور، وقد تم ذلك على حساب التشكيلات غير المشتركة اشتراكا مباشراً في عملية العبور. وهكذا جردت تشكيلاتنا التي كانت في احتياطات الجيوش الميدانية كما جرد احتياطنا الاستراتيجي من جميع الصواريخ المضادة للدبابات مالوتكا Malotka بأطقمها، وذلك حتى يمكن أن ندعم بها قواتنا المشاة المكلفة

بالعبور. لقد كانت مغامرة ولكنها كانت محسوبة على أساس أن هذه الأسلحة سوف تسحب هي وأطقمها وتعاد إلى تشكيلاتها الأصلية بعد أن تصل الدبابات والأسلحة الثقيلة إلى المشاة [٤].

٢- قررنا زيادة عدد القوات المكلفة بالعمل في عمق العدو، وذلك بهدف تأخير وصول قواته الاحتياطية المكلفة بالقيام بالهجوم المضاد، إلى أطول أجل ممكن.

٣- فرضنا على وحدات المشاة المترجلين الذين يعبرون القناة ألا يتجاوز تقدمهم ٥ كيلو مترات شرق القناة، مع ضرورة استناد أجنابها على القناة حتى تؤمن نفسها ضد التطويق ثم تتقوقع مشاتنا داخل رؤوس الكباري هذه إلى أن تصل إليها الدبابات والأسلحة الثقيلة. وقد كان لفرض هذه القيود فوائد متعددة، حيث، أن صغر حجم رأس الكوبري إلى هذا الحد كان يعني تقصير الخط الدفاعي، وبالتالي زيادة نسبة تركيز أعداد أسلحتنا المضادة للدبابات لكل كيلومتر من خط المواجهة.. كما أن توقف المشاة عند هذا الخط كان يعطى لنا الفرصة لأن نشرك معها قواتنا المتمركزة غرب القناة في معركة صد هجوم العدو المضاد، وذلك بواسطة مدفعيتنا الميدانية ودباباتنا وصواريخنا المضادة للدبابات الخ. كذلك فأن توقف المشاة عند هذا الخط يجعلها تتمتع بالعمل تحت مظلة دفاعنا الجوي التي تكون ما تزال على بعد حوالي ١٠ كيلومترات غرب القناة لتبقى خارج مرمى مدفعية العدو الميدانية.

هوامش الفصل الثالث:

(١) الفصل الثامن عشر.

(٢) سعت س= ساعة بدء الهجوم والتي يتم التخطيط كله على أساسها، فإذا قلنا س+ ٥ ساعة فإن ذلك يعنى ٥ ساعات بعد بدء الهجوم، وإذا قلنا س -١٠ دقيقة فأن ذلك يعني ١٠ دقائق قبل بدء الهجوم.

(٣) لم يقم العدو بهجومه المضاد العام إلا صباح يوم ٨ من أكتوبر، أي بعد ٤٢ ساعة من بدء الهجوم.

(٤) أ ثناء إدارة المعركة الفعلية تأخر سحب هذه الوحدات الفرعية من تشكيلات شرق القناة، وذلك لمغالاة بعض القادة في الموقف، والتراخي في إعادة هذه الوحدات الفرعية إلى تشكيلاتها، وقد اثر ذلك تأثيرا كبيرا على قدرة تشكيلاتنا غرب القناة في صد هجمات العدو عندما تمكن من فتح الثغرة في منطقة الدفرسوار.

الفصل الرابع

الخطة بــدر

كانت الخطوط العريضة لخطتنا الهجومية بعد أن أخذت صورتها النهائية وبعد أن تغير اسمها من "المآذن العالية"، إلى "بدر" [1] تتلخص فيما يلي:

١- تقوم خمس فرق مشاة بعد تدعيم كل منها بلواء مدرع وعدد إضافي من الصواريخ مالوتكا المضادة للدبابات - والتي تسحب من التشكيلات الأخرى غير المشتركة في عملية العبور- باقتحام قناة السويس من خمس نقاط.

٢- تقوم هذه الفرق بتدمير خط بارليف ثم تقوم بصد الهجوم المضاد المتوقع من العدو.

٣- ما بين سعت س+١٨ ساعة وسعت س+٢٤ ساعة تكون كل فرقة مشاة قد عمقت ووسعت رأس الكوبري الخاص بها لتصبح قاعد ته حوالي ١٦ كم وعمقه حوالي ٨ كم.

٤- بحلول سعت س+٤٨ ساعة تكون فرق المشاة داخل كل جيش ميداني قد سدت الثغرات الموجودة بينها واندمجت مع بعضها في رأس كوبري واحد لكل جيش. وبحلول سعت س+٧٢ ساعة يكون كل من الجيشين الثاني والثالث قد وسع رأس الكوبري الخاص به بحيث يندمج الاثنان في رأس كوبري واحد يمتد شرق القناة على مسافة تتراوح ما بين١٠-١٥ كم.

٥- بعد الوصول إلى هذا الخط تقوم الوحدات بالحفر واتخاذ أوضاع الدفاع.

٦- يتم استخدام وحدات الإبرار الجوي والبحري على نطاق واسع لعرقلة تقدم احتياطات العدو من العمق وشل مراكز قيادته.

إن قرارنا بخصوص عبور قناة السويس على مواجهة واسعة هو عقيدة ثابتة استقرت في تفكيرنا العسكري في مصر منذ عام ١٩٦٨، وقد تولدت هذه العقيدة لدينا للأسباب الآتية:

١-إذا نحن قمنا بتركيز هجومنا على مواجهة صغيرة- كما هو الحال في جميع عمليات العبور السابقة عبر التاريخ- فأن ذلك سوف يعرض قواتنا لضربات جوية شديدة.

سواء أثناء مرحلة تجمعها في اتجاه الاختراق أم أثناء عمليه عبورها الفعلي.

٢- إذا ما استخدمنا فرق المشاة التي تقوم بالدفاع غرب القناة في القيام بالهجوم، بحيث تقوم كـل فرقة مشاة من مواقعها الدفاعية بعبور القناة من القطاعات التي في مواجهتها، فأن ذلك سوف يقدم لنا المزايا التالية:

أ- سوف تبقى القوات المكلفة بالهجوم في خنادقها التي تضمن لها الاختفاء والوقاية لأطول مـدة ممكنة قبل أن تغادر هذه المواقع وهي في طريقها للهجوم.

ب- سوف نستفيد من التجهيز الهندسي الموجود في منطقة كل فرقة لأغراض الدفاع للاستعانة به ضمن متطلبات التجهيز الهندسي الذي يستلزمه الهجوم، وبالتالي نوفر الكثير من أعمال التجهيـز الهندسي.

ج-إن ذلك سيجعل أوضاع قواتنا في الهجوم تكاد تتطابق مع أوضاعها في الـدفاع، وبالتـالي لا تكون هناك حاجة لإجراء تحركات كبيرة بين قواتنا قبل الهجوم، مما قد يلفت نظر العدو فتضـيع منا فرصة المفاجأة.

٣- إذا اختار العدو أن يقوم بتوزيع هجماته المضادة على طول المواجهة فإنه سوف يضطر إلى توزيع مجهوداته وسوف تكون لدينا فرص ممتازة لصد هجماته الأرضية والجوية بواسطة دباباتنا وصواريخنا المضادة للدبابات وصواريخنا المضادة للطائرات المنتشرة على طول الجبهة. ولو أن العدو لجأ إلى هذا الأسلوب فأن فرصته في نجاح هجماته المضادة تكاد تكون معدومة [٢]. أما إذا قام بتركيز هجومه المضاد على قطاع واحد أو اثنين من قطاعات الاختراق، فأنه قد تكون لديـه فرصة أفضل في تدمير رأس كوبري لفرقة أو اثنين -بعد تحمله خسائر جسـيمة- ولكـن ذلـك سوف يتركنا شرق القناة برؤوس كباري سليمة لعدد ثلاث فرق على الأقل ، ومن خـلال هـذه الفرق يكون في إمكاننا استعادة الموقف في القطاعين اللذين يكون العدو قد نجح في تدميرهما.

في خلال شهر أبريل ٧٣ اخبرني وزير الحربية بأنه يرغب في تطوير هجومنا في الخطة لكـي يشمل الاستيلاء على المضائق، فأعدت له ذكر المشكلات المتعلقة بهذا الموضوع، وانه لم يطرأ أي تغيير على الموقف منذ أن ناقشنا هذه المشكلات معا في نوفمبر ٧٢. وبعـد نقـاش طويـل أخبرني بأنه إذا علم السوريون بان خطتنا هي احتلال ١٠-١٥ كم شرق القناة فإنهم لن يوافقـوا على دخول الحرب معنا، فأخبرته بأنه بإمكاننا أن نقوم بهذه المرحلة وحدنا وأن

نجاحنا سوف يشجع السوريين على الانضمام إلينا في المراحل التالية، ولكنه قال:إن هذا الـرأي مرفوض سياسياً، وبعد نقاش طويل طلب إلي تجهيز خطة أخرى تشمل تطوير الهجوم بعد العبور إلى المضائق، وأخبرني بأن هذه الخطة سوف تعرض على السوريين لإقناعهم بدخول الحـرب.

ولكنها لن تنفذ إلا في ظل ظروف مناسبة ، ثم أضاف قائلا: "فلنتصور مـثلا أن العـدو تحمـل خسائر جسيمة في قواته الجوية – وهو عنصر التهديد الأساسي– وأنه قرر سـحب قواتـه مـن سيناء، فهل سنتوقف نحن على مسافة ١٠–١٥ كم شرق القناة لأنه ليس لدينا خطة لمواجهة مثـل هذا الموقف؟".

لقد كنت اشعر بالاشمئزاز من هذا الأسلوب الذي يتعامل به السياسيون المصريون مـع إخواننـا السوريين، ولكني لم أكن لأستطيع أن أبوح بذلك للسوريين، وقد ترددت كثيرا وأنا اكتب مذكراتي هذه، هل أحكي هذه القصة أم لا، وبعد صراع عنيف بيني وبين نفسي قررت أن أقولها كلمة حق لوجه الله والوطن. إن الشعوب تتعلم من أخطائها، ومن حق الأجيال العربية القادمـة أن تعـرف الحقائق مهما كانت هذه الحقائق مخجلة.

قمنا بتجهيز الخطة الجديدة التي لم تكن إلا الخطة "جرانيت ٢" بعد إجـراء بعـض التعـديلات الطفيفة، وبعد أن تم وضع هذه الخطة دمجت مع "الخطة بدر" –التي هي خطة العبور– في خطة واحدة أصبحنا نطلق على خطة العبور لفظ "المرحلة الأولى"، وخطة التطـوير لفـظ "المرحلـة الثانية"، ولكي نعمق الفاصل بين المرحلتين فقد كنا عندما ننتقل من شرح المرحلة الأولـى إلـى المرحلة الثانية، نقول. "وبعد وقفة تعبوية نقوم بتطوير كذا كذا – ". إن التعبير العسكري "وقفـة تعبوية" يعني التوقف إلى أن تتغير الظروف التي أدت إلى هذا التوقف، وقد تكون الوقفة التعبوية عدة أسابيع، وقد تكون عدة شهور أو اكثر، كنا نشرح ونناقش خطة العبور بالتفصيل الدقيق ثـم نمر مرورا سريعاً على المرحلة الثانية. لم أتوقع قط أن يطلب إلينا تنفيذ هذه المرحلـة، وكـان يشاركني هذا الشعور قادة الجيوش ويتظاهر بذلك على الأقل وزير الحربية.

في خلال شهر سبتمبر ٧٣ قال لي أحمد إسماعيل: " إننا سوف نقوم بالحرب، فإذا سارت الأمور على ما يرام، فإن أحدا لن يهتم بتوجيه كلمة شكر لنا، أما إذا تطورت الأمور إلى موقـف سـيئ فإنهم سيبحثون عن شخص يلقون عليه التبعة". لقد كان أحمد إسماعيل منزعجا، وكـان يخشـى وقوع الهزيمة ويريد أن يؤمن نفسه ضد هذا الاحتمال، لقد طرد من قبل الرئيس عبـد الناصـر مرتين: المرة الأولى عقب حرب ١٩٦٧، حيث كان يشغل منصب رئيس أركان جبهـة سـيناء، والمرة الثانية في سبتمبر ١٩٦٩،حيث كان يشغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة وقد أثرت هاتان الحادثتان على نفسيته تأثيرا كبيراً. لقد أصبح رجلا يخشى المسـئولية، ويفضـل أن يتلقى الأوامر ويخشى أن يصدرها، يفكر في احتمالات الهزيمة قبل أن يفكر في احتمالات النصر، قلت له: "أنا شخصيا لا يهمني أن أتلقى كلمة شكر أو لا أتلقى، إذ أن سعادتي في إرضاء نفسـي،

وإني لا أخشى كلمة لوم، لأني متيقن بأننا سننتصر بإذن الله". لم تطمئنه كثيرا كلماتي المتفائلـــة، وقال: "انه من الأفضل أن يصدر رئيس الجمهورية توجيهاً يحدد فيه واجب القوات المسلحة، حتى لا يكون هناك خلاف في المستقبل حول هذه الأمور، وانتهت مناقشاتنا على أساس انه سيطلب إلى الرئيس السادات إصدار هذا الأمر. وفي نهاية سبتمبر (قبل بـــدء العمليـــات بحـــوالي أســـبوع) استدعاني الوزير إلى مكتبه، وسلمني كتاباً لقراءته فأخذت في قراءته فإذا هـــو توجيـــه بتوقيـــع السادات، يحدد واجب القوات المسلحة في العمليات بشكل عام، ولكن هناك جملة واحـــدة لفتـــت نظري وهي "حسب إمكانات القوات المسلحة". كانت هذه الجملة من الناحية النظريـــة تعنـــي أن القيادة العامة للقوات المسلحة هي التي تملك القرار الأخير في تحديد ما هو ممكن وما هو غيـــر ممكن. لقد كان أحمد إسماعيل سعيدا بهذه الجملة، وإن كـــان تطور الأحداث فيما بعد قد اثبت أن الرئيس السادات كان اكثر ذكاء عندما كتب هذه الجملة، لأنها تعطيه حق التنصل النهائي مـــن أي قرار تقوم به القوات المسلحة وهي تعلم انه ليس في طاقتها. وبعد أن قرأت التوجيه قلت لأحمـــد إسماعيل ضاحكاً: "مبروك.. لقد حصلت على ما تريد"، وأعدت له الكتاب لأنه كان باسمه ولكـــن أحمد إسماعيل بطبيعته الحذرة أعاد الكتاب إلي مرة أخرى قائلاً: "أرجو أن توقع على هذا الكتاب بأخذ العلم "، فأخرجت قلمي دون تردد وكتبت عليه " علم وسننتصر بإذن الله"، ووقعت باســـمي وتاريخ التوقيع على الوثيقة، ثم أعدته إلى الوزير. هذه هي قصة التوجيه الاستراتيجي التي ذكرها الرئيس السادات في الصفحة رقم ٣٣١ من مذكراته، بأسلوب روائي يقول فيه: "كنت قبل ذلـــك في سبتمبر ١٩٧٣ قد أصدرت الأمر الاستراتيجي للقائد العام ووضعت فيـــه تصـــوري للهـــدف الإستراتيجي ، وقد كان هذا الأمر هو الأول من نوعه في تاريخ مصر الحديث". نعم لقـــد كـــان الأمر الأول من نوعه، ولكن لماذا؟ لأنه كانت هناك شكوك خفية- مهما حاول الطرفان إخفاءها- بين رئيس الدولة ووزير الحربية. وإن التناقض في أقوال الســـادات واضح في هذه النقطة كمـــا هو واضح في نقاط أخرى كثيرة، ففي كتابه في الصفحة رقم ٣٣١، يقول: انه حـــرر التوجيـــه الاستراتيجي في سبتمبر ووقع أمر القتال في ٢ من أكتوبر ، في حين أن الصور الزنكوغرافيـــة المنشورة في الكتاب نفسه- بعد استبعاد الأخطاء اللغوية- في صفحتي ٤٤٣ و ٤٤٤ تقـــول: إن تاريخ الوثيقتين هو أول أكتوبر و٥ من أكتوبر على التوالي، بماذا يفسر لنا السادات هنا التناقض الغريب في وثيقتين تاريخيتين يقول عنهما أنهما قمة العمل العسكري؟!

إني أعلن للملأ بان هاتين الوثيقتين مزورتان، ليس لأن الوثائق الرسمية عليها توقيعي الشخصي فحسب، بل لأن هذه الوثائق كتبت على أوراق يتناسب طولها وعرضها مع طول وعرض

صفحات الكتاب الذي نشرت به مذكرات السادات.

هوامش الفصل الرابع:

(١) لم يطلق اسم "بدر" على العملية الهجومية إلا خلال شهر سبتمبر ٧٣ بعد أن تحدد يوم الهجوم ليكون ٦ من أكتوبر الموافق ١٠ من رمضان ١٣٩٣ هجرية.
(٢) لقد استخدم العدو هذا الأسلوب، ولذلك فإنه لم ينجح في تدمير أي رأس كوبري لأية فرقة مشاة.

الفصل الخامس

إنشاء خطوط جديدة للقيادة والسيطرة

إن السيطرة على قوات مسلحة قوامها حوالي المليون ضابط وجندي هي عمل صعب للغاية، فعندما شغلت منصب (ر.ا.ح.ق.م.م) كان حجم القوات المسلحة حوالي ٨٠٠٠٠٠، وقبل اندلاع حرب أكتوبر ٧٣ كانت القوات المسلحة قد بلغت ١،٠٥٠،٠٠٠ (مليونا وخمسين ألفا) في الجيش العامل، يضاف إلى ذلك ١٥٠٠٠٠ كان قد تم تسريحهم وتنظيم استدعائهم خلال السنتين السابقتين للحرب، وبذلك وصل حجم القوات المسلحة إلى ١،٢٠٠،٠٠٠ (مليون ومائتي ألف ضابط وجندي)، كان حوالي ٥٨% منهم لا ينخرطون ضمن الوحدات الميدانية، ولاشك أن هذه النسبة تعتبر نسبة عالية إذا ما قورنت بالنسب السائدة في القوات المسلحة الأجنبية، ولكننا اضطررنا إلى هذا الموقف نتيجة للعاملين التاليين:
ا- إن تفوق العدو الجوي الساحق جعل بإمكانه توجيه جماعات منقولة جوا لتدمير وتخريب أهدافنا الحيوية المتناثرة في طول البلاد وعرضها، وإن البنية التحتية Infrastructure والأهداف

الحيوية في مصر، هي أهداف مثالية لجماعات التخريب المعادية، فهناك مئات الكباري فوق النيل والرياحات والترع، وهناك خطوط أنابيب المياه والبترول التي تمتد مئـــات الكيلـــومترات عبـــر الصحراء وكذلك خزانات المياه والنفط ومحطات الضخ والتقوية وتوليد الكهرباء، الخ.

٢- إن التوسع المستمر في حجم القوات المسلحة كان يفرض علينا زيادة طاقة المنشآت التعليمية حتى تستطيع أن تلبي مطالبنا المتزايدة في تدريب الكوادر المطلوبة لقواتنا المسلحة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بمزيد من تدعيم هذه المنشات بضباط الصف المعلمين والإداريين الذين يرفعـــون من طاقة هذه المنشات.

إن هيئة أركان الحرب العامة (هـــ .ا. ح. ع) هي جهاز مركب تركيبا غاية في التعقيد، إنها تضم حوالي ٥٠٠٠ ضابط و ٢٠،٠٠٠ من الرتب الأخرى، وعلى قمة هذا الجهـــاز يجلـــس (ر.ا.ح. ق.م. م) وتحت إمرته المباشرة ٤٠ ضابطا برتبة لواء، كل منهم على قمة فرع أو تخصـــص أو إدارة لمعاونة (ر.أ.ح.ق.م.م) في السيطرة على القوات ولتسهيل عملية السيطرة على تلك القوات ذات المليون جندي، فقد تم تجميعها تحت ١٤ قيادة هي (البحرية- الطيران- الـــدفاع الجـــوي- الجيش الثاني- الجيش الثالث- قوات المظلات- قوات الصاعقة- منطقة البحر الأحمر- المنطقة الشمالية- المنطقة الغربية- المنطقة المركزية- المنطقة الوسطى- المنطقة الجنوبية- قطاع بـــور سعيد). لقد تعودت في الماضي أن اخلق نوعا من الاتصال المباشر بيني وبـــين الرجـــال الـــذين أقودهم، لم اكن قط من ذلك الطراز من القادة الذين يستمعون إلى تقارير مرؤوسيهم المباشـــرين ويعتمدون عليها اعتمادا كلياً في اتخاذ قراراتهم. كنت استمع دائمـــاً إلـــى تقـــارير المرؤوســـين المباشرين ولكني كنت في الوقت نفسه اكمل وأتحقق من هذه التقارير عن طريق الاتصال المباشر مع المستويات الصغرى، فعندما كنت قائدا لكتيبة مظلات كنت أزور الضباط والجنود وأتحـــدث معهم يوميا. وعندما أصبحت قائد لواء مشاة كنت أزور الوحدات الصغرى في كل أسبوع مـــرة على الأقل، وعندما أصبحت قائدا للقوات الخاصة (التي كانت تضم قـــوات المظـــلات وقـــوات الصاعقة) كنت أزور كل وحدة فرعية بمعدل مرة كل أسبوع تقريبا، وعندما توليت قيادة منطقـــة البحر الأحمر العسكرية المترامية الأطراف، والتي كانت مواجهتها حوالي ١٠٠٠ كيلومتر كنـــت أزور جميع رجالي بمعدل مرة كل شهر تقريبا، وخلال هذه الزيارات المستمرة كنت أســـتطيع أن المس قدرات رجالي الحقيقية، وكنت أستطيع أن أعالج نقاط الضعف التي اكتشفها، وكنت أحقنهم بأفكاري وتعليماتي، وهاأنذا الآن (ر.أ.ح.ق.م.م)، فكيف يمكنني أن أحافظ علـــى هـــذا الربـــاط التاريخي الذي يربطني دائماً بجنودي؟ كان من الواضح أن زيارة جميع الوحدات التابعة لي- كما

اعتدت فيما سبق- ضرب من المحال. وفي الوقت نفسه إذا أنا اعتمدت على سلسلة القيادة التقليدية فإن التقارير التي ستعرض على لا يمكن أن تجعلني أحس بنبض الجنود وأفكارهم وقدراتهم، كذلك فإني لن أستطيع أن أضمن أن يستقبل الجنود تعليماتي بالحماس نفسه الذي أود أن أشعرهم به واستحثهم لتنفيذه. لقد كان بيني وبين كل جندي مقاتل سبع قيادات، فلو أن إحدى هذه القيادات السبع أهملت أو أخطأت في العمل كموصل جيد بين رؤسائها ومرءوسيها أو بين مرءوسيها ورؤسائها- وهذا احتمال لا يجب استبعاده- فأننا لن نضمن تنفيذ تعليماتنا بالأسلوب الذي نبتغيه، ولكي أتغلب على هذه المشكلة وبعد تفكير طويل قررت أن أدخل أسلوبا جديدا لكي اخلق اتصالا مباشراً بيني وبين الضباط والجنود يتناسب مع ظروف قواتنا المسلحة.

كانت الوسيلة الأولى هي عقد مؤتمر شهري تحت رئاستي، وكان يحضر هذا المؤتمر جميع مساعدي (أربعون ضابطا برتبة لواء) وجميع القادة الرئيسيين (١٤ قائدا)، ومع كل منهم القادة المرؤوسون له مباشرة وعلى سبيل المثال كان يحضر هذا المؤتمر قائد الجيش ومعه قادة الفرق التي تحت قيادته، وهكذا كان عدد الحاضرين في هذا المؤتمر يتراوح ما بين ٩٠ و ١٠٠ قائد ومدير. كان مؤتمرنا يمتد من الساعة التاسعة صباحاً حتى الرابعة أو الخامسة بعد الظهر ويتخلله غداء خفيف نتناوله معا في مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة. لقد كنت حريصا كل الحرص على عقد هذا المؤتمر الشهري مهما كانت الظروف، ومهما كانت مشاغلي نظرا لاقتناعي بضرورته وفائدته الكبيرة وقد كان أخر مؤتمر شهري عقدته قبل **بدء** حرب أكتوبر ٧٣ هو المؤتمر رقم ٢٦ الذي عقد بتاريخ ٢٢ من سبتمبر ٧٣، وكان ذلك قبل بدء الحرب بأسبوعين فقط، وهناك تسجيل كامل لكل من هذه المؤتمرات يشمل جميع المواضع التي نوقشت والقرارات التي اتخذت.

لقد كنت أعرف من خبرتي السابقة كضابط ميداني أنه توجد دائماً أزمة ثقة بين الضباط الميدانيين وضباط أركان الحرب في القيادات العليا؛ فالضباط الميدانيون كانوا دائماً ينعتون ضباط أركان الحرب بالبيروقراطية وعدم الواقعية وانهم دائماً يريدون أن يفرضوا سلطاتهم على الضباط الميدانيين بواسطة تعليمات سخيفة وغير قابلة للتنفيذ أما ضباط أركان الحرب فإنهم يتهمون الضباط الميدانيين بالإسراف الشديد والتبذير وعدم مراعاة التعليمات الفنية والإدارية في استخدام المعدات مما يؤثر على كفاءتها وصلاحيتها، وان الضابط الميداني عندما يتلف سلاحه أو معداته فإنه يرمى بها إلى الخلف ويطالب بسرعة إصلاحها أو صرف أخرى جديدة بدلا منها، وان إمكانات الدولة لا تسمح لضباط أركان الحرب بتلبية مثل هذا الإسراف والتبذير الذي يمارسه

الضباط الميدانيون. كان واجبي- وأنا على قمة الجهازين- أن اخلق جوا من الثقة بين المجموعتين حتى يتم التعاون بين الجميع بما فيه صالح القوات المسلحة. لقد كان هذا المؤتمر يتم بأسلوب ديمقراطي سليم، كان أي قائد أو مدير يعرض مشكلته ويناقش جميع جوانبها ثم أدعو الجانب الآخر إلى الرد على وجهة نظره، ويشترك الحاضرون في إبداء الرأي ثم نتخذ القرار في النهاية بعد أن يكون الموضوع قد أشبع بحثا. ونتيجة لهذه اللقاءات اكتشف كل من الجانبين أنه كان يغالي في عيوب الجانب الآخر، فأخذ القادة الميدانيون يدركون أهمية القيود المفروضة عليهم، كما أن ضباط أركان الحرب

والمديرين أصبحوا أكثر إلماما وتجاوبا مع مطالب القادة الميدانيين، وفضلا عن هذا وذاك، فإن هذه اللقاءات وتناول الغداء معا وتجاذب الحديث في فترات الراحة بعيدا عن الرسميات خلق جوا من الصداقة بين الطرفين، مما كان له الأثر الأكبر في إذابة الثلوج التي كانت تفصل بين الطرفين. كانت هذه اللقاءات فرصة لحل معظم المشكلات التي تعرض علينا، أما المشكلات المعقدة التي كانت تحتاج إلى دراسة مطولة فكنت أشكل لجنة مشتركة من الطرفين تقوم بدراستها وتعرض علينا ما توصلت إليه في مؤتمرنا التالي.

وعن طريق هذه المؤتمرات الشهرية أمكنني أن اخلق اتصالا مباشرا بيني وبين مستويين من القيادة، ولكن هذا يعنى انه مازالت هناك خمسة مستويات في القيادة تفصل بيني وبين الجندي المقاتل، ولخلق هذا الاتصال قررت أن أصدر توجيهات مكتوبة تصل إلى مستوى قائد السرية [١]، وعن طريق هذه التوجيهات أصبح باستطاعتي أن أسمع صوتي إلى ثلاثة مستويات قيادية أخرى.

لم تكن هذه التوجيهات تصدر بطريقة دورية أو بأسلوب تقليدي، أو يكتبها شخص متخصص ثم يوقع عليها (ر.أ.ح.ق.م.م) لإعطائها الصورة الرسمية. لقد كنت أكتبها بنفسي و أصدرها طبقا للظروف والأحداث، كما أن كل توجيه أصدرته كانت وراءه قصة أو حادث أو أخطاء ارتكبت بواسطة بعضهم، ولا أريد لها أن تتكرر من قبل الآخرين، لا بمجرد القول بان هذا خطأ بل بتحليل أسباب الخطأ وتعليم الآخرين كيف يتصرفون في مثل هذه الظروف. وعن طريق هذه التوجيهات وضعت أفكاري وبصماتي في عقول رجال القوات المسلحة، ليس بالكلام المنمق الإنشائي، ولكن بواسطة الكلمات العلمية الرزينة التي تصدر من ضابط مجرب إلى أشبال يتمنى أن يكونوا أفضل منه في حمل راية الحرب والحرية. وكنت عندما أزور مختلف القوات أسأل الضباط والجنود عما ورد في توجيهاتي، وشيئا فشيئا وجدت أن الضباط الأصاغر والجنود قد

ارتبطوا بي فكريا عن طريق هذه التوجيهات، وأنهم كانوا ينفذونها بدقة وحماس.
لقد كان يوم ٨ من أكتوبر ٧٣ من أسعد أيام حياتي، وذلك عندما كنت أزور وحداتنا في شرق القناة، وكان الضباط والجنود يهتفون ويصيحون كلما رأوني بينهم "عاش التوجيه رقم ٤١ "، "لقد اتبعنا تعليماتك في التوجيه رقم ٤١ بالحرف الواحد"، الخ [٢]. وفي خلال الفترة ما بين يوليو ٧١ وسبتمبر ١٩٧٣ كنت قد أصدرت ٤٨ توجيها، وفي خلال الحرب أصدرت توجيهات أخرى كان أولها هو التوجيه رقم ٤٩، وكان عنوانه "خبرة الحرب في قتال المدرعات "، وقد صدر يوم ١٥ من أكتوبر بعد معركة الدبابات التي وقعت في اليوم السابق وخسرنا فيها ٢٥٠ دبابة، وقد كان أخر توجيه أصدرته قبل أن يعزلني السادات [٣] من منصبي هو التوجيه رقم ٥٣ الصادر بتاريخ ٣٠ من نوفمبر ٧٣. لقد كانت هذه التوجيهات ذات فائدة كبيرة في تثقيف وتعليم القادة الأصاغر والجنود، لأن الكثير منها كان يعالج التكتيكات الصغرى التي كانت تعتبر من نقاط الضعف الرئيسية في قواتنا المسلحة.
كما سبق أن قلت كانت توجيهاتي تصل إلى مستوى قائد السرية، وبذلك استطعت أن أخلق ارتباطا مباشراً بيني وبين خمسة مستويات قيادية، ولكن كيف يمكنني أن أصل إلى الجندي وضابط الصف وقائد الفصيلة؟ في القوات المسلحة يعتبر قائد السرية هو المعلم الأول للسرية، ولكن في قواتنا - ذات المليون رجل- كان لدينا اكثر من عشرة آلاف قائد سرية أو ما يعادله، ولا يمكن أن نضمن-مع التوسع الكبير والسريع في القوات المسلحة- أن جميع الأفراد في هذا العدد الضخم هم من القادة والمعلمين الأكفاء. إن أي ضعف أو تقصير من قائد السرية ينعكس مباشرة على الجنود، وهذه حقيقة نلمسها دائما في القوات المسلحة، فإذا كان القائد جيدا فأن الوحدة تكون دائماً جيدة وإذا كان سيئا فإن الوحدة تكون دائماً سيئة. ولمساعدة قائد السرية في مهمته قررت أن أصدر كتيبات صغيرة توزع على كل جندي تعالج بعض الأمور التي تخص الجندي بصفة مباشرة، وفي خلال عملي (ر.أ.ح.ق.م.م) أصدرت ٨ كتيبات: ستة منها قبل الحرب والاثنان الآخران أصدرتهما بعد وقف إطلاق النار، وكانت الكتيبات الستة الأولى هي: دليل الجندي- دليل السائق- دليل نقاط المراقبة الجوية -التقاليد العسكرية- دليل التائهين في الصحراء- عقيدتنا الدينية طريقنا للنصر. أما الكتيبان الآخران اللذان صدرا بعد وقف إطلاق النار، فكان الأول هو "دليل القادة الأصاغر لضباط المشاة والمشاة الميكانيكية" وصدر بتاريخ ٥ من ديسمبر ٧٣، وكان الثاني هو "دليل القادة الأصاغر في وحدات المدرعات"، وقد قمت بمراجعته للمرة الثالثة والأخيرة ودفعته للطباعة يوم ١١ من ديسمبر ٧٣.

لقد كانت هذه الكتيبات في حجم صغير يسمح بوضع الكتيب في الجيب حتى يستطيع الجنـــدي أن يقرأه في الوقت الذي يحلو له، وقد قمنا بطبع مليون ومائتي ألف نسخة من كتيب "عقيدتنا الدينية طريقنا للنصر"، وكانت تعليماتي تنص على أن يحمله الجندي معه وهو في المعركة. وكان يوزع على كل فرد من أفراد الاحتياط عندما يذهب إلى مراكز التعبئة ، وقد حدث أن استولت إسرائيل على بعض نسخ هذا الكتيب الذي كان مع من وقعوا أسرى من رجالنا أثناء الحرب،فحاولـــت أن تسئ تفسير بعض فقراته وتدعي أنني أصدرت تعليماتي إلى الجنود بقتل الإسرائيليين إذا وقعـــوا أسرى في أيدينا، وقاموا بحملة كبيرة ضدي، ثم قاموا بوضع ترجمة ممسوخة لبعض صفحات هذا الكتيب مما يجعل المعاني تختلط على القارئ، ولم يتحرك النظام المصري للرد على هذه الـــتهم، وكأن الأمر لا يعنيه، إلى أن عينت سفيرا لمصر في لندن فقمت بصفتي الشخصية بتكذيب هـــذه الادعاءات الباطلة لأنها تتعارض مع ديننا وتقاليدنا العربية. لقد لعبت هذه الكتيبات دورا مهماً في تثقيف الجنود والضباط الأصاغر وتوجيههم، ولكن مما لاشك فيه أن الكتيبين الأخيرين يعتبـــران ذوى قيمة كبيرة جداً؛ لقد بينت فيهما – على ضوء خبرة الحرب– كيف يمكـــن لقائـــد الفصـــيلة والسرية أن يتصرف في كثير من المشكلات التي تواجهه. لقد كان طبيعيا في قواتنـــا المســـلحة المصرية أن نمد ضابطا برتبة ملازم أو نقيب يتكلم بطلاقة وعلم غزير كيف يقاتل اللواء أو كيف تقاتل الكتيبة، ولكنه في الوقت نفسه لا يعرف كيف يقاتل بفصيلته أو سريته إذا كان يعمل مستقلا بعيدا عن التشكيلات المتراصة للواء أو الفرقة فكانت هذه الكتيبات والكثير من التوجيهات التـــي أصدرتها خير علاج لهذا الموقف الخطير.

هوامش الفصل الخامس:

(١) السرية هي وحدة فرعية يقودها ضابط برتبة نقيب ويتراوح عدد الجنود الذين يعملون تحـــت قيادته بين ٥٠ و١٠٠ ضابط صف وجندي حسب كل تخصص في القوات المسلحة.

(٢) التوجيه رقم ٤١ هو التوجيه الذي ينظم عملية عبور قناة السويس بواسطة فرقة مشاة.

(٣) تم عزلي من منصبي يوم ١٢ من ديسمبر ٧٣، وإن كان السادات يدعي انه عزلني يوم ١٩ من أكتوبر ١٩٧٣.

الفصل السادس

تشكيل وحدات جديدة

إن عملية بناء القوات المسلحة لم تتوقف قط منذ هزيمة يونيو ٦٧ حتى أكتوبر ٧٣، وعندما تسلمت منصب (ر.أ.ح. ق.م.م.) كانت القوات المسلحة تضم حوالي ٨٠٠٠٠٠ رجل (٣٦٠٠٠ ضابط و ٧٦٤٠٠٠ رتبة أخرى)، وفي أكتوبر ٧٣ كانت القوات المسلحة قد وصلت إلى ١،٢٠٠،٠٠٠ رجل (٦٦٠٠٠ ضابط و ١،١٣٤٠٠٠ رتبة أخرى).

إن تجنيد وتدريب ٤٠٠٠٠٠ رجل (٣٠٠٠٠ ضابط و ٣٧٠٠٠٠ من الرتب الأخرى) في فترة تزيد قليلا على السنتين يعتبر عملا صعبا وشاقا، فكيف استطاعت مصر أن تقوم بهذا العمل الكبير؟

لقد كانت مشكلة الضباط هي مشكلة المشكلات؛ فقد كانت وحداتنا تشكو من النقص في الضباط بنسبة تتراوح بين ٣٠% و ٤٠%، وكان إجمالي النقص العام في القوات المسلحة يصل إلى حوالي ١٥٠٠٠ ضابط فإذا أضفنا إلى هذا الرقم ما نحتاجه من ضباط للوحدات الجديدة التي سوف تنشأ خلال العامين التاليين، فقد قدرنا هذا الرقم بحوالي ١٥٠٠٠ ضابط أخر، ومعنى ذلك أنه يتحتم علينا لكي نستكمل مرتبات الوحدات من الضباط إعداد ٣٠٠٠٠ ضابط في خلال سنتين، وبحساب طاقة كلياتنا العسكرية المتخصصة في تدريب الضباط، اتضح لي أن أقصى طاقة تعمل بها هذه الكليات هو ٣٠٠٠ ضابط بكل عام، وهذا يعني أننا نحتاج لعشر سنوات على الأقل إذا أردنا أن تحل هذه المشكلة بالوسائل التقليدية [١]، ومن ناحية أخرى فإنه لا يجوز السكوت عن هذا الموقف، لأن العجز في كوادر الضباط يؤثر تأثيراً خطيرا على كفاءة القوات المسلحة. إن الضابط هو القائد والمعلم لجنوده، فمن الذي يعلم الجندي ومن الذي يقوده إذا لم يتوافر هذا الضابط؟ لكي أجد مخرجا لهذا الموقف قررت أن أنشئ كوادر جديدة من الضباط يطلق عليها "ضابط حرب"، هذا الضابط يتم انتقاؤه من بين الجنود المثقفين ويجري تدريبه تدريبا مركزا لمدة تتراوح ما بين ٤–٥ اشهر في تخصص واحد، بحيث يصبح على مستوى عال في تخصصه على أن تكون معلوماته العامة عن التخصصات الأخرى محدودة وبالقدر الذي يسمح له بالتعاون مع تلك التخصصات [٢]. إن تدريب هذا الضابط يهدف إلى تأهيله لتولي وحدة صغرى وأن يبقى بها إلى أن تنتهي الحرب فيتم تسريحه. وعند البحث عن المثقفين من بين الجنود اتضح لي وجود ٢٥٠٠٠ جندي أو ضابط صف حائز على درجة جامعية، فكان من البديهي أن يكون هؤلاء

الجنود هم القاعدة التي يمكن أن ننتقي منها هؤلاء المرشحين للتأهيل لرتبة ضابط، وكنت متحمسا لهذا المشروع لأنه لم يكن يحل لنا مشكلة الضباط فحسب بل لأنه كان سوف يساعدنا على حل إحدى مشكلات الضبط والربط؛ فقد كان هؤلاء الجنود المثقفون دائمي الشجار مع قادتهم من الضباط الأصاغر الذين كانوا في كثير من الأحيان أقل منهم سنا وثقافة عامة، وكانت المشكلات تزداد بين الطرفين إذا تصادف وجود سابق معرفة بين الضابط والجندي قبل الانخراط في الجندية سواء عن طريق المدرسة أم عن طريق الانتماء إلى قرية واحدة أم حي واحد.

كان في اعتقادي أن الجنود المثقفين سيرحبون بهذه الخطوة ه ولكني فوجئت بعدم تحمسهم لهذا المشروع، فقد كانت الغالبية منهم تفضل البقاء بدرجة جندي أو ضابط صف. كانوا يتصورون إن ترقيتهم لرتبة ضابط قد تربطهم بالقوات المسلحة فلا يسرحون من الخدمة عندما يحين اجل تسريح دورتهم، وقد قمت بإجراء عدة لقاءات معهم لكي اشرح لهم الموقف والدوافع لهذا المشروع ووعدتهم بان تسريح الضابط منهم لن يتأخر يومً واحداً عن ميعاد تسريح الجندي من د فعته، وبعد الكثير من التوعية اقبل الكثيرون منهم على التطوع وأمكن تأهيل وترقية ١٥٠٠٠ رجل منهم إلى رتبة الملازم، كما قمنا بتأهيل ١٠٠٠٠ آخرين من بين خريجي الجامعات الذين جندوا في عامي ٧١ و ٧٢، وبذلك كان لدينا قبل يونيو ٧٣ "٢٥٠٠٠ ضابط حرب"، أضف إلى ذلك ٥٠٠٠ ضابط عادي تم تدريبهم وتأهيلهم في الكليات العسكرية، فاصبح إجمالي من تم تأهيلهم وتدريبهم خلال سنتين هو ٣٠٠٠٠ ضابط، وقبل بدء العمليات في أكتوبر ٧٣ لم تكن القوات المسلحة استكملت كوادرها من الضباط فحسب، بل كان لدينا فائض يقدر بحوالي ١-٢% في كل تخصص لمقابلة الخسائر المحتملة في أثناء القتال.

إن تجنيد الجندي وتأهيله هي عملية أقل صعوبة من مشكلة انتقاء وتأهيل الضباط، ولكنها مع ذلك لم تكن عملية بسيطة. لقد جندنا ما بين يونيو ٧١ و يونيو ٧٣ حوالي ٤٠٠٠٠٠ شاب حتى يمكننا أن نستكمل وحداتنا التي كانت قائمه فعلا، ولكي نواجه المتطلبات المتعلقة بإنشاء وحدات جديدة. إن مصر ذات الـ ٣٥ مليون كانت من الناحية الواقعية عاجزة عن إمداد قواتها المسلحة سنويا بحوالي ١٦٠٠٠٠ شاب ذوي مستوى ثقافي وصحي يتناسب مع متطلبات القوات المسلحة. لقد كان عدد الشبان الذين يصلون إلى سن التجنيد سنويا هو حوالي ٣٥٠٠٠٠٠ (ثلاثمائة وخمسون ألفا) ونظرا لانخفاض المستويين الثقافي والصحي بين المجندين لم نكن نستطيع أن نحصل من بينهم على أكثر من ١٢٠،٠٠٠٠ شاب ممن ينطبق عليهم الحد الأدنى من المستويات الثقافية والصحية، وهكذا كانت احتياجاتنا الفعلية تفوق مواردنا بحوالي ٤٠،٠٠٠ رجل سنوياً،

وأمام هذا الموقف وجدت نفسي مضطرا إلى قبول مستويات اقل ثقافياً وصحياً رغم المعارضة الشديدة التي أثارها رجال الخدمات الطبية حول خفض مستوى اللياقة الطبية، كذلك حاولت أن أفتــح مجال التطوع أمام المرأة للانضمام إلى القوات المسلحة، ولكن نظرا لأن مثل هذا القرار يعتبر من الأمور الاجتماعية التي تهم كل أسرة، فقد طرحت هذا الموضوع للمناقشة في أحد اجتماعاتي الشهرية فأثار اهتمام الجميع، وكانت الغالبية العظمى ضد أي اتجاه للتوسع في فتح الباب أمام المرأة للانضمام إلى القوات المسلحة، وأخيراً استقر الرأي على أن نفتح باب التطوع أمام المرأة لكي تشغل وظائف السكرتارية على أن تقتصر على العمل في القواعد الخلفية وألا ترسل إلى المناطق الأمامية أو المناطق النائية، وهكذا فتحنا باب التطوع للنساء في القوات المسلحة للقيام بأعمال السكرتارية، واستقبلنا الفوج الأول منهن خلال عام ٧٣ وتخرجت الدفعة الأولى في نوفمبر ١٩٧٣.

وبإضافة ٣٠،٠٠٠ ضابط و ٣٧٠،٠٠٠ رتبة أخرى إلى القوات المسلحة كان في استطاعتنا أن ننشئ مئات الوحدات خلال العامين ما قبل أكتوبر ٧٣. وأنني لن أقوم بحصــر هــذه الوحــدات وتعدادها نظرا لكثرتها، ولكنني سأذكر فقط بعضا من هذه الوحدات التي ارتبط تشــكيلها بخطــة العبور ارتباطا وثيقا، كاللواء البرمائي AMPHIBIOUS BRIGADE. لقد بدأنا نفكر في إنشــاء هــذا اللواء في أواخر عام ١٩٧١، واتخذ قرار إنشائه في يناير ١٩٧٢. وكان الغرض من إنشاء هــذا اللواء هو دفعه في عمق العدو عبر البحيرات أو البحر بمهمة شل مراكز قيادة العدو وتعطيل تقدم احتياطياته من العمق. لقد كنا نعلم أن المعديات التي ستقوم بنقل دباباتنا إلى الشاطئ الآخــر لــن تكون جاهزة للعمل قبل سعت س+ ٥ ساعة في حين أن اللــواء البرمــائي يســتطيع أن يعبــر البحيرات في اقل من ساعة بأعداد كبيرة من الدبابات والعربات، مما يشكل تهديداً خطيرا لقيادات العدو وتحرك احتياطياته. لقد شكلنا هذا اللواء على غرار الوحدات الخاصة وزودناه بحوالي ٢٠ دبابة برمائية، و ٨٠ مركبة برمائية لنقل المشاة الميكانيكية MICV. وفــي ١٥ مــن يونيــو ٧٢ أصدرت التوجيه رقم ١٦ الذي ينظم عمل هذا اللواء، وكان هذا التوجيه ينظم الأسلوب الذي تعمل به الكتائب البرمائية عبر المسطحات المائية، وقد أتبعت هذا التوجيه ببيان عملي تم إجراؤه فــي ٢٨ من أغسطس ٧٢، وبحلول أكتوبر ٧٢ كان اللواء قد أتم تدريبه وقام بأول مشروع تــدريبي ليلي في ليلة ٢٣/٢٢ من أكتوبر ٧٢، وفي خلال عام ١٩٧٣ استمر اللواء في تدريباته بأســلوب أكثر عنفاً، وقد وصل مستواه إلى الحد الذي جعله يستطيع أن يبقى بمركباته في الماء لمدة تصل إلى ٦ ساعات متتالية، وفي ليلة ١٩/١٨ من يوليو ٧٣ قررت أن أختبر كفاءة هذا اللواء بمشروع

تدريبي يكون اكثر صعوبة من الواجب الذي سوف نكلفه به أثناء العمليات، وقد كان المشـــروع يشمل النقاط التالية:

ا- من مناطق تجمع قريبة من شاطئ البحر الأبيض تنزل كتائب اللواء إلى الماء ليلا ثـــم تســـبح لمسافة ٣٠ كم ثم تخرج إلى الشاطئ عند نقاط محددة وفي توقيتات محددة.

٢- تتقدم بعد ذلك في العمق، حيث تقوم بتدمير مواقع العدو كما تقوم بصد وعرقلـــة احتياطـــات العدو المتقدمة من العمق.

لقد كانت المهمة التدريبية لاختبار اللواء أكثر صعوبة من واجب العمليات، حيث كـــان واجـــب العمليات يتضمن عبور اللواء مسطحاً مائيا يتراوح ما بين ٥-١٠ كم، بينمـــا كـــان المشـــروع التكتيكي يتطلب منه عبور ٣٠ كم، ولكني كنت دائماً ومازلت أؤمن بضرورة التدريب الشاق حتى لا يفاجأ الجنود بظروف لم يتهيأوا لمجابهتها، لقد بقيت مع عناصر اللواء طوال الليل، وقد نجحت إحدى الكتائب في تنفيذ مهمتها، بينما ضلت الكتيبة الأخرى اتجاهها واستطاعت بصعوبة أن تصل إلى الشاطئ في غير المكان المحدد لها بعد أن فقدت مركبتين وعشرة أفراد، وفي صباح اليـــوم التالي تمكنا من إنقاذ سبعة أفراد من العشرة المفقودين وثبت لدينا غرق الباقين وعلى الرغم مـــن خسائرنا في الأفراد والمركبات، فقد تعلمنا دروساً جديدة وكسب الضـــباط والجنـــود ثقـــة أكبـــر بدباباتهم ومركباتهم، وبعد أقل من ٨٠ يوما عوضنا الله عن تلك الأرواح الثلاث عوضا كريمـــا. لقد كان ثمن هذه الأرواح هو المجد والكبرياء لرجال اللواء البرمائي. الذي عبر البحيرات المـــرة يوم ٦ من أكتوبر ٧٣ في أقل من ساعة زمنية، وكان معه ٢٠ دبابة و ٨٠ مركبة برمائية، دون أية خسائر في المعدات أو الرجال، وعندما تلقيت هذا الخبر السعيد وأنا في غرفة العمليات حوالي الساعة ١٥٠٠يوم ٦ من أكتوبر تذكرت الشهداء الثلاثة الذين فقدناهم في التدريب وصـــليت مـــن أجلهم. لقد كان إنشاء وحدات المهندسين يحظى لدينا دائما بالأولوية؛ لأن عبور القناة هـــو فـــي المقام الأول عملية مهندسين. إذ كان يتحتم على المهندسين طبقاً للخطة، أن يقوموا بتنفيذ المهـــام التالية:

ا- فتح ٧٠ ثغرة في الساتر الترابي على الجانب البعيد، كل منها ١٥٠٠ متر مكعب.

٢- إنشاء ١٠ كباري ثقيلة لعبور الدبابات والمدافع والمعدات الثقيلة.

٣- إنشاء ٥ كباري خفيفة حتى يمكنها أن تجتنب نيران العدو، وبالتالي تخفف من هجوم العـــدو على الكباري الرئيسية، وكانت هذه الكباري تشبه الكباري الثقيلة تماما ولكن حمولتها كانت أربعة أطنان فقط.

٤- بناء ١٠ كباري اقتحام لعبور المشاة [٣].

٥- تجهيز وتشغيل ٣٥ معدية.

٦- تشغيل ٧٢٠ قاربا مطاطيا لعبور المشاة.

وكانت جميع هذه المهام تتم تقريبا في وقت واحد، فقد كنا نفترض أن يتم فتح هذه الثغرات خلال ما بين ٥-٧ ساعات وتبدأ المعديات في العمل فور إتمام فتح هذه الثغرات بينما يتم تركيب الكباري بعد ذلك بحوالي ساعتين، وبالإضافة إلى عظم حجم هذه الأعمال وقصر الوقت المخصص لإنجازها يجب ألا ننسى أن جميع هذه الأعمال كان يتم تحت نيران العدو وهجماته المتكررة لذلك كان من واجبنا أن نقوم بعملية حساب دقيقة نستطيع بها أن نحدد حجم الوحدات المطلوبة. لقد كان عدد وحدات المهندسين التي ساهمت في عملية عبور القناة بطريق مباشر حوالي ٣٥ كتيبة من مختلف التخصصات وإن نجاح القوات المسلحة في تشكيل وتدريب وحدات المهندسين اللازمة لعملية العبور هو المفاجأة الكبرى في هذه الحرب لأن جميع دول العالم - الصديقة منها والعدوة- كان يعتقد باستحالة التغلب على هذه المشكلات. ولقد سعدت كثيرا عندما قرأت مذكرات الجنرال اليعازر (ر.أ.ح.ق.م) الإسرائيلية خلال حرب أكتوبر عندما تكلم عن هذه النقطة، حيث قال: أنه أثناء مناقشة على مستوى القيادة الإسرائيلية لدراسة احتمال عبور المصريين للقناة، قال دايان وزير الحربية: "لكي يعبر المصريون قناة السويس، فإنه يلزمهم سلاح المهندسين الأمريكي والسوفيتي مجتمعين لمساعدتهم في ذلك". إن هذه شهادة نعتز ونفخر بها، وإني لا ألوم دايان على المبالغة، لأني اعرف جيدا مدى المجهود الذي بذل لتحقيق هذه المفاجأة!

هوامش الفصل السادس:

(١) إذا حسبنا الخسائر العالية في الضباط نتيجة الوفاة والإحالة على التقاعد خلال هذه السنوات العشر وضرورة تعويضهم فأن هذا يعني أننا قد نحتاج إلى حوالي ١٢ سنة.
(٢) أن التدريب العادي للضباط يشمل تأهيل الضباط لتولى قيادات متعددة، ونتيجة لذلك فأنه يدرس أسلوب إدارة المعركة المشتركة مما يترتب عليه إجراء دراسة عامة لكل التخصصات قبل أن يتخصص بصفة نهائية في أحدها.
(٣) قامت إدارة المهمات ببناء هذه الكباري.

الفصل السابع

مشكلات العبور وكيف تم التغلب عليها

إن تحضير وتجهيز القوات المسلحة للمعركة الهجومية لم يكن مقصورا على إنشاء وتدريب وحدات جديدة تقليدية، حيث إن عبور قناة السويس يعتبر من العمليات العسكرية ذات الطابع الخاص. فالتنظيم العادي والتسليح العادي والعقائد العسكرية السائدة كل ذلك لم يكن ليقدم حلولا لعملية العبور التي تنتظرنا لذلك كان يجب علينا أن نلجأ إلى خيالنا وخبراتنا في جميع المجالات لكي نوجد حلولا للمشكلات التي تواجهنا. لقد أدخلنا الكثير من التعديلات في تنظيمات بعض وحداتنا القائمة، كما قمنا بإنشاء وحدات جديدة ذات تنظيم معين لكي تكون قادرة على القيام بمهام محددة كذلك أدخلنا بعض المعدات الجديدة ضمن تنظيم وحداتنا، وكان بعضها من أحدث وأرقى المعدات المستخدمة في العالم، وفي الوقت نفسه لجأنا إلى بعض المعدات البدائية التي كانت تستخدم في العصور القديمة. وبينما كان كل ذلك يجري في وقت واحد كان علينا أن نختبر هذه التنظيمات والمعدات والمهمات والعقائد الجديدة اختبارا ميدانيا تحت ظروف اقرب ما تكون إلى الظروف الواقعية التي سوف تواجهنا. وقد أجرينا مئات التجارب وأدخلنا العديد من التعديلات على أفكارنا وتنظيماتنا ومعداتنا، قبل أن نستقر على قرار نهائي في أي من هذه المواضيع.

قناة السويس كمانع مائي:

لم تعد الأنهار والقنوات تشكل عائقاً كبيرا أمام الجيوش الحديثة بعد تطوير أسلحة القتال وإدخال الدبابات والمركبات البرمائية والدبابات التي تستطيع الغوص في الماء والسير على قاع المانع المائي ضمن تنظيم القوات البرية. لقد اصبح في مقدار القوات البرية أن تقتحم المانع المائي بالهجوم من الحركة وعلى مواجهة واسعة، وذلك بأن تدفع القوات الرئيسية أمامها بمفرزة برمائية تقوم بإنشاء رأس كوبري، ويتبعها المهندسون الذين ينشئون الكوبري الذي تعبر عليه القوات الرئيسية عند وصولها إلى المانع المائي. وإذا كان ذلك ينطبق على جميع الموانع المائية، فإنه لا ينطبق من قريب أو بعيد على قناة السويس، حيث أنها مانع مائي من نوع فريد في طبيعته، وقد أضاف إليها العدو- علاوة على ذلك- كثيرا من العوائق الاصطناعية مما جعلها تبدو في أعين الكثيرين من العسكريين مانعاً مائياً لا يمكن اقتحامه. ويمكن وصف قناة السويس كمانع مائي - باختصار- بالنقاط التالية:

١- مانع مائي صناعي يتراوح عرضه بين ١٨٠ و ٢٠٠ متر، وأجنابها حادة الميل ومكسوة بالدبش والحجارة لمنع انهيار الأتربة والرمال إلى القاع، وهذا يجعل من الصعب على أية دبابة برمائية أن تعبرها إلا إذا تم نسف أكتاف الشاطئ وتجهيز منزل ومطلع تستطيع المركبة البرمائية أن تستخدمهما في النزول إلى الماء والخروج منه (الشكل رقم ١).

٢- قيام العدو بإنشاء سد ترابي على الضفة الشرقية للقناة وبارتفاع يصل في الاتجاهات المهمة إلي ٢٠ متراً مما يجعل من المستحيل عبور أية مركبة برمائية إلى الشاطئ الآخر إلا بعد إزالة هذا السد. وقد عمل الإسرائيليون بجد في تعلية هذا السد وزحزحته إلى القناة حتى أصبح ميله يتقابل مع ميل شاطئ القناة أي أنه لم تكن هناك أي مصطبة أو كتف ظاهر لشاطئ القناة من ناحية العدو، وكان ميل هذا السد يتراوح بين ٤٥ و٦٥ درجة طبقا لطبيعة التربة في كل قطاع (الشكل رقم ٢).

٣- وعلى طول هذا السد الترابي بنى الإسرائيليون خطاً دفاعياً قوياً أطلق عليه خط بارليف Barlev Line، وقد كان هذا الخط يتكون من ٣٥ حصناً تتراوح المسافة بين كل منها ما بين كيلو متر واحد في الاتجاهات المهمة و٥ كيلومترات في الاتجاهات غير المهمة على طول القناة. أما في منطقة البحيرات فقد كانت هذه الحصون اكثر تباعداً إذ وصلت إلى ما بين ١٥-١٠ كم بين كل حصن وأخر. كانت هذه الحصون مدفونة في الأرض وذات أسقف قوية تجعلها قادرة على أن تتحمل قصف المدفعية الثقيلة دون أن تتأثر بذلك، وكانت تحيط بها حقول الغام وأسلاك كثيفة،

ويمكن غمر القناة من مزاغل الدشم بنيران كثيفة، وبين هذه الحصون كانت هناك مرابض نيران للدبابات بمعدل مربض كل ١٠٠ متر. كان العدو لا يحتل هذه المرابض بصفة دائمة. كان يحتلها فقط في حالات التوتر، وكان في استطاعة دبابات العدو أن تتحرك بين مـربض وأخـر وهـي مستورة تماما عن النظر والنيران من جـانبنا، وكانت حصون خط بارليف لديها الاكتفاء الـذاتي لمدة ٧ أيام، ولديها وسائل اتصال جيدة مع قيادتها الخلفية، وأما القوات المخصصة لاحتلال خـط بارليف فكانت لواء مشاة وثلاثة ألوية مدرعة. كان لواء المشاة (حـوالي ٢٠٠٠-٣٠٠٠ رجـل) يحتل الحصون، بينما كانت الألوية المدرعة (٣٦٠ دبابة) تخصص حوالي ثلـث قوتهـا للعمـل كاحتياطات قريبة تتمركز على مسافة ٥-٨ كيلومترات شرق القناة. أما باقي المدرعات، فكانـت تتمركز على مسافة ٢٥-٣٠ كم شرق القناة. لقد قدرنا أنه لو أمكننا تحقيق المفاجأة التامة وبـدأنا القتال دون أن يعدل العدو من أوضاعه فمن المنتظر أن يقوم بهجمات مضادة ضد قواتنا العـابرة بواسطة سرايا أو كتائب دبابات في خلال ١٥-٣٠ دقيقة من بدء الهجوم، وأن يقوم بهجوم مضاد بواسطة اللواءات المدرعة في حدود ساعتين أما إذا شعر العدو بتحضيراتنا للهجوم، فقد ينجح في احتلال الفراغات التي تفصل بين الحصون بواسطة دباباته، وبذلك يمكنه أن يكبدنا خسائر كبيـرة أثناء عملية العبور. علاوة على إمكان قيامه بهجمات مضادة على قواتنا التي تنجح في العبور بعد فترات تقل كثيراً عما سبق ذ كره.

٤- كان كل هذه الموانع والعوائق لم تكف لكي تبعث الطمأنينة في نفوس الإسرائيليين والرهبة في نفوس أعدائهم فأرادوا أن يبعثوا اليأس في نفوسنا، فأدخلوا سلاحاً جديـداً رهيبـاً هـو النيـران المشتعلة فوق سطح الماء لكي تحرق كل من يحاول عبور القناة. ولتنفيذ هذه الفكرة الجهنمية بنوا مستودعات ملأوها بهذا السائل ووصلوا هذه المستودعات بأنابيب تنقل السائل إلى سطح المـاء، ونظرا لأن كثافة هذا السائل اقل من كثافة الماء فأنه يطفو على سطح الماء، فإذا اشتعل بطريقـة آلية أو بواسطة قنبلة فسفورية تحول سطح الماء إلى جحيم. ومع استمرار التغذية بالسائل تستمر النيران المشتعلة. (الشكل رقم ٣).

تلك هي قناة السويس، وهذا هو المانع المائي الذي كان علينا اقتحامه، وللتغلب على هذه المشكلة الكبيرة قمنا بتجزئتها إلى مجموعة من المشكلات الأصغر حجما، وأخذنا نعمل علـى حـل كـل مشكلة على حدة إلى أن تم التغلب عليها جميعا فكان العبور العظيم في أكتوبر ١٩٧٣.

فتح الثغرات في الساتر الترابي:

كانت المشـكلة الأولى والرئيسية هي فتوح ثغرات في السد الترابي حتى يمكن من خلالها عبور

الدبابات وأسلحتنا الثقيلة سواء عبر المعديات أم الكباري. وعندما شغلت منصب (ر.أ.ح.ق.م. م) كانت العقيدة السائدة لفتح الثغرات في الساتر الترابي تتلخص فيما يلي:

ا- يقوم المهندسون بالعبور في قواربهم المطاطية بمجرد أن تتمكن موجات المشاة من تحقيق الحد الأدنى من الوقاية لهم.

٢- يقوم المهندسون بشق حفرة داخل السد الترابي مستخدمين في ذلك أدوات الحفر اليدوية (لاستحالة استخدام أدوات الحفر الميكانيكية نظراً لتهايل التربة) ثم تملأ هذه الحفر بالمتفجرات ويتم تفجيرها بعد أن ينسحب المهندسون إلى مسافة ٢٠٠ متر بعيدا

عن مكان التفجير. قد يبدو من الناحية النظرية أنه كلما عمق المهندسون الحفر داخل

السد الترابي، وكلما زادت كمية المتفجرات المدفونة في السد زادت كمية الأتربة المزاحة، أما من الناحية العملية فقد كان الموقف مختلفاً؛ إذ كانت طبيعة التربة التي يتكون منها السد الترابي متهايلة، وكان ذلك يجعل من الصعب تعميق أي حفرة في جسم السد. وكانت الأتربة والرمال على أجناب الحفرة تتهايل إلى داخلها مع كل محاولة لتعميقها، وبالتالي فقد كانت المتفجرات التي نقوم بدفنها داخل السد ليست على عمق كاف يسمح بإزاحة كمية كبيرة من الأتربة. كانت النتائج غير مشجعة وكانت كمية الأتربة المزاحة نتيجة التفجير تصل إلى حوالي ٢٠٠- ٣٠٠ متر مكعب تاركة ما يقرب من ١٢٠٠ متر مكعب أخرى تجب علينا إزاحتها بواسطة العمل اليدوي والميكانيكي.

٣- يستأنف العمل اليدوي لتجهيز مطلع للبولدوزر BULLDOZER الذي يتم نقله على معدية ثم يبدأ البولدوزر في العمل لاستكمال عملية فتح الثغرة.

في خلال شهري مايو و يونيو ٧١ حضرت عدة بيانات عملية قامت إدارة المهندسين بتنظيمها لإظهار الأسلوب المتبع في فتح الثغرات في السد الترابي نهارا أو ليلا. كان يعيب هذا الأسلوب النقاط التالية:

١- أن عملية التنسيق بين المهندسين الذين يقومون بالتفجير، والمشاة التي تعبر أو التي عبرت وأصبحت على الشاطئ الآخر، قد لا تسير على الوجه الأكمل مما قد تترتب عليه إصابة بعض جنودنا نتيجة هذه التفجيرات.

٢- إن تخصيص عدد كبير من المهندسين للقيام بأعمال الحفر اليدوي بعد عملية التفجير قد تترتب عليه زيادة خسائرنا في أفراد المهندسين فيما لو وقعت هذه المجموعة تحت نيران العدو المباشرة أو غير المباشرة.

٣- إن إرسال بلدوزر للعمل في استكمال فتح الثغرة مبكراً قد يعرضه للتدمير بواسطة نيران دبابات العدو، نظرا لكبر حجمه واضطراره للظهور في كثير من الأحيان على خط السماء وإذا تأخرنا في إرساله فسوف يتأخر فتح الثغرات، وبالتالي يتأخر تشغيل المعديات وبناء الكباري فتزداد فترة تعرض مشاتنا لهجمات العدو المضادة.

٤- كان فتح الثغرات بهذا الأسلوب يعتبر باهظ التكاليف في الأفراد والمعدات والمواد، فقد كان فتح الثغرة الواحدة يحتاج إلى ٦٠ فردا وبلدوزر و ٢٠٠ كغم من المتفجرات وعمل يستمر من ٥-٦ ساعات دون حساب لأي تدخل من العدو.

لم يكن أمامي إلا أن أقبل العمل بهذا الحل إلى أن نجد ما هو افضل منه، ولكنني أخبرت اللواء جمال على مدير إدارة المهندسين بضرورة البحث والتفكير في أسلوب أخر لفتح هذه الثغرات. وفي خلال يونيو من العام نفسه اخبرني اللواء جمال علي أن أحد ضباط المهندسين يقترح فتح الثغرة في الساتر الترابي بأسلوب ضغط المياه، وأنه قد مارس هذا العمل عندما كان يعمل في السد العالي وكانوا يفتتون الصخر بقوة اندفاع المياه كانت الفكرة سهلة وبسيطة ولا ينقص إلا تجربتها، وقبل انتهاء شهر يونيو حضرت أول تجربة لاختبار هذه الفكرة. استخدم المهندسون في هذا البيان ثلاث مضخات مياه صغيرة إنجليزية الصنع وكانت النتيجة رائعة. كان واضحاً انه كلما زاد ضغط الماء زادت سرعة تهايل الرمال وبالتالي سرعة فتح الثغرة وبعد عدة تجارب اتضح لنا أن كل متر مكعب من المياه يزيح متراً مكعباً من الرمال، وان العدد المثالي في كل ثغرة هو خمس مضخاته وفي يوليو ٧١ تقرر أن يكون أسلوبنا في فتح الثغرات في الساتر الترابي هو أسلوب التجريف (ضغط المياه)، وقررنا شراء ٣٠٠ مضخة مياه إنجليزية وصل قسم منها قبل نهاية العام، والقسم الباقي وصل في أوائل عام ٧٢. وفي خلال عام ٧٢ قررنا شراء ١٥٠ مضخة أخرى ألمانية الصنع واكثر قوة من المضخة الإنجليزية، وبتخصيص ٣ مضخات إنجليزية ومضختين ألمانيتين لكل ثغرة كان من الممكن إزاحة ١٥٠٠ متر مكعب من الأتربة خلال ساعتين فقط وبعدد من الأفراد يتراوح ما بين ١٠-١٥ فردا فقط.

كان هذا حلا رائعا وسهلا ويتلافى جميع العيوب التي كان يتسم بها الأسلوب السابق، فشكرا للمهندس الشاب صاحب الاقتراح وشكرا لجميع رجال المهندسين الذين قاموا بتطوير الفكرة وتهذيبها إلى أن أخذت لونها النهائي قبل حرب أكتوبر ٧٣. ومن الأحداث الغريبة حقا أنه على الرغم من عشرات التجارب التي أجريت بهذا الأسلوب خلال الأعوام ٧١ و ٧٢ و ٧٣ إلا أن الإسرائيليين لم يعرفوا اكتشافنا لهذا الأسلوب في فتح الثغرات في السد الترابي، وقد تحققنا من

ذلك عندما وقع في أيدينا أحد جواسيسهم قبل بدء الحرب بشهرين.

التغلب على النيران المشتعلة:

كانت المشكلة الثانية التي وجبت علينا مجابهتها هي مشكلة النيران المشتعلة فوق سطح الماء وفي شهر يونيو ٧١ حضرت بيانا عمليا عن أسلوب التغلب على هذه النيران المشتعلة، وقد تم تنفيذ المشروع كما يلي:

١- يقوم بعض الجنود الذين يلبسون ملابس واقية ضد الحريق بركوب أحد القوارب ومع كل منهم واحدة من سعف النخل (جريدة)، ثم يبدأون بمهاجمة جزر النيران المشتعلة وضربها بالجريد فتنقسم عادة الجزيرة الكبيرة إلى عدة جزر صغيرة، ثم تتكرر العملية، وهكذا

٢- أقترح علي خلال هذا البيان أن نستبدل القوارب المطاطية بمركبات برمائية وان يستبدل سعف النخل بمواد كيماوية أو بمعنى أخر تشكيل قوة مطافئ بحرية.

لم أقتنع بأنه يمكن إطفاء هذه النيران بسعف النخل إذ كنا نستخدم في تجربتنا عشرة أطنان من السائل المشتعل، ولكن يجب أن نتصور ماذا يمكن أن يحدث لو أن العدو قذف بخمسين طنا من هذا السائل ثم أخذ يغذيها باستمرار. لاشك أن النيران ستكون اكثر قوة واكثر تماسكا بحيث لا تسمح بوجود جزر عائمة من النيران يمكن لقواتنا المكلفة بالإطفاء أن تهاجمها واحدة بعد الأخرى، كما أن تشكيل وحدات إطفاء بحرية سيشغلنا عن واجبنا الأصلي، فبدلا من أن نعبر ونقتحم فإن مجهودنا سوف يتحول إلى عملية إطفاء حريق وبهذا يتحقق هدف العدو، وبعد دراسة الموضوع من جميع جوانبه قررت أن تكون عقيدتنا فيما يتعلق بهذه المشكلة هي كما يلي:

١- يجب أن نحرم العدو من فرصة استخدام هذا السلاح الذي يعتمد على ثلاثة أجزاء: خزانات يسع الواحد منها ٢٠٠ طن من المواد المشتعلة، أنبوبة تصل ما بين هذه الخزانات وسطح مياه القناة ثم وسيلة سيطرة تشمل الفتح والإشعال. فلو أمكننا إفساد أي من هذه الأجزاء لفشل العدو في استخدام هذا السلاح. كانت الخزانات مدفونة دفناً جيداً في الرمال ومن المشكوك فيه إمكان تدميرها بواسطة المدفعية. وكانت الأنابيب التي تنقل السائل هي الأخرى مدفونة ومن الصعب الوصول إليها، ولكن فتحات هذه المواسير كان يمكن رؤيتها بوضوح من جانبنا. وكانت فتحه هذه الأنابيب تختفي تحت سطح المياه عندما يكون هناك "مد" وتظهر فوق سطح المياه عندما يكون هناك "جزر" فلو أمكننا أن نسد هذه الفتحات قبل بدء العمليات لفسدت خطة العدو في استخدام هذا السلاح تماما. لذلك يحب علينا- كجزء من التخطيط- أن نغلق هذه الفتحات وان نضرب الخزانات بالمدفعية أثناء فترة تحضيرات المدفعية التي تسبق عملية الهجوم، وبالإضافة إلى ذلك

فإنه يمكننا إرسال جماعات تخريب لتدمير هذه الخزانات قبل المعركة وخلالها.
٢- كان علينا عند انتخاب نقط العبور أن نختارها بحيث تكون فوق اتجاه التيار، حيث أن هـذا السائل المحترق يعوم مع التيار، وبالتالي فأنه يعتبر عديم المفعول ضد أي قوات تعبر من فـوق اتجاه التيار.
٣- إذا حدث واضطررنا لانتخاب قطاع العبور بحيث يكون تحت التيـار، ثـم فشـلت جميـع محاولاتنا في إبطال مفعول هذا السلاح ونجح العدو في تشغيله، فإننا نوقف عملية العبور إلى أن ينتهي تأثير هذه النيران. قد يتراوح الوقت اللازم لاحتراق هذا السائل ما بين ١٥-٣٠ دقيقة طبقا لكمية السائل المسكوب وليس أمامنا إلا أن نتعامل معه كأنه أحد أسلحة القتال: نحاول أن نتحاشاه إذا كان مؤثرا ونتجاهله إذا ضعف تأثيره، مثله في ذلك مثل منطقة مغمورة بنيران المدفعيـة: إذا كان الضرب كثيفا ومؤثرا تحاشيناه وإذا كان دون تركيز عبرنا المنطقة بخسائر طفيفة.

أحمال جندي المشاة:

كان في تقديرنا- كما سبق أن قلت- أن تبدأ المعديات في العمل بعد حوالي من ٥-٧ ساعات من بدء الهجوم، وان تبدأ الكباري في العمل بعد ذلك بحوالي ساعتين، ونتيجة لذلك فـإن الـدبابات والأسلحة الثقيلة لن تعبر إلى الشاطئ الآخر بأعداد مؤثرة تسمح بتدعيم المشاة في قتالها إلا بعـد حوالي ١٢ ساعة من بدء عبور المشاة أما الوحدات والعناصر الإدارية فإنها لن تصل إلى وحدات المشاة إلا بعد حوالي ١٨ ساعة من بدء الهجوم. إن هذا الموقف يشبه إلى حد ما موقف وحـدات المظلات التي يتم إنزالها في عمق العدو، حيث تبقى هناك لمدة يوم أو يومين إلى أن تتصل بهـا القوات الرئيسية الصديقة، وهي في خلال هذه الفترة تعتمد اعتمادا كليا ومصيريـا علـى مـا تستطيع حمله معها من أسلحة وعتاد وغذاء وماء. وللحقيقة فإن موقف جنـدي المشـاة المكلـف بعبور القناة كان اصعب من موقف جندي المظلات الذي ينزل في العمـق، لأن جنـدي العبـور سيواجه بهجمات مضادة مدرعة بمجرد أن يضع قدمه على الشاطئ الآخر، لذلك كان يجب علينا أن نجهز هذا الجندي تجهيزا يسمح له بمقابلة هذه التحديات التي تنتظره، ولتحقيق ذلك كان يجب على هذا الجندي أن يحمل معه عددا كافيا من الأسلحة المضادة للـدبابات ولاسـيما الصـواريخ مالوتكا ATGW حتى يمكنه أن يدمر الدبابات التي تهاجمه، وكان عليه أن يحمل الصـواريخ المضادة للطائرات STRELLA (SAM-7) حتى يمكنه أن يدمر الطـائرات التـي تهاجمـه مـن ارتفاعات منخفضة، وكان عليه أن يحمل ما يكفيه من ذخيرة وطعام ومياه لمدة يوم كامل، وكان عليه علاوة على ذلك أن يحمل ألغاما مضادة للدبابات حتى تساعده فـي الـدفاع عـن مواقعـه

المكتسبة ضد هجمات الدبابات. كانت المشكلة الرئيسية هي تحديد عدد ونوعية الأسلحة وكمية الذخائر التي يحملها جندي المشاة (المترجل). علما بأن أقصى ما يستطيع الجندي المقاتل حمله هو ٢٥ كيلو غراما، فكيف نحقق التوازن بين هذه الطلبات الضرورية جميعها؟ هنا أطلقت شعار جنود المظلات بين الجنود المشاة المكلفين بالعبور "أقصى ما يمكن من السلاح والذخيرة وأقل ما يمكن من الاحتياجات الإدارية الأخرى".

كان يلزم كل جندي ٢ كغم من الطعام مع ٢,٥ لتر من المياه، فإذا أضفنا إلى ذلك وزن الحد الأدنى من الملابس والشدة الميدانية والخوذة، فأن وزن جميع هذه الأصناف يصل إلى حوالي ١٠ كغم، وبذلك يتبقى لدينا ١٥ كغم لجميع أنواع الأسلحة والذخيرة والمعدات العسكرية. لم يكن هذا الموقف يشكل أية مشكلة بالنسبة لجندي المشاة العادي المسلح ببندقية أوتوماتيكية ومعها ٣٠٠ رصاصة و ٢ قنبلة يدويه حيث أن وزن جميع هذه الأصناف كان يقل عن ١٥ كغم. ولكن كانت المشكلة الحقيقية تكمن في تلك الأحمال التي يتحتم على أطقم أسلحة الدعم حملها (المدفع عديم الارتداد ب ١٠، والمدفع عديم الارتداد ب ١١، والمالوتكا، والـRPG والـ STRELLA، ومدافع الماكينة المتوسطة ٧,٦٢ مم، ومدافع الماكينة الثقيلة ١٢,٧ مم، وقواذف اللهب، الخ). إن هذه الأسلحة ولو أنها تدخل تحت نطاق الأسلحة الخفيفة التي يمكن حملها فإن أوزانها -إذا أضيف إليها الحد الأدنى من الذخيرة التي يجب أن ترافقها- تصبح كبيرة وتجعل من المستحيل على طاقمها أن يتحمل وحده عبء حملها هي وذخيرتها. لذلك كان من الواجب علينا أن نوزع هذه الأحمال على باقي أفراد المشاة بطريقة تجمع بين عدالة التوزيع في الأحمال وسهولة الحصول على هذه الأحمال بطريقة لا تؤثر على كفاءة الاستخدام التكتيكي للسلاح. وحيث أن عدالة التوزيع في الأحمال تتعارض مع كفاءة الاستخدام التكتيكي للسلاح والمهام المكلف بها كل جندي، فقد قمنا بعمل كشوفات تفصيلية تشمل كشفا خاصا لكل جندي في فرقة المشاة طبقا لوظيفته وفي هذا الكشف حددنا ما يتحتم على كل جندي أن يحمل. وكانت الأحمال تتراوح بين ٢٣ و٣٠ كغم للفرد وفي أحوال نادرة كان يحمل بعض الجنود ما يزيد على ٣٠ كغم [١].

لقد بدا واضحا أن الشدة الميدانية (البل) التي كان معمولا بها في القوات المسلحة في ذلك الوقت أصبحت لا تتناسب مع الظروف الجديدة، إن تثبيت الأحمال على جسم الجندي المقاتل هو موضوع بالغ الأهمية. أن هذه الأحمال إذا ما ثبت بجسم الجندي بحيث تصبح وكأنها جزء من أعضائه فإنه يمكنه أن يتحرك بها في يسر وسهولة دون أن تعوق حركته أو تؤثر على كفاءته، أما إذا لم تثبت هذه الأحمال بطريقة جيدة فأنها سوف تؤثر تأثيرا كبيرا على أداء الجنود، وذلك

علاوة على احتمال سقوط وفقد بعض هذه الأحمال دون أن يشعر بها الجندي. إن الشدة الميدانية المثالية هي تلك التي تستطيع أن تستوعب جميع أحمال الجندي بطريقة جيدة، ولكن الظروف التي خلقتها مشكلة عبور قناة السويس قد فرضت علينا ضرورة ابتكار شدة ميدانية تتناسب مع تلك الأحمال الخاصة. كان أمامنا عشرات الأحمال المختلفة، وكان الحل المثالي هو إيجاد شدة خاصة لكل حمل من هذه الأحمال، ولكن ذلك كان كفيلا بان يخلق لنا مشكلات إدارية ضخمة، وقد قامت إدارة المهمات بالكثير من التجارب حول هذا الموضوع إلى أن توصلنا إلى خمس عينات مختلفة، بحيث تستطيع كل منها أن تخدم عدة أحمال. في ١٢ من يوليو ٧٢ تمت الموافقة على هذه العينات وقبل نهاية أكتوبر ٧٢ كان قد تم عمل ٥٠٠٠٠ شدة ميدانية من هذه الأنواع الجديدة [٢].

كذلك قمنا بتغيير زمزمية المياه التي يحملها جنود العبور. كانت الزمزمية المستخدمة في القوات المسلحة تسع ثلاثة أرباع اللتر من المياه فاستبدلناها بأخرى تسع ٢,٥ لتر حتى يكون مع جندي العبور ما يكفيه من المياه لمدة يوم كامل (هذه الكمية هي الحد الأدنى من المياه التي يحتاج إليها الفرد)، وقد أمكن إنتاج ٥٠٠٠٠ من هذه الزمزميات قبل نهاية عام ١٩٧١.

عربة الجر اليدوي:

وعلى الرغم من الأحمال الثقيلة التي كلفنا جنود المشاة بحملها، إلا أني لم أكن مطمئنا بالقدر الكافي على قدرة مشاتنا في الاستمرار في المعركة لمدة طويلة. لقد كانت الذخيرة التي يحملونها قليلة جدا ومن الممكن أن تستهلك في قتال عنيف خلال ساعة زمنية واحدة وعلاوة على ذلك فإنهم لا يحملون ألغاما أو كاشفات ألغام، أو وسائل مواصلات كافية، أو علامات إرشاد الخ، وكان الحل الأمثل لكل هذه المشكلات هو إدخال عربة جر يدوية يمكن جرها بواسطة فردين بعد تحميلها بحوالي ١٥٠ كغم من الذخائر أو المعدات العسكرية. كيف صنعنا وأدخلنا هذه العربة ضمن خطة عبور قناة السويس؟ إنها قصة طريفة سوف أرويها للتاريخ.

عندما عينت قائدا لمنطقة البحر الأحمر العسكرية في يناير ١٩٧٠ كان أول عمل قمت به هو دراسة العمليات العسكرية السابقة التي قام بها العدو في هذه المنطقة على الطبيعة، وكان من ضمن هذه العمليات قيام العدو بقصف ميناء سفاجة بالمدفعية ليلا وذلك قبل أن أتولى قيادة المنطقة ببضعة أشهر. عندما ذهبت إلى سفاجة عاينت الحفر المتخلفة من قصف المدفعية فاتضح لي أنها لابد أن تكون نتيجة قصف هاون من عيار ١٢٠ ملليمتر، وبحساب مدى الهاون ١٢٠، وانسب الأماكن للهبوط بطائرة الهليوكوبتر سالت نفسي"لو أني مكان العدو لنزلت في هذا المكان أو ذاك المكان؟". انتقلت إلى المكانين اللذين تصورت أن يكون العدو قد عمل من أي منهما، فوجدت في

أحدهما جميع الشواهد التي تؤكد صدق تخميني. لقد كانت بقايا ومخلفات القصف مازالت في مكانها وبجوارها عربة صغيرة ذات أربع عجلات، ولها ذراع طويلة للجر وكان واضحا أن طاقم الهاون الإسرائيلي قد نقل طلقات الهاون في هذه العربة إلى مربض النيران الذي كان يبعد حوالي ٤٠٠ متر من مكان هبوط الطائرات لقد أعجبت كثيرا بهذه العربة وأخذتها عند عودتي إلى مركز قيادتي واستدعيت رئيس الشؤون الفنية بالمنطقة وعرضت عليه العربة وقلت له: "أريد أن تصنع لي ٦ عربات مثل هذه العربة"، وبعد أن فحصها قال لي إنه يستطيع أن يصنع أفضل منها ولكن المشكلة الوحيدة هي العجلات، حيث إن القوات المسلحة لا تستخدم عجلات من هذا النوع الصغير، ولكنه أضاف أن أنسب العجلات التي يمكن استخدامها هي عجلات الدراجة النارية الإيطالية الصنع VESPA . قام رئيس الشؤون الفنية بشراء العجلات المطلوبة (٢٤ عجلة) من سوق الكانتو في القاهرة [٣]. لقد صممنا أن نصنع عربة جر أفضل من العربة الإسرائيلية، وهكذا قمنا بعدة دراسات وتجارب ميدانية على العينتين الأوليين حتى يمكننا أن نحدد انسب الأبعاد و أقصى الحمولة، وبعد عدة تجارب وجدنا أن أقصى حمولة يمكن جرها بواسطة فردين فوق أرض بالقدر الكافي على قدرة مشاتنا في الاستمرار في المعركة لمدة طويلة. لقد كانت الذخيرة التي يحملونها قليلة جدا ومن الممكن أن تستهلك في قتال عنيف خلال ساعة زمنية واحدة وعلاوة على ذلك فإنهم لا يحملون ألغاما أو كاشفات ألغام، أو وسائل مواصلات كافية، أو علامات إرشاد الخ، وكان الحل الأمثل لكل هذه المشكلات هو إدخال عربة جر يدوية يمكن جرها بواسطة فردين بعد تحميلها بحوالي ١٥٠ كغم من الذخائر أو المعدات العسكرية. كيف صنعنا وأدخلنا هذه العربة ضمن خطة عبور قناة السويس؟ إنها قصة طريفة سوف أرويها للتاريخ.

عندما عينت قائدا لمنطقة البحر الأحمر العسكرية في يناير ١٩٧٠ كان أول عمل قمت به هو دراسة العمليات العسكرية السابقة التي قام بها العدو في هذه المنطقة على الطبيعة، وكان من ضمن هذه العمليات قيام العدو بقصف ميناء سفاجة بالمدفعية ليلا وذلك قبل أن أتولى قيادة المنطقة ببضعة أشهر. عندما ذهبت إلى سفاجة عاينت الحفر المتخلفة من قصف المدفعية فاتضح لي أنها لابد أن تكون نتيجة قصف هاون من عيار ١٢٠ ملليمتر، وبحساب مدى الهاون ١٢٠، وانسب الأماكن للهبوط بطائرة الهليوكوبتر سالت نفسي"لو أني مكان العدو لنزلت في هذا المكان أو ذاك المكان؟". انتقلت إلى المكانين اللذين تصورت أن يكون العدو قد عمل من أي منهما، فوجدت في أحدهما جميع الشواهد التي تؤكد صدق تخميني. لقد كانت بقايا ومخلفات القصف مازالت في مكانها وبجوارها عربة صغيرة ذات أربع عجلات، ولها ذراع طويلة للجر وكان واضحا أن طاقم

الهاون الإسرائيلي قد نقل طلقات الهاون في هذه العربة إلى مربض النيران الذي كان يبعد حوالي ٤٠٠ متر من مكان هبوط الطائرات لقد أعجبت كثيرا بهذه العربة وأخذتها عند عودتي إلى مركز قيادتي واستدعيت رئيس الشؤون الفنية بالمنطقة وعرضت عليه العربة وقلت له: "أريد أن تصنع لي ٦ عربات مثل هذه العربة"، وبعد أن فحصها قال لي إنه يستطيع أن يصنع أفضل منها ولكن المشكلة الوحيدة هي العجلات، حيث إن القوات المسلحة لا تستخدم عجلات من هذا النوع الصغير، ولكنه أضاف أن أنسب العجلات التي يمكن استخدامها هي عجلات الدراجة النارية الإيطالية الصنع VESPA . قام رئيس الشؤون الفنية بشراء العجلات المطلوبة (٢٤ عجلة) من سوق الكانتو في القاهرة [٣]. لقد صممنا أن نصنع عربة جر أفضل من العربة الإسرائيلية، وهكذا قمنا بعدة دراسات وتجارب ميدانية على العينتين الأوليين حتى يمكننا أن نحدد انسب الأبعاد و أقصى الحمولة، وبعد عدة تجارب وجدنا أن أقصى حمولة يمكن جرها بواسطة فردين فوق أرض زجاج سميك معتم من نوع الزجاج الذي يستخدمه عمال لحام الأوكسجين وذلك حتى يلبسه الأفراد عندما يستخدم العدو أشعة Zenon البالغة القوة في تعميتهم. لقد تعلمنا هذا الدرس خلال حرب الاستنزاف عندما كنا نبعث برجال الصاعقة لاصطياد دبابات العدو، وبعد عدة لقاءات ناجحة استخدم العدو الضوء المبهر المركب على دباباته في شل إبصار جنودنا، فكان ردنا على ذلك هو أن يلبس الجندي هذه النظارة ثم يوجه قذيفته إلى مصدر الضوء فيدمره. أما سلم الحبال فهو يشبه السلالم المستخدمة في الوحدات البحرية، أجنابه من الحبال ولكن درجاته من الخشب، يسهل طيه وحمله ثم فرده على السد الترابي وبذلك يستطيع جندي المشاة أن يتسلق الساتر الترابي دون أن تغوص قدماه في التراب، كما أنه بوضع سلمين متجاورين نستطيع أن نجر مدافعنا وعربات الجر التي ترافقنا فوق هذا الساتر دون أن تغوص عجلاتها في الرمال.

توقف المشاة انتظارا لوصول أسلحة الدعم:

والآن وبعد أن تم تجهيز جندي المشاة بأفضل الأسلحة والمعدات وبعد أن تم تحميله بأقصى ما يستطيع أن يحمل، فقد زادت قدراته القتالية زيادة كبيرة واصبح خصما قويا وعنيدا للدبابة والطائرات ولكن بقى سؤال أخير: هل يستطيع ٣٢،٠٠٠ ضابط وجندي من المشاة- يعبرون في ١٢ موجة على مدى ثلاث ساعات- أن يتحدوا قوة العدو التي تتكون من ثلاثة الويه مدرعة ولواء مشاة متحصنة بخط بارليف وأمامهم قناة السويس بعوائقها كلهاة وإذا جاز لنا أن نتصور انهم قادرون على ذلك، فهل في استطاعتهم بعد ذلك أن يصدوا الهجوم المضاد الكبير الذي حذر مدير المخابرات الحربية من أن العدو سوف يقوم به بعد ٦-٨ ساعات من بدء الهجوم؟ لقد كانت

حساباتنا تدعي إلى الاطمئنان بأن مشاتنا إذا قاتلت بعناد فإنها تستطيع أن تهزم قوة العدو التكتيكية (لواء مشاة+٣ ألوية مدرعة) التي تدافع عن القناة أما إذا دفع العدو باحتياطه التعبوي الذي قدرته إدارة مخابراتنا بأربعة ألوية مدرعة و أربعة ألوية مشاة ميكانيكية بعد ٦-٨ ساعات من بدء الهجوم- فأن الموقف يصبح جدا خطيرا، لذلك كان لابد من اتخاذ إجراءات معينة لمقابلة هذا الموقف كان الإجراء الأول هو تقديم المعاونة بالنيران لقواتنا شرق القناة بجميع الأسلحة الثقيلة المتيسرة في غرب القناة أما الإجراء الثاني فكان يتلخص في فرض قيود مشددة على سرعة تقدم المشاة وذلك لضمان وجودها دائما في مدى المعاونة بالنيران من الضفة الغربية ولتقصير خطوطها الدفاعية، وبذلك تزداد إمكاناتها في صد هجوم الدبابات وتطبيقا لذلك كان رأس الكوبري لكل فرقة مشاة يصل تدريجيا إلى عمق ٥ كم وقاعدة ٨ كم بعد ٤ ساعات من بدء الهجوم وعند الوصول إلى هذا الخط يجب على المشاة أن تتوقف إلى أن تصلها أسلحة الدعم التي تعبر على المعديات والكباري والتي ينتظر أن تبدأ في الوصول حوالي س+ ١٠ ساعة، وبعد وصول أسلحة الدعم وإعادة التنظيم تستأنف المشاة تقدمها بحيث يصبح رأس كوبري الفرقة ٨ كم في العمق و ١٦ كم في القاعدة بحلول س+١٨ ساعة، وإذا سارت الأمور طبقا للسيناريو الذي تصورناه فإنه يمكن القول بان معركة العبور تكون قد تأكدت بعد ١٨ ساعة من بدء الهجوم [٤].

السيطرة على عملية العبور:

أن عبور مانع مائي شبيه بقناة السويس هو عملية بالغة التعقيد وتحتاج إلى إجراءات دقيقة وتفصيلية، وإذا لم تتم هذه الإجراءات طبقا لنظام دقيق وتحت سيطرة حاسمة من الانضباط فإن العملية بأكملها قد تتحول إلى فوضى عارمة. لقد قسمنا وحدات المشاة المكلفة بالعبور إلى مجموعتين: المجموعة الأولى هي مجموعة المترجلين الذين يقتحمون القناة في قوارب مطاطية ثم يعتمدون على أرجلهم في التحرك بعد وصولهم إلى الشاطئ الآخر، أما المجموعة الثانية فتشمل الوحدات والأطقم ذات الأسلحة الثقيلة التي تنتظر على الجانب الغربي إلى أن يتم فتح الممرات في السد الترابي وتشغيل المعديات والكباري. كان العبور على المعديات والكباري لا يتم بالوحدات المتكاملة بل كان يتم تبعا لأهمية كل مركبة ومدى حاجة المشاة إليها، ومن اجل ذلك تم تقسيم مركبات كل فرقة مشاة إلى ٦ أسبقيات.

كانت الأسبقية الأولى تشمل الدبابات وعربات القتال وعربات اللاسلكي والهاونات الثقيلة وعددا محدودا من العربات التي تنقل الذخيرة، وتبلغ هذه المجموعة ٢٠٠ دبابة و ٧٥٠ مركبة. وكانت

الأسبقية الثانية تشمل وحدات المدفعية ووحدات الدفاع الجوي وعددا إضافيا من العربات التي تحمل الذخيرة لكي يصل إجمالي الذخيرة التي مع المشاة المترجلة إلى وحدة نارية، وتبلغ هذه المجموعة ٧٠٠ مركبة.

أما الأسبقية الثالثة فكانت تشمل باقي العناصر الإدارية التابعة لكتائب المشاة وكتائب المدفعية المضادة للطائرات، وكان مجموع هذه الأسبقية ٦٠٠ مركبة. وكانت الأسبقية الرابعة تتكون من الوحدات الإدارية التي على مستوى الأولوية وتصل في مجموعها إلى ٤٠٠ مركبة. والأسبقية الخامسة تشمل الوحدات الإدارية التي على مستوى الفرقة وتصل في مجموعها إلى ٢٥٠ مركبة. والأسبقية السادسة تشمل العربات المخصصة لركوب أفراد المشاة الذين عبروا في القوارب وتبلغ هذه المجموعة ٨٠ مركبة، وقد كانت الأوامر صريحة بعدم السماح بعبور أية عربة من عربات هذه المجموعة قبل مرور ٤٨ ساعة من بدء الهجوم. كانت هذه الأسبقيات تعني أن كل كتيبة مشاة تقوم بتقسيم مركباتها إلى ٤ مجموعات (٦, ٣,٢,١)، وأن كل مجموعة من تلك المجموعات عليها أن تقابل المجموعات ذات الأسبقية الواحدة في مكان ووقت محددين وبترتيب معين ثم تسير على طريق معين إلى معبر معين وفي وقت محدد وان تعبر بسرعة معينة وبعد أن يتم عبورها فإنها تسلك طريقا محددا وتصل إلى وحدتها الأم في مكان ووقت معينين. أما وحدات الدبابات والمدفعية فقد كانت افضل حالا من وحدات المشاة حيث أنها تقسم إلى أسبقيتين فقط (١ و ٣ بالنسبة للدبابات و ٢ و ٣ بالنسبة للمدفعية). إن عبور ٣٢،٠٠٠ رجل في القوارب، وعلى مدى ١٢ رحلة خلال ثلاث ساعات ثم تدعيمهم بعد ذلك بحوالي ١٠٠٠ دبابة و١٣٥٠٠ مركبة خلال ٦ ساعات من بدء تشغيل المعديات والكباري بينما المعركة تدور على أشدها- لهو عمل شاق يحتاج إلى الكثير من المهارة وإلى قدر كبير من الانضباط ومستوى عال من السيطرة.

ولتحقيق هذه السيطرة قمنا باتخاذ الإجراءات التالية:

١- ترقيم القوارب المخصصة لنقل المشاة بأرقام متسلسلة من اليمين إلى اليسار داخل الفرقة من رقم ١ إلى رقم ١٤٤.

٢- تحديد نقطة انطلاق كل قارب من ناحيتنا ونقطة وصوله إلى الجانب الآخر بعلامة إرشاد كبيرة يمكن رؤيتها وتمييز رقمها نهارا أو ليلا من الجانب الآخر، وذلك حتى يعرف كل قارب وجهته في الذهاب والعودة

٣- تم تخطيط طرق طولية تسلكها الوحدات في طريقها إلى نقط العبور، وأعطي لكل طريق رقم ولون مميز.

٤- تم تخطيط طرق عرضية تربط بين الطرق الطولية وأعطيت لها أسماء(أ.ب ج.. الخ).
٥- قمنا بعمل رسم تخطيطي لمنطقة شرق القناة حتى عمق ٦ كم، ورسمنا عليه خطوطا طولية تتقابل مع الخطوط الطولية التي في ناحيتنا، وتحمل الرقم واللون نفسيهما.
٦- تم تمييز كل وحدة ووحدة فرعية بعلامة مميزة توضع على خوذة الجندي.
٧- تقوم وحدات الشرطة العسكرية التي تعبر مع المشاة بحمل علامات التمييز والفوانيس التي تمكنها من تحديد الطرق شرق القناة طبقا للمخطط الذي سبقت الإشارة إليه (البند ٥ عاليه) وبالألوان المحددة نفسها.
٨- قمنا بطبع علامات مميزة تحدد أسبقية العبور، ويتم لصق هذه العلامة على زجاج العربات.
٩- أعطى لكل مركبة رقم مسلسل (طباشيري) يحدد أسبقية عبورها داخل وحدتها.
١٠- قمنا بصنع جداول تفصيلية تحدد الوقت الذي تفرج فيه عربات كل وحدة من منطقة التجمع والطريق الذي تسلكه والمعبر المحدد لها والتوقيت الذي تبدأ فيه بالعبور (جميع التوقيتات تم تقديرها على أساس ساعة الصفر مضافة إليها كذا.. دقيقة).
١١- كان تلقين المعلومات يصل إلى مستوى الجندي وسائق المركبة، فقد كان كل فرد يعرف ما يخصه بالتفصيل ويترك الباقي لقائدة ، كان الجندي مثلا مطلوبا منه أن يعرف رقم قاربه والأفراد الذين يركبون معه في القارب وترتيب الركوب وترتيب النزول ومن هو الجندي الذي يكون على يمينه ومن هو الجندي الذي يكون على يساره أثناء ركوب القارب الخ. أما السائق فكان يجب عليه أن يعرف رقمه (الطباشيري)، والوقت الذي يجب عليه أن يخرج فيه من حفرة الوقاية، والطريق الذي يسلكه، وأسبقيته داخل رتل وحدته، وأسبقيته في العبور، ورقم المعبر الذي يعبر عليه، وسرعة العبور، ثم رقم ولون الطريق الذي يسلكه بعد عبوره والاسم والعلامة المميزة للوحدة الفرعية التي سوف ينضم إليهما الخ.
١٢- تم تشكيل قيادة خاصة للسيطرة على عملية العبور.

قد يتساءل القارئ، ماذا يمكن أن يحدث لو تدخل العدو وانقلبت هذه التوقيتات رأسا على عقب؟ أليس من الممكن أن يتحول هذا العبور المنظم إلى فوضى عارمة ؟ وللإجابة عن ذلك أود أن أوضح أن جميع توقيتاتنا قد أدخلت في حسابها مثل هذا التدخل، وان التوقيتات التي ذكرنا تزيد كثيرا على التوقيتات التي أمكن تحقيقها في التدريب كما أن توقيتات العمليات حسبت على أساس حوالي ضعف التوقيتات التي يمكننا تحقيقها في التدريب نهارا وحوالي ٥٠% زيادة على التوقيتات التي يمكننا تحقيقها في التدريب ليلا، وبالتالي فإن توقيتاتنا المحسوبة تستطيع أن

تستوعب مثل هذا التدخل ما لم يتطور مثل هذا التدخل في بعض القطاعات إلى أعمال غير متوقعة.ومع ذلك فلكي نقابل مثل هذا الاحتمال أنشأنا قيادة خاصة لتنظيم عملية العبور وزودناها بكل ما تحتاجه من إمكانات وكان على قمة هذه القيادة في كل فرقة رئيس أركان الفرقة، كما كان رئيس أركان كل جيش هو المسئول الأول عن السيطرة على عملية العبور. كانت هذه القيادة تسيطر على ٤٠ نقطة عبور للمشاة في كل ١٨ قاربا و٣٥ معبر معدية في كل ٢-٣ معدية و ١٥ كوبريا (١٠ ثقيل و ٥ خفيف)، ولكي تستطيع الوحدات الفرعية الوصول إلى هذه النقط فإنه يتحتم عليها أن تمر في سلسلة من نقط المراجعة التي تملك سلطة السماح لها بالمرور أو إيقافها وذلك طبقا لخطة العبور وسير العمليات وقد أعطيت هذه القيادة سلطة التعديل في خطة العبور طبقا للموقف، فلو فرضنا مثلا انه تم تدمير أحد الكباري تدميراً كبيراً وأنه لن يمكن إصلاحه إلا بعد بضع ساعات فإنه يمكن تحويل العبور إلى كوبري آخر بالأسبقية نفسها التي كانت لها على الكوبري المدمر، وحتى نضمن السيطرة الكاملة على عملية العبور فقد خصصنا لهذه المهمة ٥٠٠ ضابط و١٠٠٠ ضابط صف وجندي ومعهم ٥٠٠ جهاز لاسلكي و٢٠٠ هاتف ميداني وما يزيد على ٧٥٠ كيلومترا من أسلاك الهاتف الميدانية.

هوامش الفصل السابع:

(١) لقد ساعدني في تحرير هذه الكشوفات خبرتي السابقة كضابط مظلات فقد سبق لي أن جهزت هذه الكشوفات عن كل فرد في الكتيبة عندما كنت قائدا لكتيبة المظلات ثم قمت بعمل هذه الكشوفات عن كل فرد في اللواء عندما كنت قائدا للقوات الخاصة لذلك عندما بدأت في عمل الكشوفات الخاصة بالفرقة كان الجزء الأكبر من هذا العمل قد سبق لي إنجازه.

(٢) قوات المشاة المترجلين المكلفين بالعبور طبقا للخطة كان عددهم ٢٠٠٠ ضابط و٣٠٠٠ رتبة

أخرى، وبذلك أصبح لدينا من الشدات الميدانية ما يغطي مطالبنا، بالإضافة إلى احتياطي مخازن حوالي ٥٠%.
(٣) سوق تباع وتشترى فيها الأصناف القديمة.
(٤) سوف نرى أن هذا السيناريو هو ما حدث فعلا -عدا أن هجوم العدو المضاد التعبوي الذي حذر مدير المخابرات الحربية من وقوعه بعد ما بين ٦-٨ ساعات لم يحدث- وبحلول صباح يوم ٧ من أكتوبر ٧٣ كانت عملية العبور العظيم قد تمت بنجاح باهر.

الفصل الثامن

إدخال عقائد جديدة

التصرف تجاه القنابل الزمنية:

كانت العقيدة السائدة في القوات المسلحة عند التعامل مع القنابل التي لم تنفجر تتلخص في أن نقوم بإخلاء المنطقة من جميع الأفراد ثم نتعامل مع القنبلة بعد ٢٤ ساعة سواء برفعها أو تفجيرها، كان ذلك يعني أن القنبلة التي لا تنفجر تعتبر اكثر وأبعد تأثيراً من القنبلة التي تنفجر فعلا. أن العدو في ظل هذه العقيدة يستطيع أن يسقط قنابل زمنية فوق الكباري وممرات الإقلاع في المطارات ضمن مجموعة أخرى من القنابل شديدة الانفجار، فإذا أصاب هذه الأهداف إصابات مباشرة فانه سوف يضمن أن إصلاح هذه الأهداف لن يبدأ إلا بعد مرور ٢٤ ساعة، وإذا ما فشل في إصابة هذه الأهداف فإنه سوف يضمن أيضا تعطيل استخدام هذه الأهداف لمدة ٢٤ ساعة على الأقل. وتصحيحا لهذا الوضع أصدرت تعليماتي بتعديل هذه العقيدة لتكون كما يلي:

١- القنابل التي لم تنفجر يتم التعامل معها بواسطة المهندسين فورا وفي أقصر وقت ممكن. وكنت أعلم أن هذه القنبلة قد تكون قنبلة زمنية وإنها قد تنفجر في أية لحظة طبقا للتوقيت الذي حدده العدو لها، ومع ذلك فان من واجبنا أن نقبل هذه المخاطرة.

٢- إذا سقطت إحدى القنابل أثناء المعركة بجوار أحد الكباري ولم تنفجر فإن تدفق قواتنا عبر الكوبري يستمر، كما لو انه لم يحدث شيء. ومما لاشك فيه أن هناك احتمالا أن تنفجر مثل هذه القنبلة قبل أن ينجح المهندسون في تأمينها، ولكن حتى لو حدث ذلك فأن خسائرنا في الأفراد قد تتراوح ما بين ٥-٢٠ رجلا، فإذا تصورنا انه خلال ساعة زمنية واحدة يمكن أن تعبر حوالي

٢٠٠ عربة قتال وقارنا بين تعطل عبور هذه القوة المقاتلة ومن احتمال – قد لا يحدث مطلقا– أن نخسر حياة عدد من الرجال اتضح لنا أن المخاطرة التـــي ركبناها هي مخاطرة محسوبة. إنهـــا الحرب وليست هناك حرب دون خسائر، وواجب القادة في النهاية هـــو الاختيـــار بـــين أخـــف الضررين.

٣- إذا ما سقطت قنبلة زمنية على أحد ممرات الطائرات من مطاراتنا العسكرية فـــان الإقـــلاع والهبوط يستمران في المطارات مادام إن ذلك لا يعوقهما عمليا، بينما يقوم المهندســـون بإبطـــال مفعول القنبلة.

العبور نهاراً:

من العقائد الأخرى التي قمنا بتغييرها في القوات المسلحة هو استمرار العبـــور علـــى الكبـــاري نهاراً. لقد كانت عقيدتنا حتى أوائل ١٩٧٣ تقضى بالا يتم العبور إلا ليلا، وقبل بزوغ الفجر نكون قد قمنا بفك الكباري وإخفائها ، ويستمر الحال على ذلك طوال النهار. فإذا جاء وقت العشاء (آخر ضوء) نبدأ في تركيب الكباري مرة أخرى لكي تعمل ليلا وهكذا. كان الهدف الأساسي من هـــذا الإجراء هو تلافى القصف الجوى المعادي ولكنني عندما بدأت في إجراء الحســـابات التفصـــيلية للعبور اتضح لي انه لن يمكننا– طبقا لهذا الأسلوب– إتمام العبور إلا على مدى ثلاث ليال، وهذا موقف خطير لا يمكن قبوله. لقد كـــان كل تفكيرنا قبل أن نتفق مع إخواننا السوريين هو أن نبدأ عملياتنا ليلا. إن ساعات الظلام بين العشاء والفجر هي تقريبا ٨ ساعات فإذا انقصنا من هذه المدة ٤ ساعات لتركيب وفك الكوبري فإن الوقت المتبقي للعبور يكون ٤ ساعات فقط أما الليلة الأولى للهجوم فسوف تستنفد في فتح الممرات في السد الترابي الذي يحتاج إلى ٥-٧ ساعات بعد بـــدء الهجوم، وبالتالي لن يكون هناك وقت لتركيب الكباري، معنى ذلك أن نبدأ في تركيـــب الكبـــاري خـــلال الليلة الثانية ونستخدمها في أحسن الظروف لمدة ٤ ساعات ثم نستخدمها في الليلة الثالثـــة لمدة ٤ ساعات أخرى، أي إن العبور يتم على مدى ثلاث ليال متتالية . إن عبورا بهذا الأســـلوب لا يمكن أن نضمن له النجاح، واعتبارا من منتصف عام ١٩٧٢ قررنا أن يستمر عبـــور قواتنـــا على الكباري نهارا إلى أن يتم عبور جميع القوات. هذا ويمكن الإقلال من تأثير القصف الجـــوى المعادى سلبيا عن طريق استخدام الدخان والكباري الهيكلية، وإيجابيا عن طريق تقويـــة الـــدفاع الجوى عن الكباري.

تخصيص كوبريين لكل فرقة:

إن تخصيص كوبريين لكل فرقة من فرق النسق الأول كان من أهم القرارات التي اتخذت خلال فترة التخطيط والتحضير للعمليات. لقد كانت خططنا حتى عام ١٩٧٢ هي أن نخصص كوبريا واحد، لكل فرقة من فرق النسق الأول، ولكنى عندما كنت أقوم بتجهيز "التوجيه رقم ٤١" خلال الربع الأخير من عام ٧٢ اتضح لي أن تخصيص كوبري واحد للفرقة لن يكون كافيا. لقد كانت المعلومات المتيسرة لدينا في هذا الوقت هي أن العدو سوف يقوم بضربته المضادة التعبوية بعد ١٢ ساعة من بدء الهجوم. كنا نتوقع أن يوجه العدو ضرباته إلى ثلاثة رؤوس كباري من الخمسة التي قمنا بإنشائها بمعدل ٢-٣ ألوية مدرعة في كل اتجاه، لذلك قمنا بإجراء حساباتنا على أساس أن يكون لدى كل فرقة الأسلحة الكافية التي تمكنها من صد مثل هذا الهجوم، ولكن اتضح لنا أن كوبريا واحد لن يسمح بعبور جميع هذه الأسلحة في الوقت المناسب الذي يتيح لها الاشتراك في معركة صد الهجوم المضاد، لذلك كان لابد لنا من تخصيص كوبريين لكل فرقة وهنا يجب أن نتوقف قليلا، حيث إن جميع الكباري الثقيلة التي كانت متيسرة لدينا -بما في ذلك المتفق على استيرادها- هو ١٢ كوبريا ، ولاشك أن استخدام عشرة كباري في اليوم الأول من الحرب بينما كل ما نملكه هو ١٢ فقط كان يعتبر نوعا من المخاطرة ولكنها كانت مخاطرة محسوبة. لقد كنت مقتنعا بأنه كلما أسرعنا في العبور زادت فرصتنا في النجاح.

الفصل التاسع

البحث في جميع المجالات

قامت جميع هيئات وإدارات القوات المسلحة بالعديد من البحوث التي كانت تهدف إلى البحث عن الحلول للمشكلات التي تتعلق بالمعركة الهجومية بصفة عامة وبمعركة العبور بصفة خاصة. كانت هذه البحوث تتعلق بالتنظيم، والتسليح، والمعدات الفنية والإدارية، وما يرتديه الجندي من ملابس ومهمات، وما يأكله أثناء المعركة الخ. كانت هذه البحوث تحاول أن تبتكر أسلحة ومعدات جديدة أو أن تقوم بتحسين وتطوير الأداء بالنسبة للأسلحة والمعدات المتيسرة وقد اشتركت معنا في عدد من هذه البحوث وزارة البحث العلمي وبعض الإدارات الحكومية الأخرى، وقد بلغ مجموع هذه البحوث ما بين يوليو ٧١ ويوليو ٧٣ اكثر من مائة بحثا ولعل أكثرها طموحا هو البحث الخاص بـ" الرجل الطائر"، وقد نجحت بعض هذه البحوث بينما فشل بعضها الآخر في

التوصل إلى حلول للمشكلات التي كانت تعالجها. وسوف اذكر هنا بعضا من تلك البحوث التي تمت خلال السنتين اللتين سبقتا حرب أكتوبر٧٣.

القاهر والظافر:

لقد قيل الكثير عن امتلاك مصر لصواريخ يطلق عليها اسم "القاهر" ويصل مداها إلى حوالي ٢٠٠ كيلومتر أو اكثر، ويبدو أن السلطات المصرية كان يسعدها تشجيع هذه الأقوال وتغذيتها، وقد كان الصاروخ القاهر عنصر ٢ دائما في جميع الاستعراضات العسكرية المصرية قبل حرب ١٩٦٧، وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ أخذ المصريين يتهامسون "أين القاهر؟ هل استخدم في هذه الحرب أم لا ؟" ولم تكن هناك أية إجابة عن هذه التساؤلات إلا الصمت الرهيب من السلطات المختصة جميعها. وعندما استلمت أعمال (ر.أ.ح.ق.م.م) لم يتطوع أحد ليخبرني بشيء عن "القاهر" أو "الظافر" ولكنى تذكرتهما فجأة وأخذت أتقصى أخبارهما إلى أن عرفت القصة بأكملها. لن أقص كيف بدأت الحكاية، وكيف أنفقت ملايين الجنيهات على هذا المشروع، وكيف توقف، وكيف ساهم الإعلام المصري في تزوير الحقائق وخداع شعب مصر. إني اترك ذلك كله للتاريخ ولكني سأتكلم فقط عن الحالة التي وجدت فيها هذا السلاح وكيف حاولت أن استفيد- بقدر ما أستطيع- من المجهود والمال اللذين أنفقا فيه. لقد وجدت أن المشروع قد شطب نهائيا وتم توزيع الأفراد الذين كانوا يعملون فيه على وظائف الدولة المختلفة، أما القاهر، والظافر، فكانت هناك عدة صواريخ منهما ترقد راكدة في المخازن. لقد كانت عيوبهما كثيرة وفوائدهما قليلة ولكني قررت أن استفيد منهما بقدر ما تسمح به خصائصهما، وقد حضرت بيانا عمليا لإطلاق "القاهر" يوم ٣ من سبتمبر ١٩٧١. لقد كانت قذيفته تزن ٢,٥ طن وتحدث حفرة في الأرض المتوسطة الصلابة بقطر ٢٧ مترا وعمق ١٢ مترا، وتبلغ كمية الأتربة المزاحة حوالي ٢٣٠٠ متر مكعب وكما يبدو فإن القوة التدميرية لهذا السلاح تعتبر رائعة ولكن كفاءة السلاح الميداني لا تقاس فقط بقوة التدمير، فقد كانت هناك عيوب جوهرية في هذا السلاح تجعله أقرب ما يكون إلى المقلاع أو المنجنيق اللذين كانا يستخدمان خلال القرون الوسطى. لقد كان كبير الحجم والوزن، إذا تحرك فإن مركبته تسير بسرعة ٨- ١٠ كيلومترات في الساعة وعلى أرض ممهدة أو صلبة، وإذا أطلق فإنه يطلق بالتوجيه العام، حيث انه ليست لديه أية وسيلة لتحديد الاتجاه سوى توجيه القاذف في اتجاه الهدف قبل تحميل المقذوف على القاذف ، أقصى مدى يمكن أن يصل إليه هو ثمانية كيلومترات ولا يمكن التحكم في المسافة إلا في حدود ضيقة وعن طريق رفع زاوية الإطلاق أو خفضها. وفي أثناء التجربة أطلقنا ٤ مقذوفات بالاتجاه نفسه والزاوية نفسها فكانت نسبة الخطأ

تصل إلى ٨٠٠ متر، وعلى الرغم من ذلك كله فقد قررت أن أستهلك هذه الصواريخ خلال حرب أكتوبر وشكلت وحدة خاصة لهذا السلاح، وأطلقنا عليه اسم "التين "، ولم يكن في استطاعتنا طبعا أن نستخدمه ضد أي هدف يقع شرق القناة مباشرة لأن عدم دقة السلاح قد يترتب عليها سقوط القذيفة على مواقعنا التي تقع غرب القناة ولا يفصلها عن مواقع العدو سوى ٢٠٠ متر فقط ولم يكن في وسعنا أن نبعث به إلى الجبهة قبل بدء العمليات، حيث إنه لو حدث واكتشف العدو وجوده فقد يعتقد الإسرائيليين- بناء على ضخامة حجمه- أنه قادر على ضرب تل أبيب، لذلك أجلنا تحركه حتى ليلة الهجوم، أي انه تحرك إلى الجبهة خلال ليلة ٦/٥ من أكتوبر ٧٣.
لم تكن نتائج استخدامه طيبة، ولكننا- كما سبق أن قلت- حصلنا عليه من بين الأصناف الراكدة ولم نكن لنخسر شيئا نتيجة لاستخدامه، ولكني فوجئت بان الرئيس السادات يعلن صباح يوم ٢٣ من أكتوبر ٧٣ إننا أطلقنا "القاهر" على العدو الذي يحتل منطقة الدفرسوار قبل وقف إطلاق النار مساء **يوم** ٢٣ **من** أكتوبر ببضع دقائق، **و**إني أعلن وأقرر أن هذا الادعاء باطل ولم يحدث مطلقا. أن كل ما حدث هو إطلاق ثلاث قذائف سوفيتية الصنع بواسطة من R-17-E [(١)]، وأنى لأتعجب**!** من الذين يريد السادات خداعهم: أمريكا أم إسرائيل أم شعب مصر؟ أن من السذاجة أن يعتقد السادات انه يستطيع أن يخدع أمريكا أو إسرائيل بمثل هذا القول. حيث أن إمكانات أمريكا الاستطلاعية بواسطة الأقمار الصناعية وطائرات الاستطلاع التي تطير خارج مدى صواريخنا، ووسائل الاستطلاع الإلكتروني، كل ذلك كفيل بأن يجعل مثل هذا الادعاء مثارا للضحك. إذن فالمقصود هو شعب مصر الذي لا يسمع ولا يقرأ إلا ما يقوله حاكم مصر. لا أعرف كيف سيرد السادات على هذه الكذبة، وأن كنت لا أستبعد أن يرد عليها بان يرتكب كذبة أخرى.

أما صاروخ الظافر، فهو الأخ الأصغر للقاهر، لقد كان أصغر حجما وأقصر مدى. وقد قامت الكلية الفنية العسكرية بتطويره بحيث يمكن إطلاق ٤ قذائف دفعة واحدة. لقد كان اكثر دقة من القاهر ولكنه مع ذلك لا يمكن اعتباره بين الأسلحة الدقيقة. ولقد حضرت أيضا بيانا عمليا عن إطلاقه يوم ٢٣ من سبتمبر ٧١، ثم حضرت عدة بيانات عملية أخرى لإطلاقه بعد ذلك وقررت استهلاك الموجود منه خلال حرب أكتوبر ٧٣. وفعلا تم تشكيل وحدة خاصة به و أعيدت تسميته لتكون "الزيتون". وقمنا بدفعه إلى الجبهة خلال الليالي الثلاث الأخيرة قبل المعركة. لقد كانت نتائجه في العمليات الحربية أفضل من أخيه القاهر، وكانت حرب أكتوبر هي الفرصة التي أمكن بها إسدال الستار نهائيا على "القاهر" والظافر" أو- طبقا لاسميهما الجديدين- "التين والزيتون ".

الحوامات hovercraft:

وفي مجال البحث عن المعدات الحديثة التي يمكن الاستفادة منها في عملية العبور فكرت في الحوامات hovercraft استقبلت مندوب الشركة الإنجليزية في مكتبي يوم ٢١ من يوليو ٧٢، ولكنى بعد أن درست معه خصائص جميع الأنواع المتيسرة لديهم لم أجد أن أيا منها يمكن آن يقدم حلولا جذرية لما يجول بخاطري. كانت أكبر هذه الحوامات ذات حمولة ١٧ طنا وسرعة ٦٠ عقدة في الساعة، و أخيرا قلت لمندوب "الشركة، هل تستطيع آن تصنع لي حوامة ذات حمولة ٥٠ طنا، ولا يهمني السرعة العالية، فإن ٣٠ عقدة تعتبر كافية حيث إنني أريد آن استخدمها لنقل الدبابات، بحيث تستطيع الواحدة منها آن تنقل دبابة واحدة في كل مرة ؟ أجاب مندوب الشركة بأنه يعتقد أن هذه المشكلة يمكن حلها فنيا، وانه سيبحث الموضوع مع شركته ثم يخبرني بالنتيجة. وفي خلال سبتمبر من العام نفسه عاد إلي ليبلغني بان الشركة قد قامت بصنع التصميم اللازم طبقا للطلبات التي حددتها لهم، وانه في استطاعة الشركة القيام بإنتاج الحوامات المطلوبة. لم يكن ذلك فحسب، بل انه احضر معه نموذجا مصغرا لهذه الحوامة، و لقد كان النموذج رائعا ويحقق كل ما كنت أفكر فيه. ولكن للأسف الشديد فإن ثمن خمس حوامات كنت أود الحصول عليها لم يكن متيسرا ولم أستطع الحصول عليه وهكذا وضع المشروع على الرف. لقد كان هدفي هو آن أستخدم هذه الحوامات في نقل عدد من الدبابات عبر بحيرة التمساح والبحيرات المرة لقد عبرنا تلك البحيرات خلال حرب أكتوبر بواسطة الدبابات والمركبات البرمائية، ولكن شتان ما بين الدبابة البرمائية ذات الدرع الحفيف والمدفع عيار ٧٦ مم والدبابة ت ٥٤ أو ت ٥٥ ذات المدفع ..١مم أو الدبابة ت ٦٢ ذات المدفع ١١٥ مم. لو إننا كنا نملك هذه الحوامات قبل حرب أكتوبر ٧٣ لأمكننا أن نزيد من عدد دباباتنا التي ندفع بها في مؤخرة العدو. وبالتالي كان من الممكن آن نحصل على نتائج افضل، أنى أقول هذه القصة لألفت النظر إلى أن هذه الحوامات سوف تلعب دورا مهما في نقل الدبابات في حروب المستقبل.

كوبري مروان :

اتصل بي اللواء طلاس وزير الدفاع السوري خلال شهر مايو ٧٣، وأخبرني أن أحد ضباط سلاح الهندسة في الجيش السوري قد أخبره بأن لديه أفكارا جديدة فيما يتعلق بالكباري التي نقيمها على قناة السويس، وان هذه الكباري الجديدة يمكن آن توفر لنا الكثير من الوقت، وانه على استعداد لإرسال هذا الضابط إلى مصر ليكون تحت تصرفنا لأية فترة. رحبت بالفكرة حيث آن توفير ساعة زمنية واحدة كان يعنى بالنسبة لنا عبور حوالي ١٢٠٠ دبابة أو ٣٠٠٠ مركبة (كانت حساباتنا على أساس آن طاقة كل كوبري في الساعة هي عبور حوالي ١٢٠ دبابة أو ٢٠٠

مركبة. فإذا ضربنا هذا الرقم في ١٠ كباري ،فإن توفير ساعة زمنية واحدة تعنى عبور ١٢٠٠ دبابة أو ٢٠٠٠ مركبة). استقبلت الرائد السوري المهندس مروان في مكتبي يوم ٣٠ من مايو ٧٣، وحضر المقابلة كل من مدير إدارة المهندسين في القوات المسلحة والمدير العام لشركة التمساح التي كان عليها آن تقوم بصنع العينة الأولى من الكباري بعد الاستماع إلى الفكرة كانت فكرة المهندس مروان تعتمد على أساس آن يتفادى فتح ممرات في الساتر الترابي، وذلك بان يكون نصف الكوبري الذي من ناحية قواتنا عائما على الماء ثم يرتفع النصف الآخر، بحيث يستند طرفه البعيد على قمة الساتر الترابي، ونظرا لأرتفاع الساتر الترابي إلى حوالي ٢٠ مترا- كما سبق أن ذكرنا- فقد كان هذا يعني أن زاوية ميل الجزء المعلق من الكوبري ستكون كبيرة إذا بدأ الجزء المعلق في الارتفاع داخل السدس الأخير من القناة أما إذا بدأ الجزء المعلق في الارتفاع عن سطح المياه قبل ذلك فسوف تقل زاوية الارتفاع ولكن مقابل التضحية بقوة تحمل الكوبري وثباته. لم يتحمس مهندسونا للفكرة وأثاروا الكثير من نقاط التشكيك ولو انهم اعترفوا بأنه من الممكن تنفيذها هندسيا وأنا أيضا كنت أرى أن تطبيق الفكرة سوف يخلق لنا الكثير من المشكلات من وجهة نظر العمليات. إن عبور كوبري بهذا الميل سوف يحتاج إلى تدريب خاص ومستوى عال في قيادة المركبات قد يكون من الصعب توافره بين جميع السائقين. ماذا يحدث لو أن إحدى الدبابات أو العربات الثقيلة تراجعت للخلف فصدمت ودمرت المركبة التي خلفها؟ ماذا يحدث لو أن الجزء المعلق من الكوبري دمر بواسطة العدو؟ إن إصلاح الكوبري العائم باستبدال جزء أخر يتم في سهولة ويسر أما بالنسبة للكوبري المعلق فأن الوضع يختلف، كما إن فرصة العدو في إصابة الكوبري المعلق أو المركبة التي تعبر عليه أفضل بكثير من فرصة إصابة المركبة وهي تعبر على الكوبري العائم (انظر شكل رقم ٤).

وعلى الرغم من هذه المشكلات كلها، فقد وافقت على أن نقوم بعمل عينة للكوبري، وبعد عمل العينة حضرت إجراء تجربتها ولكن النتائج لم تكن مشجعة. اقترح المهند س مروان أن نرسي طرف الكوبري على نقطة متوسطة من الساتر الترابي ثم نرسل بلدوزر إلى الشاطئ الآخر يقوم بالعمل في الساتر الترابي إلى أن ينفض ارتفاعه إلى مستوى معقول يستقر عليه طرف الكوبري ثم نبدأ في العبور فوق الكوبري كان هذا التعديل الجديد يزيد العملية تعقيدا ومع ذلك تركت المهندس مروان في تجاربه كنوع من استمرار الدراسة وكعمل من أعمال الخداع [٢]. كانت آخر تجربة حضرتها عن كوبري مروان يوم ٢٣ من سبتمبر ٧٣، وبعد حضور هذه التجربة طلب مني الرائد مروان أن يعود إلى بلاده فوافقت بعد أن شكرته على المجهودات الضخمة التي بذلها

خلال أربعة اشهر متتالية، وعلى الرغم من أن كوبري مروان لم يكتب له النجاح إلا أن القصة تدل على أن العقول المصرية والسورية لم تتوان عن التعاون معا لحل المشكلات التي تعترضها مهما كانت التحديات والتضحيات.

الاستشعار من بعد:

في خلال شهر مايو ٧٣ وصلني خطاب من الدكتور عبد الهادي-الأستاذ المصري في جامعة أوكلاهوما في الولايات المتحدة-أبلغني فيه إنه يريد أن يطلعني على نظام جديد يمكن بمقتضاه اكتشاف أية معادن أو مياه تحت سطح الأرض بموجب معدات خاصة يتم تركيبها في الطائرات وانه يعتقد انه من الممكن أن نستفيد من تطبيق هذه النظرية في النواحي العسكرية، كما أخبرني بأنه قد سبق له أن أرسل عدة خطابات إلى العديد من المسئولين لعرض هذا الموضوع، ولكن لم يستجب إليه أحد. وفي خلال أيام كان الدكتور عبد الهادي في مكتبي يشرح لي النظرية الجديدة التي قال عنها إن شركات البترول تستخدمها الآن في البحث عن حقول البترول، إن النظرية تعتمد أساسا على إن كل مادة لها درجة حرارة تختلف عن درجة حرارة المواد الأخرى التي تتواجد معها في المحيط نفسه. ونتيجة لذلك، فإن المياه الجوفية أو النفط في باطن الأرض تكون درجة حرارته مختلفة عن درجة حرارة الأرض التي تحيط به، كذلك فإن الدبابة أو العربة إن وضعت داخل جراج فإن درجة حرارتها تكون مختلفة عن درجة حرارة حوائط وسقف الجراج. وتطبيقا لهذه النظرية فإنه إذا أمكن قياس درجات حرارة هذه الأجسام على شكل نبضات تلتقطها أجهزة الطائرات فإنه يمكن تسجيل هذه النبضات وتفسيرها على شكل صورة، وإذا كان الفرق في درجات الحرارة بين الجسم الذي نرغب في اكتشافه وبين الأجسام التي تحيط به يزيد على ٠،٢ من الدرجة المئوية. وقد أطلعني على إحدى المجلات العلمية، وكان بها مقالة عن الدول التي تستخدم هذه النظرية وكانت إسرائيل من بين تلك الدول، لقد كان كلام الدكتور عبد الهادي واضحا ومنطقيا ولم يكن ينقصني إلا التجربة العملية لكي نتحقق مما يقول فوافق على ذلك. وفي أثناء مناقشاتنا علمت منه أن هناك أجهزة للالتقاط وهي أجهزة سهلة وبسيطة وهي معه حاليا في مصر، أما أجهزة التفسير فهي أجهزة معقدة ثقيلة ولا توجد معه ولذلك يجب أن يرسل الأفلام الملتقطة إلى الجامعة في أوكلاهوما لتفسيرها، وهنا كانت المشكلة. فقد كنا في مصر في ذلك الوقت سواء على المستوى الشعبي أم على المستوى الرسمي- لا نفرق بين أمريكا وإسرائيل، فكل سر تعرفه أمريكا عنا نفترض- بطريقة آلية أنه قد انتقل إلى العدو. أبديت شكوكي وتخوفي من هذه النقطة فأراد أن يطمئنني بأن أنتخب مكان التصوير لأغراض التجربة بحيث يكون بعيدا

عن أي هدف عسكري، وبعد آن اقتنع بالتجربة فإننا نعمل على تدبير أجهزة التفسير الخاصة بنا. وبالتالي يصبح لدينا جهاز مستقل للالتقاط والتفسير، فوافقت على ذلك.
بعد هذه المقابلة استدعيت بعض مساعدي لبحث الموضوع معهم، ولكنى فوجئــت بمــدير إدارة المخابرات الحربية يقول لي. لقد ذهلت عندما علمت بان سيادتكم قد قابلتم الدكتور عبد الهــادي. إنه معروف لدينا بأنه عميل لوكالة المخابرات الأمريكية "CIA" [٣]. سألته عما إذا كانت لديه أيــة اتهامات محددة يمكن آن يوجهها إليه، فأفاد بالنفي، فقلت له: "لحسن الحظ فإن أخلاقي وطبــاعي تختلف عن طبيعة رجال الخدمة السرية، أنى أتعامل مع كل وطني على أنه رجل شريف إلى أن يثبت العكس، أما أنتم فإنكم تشككون في كل فرد إلى أن يثبت العكس. أنا لا اعتقد آن الدكتور عبد الهادي هو جــاسوس لمجــرد انه أمريكي الميول والاتجاهات". وفي النهاية اتفقنا على أن نسير في إجراء التجــربة مع اتخاذ الإجراءات التي تضمن عدم تسرب المعلومات. في يوم ١٦ مــن يوليو ٧٣ استقبلت الدكتور عبد الهادي مرة أخرى بحضور اللواءين إبراهيم عبد الفتاح ومصطفى كمال، حيث تم الاتفاق معه على الإجراءات الخاصة بالتجربة، وخصصنا إحدى الطائرات وحددنا القطاع الذي يتم تصويره ليلا، وتمت التجــربة وجاءت نتائج تفسير الفيلم رائعة وتدل على سلامة النظرية في التطبيق العملي. كان الوقت يقترب بسرعة من موعد حرب أكتــوبر ولــم أســتطع تمصير جهاز الاستشعار من بعد قبل الحرب، ولكنني نجحت في وضع النواة التي آمل أن تنمــو وتكبر على مر الأيام [٤].

العلاقة بين التكلفة وقدرة الأداء cost effectiveness:

في ذات يوم من عام ١٩٧٣ استدعيت رئيس هيئة الشئون المالية في القوات المسلحة وســألته عن تكلفة إنشاء وإدامة كل وحدة من وحدات القوات المسلحة، ولكنه أخبرني بأنه لا توجد لديــه إجابة حاضرة وسريعة عن هذا السؤال، فإن تحضيره يحتاج إلى مجهود ووقت طويلين، لمــاذا ؟ لأن ميزانية القوات المسلحة يتم تحضيرها على أســاس الصنف وليس علــى أســاس الوحــدة المتكاملة، أي أن هناك ميزانية للتسليح وميزانية للمركبات وميزانية للمباني والمعسكرات وميزانية للملابس وهكذا. وحيث إن كل وحدة هي في الواقع خليط من كل هذا، فإنه للإجابة عــن ســؤالي يجب أن يأخذ كل وحدة ويقوم بتحليلها إلى تلك العناصر ثم يقوم بإجــراء حســاب التكاليف لكل عنصر من هذه العناصر داخل الوحدة الواحــدة ثم يقوم بتجميع حساب علــى الــرقم الإجمــالي لحساب تكلفة هذه العناصر لكي يحصل على الرقم الإجمالي لتكلفة الوحدة. قلت له: كيف يمكنني أن أفضل بين لواء صواريخ مضادة للطائرات وبين سرب من المقاتلات إذا لم أكن علــى علــم

بمعرفة تكلفة إنشاء إدامة كل منهما حتى تكون الأفضـــلية علـــى أســـاس ثمـــن التـــأثير " cost effectiveness". أجـــاب بأنه يقدر أهمية هذا الموضوع وأنه سوف يقوم بتشكيل مجموعة عمل لتنفيذ هذه المهمة، ولكنه حذر مقدما من أن ذلك سوف يحتاج إلى وقت طويل وانه لا يستطيع أن يضمن الدقة التامة لهذه التقديرات.

وكخطوة مبدئية طلبت معرفة نسب توزيع الميزانية العسكرية على أوجه الأنفاق الرئيسية، فاتضح لي أن ميزانية القوات المسلحة عن عام ٧٣ كانت موزعة طبقا لما يلي:

رواتب وأجور وإيواء ٦٨%

تسليح ١٣%

صيانة أسلحة ومعدات ٩%

تحصينات ٦%

أصناف أخرى متنوعة ٤%

إجمالي ١٠٠%

في البلاد المتطورة– حيث لا تكون هناك أية قيود على شراء السلاح– يبدأ تســـليح القـــوات المسلحة بالقرار الذي تتخذه الدولة من حيث تحديد المبالغ المخصصـــة لشئون الدفاع، وعلى أثر ذلك يشرع المختصون بشئون الدفاع في بحث أفضل الطرق لاستخدام هذه الاعتمادات الماليـــة– ومع أن القرار الأصل هو قرار سياسي في المقام الأول والقرار الثاني هو قرار عســـكري فـــي المقام الأول، فإن صانعي القرار في كلتا الحالتين يتأثرون بالحوار الذي يجرى بين الطرفين قبل اتخاذ هذه القرارات. هذا **ما** يحدث في البلاد المتطورة أما في البلاد التي مازالـــت فـــي مرحلـــة التطوير –أو بكلمة أعم في دول العالم الثالث– فإن الموقف ليس بهذه السهولة. أن سوق الســـلاح تسيطر عليها الكتلتان الكبريان: الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، إن قرار أي من أمريكا أو الاتحاد السوفيتي إمداد إحدى دول العالم الثالث بالسلاح يخضع لعوامل كثيرة أهمها الحفاظ على تـــوازن القوى بين مصالح الدولتين العظميين في المنطقة، والتقدم الفني والتكنولوجي ومدى القدرة علـــى استيعاب الأسلحة المتقدمة، ومقدرة الدولة على دفع ثمن السلاح، ومدى التزام الدولة التي تشتري السلاح بالخط السياسي الذي لا يتعارض مع مصالح الدولة المصدرة له. وهكـــذا فـــإن صـــانعي القرار في دول العالم الثالث ليست لديهم الكلمة الأخيرة في تحديد واختيار السلاح الذي يريدونه.

وإذا قارنا أوجه الإنفاق في ميزانيتنا العسكريـــة عام ٧٣ بمثيلاتها في الدول الغربية فإننـــا نجـــد تباينا واضحا. فعلى الرغم من انخفاض الرواتب والأجور التي يحصل عليها الجندي والضـــابط

المصريين، وعلى الرغم من مستوى المعيشة المتواضع جدا الذي توفره القوات المسلحة لرجالها فإن تكلفة الرجال وحدهم تشكل ٦٨% من اعتمادات الدفاع مقابل ٥٠% في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا [٥]. إن أول ما يتبادر إلى الذهن نتيجة لهذه الأرقام هو أننا نستخدم عددا أكثر من الأفراد لتشغيل معداتنا الحديثة، وأننا مازلنا نعتمد على الجندي المسلح بالبندقية أكثر من اعتمادنا على الأسلحة المتقدمة والإلكترونية، ولاشك أن هناك نصيبا كبيرا من الحقيقة في هذا القول، ولكن هناك أيضا عوامل أخرى كثيرة لا مجال لبحثها الآن.

في مساء يوم ٢٦ من أغسطس ٧٣ كنت مدعوا على العشاء في فندق ميناهاوس من قبل السيد حسين الشافعي، الذي كان يقوم بأعمال رئيس الجمهورية بالنيابة- نظرا لوجود الرئيس السادات خارج القطر- وكان يقيم مأدبة عشاء على شرف الرئيس معمر القذافي الذي كان قد حضر فجأة إلى القاهرة في اليوم السابق. كان يجلس بجواري الدكتور حجازي نائب رئيس الوزراء ووزير الاقتصاد [٦]. تحدثت مع الدكتور حجازي بخصوص مناقشتي مع رئيس هيئة الشئون المالية بالقوات المسلحة بغرض تحديد تكلفة إنشاء وإدامة كل وحدة من وحدات القوات المسلحة، وسألته عما إن كان يستطيع مساعدتنا في هذا الموضوع. فما إن سمع الدكتور حجازي كلامي عن هذا الموضوع حتى قفز فرحا وقال سوف أقدم مساعدتي في هذا الموضوع، ليس بصفتي وزيرا للاقتصاد والمالية ولكن بصفتي الدكتور حجازي الذي حصل على شهادة الدكتوراه في الموضوع نفسه الذي تحدثني عنه وتطلب مساعدتي فيه. لقد حاولت أنا نفسي أن أفعل ما تريده أنت الآن فيما يتعلق بالميزانية المدنية ولكنى لم أنجح. إن تنفيذ هذا الموضوع يحتاج إلى انضباط شديد وأنا لم أستطع أن أفرض هذا الانضباط على الجهات المدنية، أما في القوات المسلحة فإن فرصتنا في النجاح ستكون افضل بكثير. إن الانضباط موجود وعلاوة على ذلك فإن رئيس أركان حرب القوات المسلحة يؤيد هذا المشروع ويسانده، لقد نجح ماكنمارا في تعديل ميزانية الدفاع في القوات المسلحة الأمريكية بالأسلوب الذي تطلبه أنت الآن، وإني أعتقد أن بإمكاننا أن نحقق في مصر ما استطاع ماكنمارا أن يحققه في أمريكا".

كان الدكتور حجازي شديد التحمس لهذا الموضوع واتفقنا على أن نتقابل بعد عودته من رحلة إلى الخارج كان يزمع القيام بها، وذلك لمناقشة التفاصيل والاتفاق على الخطوط العريضة التي سوف تتبع لدراسة هذا الموضوع. لقد كانت تلك المأدبة بعد يومين فقط من إنهاء المؤتمر المشترك بين القيادتين العسكريتين المصرية والسورية. والتي تم الاتفاق فيها على تحديد يوم الهجوم، وكنا فقط في انتظار تصديق الرئيسين السادات وحافظ الأسد. كانت عجلة الحرب قد

بدأت في الدوران وكان واضحا انه لن يتسع الوقت لإجراء هذه الدراسات وعدت الدكتور حجازي بأني سأتصل به مرة ثانية بعد عودته من الخـــارج ولكني لم أفعل ذلك فقد كنت مشغولا بوضـــع اللمســـات الأخيرة للمعركة الهجومية التي بدأت في ٦ من أكتوبر.

هوامش الفصل التاسع:

(١) يطلق عليه الغرب اسم "SCUD".

(٢) كان ميعاد الحرب قد تحدد في أواخر أغسطس وكان واضحا انه حتى بفرض نجاح الفكـــرة فإن عامل الوقت لن يسمح باستخدامها لعدم توافر الوقت اللازم لإنتاج الكباري المطلوبة وتدريب السائقين .

(٣) ليتني أعرف رأي مدير إدارة المخابرات السابق، الآن وبعد مرور أكثر من ثمان سنوات على هذا اللقاء.

(٤) قامت مصر بعد حرب أكتوبر ٧٣، وبمساعدة الدكتور عبد الهادي نفســـه بإنشـــاء المركـــز الخاص بالاستشعار من بعد.

(٥) في أوائل الستينيات كانت هذه النسبة ٤٠% في بريطانيا، و ٣٠% في الولايات المتحدة.

(٦) عين رئيسا للوزراء في عام ١٩٧٤.

الفصل العاشر

تطور الدفاع الجوي في مصر

انهيار الدفاع الجوى عام ١٩٦٩:

لقد بدأنا في بناء القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ بجد وحماس شديدين، وبحلول سبتمبر ٦٨ كانت قواتنا البرية قد وصلت إلى مستوى يسمح لها بتعدي الوجود الإسرائيلي شرق القناة، وهكذا بدأ ت حرب الاستنزاف. لقد كان الهدف العسكري من هذه الحرب هو رفع معنويات جنودنا التي اهتزت نتيجة هزيمة ٦٧ النكراء وفي الوقت نفسه إرهاق العدو وتكبيده أكبر ما يمكن من الخسائر في الأرواح، وقد كان أسلوبنا في ذلك هو قصف مواقع العدو شرق القناة بالمدفعية وإرسال الدوريات عبر الشـــاطئ الآخر للقيام بأعمال الكمائن والإغارة ليلا، والتي كان يقع عبثها الأكبر على عاتق رجال الصاعقة وكانت القيادة العامة للقوات المسلحة قد قررت إيقاف هذه العمليات بعد أن قامت إسرائيل بدفع جماعات التخريب المنقولة جوا إلى أعماق مصر وقامت بنسف بعض الأهداف الحيوية ومنها محطة كهرباء نجع حماد، وبعد توقف دام حوالي أربعة أشهر إستؤنفت حرب الاستنزاف مرة أخرى في مارس ٦٩ ورد العدو على ذلك بتصعيد عمليات

إغارته على أهدافنا في العمق.

وفي خلال يوليو ٦٩ دفع العدو بقواته الجوية في معارك الاستنزاف وقام بتدمير دفاعنا الجوى في القطاع الشمالي من القناة وبذلك فتح ثغرة واسعة في وسط الدفاع الجوي ما بين بور سعيد شمالا والإسماعيلية جنوبا، وأصبح في استطاعته أن يعبر بطيرانه من خلال هذه الثغرة إلى قلب الدلتا. وفي صباح ٩ من سبتمبر عبرت قوة إسرائيلية خليج السويس وأنزلت ٩ دبابات، وعددا من عربات القتال الأخرى في منطقة الزعفرانة، حيث قامت هذه القوة- تحت حماية الطائرات الإسرائيلية- بمهاجمة وتدمير بعض أهدافنا الأرضية الموجودة في المنطقة ثم انسحبت دون أي تدخل من قواتنا الجوية أو البحرية، حيث أن طيران العدو كان يسيطر على سماء المنطقة طول فترة الإغارات لقد كانت هذه الإغارة دليلا ساطعا على مدى ما يستطيع أن يفعله العدو في ظل سيطرة جوية كاملة. لقد اختار العدو منطقة الزعفرانة لهذه العملية بعناية فائقة. فقد كانت هذه المنطقة من وجهة نظر القيادة العامة للقوات المسلحة ذات أهمية ثانوية وبالتالي فإن القوات التي خصصت لها كانت قليلة ومنتشرة وضعيفة التسليح فقد كان واجبهم الأساسي هو المراقبة والعمل ضد جماعات التخريب الصغيرة التي تتسلل إلى المنطقة ولكن ليس لقتال قوة مدرعة. لقد كانت لديهم بعض الأسلحة المضادة للدبابات التي يصل أقصى مداها إلى ٦٠٠ متر، بينما كانت دبابات العدو تستطيع أن تدمر هذه الأسلحة وهي على مسافة ٢٠٠٠ متر دون أن يكون في ذلك أية مغامرة.

وقد بلغت مشكلة الدفاع الجوي في مصر أقصاها عندما كثف العدو غاراته في العمق، فدمر دفاعنا الجوي ثم بدأ يوجه غاراته على الأهداف المدنية من مصانع وكباري ومدارس الخ. ولكي يستعرض العدو إمكاناته وسيطرته الجوية قام بعملية فريدة في نوعها غريبة في طبيعتها. إذ قام بعملية إغارة على محطة رادار في منطقة البحر الأحمر ثم قام بفك الجهاز وتحميله في إحدى طائرات الهيلوكبتر وعاد به من حيث أتى، وبنهاية عام ١٩٦٩ كان دفاعنا الجوي قد انهار تماما و أصبحت سماء مصر مفتوحة أمام الطائرات الإسرائيلية تمرح فيها مثلما تشاء وحيث تشاء.

عناصر الدفاع الجوي:

إن أي نظام للدفاع الجوى المتكامل يجب أن يشتمل على أربعة عناصر رئيسية، ودونها فإن هذا النظام يعتبر نظاما هيكليا يسهل اختراقه وتدميره جزءاً جزءاً إلى أن يتم الإجهاز عليه نهائيا بواسطة الخصم. واصل هذه العناصر هو اكتشاف ومتابعة الطائرات المعادية على مسافة بعيدة تسمح لوسائل الدفاع الجوي الإيجابي والسلبي بان تتخذ الإجراءات المناسبة لمقابلة الطائرات

المغيرة والعنصر الثاني هو توافر طائرة مقاتلة تكون في مستوى أفضل من الطائرات المغيرة أو على أقل تقدير في مستواها حتى يمكنها أن تعترض الطائرات المغيرة وتشتبك معها وتطاردهـــا إلى خارج الحدود. أما العنصر الثالث فهو شبكة متكاملة من الصواريخ المضادة للطائرات التـــي تقوم بالدفاع الثابت عن الأهداف الحيوية مثل المطارات والسدود والكباري والمناطق الصـــناعية والمناطق المأهولة بالسكان الخ، ويجب أن تكون شبكة الصواريخ هذه في تطور مستمر يتمشـــى مع تطور طائرات العدو وقذائفه جو ارض SAM إن أية شبكة دفاع جوي حديثة يمكن أن تصبح عديمة القيمة بمجرد حصول العدو على نوع متطور من القذائف جو أرض، وعلى سبيل المثـــال فإن شبكة الدفاع الجوى المصري التي كانت تعتبر من أكفأ شبكات الدفاع الجوى في العالم فـــي أكتوبر ٧١، والتي كان في استطاعتها أن تصيب أهدافها وهي على مسافة حوالي ٢٠٠٠٠ متر قد أصبحت الآن عديمة القيمة تماما بعد أن امتلكت إسرائيل القذائف جو أرض الأمريكيـــة condor وبعد أن طورت القذيفة الإسرائيلية Gabriel لكي تطلق من الجو وبعد أن قررت إسرائيل تصنيع القذيفة LOZ محليا في إسرائيل على أن تكون في خدمة جيشها في أوائل الثمانينيات وتعتبر هذه القذيفة الأخيرة أفضل من القذيفتين السابقتين حيث أن مداها يصل إلـــى ٨٠كـــم- إن طـــائرات إسرائيل تستطيع أن تدمر شبكة الصواريخ المصرية بالقذائف Gabriel من مســـافة ٤٠ كـــم أو بواسطة القذائف LOZ من مسافة ٨٠كم دون أن تعطى الفرصة لشبكة الصواريخ المصـــرية أن تطلق قذيفة واحدة أما العنصر الرابع من عناصر الدفاع الجوي فهو الأجهـــزة الإلكترونيـــة، أن اكتشاف طائرات العدو المغيرة يعتمد عليها. كما أن القذائف جو جو AAM والقذائف جـــو أرض ASM التي تطلقها الطائرات على أهدافها تعتمد على الأجهزة الإلكترونية، وكذلك القذائف التـــي تطلق من الأرض إلى الجو SAMعلى الطائرات المغيرة تعتمد أيضا على الأجهزة الإلكترونيـــة، فضلا عن التقدم العلمي ليس له حدود يتوقف عندها. أن أي جهاز إلكتروني يمكن إبطال مفعولـــه بإجراء إلكتروني مضاد، وهذا الإجراء الإلكتروني المضاد يمكن إبطاله مرة أخرى بإجراء مضاد للمضاد، وهذا الإجراء المضاد للمضاد يمكن إبطاله مرة أخرى بإجراء مضاد للمضـــاد المضـــاد وهكذا دواليك. لذلك فان نجاح واستمرار أي دفاع جوي يتوقف على ارتباطـــه الوثيـــق بالتقـــدم الإلكتروني والتطوير المستمر في الأجهزة الإلكترونية المستخدمة.

أن الدفاع الجوي هو عملية باهظة التكاليف، ولكنه لا يقبل أنصاف الحلول فإما أن يكون هناك دفاع جوي متكامل ودائم التطور بحيث يستطيع أن يتمشى مع تطور القوات الجوية المعاديـــة، و إما أن توفر الدولة أموالها ومجهودها وتبني سياستها على أساس أنه ليس لديها دفاع جوي. انـــه

من الغباء والإسفاف أن تنفق مئات الملايين على دفاع جوي يستطيع العـدو أن يـدمره دون أن يخسر طائرة واحدة ودون أن تكون هناك أي فرصة لرجال الدفاع الجـوي أن يطلقـوا مقـذوفا واحدا.

السوفيت يشاركون في الدفاع الجوي:

في نهاية ديسمبر ١٩٦٩ استطاع الرئيس جمال عبد الناصر بواقعيته وحسه المرهف أن يلم بهذه الحقائق. لقد أدرك جمال عبد الناصر أن دفاعنا الجوى يخوض معركة غير متكافئةضـد عـدو يتفوق تفوقا ساحقا في إمكاناته. كان جمال عبد الناصر يعرف أن رجال الدفاع الجوي في مصر لم يكن تنقصهم الشجاعة أو الرغبة في الفداء، بل كان ينقصهم السلاح الذي يسـتطيعون بـه أن يواجهوا هذه الهجمات الضارية. لذلك سافر عبد الناصر إلى موسكو في يناير ٧٠ لكي يطلب من الروس أن يشاركوا بقواتهم في الدفاع الجوي عن مصر، وقد استجاب الاتحاد السوفيتي لطلب عبد الناصر وبدأت الإمدادات الروسية تصل إلى مصر خلال فبراير ومارس في سرية تامة، وبحلول شهر أبريل كانت الوحدات السوفيتية قد أصبحت جاهزة للقيام بمهامها القتالية. كانت هذه الوحدات تشمل جميع العناصر الرئيسية الأربعة في الدفاع الجوي، وكانت معها معدات حديثة لـم يسـبق لمصر أن حصلت عليها [1]. كان معها الرادارات والطائرات والصواريخ المضـادة للطـائرات SAM ومن بينها SAM6 والوحدات الإلكترونيـة. وفي يوم ١٨ من أبريل ٧٠ عـرف العـالم بوجود قوات سوفيتية في مصر، وذلك بعد أن قام بعض الطيارين السـوفيت بمطـاردة بعـض الطائرات الإسرائيلية المغيرة حتى خارج الحدود، وقد كانت جميع محادثاتهم اللاسلكية أثناء هـذه العملية تتم باللغة الروسية، وبعد هذا التاريخ أوقفت إسرائيل غاراتها في العمق وبـذلك أعطـت الفرصة لعناصر الدفاع الجوي المصري التي كانت قد أنهكت تماما لكي تعيد بنـاء نفسـها مـن جديد. لقد قام العدو ما بين يناير وأبريل ١٩٧٠ بالعديد من الغارات بلغت في مجموعهـا ٣٣٠٠ ساعة، واسقط خـلالها ٨٨٠٠ طن من المتفجرات، وفي أواخـر يوليـو ٧٠ تحركـت كتائـب الصواريخ المصرية SAM بوثبات **من** العمق وفي اتجاه الجبهة، وفي خـلال الأسبوع الأول **من** شهر يوليو ٧٠ تمكنا من إسقاط ١٠ طائرات معادية سقطت سبع منها فوق أرضنا، فأطلق علـى هذا الأسبوع لقب "أسبوع تسـاقط الطائرات"، وقد أصبح عيدا سنويا لوحـدات الـدفاع الجـوي المصري. أن يوم ٣٠ من يوليو ٧٠ الذي تم فيه إسقاط أول طائرتين من طـراز F4 بواسـطة صواريخنا SAM يعتبر يوما مشهودا في حياتنا، انه يعلن بعث الحياة من جديد في دفاعنا الجوي ويمثل فتحا جديدا لعصر الصراع بين القذيفة SAM وبين الطائرة ،لقد كان الصراع بين الطـائرة

والقذيفة صراعا مريرا خلال حرب أكتوبر دون أن يستطيع أي منهما أن يدعي بان لـــه التفـــوق على الآخر، ففي بعض الأحيان انتصرت الطائرة ودمرت أو أبطلت بعض قواعـــد الصـــواريخ، وفي أحيان أخرى انتصرت قواعد الصواريخ ودمرت الطائرات المغيرة وقـــد كانـــت الأجهـــزة الإلكترونية التي يستخدمها كل من الطرفين هي العامل الحاسم في تحديد نتائج المعركة، وســـوف يستمر الصراع في الحروب القادمة بين الطائرة والقذيفة. ولن يستطيع أي منهما أن يلغي وجـــود الطرف الآخر. وليست هناك إجابة مطلقة

تحدد من سينتصر ومن سينهزم- سينتصر من يملك الأفضل نوعا.. ستنتصر الطائرة إذا سلحت بقذائف جو أرض SAM أبعد مدى من قذائف SAM وكانت تملك أجهزة إلكترونية تستطيع بهـــا أن تبطل عمل الأجهزة الإلكترونية المعادية عموما والتي تساعد في توجيه القذائف SAM بصـــفة خاصة. وستنتصر القذائف SAM على الطائرات المعادية إذا كانت هذه الطائرات غيـــر مســـلحة بقذائف جو أرض SAM ذات مدى يزيد على مدى القذائف أرض جو وإذا كان لدى الدفاع الجوي أجهزة إلكترونية تستطيع أن تبطل مفعول الأجهزة الإلكترونية المعادية سواء الإيجـــابي منهـــا أم السلبي.

تطور قواتنا الجوية بعد هزيمة يوليو ٦٧:

كانت خسائرنا في الطيارين خلال حرب يوليو ٦٧ قليلة، حيث إننا خسرنا قواتنا الجوية في هـــذه الحرب بينما كانت ما تزال رابضة على أرض المطارات مما وضعنا في موقف يسمح لنا بإعادة بناء قواتنا الجوية في وقت أسرع مما لو كنا قد فقدنا الكثير من طيارينا. ومع ذلك فلم يكن مـــن السهل إعادة بناء قواتنا الجوية بشكل يسمح لها باللحاق بمستوى قوات العدو أو تضييق الفجوة بين القوات الجوية الإسرائيلية والقوات الجوية المصرية، كانت القوات الجوية الإسرائيلية تسبقنا بعشر سنوات على الأقل. كان طيارينا أقل عددا وأقل خبرة حيث أن خلق الطيار الكـــف عمـــل اكثـــر صعوبة من شراء الطائرات لأنه يحتاج إلى ٥ سنوات على الأقل، ثم يحتاج بعـــد ذلـــك إلـــى ٥ سنوات أخرى لكي يصل إلى قمة كفاءته. في خلال عام ١٩٧١ كان عدد الطائرات ميج ٢١ التي لدينا يزيد على عدد الطيارين، وذلك علاوة على قيام الروس بتشغيل ٨٠ طائرة ميج ٢١ مصرية بطيارين سوفييت .

لقد بدأت عملية إعادة بناء القوات الجوية في الأسابيع الأولى بعد هزيمة ٦٧ تحت ظروف بالغـــة الصعوبة، فقد كان على الطيارين القدامى أن يكونوا على استعداد دائم للإقلاع بطائراتهم كواجب من واجبات الدفاع الجوي، وكان عليهم في الوقت نفسه أن يقوموا ببعض الـــرحلات التدريبيـــة

لتدريب أنفسهم أو لتدريب الطيارين البدء ونتيجة لإرهاقهم زادت نسبة الحوادث بينهم أثناء التدريب زيادة كبيرة مما اضطر القيادة العامة إلى التخفيف من الواجبات الملقاة على عاتقهم سواء بالنسبة لواجب العمليات أم بالنسبة لساعات التدريب وبينما كانت قواتنا الجوية تمر بهذه الظروف الصعبة كانت القوات الجوية المعادية تتطور تحت ظروف مواتية بل مثالية. لقد كانوا في وضع يسمح لهم بالاطمئنان وعدم الخوف من أية هجمة جوية معاديه، وبالتالي فلم تكن هناك ضغوط على طياريهم للقيام بأعمال المناوبة المستمرة في الدفاع الجوي وكانت لديهم الخبرة والفن، وكانوا يأخذون الوقت الكافي في التدريب وتدريب طيارين جدد، وبالإضافة إلى ذلك كله كانت لديهم الطائرة الفضلى والأسلحة والأجهزة الإلكترونية الفضلى. تحت كل هذه التحديات بدأت القيادة العامة للقوات المسلحة في إعادة بناء القوات الجوية منذ الأسابيع الأولى لهزيمة يونيو٦٧. كان البناء يتم في جميع الاتجاهات استعدادا للمعركة التالية: كان تدريب الطيارين يجري على قدم وساق، كانت القواعد الجوية يجري بناؤها في أماكن متفرقة من القطر، كانت الملاجئ الخرسانية تبنىّ في القواعد لحماية الطائرات والطيارين من أي هجوم جوي مفاجئ، كانت عملية الدفاع الجوي والأرضي عن المطارات في تطور مستمر، كانت المجهودات تبذل في كل اتجاه بإعادة بناء قواتنا الجوية.

المهندسون وتأمين الدفاع الجوي:

أن تطوير وبناء الدفاع الجوي في مصر قد ألقى بمشكلات ومسئوليات جديدة على عاتق المهندسين، فقد قاموا ما بين عامي ٦٨ و ٧٣ بأعمال ضخمة لصالح الدفاع الجوي إذ بنوا للقوات الجوية حوالي ٥٠٠ ملجأ من ملاجئ الطائرات في حوالي ٢٠ قاعدة جوية عسكرية وذلك علاوة على ملاجئ الطيارين وغرف العمليات والمستشفيات وجميع الخدمات الأخرى داخل تلك القواعد الجوية. أما قوات الدفاع الجوي فقد حظيت بالنصيب الأكبر من مجهودات المهندسين، حيث تم بناء المئات من مواقع الصواريخ ارض جو SAM ومهدت مئات الكيلومترات من الطرق لربط هذه الشبكة داخليا وخارجيا. أما القوات البحرية والقوات البرية، فقد كانت متطلباتهما من الدفاع الجوي أقل بكثير من متطلبات القوات الجوية وقوات الدفاع الجوي، حيث إنها كانت تعتمد أساسا على الملاجئ الخفيفة، إن من الصعوبة بمكان حصر الأعمال الهندسية التفصيلية التي قام بها المهندسون لتأمين القوات المسلحة المصرية ضد الهجمات الجوية المعادية بين ٦٧ و ٧٣، ولكن من الممكن تصورها من حجم الأعمال التالية التي تم تنفيذها خلال هذه الفترة:

٣٠ مليون متر مكعب من أعمال الردم والحفر

٣ ملايين متر مكعب من الخرسانة
٢٠٠٠ كيلومتر من الطرق
١٠٠ ألف ملجأ من الملاجئ الخفيفة ٢×٤ أمتار أو ما يعادلها.

سحب الوحدات السوفيتية وأثره على الدفاع الجوي:

بحلول منتصف عام ١٩٧٢ كان من الممكن القول أن الدفاع الجوي قد وصل إلى مستوى مقبول، وفجأة وقع ما لم يكن في الحسبان عندما قرر الرئيس السادات دون أن يستشير أحدا من رجال القوات المسلحة طرد جميع الوحدات السوفيتية الموجودة في مصر في يوليو ٧٢. كانت جميع الوحدات الروسية التي في مصر هي وحدات تقوم بواجب الدفاع الجوي، حيث كان السوفيت يقومون بتشغيل ٣٠% من الطائرات ميج ٢١ التي تقوم بالدفاع الجوي وكانوا يقومون بتشغيل ٢٠% من كتائب الصواريخ أرض جوSAM، كما كانوا يقومون بتشغيل الغالبية العظمى من الوحدات الإلكترونية وكانت بعض المعدات الإلكترونية ممتلكات سوفيتية متطورة لم يوافق السوفيت على بيعها لنا على اعتبار إنها على درجة عالية من السرية. وهكذا غادرت هذه المعدات الإلكترونية مصر مع الوحدات السوفيتية، وقد أثر قرار سحب هذه القوات السوفيتية على قدراتنا في الدفاع الجوي تأثيرا كبيرا، ومع ذلك كان من الواجب علينا أن نعمل بجد لتخفيف هذا الأثر بقدر المستطاع. لقد استطاعت قوات الدفاع الجوي (أقصد وحدات الصواريخ ارض جو Sam) أن تهيئ الأفراد المدربين اللازمين لتشغيل كتائب الصواريخ التي كان يقوم الروس بتشغيلها وذلك بحلول نهاية ٧٢، أما القوات الجوية فقد عانت مرة أخرى من المشكلة القديمة وهي زيادة عدد الطائرات على عدد الطيارين، وقد دفعني هذا الموقف لأن اطلب من كوريا الشمالية أن تمدنا بعدد من الطيارين المدربين على قيادة طائرات الميج ٢١ فاستجابت لهذا الطلب وأرسلت لنا ٢٠ طيارا وصلوا إلى مصر في شهر يوليو ٧٣، ولهذا الموضوع قصة.

الطيارون الكوريون في مصر:

في خلال مارس ٧٣ كان نائب رئيس جمهورية كوريا الديمقراطية في زيارة رسمية لمصر، وكان يرافقه في الزيارة الجنرال زانج زونج Zang Zong نائب وزير الدفاع الكوري. الذي أبدى رغبته في أن يزور جبهة قناة السويس، وفي يوم ٦ من مارس توجهت معه إلى الجبهة وفي خلال الرحلة أخذنا نتناقش ونتبادل الرأي في الموضوعات العسكرية، وقد تحدثت له عن متاعبنا بخصوص إعداد الطيارين وان لدينا ميج ٢١ أكثر مما نستطيع تشغيله، ولاسيما بعد أن سحب السوفيت حوالي ١٠٠ طيار كانوا يقومون بتشغيل ٧٥ طائرة، ثم انتهزت الفرصة وقلت له "ترى

هل يمكنكم أن تمدونا بعدد من طياري الميج ٢١ ؟ أن ذلك سيكون ذا فائدة مشتركة للطرفين من ناحيتنا فإنكم ستحلون لنا مشكلة النقص في ميدانية لأن الإسرائيليين يستخدمون نفس الطائرات ويتبعون نفس التكتيكات التي ينتظر من عدوكم المنتظر في المنطقة أن يستخدمها ويتبعها". سألني عن عدد الطيارين الذين نحتاج إليهم، فقلت له: الطيارين وتسهمون في الدفاع الجوي، ومن ناحيتكم فأن طياريكم سيكتسبون خبرة قتالية إننا لا نتوقع منكم أن تملأوا الفراغ الذي تركه السوفيت ولو أنكم أرسلتم سربا واحدا لكان كافيا. وإذا احتاج الأمر مستقبلا لإرسال سرب آخر، فإنه يمكن بحث ذلك فيما بعد. كنا نتناقش كعسكريين ولكن كنا نعلم جيدا أن هذا الموضوع يحتاج إلى قرار سياسي من الطرفين، وقد وعد كل منا الآخر أن يبذل جهده في إقناع الجانب السياسي عنده لاتخاذ القرار المطلوب.

لم أجد أنا أية صعوبة في إقناع وزير الحربية ولكنه أخبرني بأنه سوف يستأذن أولا رئيس الجمهورية ، وبعد ذلك بعدة أيام وافق الرئيس السادات على الفكرة وجلست انتظر الرد الكوري بعد حوالي أسبوعين من رحيل الوفد الكوري عاد الجنرال زانج زونج مرة أخرى إلى مصر واخبرني بأن الرئيس الكوري كيم أيل سو نج Kim IL Song وافق هو الآخر، ولكنهم يدعونني إلى زيارة رسمية إلى كوريا لمعاينة الطيارين بنفسي قبل إرسالهم إلى مصر، وفي يوم ٢ من إبريل ٧٣ بدأت رحلتي إلى بيونج يا نج Piong Yang عاصمة كوريا الشمالية.

كانت رحلتي تمر بشنغهاي في الصين نظرا لعدم وجود أية خطوط جوية مباشرة إلى بيونج يانج، ولذلك قررت الحكومة الصينية مشكورة أن تستضيفني لمدة ثلاثة أيام قبل أن اصل إلى بيونج يانج يوم ٦ من أبريل. لم تكن زيارتي للصين زيارة رسمية ومع ذلك فقد احتفى الجانب الصيني بي وبالوفد المرافق لي احتفاء كبيرا، فقد أقام رئيس أركان حرب القوات المسلحة الصينية حفل عشاء على شرفي تبادلنا خلاله الآراء حول بعض الموضوعات العسكرية والسياسية، كما نظمت لي بعض الرحلات الترفيهية، فقمت بزيارة سور الصين العظيم في أقصى الشمال، وزرت الملاجئ العديدة التي أعدتها الصين لمقاومة أي هجوم نووي، كما زرت مترو أنفاق بكين الجديد والعديد من المتاحف. إن البساطة والاعتماد على النفس وإنكار الذات التي لمستها في الشعب الصيني وفي قيادته السياسية خلال إقامتي القصيرة في الصين ستبقى دائما من الذكريات الحية التي لا يستطيع الزمن أن يمحوها من الذاكرة.

استقبلت في بيونج يانج استقبالا حماسيا وأحيطت الزيارة بهالة كبيره من التكريم والتشريف كنت أينما ذهبت- سواء أكان مؤسسة عسكرية أو مصنعا في مغارة داخل الجبل الخ- أقابل بآلاف من

الناس يرحبون ويغنون ويلوحون بالأعلام، وبعد هذا الاستقبال الحار يبدأ الأفراد في استعراض خبراتهم وفنهم الذي كان يزيدني إثارة وفي إحدى الزيارات حضرت بيانا عمليا عن ضرب نار تقوم به وحدة من وحدات الحرس الوطني المكلفة بأعمال الدفاع الجوي، كانت الوحدة جميعها من الشابات الصغيرات، كن صغيرات الحجم حتى اعتقدت إنهن دون الخامسة عشرة ولكن قيل لي إنهن في الثامنة عشرة أو أكثر، كانت نتائج تدريبهن ممتازة وعندما قمت بتفقدهن بعد انتهاء المشروع التدريبي قلت لهن: "أني أشكركن على ما اظهرتنه من كفاءة في ضرب النار وليس عندي ما أستطيع أن أعبر به عن تقديري سوى أن أهديكن تلك "البيريه" التي ألبسها ثم خلعت "البيريه" القرمزية الخاصة برجال المظلات والتي كنت ألبسها أثناء الزيارة وسلمتها إلى قائد الوحدة".

هناك الكثير مما يمكن أن يقال عن كوريا الشمالية وعن رئيسها Kim IL Song إن ما أمكن تحقيقه خلال السنوات العشرين الماضية في هذه البلاد يعتبر شيئا من الصعب تصديقه، إنهم لم يعيدوا بناء بلادهم فقط بعد أن هدمتها الحرب الأهلية، بل استطاعوا أن يعتمدوا على أنفسهم في كل شئ، انهم اصبحوا قادرين على إنتاج الغالبية العظمى مما يحتاجون إليه عسكريا ومدنيا، إنهم ينتجون الدبابة والمدفع والجرار والماكينة الخ.. وإذا كانت الصين بمواردها الطبيعية الهائلة وبعدد سكانها الكبير قد استطاعت أن تعتمد على نفسها في تطوير نفسها دون عون خارجي من الدول المتقدمة [٢]، فإن كوريا الشمالية التي كان تعدادها ١٥ مليون نسمة فقط تعتبر مثالا فريدا لما يمكن أن تقوم به دولة صغيرة من عمل نحو تطوير نفسها دون الاعتماد على أي عون خارجي. إن الشعب الكوري بأكمله قد نظم وكأنه في ثكنة عسكرية كبيرة، ففي الساعة السابعة صباحا نرى التلاميذ الصغار وهم يحملون الفؤوس وأدوات الحفر الصغيرة التي تتناسب مع أحجامهم وهم يغنون أثناء سيرهم إلى منطقة العمل التي سوف يعملون فيها. إن كل فرد في الدولة سواء أكان كبيرا أم صغيرا يتحتم عليه أن يؤدي ساعات محددة من العمل اليدوي لمصلحة الدولة دون اجر. وتطبيقا لذلك فإن رصف الطرق وصيانتها وإنشاء الأنفاق والملاجئ إلى غير ذلك من المنافع العامة يتم إنشاؤها طبقا لجدول عمل ينظم هذا المجهود البشري الضخم، وقد استفاد الكوريون من طبيعة بلادهم الجبلية ومن وفرة الأيدي العامة في بناء الأنفاق الواقية من القنابل الذرية، وقد نقلوا إلى هذه الأنفاق مصانعهم وحتى مطاراتهم، فقد شاهدت اكثر من مصنع في باطن الجبل كما شاهدت مطارا كاملا لا يظهر منه سوى ممر الإقلاع، أما جميع المنشآت الأخرى، فقد كانت في باطن الجبل، لقد كان عملا رائعا يدعو إلى الانبهار حقا. عندما قابلت

الرئيس Kim IL Song قلت له: "سيادة الرئيس.. إذا قامت حرب نووية فأخشى أن يدمر العالم بأجمعه وألا يبقى سوى كوريا الديمقراطية". ضحك الرئيس وقال: "اسمع يا سيادة الفريق.. أنا أعرف تماما أنني لا أستطيع أن أتحدى الأمريكيين في الجو، لذلك فإن الحل الوحيد الباقي هو تلافي ضرباتهم الجوية ببناء الأنفاق ثم بعد ذلك نقوم بغمر سمائنا بنيران المدافع والرشاشات". [٣]. قمت بالتفتيش ومعاينة الطيارين الذين تقرر سفرهم إلى مصر، لقد كانوا من الطيارين ذوي الخبرة الجيدة وكان الكثيرون منهم لديه ما يزيد على ٢٠٠٠ ساعة طيران، وتم الاتفاق على أن تصرف لهم مرتبات بالجنيه المصري تتطابق تماما مع رواتب الطيارين المصريين. وقد وعدت الرئيس كيم إل سونج بأني شخصيا سأشرف على راحتهم وأننا لن نزج بهم في معركة داخل إسرائيل أو فوق الأراضي التي تحتلها إسرائيل، وأن عملهم سيقتصر على الدفاع الجوي عن العمق، وقد طلبت من الرئيس الكوري أن يبعث لنا ببعض الخبراء في الأنفاق حتى يمكننا الاستفادة من خبراتهم فوافق على ذلك، وعدت إلى مصر يوم ١٥ من أبريل بعد رحلة من أمتع الرحلات التي قمت بها.

وبمجرد عودتي إلى القاهرة، قمت بتشكيل مجموعة من المهندسين ليكونوا نواة لفرع جديد في الهندسة يطلق عليه "فرع الأنفاق" وفي أول مايو وصل الفريق الكوري من خبراء الأنفاق حيث مكث في مصر لمدة ثمانية أيام قام خلالها بإجراء دراسات ميدانية مع فريق المهندسين المصريين، وعندما زارني الوفد للتحية قبل العودة إلى بلاده قال لي رئيسه: "إن رئيس مجموعة المهندسين المصريين لديه خبرة نظرية ممتازة في الأنفاق ولكن تنقصه الخبرة العملية". كانت الدراسات والتوجيهات التي قدمها خبراء الأنفاق الكوريون مفيدة للغاية، وبعد سفرهم مباشرة قمت بتشكيل مجموعة عمل هدفها وضع التصميم الخاص ببناء مطار في باطن الجبل. كنت ألتقي مع هذه المجموعة مرة كل أسبوع أو كل أسبوعين لأناقشهم فيما أمكن التوصل إليه. وعندما قامت حرب أكتوبر ٧٣ كانت المجموعة مازالت تعمل في رسم المشروع ووضع تفصيلاته، وكنا قد أحرزنا تقدما كبيرا في هذا الصدد. كنت احرص على الاجتماع الدوري بهذه المجموعة لسببين: السبب الأول هو اهتمامي بالموضوع، والسبب الثاني هو لون من ألوان الخداع بأن الحرب ليست وشيكة الوقوع، إذ يمكن أن يتصور أن يضيع (ر.أ.ح.ق.م.م) جزءا من وقته لوضع تصميم مطار قد يحتاج إنشاؤه إلى خمس سنوات بينما تكون الحرب وشيكة الوقوع. كان من ضمن مجموعة العمل هذه أحد ضباط فرع العمليات في قيادة القوات الجوية. وعندما شاهده اللواء حسني مبارك مشغولا بجمع المعلومات وصنع الرسومات وكان ذلك قبل بدء العمليات بأقل من أسبوعين، نهره

وقال له: أليس عندك ما هو أهم من ذلك. فرد عليه قائلا: أن الفريق الشاذلي هو الذي طلب منه ذلك، فتعجب حسني مبارك وقال له سوف أسال رئيس الأركان لأتحقق مما تقول، وعندما قابلني حسني مبارك بعد ذلك بيومين حكى لي القصة وضحكنا نحن الاثنين.

في أوائل يوليو ٧٣ بدأ الطيارون الكوريون في الوصول، وقد اكتمل تشكيل السرب الذي يعملون به خلال شهر يوليو، وفي ١٥ من أغسطس أذاع راديو إسرائيل أن هناك طيارين كوريين في مصر، فاتصل بي الدكتور اشرف غربال المستشار الصحفي لرئيس الجمهورية، وسألني عن صحة الخبر، فأخبرته بأن الخبر صحيح ولكن إذاعته وعدم إذاعته هو قرار سياسي ولاسيما أن هناك دولة أجنبية أخرى يجب استطلاع رأيها قبل إعلانه، والآن وبعد مرور خمس سنوات على هذه القصة وبعد أن عاد الكوريون وأصبح تدعيمهم لنا وقت الحرب جزءا من التاريخ، فقد قررت أن أحكي القصة بكاملها حتى يعرف شعب مصر كل من وقفوا معه وقت الشدة أن أمريكا وإسرائيل والاتحاد السوفيتي يعلمون حقائق الدعم الكوري، أن الطيارين إثناء تدريبهم اليومي يتحدثون باللاسلكي باللغة الكورية مع أعضاء التشكيل ومع الموجهين الأرضيين، وفي استطاعة أية إدارة مخابرات أجنبية أن تسجل هذه المحادثات، وإذا كان كل من يهمهم الأمر يعرفون، فلماذا نخفي هذه الحقائق عن شعب مصر وعن الشعب العربي؟

إن التجريدة الكورية التي أرسلتها كوريا الشمالية إلى مصر تعتبر من اصغر التجريدات التي أرسلتها دولة إلى دولة صديقة أخرى في تاريخ الحروب. لقد كان عدد هذه التجريدة ٣٠ طيارا و ٨ موجهين جويين، و٥ مترجمين و ٣ عناصر للقيادة والسيطرة وطبيبا وطباخا، كانت القاعدة التي خدموا بها تضم ٣٠٠٠ مصري، وكان المصريون يديرون شبكات الرادار والدفاع الجوي والدفاع الأرضي عن القاعدة وجميع الشئون الإدارية الخاصة بالسرب، وقد زرت تلك القاعدة عدة مرات لأتأكد من عدم وجود مشكلات ولكني كنت دائما أجد أن كل شئ يسير على ما يرام،كانت العلاقة بين الكوريين والمصريين تسير على احسن ما يرام. كان الكوريون بالنسبة لرجالنا شخصيات غريبة، فقد كان الطيارون يعتمدون على أنفسهم في كل شئ، انهم ينظفون أماكن سكنهم بأنفسهم ويشغلون أنفسهم دائما بشيء ما. فأحدهم إما أن يكون في مهمة تدريبية أو انه يقوم بالدراسة أو بأعمال رياضية.. ليس لديهم أي وقت للفراغ، وليست لديهم أية متاعب إدارية يشكون منها، وقد وقع اشتباكان أو ثلاثة بين الطيارين الكوريين والإسرائيليين قبل حرب أكتوبر ووقع الكثير خلال الحرب نفسها.

نصب كمين دفاع جوي لطائرة إسرائيلية:

أن إسرائيل لم تحترم قط أي قرار لوقف إطلاق النار فيما يتعلق باستخدام قواتها الجويــة، انهــم كانوا يودون أن يذكرونا دائما بتفوقهم الجوي فكانوا يتعمدون دائما أن يخترقوا مجالنـــا الجـــوي، كانوا ينتخبون قطاعات اختراقهم بعناية فائقة بحيث يتفادون دائما الدخول ضمن مرمـــى نيـــران صواريخنا المضاد للطائرات وبالتالي فقد كانوا دائما يدخلون ويخرجون دون أن ينالوا أي عقاب، وقد ضقت ذرعا بهذه اللعبة وقررت أن ألقنهم درساً في ذلك.

لقد كانت مواقع صواريخنا أرض جو تبعد حوالي ١٥-٢٠ كم غرب القناة لكي تكـــون خـــارج مرمى مدفعية ميدان العدو، وقد كان ذلك يحد من مدى قدرتنا على إسقاط الطائرات التي تطيـــر شرق القناة وكان العدو يقوم بعملية استطلاع إلكتروني بصفة دورية بواســـطة طـــائرة ســـتراتو كروزر محملة بأجهزة إلكترونية بالغة الدقة والحساسية. كانت هذه الطائرة ترصد وتحـــدد جميع مواقع صواريخنا وراداراتنا وأجهزتنا الإلكترونية وهي تطير على ارتفاع متوسط في خط مـــواز للقناة وشرقها بحوالي ٣ كم، وكانت بذلك تضمن أن تكون خارج مدى صواريخنا. وباتفاق سري بيني وبين اللواء محمد علي فهمي قائد الدفاع الجوي قررنا أن ننصب كمينا لهذه الطائرة وذلـــك بأن ننقل ليلا إحدى كتائب الصواريخ إلى موقع متقدم يقع غرب القناة بحوالي ٥ كم. ثم يقتـــنص الطائرة الإسرائيلية عند مرورها المعتاد، تم تجهيز الكمين واتصل بي اللواء محمد علي فهمي يوم ١٦ من سبتمبر ليؤكد استعداده لتنفيذ المهمة ويطلب التصديق النهائي على تنفيذ المهمة فصـــدقت عليها. وفي تمام الساعة ١٥١١ يوم ١٧ من سبتمبر ٧١ كانت طائرة الاستطلاع الإلكتروني، ذلك الهدف الثمين، قد أصبحت أشلاء صغيرة متناثرة جنوب البحيرات [٤]. انسحب الكمين بســـرعة بعد إسقاط الطائرة المعادية، وأخذت أعد العدة لمقابلة الانتقام المنتظر من العدو فرفعت درجـــات الاستعداد في القوات الجوية والدفاع الجوي وبعض عناصر القوات الأرضية والبحريه.

كان رد فعل العدو سريعا وفوريا، فقد جاء في اليوم التالي مباشرة أي في يوم ١٨ من ســـبتمبر، ولكن كان واضحا أن رد العدو يتميز بالعصبية وسوء التقدير. لقد قامت طائراته بإطلاق قـــذائفها جو أرض SAM طراز شرايك من مسافة ١٠ كم شرق القناة على مواقع راداراتنا التـــي كانـــت على بعد حوالي ٢٠ كم غرب القناة فلم تتمكن أية قذيفة من الوصول إلى هدفها. لقد كان واضحا أن الطيارون كانوا يخشون الاقتراب من القناة إلى مسافة تقل عن ١٠ كم خوفا من وجود كمـــين أخر، فكان ذلك في حد ذاته يعتبر نصرا لنا، كما أن استخدامه للقذائف Shrike كانـــت فرصـــة جيدة لتدريب قواتنا، كنا نعلم أن العدو لديه هذه القذائف وكانت لدينا خطط لمقاومتها، وكنا ننتظر الفرصة لتجربة هذا الأسلوب في مقاومة القذائف "شرايك" فأعطانا العدو هذه الفرصة مما أكد لنا

نجاح الأسلوب الذي كنا قد أعددناه لذلك.

العدو ينصب لنا كمينا جوياً:

في يوم ١٣ من يوليو ٧٢ وفي تمام الساعة ١٦١٩ اخترقت طائرتان إسرائيليتان من طراز فانتوم مجالنا الجوي في منطقة راس العش وتوغلت في اتجاه الدلتا، و أقلعت طائرتان مصريتان من طراز ميج ٢١ من مطار المنصورة لاعتراض الطائرتين الإسرائيليتين. هربت الطائرتان المعاديتان في اتجاه البحر بينما استمرت طائرتانا في مطاردتهما، وفجأة وقعت طائرتانا في الكمين الجوي الذي اعد لهما والذي لعبت فيه الطائرتان المعاديتان دور الطعم لسحبهما إلى منطقة الكمين، وفي الوقت الذي اكتشف فيه القائد المناوب في غرفة العمليات وجود الكمين المعادي على شبكة الرادار كان الوقت قد فات لتحذيرهما أو لتدعيمهما، دفعنا ثماني طائرات ميج ٢١ أخرى لتعزيز طائرتينا السابقتين ولكن العدو كان قد أسقطهما وغادر المكان قبل وصول تعزيزاتنا إلى المنطقة.

إن هذه القصة تبين المشكلات التي تعترض المسئولين عن الدفاع الجوي. أن العدو يستطيع دائما أن يخترق أجواءنا، فإذا لم نقم باعتراضه فإنه سيزداد غرورا وصلفا، وإذا نحن أردنا أن نقوم باعتراضه بسرعة فإننا ندفع بطيارينا إلى السماء دون أية خطة لمقابلة خصم قد خطط وجهز واعد لكل شئ عدته. ولتلافي وقوع مثل هذه الأحداث مرة أخرى أصدرت تعليمات جديدة تنظم الخطوات التي تتبع في حالة الاختراقات الجوية المعادية، وكانت هذه التعليمات تشمل النقاط الأساسية التالية:

١- تتخذ طائراتنا أوضاعها على شكل مظلات جوية في المناطق السابق تحديدها.

٢- يتم تقييم الموقف بهدوء وتفكير بدلا من مجرد مطاردة طائرات العدو **دون** أية خطة.

٣- لا يسمح بالدخول في معركة جوية من موقف غير متكافئ.

وقد أراد العدو أن يكرر الأسلوب نفسه بعد ذلك بيومين فقام باختراقات على طول منطقة البحر الأحمر بعد ظهر يوم ١٥ من يوليو، ولكن تعليماتي السابقة كانت نافذة ولم تبتلع قواتنا الجوية الطعم الذي كان يعرض عليها.

دفاعنا الجوي يسيطر على سماء القناة:

في يوم ٢٤ من يوليو ٧٢ حاول العدو أن يستفيد من الأنباء الخاصة بطرد الخبراء السوفيت من مصر، فاقترب بطائراته من القناة بأكثر مما كان يسمح به لنفسه في الماضي فأسقطنا له في الساعة ١٦٤٥ من هذا اليوم إحدى طائراته التي كانت تطير على مسافة ١٠ كيلومترات شرق

القناة ومنذ ذلك الحين اصبح لا يقترب بطائراته إلى مسافة تقل عن ١٤ كم من القناة وفي يوم ١٠ من أكتوبر ٧٢ حاول أن يكسر هذه القاعدة فاقترب بأحد تشكيلاته من القناة فأطلقنا عليه قـذيفتي أرض جو. فطاشت إحداهما وأسقطت الثانية إحدى الطائرات كان يبدو أن العدو يحاول اختبـار أسلوب جديد في الهجوم لأنه حاول في الوقت نفسه أن يعوق عن العمل راداراتنـا المخصصـة للإنذار وراداراتنا المخصصة لإدارة النيران، لقد كانت فرصة تدريبية لكلا الطرفين. وفي يـوم ٢٨ من يوليو ٧٣ حاول العدو الطيران مرة أخرى فوق المنطقة غير المسموح بها، فأسقطنا لـه في الساعة ١٦١٢ إحدى طائراته ومنذ ذلك الوقت وحتى حرب أكتوبر في العام نفسه لم يحـاول طيران العدو قط أن يقترب إلى القناة مسافة تقل عن عشرة كيلومترات لقد فرضنا سيطرتنا الجوية فوق هذه الشقة من الأرض بواسطة صواريخنا أرض جو. وهكذا مهدنا الظروف لعملية العبـور التي كنا نعد لها.

هوامش الفصل العاشر:

(١) كانت العناصر السوفيتية تقوم بتشغيل عدد من الرادارات و٨٠ طائرة ميج ٢١ و٢٧ كتيبـة صواريخ SAM ووحدات إلكترونية متعددة و٤ طائرات ميج ٢٥ للقيام بأعمال الاستطلاع، وكان مجموع القوات الروسية في مصر حوالي ٦٠٠٠ رجل.

(٢) لقد بدأت الصين اعتبارا من عام ٧٨ تنشد التكنولوجيا الغربية وذلك رغبة في إسراع الخطى نحو تطوير نفسها وكانت أمريكا وحلفائها الغربيين يشجعون ويباركون هذا الاتجـاه رغبة مـنهم في خلق عنصر تهديد على الحدود الشرقية السوفيتية.

(٣) أنا شخصيا لا اتفق معه في الرأي بأنه يمكن تحقيق دفاع جوي إيجابي بهذا الأسلوب، ولكن مما لاشك فيه أن توزيع أعداد كبيرة من هذه الأسلحة في جميع أراضي الجمهورية يمكن أن يكون مصدر مضايقة كبيرة للطائرات المغيرة ويمكن القول إن هذه النيـران تعتبـر نيـران إزعـاج Harassing Fire.

(٤) لم يعلن العدو عن إسقاطنا لإحدى طائراته ولم نعلنه نحن أيضا بطبيعة الحال.

الفصل الحادي عشر

موقف القوات البحرية

لم تتحمل قواتنا البحرية خسائر تذكر خلال حرب يوليو ٦٧ وبعد أقل من أربعة أشــهر مــن وقف إطلاق النار خلال تلك الحرب قامت قواتنا البحرية بتــوجيه ضربة قويــة إلــى القــوات البحرية الإسرائيلية وذلك بإغراقها المدمرة إيلات ، لقد كانت إيلات تقوم بأعمال الدوريــة علــى السواحل الشمالية لسيناء المواجهة لبورسعيد. وكــانت خلال مهمتها تقترب أحيانا حتى مسافـــة ٥ و ٦ أميال من بورسعيد، وقد صدرت الأوامر إلى سرب بحري زوارق الصواريخ بإغراق هذه السفينة إذا تجاوزت حدود ١٢ ميلا. وفي يوم ٢١ من أكتــوبر ٦٧ قامــت الســفينة باختراقهــا المعهود، فظل سرب الصواريخ صامتا إلى أن أصبحت على مسافة ٩ أميال فأطلق عليها مقذوفين سطح سطح SSM فأغرقها، ويعتبر هذا التاريخ ذا أهمية كبيرة في تطور الحروب البحرية بصفة عامة وفي تاريخ بحريتنا بصفة خاصة، فعلى الرغم من أن القوارب كومار والقــذيفتين اللتــين استخــدمتا في إغراق إيلات كــانت جميعها سوفيتية الصنع إلا ان المصريين كــانوا أول مــن يستخدم هذه الصواريخ في الحروب البحرية في تاريخ العالم.

لقد احدث إغراق ايلات- وهي قطعة بحرية كبيرة بواسطة قارب صغير- تغييرا كبيرا في تصور المفكرين بالنسبة للحروب البحرية القادمة، وقد كان التأثير كبيرا في إسرائيل نفسها" فمنذ هذا التاريخ أخذت إسرائيل تبنى قواتها على أساس أن القوارب الصغيرة السريعة والمسلحة بالصواريخ سطح سطح هي أساس القوة الضاربة البحرية الإسرائيلية، وقد بدأت إسرائيل بشراء ١٣ قاربا من طراز سعر SAAR من فرنسا وسلحته بصواريخ جبريل التي قامت بتصنيعها محليا، وفي الوقت نفسه بدءوا في بناء نوع جديد من القوارب السريعة في ترسانة حيفا، واطلقوا عليه اسم Reshef وقد قامت إسرائيل بتدشين أول قارب من هذا النوع يوم ١٩ من فبراير ٧٣، ومنذ ذلك التاريخ وهي مستمرة في بناء هذه القوارب بمعدل قاربين في كل عام، وبنهاية عام ٧٨ أصبح لديها ١٢ قاربا من هذا النوع، وقد تم تطوير القذيفة جبريل SSM . بحيث يصل مداها إلى ٤٠ ميلا. وسلح كل من القوارب سعر وريشيف وتبلغ حمولة القارب ريشيف ٤١٣ طنا ويحمل ٧ قذائف جبريل. ومداه ١٥٠٠ميل. و أقصى سرعة له هي ٣٢ عقدة في الساعة، وطاقمه ٤٥ رجلا، وقد قامت إسرائيل أيضا ببناء قوارب أخرى صغيرة حمولة إحداها ٣٥ طنا وطاقمه ٦ أفراد وأطلقوا عليه اسم الدبور Dabur ،تجهيز هذا القارب لأغراض مختلفة، فمنها ما يجهز بأنابيب لإطلاق الطوربيد، ومنها ما يجهز بالرشاشات، ومن مزايا هذه القوارب أنها صممت على أساس إمكان نقلها برا. وهكذا فإن إسرائيل تستطيع نقلها من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر والعكس باستخدام ناقلات برية (١).

وعلى الرغم من قوارب سعر التي اشترتها إسرائيل من فرنسا وعلى الرغم أيضا من خطة إسرائيل لبناء القوارب، فقد كانت قواتنا البحرية متفوقة على القوات البحرية الإسرائيلية **من** حيث الكم والكيف خلال الفترة ما بين ٦٧ و ٧٣، ولكن نظرا للتفوق الجوي الإسرائيلي فقد أصبحت قواتنا البحرية عاجزة عن الحركة بل وأحيانا كنا عاجزين عن توفير الحماية الجوية لها، وهي داخل موانئها. ومن هنا فلم تكن هناك حاجة ماسة لتطوير وتدعيم قواتنا البحرية، ما الفائدة التي يمكن أن نجنيها من زيادة قدرة قواتنا البحرية في الكم والكيف إذا كانت هذه القوات لا تستطيع أن تعمل في ظل تفوق جوي مضادا إن النظرة الواعية من وجهة نظر مصر هي التركيز أولا على الدفاع الجوي والقوات الجوية قبل الانتقال إلى مرحلة تقوية القوات البحرية، ونتيجة لهذا التفكير المنطقي فإن القوات البحرية المصرية لم تتطور خلال تلك الفترة إلا نادرا وبالنسبة فقط لبعض المعدات التكميلية، ولا أعتقد أنه من الحكمة العمل على تطوير القوات البحرية الآن إلا بعد حل مشكلة الدفاع الجوي، لقد كنا حتى أكتوبر ٧٣ نستطيع أن نتحرك

ليلا، حـيث يقل تأثير القوات الجوية المعادية. أمـا بالنسبة لحروب المستقبل، فإن القوات الجوية الإسرائيلية تستطيع أن تحرم قواتـنا البحـرية حتى من التحرك ليـلا. إن الطائرات الإسرائيلية طراز F4، وكفير. و F16 المسلحة بقذائف جو أرض SAM تستطيع أن تصـيب أيـة سـفينة معاديـة نهارا أو ليلا وهي على مسـافة ١١٠ كم إذا استخدمت قذيفة هاربون Harpoon ومن مسـافة ٦٠-٨٠كم إذا استخدمت Condor الأمريكية أو قذيفة LOZ الإسرائيلية، وليس هناك من وسيلة لمقابلة هذا التهديد سوى باعتراض الطائرات المعادية وإسقاطها قبل أن تصبح مقـذوفاتها جو سطح في مدى قطعنا البحرية (حوالي ١١٠ كم) ونظرا لضيق الرقعة التي تفصل إسرائيل عن مصر فإن هذا الوضع لا يمكن إن يتحـقق إلا إذا حصلت مصر على السـيطرة الجوية، وهـذا سوف يعيدنا مرة أخرى إلى أن تقوية الدفاع الجوي والقوات الجوية يجب أن تأتي في المقام الأول قبل التفكير في تقوية وتطوير القوات البحرية.

هامش الفصل الحادي عشر:

(١) كان ذلك على أساس إغلاق قناة السويس في وجه السفن الإسرائيلية.

الفصل الثانـي عشر

تطور خطة التعبئة العامة

يمكن القول إن خطة التعبئة العامة في مصـر حتى منتصف ١٩٧٢ كانت تعتبر مـن أسـوأ خطط التعبئة في العالم، وأني لا ألقي اللوم في ذلك على أحد، وذلك لعدة أسباب: السـبب الأول هو عدم توافر السلاح، فقد كان السلاح دائما من القلة بحيث لا يكاد يكفـي احتياجـات القـوات العاملة، وتحت هذه الظروف فإن بناء جيش كبير من الاحتياطي دون أن يكون لدى الدولة السلاح الذي تستطيع أن تسلح به هذا الجيش، يعتبر مجهودا ضائعا. أما السبب الثاني، فهو اضـطرارنا في مصر- نتيجة السيطرة الجوية للعدو- إلى الاحتفاظ بقوات أرضية كبيرة في الجيش العامـل، وذلك لحماية أهدافنا المتعددة في العمق ضد جماعات العدو المنقولة جوا أو المنقولـة بحـرا، ونتيجة لهذا فإنه لا يمكننا كما هو الحال في إسرائيل مثلا- أن نحتفظ بنسبة قليلـة مـن قواتنـا

المسلحة في الجيش العامل وان نبقى الجزء الأكبر من قواتنا المسلحة في الاحتياط، ففي إسرائيل تمثل القوات العاملة حوالي ٣٠ ــ ٤٠% من حجم قواتها المسلحة وتستطيع أن تعبـئ قواتها المسلحة الآن (١٩٧٨) في خلال ٢٤ ساعة، وتعتمد إسرائيل على قواتها الجوية المتفوقة في ستر وحماية عملية التعبئة العامة إذا ما فوجئت بهجوم مباغت كما حدث خـلال حرب أكتوبر ٧٣. أما بالنسبـة إلى مصر فنظرا لضعف قواتها الجوية فإنها إذا ما فوجئت بهجوم مباغت وكان حوالي ٦٠% من قواتها المسلحة في الاحتياط فقد تجـد نفسها في موقف صعب للغاية، وقد يـتم حسـم المعركة قبل أن تكتمل التعبئة. أما السبب الثالث والأخير الذي دعا المصريين إلى عدم الاهتمـام الكبير بموضوع التعبئة فهو القرار الخاص بإيقاف النقل إلى الاحتياط (عدم تسريح الجنود عنـد قيامهم بإتمام مدة الخدمة الإلزامية) اعتبـارا من عام ١٩٦٧ واستمرار سريان هذا الأمر حتـى منتصف يوليو ١٩٧٢، وبالتالي فقد اختفى العنصر الأساسي لتكوين القوات الاحتياطيـة. عنـدما وصلت قواتنا المسلحة العاملة خلال النصف الأول من عام ٧٢ إلى حوالي مليون رجـل بـدأت الحكومة تطالب بضرورة تسريح جزء من القوات المسلحـة ممن طالت مدة تجنيدهم التي وصل بعضها إلى ما يزيد على ٦ سنوات وكانت الحكومة ترمي من وراء ذلك إلى ثلاثة أهداف. كـان الهدف الأول هو التوفير، والهدف الثانـي هو الاستفادة مـن الكثير مـن عناصـر المثقفـين المجندين في القوات المسلحة، فقد كان من بينهم الكثيرون من الأطباء والمهندسين والمعلمين الخ.. ممن تحتاج إليهم الدولة سواء للخدمة داخل مصر أو لإعارتهم للدول العربية التي كانت في حاجة ماسة إلى خدماتهم. أما الهدف الثالث، فقد كان يرمى إلى رفع معنويـات المجنـدين– ولا سـيما خريجي الجامعات– الذين طالت مدة خدمتهم دون أن يعرفوا متى سوف تنتهي. كـان الكثيـرون منهم يتوقون إلى أن يبنوا مستقبلهم أو يؤسسوا ا سراً وكانوا يؤجلون ذلك عاما بعـد عـام والآن اصبحوا يقولون لنا بصراحة "متى ؟حددوا لنا تاريخ انتهاء خدمتنا في القـوات المسـلحة حتـى نستطيع أن نرتب حياتنا"، وهكذا اتخذ القرار خلال شهر يوليو ٧٢ بأن نقـوم بتسـريح ٣٠٠٠٠ رجل من القوات المسلحة في الأول من يوليو ٧٢.

في ظل هذه الظروف الجديدة وجدت نفسي مضطرا لدراسة خطط التعبئة في مصر وفي الـبلاد الأخرى المشهورة بكفاءة خطط تعبئتها وهي السويد وسويسرا وإسرائيل، وقد اتضح لي أن خطة التعبئة المصرية مليئة بالعيوب ويمكن تلخيص العيوب الرئيسية فيما يلي:

ا– كان تسجيل البيانات سيئا للغاية، وكان نتيجة ذلك التسجيل السيئ أنه عندما يستدعى أحد جنود الاحتياط فإنه كثيرا ما طلب إليه العمل في وظيفة لم يؤهل لها وأن يستخدم سلاحا لم يسبق له أن

تدرب عليه.

٢- كانت تذاكر التسجيل وحفظها وبالتالي استدعاء جندي الاحتياط يتم على أساس مكان ميلاد الشخص ولا يحدد طبقا لمكان سكن الفرد بعد تسريحه من الخدمة، وبالتالي فلم يكن من السهل العثور على الفرد والاتصال به لاستدعائه.

٣- لم تستخدم الأجهزة الحديثة مثل العقل الإلكتروني (الكمبيوتر Computer)، بل كانت التعبئة تتم بواسطة الأعمال اليدوية وهو عمل شاق ويحتاج إلى وقت طويل، ونتيجة لذلك- وتحت ضغط عامل الوقت- كان يتم الاستدعاء بأعداد اقل مما هو مطلوب بالنسبة لبعض التخصصات وبأعداد اكثر مما هو مطلوب بالنسبة لتخصصات أخرى.

٤- كانت خطة التعبئة المصرية- نظرا لعدم حبك أطرافها- تعتمد على المركزية الشديدة فقد كان على كل جندي احتياطي أن يصل إلى مركز التعبئة في القاهرة حيث تصرف له البندقية كسلاح شخصي وتصرف له مهماته العسكرية ثم يرحل بعد ذلك إلى مراكز تدريب الأسلحة المختلفة (مشاة مدرعات مدفعية .. الخ) وبعد قضاء فترة تدريب مركزة في مراكز التدريب هذه يتم ترحيله إلى الوحدة التي سيخدم فيها [١]، وهكذا يجد الفرد نفسه في وحدة لا يعرف فيها أحدا ولا يربطه بها آي نوع من الحب أو الذكريات انه غريب بين مجموعة من الغرباء.

٥- كان الضباط العاملون الذين يشكلون كوادر هذه الوحدات الاحتياطية ينتخبون من أضعف المستويات وكانت الغالبية العظمى منهم من الضباط المشاغبين أو ذوي المستوى الضعيف في التدريب أو الانضباط العسكري ممن رفضتهم وحداتهم رغبة في التخلص منهم، وهكذا فإن هؤلاء الضباط يذهبون إلى تلك الوحدات الاحتياطية بقلوب كسيرة وبمعنويات منخفضة فيضيفون مشكلات جديدة لهذه الوحدات بدلا من العمل على حل مشكلاتها.

وبعد دراسة خطة التعبئة السويسرية استبعدتها لسببين: السبب الأول هو أن الحكومة السويسرية تسمح للجندي المسرح بأن يحتفظ بملابسه وسلاحه الشخصي في مسكنه، وهذا موضوع لا يمكن أن تسمح به القيادة السياسية المصرية، أما السبب الآخر فهو أن الأغلبية العظمى في القوات البرية السويسرية- نتيجة لطبيعة أرضها الجبلية- هي من جنود المشاة الذين يمثلون أسهل المشكلات في موضوع التعبئة، وبدراسة تفاصيل خطة التعبئة الإسرائيلية اتضح لي إنها تعتمد أساسا على أسلوب التعبئة السويدية بعد إدخال بعض التعديلات إليها لكي تتمشى مع طبيعة إسرائيل العدوانية.

كانت خطة التعبئة السويدية تعكس الفكر العسكري السويدي. كانت خطة التعبئة تخدم خطة

دفاعية ثابتة، أن جميع الأسلحة الثقيلة من دبابات ومدافع وعربات الخ في مخازن متفرقة في المناطق التي سوف تعمل فيها طبقا للخطة، كان جميع الأفراد الذين سيقومون بتشغيل هذه الأسلحة يعيشون فعلا في المناطق التي سيعملون فيها وعلى مسافات قريبة من أماكن تخزين الأسلحة والمعدات التي سوف يقومون بتشغيلها، ويجري باستمرار تعديل أفراد الوحدة طبقا لانتقال الفرد من مكان لآخر. فلو فرضنا مثلا إن شخصا ما كان يعمل في شمال البلاد، وكان بالتالي ينتمي إلى وحدة ستعمل في الشمال، ثم نقل هذا الفرد إقامته الدائمة إلى الجنوب فإنه يتم نقله من كشوفات وحدته في الشمال إلى وحدة قريبة من مقر عمله. ومما لا شك فيه أن هذا الأسلوب يعتبر أسلوبا رائعا في كثير من مظاهره، إنه يخفض وقت التعبئة إلى اقل وقت ممكن ويخفف الضغط على وسائل المواصلات المطلوبة لنقل كل فرد من مكان إقامته إلى وحدته. إن معظم أفراد الوحدة يعرفون بعضهم بعضاً لأنهم جميعاً يعيشون بصفة دائمة في منطقة واحدة. ومن الممكن استدعاؤهم سنويا للتدريب في يسر وسهولة نظرا لقرب الأفراد من مكان الاستدعاء كما أنه يمكن توقيت الاستدعاء في التوقيتات المناسبة، بحيث لا يؤثر على الإنتاج (٢). وأخيرا فإن هذا الأسلوب يثبت في ذهن الفرد بأنه لا يقاتل في سبيل وطنه فقط، بل إنه يدافع أيضا عن كيانه الشخصي. أنه يدافع عن منزله وعن أسرته وأرضه، وإذا اكتسحها العدو فإنه سوف يخسر كل شئ، وبالتالي فإنه يكون أكثر حماسا وأكثر إقبالا على الفداء. وعلى الرغم من هذه المزايا كلها فإن خطة التعبئة السويدية كان بها بعض العيوب، إذ تنقصها المرونة وتظهر بوضوح خطة البلاد الدفاعية مما يمكن العدو المهاجم من استغلال نقاط الضعف فيها.

وبعد هذه الدراسات قررت أن تعتمد خطة تعبئتنا أساسا على بعض أفكار الخطة السويدية مع إدخال بعض التعديلات التي تتمشى مع ظروفنا الحربية والسياسية والاقتصادية، فلم يكن من الممكن أن تتم التعبئة جغرافيا وأن يدافع كل فرد في إقليمه لأن الهجمة الصهيونية التي تتعرض لها مصر تأتي من اتجاه سيناء ولذلك يجب علينا أن نحشد جميع مواردنا في هذا الاتجاه أما بخصوص إنشاء الوحدات الاحتياطية، فقد رأيت أن من الأفضل أن تشكل هذه الوحدات من دفعات متعدد ة على مدى ٩ سنوات وهى المدة التي يحددها قانون التجنيد المصري للخدمة في الاحتياط أي أن حجم القوات الاحتياطية في نهاية ٩ سنوات من بدء تنفيذ الخطة يصل إلى ما يعادل حجم المسرحين في خلال ٩ سنوات أي ما يعادل حوالي ١،٥ مليون رجل، ثم يجري بعد ذلك تغيير تسع هذه القوة سنويا، وذلك بإنهاء خدمة القدامى نهائيا من الخدمة في وحدات الاحتياط على أن تحل محلهم عناصر جديدة من الجنود المسرحين حديثا من الخدمة في

القوات العاملة. وكمرحلة انتقالية تسبق تشكيل الوحدات الاحتياطية وجدنا انه يمكن للوحدات العاملة أن تعمل بنسبة استكمال ٨٥- ٩٠% من مرتباتها من الأفراد بعد نقل بعض أفرادها إلى الاحتياط ، أي أنه في حالة نقل عدد من أفراد من وحدات الجيش العامل إلى الاحتياط فان هذه الوحدة العاملة تحتفظ بوظائف هؤلاء المجندين المنقولين إلى الاحتياط شاغرة طالما كان هذا النقص يتراوح ما بين ١٠- ١٥ %من قوة الوحدة في كل تخصص. وعند التعبئة يعود الفرد إلى وحدته التي كان يعمل بها وإلى وظيفته التي كان يشغلها، وكأنه كان في إجازة طويلة من الوحدة.

وتطبيقا لهذه الأفكار الجديدة اتخذنا الإجراءات التالية:

١- قمنا بإدخال تعديلات جوهرية في أسلوب التسجيل بحيث أمكن به تلافي جميع العيوب السابقة.

٢- أدخلنا نظام الميكنة والكمبيوتر ووضعنا البرامج التي تخدم جميع مطالبنا، وبذلك أصبح بإمكاننا أن نستدعي أي عدد محدد نطلبه، سواء أكان ذلك طبقا للوظيفة أم طبقا للوحدة أم تاريخ التجنيد أم التخصص أو السلاح. الخ..

٣- افتتحنا ١٠٠ مركز تعبئة (الهدف النهائي هو إنشاء ٣٥٠-٤٠٠ مركز تعبئة بحيث يتوافر مركز واحد لخدمة كل تجمع سكاني يبلغ ١٠٠ ,٠٠٠ نسمة، وبحيث لا تزيد المسافة بين المركز وبين أبعد منطقة يخدمها على ١٠ كيلومترات. أيهما أفضل).

٤- عندما ينقل أي فرد إلى الاحتياط فإنه يذهب إلى مركز التعبئة المخصص له، حيث يقوم بتسليم مهماته العسكرية وينهي جميع علاقاته بالقوات المسلحة.

٥- يتم استدعاء الفرد **عن** طريق مركز التعبئة، وفي هذه الحالة يتوجه الفرد إلى المركز حيث يتسلم مهماته العسكرية ويترك ملابسه المدنية ثم يسافر فورا إلى وحدته طبقا لما يلي:

أ- خلال المرحلة الانتقالية فإنه يتوجه مباشرة إلى وحدته الأصلية في القوات العاملة، حيث يستلم العمل نفسه الذي كان يقوم به قبل النقل إلى الاحتياط.

ب- بعد أن تنتهي الفترة الانتقالية فإنه ينتقل من مركز التعبئة إلى منطقة حشد الوحدة، حيث تكون الأسلحة والمعدات الخاصة بالوحدات الاحتياطية في التخزين، ويتم تشكيل الوحدة في هذا المكان قبل أن تتحرك لتنفيذ واجبها في العمليات. ويلاحظ هنا أن نظامنا يختلف عن الأسلوب السويدي الذي يعتمد أساسا على التعبئة جغرافيا في حين أننا نجمع بين الأساس الجغرافي واتجاه العمليات المستقبلة، فقد أخذنا بالمبدأ الجغرافي فيما يتعلق بالفرد وأخذنا بمبدأ اتجاه العمليات

بالنسبة للأسلحة والمعدات الثقيلة، لأن نقل الفرد أسهل بكثير من نقل الأسلحة والمعدات ولاسيما الثقيل منها.

وبمحض الصدفة كان رئيس أركان حرب القوات المسلحة السويدية في زيارة خاصة لمصر في أواخر شهر يونيو، فلما علمت بوجوده دعوته للغداء يوم ٢٦ من يونيو ٧٢ في نادي الضباط، وفي أثناء تناول الغداء تحدثت معه عن أسلوب التعبئة في السويد وأخبرته أني قرأته وأعجبت به ولكن هناك بعض التساؤلات التي أريد أن استطلعها والتمست منه الموافقة على أن أرسل ضابطين مصريين إلى السويد لإجراء دراسة ميدانية على هذا الأسلوب لاستيضاح النقاط التي مازالت خافية علينا. اعتذر (ر. ا. ح. ق. م) السويدية بأدب جم وقال إنه يخشى إن هو قبل ذلك أن يكون هذا التصرف خرقا لموقف السويد الحيادي الذي تحرص عليه كل الحرص، وقد سارعت بالاعتذار له لأنني فاتحته في هذا الموضوع ورجوته أن يعتبر الموضوع منتهيا. وفي ٤ من أغسطس من العام نفسه وصلني منه كتاب من السويد مرفق بمطبوعات كثيرة عن نظام التعبئة في السويد، يعلمني فيه بأنه يوافق على حضور ضابطين مصريين لاستكمال الدراسة الميدانية في السويد لمدة أسبوعين. وعلى الفور قمنا بدراسة المطبوعات الجديدة بعناية وأعلنت **عن** مسابقة لاختيار هذين الضابطين، وفي ١٤ من أكتوبر ٧٢ أقلعا إلى استكهولم ، وبعد عودتهما ناقشتهما فيما شاهداه ورأياه فازددت يقينا من أننا كنا نسير في الاتجاه السليم.

تم تطبيق الخطة الجديدة للتعبئة على كل من ينقل إلى الاحتياط اعتبارا من شهر يونيو ١٩٧٢ ، وكان عددهم ٣٠٠٠٠ [٣]، ولكن للأسف لم نتمكن من تطبيق هذا النظام على تلك الدفعة بنسبة ١٠٠% نظرا لأننا لم نتمكن من إنشاء مراكز التعبئة المائة التي كنا نريد إنشاءها قبل الأول من يونيو ٧٢، أما الدفعات التالية، فقد تم تطبيق النظام الجديد عليها ١٠٠%. ولتصحيح وضع دفعة يونيو ٧٢ قمنا باستدعائها في الفترة ما بين ٥- ١٠ من أكتوبر ٧٢، وتم تصحيح أوضاعها طبقا للنظام الجديد. كان أجمالي المسرحين من دفعة يونيو ٧٢ ودفعة ديسمبر ٧٢ ودفعة يونيو ٧٣ حوالي ١٠٠٠٠٠ رجل وأصبح في إمكاننا استدعاء هذا العدد الضخم و إشراكه في القتال في فترة تتراوح بين ٢٤ و ٤٨ ساعة فقط.

لقد نجحت الخطة الجديدة للتعبئة نجاحا عظيما، لقد كنت أتصور أنه قد تلزمنا ٤٨ ساعة لاستكمال التعبئة، ولكن التجارب المتكررة التي أجريتها خلال عام ٧٣ لاختبار الخطة قد أثبتت أن نسبة كبيرة من الأفراد تتراوح بين ٧٠ و ٨٠% تصل في اليوم الأول. كان أفراد الاحتياط يشعرون بالسعادة لذهابهم إلى وحداتهم القديمة، وكان ضباط وجنود وحداتهم

يقابلونهم بالموسيقى والعناق، وفيما بين يناير وسبتمبر ٧٣ قمت بتنفيذ ٣٣ عملية استدعاء، بعضها كان لبضعة أيام وأطولها كان لمدة أسبوعين. كانت العملية تتم في يسر وسهولة فإذا أعلنا أن الاستدعاء لمدة أسبوع واحد التزمنا بما وعدنا به وهكذا تولدت الثقة بين الجميع، وأصبحت فترات الاستدعاء هذه فرصة طيبة لتدريب جهاز التعبئة وإعادة تدريب وصقل جنود الاحتياط والأهم من ذلك كله تعود العدو على عمليات التعبئة لأغراض التدريب دون أن يشعر بالقلق. وفي يوم ٢٧ من سبتمبر بدأنا عملية التعبئة الحقيقية بطلب استدعاء ٧٠٠٠٠ رجل، وفى يوم ٣٠ من سبتمبر طلبنا استدعاء ٥٠٠٠٠ رجل أخر، ولكي نخدع العناصر العميلة التي تراقب أعمالنا قمنا بتسريح ٢٠٠٠٠ رجل يوم ٤ من أكتوبر من الدفعة الأولى التي استدعيناها يوم ٢٧ سبتمبر، وهكذا سارت الأمور في يسر وسهولة وابتلع العدو الطعم الذي كنا نقوم بإعداده منذ مدة طويلة وفوجئ بالحرب يوم ٦ من أكتوبر دون أن يشعر بتعبئة ١٠٠،٠٠٠ رجل. والآن يجب أن نتساءل: لو لم يكن لدينا هذا الأسلوب المحكم في التعبئة، هل كان من الممكن أن نستدعي هذا العدد الضخم من الأفراد دون أن يشعر العدو وبالتالي تضيع منا المفاجأة التي لعبت دورا مهما في تحقيق نجاح عبور قناة السويس ؟ ".

هوامش الفصل الثاني عشر:

(١) إن هذا الأسلوب هو الأسلوب نفسه المتبع عند التجنيد مع فارق واحد هو اختصار وضغط المدة اللازمة للتحضير والتدريب قبل الانضمام إلى الوحدة التي سيعمل فيها، ففي حالة التجنيد لأول مرة تمتد هذه الفترة إلى ٦-٩ اشهر، أما في حالة الاستدعاء للخدمة في الاحتياط فإنه يتم ضغط هذه الفترة إلى حوالي ٣٠ يوما.

(٢) على سبيل المثال لا يتم الاستدعاء لأغراض التدريب السنوي في أوقات جني محصول زراعي في منطقة ما. وبالتالي فإن تواريخ الاستدعاء يمكن أن تختلف ما بين منطقة وأخرى.

(٣) كان هذه أول دفعة تنقل إلى الاحتياط اعتبارا من يونيو ١٩٦٧.

الفصل الثالث عشر

تدريـــب القـــوات

التدريب العام والخاص:

بالإضافة إلى مسئولية (ر. ا. ح. ق. م .م) بصفة عامة عن مستوى التدريب في القوات المسلحة فهو مسئول بصفة خاصة عن تدريب القيادات التي تليه مباشرة [1]، وابتداء من هزيمة يوليو ٦٧ أعطى الاسم الكودي (تحرير) متبوعا برقم لكل مشروع يقوم به (ر.ا.ح.ق.م.م) لتدريب أية قيادة من تلك القيادات سواء أكانت مجتمعة أم كـــان المشروع يخص إحداها، وقد كان أول مشــروع أتولى إدارته بموجب منصبي هو "تحرير ١٨" الذي بدأ في ٢١ من مايو ٧١، وكان آخرها هـــو "تحرير ٣٥" الذي بدأ في ٢٤ من يونيو ٧٣، وهذا يعنى أنني قمت بإدارة ١٨ مشروعا تـــدريبيا لهذه القيادات خلال ٢٥ شهراً، وكان كل مشروع يستغرق حوالي ٣-٦ أيـــام، وكـــان يفتـــرض مواقف من المنتظر أن يواجهها القادة خلال الحرب الفعلية، وكنت أعيش هذه الفترة بين القـــوات والقيادات واقطع صلتي بالأعمال الروتينية الكثيرة التي كـــانت تفرضها علي واجبات وظيفتـــي. كنت اشعر بالسعادة العظيمة خلال تلك الأيام لأني كنت أعيش الحياة التي أحببتها دائما وهي حياة الضابط الميداني وأتخلص -و لو مؤقتا- من الأعمال الروتينية المتعددة. لقد كنت دائما واحدا من القادة الميدانيين الذين يهتمون اهتماما كبيرا بالتكتيكات الصغرى. إن أفضل الخطـــط لـــيس مـــن الممكن تنفيذها إذا عجز الجندي أو الضابط الصغير عن تنفيذ الجزء الخاص به، لذلك فـــإن كـــل قائد- مهما كان حجم القوات التي تحت قيادته- يجب ألا يفقد الاتصال بينه وبين الجنـــدي الفـــرد الذي هو أساس القوات المسلحـــة: إنه الحجر الذي يمكن به أن نبنـــي أضـــخم بنـــاء إذا صـــلح الجوهر، ولا نستطيع أن نبني به أي شئ إذا كـــان الجـــوهر سيئا، وإن هؤلاء القادة الـــذين إذا علت مراتبهم اعتمدوا على القادة المرؤوسين واكتفوا بقيادة قواتهم عن طريق الهاتف والخريطـــة هم أعجز أنواع القادة. كنت عن طريق زياراتي الكثيرة للوحدات وحديثي مع الجنـــود وتوجيـــه

بعض الأسئلة إليهم أستطيع أن ألمس نقاط الضعف لديهم وبالتالي أتخذ الإجراءات اللازمة لإصلاحها، وللتغلب على نقاط الضعف هذه أصدرت ٨ كتيبات و ٥٣ توجيهاً خلال فترة عملي (ر.أ.ح.ق.م.م).

إن التجربة العملية هي الحكم الفصل في صلاحية أية فكرة ولم يحدث قط إن اعتمدنا أي سلاح جديد أو فكرة جديدة دون أن يمرا في مرحلتين كانت المرحلة الأولى هي اختبار السلاح أو المعدة أو الفكرة، وتكرار هذه التجارب عدة مرات، وإجراء الكثير من التعديلات بغرض الوصول إلى أفضل النتائج قبل أن نعتمدها بصفة نهائية. أما المرحلة الثانية فهي قيامنا بإجراء بيان عملي ندعو إليه مئات من المختصين لحضور التجربة لتعليمهم الأسلوب الصحيح لهذا الاستخدام، وقد حضرت مئات التجارب ومئات البيانات العملية التي كانت تجري تحت ظروف مشابهة لما ينتظر أن نقابله خلال العمليات الحربية. وفيما يلي بعض الموضوعات المهمة التي قمنا بعمل الكثير من التجارب عليها والكثير من البيانات العملية [٢].

١- فتح الممرات في السد الترابي، بناء الكباري وتشغيل المعديات نهارا وليلا (أعوام ٧١ و ٧٢ و ٧٣).

٢- تأثير النيران العائمة على العبور (الأعوام ٧١ و ٧٢).

٣- كتيبة مشاة تقوم باقتحام مانع مائي في القوارب وتتسلق الساتر الترابي ومعها أسلحتها ومعداتها (الأعوام ٧١ و ٧٢ و ٧٣).

٤- أثر المدفعية المتوسطة والهاونات الثقيلة على التحصينات الشبيهة بخط بارليف (الأعوام ٧١ و ٧٢ و ٧٣).

٥- اختبار وتطوير القاهر والظافر (الأعوام ٧١ و ٧٢).

٦- كتيبة برمائية ولواء برمائي يعبر مسطحا مائيا (الأعوام ٧٢ و ٧٣).

٧- استخدام أجهزة الرؤية الليلية تحت الحمراء، وضوء النجوم، والزيتون، والأنوار الكاشفة (الأعوام ٧٢ و٧٣).

٨- استخدام أشعة الليزر في تقدير المسافة، وقد تمت هذه التجربة قبل بدء العمليات ببضعة أشهر، ولم نتمكن من إدخال هذا الأسلوب في دباباتنا قبل بدء القتال في أكتوبر ٧٣.

٩- القاذفات **TU-16** تقوم بإطلاق قذائف على أهداف من بعد ١٠٠ كم (مايو ٧٣).

التدريب بالمغامرة Adventure Training:

التدريب بالمغامرة هو اصطلاح معروف في بعض الجيوش الغربية، ولاسيما القوات البريطانية،

ولكنه موضوع لم يكن معروفا في القوات المسلحة المصرية، إلى أن أدخلت هذا الأسلوب التدريبي في قواتنا المسلحة خلال عام ١٩٧٢، وكان قد سبق لي أن تعلمت هذا الأسلوب عندما كنت ملحقا عسكريا في لندن خلال الأعوام ٦١-٦٣. وتتلخص فكرة هذا النوع من التدريب في النقاط التالية:

١-قيام القادة الأصاغر مع جنودهم ببعض الرحلات بعيدا عن وحداتهم وقادتهم يولد فيهم روح الاعتماد على النفس والابتكار واتخاذ القرارات.

٢- إن التحرك خارج الثكنات العسكرية أو المعسكرات المستديمة سوف يولد نوعا من الألفة بين الضابط وجنوده ويساعد على إظهار الأخلاق الحقيقية التي قد تبقى كامنة أو مختفية في ظل التجمعات الكبيرة.

٣- أن هذه الرحلات يجب أن تكون محببة للنفس وليست جافة فهي تجمع ما بين التدريب والترفيه مثل زيارة جهات نائية بها بعض الآثار أو زيارة بعض المناطق السياحية والترفيهية.

أصدرت توجيها ينظم هذا النوع من التدريب وبموجبه اصبح من حق الوحدة القائمة بهذا النوع من التدريب أن تستخدم الحملة العسكرية وان تصرف لها التعيينات والإسعافات الأولية، وكان على قائد كل فصيلة تقوم بهذا النوع من التدريب أن يقدم تقريرا مكتوبا عن الرحلة وان تمنح مكافآت تشجيعية لأفضل تقرير يقدم في كل تشكيل. ولكي أعطي أهمية كبيرة لهذا المشروع أعلنت أنني شخصيا سأطلع على تقارير الدفعة الأولى التي تقوم بهذا النوع من التدريب وكان افضل التقارير التي قدمت إلي هو تقرير الملازم أول عاطف عبد الباقي السيد، وقد طلبت حضوره إلى مكتبي يوم ٢٥ من سبتمبر ٧٢، ومعه قائد فرقته حيث شكرته وقدمت له جائزة على تقريره.

هوامش الفصل الثالث عشر:

(١) يبلغ عددها ١٤ قيادة، تشمل القوات الجوية والقوات البحرية وقوات الدفاع الجوي والجيوش الميدانية وقيادات المناطق العسكرية وقيادات المظلات والصاعقة.

(٢) هناك عشرات من التجارب الأخرى، كتركيب مدفع ١٠٠ مم على الدبابة ت ٣٤ وتركيب أسلحة أخرى على عربات جنزير أو جيب، كذلك تعديلات في الأسلحة أو المعدات الفنية أو المهمات الخ.

الفصل الرابع عشر

رفع الروح المعنوية للقوات المسلحة

الروح المعنوية بعد هزيمة يونيو ٦٧:

إن رفع الروح المعنوية لجيش مهزوم هو عملية شاقة ولاسيما إن كانت أسباب الهزيمة غير معروفة. لم تكن الحقائق عن أ سباب هزيمة يونيو ٦٧ معروفة للشعب المصري، فقد كان الشعب حائرا بين ما يسمعه من أقوال متناقضة، فقد كانت القيادة السياسية تلقى باللوم على القيادة العامة للقوات المسلحة، بينما كانت القيادة العامة للقوات المسلحة تشيع سرا أن القيادة السياسية هي المسئولة عن الهزيمة لأنها حرمت على القيادة العسكرية القيام بتوجيه الضربة الأولى وترتب على ذلك قيام إسرائيل بتوجيه الضربة الأولى وتدمير قواتنا الجوية. ومن وجهة نظري فأني أعتقد إن قواتنا المسلحة كانت سوف تنهزم في عام ٦٧ حتى لو قامت بتوجيه الضربة الأولى. لقد أخطأت القيادة السياسية والقيادة العامة للقوات المسلحة كلتاهما في حساباتهما.

وبينما كان الشعب المصري حائرا بين الآراء المتعارضة حول أسباب الهزيمة لم يجد صورة يعبر بها عن سخطه سوى أن يلقي باللوم على كل رجل عسكري يراه. كان الناس يستهزئون

من كل رجل يمر في الطريق العام مرتديا ملابس عسكرية وينكتون عليه، وكانت الهزيمة قد أثرت في الروح المعنوية للجنود فجاءت هذه الأستهزاءات من الشعب لتزيدها هبوطا، وفي ظل هذه الظروف القاسية أخذت القيادة العامة الجديدة للقوات المسلحة على عاتقها رفع الروح المعنوية للرجال ما بين يونيو ٦٧ وأكتوبر ٧٣. لقد كانت معركة رأس العش دارت يوم أول يوليو ٦٧ هي أول عمل عسكري يعيد الثقة إلى النفوس. سواء على مستوى القوات المسلحة أم على مستوى الشعب، ففي هذه المعركة قام رجال الصاعقة المصريون باعتراض قوة إسرائيلية كانت تتقدم شمالا في اتجاه بور فؤاد لاحتلالها فهزموها واضطروها إلى الفرار وبعد أكثر من ثلاثة أشهر وعلى وجه التحديد بتاريخ ٢١ من أكتوبر ٦٧ قام رجال البحرية المصرية بإغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات التي كانت تقوم بأعمال الدورية أمام بور سعيد، ثم بدأت حرب الاستنزاف في سبتمبر ٦٨، وما صاحب ذلك من عمليات عبور جريئة قام بها رجال الصاعقة، حيث نصبوا الكمائن وأثاروا الذعر بين صفوف

الإسرائيليين واستعادت القوات المسلحة ثقتها الكاملة بنفسها في يونيو ١٩٧٠ عندما نجحت قوات الدفاع الجوي في إسقاط عشر طائرات إسرائيلية خلال الأسبوع الأول من شهر يوليو عام ١٩٧٠.

العناصر الأساسية لارتفاع الروح المعنوية:

عندما توليت منصب (ر.ا.ح.ق.م.م) في مايو ٧١ كانت الروح المعنوية للقوات المسلحة جيدة ومع ذلك فقد كان هناك الكثير مما يمكن عمله في هذا المجال، كان أسلوبي في رفع معنويات الجنود يعتمد على ثلاثة عناصر: العنصر الأول هو المعرفة، والعنصر الثاني هو الإلمام بالقدرات الحقيقية للفرد أما العنصر الأخير فهو أن يكتسب القادة ثقة جنودهم.

العلم والمعرفة:

إن العلم والمعرفة لا حدود لهما فكلما ازداد الشخص معرفة ازداد إلمامه بما يمكن أن يفعله عندما تعترضه المشكلات وعلى سبيل المثال فإن أي سلاح مهما كان حديثا فإنه لا يمكن أن يخلوا من بعض نقاط الضعف. فلو استطاع الفرد أن يعرف نقاط القوة والضعف لكل سلاح من أسلحة العدو فإنه يستطيع بهذه المعرفة أن يتحاشى نقاط القوة وأن يهاجم نقاط الضعف وبالتالي فإنه يستطيع أن يحقق افضل النتائج. وينطبق ذلك على أسلوب العدو في القتال وعلى موضوعات أخرى كثيرة، ولتحقيق هذا الهدف اتخذت الخطوات التالية:

١- إجراء ٢٦ "مؤتمر شهري " مع القادة حتى مستوى قائد الفرقة.

٢- إجراء ١٨ "مشروع تحرير" لتدريب القيادات على المشكلات التي ينتظر أن تواجههم أثنـــاء العمليات.

٣- إصدار ٥٣ توجيها ثم توزيع الجزء الأكبر منها حتى مستوى سرية.

٤- إصدار ٨ كتيبات توزع على مستوى الجنود.

٥- تنظيم مئات البيانات العملية توضح للقادة والجنود الأسلوب الصحيح للتغلب علـــى مشـــاكل معينة.

٦- إصدار تعليمات إلى هيئة البحوث العسكرية في القوات المسلحة لكي تصدر نشرة شهريه عن أحداث المخترعات الحربية وأن توزع هذه النشرة حتى مستوى كل وحدة.

تقويم القدرات الذاتية:

"رحم الله امرأ عرف قدر نفســه" هذا هو العنصـــر الثاني مـــن عنـــــاصر القـــوة والـــروح المعنوية، فما من أحد يستطيع أن يفعل كل شئ. إن كل شخص له قدرات محـــدودة يقف عاجـــزا إذا حاول اجتيازها، وان تكليف الفرد بما لا يطيق خطأ بليغ، لأنه سوف يفشل في تحقيق ما يطلب منه وسوف يؤثر هذا الفشل على روحه المعنوية. قال تعالى: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" فكيف ننسى نحن البشر هذه النصيحة الربانية إن المبالغة في القدرات هي غرور قاتـــل، كـــان التقليـــل المتعمد من القدرات الحقيقيـــة هو تصرف سيئ أيضا، لذلك يجـــب أن نقـــدر لنفســـنا وجنودنـــا وطاقاتنا حق قدرها إذا أردنا النجاح في أعمالنا. ومن هنا فقد كنت دائمـــا أشـــجع الصراحـــــة والمناقشة الحرة والنقد الذاتي حتى يمكننا أن نعرف الحقـــائق والقدرات، وما كان يـــدور خـــلال المؤتمرات الشهرية من مناقشات يوضح لنا كيف كانت الآراء المتضاربة تتصارع بحثـــــا عـــن الحقيقة وبحثا عن معرفة حقيقة القدرات سواء بالنسبة لنا أم بالنسبـــــة للعـــدو، وإذا كنـــت قـــد نجـــحت في خلق هذا الشعور بالمسئولية في جميع القيادات المرؤوسة في القوات المسلحة، فأنني لم أستطع أن أحقق ما أصبو إليه بالنسبة للقيادات السياسية، وقد كان ذلك من الأسباب الرئيســـية للخلاف الذي دار بيني من ناحية، وبين كل من رئيس الجمهورية ووزير الحربية مـــن الناحيـــة الأخرى، كما سوف نرى في الباب السابع من هذا الكتاب.

الثقة بين الرئيس والمرؤوس:

إن القائد لا يستطيع أن يكتسب ثقة جنوده بمجـــرد الشعارات البراقة أو عـــن طريـــق إصـــدار التعليمات والتوجيهات والنداءات، وإنما عن طريق القدوة الحسنة والعلاقات المتبادلة التي أساسها الصراحـــة واحترام الذات إن القائد يستطيع أن يكتـــسب ثقة واحترام جنوده إذا تـــوافرت فيـــه

الصفات التي تجتذب الجندي، وأهمها: المعرفة، والشجاعة، والخشونة، والصـــدق فـــي القـــول. والعدل بين المرؤوسين، وعدم المحابـــاة على أساس القرابة والصداقة. إن الجندي لا يهـــتم بمـــا يســـمع فهو يعلم بغريزته أن ليس كل مـــا يقال حقيقة، ولكنه يرى ويحس بما يدور حوله. إنـــه لمن السذاجة أن يطلب القائد من جنوده التقشف بينما هو يعيش عيشة مرفهة، انهـــم سيســـمعون، وأدبا سيسكتون، ولكنهم فيما بينهم سينتقدون ويستهزئون. لقد حاولت طوال مدة خدمتي في القوات المسلحة أن أغرس المثل العليا في نفوس الضباط والجنود. فعندما كنت قائداً لمنطقة البحر الأحمر العسكرية ٧٠-٧١ كنت أسكن في ملجأ ٢ متر×٤ أمتار. لقد كان في استطاعتي أن أسكن في فيلا جميلة ولكني فضلت أن أعيش في المستوى نفسه الذي يعيش فيه ضابط برتبة ملازم أو نقيب في القوات المسلحة، لم يحدث قط أن اشتكى لي أحد الضباط أو الجنود مـــن الحيـــاة الشـــاقة التـــي يعيشونها لأنهم كانوا يرون بأعينهم كيف أعيش وكيف أشاركهم حياتهم.

وعندما توليت منصب (ر.ا.ح.ق.م.م) حاولت أن أثبت المثل العليا التي كنت أؤمن بها في جميع أرجاء القوات المسلحة لكي أخلق جو الثقة بين الجنود والقائد لم أكن أهتم في ذلك بشخصـــي لأن خدمتي في القوات المسلحة لمدة ٣٠ سنة سابقة كانت كافية لكـــي يعرف الضباط والجنود أخلاقي ومبادئي، فكثيرون منهم إما أن يكونوا قد خدموا تحت قيادتي أو سمعوا من بعض زملائهم الذين خدموا تحت قيادتي. كان همي أن أخلق روح الثقة هذه بين القادة على مختلف المستويات وبـــين الجنود وبصفة أساسية بين آلاف الضباط الأصاغر وبين جنودهم، ومن بـــين الإجـــراءات التـــي اتخذتها في هذا الاتجاه. موضوع "التدريب بالمغامرة" الذي سبـــق الحديث عنه، وكـــذلك إعـــادة إدخال الرياضة والمنافسات الرياضية في القوات المسلحة بعد أن كـــانت قد أوقفت منـــذ يوليـــو ١٩٦٧. واعتبارا من يناير عام ١٩٧٢ بدأت المنافسات الرياضية بين ١٤ قيادة عسكرية رئيسية في ٧ العاب. أي انه طوال العام تتم اكثر من ٤٥٠ مقابلة رياضية، وقد استقبل القادة والجنود هذه المنافسات بحماس شديد، وحققت أكثر من هدف: فقد حطمت الحواجز بين الضـــباط والجنـــود، وخلقت روح الفريق، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت توفر مناسبة ترفيهية لآلاف الضباط والجنـــود الذين يحضرونها لتشجيع فرقهم الرياضية، لم تتوقف المنافسات الرياضية خلال عام ٧٣ بل ازداد عدد الألعاب التي يجري عليها التنافس وازدادت العلاقة بين الضباط والجنود عمقاً.

بنك الدم الاشتراكي:

كانت مصارف الدم في القوات المسلحة تعتمد في الحصول على الدم على المتطوعين من الجنود والمدنيين لقاء اجـــر معلوم مقابل كل زجاجة دم، وكان من الطبيعي ألا يلجأ إلى ذلك إلا الجندي

الفقير الذي يضطر إلى أن يبيع دمه لقاء ما يحصل عليه من اجر. لقد شعرت بالخجل واللاإنسانية عندما علمت مصادفة بهذا الوضع. وفي عام ٧٣ بينما كنت أبحث موضوع تخزين احتياطي الدم قبل دخول المعركة أصدرت أوامري بإلغاء هذا النظام فوراً، وفرضت على كل ضابط وجندي دون الأربعين من العمر أن يتبرع بزجاجتين من الدم مرة واحدة خلال فترة خدمته في القوات المسلحة إذا ما كانت حالته الصحية والطبية تسمح بذلك. لقد كانت حساباتي قبل إصدار هذا الأمر تثبت أن هذه الكمية ليست كافية لتغطية احتياجاتنا الاعتيادية فقط، بل إنها تكفي أيضاً لخلق احتياطي من "الدم" يكفي ويزيد على كل ما قد نحتاجه خلال المعركة، وحيث إن الدم الطازج يجب أن يحول إلى بلازما بعد مضى ٣٠ يوما، فقد كان مطلوباً منا أن نحصل على الدم يومياً وطبقاً لجدول زمني دقيق على مدار السنة، وهذا ما فعلناه فقد أصدرت "التوجيه رقم ٣٩" وكان عنوانه هو "القوات المسلحة لا تبيع دماءها وإنما تضحي به من أجل الوطن"، ومع أن التوجيه كان يفرض التبرع على كل من هو دون أل ٤٠ سنة، ومع أني كنت في الخمسين من عمري، فقد قررت- طبقا لمبادئي التي تلزمني بان أشارك رجالي في كل شئ- أن افتتح الحملة بأن تبرعت بزجاجتين من دمي يوم ٣١ من مارس ١٩٧٣، وقبل أن تبدأ عملياتنا في ٦ من أكتوبر كان لدينا ٢٠٠٠٠ زجاجة من الدم كاحتياطي عمليات.

أن الروح المعنوية للجندي هي محصلة لمئات العوامل الكبيرة التي لا مجال لذكرها الآن ولكني أود أن أركز بصفة خاصة على العناصر التي سبق أن ذكرتها وهي المعرفة والإلمام بالقدرات والقدوة الحسنة. يجب أن يعلم كل جندي بقدراته الحقيقية لا أكثر ولا أقل، يجب أن يكون فخوراً في حدود قدراته الحقيقية لا قدرات أجداده وأسلافه. إن التفاخر بأن آباءنا قد بنوا الأهرام منذ أكثر من ٥ آلاف سنة شيء جميل إذا كان ذلك مقرونا بالتفاخر بقدراتنا الحالية، كما أن التفاخر بأننا عبرنا قناة السويس في أكتوبر ٧٣ شئ عظيم، ولكن بشرط ألا تكون قوتنا العسكرية اليوم في ٧٨ أقل مما كانت عليه منذ ٥ سنوات. إن من يتكلم عن الماضي فقط دون الحاضر هم الضعفاء الذين يريدون أن يعيشوا في أحلام الماضي ولا يستطيعون أن يحسنوا حاضرهم ومستقبلهم. والقدوة الحسنة هي أساس النجاح. إن الجندي المصري إذا وجد القدوة الحسنة فإنه يستطيع أن يحقق العجائب وقد بذلنا الكثير قبل حرب أكتوبر لخلق هذه القدوة الحسنة على جميع المستويات، ولقد أثبتت الحرب أن مجهوداتنا في هذا الاتجاه قد حققت نجاحاً كبيراً فقد قاتل الجندي المصري، كما لم يقاتل من قبل في تاريخه الحديث، قاتل بشجاعة وروح معنوية عالية وأعاد إلى الأذهان قول رسول الله "إذا فتح الله عليكم بمصر فاتخذوا منها جنداً

كثيفاً فإن بها خير أجناد الأرض".

الباب الثالث

السادات وصادق وأنا

الفصل الخامس عشر

أكتوبر ٧٠ حتى مايو ٧١

مؤتمر الرئيس في ديسمبر ٧٠:

بعد أن تم انتخاب السادات رئيسا للجمهورية في ١٤ من أكتوبر ٧٠ دعا إلى اجتماع مـــع قـــادة القوات المسلحة يوم ١٩ من أكتوبر، وفى هذا الاجتماع أثنى على المرحوم جمال عبد الناصـــر، ووعدنا بأنه سيسير على هدى خطواته وفى ٣٠ من ديسمبر من العام نفسه حضر اجتماعا أخـــر مع القادة، ولكن في هذا الاجتماع كان المتكلم الرئيسي هو الفريق فوزي – وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة– الذي استعرض في تقريره موقف القوات المســـلحة المصـــرية وقـــدراتها القتالية، وبعد أن أتم الفريق فوزي قراءة تقريره تكلم الرئيس السادات فأكـــد انه لن يكون هنـــاك تمديد لوقف إطلاق النار عندما ينتهي أجله في ٤ من فبراير ٧١، وطلب إلينا أن نكون على أهبة الاستعداد لاستئناف العمليات العسكرية بالأسلحة التي في أيدينا [١]، وكان مما قاله الســـادات "لا تصدقوا الدعاية الأمريكية والإسرائيلية التي تقول إن علاقتنا مع الاتحاد الســـوفيتي ســـيئة إنهـــم يريدونها كذلك ولكنها ليست كما يتمنون ".

مؤتمر الرئيس مارس ٧١:

في ٢٣ من مارس ١٩٧١ عقد الرئيس مؤتمرا عاما للضباط وقد طلب إلي أن أحضر معي ضباط من مختلف الرتب من منطقة البحر الأحمر العسكرية لحضور هذا المؤتمر، وقد بدأ الرئيس حديثه بشرح الأسباب التي دعته إلى تمديد فترة وقف إطلاق النار التي انتهت في ٤ من فبراير الماضي فقال: "إن جهود مصر الدبلوماسية قد نجحت في عزل إسرائيل عن العالم فقد تم عزلها عن أمريكا وبريطانيا ودول أوروبا الغربية وإسبانيا وإيران "، وعن موقف إسرائيل قال السادات: "لأول مرة تعترف إسرائيل في وثيقة رسمية أرسلتها إلى السكرتير العام للأمم المتحدة بتاريخ ٢١ من فبراير ٧١ بأنها لن تنسحب إلى خطوط ٤ من يونيو ٦٧، وبذلك وضحت نواياها أمام العـــالم اجمـــع "، وعن علاقاتنا مع أمريكا قال: "نحن لا نثق بأمريكا فقد وعدتنا كثيرا ولكنها لم تف بوعودها، وقد

أخبرت نيكسون بأننا لا نثق بوعود أمريكا ولكننا على استعداد لأن نثق بالأفعال "، وعن المعركة مع إسرائيل قال السادات: "إن المعركة القادمة هي معركة شعب وليست معركة القوات المسلحة، و يجب علينا أن نحصل على التوازن الدقيق بين مزايا بدء المعركة الآن وبين مزايا الانتظار، وأني أعدكم بأننا لن نقدم ميعاد المعركة يوما واحدا ولن نؤخرها يوما واحدا عن توقيتها الصحيح "، وفي خلال قيام الرئيس بإلقاء كلمته وزع على الحاضرين خريطة تبين الأراضي التي تريد إسرائيل أن تحتفظ بها، والأراضي التي هي مستعدة لإعادتها إلى العرب وقد علق الرئيس على هذه الخريطة وهو يستثير حماس الضباط هل تريدون أن تقبلوا هذا الهوان ؟" ، وكان الرد حماسيا من الجميع "لا- لا لن يكون هذا" (انظر الخريطة رقم ١).

وفي سياق حديثه عن علاقة مصر بالدول العربية هاجم السادات بعنف جميع الدول العربية وخص بهجومه الرئيس هواري بومدين الذي قال عنه " إن الرئيس هواري بومدين قد باع نفسه للأمريكيين، لا سياسيا فحسب بل اقتصاديا. لقد وقع أخيرا مع الشركات الأمريكية عقدا يضمن إمداد أمريكا بالبترول والغاز السائل لعشرات السنين وبذلك سوف يصبح اقتصاد بلاده معتمدا اعتمادا كليا على أمريكا".

مؤتمر وزير الحربية في أبريل ٧١:

في يوم ١٨ من أبريل ٧١ أجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة تحت رئاسة الفريق فوزي. لم تكن وظيفتي التي أشغلها كقائد لمنطقة البحر الأحمر العسكرية تؤهلني لعضوية هذا المجلس، ولكنى دعيت لحضور هذا المؤتمر، وقد كان الموضوع الرئيسي لهذا المؤتمر هو بحث موضوع "اتحاد الجمهوريات العربية"، وقد بدأ الفريق فوزي حديثه بمقدمة مفادها عدم علمه المسبق بهذا الإعلان وانه علم به رسميا حوالي الساعة الواحدة صباحا أي قبل إذاعته في الصحف بخمس ساعات فقط، وتساءل عن الفوائد التي يمكن أن نجنيها من هذا الاتحاد ولاسيما أن علاقتنا الحالية مع سوريا طيبة جدا وأخبرنا بأنه يوجد اتفاق سري بين مصر وسوريا تم في نوفمبر ٧٠ وبموجبه أصبحت لوزير الحربية المصري سلطة قيادة القوات السورية أيضا، كما اخبرنا بأنه لا يوافق على الحل المقترح بانسحاب إسرائيل الجزئي من الضفة الشرقية [٢]، ثم أنهى حديثه قائلا إن آراء الفريق صادق (الذي كان يشغل منصب "ر. ا. ح. ق. م. م " في ذلك الوقت) متفقة تماما مع آرائه وانه طلب حضورنا لكي يستمع إلى وجهة نظرنا في هذا الموضوع.

كان المؤتمر يضم ١٦ ضابطا بالإضافة إلى سكرتير المجلس الذي يقوم بإجراء التسجيل الرسمي دون أن يطلب إليه إبداء الرأي، وكان ترتيبي في سلم الأقدمية بين الحاضرين هو الثاني

عشر. وعلى الرغم من أن هناك تقليدا عسكريا هو أن يستمع لرأي الضابط الأحدث قبل الضابط الأقدم حتى لا يتأثر الضابط الأحدث برأي من هو أقدم منه أو من هو رئيسه، فقد خالف الفريق فوزي هذا التقليد عندما أعلن رأيه قبل أن يستمع إلى أقوالنا، ثم خالفه مرة أخرى عندما بدأ بالاستماع لرأى الأقدم قبل الأحدث ثم خالفه مرة ثالثة عندما تخطى الفريق صادق وسأل من يليه في الأقدمية وذلك ليقنع الجميع أن الفريق صادق متفق معه في الرأي تماما، كما سبق أن قال.

هاجم المتحدثون الذين سبقوني جميعهم انضمام مصر إلى هذا الاتحاد وبذلك كانت معركة التصويت قد حسمت فلو أنني والأربعة الذين من بعدي عارضنا هذا الاتفاق فإن ذلك لم يكن ليغير من الأمر شيئا، وعندما جاء دوري في الكلام أيدت الاتحاد وفندت الأسباب المختلفة التي اعتمد عليها الآخرون في معارضتهم له، وشرحت لهم المواد الخاصة بالاتحاد وخرجت بخلاصة وهي "إذا لم يكن هناك نفع لمصر من هذا الاتحاد فإنه ليس هناك أي غرم، ولذلك فأنى أباركه ".

كان تصرفي هذا تصرفا يمليه المبدأ والاقتناع، وان كان يبدو في أعين بعضهم نوعا من الجهل بأصول اللعبة السياسية. لقد كان الجميع في مصر وفي خارج مصر يعلمون أن الرئيس السادات هو رئيس لا سلطات له وان السلطة الحقيقية كانت في أيدي اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي، وقد لمح الفريق فوزي في حديثه معنا إلى أن الجهات السياسية العليا ترفض هذه الاتفاقية وانه بعد أن ينتهي من اجتماعه معنا فإنه سوف يتوجه لحضور اجتماع سياسي على أعلى مستوى، وأنه سوف يقوم بإبلاغ هذه الجهات السياسية برأي القوات المسلحة، ومع هذه الإيضاحات كلها ومع وقوف غالبية القادة في القوات المسلحة ضد هذا الاتحاد فقد اخترت أن أقف إلى جانب ما أعتقد الحق مهما سبب ذلك لي من مشكلات.

وبينما كنت أقوم بشرح وجهة نظري هاجمني أحد الأعضاء القدامى، ولكن الوزير تدخل وطلب منه عدم مقاطعتي. لقد كانت لفتة كريمة من الوزير ولكنها لم تغير من الحقيقة وهي أني قد اخترت أن أسير في الطريق الصعب، ولكنه كان طريقاً أعتقد أنه كان في صالح مصر.

بعد أن أنهيت حديثي تكلم الأربعة الآخرون، فعارضوا الاتفاقية. كان الفريق فوزي سعيداً بهذه النتيجة، وقد عقب قائلاً:"والآن فإنني أستطيع القول بأنكم جميعاً فيما عدا اللواء الشاذلي تعارضون هذا الاتحاد، وسوف أنقل خلاصة رأيكم هذه إلى الاجتماع السياسي المهم الذي سوف اذهب الآن لحضوره. وفى هذه اللحظة تدخل العضو نفسه الذي هاجمني وقال: "أننا لم نسمع رأي السيد رئيس الأركان، ونود أن نعرف رأيه قبل أن ننصرف من هذا المكان ". نظر الوزير إلى الفريق صادق وطلب إليه أن يبدي رأيه، تكلم الفريق صادق بحذر شديد، نظرا لأن طبيعة الشك التي

تولدت عند الفريق صادق عندما كان مديرا للمخابرات الحربية قد لازمته عندما اصبح (ر.أ.ح.ق.م.م) كما ظلت تلازمه وهو وزير للحربية كما سنرى فيما بعد. قال الفريق صادق: " إني قلق من نقطتين رئيسيتين: النقطة الأولى هي قيام الاتحاد السوفيتي بتأييد هذا الاتحاد وهذا عمل غير منطقي يثير الشكوك، والنقطة الثانية هي انضمام سوريا إلى الاتحاد بعد التجربة المريرة التي مررنا بها في عام ١٩٥٨، ثم انفصمت عراها في ١٩٦١، ولولا هاتان النقطتان لكنت من المؤيدين لهذا الاتحاد "فرد عليه العضو نفسه الذي طلب منه أن يبدي رأيه قائلا: "إننا نريد إجابة صريحة بنعم أو لا على الاتحاد في صورته المعروضة،، فرد الفريق صادق بأنه يعارض الاتحاد، وهكذا انتهت المناقشات بان اصبح ١٥ عضوا في المجلس الأعلى يعارضون الاتحاد وعضو واحد فقط هو الذي يؤيد- وهو أنا- علما بأني لم أكن عضوا دائما في المجلس.

سافرت صباح اليوم التالي إلى مقر عملي في البحر الأحمر، ولكني أخذت أعد نفسي لأسوأ الاحتمالات، كان الصراع على السلطة في مصر قد أصبح يتخذ شكلا حادا. ففي ٢ من مايو أذيع بيان جاء فيه أن الرئيس السادات أقال السيد علي صبري من وظيفته كنائب لرئيس الجمهورية ، وكذلك من جميع مناصبه الأخرى، وفي يوم ١٠ من مايو استدعيت إلى القاهرة لحضور مؤتمر برئاسة السيد الوزير تقرر عقده صباح اليوم التالي، ولكن عندما ذهبت إلى الاجتماع اتضح أن رئيس الجمهورية هو الذي سيرأس الاجتماع. كان هذا هو الاجتماع الرابع الذي يعقده الرئيس السادات مع قادة القوات المسلحة منذ انتخابه رئيسا للجمهورية في أكتوبر الماضي.

مؤتمر الرئيس في ١١ من مايو ٧١:

كان اجتماع السادات يوم ١١ من مايو ٧١ مختلفا عن جميع اجتماعاته السابقة- كانت لهجته تنم عن التحدي لخصومه السياسيين، وكان يتكلم بثقة أكبر. كان يستخدم كلمة "أنا" كثيرا بعد أن كان في جميع محادثاته السابقة يستخدم كلمة "نحن"، مشيرا بذلك إلى القيادة الجماعية.

كان قد أخبرنا في اجتماع ٢٣ من مارس أن قرار تمديد وقف النار في ٥ من فبراير ٧١ قد اقترن بتقد يم مبادرة مصرية ولكنه لم يوضح لنا تفاصيل هذه المبادرة [٣]، وفي هذا المؤتمر اخبرنا بالأقوال التالية:

١- إعادة فتح قناة السويس، وانسحاب إسرائيل إلى ما هو شرق العريش، وتتم هذه المرحلة خلال مدة ١٦ شهر.

٢- تبدأ المرحلة الثانية مباشرة ويتم خلالها الانسحاب الإسرائيلي الكامل [٤].

٣- في أثناء مقابلتي الأخيرة منذ أيام مع المستر روجرز، أخبرته بان شروطي لإعادة فتح القناة

ليست قابلة للتفاوض وانه يجب أن تعبر قواتنا القناة وتقيم خطا دفاعيا في الشرق لتأمين حرية الملاحة بالقناة وان فترة وقف إطلاق النار لإتمام المرحلة الثانية تكون فترة محددة، وقد علق روجرز على ذلك قائلا "لا أحد يمكنه أن يطلب من مصر أكثر من ذلك، لقد ذهبتم إلى أبعد ما تستطيعون!". (٥)

٤- طلبت من روجرز إجابة محددة عن سؤالي: "هل أمريكا تؤيد إسرائيل في احتلال أراضينا أم إنها تضمن سلامة إسرائيل داخل حدودها فقط؟" ، وقد سلمت روجرز مذكرة مكتوبة تتضمن جميع هذه التفاصيل.

٥- بعد عودة سيسكو (٦) من إسرائيل أخبرني بأنهم في إسرائيل يثيرون النقاط التالية:

أ- بعد إعادة فتح القناة هل ستسمح للسفن الإسرائيلية بعبور القناة أم أن ذلك لن يكون إلا بعد انسحابها الكامل ؟

ب- إن مدى انسحابهم شرق القناة يتوقف على طول مدة وقف إطلاق النار، فكلما طالت هذه الفترة زادت إسرائيل من المساحة التي تنسحب منها.

ج - إنهم لا يوافقون مطلقا على عبور قواتنا شرق القناة.

د- انهم يطالبون بتخفيف قواتنا غرب القناة.

هـ- إنهم يرفضون إعطاء أي تعهد بالانسحاب إلى حدود ٤ من يونيو ٦٧.

و- أن أي اتفاق يتم التوصل إليه لا يكون نافذا إلا بعد أن يوافق عليه البرلمان الإسرائيلي.

٦- تكلم الرئيس مره أخرى عن علاقتنا مع الاتحاد السوفييتي فقال إنها ممتازة و إن الاتحاد السوفيتي يقوم ببناء مشروعات صناعية في مصر قيمتها ٤٦٠ مليون دولار، وإن هذا سيمكننا من بناء القاعدة الاقتصادية التي هي أساس الاستقلال السياسي.

٧- أشاد الرئيس السادات بالدور الذي تقوم به القوات المسلحة في تدعيم السياسة الخارجية، وذكر أن أمريكا ما كانت لتتحرك وترسل روجرز إلى القاهرة لو لم تكن تعلم بان قوتنا العسكرية قد أصبحت قادرة على تحدي الغرور الإسرائيلي ومصممة على استعادة موقعها القيادي بين الدول العربية. ثم تحدث عن اهتمامه بالقوات الجوية حتى يمكننا أن نتحدى السيطرة الجوية الإسرائيلية، فقال في هذا المجال: " إنني لن أنام وأنا مطمئن البال إلا بعد أن يكون لدينا ١٠٠٠ طيار".

تعييني رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة المصرية:

عدت إلى البحر الأحمر يوم ١٢ من مايو ٧١، ولكن الأحداث بدأت تتحرك بسرعة مذهلة. ففي

يوم ١٣ من مايو أعلن عن استقالة الغالبية العظمى من أعضاء اللجنة التنفيذيـــة العليـــا للاتحـــاد الاشتراكي، وكذلك عدد من الوزراء بما فيهم وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، وتبـــع ذلك أيضا استقالة عدد من أعضاء اللجنة المركزية، وبدا الموقف وكأنه انهيار سياسي. وفي ١٥ من مايو قام السادات بانقلاب عسكري ضد خصومه السياسيين واشترك في هذا الانقلاب كل من اللواء الليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري، والفريق محمد صادق رئيس أركان حرب القـــوات المسلحة، وكان الرجل الثالث من رجال الانقلاب هو السيد ممدوح سالم وهو ضابط بوليس قضى معظم خدمته في المباحث العامة، وكان آخر منصب شغله قبل الاشتراك في انقلاب السادات هـــو محافظ الإسكندرية، حيث قام اللواء الليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري وتحت قيادته لواء مدرع ولواء مشاة بالدور الرئيسي في الانقلاب، بينما لعب الفريق صـــادق (ر.ا.ح.ق.م.م) دور المؤيد للانقلاب، أما ممدوح سالم، فكانت مسئوليته تنحصر في السيطرة على المباحث السرية والبوليس، وتجميع المعلومات عن خصوم السادات السياسيين.

مازال هناك الكثير من الأسرار حول انقلاب السادات في ١٥ من مايو ٧١: كيـــف تـــم ؟ لمـــاذا وكيف سكت ١٤ قائدا عسكريا اشتركوا مع وزير الحربية في التصويت يوم ١٨ من أبريـــل ٧١ ضد مشروع الاتحاد الذي كان في الحـــقيقة تصويتا ضد رئيس الجمهورية ؟ لقد قام الســـــادات بالتخلص من الفريق صادق في أكتوبر ٧٢، وهو الآن في مصـــر لا يســـتطيع أن يغادرهـــا ولا يستطيع أن يتكلم، أما الفريق الليثي ناصف فقد مات في حادث غامض في لنـــدن يـــوم ٣٠ مـــن أغسطس ٧٣، أما ممدوح سالم وهو الأقل خطرا لأنه لا يملك القوة العسكرية التي تشكل خطـــرا على النظام- فقد عين وزيرا للداخلية ثم بعد ذلك رئيسا للوزارة في أبريل ٧٥، ثم لفظه السادات بعد أن حقق أهدافه منه، وكان ذلك في أوائل أكتوبر ٧٨، وبذلك تم التخلص نهائيا من كـــل مـــن عاونوه في انقلاب عام ١٩٧١.

في يوم ١٦ من مايو عدت مرة أخرى إلى القاهرة التي كنت فيها منذ ثلاثة أيام لاستلام منصـــبي الجديد كرئيس لأركـــان حرب القوات المسلـــحة المصرية، متخطيا بـــذلك اكثر من ٣٠ ضابطا يسبقوني في الأقدمية العامة. قد يعتقد بعـــضهم أن هذا التعيين جاء بناء على موقفي في مؤتمـــر المجلس الأعلى للقوات المسلحة الذي انعقد في ١٨ من أبريل ٧١. ولو أخذنا بهذا التفسير لكـــان منطقيا أن يقوم السادات بالتخلص من جميع الأعضاء الأربعة عشر الذين وقفوا ضده لكي يـــأمن شرهم، ولكن هذا لم يحدث، كل ما حدث هو أن الشخص الذي هاجم الفريق صادق مرتين خلال هذا المؤتمر قد تم نقله من القوات المسلحة إلى وظيفة مدنية، وكان واضحا أن الفريـــق صـــادق

وليس رئيس الجمهورية هو الذي وراء هذا النقل، وفي يوم ١٧ من مايو قابلت رئيس الجمهورية في منزله بالجيزة برفقة الفريق صادق، حيث أشاد بما يعرفه عني من قدرات وإمكانات وانضباط عسكري ولأنه يثق بي ثقة كبيرة ثم أخذنا نتجاذب الحديث نحن الثلاثة في أمور تخص القوات المسلحة لمدة ساعتين تقريبا، انصرفت بعدها لأبدأ مرحلة من العمل المضني الجاد لإعداد القوات المسلحة للحرب، كما جاء في البابين الأول والثاني من هذا الكتاب وكما سوف يجئ ذكره في حينه في الأبواب القادمة.

هوامش الفصل الخامس عشر:

(١) لقد وافق السادات بعد ذلك على تمديد وقف إطلاق النار، ما الذي جرى خلال تلك الأسابيع الخمسة لكي يغير سياسته؟

(٢) كان في هذا القول إشارة خفية إلى أن السادات في اتصالاته السرية مع روجرز وزير الخارجية الأمريكي قد وافق على انسحاب إسرائيلي جزئي من الضفة الشرقية للقناة.

(٣) يدعي السادات في مذكراته (الصفحة رقم ٣٠٠) بأنه لم يستشر أحدا من القيادات السياسية وانه فاجأهم بها عندما أعلنها أمام البرلمان يوم ٤ من فبراير٧٠. ويقول السيد علي صبري في مذكراته التي نشرت في مجلة ٢٣ يوليو (العدد ١٤ بتاريخ ٤ من يونيو ٧٩) إن السادات عرض هذه المبادرة على مجلس الدفاع القومي يوم ٢ من فبراير ولم يوافق المجلس عليها وإن السادات قرر إعلانها رغم ذلك على الرغم من المحاولات المكثفة التي بذلها أعضاء القيادة السياسية لثنيه عن إعلانها، وإن هذه المحاولات استمرت حتى في بهو مجلس الشعب قبل ميعاد إلقاء الرئيس خطابه بدقائق.

(٤) يلاحظ أن الرئيس عند ذكره كلمة الانسحاب الكامل لم يوضح ما إذا كان يخبئ في صدره أنه يعني الانسحاب من سيناء فقط أم الانسحاب من جميع الأراضي العربية، ولكن طبقا للمفهوم السائد في ذلك الوقت فإن معنى كلمة الانسحاب الكامل كانت تعنى الانسحاب من جميع الأراضي العربية التي احتلت في يونيو ١٩٦٧، والآن وبعد اكثر من ١٠ سنوات من هذا اللقاء يتساءل المرء عما إذا كانت اتفاقية كامب ديفيد في ١٧ من سبتمبر ٧٨ هي أفكار السادات نفسها في مايو ٧١.

(٥) تعرف رحلة روجرز إلى كل من مصر و إسرائيل خلال مايو ٧١ بـ "مشروع روجرز للسلام رقم ٣"، ومن المعروف الآن أن السادات وافق على كل ما طلب منه، ولكن المسز مائير لم تعط أي رد إيجابي، وكل ما عاد به روجرز إلى واشنطن هو وعد من المسز مائير بأنهم سيقومون بالدراسة.

كان "مشروع روجرز للسلام رقم ١ " هو دعوة كل من إسرائيل ومصر والأردن للتفاوض غير

المباشر تحت إشراف كل من أمريكا والاتحاد السوفيتي، ولكن الاتحاد السوفيتي رفض الانضمام إلى هذه المبادرة فقام روجرز بإرسالها للأطراف الثلاثة في ٢٨ من أكتوبر ١٩٦٨. رفض جمال عبد الناصر هذه الخطوة ووصف أمريكا بأنها العدو رقم ١ للعرب كذلك رفضت المسز مائير هذه المبادرة على أساس انه لا يجوز أن تشارك أو تسهم الدولتان العظميان في المفاوضات، وان المفاوضات يجب أن تكون مباشرة بين إسرائيل والعرب.

كان "مشروع روجرز للسلام رقم ٢" هو المشروع الذي تقدم به في ١٩ من يونيو ٧٠ والذي كان يدعو إلى وقف إطلاق النار لمدة ٩٠ يوما على أن تتم خلالها مفاوضات غير مباشرة بين مصر وإسرائيل والأردن، وقبل عبد الناصر المبادرة واضطرت إسرائيل –التي كانت تصر على المفاوضات المباشرة– إلى قبول المشروع بعد أن أخذت طائراتها تتساقط بواسطة دفاعنا الجوي خلال الأسبوع الأول من شهر يوليو ٧٠.

(٦) أحد معاوني المستر روجرز والذي رافقه في زيارته إلى مصر ثم إلى إسرائيل.

الفصل السادس عشر

يونيو ٧١.. مارس ٧٢

مؤتمر الرئيس في ٣ من يونيو ٧١:

في يوم ٣ من يونيو ٧١ اجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة الرئيس السادات وقد بدأ الرئيس المؤتمر بشرح ما وصفه بالمؤامرة التي كانت تريد أن تتخلص منه، وخص بالذكر كلا من الفريق فوزي وأمين هويدي، وشعراوي جمعة، وسامي شرف. ومجدي حسنين.

وبعد ذلك انتقل إلى خط السياسة الخارجية، فقال: " أن استراتيجيتنا يجب أن تكون واضحة لكم، وهى تتلخص في نقطتين: النقطة الأولى هي الحفاظ على علاقتنا مع السوفيت والتمسك بها حتى يمكننا بناء الدولة الحديثة اقتصاديا وعسكريا، إذ أن الحركة الصهيونية هي هجمة صليبية وسوف تستمر عشرات السنين وان صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي هي التي سوف تساعدنا في التصدي لهذه الهجمة. أما النقطة الثانية فهي الوحدة العربية. وإننا ملتزمون بهذين الهدفين ونسير

قدما في إتمامهما"، وفى تعليقه على زيارة الرئيس بودجورني [١] قال: "لم يحدث مطلقا أن حاول بودجورني أو أي من أعضاء الوفد السوفيتي التدخل في شئوننا الداخلية، ولكن في لقاء خاص بيني وبين الرئيس بودجورنى، سألني لماذا اخترت هذا الوقت بالذات لطرد علي صبري ؟ فقلت له: لقد رأيت أن أعجل بذلك قبل حضور روجرز إلى القاهرة حتى لا يفسر طردي لعلي صبري إذا ما تم بعد زيارة روجرز على انه ثمن صفقة أمريكية، وقد رد على بودجورنى قائلا: " أنهم في القيادة السوفيتية تصوروا هذا التفسير نفسه".

وردا على سؤال بخصوص التنظيم الطليعي أجاب الرئيس "لقد كانت فكرة جمال عبد الناصر في هذا الموضوع هي إنشاء تنظيم من العناصر القيادية الشابة دون أن تعرف أسماؤهم حتى لا يكونوا هدفا لهجوم عناصر مضادة من داخل الاتحاد الاشتراكي أو من خارجه ممن تستبد بهم الغيرة والحقد، وقد كانت هذه العناصر تنتخب من القاعدة حتى القمة، وقد استغلت بعض العناصر –التي كانت تريد أن ترث جمال عبد الناصر– هذا التنظيم لكي تفرض سيطرتها على الشعب فدربتهم عسكريا وهيأت وخزنت السلاح اللازم لاستخدامه في الوقت المناسب ولحسن الحظ تمكنا من وضع يدنا على السلاح قبل توزيعه عليهم.

وردا على سؤال يتعلق بالشائعات الدائرة حول مطالبة الروس بقواعد عسكرية في مصر أجاب الرئيس:"هذا غير حقيقي، أنا لا أعطي قواعد لأحد، وبهذه المناسبة أود أن أقول لكم إنه أثناء زيارة روجرز الأخيرة فإني أخبرته بأنني سأنشئ أكاديمية جوية وأني سأستعين بالروس لإنشائها وإنني لن أستطيع النوم قبل أن يصبح لدينا ١٠٠٠ طيار مدرب، قلت له كذلك: إن الأمريكان يعلمون جيدا أننا أصحاب الكلمة في أرضنا، وقد أخبرت روجرز أيضا بأنه إذا فرض علينا الاحتلال الإسرائيلي فإنني سأعيد التفكير في كلمة عدم الانحياز".

وردأ على سؤال خاص بالنواقص التعبوية التي تؤثر على المعركة الهجومية قال الرئيس:

"إنكم مطالبون بالعمل في حدود الإمكانات المتاحة لكم، لو إنكم عبرتم القناة واحتللتم عشرة سنتيمترات فقط شرق القناة وأقول ذلك طبعا للمبالغة، فإن ذلك سوف يغير الموقف السياسي دوليا وعربيا".

كنت أقوم بزيارة الوحدات البحرية في الإسكندرية خلال يومي ٦ و ٧ من يوليو، وكان يرافقني في هذه الزيارة عدد من كبار القادة الذين هم أعضاء في المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وقد انتهزت فرصة وجودنا في الإسكندرية لأعرض عليهم أفكاري فيما يتعلق بالمعركة الهجومية المحدودة وذلك قبل انعقاد المجلس بصفة رسمية يوم ٨ من يوليو في القاهرة واجتمعنا ظهر يوم

٧ من يوليو في الكلية البحرية وشرحت لهم أفكاري عن الحرب المحدودة [٢]. اجتمع المجلس بكامل هيئته في القاهرة برئاسة السيد الوزير يوم ٨ من يوليو الساعة ١٩٠٠ واستمر حتى منتصف الليل، وقد ظهر بصفة علنية- ولأول مرة- التصادم الفكري بيني وبين الفريق صادق بخصوص شكل المعركة الهجومية، فقد كنت أرى أن تخضع الخطة للإمكانات المتاحة، بينما كان الفريق صادق يرى أن نضع الخطة على أساس تحرير الأرض بكاملها – دون التقيد بالإمكانات المتيسرة- ثم نعمل بذلك على تدبير الإمكانات المطلوبة، وذلك كما سبق أن بينت بالتفصيل في الباب الأول.

مؤتمر الرئيس يوم ٤ من نوفمبر ٧١:

في يوم ٤ من نوفمبر ٧١ عقد مؤتمر برئاسة السيد الرئيس حضره كل من الفريق صادق وأنا واللواء عبد القادر حسن واللواء بغدادي واللواء محمد علي فهمي واللواء الليثي ناصف والجنرال أوكينيف OKENEV كبير المستشارين السوفيت، وقد امتد المؤتمر من الساعة التاسعة مساء حتى الواحدة بعد منتصف الليل، ودار فيه ما يلي:

١- أدلى الرئيس بما يلي:

أ- اجتمعت أمس بمجلس الأمن القومي وسوف تعبأ جميع موارد الدولة لأغراض المعركة.

ب- سوف أعلن يوم الخميس القادم ١١ من نوفمبر سحب مبادرتي لفتح قناة السويس التي كنت قد أعلنتها في ٤ من فبراير الماضي تحت شروط خاصة.

ج- قال موجها كلامه إلى الجنرال أوكينيف: "لعلمك، فقد أرسلت إلى أمريكا اخبرهم بأننا سندخل سيناء حتى لو بالبنادق فقط ".

د- أعلن نفسي منذ الآن قائدا عاما للقوات المسلحة [٣]، وعليه يجري تخصيص مكتب لي في القيادة [٤].

٢- أدلى الجنرال اوكينيف بما يلي:

أ- ستصل الطائرات TU-16 ومعها الأطقم اللازمة لتدريب الطيارين والملاحين المصريين فورا [٥].

ب- إن المارشال جريشكو – وزير الدفاع في الاتحاد السوفيتي- يطالب بان يتم تدريب فوج الكوادرات (سام ٦) في الاتحاد السوفيتي، حيث إن تسهيلات التدريب لهذا الفوج ليست متيسرة في مصر [٦].

ج- لقد وصلتني من الاتحاد السوفيتي صور عن سيناء التقطتها الأقمار الصناعية السوفيتية، وأني أضعها تحت تصرف القيادة المصرية.

مؤتمر الرئيس في ١٩ من نوفمبر ٧١:

في يوم ١٩ من نوفمبر ٧١ عقد الرئيس مؤتمرا في قاعدة انشاص الجوية، حضره كل من الفريق صادق وأنا واللواء بغدادي واللواء حسني مبارك واللواء الليثي والسفير السوفيتي في مصر والجنرال اوكينيف، وقد دار خلال هذا المؤتمر الحديث التالي:

الرئيس:

وصلني بيرجس [٧] أمس الأول، وقد قلت له أن خبرتي السابقة معكم تجعلني لا أثق بكم، وإنكم تحاولون تحويل مبادرتي إلى معنى لم اقصده إطلاقا بحيث تصبح لصالح إسرائيل، لقد سبق لهم أن سألوني (يقصد الأمريكيين): إذا سارت عملية الانسحاب طبقا لمبادرتي فهل يمكن تمديد فترة وقف إطلاق النار؟ فأجبتهم بأن ذلك ممكن ويمكننا أن نمدد هذه الفترة ثلاثة أشهر فثلاثة أخرى لمدة أقصاها سنة، ولكني سحبت ذلك كله في مقابلتي أول أمس، وقد سألني بيرجس: "هل أقوم بإبلاغ واشنطن بأنك لا تثق بنا وأنك لن تتفاهم معنا إلا بعد أن ترد إسرائيل على مذكرة يارنج بالإيجاب ؟" فقلت له نعم، وقد أخبرني هو بأنه علم أنه قد وصلتنا طائرات قادرة على إطلاق صواريخ أسرع من الصوت، وأنها مصممة أساسا لضرب السفن الحربية وأن ذلك يقلق حكومة واشنطن لأنه يدخل ضمن حساب توازن القوى بينهما وبين الاتحاد السوفيتي. أخبرته بأني لن أعلن الحرب على أمريكا ولكن يجب أن تعرفوا أن ضرب العمق عندي سيقابل بضرب العمق الإسرائيلي، وقلت له أيضا: يجب أن تخجلوا من أنفسكم، وذكرها الرئيس مرة أخرى باللغة الإنجليزية you should be ashamed of yourself لهذا القلق الذي تشعرون به، إنكم تعطون إسرائيل الفانتوم التي تستطيع بها أن تضرب العمق عندي، ثم تقولون إنكم تشعرون بالقلق عندما أستطيع أن احصل على السلاح الذي يمكنني من ضرب العمق الإسرائيلي.

اللواء بغدادي:

لقد علمت من رئيس المستشارين في القوات الجوية أن سرعة هذه الصواريخ هي ١٢٠٠ كم في الساعة، وفي اعتقادي أنه ما لم تكن سرعتها تعادل ضعف سرعة الصوت فإن هذه الصواريخ تكون عديمة القيمة.

الجنرال أوكينيف:

هذه معلومات غير صحيحة ثم شرح بعد ذلك أنواع الصواريخ التي تقرر إمدادنا بها

وخصائص كل منها، وأني اعتذر للقارئ عن عدم إمكان إذاعة هذه المعلومات.

الرئيس:

أني اقبل تفسير الجنرال أوكينيف

الجنرال أوكينيف:

إن المشكلة الحقيقية هي تدريب الملاحين. إن كل ملاح يحتاج إلى ٥٠٠ ساعة تدريبيه.

الرئيس:

لقد استدعى الأمريكيون الجنرال دايان لزيارة أمريكا، ولاشك انهم سيطلعونه على معلوماتهم عن الطائرة TU-16 حاملة الصواريخ، و أخشى أن يقوم العدو بضربة مفاجـئة ليسبقنا بالهجوم، لذلك فإني اطلب من الجانب السوفيتي أن يستطلع لنا سيناء بواسطة الطـائرات – M-500 (٨) . وأن يقوم أيضا باستطلاع إسرائيل نفسها بواسطة الأقمار الصناعية.

اللواء بغدادي:

أن الخمسين طائرة ميج MF21 التي قيل إنها ستصل إلينا خلال عام ٧١ تحتاج إلى ٣ اشـهر للتركيب، كذلك فإن ورش عمرة (تجديد المحركات وصلاحها بعد فترة تشغيل معينة كما هو الحال في محركات العربات) محركات الطائرات التي يقوم السوفيت بإنشائها في مصر لم يتم الانتهـاء منها، وأني أرجو السرعة في إنهاء هذه الأمور.

الرئيس:

اطلب من السيد السفير إبلاغ الزعماء السوفيت بسرعة توريد ما اتفقنا عليه، وإحاطتي بمواعيد وصول هذه الإمدادات، كـذلك اطلـب سـرعة تشـغيل مصـنع الطـائرات وورش العمـرة.

زيارة الجبهة:

لقد كان يوم ١٩ نوفمبر ٧١ يوافق اليوم الثاني من أيام عيد الفطر المبـارك، وبعـد انتهـاء المؤتمر رافقت السيد الرئيس في زيارته للقوات المسلحة فاجتمع برجال القوات الجوية والقـوات الخاصة في اليوم نفسه ثم انطلقنا إلى الإسماعيلية، حيث قضينا الليلة هناك والتقينا برجال الجيش الثاني، ثم انطلقنا في صباح اليوم التالي إلى الجنوب حيث التقى الرئيس برجال الجيش، ثم عـدنا إلى القاهرة في مساء يوم ٢٠ من نوفمبر.

وفي خلال الفترة ما بين ٢١ من نوفمبر وحتى نهاية الشهر كـان مجهودي الرئيسي موجها للقيام بالتزاماتي تجاه الجـامعة العربية بصفتي الأمين العسكري المساعد لها، فبموجب هذا المنصـب كنت أقوم بأعمال رئيس الهيئة الاستشارية العسكرية التي تتكون من رؤساء أركان حرب الجيوش

العربية، أقوم بأعمال السكرتارية لمجلس الدفاع المشترك العربي الذي يتكون من وزراء الخارجية والدفاع في الدول العربية. وقد كان رؤساء أركان حرب القوات المسلحة في الدول العربية سوف يبدأ وصولهم إلى القاهرة اعتبارا من ٢١ من نوفمبر ثم يبدأ بعد ذلك اجتماع مجلس الدفاع المشترك في الفترة ما بين ٢٧-٣٠ نوفمبر (٩).

مؤتمر الرئيس يوم ٢ من يناير ١٩٧٢:

انعقد المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة الرئيس السادات يوم ٢ من يناير ٧٢، وفيما يلي أهم ما جرى خلال هذا المؤتمر:

الرئيس:

"أن أمريكا تدعم إسرائيل بكل شئ في حين أن الاتحاد السوفيتي لم يمدنا بما وعدني به في أكتوبر الماضي. أن الاتفاقية التي وقع عليها اللواء عبد القادر حسن مؤخرا في موسكو لم تشمل الأصناف كلها التي وعدني بها القادة السوفيت إن أمريكا لن تقوم بممارسة أي ضغط على إسرائيل وانهم يقولون أن الدور الذي يقومون به هو عامل مساعد فقط (استخدم الرئيس الكلمة الإنجليزية CATALIST). أن اندلاع الحرب الهندية الباكستانية يجعلني أراجع جميع حساباتي حيث أن الحرب بين الهند وباكستان لم تنته بل إنها في الحقيقة قد بدأت (١٠) ".

طلب الرئيس بعد ذلك الاستماع إلى تقارير القادة فكانت كما يلي:

لواء محمد علي فهمي (قائد الدفاع الجوي):

"إن مشكلتي تنحصر في أنه مطلوب مني أن أقاتل في معركة هجومية بأسلحة دفاعية".

محمود فهمي (قائد القوات البحرية):

"يجب أن نمارس الضغط على الاتحاد السوفيتي، يحب أن نغلق الموانئ المصرية في وجه الأسطول الروسي، ويمكن أن يتم ذلك بالتدريج شيئا فشيئا إلى أن يتم المنع نهائيا إذا لم يستجيبوا لمطالبنا".

اللواء بغدادي (قائد القوات الجوية):

"احتاج إلى طائرات ردع تستطيع أن تصل إلى عمق إسرائيل".

اللواء علي عبد الخبير (قائد المنطقة المركزية):

"هناك اوجه قصور كثيرة في القوات المسلحة بالنسبة للمعركة الهجومية، أهمها ضعف الطيران، والنقص في الحركة، والنقص في وسائل المواصلات، وأسلوب فتح الثغرات في حقول الألغام".

اللواء سعيد الماحي (قائد المدفعية):

"يجب أن نقوم بعمل ما في حدود إمكاناتنا".

الفريق الشاذلي:

"على الرغم من قلة الإمكانات إلا أن القوات المسلحة قادرة على القيام بعملية هجومية محدودة. يجب أن يقوم سيادة الرئيس بالاتصال بالجانب السوفيتي ويعرف موقفهم في حالة قيامنا بعملية هجومية، حيث أن لديهم قوات كبيرة في مصر. إن لديهم لواءين "طائرات قتال" وفرقة دفاع جوي، وهم يسيطرون على إمكانات الحرب الإلكترونية، ويجب أن نعلم كقادة هل سيشترك معنا السوفيت أم لا، وفي حالة اشتراكهم فيجب أن نعلم حدود هذا الاشتراك حتى يمكن أن يكون تخطيطنا سليما".

الفريق صادق:

"إننا جميعا على استعداد للقتال الفوري ولكن يجب أن يكون النصر مضمونا. إن البلاد لا تتحمل ما هو أقل من النصر. إننا سنقوم باستكمال العجز من الكتلة الغربية وسأخبر سيادتكم بمجرد الانتهاء من ذلك".

قصة الضباب:

لاشك أن السادات قد شعر بالارتياح العظيم عندما سمع باندلاع الحرب الهندية الباكستانية في ٣ من ديسمبر ١٩٧١، إذ انه لا يمكن أن يعترف بخطئه، وهو دائما يبحث عن شخص أو سبب ليحمله مسئولية الخطأ. لقد قضى طوال عام ٧١ وهو يدق طبول الحرب ويقول أن عام ٧١ هو "عام الحسم "أما سلما وأما حربا، وها قد انتهى عام ٧١ دون أي حسم، وقد بدأ الشعب المصري -الذي يمارس الديمقراطية فقط من خلال النكتة- يطلق النكات ومن بين هذه النكات نكتة تقول: "إن الرئيس قد أصدر قرارا جمهوريا باعتبار عام ٧٢ امتدادا لعام ٧١، ومحرم على أي فرد أن يستخدم الرقم ٧٢"، وكان على السادات أن يرد على هذه النكات وأن يجد المبرر لعدم قيامنا بالهجوم على إسرائيل خلال عام ٧١، فلم يجد سببا إلا الحرب الهندية الباكستانية وحكاية "الضباب" ، وعن قصة الضباب قال السادات :

"لقد أمر جمال القوات الجوية ذات يوم بان تقصف قوات العدو المتمركزة شرق القناة فلما ذهبت طائراتنا إلى المنطقة وجدت أن هناك ضبابا كثيفا يغطي المنطقة ويحجب الرؤية فعادت إلى قواعدها دون أن تنفذ المهمة التي كلفت بها، فأمر جمال بأن تقوم القوات الجوية بتنفيذ المهمة بعد ساعة أو ساعتين يكون فيها الضباب قد انقشع من فوق المنطقة، ولكن قواتنا لم تتمكن

من تنفيذ المهمة للمرة الثانية لأنها وجدت أن الضباب كان مازال موجودا. أمر جمال بتكرار العملية للمرة الثالثة ولكن طائراتنا عادت للمرة الثالثة دون أن تستطيع تنفيذ المهمة، وهنا قال جمال: خلاص بأه. يمكن ربنا مش عوزنا نقوم بهذه الضربة"، وبعد هذه القصة المثيرة عن الضباب انتقل السادات إلى قصة الحرب الهندية الباكستانية وقارن بينها وبين الضباب الذي منع جمال عبد الناصر من تنفيذ الغارة الجوية على المواقع الإسرائيلية، وخلص من ذلك إلى أنه لولا قيام الحرب الهندية الباكستانية لقامت الحرب عام ٧١، ولكان عام ٧١ هو عام الحسم كما سبق أن قال!

لقد أخطأ الرئيس السادات عندما اعتقد أن الشعب المصري يستطيع أن يبتلع ويهضم قصة الضباب وعلى العكس من ذلك فقد جعل الشعب المصري من قصة الضباب مادة جديدة للنكتة والسخرية.

اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة:

في يوم ١٨ من مارس ٧٢ اجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة الفريق صادق حيث ابلغنا بما يلي:

١- هناك شائعات تقول أن هناك خلافا بين الفريق صادق والسيد عزيز صدقي [١٢]، وهذا غير صحيح.

٢- هناك شائعات بأن الفريق صادق على خلاف مع الاتحاد السوفيتي، وهذا غير صحيح، حيث أن الخلاف هو خلاف مبادئ.

٣- هناك شائعة بأن القوات البحرية في مرسى مطروح والإسكندرية قد وضعت تحت سيطرة السوفيت وهذا غير صحيح.

٤- لقد عاد الفريق عبد القادر من موسكو دون أن يوقع على الاتفاقية الجديدة حيث إن الروس طلبوا أن ندفع ثمن الطائرات TU22 والدبابات ت٦٢ والذخيرة بالعملة الصعبة وبالثمن الكامل، وبالتالي فان الطائرة TU22 يصبح ثمنها ٥،٦ مليون روبل والدبابة ت ٦٢ يصبح ثمنها ٢٥٠٠٠٠ روبل، وقد رفض الجانب المصري التوقيع على الاتفاقية بهذه الشروط وبالتالي فأن هذه الأصناف لن تحضر [١٣].

في غياب الديمقراطية فإن الشائعة هي السلاح الوحيد الذي يستطيع بواسطته الشعب أن يعبر عن رأيه ولكن في كثير من الأحيان فإن القيادة السياسية تعمد هي نفسها إلى خلق وترويج بعض الشائعات لكي تخدم غرضا معينا، وفي اعتقادي أن ما ذكره الفريق صادق من شائعات في

اجتماع المجلس الأعلى يوم ١٨ من مارس هو من هذا النوع من الشائعات التي فجرها لكي يخلق العداوة بين أفراد القوات المسلحة وبين الاتحاد السوفيتي ولكي يظهر وكأنه هو الذي يحمي مصر من تيار الشيوعية. أن الفريق صادق يكره الشيوعية كراهية شديدة، وهذا أمر يخصه وليس لأحد أن يحاسبه على ذلك، ولكن عداوته للشيوعية قد أعمت بصيرته فأصبح لا يفرق بين الشيوعية كمذهب أيديولوجي والاتحاد السوفيتي كدولة عظمى تقوم بإمدادنا بالسلاح الذي يمكننا من تحرير أرضنا المحتلة. كان كل من يدعو إلى تصفية الجو وتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتي من اجل مصر هو عدو شخصي للفريق صادق، بل قد يذهب إلى ابعد من ذلك فيتهمه بالانتماء إلى الشيوعية والعمالة للاتحاد السوفيتي، لذلك فإن ما قاله صادق في هذا المؤتمر كان في الواقع هجوما على عزيز صدقي وليس نفيا لهذه الشائعة.

ولنفرض إنني أخطأت في تحليلي هذا وان صادق لم يخلق هذه الشائعات و إنما وصلت إليه عن طريق استطلاع الرأي الذي يجري في القوات المسلحة من وقت لآخر بطريقة دورية، فإن هذه الشائعات لا يمكن النظر إليها بجدية نظرا للأسلوب الخاطئ الذي تتبعه القوات المسلحة المصرية للحصول على هذه المعلومات ليس سرا أن إدارة المخابرات الحربية لديها مندوبون غير معروفين في كل وحدة من وحدات القوات المسلحة، وان هؤلاء الأفراد يقومون بإبلاغ إدارة المخابرات سرا بكل ما يرون وما يسمعون، فلو فرضنا مثلا أن مندوبا واحدا من ضمن آلاف الوحدات سمع شائعة كهذه فإنها تسجل ضمن الشائعات الدائرة سواء كانت نسبتها واحدا في الألف أم كانت من تأليف شخص واحد. أن هذا الأسلوب هو إهدار للفكر البشري لأنه لا يمكن لجميع البشر أن يتفقوا على كل شئ، وان المناقشة الحرة وتسجيل الآراء في أسئلة محددة ثم القيام بإحصاءات شريفة عن هذه الإجابات هي الأسلوب العلمي الصحيح لاستطلاع الرأي. وقد هاجمت هذا الأسلوب في أحد مؤتمراتي الشهرية وأوضحت أن مثل هذه التقارير التي تقدمها إدارة المخابرات الحربية للسيد رئيس الجمهورية وللسيد الوزير لا تمثل الرأي العام الحقيقي في القوات المسلحة. وقد شعر جميع القادة الذين حضروا المؤتمر بسعادة غامرة وأنا أدلي بهذا القول وأيدوني تأييدا، مطلقا في كل ما قلته، ولكني مع ذلك لم أستطع أن أصلح هذا الأسلوب الغريب في استطلاع الرأي، لأن إدارة المخابرات الحربية كانت تخضع لوزير الحربية مباشرة وعلاقة (ر.ا.ح.ق.م.م) بها تنحصر في الفرع الخاص باستطلاع العدو، أما فرع الأمن وتقارير الإدارة بخصوص أمن القوات المسلحة فكانت ترفع إلى رئيس الجمهورية والى وزير الحربية، وإذا أرسلت صورة إلى (ر. ا. ح. ق. م.م) فهي للعلم فقط. والغريب هنا أن هذا النظام استمر أيضا

بعد عزل الفريق صادق وتعيين الفريق أحمد إسماعيل بدلا منه في أكتوبر ١٩٧٢.

إن إدارة المخابرات الحربية في مصر هي جزء من النظام المصري. إنها أحد الأجهزة الثلاثة التي يعتمد عليها الحاكم في مصر لكي يسيطر على أفراد الشعب. هناك هيئة المخابرات العامة التي تتبع رئيس الجمهورية مباشرة وهناك المباحث العامة التي تتبع وزير الداخلية ثم هناك إدارة المخابرات الحربية التابعة لوزير الحربية، وتقوم كل من هذه الجهات الثلاث بإرسال تقرير شهري- إذا لم يكن هناك ما يستدعي إرسال تقرير خاص- إلى رئيس الجمهورية، ومن هنا يظهر التنافس بين الثلاثة أن كلا منها تعتقد انه كلما كان التقرير أكثر تفصيلا كان ذلك شاهدا على مدى إخلاص الإدارة للنظام، كما إنها تخشى أن تسقط خبرا أو شائعة قد تظهر في تقارير الإدارتين الأخريين فيكون ذلك اتهاما لها بأنها تغض الطرف عن شئ معين لسبب تريد إخفاءه عن رئيس الجمهورية، ومن هنا كان الصراع المهني بين الأجهزة الثلاثة. ويتم ذلك كله بتشجيع من رئيس الجمهورية الذي يرى أن تنافس تلك الأجهزة الثلاثة سوف يضمن له عدم قيام أي عمل انقلابي ضده.

في صباح يوم ١٩ من مارس اجتمعت مع السيد الوزير والجنرال اوكينيف، حيث عرض علينا صورا التقطت بواسطة الأقمار الصناعية السوفيتية، وقد أرسلت هذه الصور مع مندوب خاص من الاتحاد السوفيتي حتى يمكننا أن نطلع عليها ونستخرج منها كل ما نريد من معلومات بشرط واحد وهو ألا نعيد تصويرها أو نأخذ فيلما عنها. وبعد أن اطلعنا على الصور انسحب المندوب السوفيتي الذي كان يحمل هذه الصور ومعه أحد ضباطنا لنقل المعلومات من الخريطة.

بعد ذلك انضم إلينا الفريق عبد القادر حسن ودار الحديث كما يلي:

الجنرال اوكينيف: لقد قابلت أمس أنا والسفير السوفيتي الرئيس السادات وعرضنا عليه هذه الصور الجوية. وقد اخبرنا بأنه هو الذي قال لرئيس الوزراء السيد عزيز صدق أن يتم الدفع بالعملة الصعبة.

أن الرئيس قال: إننا مستعدون للدفع كاملا وبالعملة الحرة بالنسبة للطائرات ميج ٢١ والطائرات M-500 ولكن ليس بالنسبة للطائرات TU22 لأنها قاذفة فقط وتحتاج إلى حماية وأننا سنستعيض عنها بسربي ليتنتج من السعودية وسرب ليتنتج من الكويت وأننا سنرسل الطيارين المصرين للتدريب على هذه الطائرة في الأسبوع القادم (١٤) ".

بخصوص الدبابات ت ٦٢ قال الرئيس: "إننا نحتاج إلى هذه الدبابات ولكنها غالية جدا وهناك مشكلات بخصوص قيام ليبيا بدفع ثمنها" وافق الرئيس على أن تقوم مصر بدفع ثمن الذخيرة

بالعملة الصعبة.

وافق الرئيس على تسليم ١٢ كتيبة صواريخ فقط من الأصدقاء بدلا من ١٨ كتيبة، كما ورد في خطاب وزير الحربية المصري إلى وزير الدفاع السوفيتي [١٥]، وقد لمح الجنرال أوكينيف بأن سحب هذه الكتائب الآن قد يؤثر على محادثات بريجنيف- نيكسون التي كان مقررا عقدها في موسكو في شهر مايو القادم.

الفريق صادق: "ليس لدي علم بهذه المسائل وسوف أتصل بالسيد الرئيس وأقوم بتنفيذ ما يأمر به ".

انسحب الجنرال اوكينيف بعد ذلك وبقيت أنا والوزير والفريق عبد القادر حسن، وقد اتصل الوزير بالرئيس هاتفيا في حضورنا وأبلغه بما سمعه من الجنرال اوكينيف، فأيد الرئيس كل ما قاله الجنرال اوكينيف فيما عدا موضوع الذخيرة فقد قال الرئيس: فإن ما أقصده بالدفع بالعملة الصعبة بالنسبة للذخيرة هو ما يدفع لقاء توسيع خط الإنتاج المصري للذخيرة وليس ثمن الذخيرة نفسها".

وبعد هذه المحادثات الهاتفية غادر السيد الوزير مكتبه إلى مطار القاهرة حيث استقل الطائرة إلى السعودية.

كانت الساعة حوالي العاشرة والنصف من صباح الأحد ١٩ من مارس عندما غادر السيد الوزير مبنى الوزارة متجها إلى السعودية، وبينما أنا منهمك في اتخاذ الإجراءات والمراسيم التي تتعلق بتسلم ١٢ كتيبة صواريخ من الأطقم السوفيتية اتصل بي مكتب الرئيس وطلب مني الحضور فورا لمقابلة الرئيس في منزله بالجيزة وان احضر معي الفريق عبد القادر حسن المختص بالاتفاقات السوفيتية المصرية، والذي كان قد وصل من الاتحاد السوفيتي في اليوم السابق، وفي الساعة ١٢:٣٠ كنا في منزل الرئيس حيث كان معه السيد حافظ إسماعيل مستشاره لشئون الأمن القومي.

قام الفريق عبد القادر حسن بشرح تقريره بخصوص رحلته الأخيرة واستمع إليه الرئيس دون أن يوجه إليه أي سؤال ودون أن يعلق على التقرير بطريق مباشر. ولكنه علق عليه بطريق غير مباشر، لقد علم الرئيس أن صادق قد اتخذ من تقرير عبد القادر حسن ذريعة لكي يهاجم الاتحاد السوفيتي، وها هو ذا السادات يريد أن يستمع إلى تقرير عبد القادر حسن لكي يستخدمه شريعة للدفاع عن الاتحاد السوفيتي. ويتلخص ما قاله الرئيس فيما يلي:

أ- إن صداقتنا مع الاتحاد السوفيتي هي خط استراتيجي يجب المحافظة عليه لأنه

الورقة الوحيدة التي نلعب بها.
ب- أن المعلومات التي نوقشت أمس على مستوى المجلس الأعلى للقوات المسلحة يجب ألا تنقل إلى أي مستوى اقل من ذلك.
ج- أننا لن نعطي قواعد للسوفيت ولكننا سنقدم لهم التسهيلات فقط.
وقد احضر الرئيس أمامنا شخصا قال انه ضابط بوليس كان أحد أقاربه ضابط في القوات المسلحة وإن قريبه هذا أخبره بان المخابرات الحربية كانت تستطلع رأي القوات المسلحة حول ما يطلبه الروس من قواعد بحرية وحول ما يطلبونه من أن يتم دفع ثمن السلاح بالعملة الصعبة [١٦]. بعد ذلك خرج عبد القادر حسن وبقيت أنا لمناقشة بعض المسائل الأخرى مع السيد الرئيس.

هوامش الباب السادس عشر:

(١) كان الرئيس بودجورنى رئيس الاتحاد السوفيتي قد زار مصر خلال الفترة ما بين ٢٥-٢٨ من مايو ٧١، وتم التوقيع خلال هذه الزيارة على معاهدة صداقة بين الدولتين مدتها خمسة عشر عاما (قام السادات بإلغاء هذه المعاهدة في مارس ٧٦).
(٢) سبق ذكر تفاصيل المعركة المحدودة في الباب الأول، وهي الخطة التي تعتمد على الإمكانات الفعلية لا الإمكانات الفرضية.

(٣) تنص المادة ١٥٠ من الدستور على أن رئيس الجمهورية هو القائد الأعلى للقوات المسلحة وهي وظيفة شرفية يقصد بها توجيه السياسة العليا، أما القائد العام للقوات المسلحة فهو المسئول عن القيادة والمشكلات اليومية للقوات المسلحة ولابد أن يكون شخصا متفرغا لهذا العمل وحده . وان السادات بهذا التصرف وهذا القرار الذي اتخذه تحت ستار الأعداد للمعركة، يكون قد قام بانقلاب عسكري ثان بهدف وضع القوات المسلحة تحت سيطرته الكاملة.

(٤) تم تخصيص جناح للرئيس في الدور الأول من وزارة الحربية، ونظرا لأن الرئيس مـريض القلب فقد جرى إنشاء مصعد كهربائي خاص، ولم يحدث قط أن استخدم الرئيس هذا الجناح بعـد ذلك.
(٥) أخبرني الجنرال اوكينيف في اليوم التالي بان الطائرات ستبدأ في الوصول طبقـا للجـدول التالي:

١١/٥	١١/٦	١١/١١	١١/٢١	١١/٢٥	١١/٢٧	المجموع
٢	١	٢	٢	١	٢	١٠

(٦) طلب الجانب المصري تدبير إمكانات التدريب في مصر، ولكن الجنرال اوكينيف أثار عـدة مشكلات بخصوص هذا الموضوع، وانتهى الأمر بان قال أنه سيبلغ موسكو، وفي اليـوم التـالي أبلغني بأن الجانب السوفيتي يعتذر عن عدم إمكان تدريب الفوج في مصر.
(٧) ممثل وزارة الخارجية الأمريكية المسئول عن المصالح الأمريكية في مصر.

(٨) ميج ٢٥.
(٩) سوف نذكر هذه الاجتماعات بالتفصيل في الباب السادس من هذا الكتاب.
(١٠) إن الحرب كانت قد توقفت عسكريا باجتياح الهنـد باكسـتان الشـرقية و إعـلان دولـة بنجلاديش، ويبدو أن الرئيس كان يقصد أن الصراع بين روسيا وأمريكا قد بدأ، وسيحتدم في هذه المنطقة من العالم.
(١١) يلاحظ أن السادات بدأ عمله كرئيس جمهورية عام ١٩٧٠ بان انحنى أمام تمثال جمال عبد الناصر ليعلن للمصريين جميعا انه مخلص وأمين لخط جمال عبد الناصر. وطوال أعـوام ٧١ و ٧٢ و ٧٣ كان يبرر أي عمل يقوم به بأن جمال عبد الناصر كان يريد ذلك حتـى يسـتطيع أن يضمن سكوت الشعب وقبوله لما يقول. وفي خلال عامي ٧٤ و٧٥ بدأ يوجـه وسـائل إعلامـه لمهاجمة جمال عبد الناصر، وفي الوقت نفسه يعلن رسميا انه يشارك جمال عبـد الناصـر فـي مسئولياته جميعها. واعتبارا من ٧٦ بدأ هو نفسه يهاجم جمال عبد الناصر هجوما شديدا ويتنصل من كل مسئولية خلال حكمه، وتوج ذلك بمذكراته التي نشرها عام ٧٨ والتي ملاها بالهجوم على عبد الناصر أعفى نفسه من كل مسئولية عن أخطائه.

(١٢) كان عزيز صدقي يشغل منصب رئيس الوزراء وكان معروفا عنه انه من دعاة التعاون مع الاتحاد السوفيتي.
(١٣) كان الجانب السوفيتي منذ أيام عبد الناصر يبيع لنا الأسلحة بنصف ثمنها ويتنازل عن النصف الثاني، كما أن النصف الذي كنا نقوم بدفعه كان بالجنيه المصري وبالتقسيط بسعر فائدة ٢%. ويبدأ الدفع بعد استلامنا الأصناف وبعد فترة سماح طويلة.
(١٤) انظر تفاصيل الموضوع الخاص بالطائرات لتنتج في الباب السادس.
(١٥) كان السوفيت يقومون بتشغيل كتائب صواريخ مصرية "سام" لعدم توافر الأفراد المصريين المدربين، وبعد أن تم تدريب الأفراد اللازمين لتشغيل هذه الكتائب طلبت القيادة المسلحة المصرية الاستغناء عن الأطقم السوفيتية، وهكذا أرسل وزير الحربية كتابا إلى زميله السوفيتي يخبره فيه بالاستغناء عن الأطقم السوفيتية التي تقوم بتشغيل ١٨ كتيبة صواريخ سام.
(١٦) هذا يبين اهتمام النظام المصري بوجود تنافس بين أجهزة المخابرات الثلاثة في الدولة حتى يمكنه أن يضرب واحدا بالآخر.

الفصل السابع عشر

قصة الخلاف بيني وبين صادق

أعمدة السلطة الثلاثة:

لقد كانت القوات المسلحة المصرية هي أداة التغيير في ثورة ٢٣ يوليو عام ٥٢. وقد كانت الثورة تعتبر ولاء القوات المسلحة من أهم أهدافها، وقد كان تعيين عبد الحكيم عامر قائدا عاما للقوات المسلحة يهدف في المقام الأول إلى تأمين القوات المسلحة وضمان ولائها.

كانت وظيفة القائد العام للقوات المسلحة هي وظيفة جديدة خلقتها الثورة، وهي وظيفة غير موجودة إطلاقا لا في التنظيم الغربي ولا في التنظيم الشرقي، حيث يعتبر(ر.ا.ح.ق.م.م) في كل من الكتلتين الشرقية والغربية هو قمة الجهاز العسكري ويتبع وزير الحربية الذي يمثل القيادة السياسية. أما في مصر فإن إدخال هذا النظام قد خلق تنازعا على السلطات وأضاع المسئولية بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية، فبينما لا يوجد خلاف حول. شخصية(ر.ا.ح.ق.م.م) من حيث كونه رجلا عسكريا فهناك جدل كبير حول شخصية وزير الحربية والقائد العام للقوات

المسلحة. هل هو رجل عسكري أم مدني؟ هل أي خطأ يرتكبه يعتبر خطأ للقيادة السياسية أم لا؟ هل أي قرار يتخذه يعتبر هو المسئول عنه كقائد عسكري أم أن مسئوليته تتوقف عند القرار السياسي.

وفي سبيل أن يضمن عبد الحكيم عامر ولاء القوات المسلحة جعل ثلاث إدارات تتبع له تبعية مباشرة بحيث لا يكون لرئيس أركان حرب القوات المسلحة أي سلطات عليها، اللهم إلا من ناحية الشكل فقط وهذه الإدارات هي إدارة المخابرات الحربية، وإدارة شئون الضباط وهيئة الشئون المالية. إنه عن طريق إدارة المخابرات الحربية يستطيع أن يحدد من هم الموالون ومن هم الساخطون. وهو عن طريق إدارة شئون الضباط يستطيع أن يقصر القيادات والمناصب الحساسة على العناصر الموالية له، وعن طريق الهيئة المالية والحسابات السرية يستطيع أن يغدق عطائه على المخلصين والتابعين. وبعد ذهاب المشير عامر حل محله الفريق فوزي فحافظ على التراث وقننه. كان عبد الحكيم عامر يستمد قوته وسلطاته من الشرعية الثورية بحكم انتمائه إلى الثورة وكونه عضوا بارزا في مجلس قيادة الثورة، فلم يكن في حاجة إلى قانون أو قرار جمهوري يحدد له سلطاته، بل العكس هو الصحيح. فمنذ أوائل الستينيات كان قد أصبح في استطاعته أن يتحدى سلطات رئيس الجمهورية. فلما ورث الفريق محمد فوزي هذا المنصب لم يكن يطمع في تحدي سلطات رئيس الجمهورية ولكنه كان يطمع في كل ما هو دون ذلك، فاستصدر من رئيس الجمهورية قرارا جمهوريا يعطي له سلطات ضخمة وكانت جميع هذه السلطات طبعا على حساب سلطات ر.ا.ح.ق.م، وبذلك اصبح الفريق محمد فوزي يمارس سلطاته طبقا لقرار جمهوري. ثم جاء من بعده الفريق محمد صادق فوجد هذه السلطات فبدأ يمارسها بالأسلوب نفسه الذي كان يمارسها به عبد الحكيم عامر ومحمد فوزي.

لقد كان هذا هو الوضع عندما تسلمت عملي كـ ر.ا.ح.ق.م. وجدت نفسي مبعدا تماما عن تلك الإدارات الثلاث لم تكن لدي أية رغبة في أن أقحم نفسي في مشكلات السلطة، فقد كانت أمامي مجالات كثيرة للعمل يمكن أن تستنفد طاقاتي كلها، ولكن تتابع الأحداث جرفني لكي أجد نفسي في قلب المشكلة.

كنت اجلس في أحد الأيام في نادي هليوبوليس الرياضي ومعي أحد الضباط القدامى الذي كان قد ترك القوات المسلحة في أوائل الخمسينيات وعين في وزارة الخارجية ووصل إلى درجة سفير بها، ثم تقاعد بعد ذلك. اشتكى لي بأنه لا يستطيع الحصول على تأشيرة خروج من مصر إلا إذا حصل على موافقة من القوات المسلحة لأنه كان ضابطا يوما من الأيام، على الرغم من انه

ترك القوات المسلحة منذ اكثر من ١٨ عاما. تعجبت من هذه الأوامر التعسفية ووعدته بأن أبحث الموضوع. طلبت مدير المخابرات الحربية وبحثت معه الموقف فاتضح أن ما قاله السيد السفير كان صحيحا. فطلبت إليه إلغاء هذه التعليمات ولكنه طلب منى بأدب أن ابحث الموضوع مع السيد الوزير. بحثت الموضوع مع السيد الوزير فوجدته يرى ضرورة الإبقاء على هذا النظام! [١] لماذا؟ لأن بعض الضباط القدامى مقيدين في القائمة السوداء التي بموجبها لا يصرح لهم بمغادرة البلاد. قلت له "لماذا لا ترسلون القائمة السوداء إلى إدارة الجوازات وبذلك تعفون آلاف الضباط غير المقيدين في تلك القائمة من تلك القيود البيروقراطية ؟" قال لأننا لا نريد أن يعرف من هو في القائمة السوداء انه مقيد عندنا وذلك لأغراض الأمن! " ولعلم القارئ فإن الاصطلاح "لأغراض الأمن " هو الاصطلاح الذي يمكن به إنهاء أية مناقشة، وتحت ستار هذا الاصطلاح تتعاظم سلطة الحاكم ومعاونيه في النظم الاوتوقراطية وتمتهن الديمقراطية وتنتهك الحرمات، أي أمن هذا؟! كيف تحافظ إسرائيل على أمنها وهي في الوقت نفسه تمارس الديمقراطية وتحترم حرية الفرد اليهودي إلى أبعد الحدود!!

كانت إدارة شئون الضباط في وضع مختلف. فقد كنت بحكم وظيفتي أعتبر رئيسا للجنة شئون الضباط التي تتكون من حوالي ١٥ ضابطا من رتبة لواء، وتختص هذه اللجنة بالنظر في شئون الضباط من ترقية وطرد وعقاب ولكنها لا تختص بشئون التعيين في وظائف القيادة أو النقل من وظيفة إلى أخرى، حيث أن ذلك يتم بتعليمات مباشرة من الوزير إلى مدير إدارة شئون الضباط. كنا نجتمع في هذه اللجنة في المساء وكان اجتماعنا يمتد إلى ما بعد منتصف الليل لعدة ليال متتالية لكي نقوم بهذا العمل بما يرضي الله والضمير. كنا نستمع إلى جميع الآراء ثم نجرى التصويت. ويكون القرار دائما طبقا لرأي الأغلبية. وبعد كل هذا العناء كان يتحتم عرض قرار اللجنة على السيد الوزير. كنت أظن أن تصديق الوزير هو أمر شكلي إذ لا يعقل أن يبحث الوزير في خلال خمس دقائق ما قام به ١٥ ضابطا كبيرا في ثلاثيين ساعة عمل (أي ٤٥٠ رجل ساعة)!! ولكني كنت مخطئا في تصوري! إن الوزير يقوم بشطب أي قرار لا يعجبه ويضع بدلا منه قراره هو فإذا ناقشته في ذلك فإنه يقول "أنا أعرف هذا الضابط اكثر منكم،، قلت له "لماذا إذن أضيع وقتي ووقت ١٤ جنرالا معي في عمل يمكن أن يشطب بجرة قلم منك؟ لماذا لا تقوم أنت بالعمل كله وتعفينا من هذا العناء".

لقد كان صادق هو أحد رجال الانقلاب الذي قام به السادات في مايو ٧١، وكانت هذه الصفة بالإضافة إلى كونه وزيراً للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة تعطيه سلطات واسعة على

المستويين السياسي والعسكري. كان الجميع يعرفون قوة صادق بما فيهم أنا طبعا. ولكنه مع ذلك- كبشر- كان أحيانا يحب أن يستعرض هذه القوة وفي ساعة من ساعات التجلي كنت في مكتبه أتناقش معه في بعض الموضوعات قبل سفره إلى السعودية في طائرة بوينج خاصة تنتظره في المطار، فاخرج من جيبه كتابا ناولني إياه وقال لي أقرأ، كان الكتاب في ظرف غير مغلق وهو معنون باسم الملك فيصل، وموقع من قبل الرئيس السادات، وفيه يقول السادات للملك فيصل: "أن الفريق صادق هو موضع ثقتي الكاملة، أن أي شيء يقوله أو يعد به هو باسمي تستطيع أن تتكلم وتتعامل معه كما لو كنت تتعامل معي". [٢]

قاتل الله السلطة التي تجمع بصاحبها فتدمره لقد أخذت سلطات صادق تتعاظم يوما بعد يوم حتى دمرته. لقد ارتكب صادق أخطاء من سبقوه نفسها. أنه يبطش بأي ضابط يعترض طريقه ويغدق العطاء على من يسير في ركابه. ويضيق صدره إذا سمع رأيا يختلف عن رأيه. لقد بدأت السلطة تجمح به في أواخر عام ١٩٧١ وبدأ الخلاف بيني وبينه يظهر ولم نكن قد عملنا معا سوى ستة أشهر. لقد كان صادق صديقا عزيزاً لي منذ أيام شبابنا. وأنا مازلت أحبه وأقدره إني أختلف معه في كثير من الآراء ولكني مازلت أعتقد انه عنصر وطني يمكن أن يخطئ وأني أقف بجانبه ضد الاتهامات الباطلة التي يوجهها إليه السادات اليوم دون أن يعطيه الفرصة للدفاع عن نفسه. أن كل ما ألوم صادق عليه هو أنه خضع للسلطة فجمحت به حتى أصبح لا يطيق أن يسمع رأيا يخالف رأيه. انه الضعف الإنساني. لم يكن صادق أول هؤلاء ولن يكون قطعا أخرهم أني أشعر أن من واجبي أن أظهر هذه الحقائق عسى أن يستفيد منها بعضهم فلا يقعوا في الخطأ نفسه الذي وقع فيه أسلافهم.

الخلاف أثناء اجتماع مجلس الدفاع المشترك:

وقع أول تصادم بيني وبين صادق في أواخر نوفمبر ٧١ خلال فترة انعقاد مجلس الدفاع العربي المشترك. [٣] كنت أعرض مشروعا جديدا على المجلس بصفتي الأمين المساعد العسكري للجامعة العربية" بينما كان هو يحضر الاجتماع مندوبا عن مصر بصفته وزيرا للحربية. لم يعجبه الخط الذي كنت أسير فيه فجاء يلومني خلال فترة الاستراحة بين الجلسات ويطلب إليّ تغيير المسار لكي يتفق مع وجهة نظره فرفضت قائلا " أنك بصفتك وزيرا للحربية في مصر تستطيع أن تصدر إليّ التوجيهات بصفتي ر.ا.ح.ق.م.م، أما بصفتي الأمين العام المساعد العسكري للجامعة العربية فإنه ليس من حقك أن تصدر إليّ أية توجيهات انك تمثل مصر وتستطيع أن تتكلم باسم مصر كيفما تشاء ويستمع إليك الآخرون ويناقشونك أما أنا فإنني أتكلم

باسم جميع رؤساء أركان حرب القوات المسلحة العربية،، فرد غاضبا بنبرة لا تخلو من التهديد "ولكنك تعلم أن وظيفتك أمينا عسكريا مساعدا للجامعة العربية هي نتيجة لكونك (ر.ا.ح.ق.م.م)، فأجبت نعم أعرف ذلك ولكنــي لن أساوم على حريتي في العمل أمينا مساعدا للاحتفاظ بوظيفتي (ر.ا.ح.ق.م.م)، وهذه الحقيقة يجب أن تعرفها جيدا".

الخلاف حول سلطات (ر. ا. ح. ق. م. م):

حاول صادق أن يتوسع في سلطاته في شئون القوات المسلحة كما لو انه ليس هناك مــن يشــغل منصب ر.ا.ح.ق.م.م، وكان عليّ أن أقف ضده.

كان يعتقد انه بصفته وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة فإنه هو وحده الذي لــه ســلطة اتخــاذ القرار وأنه يتحتم علي أن أخبره بكل شيء وألا اتخذ أي قرار، قلت له "إنك تريــدني أن أقوم بأعمال مدير مكتب وليس ر.ا.ح.ق.م.م وهذا ما لا أقبله!". فما كان منه إلا أن اخــرج مــن مكتبه القرار الجمهوري الذي استصدره سلفه الفريق فوزي وقال لي"تفضل واقرأ هذا القرار وأنت تعرف أني اعمل في حدود سلطاتي!". لقد كان القرار غامضاً في بعض النواحي ولكنــه كـــان على العموم يعطي سلطات واسعة للقائد العام للقوات المسلحة الذي قــام هــو نفســه بتحريــره والتصديق عليه من رئيس الجــمهورية دون أيــة دراسة من الأجهزة الفنية المتخصصة. إن هذا هو أحد من الدروس التي يجب أن نتعلمها في مصر من أخطاء الماضي. "عندما يكون شخص ما في السلطة فإنه يقوم باستصدار قانون أو قرار جمهوري يخدم أغراضه ويقنن تصرفاته".

ولإصلاح هذا الوضع بالنسبة للأجيال القادمة دعوت لجنة لدراسة هذا الموضوع، تتكــون مــن اللواء عمر جوهر رئيس هيئة التنظيم واللواء محــمد عبــد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات وآخرين. وقد كــان رأي الجميع دون استثناء هو أن تكون هناك شخصيــة سياسية هي شــخص وزير الحربية وتختص باتخاذ القرار السيــاسي والقرار الاستراتيجي، أما جميع القرارات ما دون ذلك بما في ذلك- إدارة العمليات الحــربية والسيطرة والإدارة اليومية للقوات المســلحة- فإنهــا تكون من اختصاص وظيفة عســكرية هي رئيس أركان حرب القوات المسلحة. وحتى لا يكــون هناك أي إحراج لأحد، اقترحت أن يطبق هذا النظام بعد تغيير كل من وزيــر الحربيــة الحــالي ورئيس أركان الحرب الحــالي حتى لا يتهمني أحــد بأنني أبحث عن السلطة. ولما عرضت هذه الاقتراحات على الوزير رفضها.

الخلاف حول توزيع الدبابات ت ٦٢:

في خلال المفاوضات بين مصر والسوفيت في فبراير ٧٢ وافق الجــانب السوفيتي على إمــدادنا

بعدد من الدبابات ت ٦٢. وفي يوم ٢٦ من فبراير اجتمعت لجنة برئاسة الوزير لبحـــث طريقـــة استيـــعاب وتنظيم هذه الدبابات. لقد كان رأي الوزير ومعه رئيس هيئة العمليات ورئيس هيـــــئة التنظيم هو أن نسلم هذه الدبابات إلى اللواءين المدرعين المستقلين، وأن تحل الدبابات ت ٥٤ و ت ٥٥- التي كـــانت أصلا ضـــمن تنظيم هذين اللواءين- مـــحل الدبابات ت ٣٤ في التشـــكيلات الأخـــرى. أما أنا فقد عارضت هذا الرأي وطالبت بتسليم الدبابات ت ٦٢ إلى الفرقتين المدرعتين بدلا من اللواءين المســـتقلين. وقد بنيت رأيي على أساس أن وجود هذه الدبابة القوية ذات المدفع ١١٥ مم ضمن الفرق المدرعة وفي احتياط القوات المسلحة يجعلنا قادرين على توجيه ضـــــربة قوية وحاسمة في الاتجاه الذي قد يظهر لنا أثناء المعركة. [٤] أما توزيعها على الألوية المدرعـــة المستقلة فسوف يترتب عليه أن تستخدم هذه الألوية في الأغراض الأولى مـــن المعركـــة وفـــي اتجاهات قد لا تكون ذات أهمية كبيرة وقد وافقني الفريق عبد القادر حسن على هذا الرأي.

في اليوم التالي اجتمعنا مرة أخرى لبحث الموضوع نفسه ولكن في هذه المرة بعد أن انضم إلينـــا الجنرال اوكينيف وبعض المستشارين السوفيت. قام السيد الوزير بصفته رئيسا للمؤتمر طلب رأي الحـــاضرين واحدا بعد الآخر. أيد الجمسي وعمر جوهر رأيهم السابق وعدل عبد القادر حســـن رأيه لكي ينضم أليه. أما أنا فقد قمت بتأكيد رأيي الذي أعلنته في اليوم السابق، وبذلك أصـــبحت المعارض الوحيد لوجهة نظر الوزير. استمعنا بعد ذلك إلى رأي المستشارين فكانوا جميعـــا ذوي رأي واحد يتطابق مع وجهة نظري. وهنا علق الوزير موجها كلامه إلـــى كبيـــر المستشـــارين بأسلوب لا يخلو من الغمز "أرى انك تتفق تماما مع الفريق الشاذلي "! [٥]

وقد عرفت فيما بعد أن السبب الحقيقي الذي دفع صادق للوقوف ضد اقتراحي هو أنه كان يشـــك في ولاء العميد عادل سوكه الذي كان قائدا لإحدى الفرق المدرعة. وان تسليم ١٠٠ دبابة جديـــدة ت ٦٢ إليه قد يخل بالتوازن الأمني الداخلي الذي تضعه القيادة السياسية المصرية دومـــــا فـــي مقدمـــة المتطلبات العسكرية للمعركة. وهكذا اتخذ الوزير القرار بتسليم الدبابات ت ٦٢ إلى كـــل من اللواءين المدرعين المستقلين ١٥ و٢٥.

موضوع اللواء عبد الرؤوف:

كان يوم ٢٠ من أبريل ٧٢ هو قمة الخلاف بيني وبين الفريق صادق، وذلك عندما اتخذ صـــادق إجراء تعسفيـــا ضد اللواء عبد الرؤوف كان اللواء عبد الرؤوف يعمل في تصفية أعمال القيـــادة العربية الموحدة وكان البند الثامن من قرارات مجلس الدفاع المشترك في دورته الثانيـــة عشـــرة التي انعقدت في القاهرة ما بين ٢٧ و٣٠ نوفمبر ٧١ ينص على "تخصيص مبلغ مليون ونصـــف

المليون جنيه إسترليني من الرصيد المتبقي لدى القيادة العربية الموحدة لشراء لنشي مساحة، على أن تقوم جمهورية مصر العربية بتدبير الفنيين اللازمين لتشغيل هذين اللنشين وعلى أن تلتزم بعملية المسح الهيدروغرافي لجميع السواحل العربية طبقا للأسبقية التي يضعها مجلس الدفاع المشترك" .لقد وافقت جميع الدول العربية بالإجماع -بما فيها مصر- على هذه القرارات وكنت بحكم وظيفتي أمينا مساعدا عسكريا للجامعة العربية مسئولا عن تنفيذ هذا القرار. وبعد القيام بالدراسات الأولية قررت إرسال اللواء عبد الرؤوف إلى لندن للقيام بالإجراءات النهائية والتوقيع على العقود اللازمة. وفى يوم سفر اللواء عبد الرؤوف قام الفريق صادق بإجراء تعسفي عنيف ضده أثناء قيامه بتنفيذ هذه المهمة.

لقد أمر صادق رجال مخابراته بإيقافه في المطار أثناء تحركه في اتجاه الطائرة وعومل في المطار معاملة غير كريمة وكأنه طفل هارب !! لقد كان خطأ كبيرا من صادق لا يليق بجمهورية مصر العربية! إنني لم أرغب في إثارة هذا الموضوع على المستوى العربي حينذاك خوفا من أن يؤثر ذلك على العلاقات والتعاون الذي يربط مصر- بصفتها الدولة المضيفة لمنظمات جامعة الدول العربية- بباقي الدول العربية. أما الآن وبعد أن مضى اكثر من سبع سنوات على هذا الحادث، فإن من حق الدول العربية أن تعرف هذه الحقيقة حتى تعمل على ضمان عدم تكرار مثل هذه الحوادث في المستقبل، لذلك فأنى أثير السؤال التالي أمام العرب كله:

"هل من حق السلطات المصرية أن تتخذ إجراءات تعسفية ضد المصريين الذين يعملون في الجامعة العربية بطريقة تمنعهم من تنفيذ قرارات اتخذتها الجامعة العربية ومنظماتها المختلفة؟ إذا كانت الإجابة من الناحية النظرية هي"لا"، فما الضمانات التي تكفلها الجامعة العربية لموظفيها حتى يمكنهم أن يحتفظوا بحريتهم في العمل وعدم خضوعهم للإرهاب الذي قد تمارسه السلطات المصرية ضدهم كما حدث للواء عبد الرؤوف"؟

لقد قضيت نهار يوم ٢٠ من أبريل ٧٢ في الجيش الثالث، حيث كانت الفرقة الرابعة المدرعة تقوم بإجراء مشروع تدريبي. وعندما وصلت إلى مكتبي حوالي الساعة ١٧٣٠ علمت بالحادث المحزن الخاص باللواء عبد الرؤوف. وفى الساعة ٢٠٠٠ قابلت الوزير في مكتبه. لقد كانت مقابلة صاخبة. وقد قلت له "لا يمكن أن تسير الأمور بهذا الشكل، يجب أن نقابل رئيس الجمهورية ليحكم بيننا" وعندما قلت له ذلك ثار غضبه وكأن عقربا قد لدغه وصاح قائلا "فكرة كويسة. لازم نروح لرئيس الجمهورية. سوف أقول لرئيس الجمهورية يجب أن يختار يا أنا يا سعد الشاذلي في القوات المسلحة!". كانت الساعة حوالي التاسعة من مساء يوم الخميس عندما

غادرت مكتب الوزير على أمل أن نقابل الرئيس يوم السبت التالي. إن صادق الرجل القوي الذي لم يكن ليخشى رئيس الجمهورية لم يضع الوقت سدى، فاصدر أمرا بعزل اللواء عبد الرؤوف من منصبه وعين اللواء طلعت حسن علي بدلا منه. وتحت مختلف أساليب القهر والتهديد أرغم اللواء عبد الرؤوف على إرسال برقية إلى لندن لاسترجاع الأموال التي حولها البنك الأهلي المصري لتكون تحت تصرف اللواء عبد الرؤوف واللجنة المرافقة له. وهكذا خلال يوم الجمعة- وهو عطلة رسمية- أتم صادق تنفيذ ما يريده، وعند عرض الموضوع على الرئيس فإنه سوف يجد نفسه أمام الأمر الواقع Fait accompli..

في تمام الساعة ١١٣٠ من يوم ٢٣ من أبريل ذهبت أنا وصادق إلى منزل الرئيس في الجيزة. وفي حضور صادق أخبرت الرئيس بكل شئ، أخبرته بقصة اللواء عبد الرؤوف. أخبرته بقصة توزيع الدبابات ت أخبرته كيف ينفرد صادق بالسلطة في المخابرات الحربية وشئون الضباط و أضفت قائلا" سيادة الرئيس تحت هذه الظروف حيث لا سلطان لي على إدارة المخابرات الحربية ولا على إدارة شئون الضباط فأني لا يمكن أن أكون مسئولا عن أمن القوات المسلحة [٦] ! كان دفاع الفريق صادق لتبرير تصرفاته عنيفا من وجهة نظري على الأقل. فيما يتعلق بقصة اللواء عبد الرؤوف ذكر أن المبالغ المحولة إلى لندن كان من الممكن صرفها من البنك بتوقيع واحد هو توقيع اللواء عبد الرؤوف، وأن ذلك يعطيه الحق في التصرف في هذه الأموال كأنها أمواله الشخصية و أضاف قائلا: " إننا نعرف في إدارة المخابرات الكثير عن اللواء عبد الرؤوف مما لا يعرفه الفريق الشاذلي. [٧] لقد أمرت يا سيادة الرئيس بإجراء تحقيق في هذا الموضوع وسأعرضه عليكم خلال أيام". وفيما يتعلق بإدارة المخابرات تكلم بغموض وعدم تحديد فقال إنه يوافق على أن يقوم بإخباري بما يجري في إدارة المخابرات، ولكن هذا لا يعني بالضرورة انه يتحتم عليه أن يأخذ رأيي في كل شيء حيث إن هذا يعني فرض حدود على حريته في العمل. وفيما يتعلق بإدارة شئون الضباط قال إن من حقه اعتماد قرارات لجنة شئون الضباط وانه لم يمارس حقه في تعديل هذه القرارات إلا مرة أو مرتين [٨] رددت عليه" إن المسالة مسالة مبدأ إذا كان لك أن تنقض قرار لجنة مكونة من ١٥ ضابطا كبيرا فيجب أن تكون هناك أسباب قوية، أسباب أقوى من مجرد معرفتك الشخصية لهذا الضابط. إن مستقبل الضباط يجب ألا يترك في يد شخص واحد"! وعلى الرغم من شعوري بأن ما أقوله كان منطقيا فقد حاول صادق أن يستخدمه ضدي وصاح قائلا شوف يا سيادة الرئيس سعد الشاذلي عايز يحرمني من سلطاتي!!" [٩] وفيما يتعلق بقصة الدبابات ت ٦٢ أتهمني صادق بأني اقف دائما ضده وفى

صف المستشارين السوفيت. لقد مكثنا مع الرئيس حوالي ثلاث ساعات ولم يتخذ الرئيس أي قرار حاسم بخصوص الموضوع. كل ما قاله هو بعض النصائح العامة. قال موجها كلامه لصادق "لا يا محمد لازم تقول لسعد على كل حاجة في المخابرات وتستشيره في تعيينات وتنقلات الضباط الراجل مشترك في المسئولية!"، وقال موجها كلامه لي "شوف يا سعد، لازم تأخذ بالك، الروس حيخدعوك، كل الناس بتكرههم حا يحاولوا يستغلوك حتكون أنت الخسران!". كان واضحا من كلام الرئيس أن صادق نجح في أ ن يزرع الشكوك في نفسه على اعتبار إني صديق للروس. ولكني رددت بحدة "سيادة الرئيس.. إذا تصادف وكانت أرائي أحيانا متطابقة مع آراء الروس، فليس معنى ذلك أني أتعاون معهم ضد أي شخص. إني أقول دائما وبصراحة ما اعتقد انه الحق وانه في مصلحة بلادي، بصرف النظر عما إذا كان ذلك يتمشى مع إنسان ما أو يتعارض معه". وهنا علق الرئيس قائلا: إني اعرف انك رجل وطني وانك لا يمكن أن تقوم بعمل ضد وطنك ولكن أخشى أن يخدعوك وان يجروك إلى الاتجاه الخاطئ". وهكذا غادرنا منزل الرئيس دون أن نحل أية مشكلة. سارت الأمور في هدوء ويسر لمدة أسابيع قليلة ثم ارتدت مرة ثانية إلى طبيعتها السابقة. (١٠)

ولكي يثبت الفريق صادق أن اللواء عبد الرؤوف لم يكن أهلا ليؤتمن على ما يقرب من مليون جنيه إسترليني، فإنه أمر بتشكيل لجنة تحقيق لبحث أية مخالفات مالية يكون قد ارتكبها أثناء قيامه بعمله كرئيس أركان بالنيابة للقيادة العربية الموحدة، وكان رئيس هذه اللجنة هو اللواء طلعت حسن علي الذي عينه صادق ليحل محل اللواء عبد الرؤوف. (١١) كان قرار مجلس التحقيق مخيبا للآمال، فقد وجه اللوم إلى اللواء عبد الرؤوف لارتكابه بعض الأخطاء المالية التافهة مثال ذلك استخدامه الهاتف الرسمي في مكالمة خاصة مع ابنته في أمريكا دون أن يدفع ثمنها، وقيامه بشراء قلم حبر من الأموال العربية لا المصرية لاستعماله الخاص، وغير ذلك من المخالفات التافهة. (١٢)

ومع أنني شخصيا لا أؤيد أية مخالفة سواء أكانت كبيرة أم صغيرة فإنني أود أن أعلن أن هناك أخطاء جسيمة ترتكب يوميا من قبل كبار الشخصيات المصرية، أخطاء تزيد في جسامتها مئات المرات على تلك الأخطاء التي نسبت إلى اللواء عبد الرؤوف، ما قيمة مكالمة هاتفية إلى أمريكا إذا قورنت بهاتف خاص ذي خط خاص إلى جميع بلاد غرب أوربا؟ ما قيمة ثمن قلم حبر إذا قورنت باستخدام طائرة تملكها الدولة وتتسع لأكثر من ١٠٠ راكب من قبل فرد واحد في تنقلاته وأحيانا زوجته وأولاده؟ لماذا عندما يسافر بعض المصريين للخارج- وإلى لندن

بالذات- يصرف لبعضهم بدل سفر يومي ١٠ جنيهات إسترلينية بينما بعض المحظيين يكون لهم حساب مفتوح، وينفق بعضهم حوالي مائتي جـنيه إسترليني في اليـوم؟ هنـاك الكثيـر مـن المخـالفات المالية ولكن لم يأت بعد وقت الحساب. عموما فإن هذا هو المنطق السائد في مصر.. منطق القول عندما يكون الشخص في السلطة فإن كل ما يقوم به من عمل هو صحـيح وقانوني، فإذا سقط فإن من في السلطة يستطيع دائما أن يبحث، وان يستخرج الكثير من الأخطاء. لقد حاكم السادات وشوه سمعة الكثيرين ممن خدموا في عهد عبد الناصر. و ها هم أولاء رجاله يرتكبـون أضعاف أضعاف ما نسب إلى رجال عبد الناصر، ألا يعلم هؤلاء الناس أن عجلة الزمن تـدور دون توقف وأنه سيأتي اليوم الذي يحاسبون فيه؟!

هوامش الفصل السابع عشر:

(١) لو أن الفريق محمد صادق فكر أنه في يوم من الأيام سوف يتقاعد، وأنه لن يستطيع أن يغادر مصر دون تصريح من وزير الحربية الذي في السلطة لاقتنع بكلامي وألغى هذا النظام.

(٢) يا للعجب ! ويا لسخرية القدر! بعد عام واحد وبالذات في نوفمبر ٧٢ اتهم السـادات الفريق صادق أمامي وأمام ممدوح سالم، ووصفه بأنه "عميل للملك فيصل" . وبالطبع فإن السادات وهـو يوجه هذا الاتهام للفريق صادق لم يكن يدري أن صادق قد أطلعني على خطاب السـادات إلـى الملك فيصل.

(٣) التفاصيل في الباب السادس.

(٤) ترى ماذا كان يمكن أن يحدث خلال معركة الثغرة لو انه أخذ بالاقتراح الذي قدمته ؟

(٥) إن هذا الموضوع وكثير غيره يوضح لنا ضيق الأفق فيما يتعلق بحرية الرأي في مصر. إن أي شخص حر يبدي رأيا قد يتطابق أحيانا مع رأي أمريكي أو رأي سوفيتي، فهل أي اتفاق فـي الرأي مع إحدى الدولتين العظميين يعنى العمالة؟ لو أخذنا بهذا الرأي لأصبح المصـريون كلهـم عملاء. إما عملاء للسوفييت وإما عملاء للأمريكيين!! وهذا شئ محزن حقا.

(٦) قبل مرور ستة اشهر على هذا اللقاء وقعت محاولة انقلاب فاشلة بواسطة النقيب علي حسني عيد، ولابد أن الرئيس تذكر في ذلك اليوم ما سبق أن حذرت منه يوم ٢٣ من أبريل.

(٧) أسلوب المخابرات الغامض للبطش بأعداء من بيده السلطة.

(٨) الحقيقة اكثر من ذلك.

(٩) لم يكن الرئيس راغبا في الأخذ بوجهة نظري–وإن لم يعلن ذلك صراحــة– لأنه هو نفســه يمارس سلطات دكتاتورية ويستطيع أن ينقض أي قرار يتخذه معاونوه ومرؤوسوه.

(١٠) في يوم ٢٣ من أبريل ٧٢ اصدر الرئيس السادات قرارا بتعيين اللواء حسني مبارك قائــدا للقوات الجوية بدلا من اللواء بغدادي. وفى الساعة ١٩٠٠ أبلغت كلا منهما بهذا القــرار، علــى الرغم من أنني كنت مع الرئيس في حوالي الساعة ١٥٠٠ من اليوم نفسه، ولم أعلم بهذا الخبر إلا حوالي الساعة ١٩٠٠.

(١١) من الملاحظ أن الرئيس السادات لم يتحمس كثيرا لموضوع اللواء عبــد الــرؤوف أثنــاء مقابلتي له مما قد يوحي بأن الفريق صادق قد اتصل به قبل مقابلتنا الرســمية واخبــره بــبعض المعلومات ولا استبعد أن يكون قد اخبره أيضا بطريقة ما بقراره الخاص بإيقافه وتعيــين اللــواء طلعت حسن علي بدلا منه، ولكن إلى أن يتكلم الفريق صادق فإنه لا يمكن التأكد من ذلك.

(١٢) بعد تشكيل مجلس التحقيق فاتحت الرئيس مرة أخرى في موضوع اللواء عبــد الــرؤوف، ولكني وجدت أنه يريد أن يغلق الموضوع.

الفصل الثامن عشر

أبريل ٧٢.. أكتوبر ٧٢

وأخيرا تم التوقيع على الصفقة:

في يوم ٢٧ من أبريل سافر الرئيس إلى موسكو للمرة الثانية خـــلال فترة أقل من ثلاثة شهور [١] وعاد في ١٠ من مايو، فكانت بذلك أطول زيارة قضاها في الاتحاد السوفيتي. وفى ١٤ من مايو، أي بعد عودة الرئيس السادات بأربعة أيام فقط- وصل المارشال جريشكو. وفى اليوم نفسه قـــام المارشال جريشكو والسفير السوفيتي في الساعة السابعة مساء بزيارة السيد الرئيس، ولم يحضـــر هذه الزيارة أي من الفريق صادق وزير الحربية أو السيد مراد غالب وزير الخارجية. لقد كانـــت الترتيبات تقضى بان المارشال جريشكو ستســـتمر زيارته للرئيس لمدة ساعة يقوم بعدها بزيارة مجاملة للفريق صادق في منزله ثم يحضر الوزيران إلى نادي الضباط بالزمالك لحضـــور حفـــل العشاء الذي يقام على شرف المارشال جريشكو. ولكن زيارة المارشال جريشكو للرئيس امتـــدت حتى الســـاعة الحادية عشـــرة وعندما وصل المارشال أخيرا إلى منزل صادق بادره قائلا "ليس لدى شيء أعطيه لك، لقد اخذ الرئيس كل ما كـــان في جيوبي "، ورد عليه صادق " أرجـــو أن يكون الرئيس قد أخذ من جيوبك كل ما نريده". وفى خلال حفل العشاء تم الاتفاق على أن يقـــوم الفريق عبد القادر حسن بالتوقيع صباح اليوم التالي على الاتفاقية.

وفى صباح اليوم التالي كنت مع الفريق صادق في مكتبه ننتظر زيارة مجاملة يقوم بها المارشال جـــريشكو إلى السيد الوزير. فسألته عن الأصناف التي تم الاتفاق عليها، فـــأقسم يمينا مغلظا بأنه لا يعرف. واستدعينا الفريق عبد القادر حسن الذي كان مجـــتمعا مع الجانب السوفييتي لســـؤاله فقال إن الجانب السوفييتي يعرض:

- ١٦ طائرة سو ١٧
- ٨ كتائب بيتشورا (سام ٣)
- ١ فوج كوادرات يتم تسليمه عام ٧٣
- ٢٠٠ دبابة ت ٦٢ يتم توريد نصفها خلال عام ٧٢ والنصف الباقي خلال عام ٧٣.
- قطع غيار مختلفة.

سألت الفريق عبد القادر حسن عن الأثمان فقال انه لم يصل معهم بعد إلى هذه النقطـــة. ولكنـــه سيقوم بإخبارنا عندما يعرف هو ذلك. بعد خروج الفريق عبد القادر حسن قلت لصادق. لمـــاذا لا

تتصل بالرئيس لتسأله عما تم الاتفاق عليه وتخبر به عبد القادر حسن. أن لم تفعل فإنك تترك عبد القادر حسن في موقف صعب للغاية"، وهنا طلب الوزير الرئيس هاتفيا. وفي أثناء المكالمة حاول صادق أن يلفت نظري إلى ما يقوله السادات على الطرف الآخر وذلك بأنه تعمد تكرار ما يقوله السادات:لا تناقش الأسعار.. لا تناقش توقيتات التوريد. فيما يتعلق بالدبابات لقد اتفقنا أن يتم توريد ٦٠ دبابة خلال شهر يوليو ، ٦٠ دبابة خلال ٧٢، ٨٠ خلال ٧٣، فوج الكوادرات يتم توريده خلال ٧٢. وبعد انتهاء الحديث التفت إلي وقال "لقد سمعت المحادثة. إنك الشاهد الوحيد أمام الله وأمام التاريخ. سوف أوقع الاتفاقية دون مناقشة الأسعار ودون مناقشة توقيتات التوريد. ومع ذلك فإني سوف أمارس بعض الضغط بغرض الحصول على جميع الأصناف قبل نهاية عام ٧٣، ولكن إذا لم يوافق الجانب السوفيتي فسوف أوقع على الاتفاقية "، فقلت له "تأكد أنني أقول الصدق دائما". وبعد خروجي من مكتب الوزير قمت بتسجيل ما دار من حديث في مذكرتي الخاصة.

إنني لا أعرف ماذا دار بين السادات والقيادة السياسية السوفيتية خلال زيارته الأخيرة ولكني أتصور أنه قال لهم وسمع منهم أن صادق هو العقبة الكؤود في سبيل تحسين العلاقات بين روسيا ومصر، ولا أ ستبعد أن يكون قد وعدهم بأنه سيطرده وأن قيام السادات باستبعاد صادق من المفاوضات الخاصة بالصفقة الأخيرة كان الغرض منه هو أن يثبت للجانب السوفيتي انه هو وحده الرجل القوي في مصر، ومن ناحية الاتحاد السوفيتي فأنه كان يرمي إلى الوصول إلى اتفاق مع مصر حول هذه الصفقة، حتى يمكنه أن يحضر مؤتمر قمة بريجنيف- نيكسون، الذي كان مزمعا عقده في موسكو في ٢٠ من مايو ٧٢ من موقع قوة.

مؤتمر الرئيس في القناطر الخيرية ٦ من يونيو ٧٢:

في ٦ من يونيو ٧٢ اجتمعنا في استراحة الرئيس في القناطر الخيرية. كان اجتماعا مصغرا ولا يشمل سوى الدائرة الصغرى من أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة وقد حضر هذا المؤتمر كل من: صادق، الشاذلي، محمد علي فهمي محمود علي فهمي، المسيرى [٢]، محرز، الجمسي، علي عبد الخبير،عمر جوهر، حسن الجريدلى (للسكرتارية) وبناء على تكليف من صادق اخذ الجمسي يقرأ تقريرا عن موقف القوات المسلحة تم إعداده خلال فترة زيارتي للعراق (٢٦ من مايو- ٢ من يونيو)، كما أشير أيضا إلى تقرير أعده اللواء أحمد إسماعيل بصفته مدير المخابرات العامة وبه يؤكد أن القوات المسلحة ليست في وضع يسمح لها بالقيام بعملية هجومية؛ وبعد ذلك فتح باب المناقشة طبقا لما يلي:

الرئيس: يجب أن نفرق بين رجال السياسة ورجال الحرب ويجب أن تركــزوا علـــى المعركـــة القادمة.أنا والفريق صادق يشاركني الرأي انه يجب ألا نعمل إلا بعد تكوين قــوة الـــردع أي أن يكون عندنا طيران يستطيع أن يضـــرب عمق العدو [٣] " ولكن يجب أن نفكر ما هو العمـــل إذا اضطرنا الموقف السياسي إلى بدء لمعركة قبل الانتهاء من بناء قوة الردع؟ ".

الشاذلي: إن ما ورد في التقرير حقائق لا يمكن إنكارها و المجادلة في صحتها، ولكن السؤال الآن هو: "ما العمل؟ ما هو الممكن عمله ؟" إن ربط المعركة بإعداد القوات البرية المصـــرية يعنـــي تأجيل المعركة سنوات أخرى لا يعلم أحد مداها. إن الفجوة التي بين القوات الجوية الإســـرائيلية والقـــوات الجوية المصريـــة تميل إلى الاتســـاع لا إلى الضـــيق. إن الاســـتراتيجية الأمريكيـــة المعلنة والمنفذة في المنطقة هي. الإبقاء على إسرائيل قوية بحيث تكون- قواتها أكـــثر قوة مـــن القوات الجوية للدول العربيـــة مجتمعة. إننا لم نحصل بعد على طـــائرة ردع يمكـــن مقارنتهـــا بطائرات الفانتوم التي يملكها العدو، وحتى لو حصلنا الآن على طائرة مماثلة فإن قـــدرتنا علـــى استيعـــاب هذه الطائرة ستحـــتاج إلى فترة طويلة تكون إسرائيل قد حصلت مثلها علـــى طـــائرة أخرى اكثر تقدما، وهكذا فإني لا أرى أملا في إغلاق أو تضييق الفجوة التي بيننا وبين إســـرائيل في القوات الجوية في المستقبل القريب. لذلك فإني أرى انه يجـــب علينـــا أن نخطـــط لمعركـــة هجومية محدودة في ظل تفوق جوي معاد، ويمكننا أن نعتمد في تحدينا للتفوق الجوي خلال تلـــك المعركة على الصواريخ المضادة للطائرات سام.

المسيرى: أوافق تماما على كل ما قاله الفريق الشاذلي.

الرئيس (مازحـــا): والله يا مسيري إذا ما كنتم تحـــاربوا كويس لأربطك في شجرة في الجنينـــة دي وأشنقك كمان.

رحلة صادق إلى موسكو يونيو ٧٢:

سافر الفريق صادق إلى الاتحاد السوفيتي في الفترة ما بين ٨ و ١٣ يونيو ٧٢. وفى يوم ٢٠ من يونيو دعا الوزير إلى مؤتمر مصغر حضره- بالإضافة إلى الوزير- أنا وقائد القـــوات الجويـــة وقائد الدفاع الجـــوي وقائد البحرية وقائد الجيش الثـــاني وقائـــد الجـــيش الثالـــث ومـــدير إدارة المخابرات الحربية. وقد افتتح صادق المؤتمر بأن طلب إلـــى مدير المخابرات أن يقرأ تقريـــرا كان قد سبق إعداده وقد جاء في التقرير أن وفدا من الصحفيين السوفيت زار بعـــض الوحـــدات الميدانية وكان يوجـــه الأسئلة الآتية "أن إسرائيل لديها أسلحة حـــديثة ومتقدمة. وعنـــدما نقـــوم بإمدادكم بأسلحة متقدمة فإنكم تكتشفون أن إسرائيل قد أصبحت لديها أسلحة اكثر تقدما فتطلبـــون

منا أسلحة أخرى أكثر تقدما وهكذا. أن الفجوة بينكم وبين إسرائيل قد تبقى كما هي بل قد تزيد، فهل يعني هذا أنكم لن تقاتلوا لتحرير أرضكم؟ لماذا يقاتل الفيتناميون أمريكا بالأسلحة نفسها التي معكم، يقاتلون الرأس أما انتم فتواجهون الذنب ؟".

وهنا علق الفريق صادق قائلا " إن هذا هو نفس كلام سعد الشاذلي". [٤]

الوزير: شرح الوزير تفاصيل زيارته وتتلخص أقواله فيما يلي:

١- رأي المارشال جريشكو:

(١) يجب تجهيز القوات المسلحة والدولة والشعب لمعركة طويلة الأمد.

(ب) يجب أن تحصلوا على ما تحتاجون إليه من أسلحة هجومية بالأعداد التي تطلبونها لضمان كسب المعركة. [٥]

٢- رأي المستر بريجنيف:

(١) إن الموقف الداخلي في مصر غير مستقر. مازال هناك أفراد من الجيل القديم يحاولون إرجاع الماضي. هناك في مصر من ينظر إلى الشرق ولكن هناك أيضا من ينظر إلى الغرب.

(ب) إن الموقف في الشرق الأوسط بالغ التعقيد. إن إسرائيل تعرض حلولا لا يمكن قبولها من قبل مصر ولا يمكن قبولها من قبلنا.

(ب) أننا نؤمن بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة، وإننا متضامنون معكم ونؤيدكم في نضالكم.

(د) يجب أن نعمل معا في المحافل الدولية اعتمادا على قرار مجلس الأمن ٢٤٢.

(هـ) إن تحرير الأرض يتطلب أولا بناء الجيش الدفاعي لمنع العدو من توسيع رقعة الأرض التي يحتلها، وبعد ذلك يجرى بناء الجيش الهجومي الذي يقوم بتحرير الأرض. ولكن قبل بناء الجيش الهجومي يجب التأكد مما إذا كان هذا الجيش سيحارب أم لا؟ فقد لا يحارب الجيش بعد هذا كله. [٦]

(و) إن الإبقاء على المستشارين السوفيت في مصر ضرورة دولية. [٧]

(ز) لن نقوم بعقد اتفاقية مع أمريكا على حساب مصر.

(ح) أنت من واجبك (الكلام موجه إلى صادق) تحرير الأرض ومساعدة أصدقائكم في سوريا.

٣- انطباع الفريق صادق:

انتقل صادق بعد ذلك إلى ذكر انطباعاته عن هذه الزيارة فقال:

(ا) إن السوفيت مهتمون جدا بالجبهة الداخلية، بل إنهم طلبوا تنحية الأشخاص الذين تتعارض

سياستهم مع الاتجاه السوفيتي.

(ب) إنه لا تغيير في السياسة السوفيتية بعد مؤتمر قمة بريجنيف- نيكسون.

(ج) إن السوفيت يريدون تهدئة الموقف في المنطقة إلى أن ينجح نيكسون في الانتخابات في نوفمبر القادم، وبعد نجاحه فإنهم سوف يماطلون في إمدادنا بالسلاح لتمييع القضية، بأمل الوصول إلى حل سلمي للقضية.

تامين الأهداف الحيوية ضد العمليات الإرهابية

عند بحث الإجراءات المضادة التي نتخذها في مواجهة العمليات الإرهابية، كان هناك اقتراح بأن تقوم القوات المسلحة بالتعاون مع الشرطة في توفير الحماية للأهداف المدنية. وقد أوضحت أنه يكاد يكون من المستحيل تدبير القوات اللازمة لتوفير الحماية لجميع الأهداف، وإننا سوف نكون ضعفاء في كل مكان. إننا لا نستطيع أن نحمي جميع الفنادق والمدارس والنوادي ودور السينما ومكاتب الحكومة وآلافا غيرها من الأهداف. ولمقابلة هذا التهديد فإنه يجب أن نوفر قدرا من الدفاع الذاتي لكل هدف من هذه الأهداف مع الاحتفاظ بقوة خفيفة الحركة يمكن د فعها فورا إلى المكان الذي يكون هدفا للهجوم.

ولتحقيق هذه الفكرة فإن ذلك يتطلب توزيع بعض الأسلحة على المدنيين الذين يعملون في تلك الأمكنة، ولكن هذه الفكرة كانت مرفوضة تماما لأنها- كما يقول رجال الأمن- تعرض الأمن الداخلي للخطر. وكحل بديل اقترحت أن يسمح لضباط القوات المسلحة بان يحملوا أسلحتهم معهم أينما ذهبوا، لأن هذا الإجراء سيوفر لنا بصفة مستديمة حوالي ١٠٠٠٠ رجل مسلح خارج المعسكرات منتشرين في طول البلاد وعرضها. فإذا وقع اعتداء على أي هدف من أهدافنا المدنية فإن هؤلاء الرجال المسلحين يستطيعون القيام بما يستطيعون إلى أن تصل إليهم النجدة من القوة الاحتياطية المخصصة لنجدة هذا الموقف. وعندما عرضت هذه الفكرة على الوزير في ٣ من يوليو ٧٢ أخبرني بأنه سيقوم بإبلاغ ذلك إلى الرئيس.

في ٥ من يوليو ٧٢-أي بعد فترة امتدت أكثر من شهر تصورت خلالها أن الاقتراح قد رفض- أخبرني الوزير بأن الرئيس قد وافق على أن يسمح للضباط بحمل السلاح خارج معسكراتهم، والآن فإن المرء ليتساءل ما الذي دفع الرئيس إلى أن يتردد طوال هذه المدة؟ هل هناك علاقة ما بين هذا القرار وقرار طرد المستشارين والوحدات السوفيتية الذي كان قد بدأ يتبلور في رأس السادات؟

مغامرة النقيب عيد:

في حوالـــي الساعة ١٨٤٥ يوم ١٢ من أكتوبر ٧٢ رن جرس الهاتف في منزلي وكان المـــتكلم هو الفريق سعد الدين الشريف كبير الياوران بالنيـــابة. أخبرني الفريق بأن عددا من الدبابات قـــد دخلت القاهرة وإنها تعصي أوامر الشرطة العسكرية، وقال إن هذا الموقف يهدد أمـــن وســـلامة الرئيس ويشكل خطورة على موكب الرئيس المزمع تحـــركه الليلة لحضور اجتماع مجلس الأمة الاتحادي في مصر الجديدة كما أخبرني بأنه أخبر الفريق صادق بهذا الحـــادث قبل أن يتصل بي مبـــاشـــرة تحركت فورا إلى مكتبي حـــيث علمت أن الشـــرطة العسكرية قد قبضت على قائـــد تلك القوة وأخذته إلى قيادة المنطقة المركزية فتحركت على الفور إلى هـــــناك حيـــث وجـــدت الفريق صادق قد حضر قبلي بدقائق، وبعد أقل من نصف ساعة حضر اللواء عبد الخبيـــر قائـــد المنطقة العسكرية المركزية، وقد ظهر أن قائد القوة الذي قبضت عليه الشرطة العســـكرية هـــو النقيب علي حسني عيد وهو قائد سرية مشاة ميكانيكية ضمن لواء مدرع يتمركز شرق القـــاهرة بحوالي ٢٠ كيلومترا.

تتلخص رواية النقيب عيد فيما يلي: "لقد كانت سريتي مكلفة بواجب القضاء على أيـــة جماعـــات منقولة جوا قد يقوم العدو بإسقاطها في المنطقة. وقد رأيت أن أقوم بتدريب رجالي علـــى تنفيـــذ المهمة التي كلفنا بها واختبار مدى كفاءتهم في تنفيذها، وفى الساعة ١٤٠٠ بدأ المشروع التدريبي وبعد الانتهاء من التدريب فكرت في أن نقوم بأداء صلاة المغرب في جامع الحســـين بالقـــاهرة. وعند وصولنا إلى الجامع تركنا عرباتنا في ميدان الحسين ودخلنا الجامع، حيـــث صـــلينا وبعـــد الانتهاء من الصلاة فوجئنا بالشرطة العسكرية تحيط بنا وتقبض علينا.

كان الفريق صادق يتولى التحقيق بنفســـه بينما كنت أنا واللواء علي عبد الخبير نستمع إلى أقوال النقيب المذكور والشهود ونتدخل من وقت لآخر لتوجيه سؤال أو لاستيضاح نقطة غامضة. [٩] لقد كانت قصة النقيب عيد غير منطقيـــة وليست هناك إجابة مقبولة للعديد من الأسئلة. لماذا أشـــرك النقيب عيد معه أفرادا ومركبات أخرى من الكتيبة، مع أنهم ليسوا ضمن تنظيم السرية التي يقودها هو؟، لماذا لم يخبر قائد كتيبته مسبقا بأنه ينوى القيام بإجراء مثل هذا المشروع حتى يمكن اتخاذ إجـــراءات الأمن الداخلي المعتـــادة ؟ لماذا لم يمتثل لأوامر الشرطة العسكرية التي تقـــف علـــى مدخل مدينة القاهرة لمنع أية قوات مسلحـــة من دخول القـــاهرة إلا إذا كان ذلك طبعا لتصـــديق كتابي مســـبق ومبلغة صورة منه إلى الشـــرطة العسكرية ؟ هل من المعتاد أن يذهب المرء إلى الجامع راكبا دبابة أو عربة قتال مدرعة ؟

و من أقوال ضباط الصف والجنود اتضح أن النقيب عيد أخبر أفراد كتيبته بأنه سيقوم بمشـــروع

تدريبي، وانه تحرك من منطقة تضعه في ١٢ عربة قتـــال مدرعة مجنزرة (٦ مركبـــات مـــن سريته، و ٦ مركبات من باقي ســـرايا الكتيبة)، وبعد أ ن غادر منطقة معسكرات هاكستب تحوّل إلى طريق القاهرة ثم مر خلال نقطة الشرطة التي عند مدخل القاهرة (علامة الكيلو ١٤،٥) بالقوة وقد استطاعت ٧ مركبات أن تتـــبعه ولكن الخمس الأخريات امتثلت لأوامر الشرطة وتوقفت عند هذه النقطة. اندفـــع النقيب عيد داخـــل شوارع القـــاهرة بتلك المركبات السبع بسرعة عالية وأخذ يصدر باللاسلكي أوامر وتعليمـــات غير واضحة وبعض الآيات القرآنية. بـــدأ الشـــك يخـــــامر نفوس بعضهم فـــتوقفت أربع مركبـــات أخرى في منتصف الطريق داخل شوارع القاهرة وهـــي لا تدري ماذا تفعل. وصل النقيب ومعه ثلاث مركبات إلى ميدان سيدنا الحسين حيـــث ترجلـــوا ودخلوا المسجد للصلاة.

في أثناء استجواب النقيب كان يظهر شيئا من عدم الاتزان والتعصب الدينـــي ويـــتهم المجتمـــع المصري بأنه نسي الله ونسي دينه، وكان يتوقف عن الإجابة في كثير من الأحيان لكـــي يتمـــتم بآيات من القرآن الكريم. وبعد انتهاء التحقيق أخبرني صادق بأنه سوف يقوم بـــإبلاغ نتـــــيجة التحقيق بنفسه إلى الرئيس. أعلن بعد ذلك أن النقيب عيد مجنون وأرسل للمستشفى، وبالتالي لـــم يحاكم على هذه المغامرة المثيرة.

– لقد قام الرئيس السادات بطرد الفريق صادق بعد أسبوعين من هذا الحادث ومهما قال الـــرئيس في أسباب هذا الطرد فإن مغامرة النقيب عيد لابد أنها كانت أحد الأسباب الرئيسية. وقد أكد لـــي هذا الشعور ما قاله لي السادات بعد ذلك بأنه لم يصدق ما قاله له صادق بأن النقيـــب عيـــد هـــو شخص مريض وغير متزن العقل. [١٠]

مؤتمر الرئيس يوم ٢٤ من أكتوبر ٧٢:

كان يوم ٢٤ من أكتوبر ٧٢ يوما حـــافلا بالأحداث السريعة والمتلاحقة، فقد بدأت فـــي الســـاعة التاسعة من صباح هذا اليوم مؤتمري الشهري المعتاد ولكني فوجئت بأن الوزير يطلب الاجتمـــاع بي وبأعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحـــة في الساعة الثانيـــة عشرة مما اضـــطرني إلـــى إنهاء مؤتمري حوالي الساعة ١١٣٠. كـــان الهدف من مؤتمر الوزير هو الاســـتماع إلـــى رأي القادة عن الموقف العسكري وذلك قبل حضورنا اجتماعا آخر في الساعة ٢٠٣٠ من اليوم نفســـه بمنزل الرئيس بالجيزة تكلم كل من أعضاء المجلس عن موقف قواته وعن المتاعب والمشكلات، التي مازالت تواجهه. وفي نهاية الحديث علق الوزير كما يلي "إن كل ما أريده هو أن يقوم كـــل منكم بإعطاء صورة حقيقية عن موقف قواته أمام الرئيس هذا المساء. إن الرئيس يعتقد إنني أبالغ

في ذكر المشكلات ولذلك فإنه يريد أن يسمعها منكم شخصيا"، فأجاب الجميع بأنهم سيفعلون ذلك. وأن ما قالوه أمام الوزير سوف يقولونه أمام الرئيس.

لقد بدأنا نتوافد على منزل الرئيس بالجيزة اعتبارا من الساعة ٢٠٣٠ وبدأ الاجتماع في الساعة التاسعة مساء وامتد حتى منتصف الليل. وقد بدأ الرئيس باستعراض الموقف وتطور العلاقات بينه وبين السوفيت منذ توليه الحكم وحتى هذا التاريخ، وكان أهم ما جلس في حديثه هو ما يلي:

(١) إن رحلاتي إلى الاتحاد السوفيتي في مارس ٧١ وأكتوبر ٧١ وفبراير ٧٢، كانت بناء على طلبي، أما رحلاتي في أبريل ٧٢ فكانت بناء على طلب القيادة السياسية السوفيتية.

(٢) أخبرت القيادة السوفيتية في إبريل ٧٢ بأن القضية لن تتحرك سياسيا إلا إذا أمكن تحريكها عسكريا. وقلت لهم أن إعداد الهند للقيام بحربها ضد باكستان قد استغرق منكم ستة شهور ويمكنكم أيضا أن تفعلوا الأمر نفسه مع مصر. إني اتفق معكم على العمل على إعادة انتخاب نيكسون في انتخابات الرئاسة الأمريكية القادمة في نوفمبر ٧٢ حيث إنه سيكون افضل من رئيس جديد يصل إلى الحكم وتحكم تصرفاته رغبته في البقاء في الحكم لفترة ثانية. [١١]

(٣)عندما حضر المارشال جريشكو في مايو ٧٢ أرسلت معه كتابا إلى القيادة السياسية السوفيتية طلبت فيه توردنا بطائرات ميج ٣٥ ومعدات وأجهزة الحرب الإلكترونية. وقد أخبرتهم صراحة بأنني لا اقبل بقاء أية وحدات سوفيتية في مصر ليست تحت القيادة المصرية.

(٤) في يوم ٦ من يوليو قيل لي أن السفير السوفيتي يطلب مقابلتي، ولكني حددت يوم الزيارة ليكون يوم ٨ يوليو، وعندما قابلني للسفير وجدت الرسالة لم تتعرض للرد على رسالتي المرسلة لهم. وبعد انتهاء السفير من قراءة الرسالة قلت له إن الرسالة مرفوضة ثم أبلغته بقراري الخاص بإنهاء عمل المستشارين والوحدات السوفيتية. [١٢]

(٥) قبل إعلان قراري في ١٧ من يوليو ٧٢ أرسلت عزيز صدقي- رئيس الوزراء- إلى موسكو ليشرح لهم الموقف وليعرض عليهم إصدار بيان مشترك حول هذا الموضوع، ولكنهم لم يوافقوا. قالوا أن السادات اتخذ هذا القرار من جانب واحد لذلك فإن الإعلان أيضا يجب أن يكون من جانب واحد. لقد كانوا يظنون أنني لا أعني ما أقول ولكن عزيز صدقي أكد لهم إننا جادون في تنفيذ ذلك.

(٦) بعد الاجتماع بنيكسون في موسكو في مايو ٧٢ وصل الروس والأمريكيون إلى وفاق، بل عناق وانتهت الحرب البارد ة نهائيا، وينتظر أن يستمر هذا الوفاق لمدة عشرين سنة على الأقل. وكان ذلك أحد الأسباب الرئيسية لكي اتخذ قراراتي في يوليو ٧٢ حتى أقف على أرض صلبة.

ومنذ ذلك التـــاريخ اتصل بي الأمريكيون والإنجليز والفرنسيون والإيطاليون. القضـــية ابتـــدأت تتحرك لأننا أصبحنا أولياء أمور أنفسنا. [١٣]

(٧)حاول الروس الاتصـــال بي مرة أخرى في ٣١ من يوليو ٧٢، ولكنـــي تعمـــدت أن امكـــث شهرا قبل أن أرد عليهم في ٣١ من أغسطس ٧٢.[١٤]

(٨) تدخل الرئيس حافظ الأسد لتحسين العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتي وسافر ســـرا إلـــى الاتحاد السوفيتي فوجد منهم استعدادا طيبا لتحسين العلاقات سافر على أثر ذلك عزيز صدقي إلى موسكو ودخل معهم في مناقشات عنيفة أكدوا بعدها أن سيـــاستهم تجاه مصر لم ولن تتغير على الرغم من قرار السيد الرئيس بإنهاء عمل المســـتشارين الروس في مصر. وكانت حصيلة هـــذه الزيارة هي إدخال الروس في الفورمة حـــتى تكون علاقتهم معنا في المرحلة القادمة على أساس عدم التدخل في شئوننا وقد وعدوا عزيز صدقي بإمدادنا بالأسلحة التالية:

- سرب ميج ٢٣ في الربع الثالث من عام ٧٣.
- سرب سوخوى ٢٠ في الربع الثالث من عام ٧٣.
- وحدة صواريخ سطح سطح SSM مداه ٣٠٠ كيلومتر ويتم إبلاغنا في أوائل ٧٣ عن تـــواريخ التوريد.

(٩) ويمكنني أن ألخص الموقف العام على ضوء ما سبق في أن أمريكا حـــاولت أن تقوم بتحويل مبادرتي لكي تصبح حلا جزئيا يشمل انسحاب إسرائيل وعبور قواتنا للقناة علـــى أن يخـــــضع الانسحـــاب الكامل لمرحلة أخرى من المفاوضـــات. لقد أخبرت الفريق صـــادق منـــذ الصـــيف الماضي بأنه يجب أن تتحرك القضية عسكريا قبل أن ندخل الجولة الثانيـــة مع إســـرائيل بعـــد الانتخابات الأمريكية. كان ذلك يعتبر قرارا أبلغكم به وليس لأخذ رأيكم، حيث إن هـــذا الموقـــف يعتبر اختبارا للقوات المسلحة. وإذا لم نقم بعمل عسكري قبل نهاية هذا العام فإن القضية ســـوف تنتهي ويفقد المصريون والعرب ثقتهم بأنفسهم.

(١٠) تكلم الرئيس بعد ذلك عن التصنيع العسكري، وعن ضـــرورة تصـــنيع الطـــائرة المقاتلـــة والحوامة والزوارق والعربات المجنزرة وأجهزة الحرب الإلكترونية، واتهم من ســـبقوه بالســـفه لأنهم لم يفهموا قيمة الجنزير في حرب الصحراء ولم يشتروا العربات المجنزرة التي كانت تباع بعد الحرب الثانية بتراب الفلوس. [١٥]

(١١) عندما تكلم الرئيس عن موقف السوفيت من المعركة كان كلامه متناقضـــا، ففـــي بعـــض الأحيان قال إن الاتفاق الودي بين روسيا وأمريكا هو أساس الاستراتيجية السوفيتية لمدة ١٠-٢٥

سنة، وانهم لذلك لا يرغبون في قيام حرب جديدة بيننا وبين إسرائيل، حيث أن ذلك قد يجرهم إلى نوع من التدخل والاشتراك، فإنهم لذلك يفضلون الوصول إلى حل سلمي للمشكلة. وفى أحيان أخرى قال أن السوفيت ليست لديهم الثقة بعزمنا على القتال، وإنهم لذلك يترددون في إمدادنا بالسلاح. وقد علق الرئيس على هذه النقطة قائلا "كان الروس فيما مضى يشيرون إلينا بأسلوب خفي بأنه يجب علينا أن نبدأ القتال أما هذه المرة فقد قالوها بصراحة لعزيز صدقي. قالوا له لو إننا في مثل موقفكم لقاتلنا لتحرير أرضنا حتى لو لم يكن لدينا سوى البنادق ! وأني واثق أنهم كانوا يودون لو أنهم قالوا أكثر من ذلك لأني أعرف ما قاله الرئيس بودجورنى عنا في تركيا بعد هزيمة ٦٧". وفى مناسبة ثالثة قال الرئيس : إن الروس قد أخبروا عزيز صدقي خلال زيارته الأخيرة بان علاقاتهم معنا والتزامهم بإمدادنا بالسلاح لن يتأثر نتيجة الاتفاق الودي الذي عقد بينهم وبين أمريكا.

– وبعد هذأ الاستعراض للموقف فتح باب المناقشة والأسئلة.

الجمسي:

ما موقف سوريا وليبيا من المعركة؟

الرئيس:

الرئيس حافظ الأسد سيشترك معنا عن قناعة إنه مقتنع تماما بأن أي عمل نقوم به سوف يكون أفضل مما نحن فيه الآن مهما كانت التضحيات. سوف يسافر الفريق صادق قريبا إلى سوريا للتنسيق بين الجبهتين، [١٦] أما ليبيا فإنها تضع ما لديها كله للمعركة. إن ليبيا لديها خمسون طائرة ميراج جاهز منها للمعركة سرب واحد، وكذلك عندها ٢٤ مدفعا ١٥٥ مم ذاتي الحركة و ١٠٠ عربة مدرعة لنقل المشاة وعدد من الهاونات ١٣٠ مم المحملة على عربات جنزير.

عبد المنعم واصل:

إن التدريب والروح المعنوية على مستوى عال، ولكن يجب أن نعلم أنه إذا قمنا بالهجوم في ظل الأوضاع الحالية فيجب علينا أن نتوقع خسائر كبيرة إن الساتر الترابي الذي أقامه العدو على الضفة الشرقية قد أصبح متصلا وبارتفاع يصل في بعض أجزائه إلى ٢٠ مترا. إن العدو يراني ويكشف موقعي لمسافة طويلة وأنا لا أراه ولا اعرف ما يدور خلف هذا الساتر. وتحت هذه الظروف فإنه يستطيع أن يحدث خسائر كبيرة في قواتنا المهاجمة. يجب أن نزيد من ارتفاع الساتر الترابي من ناحيتنا حتى يصل إلى ارتفاع ساتر العدو أو يزيد، وبذلك نستطيع أن نكشف العدو ونحرمه من فرصة التدخل ضد قواتنا المهاجمة.

الشاذلي:

سيادة الرئيس، هل ستقوم سيادتكم بتحرك عربي لتعبئة القوى العربية، أم أن المعركـــة ســتكون مقصورة على دول الاتحاد؟

الرئيس:

ستكون المعركة مصرية أساسا، وسوف يقف العرب موقف المتفرج [١٧] في البداية، ولكنهم سوف يجدون أنفسهم في موقف صعب أمام شعوبهم فيضطرون في النهاية إلى أن يغيروا من موقفهم.

الوزير:

يجب أن نأخذ في حسابنا قدرة العدو الضرب في العمق، وأنه من المحتمل جدا أن تقوم إسرائيل- بتشجيع من الولايات المتحدة وآخرين لا أريد تســميتهم- بهجوم مفاجئ على مصـــر. إنهم جميعا يتآمرون على مصر بهدف تدمير قواتها المسلحة التي تشكل تهديدا خطيرا لإسرائيل.

الرئيس:

أني أوافق تماما، قد تبدأ إسرائيل ضربتها قبل ٧ من نوفمبر القادم، وفي هذه الحالة سوف ينســى العالم المشكلة الأصلية ويبدأ في الحديث عن وقف إطلاق النار.

علي عبد الخبير:

إن القوات المسلحـــة لم يتم تدعيمها بأية أسلحة جديدة تزيد من قدراتها الهجومية، بل العكس هو الصحيح. إن الاستهلاك العادي في أسلحتنا يجعل قوتنا في تناقص وليس في تزايـد. إن ضــعف قواتنا الجوية مازال كما هو، ألا تكفي هذه العوامل المهمة كلها لكي نفكر جيدا قبـــل أ ن نقـــرر الدخول في حرب نتحمل فيها خسائر جسيمة ؟

الرئيس:

لو أنني أجريت حـــساباتي على هذا الأساس لما اتخـــذت قراري بطرد الروس في ٨ من يوليو. إن المشكلة الآن هي "to be or not to be" [١٨] يجب ألا نلقي باللوم كله على الروس. لقد قـــام الروس بإمدادنا بأسلحة مكنتنا من تسليـــح جيشين ميدانيين، بصرف النظر عن أنهم هـــم الـــذين يختارون السلاح الذي يمدوننا به.

علي عبد الخبير:

إذا كنا نقول "نكون أو لا نكون " فإنه يجب علينا أن نعبئ مواردنا لإمكاناتنا كلها للمجهود الحربي كما تفعل الدول الأخرى عندما تقرر الدخول في حرب

الرئيس:

إن تعبئة موارد الدولة للمجهود الحربي هي مسئوليتي وليست مسئوليتك، الكثير من الناس لا يصدقون انه ستكون هناك حرب. وإذا بقينا كما نحن الآن فسوف تنهار الجبهة الداخلية، يجب أن نقبل المخاطرة المحسوبة.

علي عبد الخبير:

المخاطرة المحسوبة؟ لماذا لانعمل على تلافي الخطر؟

نوال السعيد:

هل المقصود هو تحرير الأرض أم تنشيط العمليات لإعطاء الفرصة للحل السياسي ؟

الرئيس:

لقد سبق أن قلت ذلك للفريق صادق منذ أغسطس وهو "كسر وقف إطلاق النار".

عبد القادر حسن:

قد نبدأ بمعركة محدودة ولكنها قد تتطور إلى حرب شاملة.. قد ننجح في المراحل الأولى من المعركة ولكننا سوف نتحول في النهاية إلى اتخاذ موقف دفاعي. ستبقى إسرائيل في شرم الشيخ وفي معظم سيناء وستكون في موقف أفضل من موقفها الحالي، وقد يدفعها ذلك إلى أن تدعي حقوقا في تلك الأراضي التي تكون مازالت في قبضتها.. يجب أن نضع في حسابنا قدرة العدو على ضرب العمق عندنا وعند سوريا أكثر، لأن سوريا لم تستكمل دفاعها الجوى. لا يصح أن ندفع أنفسنا إلى وضع قد يضطرنا إلى أن نصرخ طالبين النجدة من الاتحاد السوفيتي مرة أخرى ونقول له "ولع".

الرئيس (بغضب):

يا عبد القادر دي تاني مرة تغلط فيها. أنا مسئول عن استقلال البلد، وأنا اعرف ماذا أعمل. يجب ألا تتدخل في شيء ليس من اختصاصك أنت رجل عسكري ولست رجلا سياسيا!

محمود فهمي (محاولا تلطيف الجو):

إننا جميعا نؤمن بأن المشكلة لن تحل سلميا، وأن الحرب هي الأسلوب الوحيد لحلها، وإذا كان هناك رأي او سؤال فإن المقصود منه هو الحرص على مصر ومصلحتها.

الرئيس (بغضب):

هل تدافع عن عبد القادر حسن ؟ كل واحد لازم يتكلم في حدوده أنا لا أقبل من أحد أن يفهمني واجبي.

الرئيس (في صوت هادئ وبعد فترة صمت طويلة):

إننا اليوم نواجه تحديا صعبا to be or not to be.

هناك حل جزئي معروض علي وينتظر موافقتي ولكنى لم أقبله [١٩] " قد يقبل شخص آخر هذا الحل الجزئي أما أنا فإني لن أقبله، وأن عليكم بالتخطيط الجيد، والتغلب على نواحي النقص الموجود ة في قواتنا المسلحة وفقكم الله. وانتهى الاجتماع بعد منتصف الليل بقليل. غادرت منزل الرئيس بعد منتصف ليل ٢٤ من أكتوبر بقليل، وبينما كنت أهم بركوب عربتي لحق بي أحد معاوني الرئيس وأخبرني بأن الرئيس يطلبني فلما عدت وجدته ينتظرني في مكتبه بالطابق الأرض فقال لي "لقد أبلغوني أنك ستقوم بتزويج إحدى بناتك وانك ترغب في دعوتي لحضور حفل عقد القران " فقلت له نعم يا سيادة الرئيس ولكنى وجدت أن الوقت غير مناسب للحديث في مثل هذا الموضوع الليلة بعد هذا الاجتماع الصاخب، فقال "لا لا مش مهم. متى سيكون تاريخ عقد القران؟ "، فأجبته بأنني لم احدده بعد انتظارا لمعرفة التواريخ المناسبة لسيادته، وبعد مناقشة قصيرة تحدد يوم ٩ من نوفمبر ليكون تاريخ عقد القران. [٢٠]

هوامش الفصل الثامن عشر

(١) زيارات الرئيس السادات الاتحاد السوفيتي:

الأولى أول مارس ٧١

الثانية ١١ من أكتوبر ٧١

الثالثة ٢ من فبراير ٧٢

الرابعة ٢٧ من أبريل ٧٢

(٢) اللواء المسيري مندوبا عن القوات الجوية بدلا من اللواء حسني مبارك .

(٣) هذا اللقاء مسجل وهو يثبت بوضوح أن السادات لم يكن ينوي الدخول في حرب في نوفمبر ٧٢، لأن قوة الطيران الرادعة لا يمكن بناؤها في خمسة شهور.

(٤) بعد إنهاء المؤتمر حضر إلى مكتبي كل من اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني واللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث، وكلاهما لم يحضر مؤتمر الرئيس في القناطر الخيرية يوم ٦ من يونيو ٧٢. سألني ماذا يقصد الوزير بتعليقه "هذا هو نفس كلام سعد الشاذلي" فذكرت لهم ما دار في مؤتمر القناطر الخيرية ورأيي بخصوص عدم ربط توقيت المعركة بإغلاق الفجوة بين قواتنا الجوية وقوات إسرائيل الجوية !! ألفت نظر القارئ إلى ما ورد في خطاب السادات إلى القيادة السوفيتية في أغسطس ٧٢ (صفحة ٤٣٣ من مذكرات السادات) حيث ذكر وجهة نظري

الخاصة نفسها بازدياد الفجوة اتساعا بين قواتنا الجوية وقوات العدو الجوية.

(٥) يلاحظ أن هذا التصريح يتعارض مع تصاريحهم السابقة لكنه يتمشى مع وجهة نظر الفريق صادق. وإن واجب الأمانة يفرض علي أن أكتب ما ذكره الفريق صادق. أن الروس كانوا يتهموننا دائما بأننا نبالغ في طلباتنا من الأسلحة، وأني أتعجب كيف يمكن للمارشال جريشكو أن يقول "يجب أن تحصلوا على ما تحتاجون إليه من أسلحة هجومية بالأعداد التي تطلبونها!!". بل أني أشك في أن يكون قد قال ذلك أصلا.

(٦) يلاحظ أن أقوال بريجنيف تتعارض مع الأقوال المنسوبة إلى المارشال جريشكو. ولكن هذه الأقوال قد تثير التساؤل عن نتائج مؤتمر قمة بريجنيف –نيكسون الذي انعقد في ٢٠ من مايو السابق والذي اتفق فيه على تهدئة الموقف في الشرق الأوسط هل كان هدف كل من جريشكو وبريجنيف تأجيل المعركة،وان كان كل منهما قد استخدم ألفاظا مختلفة؟

(٧) إن هذا الكلام من بريجنيف جاء قبل شهر من قيام السادات بطرد المستشارين والوحدات السوفيتية من مصر، يعني أن السوفيت كانوا يعلمون بما يدور في ذهن السادات وما يقوم بالتحضير له "

(٨) يقول حسنين هيكل في كتابه "الطريق إلى رمضان" إن السادات اخبر السيد محمود فوزي نائب رئيس الجمهورية يوم ٦ من يوليو بطريق عابر بأنه بقراره يفكر في طرد السوفيت من مصر. يدعو السادات في كتابه البحث عن الذات (صفحة ٣١٢) انه أخبر السفير السوفيتي بطرد السوفيت يوم ٦ من يوليو. والسادات يناقض نفسه بنفسه في مذكراته. فقد نشر في الصفحة ٤٣٤ ما يدعي أنها صورة زنكوغرافية عن الكتاب الذي أرسله إلى بريجنيف، وهذه الصورة الزنكوغرافية تؤكد أن السادات أستقبل السفير السوفيتي يوم ٨ من يوليو ما الذي يريد السادات أن يخفيه أو يتستر عليه؟ إن جميع الوثائق الرسمية تؤكد أنه اتخذ القرار يوم ٨ من يوليو، ومع ذلك فهو يصر على أن يدعي أنه اتخذ القرار يوم ٦ من يوليو. ترى هل هناك علاقة بين هذا التاريخ وبين زيارة شخصية كبيرة له !؟ سوف نتكلم عن هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل الثامن عشر.

(٩) من سخرية القدر أن يتم القبض على اللواء علي عبد الخبير نفسه بعد شهر من هذا الحادث بتهمة تدبير انقلاب ضد السادات وما هو أشد سخرية أن الأهداف التي كان ينادي بها علي عبد الخبير في نوفمبر ٧٢ والتي حوكم من أجلها وسجن وهي "إنقاذ مصر"، هي نفسها التي تؤيدها وتهلل لها اليوم وسائل الإعلام المصرية ! ما الخطأ وما الصواب؟ أني أستطيع أن أميز بينهما

ولكنى أشفق على شباب مصر. إنه سوف يتمزق ويضيع.

(١٠) يدعي السادات أن السبب الرئيسي لطرد صادق هو أن صادق لم يكن يرغب في دخول الحرب عام ٧٢، ولكن من يطلع على محضر مؤتمر القناطر في ٦ من يونيو ٧٢، يعرف تماما أن السادات هو الآخر لم يكن يرغب في دخول الحرب عام ٧٢.

– لقد كان هناك صراع خفي على السلطة بين الرئيس السادات وصادق، وكان السادات ينتظر الفرصة للتخلص منه. ولاشك أنه أخذ يعد نفسه خلال عام ٧٢ لهذا اليوم وربما كان تعيين حسني مبارك قادا للقوات الجوية هو إحدى الخطوات على هذا الطريق.

– كانت مغامرة النقيب عيد هي الضوء الأحمر الذي دفع السادات أن يعجل بضرب صادق.

(١١) قياسا على مفهوم السادات للعمالة والخيانة، لابد أن نيكسون رئيس الولايات المتحدة رجل خائن وعميل الاتحاد السوفيتى، لأن الاتحاد السوفيتي يفضل بقاءه

(١٢) تسجيلات هذا المؤتمر تؤكد مرة أخرى أن قرار الرئيس بالاستغناء عن المستشارين السوفيت قد أتخذ يوم ٨ من يوليو وليس يوم ٦ من يوليو ٧٢ كما يحاول السادات الآن أن يدعي.

(١٣) ما طبيعة هذه الاتصالات؟ هل بخصوص توريد أسلحة غربية؟ أم بخصوص السعي لحل سلمي؟ أن السادات لم يوضح ذلك ولكن كل هذا يوضح حقيقة يريد إخفاءها وهي أنه لم يكن راغبا في دخول المعركة حقا في خلال عام ٧٢.

(١٤) لم يذكر الرئيس محتويات أية من الرسالتين ولكنه نشر خطابه إليهم المؤرخ في ٣١ من أغسطس ٧٢ في كتابه في الصفحات ٤١٩– ٤٣٥ وهو استعراض للعلاقات المصرية السوفيتية منذ توليه الحكم في مصر.

(١٥) كلام يقوله السادات بغرض التسجيل فقط، أما الحقيقة فإنه لم يفعل شيئا في مجال التصنيع، فبينما تنتج إسرائيل طائرة مقاتلة سرعتها ٣،٣ ماخ تحاول مصر أن تصنع طائرة تدريب وبينما تنتج إسرائيل الدبابة فإن السادات يتعاقد على إنشاء مصنع عربات جيب لقد كانت مصر قبل أكتوبر ٧٣ تملك حوالي ٤٠٠٠ مركبة مجنزرة ما بين دبابة ومدفع ذاتي الحركة وعربة قتال مدرعة وليس بين كل هذا العدد مركبة مجنزرة واحدة من مخلفات الحرب العالمية الثانية، هل يستطيع السادات أن يذكر لنا كم عدد المجنزرات التي أضافها للقوات المسلحة في خلال السنوات الثمان الماضية؟ ما أسهل الاتهام إذا غابت لغة الأرقام !

(١٦) قام الرئيس بعزل الفريق صادق بعد أقل من ٤٨ ساعة من هذا المؤتمر.

(١٧) في خلال زيارتي لرؤساء الدول العربية تم الاتفاق على إشراك بعض وحدات من هذه

الدول في المعركة ولم يكن يدرى بهذا الاتفاق أحد من الحــاضرين في هذا المؤتمر سوى الرئيس والوزير. وعندما وجهت إلى الرئيس هذا السؤال فقد كنت أقصد أن أذكره بأن الوقت قد حان لكي نطلب إلى تلك الدول إرسال تلك القوات. ولكن عندما أجاب الرئيس بتلك الإجــابة لــم أشــأ أن أناقش معه هذا الموضوع وسط هذا الجمع الكبير وفضلت أن أوجل مناقشة هذا الموضوع معــه إلى حين آخر.

(١٨) قالها الرئيس بالإنجليزية ومعناها" نكون أو لا نكون ".

(١٩) أنى أشفق على من يدرسون التاريخ بصفة عامة، وتاريخ مصر بصفة خــــاصة. ســوف يصدم هؤلاء عندما يقرأون أحاديث السادات في تلك المؤتمرات الرسمية التي عقــدت مــا بــين أكتوبر ٧٠ وأكتوبر ٧٢، ثم بعد ذلك يطلعون على تصرفاته في الأعوام ٧٦- ٨١ وقيامه بعقــد المعاهدة المصرية الإسرائيلية في ٢٦ من مارس ٧٩ التي هي حل جزئي مهما حاول السادات أن يقول غير ذلك.

(٢٠) لقد ذكرت هذه القصة حيث إن ميعاد عقد قران كريمتي قد اختير من قبل اللواء علي عبــد الخبير توقيتا للقيام فيه بانقلاب ضد السادات

الفصل التاسع عشر

تعيين أحمد إسماعيل وزيرا للحربية

خلفيات الخلاف بين أحمد إسماعيل و الشاذلي:

لم أكن قط على علاقة طيبة مع أحمد إسماعيل. لقد كنا شخصيتين مخــتلفتين تماما لا يمكــن لهما أن تتفقا. وقد بدأ أول خلاف بيننا عندما كنت أقود الكتيبة العربية التي كانت ضــمن قــوات الأمم المتــحدة فى الكونجو عام ١٩٦٠. كــان العميد أحمد إسماعيل قد أرسلته مصر على رأس بعثة عسكرية لدراسة ما يمكن لمصر أن تقدمه للنهوض بالجيش الكونجولي. وقبل وصول البعثة بعدة أيام سقطت حكومة لومومبا التي كانت تؤيدها مصــر بعد نجاح انقــلاب عســكري دبــره الكولونيل موبوتو الذي كان يشغل وظيفة رئيس أركان حرب الجيش الكونجولى، وقد كانت ميول

موبوتو والحكـــومة الجديدة تتعارض تماما مع الخط الذي كانت تنتهجه مصر، وهكـــذا وجـــدت البعثة نفسها دون أي عمل منذ اليوم الأول لحضورها، وبدلا من أن تعود البعثـــة إلى مصر أخذ أحمد إسماعيل يخلق لنفسه مبررا للبقاء في ليوبولدفيل على أساس أن يقوم بإعداد تقريـــر عـــن الموقف.. وتحت ستـــار هذا العمل بقي مع اللجنة ما يزيد على شهرين. وفي خلال تلك الفتـــرة حاول أن يفرض سلطته علي باعتبار أنه ضابط برتبة عميد بينما كنت أنا وقتئـــذ برتبـــة عقيـــد، وبالتالي تصور أن من حقه أن يصدر إلي التعليمات والتوجيهات. رفضت هذا المنطق رفضا باتا وقلت له إنني لا اعترف له بأية سلطة عليّ او على قواتي. وقد تبادلنا الكلمات الخشنة حتى كدنا نشتبك بالأيدي. وبعد أن علمت القاهرة بذلك استدعت اللجنة إلى القاهرة وانتهى الصـــراع فـــي ليوبولدفيل ولكن آثاره بقيت فى أعماق كل منا. كنا نتقابل فى بعض المناسبات مقـــابلات عـــابرة ولكن كان كل منا يحاول ان يتحـــاشى الآخر بقدر ما يستطيع. واستمر الحال كذلك إلى ان عـــين اللواء أحمد إسماعيل رئيسا لأركان حرب القوات المسلحة المصرية فى مارس ٦٩.

وبتعيين اللواء أحمد إسماعيل ر.ا.ح.ق.م.م اختلف الوضع كثيرا، إذ لم يعد ممكنـــا أن أتحاشـــى لقاءه وألا يكون هناك أي اتصال مباشر بيني وبينه. إن وظيفته هذه تجعل سلطاته تمتـــد لتغطـــي القوات المسلحـــة كلها، لذلك قررت أن استقيل. وبمجرد سماعي بنبأ تعيين أحمد إسماعيل رئيسا للأركان تركت قيادتي في انشاص وتوجهت إلى مكتب وزير الحربية حيـــث قـــدمت اســـتقالتي وذكرت فيها الأسباب التي دفعتني إلى ذلك ثم توجهت إلى منزلي. مكثت في منزلي ثلاثـــة أيـــام بذلت فيها جهود كبيرة لإثنائي عن الاستقالة ولكني تمسكت بها، وفي اليوم الثالث حضـــر إلـــى منزلي أشرف مروان زوج ابنة الرئيس وأخبرني بأن الرئيس عبد الناصر قد بعثه لكـــي يبلغنـــي الرسالة التالية: "إن الرئيس عبد الناصر يعتبر استقالتك كأنها نقد موجه إليه شخصيا حيث إنه هو الذي عين أحمد إسماعيل "ر.ا.ح.ق.م.م ". أوضحت وجهة نظري في أحمد إســـماعيل وأننـــي لا أعني مطلقا أن أنتقد الرئيس، ولكني لا أستطيع أن أعمل تحت رئاسة أحمد إسماعيل، ولأن الثقة بيني وبينه معدومة. نقل أشرف مروان إجابتي إلى الرئيس عبد الناصر **ثم** عاد مرة أخرى ليقول "إن الرئيس تفهم جيدا وجهة نظرك. إنه يطلب إليك أن تعود إلى عملك وأنه يؤكد لـــك أن أحمـــد إسماعيل لن يحتك بك ". وبناء على هذا الوعد عدت إلى عملي في اليوم الرابع. وهنا يجـــب أن، أؤكد أن جمال عبد الناصر قد وفى بما وعدني به. ففي خـــلال الأشهر الستة التي قضاها اللـــواء أحمـــد إسماعيل في وظيفتـــه ر.ا.ح.ق.م.م ، لم تطأ قدماه قط قاعدة انشاص حيث كانت تتمركز القوات الخاصة التابعة لي ، كما أنه لم يحاول قط أن يحتك بي.

ومنذ أن قام الرئيس عبد الناصر بعزل أحمد إسماعيل من منصب ر.ا.ح.ق.م.م في سبتمبر ٦٩، فإني لم أره قط إلى أن قام الرئيس السادات باستدعائه من التقاعد في ١٥ مايو ٧١، لكي يعينه رئيسا لهيئة المخابرات العامة. وهكذا بينما كنت أنا أشغل منصب ر.ا.ح.ق.م.م كان أحمد إسماعيل يشغل منصب رئيس هيئة المخابرات العامة، وبالتالي أخذنا نتقابل أحيانا في بعض المناسبات الرسمية أو الاجتماعية وكنا نتبادل التحيات الشكلية ولكن علاقاتنا بقيت باردة.

كيف عين أحمد إسماعيل وزيرا للحربية:

في منتصف يوم ٢٦ أكتوبر ٧٢ أبلغني مكتب الرئيس أن الرئيس يطلب حضوري إلى منزله في الجيزة في تمام الساعة ١٥٣٠ من اليوم نفسه، وفي هذه المقابلة أبلغني الرئيس انه قرر إقالة وزير الحربية وانه يعتبرني منذ هذه اللحظة قائدا عاما للقوات المسلحة بالنيابة، ونظر في ساعته. سألته عما إذا كان قد اخبر صادق بهذا القرار فقال لا، سألته عما إذا كان ينوى إخباره بذلك أم انه سيترك لي ذلك؟ أجاب بأنه سيرسل له سكرتيره الخاص بعد حوالي ساعتين من لقائه معي لكي يعطى لي الفرصة لاتخاذ بعض الإجراءات الأمنية.

أخبرني الرئيس بعد ذلك بقراره بطرد كل من اللواء عبد القادر حسن واللواء علي عبد الخبير، ولم أستطع أن أجادله فيما يتعلق بهذا القرار، حيث إنه كان يعتبر هذا القرار تأمينا شخصيا له، باعتبارهما من مؤيدي الفريق صادق. ولكنه عندما أخبرني بإقالة كل من اللواءين محمود فهمي قائد البحرية، وعبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث، تدخلت أملا أن أنقذهما فوجه إلي الرئيس كلامه مندهشا "كيف تقول ذلك ؟ ألم تسمع ما قالاه في مؤتمر أمس الأول ؟ لقد كنت أظن أن عبد المنعم واصل ضابط ممتاز وأنه "راجل "! ولكن هل سمعت ما قال؟ ". فقلت :"إن عبد المنعم واصل "راجل" وضابط ممتاز. أن كل ما قاله هو إبداء قلقه من الخسائر المحتملة. كان ما قاله عن الساتر الترابي هو حقيقة يجب أن ندخلها في الاعتبار. أني أرجو سيادتكم أن تعطوه الفرصة لكي يثبت ذاته..أما بخصوص اللواء محمود علي فهمي فهو من اكفأ ضباط البحرية لدينا وان طرده سيكون خسارة كبيرة لنا". أجاب الرئيس بشيء من الحدة " قد تكون على معرفة بعبد المنعم واصل لأنه ضابط جيش مثلك. أما محمود فهمي فأنا أعرفه أكثر منك أنه من هذا الطراز الذي يحب الإطراء والتفخيم مثله في ذلك مثل صادق. لقد اكتشف صادق هذه الصفات في محمود فهمي كما أن محمود فهمي قد اكتشف ذلك في صادق فأخذ كلاهما يكيل المديح للآخر إلى أن صدق كل منهما ما يقوله الآخر. أني اعرفهما أكثر منك".

وبعد فترة سكون قال الرئيس "والآن لنفكر معا فيمن سيكون وزيرا للحربية" لم أعلق. واستمر

الرئيس" إني أفكر في أحمد إسماعيل "؟ لقد فوجئت بالاسم وعلقت بطريقة فورية سيادة الرئيس إن هناك تاريخا طويــلا من الخلافات بيني وبــين أحمد إسماعيل يمتد إلى حوالي ١٢ سنة مضــت منذ أن تقابلنا في الكونجو عام ٦٠، وأن علاقاتنا حــتى الآن تتسم بالفتور و البرود ــ وأعتقد أن التــعاون بيننا سيكون صعبا". قال الرئيس إني أعلم تماما بتاريــخ هذا الخلاف وتفاصيله، ولكني أؤكد لك أن علاقته بك ستكون أفضل بكثير من علاقتك بصادق ". كررت وجهة نظري وأبــديت مخاوفي من أن هذه العلاقة قد تؤثر على الموقف العسكري بينما نقوم بالإعداد للمعركــة التــي سوف تحدد مصير بلدنا لعدة سنوات قادمــة، ولكنه كرر وجهة نظره و أكد لي أنه لــن يحــدث شيء من هذا الذي أتخوف منه. لقد كان الموقف يتطلب مني قرارا فوريا: إما أن أقبل و إمــا أن أستقيل.

لقد كان علي أن أجري في ذهني تقديرا سريعا للموقف وأن أصل إلى قراري بهــذا الخصــوص أثناء تلك المقابلة. لقد كنا قائمين بالإعداد لمعركة المصير، ولقد بذلت مجهودا خلال عام ونصف العام كرئيس للأركان العامة ولقد مضت الأيام الصعبة، وأن الأيام المقبلة لن تكون مثــل الأيــام الماضية. وإنه ليصعب علي أن أستقيل وأترك خلفي الجهد والعرق اللذين بذلتهما دون أن أستمتع بنصر تحققه القوات المسلحة بعد هذا العناء كله. قلت لنفسي: قد تتحقق تأكيدات الرئيس بأنه لــن يحدث خلاف بيننا كما تحققت تأكيدات الرئيس عبد الناصر عام ٦٩. وعموما فــإذا لــم تتحقــق تأكيدات السادات فإنه يمكنني أن أستقيل عندئذ. وعلاوة على ذلك فلو أنني استقلت الآن فإن هــذه الاستقالة سوف تفسر على إنها تضامن مع صادق في الاستقالة. وقد يفسرها بعضهم بأني لا أريد دخول الحــرب في حين أن الحقيقة هي عكس ذلك تماما. وهكذا أقنعت نفسي بعــدم الاســتقالة، وانصرفت من منزل الرئيس بعد أن امتدت مقابلتنا إلى حوالي الساعة.

وبينما أنا في مكتبي تلقيت أول مكالمة هاتفيــة من أحمد إسماعيل في حوالي الســـاعة ٢٢٣٠ يخبرني فيها بأن السيد الرئيس قد استدعاه إلى منزله وعينه وزيرا للحربية وقائدا عامــا للقــوات المسلحة. وفي المكالمة نفسها أبلغني بقرار الرئيس بطرد اللواء محمود فهمي قائد البحرية وتعيين اللواء زكري بدلا منه.

لماذا اختار السادات الفريق أحمد إسماعيل:

أن طرد صادق وتعيين أحمد إسماعيل في مكانه كانا خطوة مهمة اتخذها السادات لتدعيم مركــزه كما قلت فيما سبق. فقد كان صادق هو أحد الرجال الثلاثة الذين أعتمد عليهم السادات في انقلاب ١٥ مايو ٧١، ونتيجة لذلك فقد كان صادق يشعر بأنه يجب أن يكون لــه نصــيب أكبــر فــي

ممارســة السلطة. حيث كان يعبر عن آرائه بصراحة وعلنيــة حتــى وإن كانــت هــذه الآراء تتعارض مع آراء السادات كان صادق بالإضافة إلى ذلك شخصــية محبوبــة نتيجــة اللمســات الانسانيــة والخدمات التي يؤديها للكثيرين من الضباط والجنود كتحسين الرواتــب والمعاشــات وتوزيع الأوسمة، وإيفاد بعضهم في رحلات ترفيهية إلى الخارج، والإغداق على بعض المحيطين به بالأموال و الامتيازات الخ. وأن شخصية بهذه المواصفات لابد إنها تنازع رئيس الجمهوريــة سلطاته وتعارض الهدف الذي كان يعمل الســادات من أجله، والذي كان يرمي إلى أن يجعل من نفسه حاكما مطلقا لا ينازعه في السلطة أحد. وقد وجد السادات في أحمــد إســماعيل الصــفات جميعها التي يبحث عنها في شخص يعينه وزيرا للحــربية وقائدا عاما للقوات المسلحة، وكان أهم هذه الصفات ما يلي:

١- كراهيته الشديدة لعبد الناصر:

كان أحمد إسماعيل يكره عبد الناصر كراهية شديدة لأنه قام بطرده مــن القــوات المســلحة مرتين. كــانت المرة الأولى في أعقاب هزيمة يونيو ٦٧، حيث كان أحمد إسماعيل يشغل منصب رئيس أركان جبهة سيناء، ولكن عبد الناصر أعاده إلى الخدمة بعد أن تدخل بعض الأصدقاء لديه لكي يعفو عنه. ثم قام بطرده من القوات المسلحة للمرة الثانية في سبتمبر ٦٩ بعد أن شغل منصب ر.ا.ح.ق.م.م لمدة ستة اشهر فقط وقد جــاء الطرد هذه المرة في أعقاب عملية إغارة ناجحة قام بها العدو في منطقة البحر الأحمر. ففي صباح يوم ٩ من سبتمبر ٦٩ عبر العدو خليج الســويس بقوة بحرية برمائية وأنزل في منطقة الزعفرانة قوة تتكون من ١٠ دبابات وعدد مــن العربــات المجنزرة، وقامت هذه القوة بمهاجمة عدة أهداف في المنطقة ثم انسحــبت بعــد حــوالي عشــر ساعات من نزولها دون أي تدخل من القيادة العامــة للقوات المسلحة، بل حتى دون أن يعلــم ر. ا. ح. ق. م .م بهذه الإغارة إلا بعد انسحابها!! وكان العدو قد قام بعمليــة إغارة في الليلة السابقة دمر لنا خلالها قاربين من قوارب الطوربيد التي كانت تتمركز في المنطقة. وهكذا قام العدو بتنفيذ إغارته دون أي تدخل من جانب قواتنا الجوية أو البحرية.

٢- ولاؤه المطلق للسادات:

بعد أن بقى أحمد إسماعيل متقاعدا لمدة تزيد على عشرين شــهرا، قــام الــرئيس الســادات باستدعائه إلى الخدمة وعينه رئيســا لهيئة المخابرات العامة، و ها هو ذا بعد ثمانية عشر شهرا- أخرى يعينه وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة. لقد كان ذلك أكثر مما يســتطيع أحمــد إسماعيل أن يحلم به. لقد كان يعتقد أن حياته العملية قد انتهت في سبتمبر ٦٩، ولكن ها هــو ذا

السادات يبعث فيه الحياة من جديد. لقد كان ينظر إلى السادات على أنـــه ســيده وولـــي نعمتـــه. وبالتالي فلا يجوز له أن يعارضه أو يعصى أمرا من أوامره

٣- شخصيته الضعيفة:

لقد كان لطرد أحمد إسماعيل من الخدمة في القوات المسلحة مرتين خلال عهد جمال عبد الناصر أثر كبير على أخلاقه، حـــيث أصبح بعد ذلك يخشى المسئولية واتخـــاذ القرارات، وأصبح يفضل أن يتلقى الأوامر وينفذها على أن يصدرها، وقد زاد في ترسيخ هذه الصفات الحادث الذي يتعلق بقيام العدو بسرقة محطة رادار كـــاملة من منطقة البحر الأحمر في ديسمبر ٦٩. ومع أن هـــذه الواقعة حدثت بعد عزله من منصب ر.ا.ح.ق.م.م بثلاثة اشهر، فإن أسمه كان قد ذكر في أثنـــاء التحقيق في هذا الحـــادث على أساس أنه اتخذ قرارا نتج عنه إعطاء الفرصة للعدو لتنفيـــذ هـــذه العملية.

لقد وقع حـــادث سرقة الرادار خلال فترة حرب الاستنزاف، وكان العدو خلال النصف الثاني من عام ٦٩ يستخدم قواته الجوية في قصف وتدمير أهدافنا الحيوية بصفـــة عامة وأهداف ومواقع الدفاع الجوي بصفة خاصة. ورغبة منا في امتصاص بعض هجمات العدو الجوية، فقـــد أقمنـــا بعض المواقع الهيكلية لمواقع الرادارات والدفاع الجوي، ولكن هذه المواقع الهيكلية لم تخدع العدو ولم يحدث قط أن قام بقصفها بينما استمر في قصف مواقعنا الأصلية. لقد كـــان أهم مـــا يـــنقص المواقع الهيكلية هو مظاهر الحيـــاة التي لا يمكن توفيرها إلا بالرجال [١]. كان موقـــع الـــرادار الأصلي يشغله حوالي ٣٠٠ رجل (فنيون، وأطقم رشاشات ومدافع مضادة للطائرات، وعناصـــر إدارية، الخ)، بينما كان الموقع الهيكلي ليس به فرد واحد. وهنا فكر أحـــد القادة المحليـــين فـــي منطقة البحـــر الأحمر لماذا لا ننقل الرادار الأصلي ومـــعه عشرة أفراد فقط، لتشغيله إلى الموقع الهيكلي بينما ننقل الرادار الهيكلي إلى الموقع الأصلي؟ لقد اعتقد هذا -الضابط- أنه بفكرته هـــذه سوف ينجح أيضا في خداع وسائل استطلاع العدو الإلكترونية التي تحدد مواقع راداراتنا نتيجـــة النبضات التي ترسلها أثناء التشـــغيل اعتمادا على أن المسافة بين الـــرادار الأصـــلي والـــرادار الهيكلي حوالي كيلو متر واحد. وأن هذه المسافة التي تعتبر قصيرة نسبيا يمكن أن تنخـــدع بهـــا وسائل الاستطلاع الإلكتروني. ولاسيما إنما كانت نتائجها تتعارض مع ظواهر الحياة الأخرى التي يحصل عليها العدو نتيجة التصوير الجوي. وكأية أفكار جديدة فقد أرسلت الفكرة إلى القيادة العامة للحصول على موافقة رئيس أركان حرب القوات المسلحـــة فوافق على الفكرة. لم ينخـــدع العدو بهذه الإجراءات وقام بعملية إغارة ليليـــة على الرادار المنعزل الذي كان هدفا مثاليا لعملية إغارة

ناجحة. فطبعا لنظام الخدمة والراحة لم يكن مستيقظا لحراسة الرادار سوى فردين. بينما كان الثمانية الآخرون نائمين. قام العدو بهجوم ليلي مفاجئ اشترك فيه ٦٠ رجلا فقتل الحارسين وقتل وأسر باقي أفراد الطاقم ثم سيق الرادار وعاد به، وقد حدث ذلك كله في سكون وهدوء لم يتنبه له الموقع الأصلي الذي كان يبعد عن موقعه كيلومترا واحدا.

٤- كان رجلا مريضا:

لقد كان أحمد إسماعيل رجلا مريضا وكان السادات يعلم ذلك. لقد مات أحمد إسماعيل بمرض السرطان في ديسمبر ٧٤ في مستشفى ولنجتون في لندن، وقد سجل الأطباء في تقريرهم الطبي أن إصابته بهذا المرض لابد إنها كانت واضحة وظاهرة قبل ذلك بثلاث سنوات على الأقل. وفى إحدى خطب الرئيس عام ١٩٧٧، اعترف بأنه كان يعلم بمرض أحمد إسماعيل قبل و أثناء حرب أكتوبر ٧٣، وأن الأطباء أخبروه بأن حالته الصحية لا تسمح له باتخاذ القرارات وأن مثل هذا الموقف يجب ألا يمر دون مناقشة جادة أن الصحة هي هبة من الله يشكر أصحابها ربهم على ما آتاهم به من فضله وكرمه، ولا يجوز لأحد أن يتباهى بها على غيره من المرضى. ولكن هل يعني ذلك أن نكلف المريض بما لا يستطيع ولاسيما إذا كان خطؤه نتيجة مرضه قد تعرض للخطر حياة الآخرين؟ إننا لكي نمنح رخصة قيادة سيارة خاصة لأحد الأفراد نقوم بإجراء الكشف الطبي عليه للتأكد من سلامة نظره وقدرته على قيادة السيارة حتى لا تعرض حياة الآخرين الذين يسيرون على الطريق العام للخطر فكيف – الحال هكذا- نقوم بتعيين رجل مريض لا يستطيع أن يتخذ قرارا، قائدا عاما للقوات المسلحة!! إن أي خطأ يرتكبه هنا الرجل لن يؤثر على حياة آلاف المواطنين فحسب بل إنه قد يؤثر أيضا على تاريخ ومستقبل أمة! إن اعتراف السادات بتعيين أحمد إسماعيل قائدا عاما- وهو يعلم بمرضه- يعتبر جريمة كبرى يرتكبها في حق الشعب والوطن لا لشيء إلا لكي يصون مصالحه الشخصية ونزعته الدكتاتورية.

٥- كان شخصية غير محبوبة:

كانت شخصية أحمد إسماعيل من الشخصيات غير المحبوبة بين أفراد القوات المسلحة. كانت مناقشاته مع الضباط والجنود تتسم بالخشونة والغلظة. كان لا يعير اهتماما للعوامل النفسية والمشكلات العائلية للأفراد، في الوقت الذي يهتم فيه هو شخصيا بمشكلاته العائلية ويقبل الوساطة من الوزراء ورجال الدولة الأقوياء، ولقاء ذلك يطلب أيضا وساطتهم لخدمة أفراد عائلته، فكان ذلك يبعده عن قلوب الضباط والجنود.

٦- كان على خلافات مع (ر.ا.ح.م.م):

كان الخلاف بين أحمد إسماعيل وبين سعد الدين الشاذلي أيضا من الأسباب القوية التي تدعو السادات إلى تعيينه وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة. لقد كان السادات يطبق مبدأ "فرق تسد" الذي مارسه الحكام الطغاة منذ فجر التاريخ.

ولهذه الأسباب كلها فأني أقرر أن تعيين احمد إسماعيل وزيرا للحربية وقائدا عاما كان قرارا خاطئا. كان قرارا لا يخدم مصالح مصر بل يخدم مصالح السادات وطموحه فقط لقد كان في استطاعتنا أن نحقق خلال حرب أكتوبر ٧٣ نتائج أفضل بكثير مما حققناه في هذه الحرب لو أن هناك قائدا عاما أكثر قوة وأقوى شخصية من الفريق أحمد إسماعيل. لو تيسر هذا لكان في إمكاننا أن نكبح جماح الرئيس السادات ونرفض تدخله في الشؤون العسكرية البحتة. لو تيسر هذا لما كان في استطاعة العدو أحداث ثغرة الدفرسوار. ولو افترض وحدثت الثغرة لكان في استطاعتنا أن نقضي عليها فور وقوعها، لو تيسر قائد عام قوى يستطيع معارضة السادات لاستمر القتال طبقا للأسلوب الذي نريده وليس طبقا للأسلوب الذي يختاره العدو.

أني اشعر بالأسف وأنا أتكلم بمثل هذه الصراحة على رجل ميت ولكنه السادات هو الذي دفعني إلى ذلك. إنه يريد أن يخفي الحقائق عن الشعب فيدعي أن سبب الثغرة هو أنني ضيعت ليلة كاملة لكي أشكل فيها قيادة أنافس بها غريمي أحمد إسماعيل، وهو إدعاء باطل لا أساس له من الصحة. [٢] وبالإضافة إلى ذلك فإن ما قلته هو حقائق وهو ملك التاريخ تاريخ مصر وتاريخ العرب. وأني أرجو الله تعالى أن تتعلم الأجيال المصرية والعربية القادمة من تلك الأخطاء التي ارتكبها أسلافهم.

أحمد إسماعيل والمحسوبية:

أني أومن بضرورة تكافؤ الفرص، وأومن بأن الحصول على وظيفة أو الترقي إلى درجة أعلى يجب أن يخضع لكفاءة وقدرات الفرد دون أن يكون للوساطة والقرابة اعتبار في ذلك. وتطبيقا لهذا المبدأ فإنه لم يحدث مطلقا أنني قمت بدفع أحد أفراد عائلتي إلى أي منصب أو أية ترقية. وإن مثل هذا التصرف يعتبر أمرا غريبا في مصر حيث الوساطة والقرابة هما من الأمور المعترف بهما في التعامل بين الأفراد على الرغم من كل ما يقال خلاف ذلك. ولتغطية مثل هذه الأفعال فإن الأشخاص ذوي السيطرة والقوة يتبادلون الخدمات فيما بينهم، فيقوم كل منهم بتأدية الخدمات والوساطات لعائلة الآخر وبذلك ينكر الجميع أن أيا منهم قد أدى خدمة لأحد أقربائه بطريق مباشر، وتأييدا لذلك فإنه يندر أن تجد أحدا من أبناء هذه الفئة المحظوظة لا يشغل منصبا ممتازا.

بعد تعييني رئيسا للأركان وجدت نفسي هدفا لكثير من الوساطات، ولكن حيث أني لم أكن أنتظر أية وساطة من أحد فقد كنت أرفض كل وساطة غير قانونية. كنت أدرس كل موضوع على حدة وأتخذ فيه القرار الذي يرضي ضميري، يتمشى مع العدل وروح القانون، ونتيجة لذلك فقد رفضت الكثير من الوساطات مما آثار ضدي بعضـــا من الشخصيات القوية، وكان من بين الحالات التي رفضتها ابن إسماعيل فهمي الذي كان وقتئذ وزيرا للسياحة. (٣)

لقد كـــان ابن إسماعيل فهمي جنديا في القوات المسلحة، وفي أحد الأيام عرضت علي مذكرة من هيئـــة التنظيم والإدارة تقترح إنهاء خدمة الجندي المذكور حيث إنه مطلوب للعمـــل فـــي هيئـــة المخابرات العامة فرفضت، فقيل لي إنه ابن إسماعيل فهمي، فقلت لهم حتى ولو كان ابن السادات فأني لن أخالف القانون. حاول رئيس هيئة التنظيم أن يقنعني بأن هذه الحالة في حـــدود القـــانون اعتمادا على مادة في قانون التجنيد تعطي وزير الحـــربية الحق في إعفاء أي فرد أو مجـــموعة أفراد من الخدمة العسكرية الإجبـــارية إذا كان يقوم بعمل من الأعمال المهمة التي تســـاعد فـــي المجـــهود الحربي، وحيث أن المخابرات العامة تعتبر من الأجهزة المهمة في الدولة التي تساعد في المجهود الحربي فإن حالة هذا الجندي تعتبر في حدود القانون. لم أقتنع بهذا التفسير وقلت له كان هذا إسراف في التفسير ولا يتمشى مع روح القانون. ما هو هذا الدور المهم الذي سوف يلعبه ابن إسماعيل فهمي في المجهود الحربي؟ لماذا لم نوافق على التماس وزيـــر الكهربـــاء إعفـــاء مهندسي الكـــهرباء، على الرغم من أنه لم يحدد اسما معينا، وعلى الرغم من أنهـــم مطلوبـــون لإدارة شبكة الكهرباء التي هي في الواقع جـــزء مهم من المجهود الحربي ؟ لماذا لم نوافق على التماس وزير التربية والتعليم إعفاء المدرسين على الرغم من أن عدم إعفائهم سوف يؤثر علـــى عدد الفصول التعليمية الجديدة التي سوف يقوم بافتتـــاحها في العام الدراسي الجديد؟ لم أقتنع بأن عدم إعفاء ابن إسماعيل فهمي قد يؤثر على المجهود الحربي للدولـــة، وبالتـــالي أشـــرت علـــى المذكرة"لا أوافق " ووقعت على ذلك.

وبعد حوالي يومين اتصل بي اللواء أحمد زكي وكيل وزارة السياحة، وهو زميل قديم كـــان قـــد ترك القوات المسلحة منذ سنتين فقط، وكـــان قبل ذلك رئيسا لهيئة التنظيم والإدارة فـــي القـــوات المسلحة ويعرف قانون التجنيد معرفة جيدة كلمني احمد زكي في موضوع ابن إســـماعيل فهمـــي فكررت له وجهة نظري وكرر هو نص المادة التي تعطي لوزير الحربية الحق في إعفـــاء مـــن يتأثر المجهود الحربي نتيجة عدم إعفائهم، فقلت له "حـــسنا يمكـــن للـــوزير أن يعفيـــه " فـــرد قائلا"ولكنك وضعت الوزير في مأزق بوضع رأيك هذا" ثم اقترح أن تعاد كتابة مـــذكرة جديـــدة

وتعرض عليّ من جديد فإذا كنت ما أزال غير مقتنع بالموافقة فإني أفوض الأمر للوزير وبذلك أترك له الباب مفتوحاً، ولكني رفضت هذا الاقتراح. (٤)

وقد علمت فيما بعد أن مذكرة أخرى بالموضوع عرضت على الوزير مباشرة دون أن تمر علي، وأن أحمد إسماعيل- الذي كان يعلم بالقصة من أولها إلى آخرها- صدق على إنهاء خدمة الجندي ابن الوزير إسماعيل فهمي حيث أن بقاءه في الخدمة وعدم نقله إلى المخابرات العامة سوف يؤثران على المجهود الحربي للدولة. وبعد فترة وجيزة من نقل ابن إسماعيل فهمي إلى المخابرات العامة قامت المخابرات العامة بإنهاء خدمته بها وتمكن والده من أن يجد له وظيفة في نيويورك أكثر راحة وأوفر مالا! وهكذا بينما كان أبناء مصر يقتحمون قناة السويس في أكتوبر ٧٣ ويموتون وهم يهتفون "الله اكبر"، كان ابن إسماعيل فهمي وغيره من أبناء الطبقة المحظية في مصر يتسكعون في شوارع نيويورك وغيرها من المدن الأمريكية والأوروبية. لم يكن أحمد إسماعيل ليقدم هذه الخدمة إلى إسماعيل فهمي دون مقابل. لقد كانت صفقة مشتركة كانت نتيجتها أن عين ابن أحمد إسماعيل أيضا ضمن وفد مصر في الأمم المتحدة في نيويورك.

لم أخلق من مشكلة ابن إسماعيل فهمي موضوع خلاف ومجابهة بيني وبين أحمد إسماعيل، فقد كانت هناك موضوعات أخرى أكثر أهمية وأشد خطورة تستحوذ على تفكيري وجهودي، وهي إعداد القوات المسلحة للحرب، وكل ما هو دون ذلك يمكن التغاضي عنه ولو مؤقتا.

علاقتي مع أحمد إسماعيل في أثناء الحرب وبعدها:

في خلال الأحد عشر شهرا التي قضاها أحمد إسماعيل وزيراً للحربية قبل حرب أكتوبر ٧٣ لم تكن هناك خلافات تذكر بيننا. كان كل منا يحاول أن يتحاشى هذه الخلافات بقدر ما يستطيع. لقد أستمر في ممارسة سلطاته المباشرة على إدارة المخابرات الحربية وإدارة شئون الضباط، شأنه في ذلك شأن جميع من سبقوه في هذا المنصب. أما بخصوص العمليات فلم يكن هناك إلا القليل لكي نناقشه، كانت لدينا خططنا التي أدخلنا عليها- بالتأكيد- بعض التعديلات الطفيفة نتيجة للتطور المستمر في قوات العدو وفي قواتنا، ولكن جوهرها بقي كما هو. (٥)

في أثناء الحرب كان الموقف مختلفا. لقد قاسيت الكثير من كل من الرئيس السادات والفريق أحمد إسماعيل (٦). كانا يعترضان على كل اقتراح أتقدم به وعندما يكتشفان بعد يومين أو ثلاثة أن وجهة نظري كانت سليمة يكون الوقت قد فات. استمر الوضع على هذا الحال منذ ١٢ من أكتوبر ٧٣ وحتى وقف إطلاق النار، بل حتى بعد ذلك. لابد أن السادات اقتنع بينه وبين نفسه انه

هو ووزير الحربية كـانا على خطأ في قراراتهما الخاصة بإدارة العمليات الحـربية وأنني كنت على صواب. ولاشك أن السادات قد أقتنع بأنه لو عرفت الحقائق لأهتز موقفه ولأصبح الفريـق الشاذلي شخصية شعبية تهدد سلطانه وجيوشه. وهنا عمد بعد الحرب إلى أن يكيل ألي اتهامـات باطلة هو أول من يعلم ببطلانها لأنه هو خالقها. وسكت ولم أرد، لا عزوفا عن ذكـر الحقيقـة، حيث أن هذه الحقائق ملك للتاريخ وليس من الأمانة أخفاها، ولكني صمت لأن الوقت لـم يكـن مناسبا لكي أتكلم. لم أكن أريد أن أحكي كيف خدع السادات أشقاءنا السوريين ؟ لم أكن أريد أن أعطيه الفرصة ليتهمني بأنني أعرقل جهوده للحصول على السلم المشرف الذي كان ينادى بـه، وهو الانسحاب الكامل من جميع الأراضي المحتلة و إقامة الدولة الفلسطينية، أما الآن و بعـد أن سقطت جميع الأقنعة- فقد حان الوقت لكي أقول كلمة الحق للشعب العربي الكريم.

كان أحمد إسماعيل أقل سوءا من السادات إنه لم يخف قط كراهيته لي في مقابلاته الخاصـة ولكنه لم يهاجمني قط بطريقة علنية. لقد حكى لي أحد النقاد العسكريين الإنجليز قصة طريفة عن هذا الموضوع، بينما كنت سفيرا لمصر في لندن. لقد ذهب هذا الرجل - لا أريد أن أذكر اسـمه الآن- لمقابلة أحمد إسماعيل لمناقشته في بعض الأمور التي تتعلق بالحرب وقد نصحه المصريون الذين رتبوا المقابلة بالا يذكر أسم سعد الشاذلي مطلقا خلال المقابلة، وكما قال لـي هـذا الناقـد الإنجليزي أخـذ يتحـاشى ذكر أسمي، ولكنه وجد ذلك مستحيلا. فاستخـدم منصب (ر.ا.ح.ق. م. م) كبديل عن ذكر أسمي. وعلى الرغم من ذلك فقد تجهم وجه أحمد إسماعيل وهاجمني بما فيه الكفاية. ومع ذلك كله فإن الله كبير ذو اقتدار يمهل ولا يهمل ولابد أن يظهر الحق مهمـا طـال الظلم. وإليكم القصة التالية التي تظهر قوة الخالق وعظمته:

بينما كنت سفيرا لمصر في لندن حضر أحمد إسماعيل إلى لندن للعلاج خلال عام ٧٤، وقـد قمت بزيارته في المستشفى عددا من المرات وفي زيارتي الأخيرة له كانت حالتـه قد تـدهورت ولابد أنه شعر بقرب منيته، وأراد أن يطهر نفسه من الأوزار التي ارتكبها ضدي فقال " إنني أعلم انك كنت هدفا لهجوم شـرس وظالم، ولكنى أريد أن أؤكد لك أنني لست أنا الذي وراء ذلك. إنه الرئيس والرئيس شخصيـا. وحتى الفيلم التسجيلي الذي أعددناه عن حرب أكتوبر، فقـد أمـر بإسقاط اسمك وصورك منه، ولكني قلت له إن سعد الشاذلي جزء من تاريخ هذه الحرب ولا يمكن إسقاطه. وقد تمكنت بصعوبة أن أقنعه بأن تظهر في عدد من الصور". كنت انظر إلى رجل يتكلم وهو على فراش الموت وشعرت وقتئذ بتفاهة الحياة وقلت لنفسي لماذا يتصـارع الناس في هـذه الحياة ؟ أن الصراع الشريف هو في مصلحة البشرية أما الصراع غير الشريف والادعاء الباطل

على الخصوم فهما عملان لا أخلاقيان سوف يحاسب الفرد عليهما في دنياه وفي أخرته. اللهم لا شماتة، اللهم أنت القوي الأكبر، اللهم وفقني لأن أقول كلمة الحق وألا اظلم أحدا أبدا. نظرت إلى الرجل المريض وهو على فراش الموت وقلت له "الله أعلم بالحقائق والأسرار كلها. إنه يعلم أيضا ما نجهر به وما نخفي، الله يجازي كل فرد منا بقدر ما يعلمه عنه " هل نسي السادات الذي يطلق على نفسه لقب الرئيس المؤمن أنه سيرقد يوما ما على فراش الموت وأنه سوف يمر أمام نظره شريط من الأخطاء والمظالم التي اقترفها في حياته وأن التوبة لن تقبل منه وهو على فراش الموت ؟! إن الإيمان هو علاقة بين المرء وخالقه ولا يمكن أن يكون بقرار جمهوري يصدره الحاكم ليضيف لنفسه لقبا جديدا. إن الإيمان الحقيقي هو صفة لا يعلمها إلا الله عز وجل حيث إنه هو الذي يعلم ما في أعماق قلوبنا.

هوامش الفصل التاسع عشر

(١) لقد أخذنا درسا من هذا الموضوع لنستفيد منه خلال حرب أكتوبر ٧٣ وذلك عند بناء الكباري الهيكلية. لقد كانت الكباري الهيكلية التي استخدمناها خلال حرب أكتوبر تماثل تماما الكباري الحقيقية فيما عدا أن حمولتها كانت ٤ أطنان بدلا من ٨٠ طنا، ولخلق الحياة على هذه الكباري قمنا باستخدامها في عمليات العبور الخفيف أي العربات الخفيفة التي يقل وزنها عن ٤ أطنان ، وبالتالي قامت بواجبها على الوجه الأكمل وقام العدو بتركيز هجومه عليها بالدرجة نفسها التي كان يهاجم بها الكباري الأصلية.

(٢) القصة الكاملة عن الثغرة في الباب السابع من هذا الكتاب.

(٣) عين بعد ذلك وزيرا للخارجية اعتبارا من نوفمبر ٧٣ وظل يشغل هذا المنصب حتى نوفمبر ١٩٧٨.

(٤) يلاحظ أن إسماعيل فهمي لم يتصل بي قط وبالتالي فإن موقفه من الناحية القانونية سليم ١٠٠%، ولكن هذه القصة تبين بوضوح كيف تتم الوساطة بطريق غير مباشر.

(٥) كما ورد في الباب الأول.
(٦) التفاصيل جميعها واردة في الباب السابع.

الفصل العشرون

ماذا بعد أقاله صادق

إنشاء ٣٠ مصطبة جديدة:

بعد أيام قليلة من تعيين أحمد إسماعيل وزيرا للحربية، تم تخصيص ٢٣ مليون جنيه مصري من ميزانية الطوارئ لإتمام التحصينات، وإن الأمانة التاريخية تقتضي أن أقرر هنا أن الفريق صادق قد سبق له أن طلب اعتماد هذا المبلغ للغرض نفسه ولكنه لم يوفق في الحصول على التصديق المالي. لقد كنا نطلب هذا المبلغ لإنشاء مصاطب على الضفة الغربية ولتعلية الساتر الترابي الذي في ناحيتنا، وكان هذا هو الذي دفع اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث إلى إثارة هذا الموضوع أثناء اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ٢٤ من أكتوبر ٧٢، و أثار غضب الرئيس السادات. وبعد ان حصلنا على الاعتماد المالي بدأنا فوراً في العمل الجار لتنفيذ هذه التحصينات. وقبل نهاية عام ٧٢ كنا قد بنينا ٣٠ مصطبة يصل ارتفاع كل منها إلى ٢٢ مترا، وتحتوى الواحدة منها على ١٨٠٠٠٠ متر مكعب من الأتربة. كانت هذه المصاطب تشكل أحد التجهيزات الهندسية المهمة لخدمة الخطة الهجومية، فقد كنا نستهدف أن نحتل هذه المصاطب بواسطة الدبابات والأسلحة المضادة للدبابات الموجهة ATGWS وذلك لتقديم العون اللازم لمشاتنا أثناء عملية الاقتحام وتدمير الدبابات المعادية التي تحاول الهجوم المضاد عليها. وعلاوة على ذلك فقد كانت هذه المصاطب توفر لنا مراقبة جيدة لكل ما يجري في الجانب الآخر.

ضابط ينتقد الرئيس السادات:

بعد إقالة صادق وقع حادثان مهمان يبينان أنه كان هناك ضباط آخرون يشاركون صادق آراءه فيما يتعلق بالحرب. وقع الحادث الأول يوم ٢٩ من أكتوبر، أي بعد يومين فقط من الإقالة، إذ أخبرني اللواء سعيد الماحي قائد المدفعية –و هو حاليا كبير ياوران الرئيس السادات– في الساعة الخامسة بعد ظهر ذلك اليوم أن أحد ضباط المدفعية انتقد علنا رئيس الجمهورية. لقد وقع هذا الحادث في مدرسة المدفعية عندما كان قائد المدرسة يقوم بتوعية الضباط عن الأحداث الأخيرة [١]. وأثناء قيام قائد مدرسة المدفعية بالتلقين علق الضابط قائلا "طيب وهو

رئيس الجمهورية يعرف حاجة". وقد شكل مجلس تحقيق للتحقيق مع الضابط المذكور فيما نسب إليه ولكنه أنكر - أو بمعنى أصح أوحى إليه أن ينكر - حتى يمكن حصر الموضوع في أضيق نطاق، وقد قبل إنكار الضابط ولم يحاول المجلس التعمق في البحث والاستقصاء عن حقيقة ما قاله، وهكذا حفظ الموضوع.

انقلاب فاشل بقيادة اللواء علي عبد الخبير:

أما الحادث الآخر فقد وقع بعد الأول بأقل من أسبوعين ولكنه كان أكثر خطورة وأبعد أثرا. لقد كان محاولة انقلاب كاملة اشترك فيها بعض كبار الضباط وبعض ضباط المخابرات الحربية. فقد حدث أن ضابطا برتبة نقيب من المخابرات الحربية وقع على معلومات جعلته يشك في أن هناك بعض ضباط من المخابرات يتعاونون مع المتآمرين، فأبلغ شكوكه إلى أحد أصدقائه الذي قام بدوره بإبلاغها إلى الرئيس. وبعد أن استمع السادات إلى قصة هذا النقيب ازدادت شكوكه بإدارة المخابرات الحربية وأخذ يعتمد أكثر فأكثر على المخابرات والمباحث العامة. وقد أكدت المراقبة أن ضباطا من المعروفين بولائهم لصادق يجتمعون ولكن اجتماعاتهم ومقابلاتهم كانت تتم تحت إجراءات أمن مشددة، ولم تستطع المخابرات أو المباحث العامة أن تعلم بما يدور داخل هذه الاجتماعات. لقد زادت هذه المعلومات من شكوك الرئيس فرأى عدم الانتظار حتى يتم الحصول على قرائن تدل على التآمر وقرر أن يضرب التنظيم المشتبه فيه قبل أن يستفحل الأمر.

في الساعة ١٧٤٥ يوم ١١ من نوفمبر ٧٢ ذهبت لمقابلة السيد الرئيس في منزله بالجيزة بناء على طلبه، وبعد حوالي نصف ساعة انضم إلينا ممدوح سالم وزير الداخلية [٢] " وبعد حوالي نصف ساعة أخرى أنضم إلينا عزت سليمان نائب مدير المخابرات العامة. [٣] وقد قرأ علينا عزت سليمان المعلومات المتيسرة لديهم عن تنظيم سري في القوات المسلحة يسمى "إنقاذ مصر"

قبل أن أحكي قصة هذا الانقلاب الفاشل يجب أن أؤكد مرة أخرى أن آراء صادق التي أوضحها في اجتماع ٢٤ من أكتوبر و أيده فيها كل من الفريق عبد القادر حسن واللواء علي عبد الخبير، كان يؤمن بها الكثيرون من ضباط القوات المسلحة. لقد كانوا يعتقدون أن هناك قوة سياسية خفية تريد أن تدفع القوات المسلحة المصرية إلى الحرب قبل أن تستكمل استعداداتها بهدف تدميرها. فإذا دمرت القوات المسلحة فسوف يسقط النظام الحاكم وتعم الفوضى البلاد وبذلك يصبح الجو ملائما لانتشار الشيوعية في مصر ومنها إلى العالم العربي. لقد سمعت هذا الرأي من صادق عدة مرات قبل مؤتمر ٢٤ من أكتوبر ٧٢ ولم أقبله قط وكان ذلك من نقاط

الخلاف الرئيسية بيني وبينه. ومع ذلك فإني لم أشك مطلقا في شجاعته ووطنيته. أو أنه كان يقوم بهذه اللعبة لحساب جهة أجنبية أخرى. لذلك فقد حزنت كثيرا عندما سمعت السادات يتهمه أمامي بأنه ألعوبة في يد الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية وعميل له.
ولقد اندفع الرئيس إلى أبعد من ذلك فقال إنه ليحصل على المال والذهب والهدايا الثمينة من الملك السعودي وفي مقابل ذلك فإنه يقوم بتنفيذ كل ما يأمره به، وقد أيد ممدوح سالم ما يقوله السادات وعلق على ذلك قائلا: "ألم أقل لك هذا منذ زمن يا سيادة الرئيس. !. لم أكن في وضع يسمح لي بأن أؤيد أو أنفي ما يقولون، فكنت أستمع وأنا صامت ولكني كنت أشعر بالحزن والأسى. إني اعرف صادق منذ أن كنا في العشرينيات من عمرنا، وعلى الرغم من خلافاتنا في الرأي ونحن في الخمسينيات من عمرنا فإني لا أتصور مطلقا أن يكون صادق عميلا. وبينما كان السادات يكيل الاتهامات له خلال هذا اللقاء تذكرت فجأة الكتاب الذي كان السادات قد أرسله إلى الملك فيصل قبل ذلك بعام وكان يقول فيه له إنه يثق بصادق ثقة مطلقة. لم يكن السادات يعلم أن صادق قد أطلعني على هذا الكتاب. ولم أشأ أن أثير هذا الموضوع في مثل هذا الجو الصاخب [٤] ولكني كنت أشعر في قرارة نفسي بالأسى والاشمئزاز من هذا الأسلوب الرخيص في مهاجمة الخصوم.
كانت الساعة العاشرة مساء عندما غادرنا نحن الثلاثة- ممدوح سالم وأنا وعزت سليمان- منزل الرئيس في الجيزة بعد أن تلقينا تعليمات الرئيس بالقبض على المشتبه فيهم واستجوابهم. ذهبنا إلى مبنى هيئة المخابرات العامة باعتبارها صاحبة الخيط الرفيع، وعلى أساس الاعتقاد بأن إدارة المخابرات الحربية هي نفسها متورطة في العملية وقد مكثنا في المخابرات العامة طوال الليل حيث استدعيت إلى هناك المدعي العسكري العام وأصدرت عددا من الأوامر بالقبض على المشتبه فيهم، وكانت الساعة الخامسة صباحا عندما انتقلت من المخابرات العامة إلى مكتبي لكي أحصل على ساعتين من النوم قبل أن أستأنف عملي في الصباح. وفي هذا اليوم نفسه أصدر الرئيس السادات أمرا بطرد اللواء محرز مدير إدارة المخابرات الحربية. وباستمرار التحقيق خلال يوم ١٢ نوفمبر ظهرت الحاجة لاستجواب أسماء جديدة وبالتالي إصدار أوامر جديدة للقبض على عدد آخر من الضباط اضطررت للسفر إلى الكويت بعد ظهر يوم ١٣ من نوفمبر لحضور اجتماع اللجنة المشكلة من عدد من أعضاء مجلس الدفاع المشترك، وعدت بعد ظهر يوم ١٥ من نوفمبر دون انتظار انتهاء أعمال اللجنة. لقد كان استجواب أفراد تنظيم "إنقاذ مصر" مازال مستمرا. وفي خلال ليلة ١٦/١٥ من نوفمبر طلب إلى المدعي

العسكري العام أن أصدر أمرا بالقبض على اللواء علي عبد الخبير الذي كان قائدا للمنطقة العسكرية منذ أسبوعين فقط نظرا لأن التحقيقات قد أظهرت ارتباطه بهذه العملية وتورطه. وفي تلك الليلة تم القبض على "عبد الخبير" كما تم القبض على عدد آخر من القادة من بينهم العقيد عمران وهو قائد فرقة مشاة ميكانيكية، والعقيد أحمد عبد الوهاب وهو رئيس أركان فرقة ميكانيكية، والمقدم عادل وهو ضابط أركان حرب يعمل في وزارة الحربية، والمقدم عصام وهو قائد مجموعة صاعقة. لقد اتسع التحقيق واتضح لنا مدى خطورة الموقف من حيث عدد الضباط من ذوي الرتب الكبيرة والمناصب الحساسة الذين كانوا يعدون لهذا الانقلاب بعد طرد اللواء محرز من وظيفته كمدير لإدارة المخابرات الحربية يوم ١٢ من نوفمبر انتقل التحقيق من المخابرات العامة إلى المخابرات الحربية، حيث إن المقبوض عليهم كلهم كانوا من العسكريين كما أن المحقق هو المدعي العسكري العام. وبعد ظهر يوم ١٦ من نوفمبر قمت بزيارة مكان التحقيق لكي ألم بآخر التفاصيل. وهناك اطلعت على اعتراف كامل كان قد أدلى به اللواء علي عبد الخبير والمقدم عادل. لم أكن أصدق عيني وأنا أقرأ اعترافات علي عبد الخبير التي وقع عليها بإمضائه الذي كنت أعرفه جيدا فطلبت أن أقابله شخصيا، فلما حضر أمامي سألته بأسلوب أخوي" هل قمت يا علي بالإدلاء بهذه الأقوال والتوقيع عليها بمحض إرادتك ودون أي ضغط أو تهديد؟!، فقال نعم. لقد كان علي عبد الخبير رجلا شهما في اعترافه، ولقد أراد أن يتحمل المسئولية كلها ليعفي الآخرين جميعهم من المسئولية. وعلى الرغم من خلافنا في الرأي فقد كنت أنظر إليه كصديق وزميل، وزادني موقفه الشجاع أثناء التحقيق احتراماً له. اختليت بالمدعي العسكري العام وقلت له إني رأيت بنفسي علي عبد الخبير وأن منظره لا يدل على وقوع أي اعتداء جسماني عليه، ولكني أريد أن أ أؤكد أنه لا يجوز أيضا استخدام التهديد أو الوعيد، وانه هو وزملاءه يجب معاملتهم بمنتهى الاحترام والتقدير اللذين تمليهما رتبهم العسكرية. أكد لي أنه هو شخصيا يؤمن بكل كلمة قلتها وأنه على استعداد لأن يحضر أي شخص آخر لكي أتأكد بنفسي أنه لم يمارس الضغط على أحد، ولكني اكتفيت بأقواله. لقد كانت الاعترافات واضحة وتبين عملية انقلاب محبوكة الأطراف. كانت خطتهم هي أن يقوموا بالعملية ليلة ٩ من نوفمبر، وقد اختاروا هذه الليلة بالذات لأنها كانت الليلة المحددة لعقد قران ابنتي ناهد. وكانت الخطة تقضي بأن تهاجم وحدة منهم مكان عقد القران فتعتقل الموجودين كلهم، ولابد أن يكون من بينهم رئيس الجمهورية ووزير الحربية ورئيس الأركان والكثيرون من الوزراء وكبار الضباط. ولكنهم فوجئوا باحتياطات أمن مشددة لحراسة المنطقة مما جعلهم

يؤجلون تنفيذ العملية إلى وقت أخر.

كنت مدعواً في مساء يوم ١٦ من نوفمبر لحضور حفل زفاف السيد عبد المنعم الهوني وهو أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبية، كـــان الحفل يجري في نادي الرماية بالهرم وكـــان الـــرئيس السادات يحـــضر هذا الاحتفال. انتحيت بالرئيس جـــانبا و أخبرته بآخر التفصيلات والاعترافات بخصوص الانقلاب الفاشل، وبعد حوالي ساعتين هم الرئيس بالانصراف فنزل معه المضـــــيف لتوصيله إلى عربته، بينما بقيت أنا في الدور العلوي أعد نفسي للرحيل وانتظر عودة الداعي لكي أسلم عليه. وبينما أنا واقف أتحدث إلى بعض المدعوين إذا بأكثر من شـــخص يصـــرخ "ســـيادة الرئيس عايزك ". فنزلت إلى الدور الأرضي وعند وصولي إلى الباب كان الـــرئيس قـــد غـــادر المكان تاركـــا من يبلغني بأن أتبعه مباشرة إلى منزله في القبة. وفجأة وجدت نفسي داخل عربة من عربات الحراسة، ألاحق ركب الرئيس فوصلت عقبه، وبينما كان يصعد سلم منزله كنت قـــد لحقت به.

قال الرئيس" أنت شغلتني قوي يا سعد بالكلام اللي قلته "ـــ لقد بدأ يشعر بأبعاد المؤامرة ولكنـــي طمأنته و أكدت له أنه قد تم القبض على جميع الرؤوس المدبرة. وعلى الرغم من أن أسم الفريق صادق لم يرد ذكره مطلقا على لسان أي من الذين جرى التحقيق معهم إلا أنه كان واضحـــــا أن المقبوض عليهم جميعهم يدينون بأفكاره نفسها وأنهم كـــانوا ينوون القيام بانقلابهم لأنهـــم كـــانوا يعتقدون أنهم بذلك يؤدون عملا وطنيا لبلادهم. قال الرئيس لا لقد كان صادق يخدعني فيما يتعلق بالأشخاص وكان يزرع رجاله في المناصب المهمة ويستبعد من يختلف معه في الرأي، ما رأيك في عادل سوكه ؟، فقلت له أنه ضابط جيد، فقال طيب ابعت هاتة من تركيا، بكره تبعت تجيبـــه، [٥] فقلت له سيادة الرئيس إذا قبلت نصيحتي فإني اقترح تأجيل ذلك، فاستوضح الرئيس "لمـــاذا؟"، فقلت له "كان الفريق صادق للأسف يتهم كل من يختلف معه في الرأي بأنه شيوعي، لقد قاســـيت أنا نفسي من هذه التلميحـــات فإذا نحن أحضرنا عادل سوكه في مثل هذه الظروف فقـــد يجـــري تفسير هذا التصـــرف في القوات المسلحة تفسيرا خاطئا"، فهز الرئيس رأسه موافقا وقال "اعتقـــد أنك على حق. أجل هذا الموضوع الآن " ناقشنا بعض الموضـــوعات الأخـــرى التـــي تتـــــعلق بتـــأمين القوات المسلحـــة واستغرقت مناقشتنا لهذه الموضوعات حوالي نصف الســـاعة، عـــدت بعدها مرة أخرى إلى نادي الرماية لكي آخذ زوجتي وننصرف من الحفل.

هوامش الفصل العشرين

(١) جرت العادة في القوات المسلحة المصرية أن يتم توعية الضباط بالأحداث المهمة، وأن تتم هذه التوعية من أعلى إلى أسفل أي أنه تتم توعية القادة وتحدد لهم النقاط الرئيسية ثم يقوم هؤلاء بتوعية ضباطهم، وقد كانت النقط الرئيسية للتوعية في ذلك اليوم هي:

- لم يطلب الروس إبعاد الفريق صادق.
- إن قرار طرد المستشارين الروس قرار نابع من الرئيس شخصيا.
- إن سبب إقالة صادق هو أن الرئيس كان قد سبق أن كلفه بمهمة قتالية واتضح له أثناء اجتماع المجلس الأعلى يوم ٢٤ من أكتوبر أنه لم ينفذ المهمة.

(٢) عين ممدوح سالم رئيسا للوزارة اعتبارا من أبريل ١٩٧٥، واستمر يشغل هذا المنصب حتى أكتوبر ٧٨.

(٣) بعد تعيين أحمد إسماعيل وزيرا للحربية بقي منصب رئيس هيئة المخابرات العامة شاغرا لعدة شهور، وكان عزت سليمان هو الذي يتابع شئون الفرع الخاص بالأمن الداخلي، وقد نقل في أوائل عام ٧٣ إلى وزارة الخارجية.

(٤) انظر الفصل السابع عشر.

(٥) كان عادل سوكه في ذلك الوقت ملحقا عسكريا في تركيا وكان قبل ذلك قائدا للفرقة المدرعة ٢١.

الباب الخامس

العلاقات المصرية- السوفيتية في عهد السادات

الفصل الحادي والعشرون

التعاون المشوب بالحذر

تسهيلات الأسطول السوفيتي في الموانئ المصرية:

في الساعة ٢٠٠٠ يوم ١٩ من مايو ٧١ اجتمع وفد عسكري سوفيتي مع وفد عسكري مصري لبحث التسهيلات البحرية التي يطلبها الجانب السوفيتي في الموانئ المصرية. كان الوفد السوفيتي برئاسة الجنرال يفيموف Yeflmov وعضوية الأدميرال فاسيلى Vassily والجنرال اوكينيف OKUNEV، وكان الوفد المصري برئاسة الفريق صادق وزير الحربية وعضوية اللواء الشاذلي (ر.ا.ح.ق.م.م) والعميد أمير الناظر الأمين العام لوزارة الحربية. وكان الجانب السوفيتي يطلب زيادة في التسهيلات البحرية التي كان يمارسها فعلا، وكانت هذه الطلبات الجديدة تشمل ما يلي:

مرسى مطروح:

١- تعميق الميناء ثمانية أمتار أخرى.

٢- بناء أو تأجير أماكن لإيواء الأفراد بحيث تكون قريبة من الميناء، وبحيث تكفى لإيواء ٢٠٠٠ رجل و ١٦٠ عائلة.

٣- بناء مطار على مسافة ٣٥- ٤٠ كيلومترا غرب الميناء

٤- رفع كفاءة المطار الحالي في مرسى مطروح بحيث يصبح قادرا على استيعاب لواء جوي سوف يتم إرساله من الاتحاد السوفيتي لتامين الميناء.

٥- بناء محطة رادار على مسافة ١٠٠ كيلومتر شرق مرسى مطروح، وأخرى على مسافة مماثلة غربها.

الإسكندرية:

طلب الجانب السوفيتي تدبير مبنى واحد كبير أو مجموعة من المباني المتجاورة حتى يمكنهم أن يجمعوا فيها عائلات رجال بحريتهم المتناثرة داخل مدينة الإسكندرية، وكان المطلوب هو تدبير مكان مجمع يتسع لـ ٢٠٠ عائلة، وقد اقترحوا الحصول على فندق سان ستيفانو.

أجاب الفريق صادق بان هذه الطلبات لها جانب سياسي وأنه لا يستطيع البت في هذه الأمور قبل بحث الموضوع مع السيد الرئيس، وسيكون جاهزا للرد على هذه التساؤلات بعد حوالي أسبوع. وبعد انتهاء اللقاء طلب مني الوزير أن أشكل لجنة برئاستي لبحث هذه المطالب، وكان بين أعضاء هذه اللجنة اللواء بغدادي قائد القوات الجوية واللواء محمود فهمي قائد القوات البحرية. وبعد عدة لقاءات تقدمنا بالاقتراحات التالية:

١- الموافقة على إعطاء البحرية السوفيتية تسهيلات في ميناء مرسى مطروح تشابه التسهيلات الممنوحة لها في كل من الإسكندرية وبورسعيد.

٣- عدم تخصيص أية منطقة محددة لخدمة الوحدات السوفيتية حتى لا يأخذ ذلك شكل قاعدة سوفيتية.

٣- الموافقة على تمركز لواء جوي سوفيتي في مرسى مطروح شريطة ألا تقتصر مهمته على الدفاع عن القاعدة البحرية، بل تمتد مسئوليته لكي تشمل الدفاع عن الأراضي المصرية ما بين غرب الإسكندرية وحتى الحدود المصرية الليبية. وأن يكون اللواء الجوي السوفيتي تحت القيادة المصرية.

٤- يكون تمركز اللواء الجوي السوفيتي في مرسى مطروح بصفة مؤقتة وإلى أن تصبح القوات الجوية المصرية قادرة على تحمل مسئولية الدفاع الجوي عن المنطقة غرب الإسكندرية وتقوم بتخصيص لواء جوي مصري لكي يعفي اللواء الجوي السوفيتي من هذه المهمة.

قمت بتسليم مقترحات اللجنة إلى السيد الوزير الذي عرضها بدوره على السيد الرئيس ثم عاد إلينا ليقول إن الرئيس وافق على تلك المقترحات وأوصى بأن تكـــون الاتفاقية لمـــدة ٥-١٠ سنوات.

اجتمع الوفد العسكري السوفيتي والوفد العسكري المصري مرة أخرى يوم ٢٧ من مايو، وكـــان رئيس الوفد السوفيتي في هذه المرة هو الجنرال PAVLOVSKY وهو أحد أفراد وفـــد الـــرئيس بودجورنى الذي كـــان في زيارة رسميـــة لمصر ما بين ٢٥ و ٢٨ من مـــايو ٧١ (١).

أخبرنا الجانب السوفيتي "أن الرئيس السادات شخصيا كان قد طلب خلال زيارته الأخيرة لموسكو أن نستخدم ميناء مرسى مطروح وان الفريق فوزي وزير الحربية السابق كان معـــه فـــي هـــذه الزيارة، و أكد الطلب وان كل ما نطلبه الآن هو وضع ترتيبات أسلوب إعاشـــة الأفـــراد الـــذين يستخدمون هذه الميناء وتامين راحتهم. وان الدفاع عن اللواء الجوي أثناء تواجده علـــى الأرض يستلزم وجود لواء صواريخ مضاد للطائرات" قدم الجانب السوفيتي مقترحاته وقدمنا مقترحاتنـــا المضادة وطالت المفاوضات والأخذ والرد واستغرقت يومي ٢٧ و ٢٨ من مايو دون الوصـــول إلى أي اتفاق، وفي يوم ٢٩ من مايو عاد الوفد العسكري السوفيتي إلى بلاده دون التوقيع على أي اتفاق.

ضبط شبكة أمريكية تتجسس على السوفيت في مصر:

في خلال الأسبوع الأول من سبتمبر ٧١ تمكنت المخابرات المصرية من القـــبض علـــى شـــبكة تجسس أمريكية، وكان المتهم الرئيسي في هذه الشبكة هو طناشى راندوبولو وهو مصري الجنسية من اصل يوناني، أما العنصر الأمريكي في الحلقة فقد كانت الآنسة سوان هاريس وهي أمريكيـــة الجنســـية وكانت تعمل في قسم رعاية المصالح الأمريكية في القاهرة. (٢) أدلـــى طناشـــى بعـــد القبض عليه باعتراف كامل اظهر فيه أن المعلومات جميعها التي حصل عليها كانت مـــن أفـــراد سوفيت من بين أصدقائه العديدين في قاعدة جاناكليس الجوية، وأنه كـــان يقـــوم بـــإبلاغ تلـــك المعلومات إلى الآنسة سو في السفارة الأمريكية. وقد بدأت علاقته مع المستر بيليكوف BELEKOV الذي خدم بـــالقاعدة من سنـــة ٦٩ حتى ٧١ وبعد عودته إلى الاتحاد السوفيتي أرسل له كتابا يقدم فيه خلفه فكتور VICTOR وتوطدت صداقة متينة بين فكتور وطناشى إلى أن تم القبض عليه، وعن طريق فكتور تعرف على يورى (مساعد فكتور) واصبحوا يتزاورون فقام هـــو بـــدعوتهما إلـــى العشاء في منزله عدة مرات، كما انهما قاما بدعوته إلى العشاء في القاعدة وقـــد تجـــول داخـــل القاعدة بما في ذلك غرفهم الخاصة.

كان من بين اعترافات طناشى ما يلي:

١- انه زار أحد ملاجئ (هناجر) الطائرات الخرسانية وكانت مصر أول دولة في العالم تقوم ببناء هذه الملاجئ الخرسانية وذلك لوقاية طائراتنا من أي هجوم جوي مفاجئ بعد أن دمرت قواتنا الجوية وهي على الأرض مرتين: المرة الأولى من قبل بريطانيا أيام الاعتداء الثلاثي عام ١٩٥٦، والمرة الثانية من قبل إسرائيل عام ١٩٦٧.

٢- إنه حضر فيلما عن الجاسوسية مع جميع أفراد القاعدة.

٣- إن لديهم في روسيا رادارات افضل بكثير من الرادارات الروسية الموجودة في مصر.

٤- إن المصريين غير مستعدين وغير جاهزين للحرب الآن، وقد يمر وقت طويل قبل أن يصبحوا قادرين على استئناف القتال من جديد.

٥- إن هناك أسرابا جوية سوفيتية أخرى في مصر غير تلك التي في قاعدة جاناكليس وأن تلك القواعد مدافع عنها بصواريخ سام ٤ وسام ٦ أما قاعدتهم في جاناكليس فمدافع عنها بصواريخ سام ٢ وسام ٣.

ولقد قرر الرئيس السادات ألا نضخم هذا الموضوع، وان يكتفي بإبلاغ السوفيت بذلك. وفي يوم ١٣ من سبتمبر استدعيت كبير المستشارين السوفيت في مصر و أبلغته القصة كاملة، وطلبت منه أن يلفت نظر جميع الضباط والجنود السوفيت بضرورة مراعاة احتياطات الأمن، والعمل على تلافي وقوع مثل هذا الحادث مستقبلا- و أضفت قائلا " إننا على يقين من أن جميع المعلومات التي سلمها طناشى بابادويلو إلى الآنسة سوآن هاريس سوف تجد طريقها إلى إسرائيل. ورغبة في الحفاظ على العلاقات الطيبة بين بلدينا نقية وخالية من أية شوائب فقد أمر السيد الرئيس بطي الموضوع تاركين لكم حرية التصرف في اتخاذ الإجراءات المناسبة ضد الأفراد السوفيت الذين تسببوا في تسرب تلك المعلومات، كما نرجو أن تتخذوا الإجراءات المناسبة التي تضمن عدم تكرار مثل هذا الحادث مستقبلا".

وعد كبير المستشارين الروس بان يتخذ الإجراءات المناسبة، وأخبرني في صباح اليوم التالي أن جميع الأفراد الذين وردت أسماؤهم في التحقيق قد تم ترحيلهم إلى الاتحاد السوفيتي، وانه قد تم اتخاذ إجراءات أمن مشددة تمنع تكرار مثل هذا الحادث مستقبلا.

أما فيما يتعلق بالآنسة سوآن فقد أمر الرئيس بإخلاء طرفها بعد أيام قليلة من القبض عليها، وهكذا لم يبق سوى طناشى ليكفر عما ارتكب من أفعال.

عقد صفقة أسلحة سوفيتية في أكتوبر ٧١:

طلب مني الفريق صـــادق أن اقدم له كشفا بالأسلحة التي يتحـــتم الحصول عليها حتى يمكن تنفيذ " الخطة رقم ٤١". وفي ٦ من سبتمبر ٧١ عقدت مؤتمرا لهذا الغرض اشترك فيه كل من قائـــد القوات الجوية وقائد الدفاع الجوي ورئيس هيئة العمليات ورئيس هيئة التنظيم، واستمرت الدراسة عدة أيام. وبعد أن اتفقنا على ما هو مطلوب جهزت كشفا بذلك وقدمته إلى الفريق صادق.

في ٢١ من سبتمبر ٧١ ســـافر اللواء عبد القادر حسن واللواء عمر جوهر إلـــى موســـكو لعقـــد المباحثات الأولية مع الجانب السوفيتي بخصوص صفقة أسلحة في حدود ١٣٠ مليون روبل. وفي ٨ من أكتوبر سافر الفريق صادق على راس وفد عسكري لإجـــراء المباحـــثات النهائية والتوقيع على الاتفاقية. وعاد من موسكو يوم ١٦ من أكتوبر [٣] وفي يوم ١٧ من أكتوبر عقـــد الفريـــق صادق مؤتمرا أعلن فيه أن الاتحاد السوفيتي سيقوم بإمدادنا بالأسلحة التالية:

١٠ طائرات تى يو ١٦ مجهزة بصواريخ جو ارض ذات مدى ١٥٠ كيلومترا.

١٠٠ طائرة ميج ٢١. يتم تسليم نصف هذا العدد خلال عام ٧١ والباقي خلال ٧٢.

٢٠ طائرة ميج ٢٣ خـــلال عام ٧٢ بطياريها السوفيت إلى أن يتم تدريب الطيـــارين المصريين على قيادتها.

فوج كوادرات (صواريخ مضادة للطائرات خفيفة الحركة تعرف في الغرب سام ٦).

كتيبة مدفعية ١٨٠ ميللمتر.

كتيبة هاون ٢٤٠ ميللمتر.

ثلاثة كبارى PMP

وفي مجـــال إنتاج الأسلحـــة أشار الوزير إلى أن الاتحاد السوفيتي سوف يقدم جميع المساعدات ليجعلنا قادرين على إنتاج الأصناف التالية:

المدفع ١٢٢ مم دى ٣٠

الرشاش ٢٣ مم المزدوج (ذو ماسورتين).

البندقية الآلية AKM.

القاذف الصاروخي RPG.

وفي مجال إنتاج الذخيرة يقوم الاتحاد السوفيتي بتقديم المساعدة ليجعلنا قادرين على إنتاج الذخيرة اللازمة للأسلحة التالية:

٢٣ ميللمتر مضادة للطائرات.

٨٢ ميللمتر للمدفع عديم الارتداد ب ١٠.

١٢٢ ميللمتر للمدفع ام ٣٠ والمدفع دى ٣٠.

١٣٠ ميللمتر للمد فع ام ٤٦.

١٥٢ ميللمتر هاوتزر.

١٢٠ ميللمتر هاون.

– القاذف الصاروخي RPG.

– القنبلة اليدوية RKG.

وفي مجال المعدات وقطع الغيار يقوم الاتحاد السوفيتي بإنشاء المصانع التالية:

مصنع لإنشاء قطع الغيار اللازمة للطائرات ميج ٢١ والميج ١٧ والسوخوي

– ٧ مصنع لإنتاج التانكات الاحتياطية للطائرات DROP TANKS.

مصنع لإنتاج الرادار ب ١٥.

مصنع لإنتاج الأجهزة اللاسلكية ١٢٣ R والأجهزة ١٢٤ R التي تستخدم في الدبابات

مصنع لإنتاج الطابات والبوادي

وفي مجال تنظيم التعاون بين الطرفين في النواحي العسكرية وافق الجانب السوفيتي علىأن تمتد مسئولية اللواءين الجويين السوفيتي المتمركزين في مصر إلى خط وهمي يقع على بعد ٢٠ كيلومترا غرب القناة لكي يشاركا في الدفاع الجوي (كان القائد المحلي الروسي يريد أن يلتزم بالدفاع حتى خط طول ٣٢ والذي كان يقع غرب ذلك بكثير).

ذكر الوزير أيضا أن الجانب السوفيتي سيسعى لإنجاز الورش الرئيسية وورشة العمرة التي كان بصدد إنشائها لصالح قواتنا الجوية في أسرع وقت ممكن، ولكنه رفض الاستجابة لطلب الفريق صادق بإنشاء مصنع لإنتاج طائرة الهليوكوبتر مي ٢٤ ووعد ببحث هذا الموضوع فيما بعد.

السوفيت وسنة الحسم:

في يوم ٢٥ من ديسمبر ٧١ وصل المارشال جريشكو إلى القاهرة حيث أمضى ٢٤ ساعة فقط قبل أن يغادرها إلى موسكو. لم تكن زيارة جريشكو زيارة رسمية و إنما كانت مرورا عابرا في طريق عودته من مقديشو (حيث كان في زيارة رسمية للصومال) إلى موسكو. لقد كانت الزيارة في أعقاب الحرب الهندية الباكستانية التي انتهت بانتصار الهند واستقلال باكستان الشرقية تحت اسم بنجلاديش. وبالطبع كانت تلك الزيارة إلى الصومال في ذلك الوقت ذات معنى سياسي في لعبة الأمم، فقد كان السوفيت يساعدون الهند في حربها ضد باكستان، كما كانت لهم علاقات طيبة مع الصومال. وهكذا كان الاتحاد السوفيتي يتمتع بموقف ممتاز في المحيط

الهندي على شاطئيه الشرقي والغربي. كان المارشال جريشكو في قمة السعادة خلال حفل العشاء الذي أقامه السفير السوفيتي على شرفه في هذه الليلة. كان يمزح ويضحك من أعماقه وهو يقــول لي تصور أنني أنا والوفد الذي يرافقني سبحنا أمس في المحيط الهندي، كـــانت المياه دافئة والجو جميل لاشك أنها كانت مناسبة ســعيدة للسوفيت أن يسبحــوا في مياه المحيط الهندي الدافئة التي تراود أحلامهم منذ أيام القياصرة !!

لقد تحسنت العلاقات السوفيتية المصرية بعد اتفاقية أكتوبر ٧١ بعض التحسن، ولكنه كان واضحا انهم لا يشجعوننا على القيام بالهجوم قبل نهاية عام ٧١ كما كان السادات يعلن دائمـــا. وكـــــان السفير السوفيتي قد قابل الرئيس الســـادات يوم ٢٠ من ديسمبر وابلغه بان الاتحاد السوفيتي قــد علم بما يلي:

١- قامت إسرائيل بإدخال قوات جديدة في سيناء.

٢- حصلت إسرائيل على ضمانات جديدة من أمريكا لتأييدها في حالة استئناف القتال.

٣- يحتمل أن تقوم إسرائيل بمهاجمة أكثر من دولة عربية في وقت واحد.

وزير الحربية يهاجم السوفيت:

كان الفريق صادق لا يخفي انتقاده وعدم ثقتــه بالاتحاد السوفيتي في أحاديثه كلها ولكـــن هـــذه الأحاديث وتلك الآراء كانتا دائما على المستويات العليا، وقد بدا يخـــرج عن هذه القاعدة اعتبارا من يناير ٧٢. وفي يوم ٢٤ من يناير ٧٢ خطب صادق في اجــتماع عقد في المنطقة المركزية حضـــره عدة آلاف من الضباط من جميع الرتب وهاجم الاتحاد السوفيتي هجوما عنيفا، و أعلن ما يلي:

١- إن الروس لم يقوموا بتوريد الأسلحة المطلوبة، وانهم بذلك هم الذين يحولـــون دون تحقيــق رغبتنا في الهجوم.

٢- إذا لم يصل الرئيس إلى اتفاق في لقائه معهم في نهاية يناير و أوائل فبراير، فإننا سنقوم بشراء السلاح الذي نحتاج إليه من أية جهة أخرى.

٣- إن الروس ينشرون شائعاتهم بين صغار الضـــباط والجنود والطلبة بان القوات المسلحة لديها الأسلحة الكافية التي تمكنها من القيام بالهجوم ولكن كـــبار القادة هم الذين لا يرغبون فـــي القتال. وان هذه الشائعات المسمومة غير صحيحة.

هوامش الفصل الحادي والعشرون

(١) في يوم ٢٧ من مايو وقع الرئيسان بودجورنى والسادات على معاهدة صداقة بين الاتحاد السوفيتي ومصر مدتها ١٥ سنة.

(٢) لم تكن هناك علاقات دبلوماسية بين مصر وأمريكا، ولكن كان هناك قسم لرعاية المصالح الأمريكية.

(٣) سافر الرئيس السادات إلى موسكو بعد صادق بيومين، وعاد منها قبله بيومين.

الفصل الثاني والعشرون

قرار الاستغناء عن الوحدات السوفيتية

رحلة السادات إلى موسكو في فبراير ٧٢:

سافر الرئيس الى الاتحاد السوفيتي يوم ٢ من فبراير، بينما بدأت أنا رحلتي الى الجزائر والمغرب وليبيا يوم ٦ من فبراير، والتي عدت منها يوم ١٤ من فبراير ٧٢، وقد علمت يوم ١٥ فبراير ان الاتحاد السوفيتي قد أكد للرئيس التزامه باتفاقية اكتوبر ٧١ لتوريد الأسلحة و إقامة الصناعات العسكرية وانه وعد علاوة على ذلك بإمدادنا بما يلي:

٢٠٠ دبابة ت ٦٢ يتم تسليم عشر منها خلال شهر مارس لإجراء تدريب الأطقم عليها على ان يتم توريد باقي الدبابات خلال عام ٧٢.

٢٠ طائرة TU 22 يتم توريد اثنتين منها خلال شهر مارس لتدريب الأطقم عليها، ويتم توريد الباقي خلال عام ٧٢.

٢٥ طائرة ميج ١٧ يتم تسليمها فورا كهدية.

تدعيم وزيادة طاقاتنا في الحرب الإلكترونية.

اعتذر الجانب السوفيتي عن عدم قيامه بإمدادنا بالطائرات ميج ٢١ في التوقيتات السابق تحديدها في اتفاقية أكتوبر، ولكنه وعد بتعويض ذلك بان يورد لنا ٧٠ طائرة في النصف الأول من عام ٧٢ والثلاثين الأخرى في النصف الثاني من عام ٧٢، كما أكد إمكان تصنيع الطائرة ميج ٢١ MF تصنيعا كاملا في مصر عام ١٩٧٩.

وصل المارشال جريشكو يوم ١٨ من فبراير في زيارة رسمية لمصر تستغرق ثلاثة أيام. لقد كانت الزيارة سياسية في مضمونها وكان الهدف منها هو تليين الفريق صادق حتى يخفف من حدة هجومه عليهم. وقد حضرت مع الوزيرين عدة لقاءات, ولكن هذه اللقاءات لم تخفف- إن لم تكن قد زادت- من حدة المرارة التى يشعر بها كل طرف تجاه الآخر.

وقد تبودلت اثناء هذه اللقاءات بعض الجمل والتعليقات الخشنة، وفي الليلة السابقة لسفر المارشال جريشكو دعاه الفريق صادق إلى عشاء خاص وطلب مني حضور هذا العشاء، فاعتذرت لكي أعطى لهما الفرصة لكي يصفيا ما بنفسيهما. وبعد سفر جريشكو سالت صادق عما يشعر به الآن بعد تلك الزيارة فوجدت أن موقفه لم يتغير، وانه مازال على اعتقاده بان الروس غير

مخلصين وغير جادين في التعاون معنا.

صفقة الأسلحة في مايو ٧٢:

سافر الفريق عبد القادر حسن في شهر مارس إلى موسكو للتوقيع على الاتفاقية بالأصناف التي تم الاتفاق عليها بين الرئيس السادات والقيادة السياسية السوفيتية في فبراير. ولكنه عاد يوم ١٩ من مارس دون أن يوقع على البندين الخاصين بالدبابات ت ٦٢ والطائرات TU 22. دعا الفريق صادق المجلس الأعلى للقوات المسلحة إلى اجتماع عاجل في اليوم نفسه وهاجم الاتحاد السوفيتي هجوما عنيفا، لأنه طلب أن يتم دفع ثمن هذين الصنفين كاملا وبالعملة الصعبة.

ولكي يستطع القارئ أن يتفهم معنى دفع الثمن كاملا وبالعملة الصعبة فسوف اشرح بالتفصيل أسلوب الدفع بين مصر والاتحاد السوفيتي فيما يتعلق بثمن الأسلحة والمعدات الحربية. كان جمال عبد الناصر قد اتفق مع السوفيت على أن يتم دفع ثمن الأسلحة والمعدات التي تشتريها مصر من الاتحاد السوفيتي طبقا لما يلي:

١- يقوم الاتحاد السوفيتي بخصم ٥٠% من ثمن السلاح، وبالتالي فإن السلاح يباع بنصف الثمن فقط.

٢-يقوم الاتحاد السوفيتي بإقراض مصر قرضًا يغطي ثمن السلاح الذي نشتريه(أعني ال٥٠% التي يجب على مصر أن تدفعها) ويتم دفع هذا القرض على أقساط سنوية لمدة ١٠- ١٥ سنة بفائدة ٢%، و يبدأ القسط الأول بعد فترة سماح طويلة.

ونظرا لأن السلاح السوفيتي- دون أي حسم من ثمنه الكامل- يعتبر رخيصا جدا بالنسبة للسلاح الغربي ويمكن القول بأنه في حالة تعادل الخصائص بين السلاح السوفيتي والسلاح الغربي فإن السلاح السوفيتي يكون ثمنه ٥٠% من ثمن مثيله الغربي. فإذا خصمنا ٥٠% من هذا الثمن، فإن ذلك يعني أن الثمن الذي تدفعه مصر ثمنا للسلاح الروسي يعادل ٢٥% من ثمنه في السوق العالمية. وعلاوة على ذلك فإنه يدفع بالجنيه المصري وبالتقسيط المريح. وتطبيقا لذلك فقد كنا نشتري الطائرة ميج ٢١ بمبلغ ٢٥٠٠٠٠ جنيه مصري وكنا نشترى الدبابة ت ٥٥ بمبلغ ٢٥٠٠٠ جنيه مصري. كان الوفد المكلف بعقد الصفقة يسافر إلى موسكو وليس معه دولار واحد، فيوقع مثلا على صفقة من الأسلحة تبلغ قيمتها- طبقا للأسعار العالمية- ١٠٠٠ مليون دولار، ثم يوقع على قرض بحوالي ٢٥٠ مليون دولار، يدفع بالتقسيط على ١٠- ١٥ سنة بفائدة ٢% وبعد فترة سماح طويلة. ويتم التسديد بالجنيه المصري وبأية أصناف يمكن لمصر تصديرها.

وهكذا فإن الاتحاد السوفيتي عندما أخطر عبد القادر حسن خلال شهر مارس ٧٢ بان يتم دفع الثمن كاملا وبالعملة الصعبة كان يعني عدم خصم نسبة إلى ٥٠% المعتادة وان يتم تسديد الثمن بالعملة القابلة للتحويل !! وانه- طبقا لذلك- أصبح ثمن الدبابة ت ٦٢ حوالي ٢٥٠٠٠٠ دولار والطائرة TU 22 أصبح ثمنها ٥،٦ مليون دولار، وهذه الأثمان- وإن كانت لا تزال تعادل حوالي ٥٠% من ثمن مثيلتها الغربية كانت تعتبر من وجهة نظرنا عملا غير مقبول، بل يكاد يكون عدائيا. (١)

في خلال شهري أبريل ومايو دارت عدة مناقشات ولقاءات- كما سبق أن ذكرنا في الباب الثالث/ الفصل الثامن عشر انتهت بالتوقيع يوم ١٥ من مايو ٧٢ على اتفاقية تشمل ما يلي:

١٦ طائرة سو ١٧ يتم تسليم ٤ منها في شهر يوليو والباقي يتم تسليمه قبل نهاية عام ٧٢.

٨ كتائب صواريخ بتشورا (سام ٣) يتم تسليمها خلال عام ٧٣.

١ فوج كوادرات يتم تسليمه عام ٧٣.

٢٠٠ دبابة ت ٦٢ يتم توريدها خلال عام ٧٢.

مصر تعلن ملكيتها لطائرة الميج ٢٥:

في يوم ١٥ من مايو وبحضور الرئيس السادات والمارشال جريشكو جرى استعراض جوي في مطار غرب القاهرة اشتركت فيه الطائرة ميج ٢٥ والطائرة سو ١٧. كما حضر هذا العرض أيضا المارشال كوتاكوف KOTAKOV قائد القوات الجوية السوفيتية. وبعد انتهاء العرض الجوي منح الرئيس السادات المارشال جريشكو وسام نجمة الشرف، كما منح المارشال كوتاكوف وسام النجمة العسكرية. وفي المساء أمر الرئيس بإصدار بيان وزع على الصحف يعلن امتلاك مصر لطائرة سرعتها ٣٠٠٠ كيلو متر في الساعة وتطير على ارتفاع ٢٤ كيلومترا وامتلاكها أيضا لطائرات قاذفة مقاتلة بعيدة المدى. كان هذا البيان كاذبا تماما: فلم تكن مصر تملك شيئا مما ذكر في البيان، كان الروس يمتلكون ٤ طائرات ميج ٢٥ وكانت هذه الطائرة تعتبر أفضل ما أنتجته الصناعة السوفيتية وبالتالي فقد كانت من الأسرار العسكرية المهمة ولم تعرض قط للبيع، وكان يقوم بتشغيلها طيارون سوفيت. كما أن الطائرة سو ١٧ لا يمكن اعتبارها بأي حال من الأحوال طائرة قاذفة مقاتلة بعيدة المدى. هذه هي صورة أخرى تبين كيف يخدع السادات الشعب المصري وبعض العرب بهذه البيانات الكاذبة. انه قطعا لا يستطيع أن يخدع أمريكا أو إسرائيل حيث أن لديهما الوسائل والإمكانات التي تمكنهما من معرفة الحقائق. بل على العكس قد يخدم بذلك إسرائيل إعلاميا فتتمادى في تظاهرها بالضعف وإنها كالحمل الوديع الذي تحيط به الذئاب

العربية التي تتربص به لافتراسه من كل جانب وبذلك تكتسب عطف الرأي العام العالمي وتجد المبرر للمطالبة بالمزيد من السلاح.

ولكي يقوم السادات بحبك التمثيلية، قامت طائراتا ميج ٢٥ سوفيتيتان برحلة استطلاعية فوق سيناء مبتدئة من بور فؤاد شمالا وحتى راس محمد جنوبا بعمق ١٠-٣٠ كم داخل سيناء قام العدو باعتراض الطائرتين بطائرتي من طراز فانتوم أقلعتا من مطار المليز (في وسط سيناء) وطائرتين أخريين من مطار راس نصراني الذي يقع في الطرف الجنوبي من سيناء. ونظرا لأن طائرة الميج ٢٥ تتفوق على طائرة الفانتوم تفوقا كثيرا من حيث السرعة والقدرة على الارتفاع فإن اعتراض العدو والصواريخ جو جو التي أطلقها عليها لم يكن لها أي تأثير عليها وسقط أحد هذه الصواريخ سليما في أيدينا في المنطقة الواقعة غرب القناة، وبفحص هذا الصاروخ اتضح أنه الصاروخ جو جو الأمريكي طراز سبارو Sparrow وقد ذكرنا هذا الموضوع ضمن التقرير اليومي الذي يرسل إلى الرئيس عن الأحداث المهمة في القوات المسلحة، وعندما اطلع الرئيس على التقرير يوم ١٧ من مايو أمر بتسليم الصاروخ Sparrow إلى الخبراء السوفيت الذين كانوا في غاية الفرح بالغنيمة الأمريكية.

تدهور العلاقات:

خلال النصف الأول من عام ٧٢ كان يبدو أن الفريق صادق هو العدو رقم واحد للسوفيت في مصر، بينما كان السادات يحاول أن يظهر بمظهر الصديق لهم. وبينما كان السادات يقوم بأطول زيارة له للاتحاد السوفيتي خلال الفترة ما بين ٢٧ من إبريل و ١٠ من مايو ٧٢ وقع حادثان مهمان كان بطلهما الفريق صادق.

في أوائل شهر مايو أخطرنا الجانب السوفيتي بان بحريتهم في البحر الأبيض سوف تقوم بمشروع تدريبي وإنها تطلب السماح لها أن تنزل بعض أفرادها في منطقة مرسى مطروح يوم ٨ من مايو على أن يتم سحبهم في اليوم التالي، وذلك كجزء من المشروع التدريبي ولكن صادق رفض هذا الطلب.

أما الحادث الآخر فهو اتهام بعض الأفراد الروس بتهريب الذهب كانت الساعة الخامسة مساء يوم ٨ من مايو ٧٢ عندما جاءني كبير المستشارين السوفيت في قيادة المنطقة المركزية، حيث كنت أدير مشروعا لتدريب قيادة المنطقة. قال الجنرال اوكينيف بلهجة ملؤها الحزن والأسى، أن بعض الجنود السوفيت الذين تقترب عودتهم إلى الاتحاد السوفيتي بعد انتهاء مدة خدمتهم في مصر قد جرى تفتيش اثنين منهم في مطار القاهرة بطريقة استفزازية، مما أثار سخط الآخرين فرفضوا

التفتيش وهم الآن في صالة الجمرك. قد يكون بعضهم قد اشترى "دبلة" أو خاتما أو سواراً لكـــي يهديها لخطيبته أو صديقته. وإن مثل هذه الأشياء التافهة ذات الصفة الشخصية البحتـــة لا يمكـــن اعتبارها تهريبا كما يريد المسؤولون في المطار أن يصوروها"، اتصلت هاتفيا بمدير المخابرات الحربية فأشار إلى أن المعلومات التي لديهم تفيد بأنهم يحملون كميات كبيرة من المهربات، وانهم كانوا يراقبونهم منذ عدة أسابيع وهم يشترون الذهب بكميات كبيرة وأمام هذا التضارب في الأقوال قررت الذهاب إلى مكتبي حيث يمكن الاتصال بالجهات المختصة كلها وبحث الموضوع بطريقة افضل.

لم أكد أصل إلى مكتبي حـــتى وصل وزير الحربيـــة وفي أعقابه اللواء حسن الجريدلى الأمـــين العام للوزارة, كان من الواضح أن وصول الوزير إلى المكتب في هذا الوقت لـــم يكـــن مجـــرد مصادفة و إنما كان لكي يتأكد من أن موضوع التهريب يسير في الطريق الذي رســـمه. ولهـــذا السبب، فقد تنحيت جـــانبـــا عن الموضوع وجلست أتفرج على ما يدور بين الوزير والجنـــرال اوكينيف. كان صادق يقول للجنرال اوكينيف "أنا ليست لدي أية سلطة على رجال الجمارك. إنهم تابعون لوزير الاقتصاد. إنهم يفتشون الوزراء ."، ولكنه همس لي أنا واللواء حسن الجريدلى "إن المعلومات التي لدينا تؤكد أن معهم ٨٠ كيلوجراما من الذهب .", اقترح صادق على أوكينيف ما يلي: "يقوم كل فرد بملء تصريح للجمرك يسجل فيه ما يحمله من ذهب أو خلافه ويقوم بتســـليمه إلى الجمرك. يوقع اوكينيف على إقرار يفيد أنه مسئول عن إحضار كل من يطلب مـــن هـــؤلاء الأفراد من قبل المحكمة. سوف يتدخل صادق بعد ذلك وبعد أن تهدا نفوس رجال الجمارك لحفظ هذا الموضوع بحيث لن يطلب أحد للمحكمة"، وقد رفض أوكينيف هذا الاقتراح قائلا "ليس لـــدى الأفراد أي شيء ليصرح لهم به.. لابد أن أي فرد سوف ينتابه غضب شديد إذا نحن طلبنا منه أن يسلم "دبلة" أو خاتما اشتراه للذكرى بعد أن خدم في مصر عاما كاملا أو اكثر".

اخذ الكلام يدور بين صادق واوكينيف في حلقة مفرغة إلى أن دق جرس الهـــاتف فـــي مكتـــب الوزير، وكان الوزير يناديه باسم "محمد" [٢]. بعد هذه المكالمة اظهر الوزير بعض المرونة ولكنه لم يتخذ أية إجراءات إيجابية لحل الموضوع. وبعد اقل من نصف ساعة رن جرس الهاتف مـــرة أخرى وكان المتحدث هذه المرة هو "محمد" أيضا بعد تلك المكالمة الثانية تغيـــر موقف صـــادق تغييرا جذريا وطلب إليّ أن اذهب إلى المطار لكي احل الموضوع ولكني اعتذرت.. لماذا يسألني الآن؟ إنه هو صاحب هذا الموضوع. انه هو الذي خلقه. وهو الذي عقده وهو الذي يحـــاول الآن أن يجد له حلا. فليحله هو وحده. ذهب اللواء حسن الجريدلى إلى المطار مندوبا عن الوزير لحل

الموضوع.

كانت مجموعة المستشـــارين والخبراء السوفيت تقيم حفلا ساهرا في مساء هذا اليوم احتفالا بعيد النصر وكنت مدعوا لهذا الاحتفال الذي يبدأ في الثامنة مســاءا ولكنى شعرت بأن العلاقات بيننا كانت تخيم عليها الكآبة ففضلت أن أعود مرة أخرى إلى المنطقة المركزية لكي أتابع المشـــروع التدريبي الذي كنت قد انقطعت عنه لمدة ساعتين شـــاهدت فيهما أحد فصول هذه القصة المثيرة. إنني لا أحب أن أمثل دورا لست مقتنعا به وقد وجدت أن ذهابي لحضور حفل الأصدقاء الروس في مثل هذه الظروف لا يحمل المعنى المقصود من الدعوة فقررت الاعتذار.

وفي صباح اليوم التالي سألت عن موضوع التهريب وكيف تم حله فاتضح أن ٧١ فرداً ســـوفيتيا سافروا بعد أن سمح لهم أن يأخذوا معهم الهدايا التي اشتروها، وانه قد تم حصر جميع هذه الهدايا فكان بيانها كما يلي: ٢٦ سلسلة، ٤٥ خاتما، ٧٥ د بلة، ٤١ قرطا، ٧ غوايش، ٣ بروش.

كان الوزن الإجمالي لهذه الأصناف جميعها هو حوالي ١٢٠٠ جرام من الذهب أي بمعـــدل ١٧ جراما لكل فرد!

قرار الاستغناء عن الوحدات السوفيتية:

في يوم الأحد ٩ من يوليو ٧٢ كنت مدعوا في سفارة المملكة العربية السعودية لحضـــور مأدبـــة عشـــاء أقامها الســـيد السفير السعودي على شرف الأمير سلطان وزير الدفاع السعودي. [٣] وفي أحد أركان الســـفارة همس الفريق صادق في أذني بقرار الرئيس بخصوص طرد المستشـــــارين والوحدات السوفيتية. كان يقف معي الفريق عبد القادر حسن عندما اخبرنا الوزير بهـــذا الخبـــر وطلب إبقاءه سرا حيث أن الرئيس طلب منه ألا يخبر أحدا، وقد قص علينا صادق ما يلي "اتصل الرئيس بي هاتفيا في منزلي صباح يوم الجـــمعة وسألني ماذا أفعل هذا اليوم فقلت له لا شـــيء سوى أني ســـأقوم بتأدية صلاة الجـــمعة في الجـــامع عندما يحل وقت الصلاة، فقال لي: لماذا لا تحـــضر إلى استراحـــة القناطر وتؤدي الصلاة هنا فأجبته بأنني سأحضر. وعندما وصلت إلـــى هناك أخبرني بأنه قرر طرد جميع المستشارين السوفيت والوحدات الســـوفيتية المتمركـــزة فـــي مصر. وطلب مني ألا أخطر أحدا إلى أن يـــعلن هو ذلك في الأيام القليلة القادمة. وفـــي خـــلال اليومين الماضيين كنت أغالب نفسي لكي انفذ تعليمات الرئيس بعدم إخطار أحد ولكنـــي قـــررت اليوم أن أخبركما، ولاسيما بعد أن شعرت بان الرئيس قد اخطر غيري بهذا الخبر. قلت له "ولكنك تعلم مدى خطورة هذا القرار، إنه سوف يؤثر تأثيرا كبيرا على قـــدراتنا القتاليـــة. إن الـــروس يسهمون إسهاما فعالا في مســـئوليـــة الدفاع الجوي، إن لديهم لواءين جويين وفرقـــة صـــواريخ

ارض جو والعديد من وحدات الحرب الإلكترونية". أجاب صادق" أني أعلم ذلك وقد حاولت أثناء الرئيس عن قراره ولكني لم افلح فقد قال لي أني دعـوتك لكي أخطرك بالقرار وليس لمناقشته،. وللحقيقة فإنه على الرغم من اتجاهات صادق المعادية للسوفيت فقد كان يبدو عليه القلـق وعـدم الاطمئنان لهذا القرار، وقد أضاف قائلا "لقد كنت أنادي دائما بضرورة ممارسـة الضغط علـى الاتحاد السوفيتي للحصول على ما نحتاج أليه" ولكنني لم أتصور مطلقا أن نذهب إلى هذا المدى" كان الفريق عبد القادر حسن هو الآخر في غاية الضيق والقلق لهذا القرار.

إذا أعدنا قراءة ما قاله الرئيس بريجنيف للفريق صادق خـلال زيارته لموسكو فـي يوليـو ٧٢ (الباب الثالث/ الفصل الثامن عشر) فسوف يلفت نظرنا قوله "أن وجود المستشارين السوفيت فـي مصر هو ضرورة دولية". وأني لا اعتقد أن بريجنيف قد قال هذه الجملة بطريقة عفوية. لابد أن الروس قد علموا بان هناك تفكيرا في هذا الموضوع، وان بريجنيف بقوله هذا كـان يريـد أن يوضح الأمور. وإذا كـان هذا الافتراض سليما فمن هم الأشـخاص الذين أسهموا في خلق هذه الفكرة في ذهن الرئيس السادات وتشجيعه على إخراجها إلى حيز الوجود؟ والنقطة التـي تثيـر التساؤل أيضا هي لماذا يحـاول السادات الادعاء بأنه اخطر السفير الروسي بقراره يـوم ٦مـن يوليو في حين انه أخطره فعلا يوم ٨ يوليو؟ أن ما قاله السادات في كـتابه من انه أخطر السفير الروسي بقراره يوم ٦من يوليو لا يمكن أن يكون خطأ مطبعيا لأنه كان مقرونا بمعلومات تؤكـد أن الخطأ مقصود وهو قوله للسفير "وسأعلم وزير الحربية غدا بهذا الأمر" [٤] في حين أن الحقيقة هي أن الرئيس أخطر وزير الحربية يوم الجمعة ٧ من يوليو أي قبل أن يخطر السفير. إن هـذا يعني دون شك أن قرار السادات بطرد المستشـارين والوحدات السوفيتية لم يكن قرارا عفويا، لقد شاركت فيه عناصر في الداخل والخارج يحرص الرئيس على إخفائها. أن وصول الأمير سلطان وزير الدفاع السعودي إلى القاهرة قادما من أمريكا واتصاله بالسادات قبل أن يقوم السادات بإبلاغ الفريق صادق يوم ٧ من يوليو بقراره بطرد المستشارين والخبراء والوحدات السوفيتية، يـوحي إيحاءاً قويا بأن المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة قد لعبتا دورا هاما في دفع السـادات لاتخاذ قراره هذا. وأن حرص السادات على إخفاء تلك الضغوط السعودية الأمريكية عليه، هـو الذي دفعه إلى الادعاء بأنه ابلغ السفير السوفيتي بقراره يوم ٦ من يوليو وليس يوم ٨ من يوليـو كما حدث فعلا.

أخطرنا الوحدات بقرار الرئيس بعد ظهر يوم ١٦ من يوليو على أساس أن يبدأ التنفيذ اعتـبارا من صباح اليوم التالي، وفي صباح يوم ١٧ من يوليو اجتمـع الفريـق صـادق وأنـا وكبيـر

المستشارين لمناقشة الخطوط العريضة لتنفيذ قرار الرئيس. كان الاقتراح المصري بهذا الشأن يتضمن ما يلي:

١- إنهاء عقود الخدمة بجميع المستشارين. [٥]

٢- إنهاء العقود الخاصة بالخبراء [٦] فيما عدا الأشخاص الذين يطلب الجانب المصري الاحتفاظ بهم.

٣- القوات الصديقة [٧] التي تقوم بتشغيل أسلحة ومعدات مصرية تقوم بتسليم هذه الأسلحة والمعدات إلى الجانب المصري في خلال أسبوع من الآن.

٤- القوات الصديقة التي تقوم بتشغيل أسلحة ومعدات من ممتلكات الاتحاد السوفيتي – نظرا لأنه ليس لدينا الأفراد القادرون على تشغيلها– فقد اقترحنا بقاء هذه الوحدات في مصر شريطة أن تكون تحت القيادة المباشرة للقيادة المصرية. وينطبق ذلك بصفة خاصة على وحدات الحرب الإلكتروني وفوج الكوادرات

٥- جميع الأفراد الذين تنطبق عليهم شروط الترحيل يجب أن يغادروا الأراضي المصرية قبل أول أغسطس إذا تيسرت وسائل النقل اللازمة لذلك، أما الأفراد الذين لم يتمكنوا
من مغادرة الأراضي المصرية قبل هذا التاريخ لعدم توافر وسائل النقل، فإنه يتحتم عليهم التوقف عن ممارسة أي عمل عسكري اعتبارا من هذا التاريخ.

وافق الجنرال اوكينيف على هذه الاقتراحات جميعها فيما عدا البند الرابع الخاص ببقاء الوحدات السوفيتية، فقد أشار إلى أن التعليمات التي لديه هي أن يسحب جميع الأفراد وجميع الأسلحة والمعدات السوفيتية، ووعد بأنه سينقل هذه الرغبة الجديدة إلى موسكو ثم يقوم بإخطارنا بمجرد أن يتلقى الجواب.

كانت الأيام والأسابيع التالية أياما عصيبة ومشحونة بالأعمال الخاصة بترحيل الوحدات الروسية. كنت أتلقى كل يوم عشرات المكالمات الهاتفية من القوات الجوية والدفاع الجوي على أحداث متعددة "الروس يقومون الآن بفك الرادار الموجود في بني سويف! الروس يقومون الآن بفك الرادار الموجود في بير عريضة ، وسوف يترتب على ذلك إيجاد ثغرة في التغطية الرادارية! الروس يقومون الآن بنقل عدة أطنان من قطع الغيار من الوحدات الصديقة التي سوف يسلمونها لنا، الخ.. ". وفي الوقت نفسه يحضر الجنرال اوكينيف ليقول "بينما كانت قواتنا تقوم بتكديس الأصناف التي سيتم ترحيلها إلى الاتحاد السوفيتي اختفى أحد الصواريخ الحديثة غير المستخدمة في القوات الجوية المصرية! من الذي سرق هذا الصاروخ ولمصلحة من يعمل؟" إلى

غير ذلك من عشرات الحوادث.

لقد كانت أوامرنا صريحة وهي تقضي بان للسوفيت كامل الحق في سحب معداتهم وأنهم غير مطالبين إلا بتسليم الأسلحة والمعدات التي هي ملك مصر طبقا للعقود الرسمية الموقعة عليها من الطرفين. وأني عندما انظر إلى الوراء لأرى كيف تمت هذه العملية دون أية حوادث خطيرة فإنه لا يسعني إلا أن أثني على كل من القيادة المصرية وكبير المستشارين السوفيت وتعاونهما الصادق للتغلب على المشكلات التي أثارها الضباط الأصاغر والجنود من الطرفين، الذين كانوا اقل قدرة على التحكم في عواطفهم. عرضنا على الاتحاد السوفيتي المساعدة بتوفير الطائرات والمراكب اللازمة لترحيل الوحدات السوفيتية ولكنهم اعتذروا عن قبول هذه المساعدة وقد أوقفنا الدراسة في الكلية الحربية في الفترة ما بين ٢٨ من يوليو و ١ من أغسطس حتى يمكن استخدامها كمنطقة تجمع للأفراد السوفيت الذين يبقون في مصر بعد أول أغسطس انتظارا لوسائل النقل المختلفة.

كان إجمالي الأفراد المرحلين هو ٧٧٥٢، وتفصيلهم كما يلي: (٨)

١٠٠٠ مستشار وخبير.

٦٠١٤ إجمالي الأفراد في الوحدات الصديقة.

٧٣٨ عائلات المستشارين.

٧٧٥٢ إجمالي.

وبنهاية شهر يوليو كان قد تم ترحيل ٢٥٩٠ ، تم ترحيل ١٩٧٣ منهم بواسطة الطائرات، و ٦١٧ تم ترحيلهم بواسطة النقل البحري. وبذلك كان الباقي هو ٥١٦٣ (٥٣٩ من المستشارين وعائلاتهم، ٤٦٣٣ من الوحدات الصديقة)، وقد تم ترحيلهم جميعا خلال النصف الأول من شهر أغسطس ٧٢، وذلك فيما عدا فوج الكوادرات فقد تم ترحيله في نهاية أغسطس.

كانت الوحدات الصديقة التي تعمل بمعدات سوفيتية لم يسبق لنا التعاقد على مثلها تشمل الوحدات التالية:

- رف طائرات ميج ٢٥.
- سرب استطلاع و إعاقة إلكتروني.
- وحدة سمالطا وهي وحدة إلكترونية يمكنها أن تعوق جهاز التوجيه في الصواريخ الهوك.
- وحدة تاكان وهي وحدة إلكترونية يمكنها أن تعوق أجهزة التوجيه في الطائرات المعادية.

وقد قام السوفيت بسحب هذه الوحدات ورفضوا منذ البداية إبقاءها في مصر لأنهم كانوا يعتبرون

هذه المعدات على درجة عالية من السرية.

أما بخصوص الكوادرات فقد كان الموقف مختلفا، حيث انه سبق لنا أن تعاقدنا علـــى فــوجي كوادرات ولكن لم نكن قد انتهينا من تدريب الأفراد اللازمين لتشغيل هذه الصـــواريخ. عــرض الروس أن يسلموا الفوج لنا كواحد من الفوجين المتعاقد عليهما فرفضـــنا. [٩] عــرض الـــرئيس السادات أن يبقى أفراد الفوج في مصر حتى نهاية عام ٧٢ شريطة ألا يقوموا بأية مهمـــة قتالية فرفضوا. واستغرقت هذه المناقشات الكثير من الوقت إلى أن أتصل بي قائد المنطقة الجنوبية يوم ٢٩ من أغسطس واخطرني بان الروس قد بدأوا يســـحبون الفوج. اتصلت بالجنرال أوكينيف فأكد بأنه قد وصلته تعليمات بسحب الفوج وإعادته إلى الاتحاد السوفيتي. اتصلت يوم ٣٠ من أغسطس بالرئيس وأبلغته بقرار السوفيت النهائي بخصوص الفوج فعلق قائلا"مع الســـلامة" وهكذا انسحب الفوج. ومعه ١٨ قطعة شيلكا و ٤٨ ستريلا (سام ٧).

هوامش الفصل الثاني والعشرون

(١)كما سبق أن ذكرت في الفصل الثامن عشر، رفضت مصر بعد ذلك شراء الطائرة تي يو ٢٢ وتنازل السوفيت عن مطلبهم الخاص بالدفع بالعملة الصعبة وبالثمن الكامل بالنسبة للدبابة ت ٦٢، وبالتالي تم التوقيع على هذه الصفقة بشروط الدفع السابقة نفسها.

(٢)لم أسال الوزير عن شخصية المتكلم ولكني اعتقد انه كان محمد حافظ إسماعيل مستشار الرئيس للأمن القومي.

(٣)كان الأمير سلطان قد وصل من رحلة له إلى أمريكا يوم ٧ من يوليو، وقد أقام الفريق صادق مأدبة عشاء على شرفه في نفس اليوم في نادى الرماية بالهرم.

(٤)انظر ما جاء في مذكرات السادات صفحتي ٣١٢، ٣١٣ من الطبعة العربية وفي صفحتي ٢٢٩، ٢٣٠ من الطبعة الإنجليزية.

(٥)لفظ "المستشارون السوفيت" كان يطلق على الضباط الذين يلحقون بالقيادات المختلفة وذلك لإبداء النصيحة للقادة في الأمور التكتيكية والإدارية والتدريب، وكان عددهم حوالي ٨٧٠ مستشارا، كان الاستغناء عن خدماتهم لا يؤثر على قدراتنا.

(٦)لفظ "الخبير السوفيتي" كان يطلق على الشخص ذي التخصص الفني الذي يرافق معدة فنية حديثة ليدرب الأفراد المصريين عليها وتنتهي مهمته بمجرد انتهائه من تدريب الأطقم المصرية القادرة على تشغيل هذه المعدات وينطبق هذا مثلا على من يقوم بتدريب طيارينا على استخدام الصواريخ جو ارض في الطائرة TU16 وعلى من يقوم بتدريب أطقمنا على الدبابة ت ٦٢ الخ ، والاستغناء عن هؤلاء الأفراد قبل أن يتم تدريب أفرادا على هذه المعدة لابد أن يعرقل جهودنا في إعداد القوات للمعركة.

(٧)لفظ "الوحدات الصديقة" كان يطلق على الوحدات السوفيتية في مصر، وكانت هذه الوحدات الصديقة تنقسم إلى مجموعتيه المجموعة الأولى وهي الوحدات التي جميع أسلحتها ومعداتها ملكا لمصر، والمجموعة الثانية وهي تلك الوحدات التي تقوم بتشغيل أسلحة ومعدات من ممتلكات بالاتحاد السوفيتي.

(٨) يدعي السادات في خطبه أن عدد السوفيت الذين طردهم هو ١٧٠٠٠، وقد سبق لوسائل الإعلام الغربية أن ذكرت هذا الرقم، ولعل إصرار السادات على استخدام هذا الرقم يكمن تفسيره بأحد الاحتمالين التاليين: إما الجهل بالحقائق و أما المبالغة لكي يظهر نفسه بمظهر

الرجل القوي.

(٩) رفضنا عام ١٩٧٢ قبول فوج سام ٦ مستخدم. و ها هو ذا السادات عام ١٩٧٩ يقبل شــراء سرب طائرات فانتوم مستخدم سابقا.

الفصل الثالث والعشرون

تحسنت العلاقات.. ولكن الشكوك بين الطرفين ظلت قائمة

رحلة عزيز صدقي إلى موسكو:

تدهورت العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتي بعــد قــرار الاســتغناء عــن المستشــارين الســوفيت على الرغم من المظاهر الشكلية التي كان كل طرف يقوم برسمها وفي ٤ من اكتوبر طلبت السلطات السوفيتية الإذن لثلاث ناقلات جنود بالتمركز مجددا في بور سعيد التي كانت قــد غادرتها منذ شهرين. اتصلت بالرئيس واقترحت عليه ان نوافق حتى يساعد ذلك علــى تحســين الجو وخلق فرص طيبة لإنجــاح رحلة الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء إلى موسكو. فقــال الرئيس "لا مانع، أن اتفاقية التسهيلات تعتبر سارية المفعول حتى مارس ٧٣، وإذا لم تنجح رحلة عزيز صدقي فسوف أنهي هذه التسهيلات واصدر قرارا بإخراجهم". وفي يــوم ٥ مــن اكتــوبر دخلت الناقلات الثلاث ميناء بور سعيد فكانت اول ظاهرة عملية على بدء تحسن العلاقــات بــين الدولتين.

سافر الدكــتور عزيز صدقي إلى موسكو يوم ١٢ أكتوبر وحققت رحلتــه نجاحــا كـــبيرا، ووعده القادة السوفيت بإمداد مصر بأسلحة متقدمة لم يسبق إمدادنا بها قبل ذلك، ويشمل ذلك مــا يلي:

- سرب ميج ٢٣ يتم توريده في الربع الثالث من ١٩٧٣.
- سرب سوخوي ٢٠ يتم توريده في الربع الثالث من ١٩٧٣.
- لواء صواريخ سطح سطح **SSM** ذات مدى ٣٠٠ كيلومتر، ويتم إبلاغنا في أوائل عـــام ٧٣ عن تواريخ التوريد.

صفقة أسلحة جديدة في مارس ٧٣:

وفي ٥ فبراير ٧٣ وصل الى القاهرة وفد عسكري سوفيتي برئاسة الجنرال لاشنكوف **LASHENKOV** وعادت اللجنة الى موسكو يوم ١٢ فبراير بعـــد ان قامت بدراسة احتياجاتنا.

وفي مارس ٧٣ سافر وزير الحربية لتوقيع اتفاقية جديدة شملت الأصناف الرئيسية التالية:

- سرب ميج ٢٣ (يتم إرسال الطيارين المصريين إلى الاتحاد السوفيتي للتدريب خلال شهري مايو و يونيو هذا العام).
- لواء صواريخ **R-17-E** يتم توريده خلال الربع الثالث [١] من عام ٧٣
- فوج كوادرات.
- ٢٠٠ عربة قتال مدرعة ب.م.ب **BMP** [٢] يسلم جزء منها فورا لأغراض التدريب ويسلم الباقي خلال الربع الثالث من عام ١٩٧٣.
- ٥٠ مالوتكا يتم توريدها فورا.
- العديد من قطع مدفعية الميدان بما في ذلك المدافع ١٨٠ مم.

اخبرني الفريق احمد إسماعيل بعد عودته من موسكو في رحلة مارس ٧٣ أن الاتحاد السوفيتي وعده بأنه سيعيد تمركز طائرات الميج ٢٥ الأربع وسرب الاستطلاع والإعاقة الإلكتروني في مصر، إلا أنه لم توقع أية اتفاقية مكتوبة بخصوص هذا الموضوع.

كانت اتفاقية مارس ٧٣ تتويجا للرحلة التي قام بها الدكتور عزيز صدقي في أكـــتوبر٧٢، فقد قام السوفيت بتنفيذ وعودهم للدكتور عزيز صدقي كلها وزادوا عليها، وذلك فيما عدا استبدال سرب السوخوي ٢٠ بفوج كوادرات. كانت الصفقة تشمل ثلاثة أسلحة جديدة لم يسبق إدخالها ضـــمن القوات المسلحة هي ميج ٢٣ وصواريخ **R-17-E** وعربة القتال المدرعة **BMP**.

وفي يوم ٩ من يوليو اتصل بي السيد حافظ إسماعيل مستشـــار رئيس الجمهورية لشئون الأمن القومي وأخطرني بأنه سيقوم برحلة إلى الاتحاد السوفيتي، وســـألني عن الموضوعات التي يمكنه إثارتها مع القيادة السياسية السوفيتية بخصوص القوات المسلحة، فطلبت منه أن يستعجل إرسال الأصناف التالية:

- لواء الصواريخ **R-17-E** ضمن اتفاقية مارس ٧٣.
- سرب الاستطلاع والإعاقة الإلكتروني.
- ٤ طائرة ميج ٢٥.

في يوم ١٢ من يوليو اتصل بي الجنرال ساماخودسكى. وهو كبير ضبـاط الاتصـال بالسـفارة السوفيتية، و أخطرني بأن الجنرال سـابكوف SAPKOV ومعه خمسة ضـباط سيصـلون صـباح اليوم التالي لإجراء الترتيبات اللازمة لاستقبال معدات اللواء R-17-E. وفي خـلال ٨-١٠ أيـام سوف يصل ٦٣ خبيرا سوفيتيا يعود منهم ٢٦ خبيرا بعد تسليم معدات اللواء، ويبقى في مصـر ال ٣٧ الآخرون لتدريب الأفراد المصـريين. وفي يوم ١٤ اجتمع في مكتبي الجنـرال SAPKOV لبحث الخطوط العريضة لتنظيم وتدريب اللواء الجديد. كان علينا أن نتفق أولا على تنظيم اللـواء ثم نقرر الأمكنة اللازمة لتمركزه والمغر اللازمة للتحفظ فيها على الصواريخ ثم تدبير الضـباط والجنود اللازمين طبقا للتنظيم. وفي خلال ٤٨ ساعة تم وضع التنظيم الخاص باللواء على الورق وبدأت المشكلة الحقيقية وهي التشكيل.

عقدت مؤتمرا موسعا مع جميع الأفرع المختصة في مكتبي يوم ١٧ من يوليو وأخبرت المجتمعين أن تشكيل هذا اللواء الذي ليس لدينا أي خبرة سابقة به يعتبر تحديا لنا ويجب أن نقبل هذا التحدي، وكان التجاوب رائعا من جميع الحاضرين، وفي خلال أسبوعين كان اللواء قد تم تشكيله، وأصبح جاهزا للتدريب. وبينما كان تشكيل اللواء يجري على قدم وساق كان الخبراء السوفيت يقومـون باستلام المعدات وتخزينها في المغـر التي اختيرت لذلك. وفي الأول من أغسطس بـدا اللـواء تدريبه الفني تحت إشراف الخـبراء السوفيت، وفي يوم ٢٣ من أكتوبر ٧٣- قبل وقف إطـلاق النـار ببضع دقائق- احـتفل اللواء بانتهاء تدريبـه بأن أطلق ثلاث قذائف علـى العـدو فـي منطقـة الدفرسوار. إن تشكيل هذا اللواء في خـلال أسبوعين وإتمام تدريبه في أقل من ثلاثـة أشـهر يعتبر مفخـرة لدقة التنظيم وقوة التحدي لدى أبناء مصر.

أما سرب الميج ٢٣ الذي نص عليه في اتفاقيـة مارس ٧٣ فهو السلاح الوحـيد الذي لم يشترك في معركـة أكتوبر ٧٣ حيث إنه عند قيام الحرب كان الطيـارون مازالوا قيـد التـدريب فـي الاتحاد السوفيتي، أما الأصناف الأخرى جميعها فقد تم استيعابها و إشراكها في الحرب، بما فـي ذلك عربات القتال المدرعة BMP التي كانت تدخل قواتنا المسلحة لأول مرة فقد تمكنا من تجهيـز كتيبتين بهذه المركبات قبل ١٢ من سبتمبر ٧٣، وانتهينا من تجهيز ثلاث كتائب أخرى قبـل أول أكتوبر ٧٣.

إخفاء نوايانا عن السوفيت:

كـــان تخطيطنا وتحــضــيرنا للهــجــوم يتمان في ســرية تامــة دون أي إخطار للاتحــــاد السوفيتي. وقبل المعركة بأسبوع أمر الرئيس السادات بأن نقوم أخطار الجانب العسكري السوفيتي باحتمال قيام العمليات ولكن بشكل عام لا يبدو منه نيتنا بالهجوم. وهكذا كلف مــدير المخـــابرات الحربية بأن يقوم بإبلاغ الجنرال ساماخودسكى [٣] يوم ٢ من أكتوبر بأنه قد وصلتنا معلومات تفيد بان إسرائيل سوف تقوم بعملية إغارة على الأراضي المصرية ولكننا لم نعلم متى وأين ســتكون هذه الإغارة ثم يطلب إليه أن يحاول الاتحاد السوفيتي التحقق من هذه المعلومات وفـــي اليــومين الثالث والرابع من أكتوبر يقوم بتصعيد هذه الأخبار فيقول له أن لدينا معلومـــات مؤكـــدة بـــان إسرائيل ستقوم بعملية إغارة واسعة النطاق، وقد تقوم خلالها بضربة جوية مركزة وهكذا سارت الأمور كما هو مخطط لها على الرغم من مظاهر الاستعدادات للهجوم، والتي ما من شـــك قـــد أثارت اهتمام الخـــبراء السوفيت الذين كانوا مازالوا يعملون في مصر، وبعضهم كان يعيش داخل بعض وحداتنا العسكرية.

لابد أن الخبراء السوفيت قد قاموا بإخطار قياداتهم بالاستعدادات غير العادية التي يرونها تتم داخل الوحدات، ولاشك أن الاتحاد السوفيتي قد أكدت له أقماره الصناعية بأن هناك اســتعدادات غيــر عادية تتم على الجبهتين المصرية والسورية مما يؤكـــد تقارير الخبراء من رجاله. كما انه مـــن المحتمل أن يكون الرئيس السادات أو الرئيس حافظ الأسد قد قام بإخطار القيادة الســوفيتية بأننــا سنقوم بالهجوم. [٤] أن تصرف الاتحاد السوفيتي ليلة ٤/٥ أكتوبر توحي بأنه كان يعلم أو– علـــى الأقل– يحس ويشك بأن الحرب وشيكة الوقوع. ففي خـــلال هذه الليلة أرسل ٤ طـــائرات نقـــل كبيرة لإجـــلاء معظم الخبراء الذين كانوا مازالوا يعملون في مصر، وقبل منتصف نهار الجمعة ٥ أكتوبر كان قد أجلى جميع من يريد إجلاءهم من الخبراء والعائلات لماذا اقدم الاتحاد السوفيتي على هذه الخطوة ؟ إن القول بأنه أراد أن يغسل يديه مسبقا من أية مسئولية تترتـــب علـــى هـــذه الحرب قول غير مقنع لعدة أسباب: أولا إن الإجلاء لم يكن شاملا فقد بقي عدد ليس بالقليل مـــن الخبراء السوفيت دون إجلاء. ومنهم خبراء R-17-E ولو أن الاتحاد السوفيتي سحب خبراء R-17-E ليلة ٤/٥ أكتوبر لما استطاع اللواء أن يتم تدريبه ويطلق قذائفه يوم ٢٢ أكتوبر كما حدث ثانيا أن ارتباط الاتحاد السوفيتي بالحرب ونتائجها هو حقيقة تفرضها الاستراتيجية العالمية، وسواء تواجد بأفراد أم لا فإنه بالتأكيد يتأثر بنتيجة المعركة إن نصرا أو هزيمة سواء أعلن عن ذلك أم لم يعلن. وثالثا لماذا يسحب الاتحاد السوفيتي خبراءه من مصر ولا يسحبهم من سوريا؟ إني اعتقد أن هناك

أسبابا أخرى وراء أقدام الاتحاد السوفيتي على إرسال ٤ طائرات نقل من طراز انتنوف ٢٢ ليلة ٥/٤ أكتوبر ٧٣ !

وكما أخفينا عن الروس نوايانا في الهجوم، فقد أخفينا عنهم المعلومات التفصيلية كلها خلال سير العمليات لم نكن نخطرهم مطلقا بما ننوي عمله في الأيام المقبلة، ولم نكن نخطرهم بنتائج المعارك الماضية. لم يكن يسمح للجنرال ساماخودسكي بدخول غرفة العمليات وقد كان يحصل على المعلومات من خلال أحد ضباط المخابرات بحيث لا تزيد المعلومات التي تسلم إليه على المعلومات التي تصدر في البيانات الرسمية. وفي خلال الفترة من ١٦-٢٢ أكتوبر عندما كان موقف العدو غرب القناة يتطور يوما بعد يوم، كانت بياناتنا إلى الجنرال ساماخودسكي دائما مضللة ولا تعطي صورة حقيقية للموقف كان هذا خطأ جسيما وعملا معيبا، كان الأسلوب الذي نتعامل به مع السوفيت بصفته حليفنا الرئيسي يختلف اختلافا كبيرا عن الأسلوب الذي تتعامل به إسرائيل مع حليفتها أمريكا. يقول الجنرال اليعازر -رئيس أركان حرب القوات المسلحة الإسرائيلية خلال حرب أكتوبر ٧٣- في مذكراته انه بمجرد اندلاع الحرب أجرى الاتصال المباشر مع وزارة الدفاع الأمريكية واخذوا يطلعونهم على خططهم ويطلبون نصيحتهم وحرصوا أن يظل هذا الاتصال مباشرا طوال مدة الحرب لاشك أن هذا التعاون الإسرائيلي الأمريكي على مستوى القيادات العسكرية العليا هو الأسلوب الصحيح للتعاون بين الحلفاء إذ كيف يستطيع الحليف أن يقدم العون إلى حليفه أن لم يكن يعرف حقيقة موقفه؟ ومع ذلك- و للأسف الشديد- فقد كانت تعليمات الرئيس السادات تقضي بالا يعرف حلفاؤنا السوفيت اكثر مما يعلن في الصحف والبيانات الرسمية.

وكما كان الاتصال مقطوعا بين القيادتين العسكريتين فقد كان التعاون بين القيادتين السياسيتين في مصر والاتحاد السوفيتي يكاد يكون معدوما. لقد رفض السادات جميع العروض التي تقدم بها السوفيت لوقف إطلاق النار. إن السادات يقول انه رفض طلبات الروس المتكررة لوقف إطلاق النار وقال لهم انه لن يوافق على وقف إطلاق النار إلا بعد إتمام المهام التي تتضمنها الخطة. والذي لم يقله السادات هو أن الاتحاد السوفيتي- كحليف مشترك معنا في المشكلة-أرسل سفيره إليه يوم ٩ من أكتوبر يستفسر عن الهدف العسكري الذي تعمل القوات المسلحة المصرية على تحقيقه. فماذا قال السادات؟ نظر إلى السفير وقال "انك تتكلم مع القائد الأعلى للقوات المسلحة.. إن سؤالك هذا سؤال سياسي لا يوجه إلى القائد الأعلى ولذلك فسأعتبر نفسي وكأني لم اسمع هذا السؤال الذي وجهته. إذا كان لديك سؤال سياسي فيمكنك أن

تذهب إلى الدكتور محمود فوزي وتوجهه إليه !!؟" [٤]. هل يمكن أن يكون هناك تعاون بين القيادتين السياسيتين المصرية والسوفيتية إذا كانت القيادة السياسية السوفيتية لا تعرف ماذا تريد القيادة السياسية المصرية؟؟ ما الذي كان يقصده السادات عندما طلب من السفير الروسي أن يتصل بالدكتور محمود فوزي فيما يتعلق بالشئون السياسية ؟ هل بلغ استهزاء السادات بعقول الناس هذا الحد. وهل يستطيع الدكتور محمود فوزي الإجابة حقا عن هذا السؤال ؟ وبعد انتهاء الحرب وفك الاشتباك الثاني في سبتمبر ١٩٧٥، تكلم السادات ولأول مرة بان هدف القوات المسلحة من حرب أكتوبر ٧٣ كان هو"احتلال شريحة من الأرض بعمق حوالي ١٠ كيلومترات شرق القناة".

لماذا إذن أمرت يا سادات بتطوير الهجوم نحو الشرق يوم ١٤ من أكتوبر على الرغم من معارضة القادة جميعهم. ولماذا إذن رفضت يا سادات وقف إطلاق النار وقد حققت القوات المسلحة هذا الهدف اعتبارا من يوم ٧ أكتوبر ونجحنا في صد الهجمات المضادة جميعها خلال يومي ٨ و ٩ من أكتوبر؟ هناك أسئلة كثيرة يجب أن يجيب عنها السادات إذا كان هذا هو هدف القوات المسلحة، فلماذا إذن اخذ يضلل القيادة السياسية السوفيتية ويرفض نصائحها عندما كانت قواتنا المسلحة في وضع ممتاز؟ وبعد أن حدثت الثغرة لماذا يقلل السادات من أهميتها ويرفض الحلول العملية للقضاء عليها ثم يطلب وقف إطلاق النار وهو في موقف ضعف ويأمر قواته بعدم اتخاذ أي إجراء مسبق لمنع محاصرة الجيش الثالث؟ إنها جريمة كبرى يجب ألا تترك دون تحقيق نزيه حتى يمكننا معرفة هذه الأمور الغامضة.

هوامش الفصل الثالث والعشرون

(١) يعرف R17E في الغرب باسم SCUD

(٢) هي عربة مجنزرة تنقل جماعة مشاة وتماثل إلى حد كبير العربة الألمانية ماردر.

(٣) بعد إنهاء عمل المستشارين السوفيت وترحيل الوحدات السوفيتية من مصر خلال شهر يوليو ٧٢، عين الجنرال ساماخودسكي ومعه مجموعة من الضباط للقيام بأعمال الاتصال بين القيادتين العامتين للقوات المسلحة السوفيتية والمصرية. وكان مركز عمله هو السفارة السوفيتية بالقاهرة.

(٤) يقول السادات في مذكراته في الصفحتين رقمي ٣٣١، ٣٣٢ أنه اخطر الاتحاد السوفيتي يوم ٣ من أكتوبر، وان الرئيس حافظ الأسد أخطرهم يوم ٤ من أكتوبر.

(٥) هذه القصة نقلا عن كتاب حسنين هيكل "الطريق إلى رمضان" الصفحة ٢١٩ النسخة الإنجليزية.

الفصل الرابع والعشرون

تقييم المساعدات العسكرية السوفيتية

حجم الأسلحة السوفيتية:

ليس من الصواب ان نقلل من أهمية المساعدات السوفيتية العسكرية لمصر من ناحية الكم والكيف، حيث ان الأرقام وحدها كفيلة بإثبات خطأ هذا الادعاء. لقد ذكرت في هذا الباب ما حصلت عليه مصر في الفترة من اكتوبر ٧١ الى اكتوبر ٧٣ (أنظر اتفاقيات اكتوبر ٧١ ومايو

٧٢ ومارس ٧٣) من الأصناف الرئيسية. قد يطول الموقف لو أننا استعرضنا ما حصلت عليه مصر من الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية منذ ان كسر جمال عبد الناصر احتكار السلاح عام ١٩٥٥، ولكننا سنكتفي بذكر حجم الأسلحة التي كانت تحت تصرف مصر قبل اكتوبر ٧٣ متناسين ما خسرته مصر في حربين سابقتين هما حرب عام ١٩٥٦ وحرب عام ١٩٦٧. لقد كان حجم القوات المسلحة المصرية صباح يوم ٦ اكتوبر ٧٣ كما يلي:

القوات البرية:

١٩ لواء مشاة راكب (عربات ذات العمل).

٨ ألوية مشاة ميكانيكية (عربات جنزير).

١٠ ألوية مدرعة.

٣ ألوية جنود الجو.

لواء برمائي.

لواء صواريخ ارض ارض R-17-E

وكان مع هذه القوات حوالي ١٧٠٠ دبابة، ٢٠٠٠ عربة مدرعة ٢٥٠٠ مدفع وهاون، ٧٠٠ قاذف صاروخي موجه، ١٩٠٠ مدفع مضاد للدبابات، ٥٠٠٠ ر.ب.ج RPG عدة آلاف من القنبلة اليدوية المضادة للدبابات ر-ب-ج ٤٣.

القوات الجوية:

٣٠٥ طائرات قتال (إذا أضيفت إليها الطائرات المخصصة للتدريب فإن العدد يرتفع إلى ما يزيد على ٤٠٠ طائرة).

٧٠ طائرة نقل.

١٤٠ طائرة هليوكوبتر.

قوات الدفاع الجوي:

١٥٠ كتيبة صواريخ SAM.

٢٥٠٠ مدفع مضاد للطائرات من عيار ٢٠ مللمتر فما فوق.

القوات البحرية:

١٢ غواصة.

٥ مدمرات

٣ فرقاطات.

١٢ قناصا.

١٧ قارب صواريخ.

٣٠ قارب طوربيد.

١٤ كاسحة الغام.

١٤ قارب إنزال.

إن حجم السلاح الذي كان تحت يدنا قبل حرب أكتوبر كان يفوق ما لدى الكثير من دول حلف وارسو وحلف الناتو، وقد يدهش الكثيرون إذا علموا أن قواتنا البرية واكرر البرية وليس الجوية أو البحرية- كانت تتفوق على القوات البرية في كل من بريطانيا وفرنسا! ولكن يجب ألا ننسى أيضا أن أمريكا كانت تمد إسرائيل بأسلحة متقدمة وبكميات وفيرة حتى جعلت منها ترسانة من الأسلحة. كانت سياسة أمريكا- وما تزال- هي أن تضمن لإسرائيل التفوق على جيرانها مجتمعين. لقد كانت القوات الجوية الإسرائيلية متفوقة تفوقا كبيرا على القوات الجوية المصرية والسورية مجتمعتين ولقد لعب التفوق الجوي الإسرائيلي دورا كبيرا وفعالا في إسكات واحتواء قواتنا البرية والبحرية. و إذا أخذنا المعونة السوفيتية لمصر والمعونة الأمريكية لإسرائيل كأساس للمفاضلة في مدى صداقة كل منهما لحليفه كان واضحا أن صداقة أمريكا لإسرائيل كانت أقوى بكثير من صداقة روسيا لمصر. إن هذه حقيقة لا يمكن إنكارها، ولكن ذلك قد يثير لنا سؤالا أخر وهو هل هناك دولة أخرى في العالم اجمع تستطع أن تعطي السلاح لمصر بالكم والكيف وأسلوب الدفع الذي كان يقدمه الاتحاد السوفيتي ؟ أعتقد أن الإجابة هي لا. وان هذه الإجابة أيضا هي بديهية ولا يختلف فيها اثنان. ومن هنا فإنه يمكن القول بأمانة "إن الاتحاد السوفيتي لم يكن الصديق المثالي ولكنه كان افضل صديق في الساحة العالمية".

لقد ذكرنا حجم الأسلحة السوفيتية التي كانت في أيدي أبناء مصر قبل حرب أكتوبر ٧٣، أما إذا حاولنا حصر الأسلحة التي قام الاتحاد السوفيتي بإمداد الدول الغربية بها خلال الثماني عشرة سنة التي سبقت هذه الحرب فسوف نجد أرقاما تكاد تكون خرافية (حوالي ٧٠٠٠ دبابة، حوالي ١٨٠٠ طائرة حوالي ١٨٠٠٠ ألف مدفع من مختلف الأعيرة حوالي ١٥٠ قطعة بحرية، واكثر من مليوني قطعة سلاح صغيرة من بنادق ورشاشات و ر.ب.ج. الخ) وإن هذا الحجم من السلاح يوضح لنا مدى قدرة الاتحاد السوفيتي كدولة عظمى على التأثير في الأحداث في منطقة الشرق الأوسط.

الإمدادات السوفيتية أثناء حرب أكتوبر ٧٣:

وفي خلال الحرب قام الاتحاد السوفيتي بإقامة اكبر جسر جوي في تاريخه الحربي إلى كل من مصر وسوريا. لقد قام بتنفيذ ٩٠٠ رحلة بواسطة طائرات انتنوف ١٢ وانتنوف ٢٢ [١] نقل خلالها ١٥٠٠٠ طن من المعدات الحربية. فإذا علمنا أن هذا الكوبري الجوي لم يكن مخططا له، وانه قد بدئ به بعد ثلاثة أيام من بدء الحرب، اتضحت لنا المشكلات والثغرات التي يمكن أن تظهر نتيجة لهذه الظروف. وعلى سبيل المثال فقد كانت معدلات الاستهلاك خلال حرب أكتوبر مختلفة تماماً عن معدلات استهلاك الحروب السابقة والتي بني على أساسها حجم وأوزان الأصناف التي ترسل بواسطة الكوبري الجوي، فهناك أصناف من الذخيرة كان استهلاكنا منها أقل بكثير من مما قدرناه وفي الوقت نفسه كان استهلاكنا من بعض الأصناف الأخرى اكثر بكثير مما قدرناه وكان علينا أن نسرع بإخطار الاتحاد السوفيتي بهذه المعلومات لكي يجري التعديلات اللازمة في النقل الجوي حتى تتمشى مع احتياجاتنا الفعلية، ولكن هذا لم يمنع أن تصل أحيانا بعض الأصناف التي لا نحتاج إليها في حين كنا نعاني النقص في صنف أخر. ومع ذلك فإن هذه الأخطاء لا يمكن أن تقلل من تقديرنا للكفاءة والسرعة اللتين تم بهما هذا الكوبري الجوي. إن هذا الكوبري يعتبر مفخرة للاتحاد السوفيتي من حيث الحجم والسرعة في التخطيط والتنفيذ، ومفخرة لسوريا ومصر من حيث السرعة في التفريغ والفرز والدفع إلى الجبهة بالنسبة لهذا الحجم الكبير من الإمدادات.

لاشك أن هذا الكوبري الجوى السوفيتي يعتبر متواضعا إذا قورن بالكوبري الجوي الأمريكي إلى إسرائيل. لقد نقل الأمريكيون خلال ٥٦٦ رحلة ٢٢٣٩٥ طنا من الإمدادات مستخدمين الطائرات سي ٥ ،سي ١٤١ [٢] وقد قامت شركة العال الإسرائيلية بنقل ٥٥٠٠ طن أخرى وبذلك أصبح أجمالي الجسر الجوي إلى إسرائيل هو ٢٧٨٩٥ طنا [٣]. فإذا أدخلنا في حسابنا أن المسافة من أمريكا إلى إسرائيل هي ٧٠٠٠ ميل والمسافة من الاتحاد السوفيتي إلى مصر وسوريا هي ٢٠٠٠ ميل اتضح لنا أن الكوبري الجوي الأمريكي الإسرائيلي يساوى ٦,٥ مرة الكوبري الجوي السوفيتي على أساس وحدة الطن/ ميل وذلك طبقا لما يلي:

كوبري شركة العال: ٥٥٠٠ طن× ٧٠٠٠ ميل= ٣٨٥٠٠٠٠٠ طن ميل.

الكوبري الجوي الأمريكي: ٢٢٣٩٥ طن × ٧٠٠٠ ميل= ١٥٦٧٦٥٠٠٠ طن ميل.

الإجمالي الأمريكي الإسرائيلي: ٢٧٨٩٥ طن ×٧٠٠٠ ميل= ١٩٥٢٦٥٠٠٠ طن ميل.

الكوبري الجوى السوفيتي: ١٥٠٠٠ طن × ٢٠٠٠ ميل= ٣٠٠٠٠٠٠٠ طن ميل.

النسبة على أساس طن ميل: ١٩٥٢٦٥٠٠٠– ٣٠٠٠٠٠٠٠= ٦,٥ مرة.

كان الكوبري الجوي الأمريكي يشمل طائرات الفانتوم وطائرات الهليوكوبتر ٥٣ CH53. الدبابات M60 واحدث أنواع المعدات الخاصة بالحرب الإلكترونية [٤]. أما الكوبري الجوي السوفيتي فقد شمل الدبابات (للجبهة السورية فقط)، وسائل الدفاع الجوي والذخائر. وقد أرسل أكثر من نصف الكوبري الجوي إلى الجبهة السورية.

وعلاوة على الكوبري الجوي فقد قام السوفيت أيضا بعملية نقل بحري واسعة النطاق بلغت- حتى وقت وقف إطلاق النار- ٦٣٠٠٠ طن. وقد وجه مجهود النقل البحري الرئيسي إلى الجبهة السورية. [٥]

نشاط الأسطول السوفيتي في البحر الأبيض:

أما الأسطول السوفيتي في البحر الأبيض فقد اخذ يزداد بأقصى سرعة تسمح بها معاهدة مونترو ١٩٣٦ والتي تحدد عدد القطع الحربية التي تعبر المضائق في وقت واحد كما تتطلب إخطار تركيا قبل عبور أية قطعة بحرية بثمانية أيام على الأقل. وهكذا عندما بدأت الحرب كان للسوفيت في البحر الأبيض ٢٠ قطعة قتال بحرية. وبنهاية شهر أكتوبر وصل هذا العدد إلى ٤٠ سفينة قتال بينما وصل إجمالي السفن عموما إلى ٨٥ سفينة.

الإنذار السوفيتي:

وبالإضافة إلى المساعدات التي قدمها الاتحاد السوفيتي إلى مصر فقد وقف يوم ٢٣ أكتوبر موقفا حازما كان له اثر واضح في كبح جماح إسرائيل وإرغامها على احترام وقف إطلاق النار [٦]. كانت إسرائيل قد تجاهلت قرار وقف إطلاق النار الذي كانت قد قبلته مساء يوم ٢٢ أكتوبر واستأنفت عملياتها صباح يوم ٢٣ أكتوبر و أكملت حصار الجيش الثالث الميداني. كان هجوم إسرائيل يوم ٢٣ أكتوبر يتم بتنسيق تام مع كيسنجر الذي اغمض عينيه عما تقوم به إسرائيل بهدف الوصول إلى موقف معين يمكن منه فرض شروط الصلح على مصر.أما الاتحاد السوفيتي فقد اتخذ موقفا يختلف تماما عن الموقف الأمريكي. فعلى الصعيد العسكري قام برفع درجة الاستعداد لعدد ٦ فرق جنود جو قوامها ٤٣٠٠٠ رجل وأخذت طائرات النقل تتجمع لنقل هذه القوة في مناطق تحشدها. وعلى الصعيد السياسي قام الرئيس بريجنيف يوم ٢٤ أكتوبر بإرسال كتاب إلى الرئيس نيكسون قال فيه: "سأقولها بصراحة: إذا لم يكن في استطاعتكم أن تعملوا معنا في هذا المجال فسوف نجد أنفسنا أمام موقف يضطرنا إلى اتخاذ الخطوات التي نراها ضرورية وعاجلة. إن إسرائيل لا يمكن أن يسمح لها بالاستمرار في تجاهل وقف إطلاق النار".

كـــان العالم كله يقف على شــفـــا الحرب يوم ٢٤ أكتوبر. فقــد ردت أمريكـــا علـــى الإنـــذار السوفيتي بأن رفعت درجة استعداد جميع القوات المسلحة الأمريكية في جميع أنحاء العالم. وقــد أثار هذا القرار الأمريكي غضب وقلق حلفاء أمريكا اكثر مما أثار قلق الاتحاد السوفيتي والكتلـــة الشرقية. لقد شعر أعضاء حلف الناتو أن أمريكا تعرض السلم العالمي للخطر لكي تحقق بعــض المصالح الإقليمية لإسرائيل،. وفي سبيل ذلك فإنها مستعدة للتضحية بمصالح حلفائها الغربيين في حلف الناتو. لقد احدث رفع درجة استعداد الوحدات النووية الأمريكية في دول حلف النـــاتو دون أخطار هذه الدول، جرحا غائرا في العلاقات الأمريكية–الأوربية احتاج إلى عام كامل لكي يلتئم. وبينما كانت أمريكا تتخذ هذا الموقف المتشدد في مواجهة الإنذار السوفيتي، فإن الإنذار السوفيتي أقنعها بان العدوان الإسرائيلي قد تجاوز الخط الأحمر الذي قد لا يستطيع الاتحـــاد الســـوفيتي أن يتحمله، ومن هنا بدأت أمريكا في ممارسة الضغط الحقيقي على إسرائيل واضطرتها إلى قبـــول وقف إطلاق النار.

السادات وادعاءاته الباطلة:

من مساوئ السادات انه إذا غضب على صديق فإنه لا ينسى فضـــائل هذا الصديق كلها فحسب، بل أنه يحاول أن يبدل حسناته بسيئات يبتكرها من عنده. وكما يطبق السادات تلك المبـــادئ فـــي علاقاته مع الأفراد فإنه يطبقها أيضا في علاقاته مع الدول. فإذا رجعنا إلى خطبه في الأعوام ٧١ و ٧٢ و ٧٣ وجدناه يكيل المديح إلى الاتحاد السوفيتي ولكنه انقلب عليه اعتبارا مـــن عـــام ٧٤. وهو حر في أن يمدح من يشاء ويهجو من يشاء ولكن ذلك لا يعطيه الحق في أن يزور التـــاريخ من اجل نواته، يقول السادات أن مصر صنعت ٦٠% من الكباري والمعديات التـــي اســـتخدمتها قواتنا المسلحة في عبور قناة السويس كان ال ٤٠% الباقية هي التي أمدنا بها الاتحاد الســـوفيتي وهي كباري قديمة من أيام الحرب العالمية الثانية. (٧)

وإن الأمانة التاريخية تفرض على أن أعطي الأرقام الحقيقية لوسائل العبور. قبل أكتوبر ٧٣ كان لدينا ١٢ كوبري ثقيل (٨) كان اثنان منهما فقط من اصل غربي من طراز بيلـــى. أمـــا العشـــرة الأخرى فهي سوفيتية الصنع منها ٣ من نوع PMP و ٧ من نوع TPP وان نوع TPP ولو إنه اقل كفاءة من PMP ،كان افضل بكثير من نوع البيلى. لقد قمنا فعلا بتصنيع خمسة كبـــارى هيكليـــة بهدف اجتذاب قصف العدو الجوي وبذلك نخفف هجوم العدو الجوي على الكباري الرئيسية ولكي نبعث الحـــياة في هذه الكباري جعلناها قادرة على تحمل عبور مركبات لا يزيد وزنها الإجمـــالي على ٤ أطنان، واستخدمنا عددا من عربات الجيب لكي تعبر عليها ولكننا لم ندخلها قـــط ضـــمن

حساباتنا في عملية العبور. وفي خلال حرب أكتوبر قام السوفيت بإمدادنا بكوبري PMP، آخر ضمن الكوبري الجوي الذي أقامه الاتحاد السوفيتي بعد إقامة الحرب بثلاثة أيام. إننا فخورون بما استطعنا تصنيعه محليا لإكمال بعض القصور في وسائل العبور ولكن هذا الفخر يجب ألا يتحول إلى غرور كاذب أن الشعور بالعزة صفة حميدة أما الادعاء بالباطل فهو صفة مرذولة. أن ٩٠% من دباباتنا وعرباتنا قد عبرت على كباري ومعديات سوفيتية الصنع وهذه حقيقة لا تقلل من شأننا حيث إننا نحن الذين عبرنا فوقها. لقد استخدمنا مضخات مياه إنجليزية وألمانية الصنع في فتح الثغرات في الساتر الترابي، فهل يذهب فخر هذا العمل الذي قمنا به إلى من صنعوا هذه المضخات أم إلى من استخدموها؟ انه لا يضيرنا مطلقا أن نعترف بان الكباري كانت سوفيتية وان المضخات كانت إنجليزية وألمانية. إننا نحن أبناء مصر الذين خططنا وعبرنا وانتصرنا.

لقد كذب السادات أيضا عندما ادعى أن الاتحاد السوفيتي لم يكن يمدنا قط بأية صور جوية من تلك التي يلتقطها بواسطة طائراته الميج ٢٥ أو أقماره الصناعية. لقد كان الاتحاد السوفيتي يمدنا بمثل هذه الصور وان لم يكن ذلك بصفة دورية منتظمة. كانت صور الأقمار الصناعية تصل من موسكو برفقة ضابط خاص لكي تعرض علينا ونأخذ منها ما نحتاج إليه شريطة ألا نعيد تصويرها، وقد عرضت هذه الصور على السادات مرتين- على الأقل- قبل الحرب وعندما حضر كوسيجين إلى القاهرة خلال الحرب في الفترة من ١٦-١٩ أكتوبر عرض على الرئيس شخصيا صورا تؤكد حجم الاختراق الإسرائيلي غرب القناة وبعد وقف إطلاق النار في ٢٤ أكتوبر ٧٣ كانت صور الأقمار السوفيتية هي المصدر الرئيسي للمعلومات عن العدو.

الأخطاء السوفيتية:

إن المساعدات العسكرية الضخمة التي قدمها الاتحاد السوفيتي إلى مصر لا تعني أن السوفيت ملائكة وانهم دون أخطاء لقد كانت لهم أخطاء وكنا نختلف معهم في كثير من الأحيان وسوف اركز هنا على مشكلتين رئيسيتين بصفتهما أساس المشكلات الأخرى كلها. المشكلة الأولى هي القيود المفروضة على السلاح والمشكلة الأخرى هي الأخلاق والطباع السوفيتية.

السلاح السوفيتي:

كان السوفيت هم الذين يحددون حجم ونوعية وتاريخ التوريد بالنسبة للسلاح الذي يتم توريده إلى مصر. لقد كان المفاوض المصري يستطيع أن يطلب ويناور ويحاول إقناع الجانب السوفيتي بحجم ونوعية السلاح الذي نطلبه. وقد ينجح أحيانا ولكن نجاحه يتوقف على درجة استعداد الجانب السوفيتي لقبول وجهة النظر المصرية. كان الجانب السوفيتي هو صاحب الكلمة الأخيرة

في القبول أو الرفض. كان هذا الموضوع يمكن أن يكون مجال حديث طويل ولكننا نود أن نلفت النظر إلى الحقائق التالية:

١- أن سياسة الاتحاد السوفيتي في تأييده للدول العربية واضحة تماما، وهي مبنية على أساس مساعدة الدول العربية في استعادة أراضيها التي أحتلت بعد عام ١٩٦٧ وإقامة الدولة الفلسطينية. وهو لا يوافق مطلقا على تدمير دولة إسرائيل. وعن طريق سيطرته على الإمداد بالسلاح فإنه يستطيع أن يؤثر على سير الأحداث بحيث لا تخرج عن المسار
الذي رسمه.

٢- أن الصراع العربي الإسرائيلي ليس مجرد مشكلة محلية إقليمية. إنها تدخل ضمن الاستراتيجية العالمية وتوازن القوى بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية. وقد وقف العالم على شفا الحرب مرتين بسبب هذا الصراع. كانت الأولى عام ١٩٥٦ عندما أرسل السوفيت إنذارهم الشهير إلى كل من بريطانيا وفرنسا لوقف اعتدائهما على مصر. وكانت الأخيرة يوم ٢٤ أكتوبر ٧٣ عندما أرسل السوفيت إنذارهم إلى أمريكا للضغط على إسرائيل وإرغامها على احترام وقف إطلاق النار. أضف إلى ذلك الكتاب العنيف الذي أرسله كوسيجين إلى الحكومة الأمريكية في يناير ٧٠ لكي توقف إسرائيل غاراتها على العمق المصري. وهكذا نجد أن الاتحاد السوفيتي هو عضو أساسي في المشكلة. ومن هنا فإنه يعتقد أن من حقه أن يسيطر على سير الأحداث في المنطقة.

٣- إن الاتحاد السوفيتي دولة غير غنية إذا ما قورنت بالولايات المتحدة وبالتالي فإنه لا يستطيع أن يغدق العطاء على مصر بالقدر نفسه الذي تغدق به أمريكا على إسرائيل.

أن أمريكا كانت تغدق على إسرائيل قبل عام ١٩٧٣ بما يوازي ١٥٠٠ مليون دولار سنويا وقد رفعت هذا المبلغ بعد ٧٣ إلى ما يوازي ٣٠٠٠ مليون دولار سنويا، وكانت هذه المبالغ تفوق بكثير طاقة الاتحاد السوفيتي في التبرع وطاقة مصر في الدفع كثمن للسلاح الذي تريده.

٣- إن الأسلحة الحديثة هي أجهزة بالغة التعقيد ويحتاج استيعابها إلى مستويات ثقافية عالية والى وقت طويل. وعلى الرغم من أن مصر كانت تعمل بأقصى طاقتها منذ عام ٦٧ لرفع كفاءة قواتها المسلحة، إلا إنها كانت تجد صعوبة كبيرة في استيعاب الأسلحة الحديثة كلها التي تقدم لها. وقد اضطرها هذا الموقف إلى الاستعانة بأفراد سوفيت لتشغيل بعض هذه المعدات كما حدث عام ١٩٧٠ حيث اشترك ما يزيد على ٦٠٠٠ فرد روسي في تشغيل معدات فنية معقدة لا تتوافر الأيدي المصرية لتشغيلها. وقد كانت هذه الصورة ظاهرة بشكل واضح في القوات الجوية وفي

وحدات الحرب الإلكترونية. وبعد إنهاء خدمة الوحدات السوفيتية كـــان عدد طائرات الميـــج ٢١ التي لدينا يفوق عدد الطيارين الذين يستطيعون قيادتها.

٥- هناك حقيـــقة أخرى وهي تخلف التكنولوجيا الســـوفيتية عن التكنولوجيـــا الأمريكيـــة فـــي مجـــال الأسلحة التقليدية بصفة عامة وفي مجال الطيران بصفة خـــاصة. في أوائـــل الســـتينيات كانت أمريكا تسبق الاتحـــاد السوفيتي بحوالي جيل كامل. [٩] وقد أخذت هذه الفجوة تضيق حتـــى أغلقت في أوائل السبعينيات. وحيث إن سياســـة الاتحاد السوفيتي هي ألا يعطى أفضل ما عنـــده لأية دولة أجنبية رغبـــة منه في المحافظة على أسرار أسلحـــته. فإن أفضل أصـــدقائه لا يمكـــن أن يطمح لأكـــثر من الرقم الثاني في أفضلية السلاح، وقد يحصل الأصدقاء العاديون على الرقم الثـــالث أو الرابع تبعا لقوة صداقتهم مع الاتحاد السوفيتي. أما أمريكا فإنها تعطي أفضـــل مـــا عندها من سلاح إلى إسرائيل، إذ أن الأسلحة الحـــديثة تدخل في خدمة القوات المسلحة الإسرائيلية والقوات المسلحة الأمريكية في وقت واحـــد. وتطبيقا لهذه المبادئ فقد كانت الأسلحة المتـــاحة لإسرائيل خلال الستينيات تتقدم جيلين عما هو متيسر في أيدي العرب، وقد ضاقت هذه الفجـــوة لتصبح جيـــلا واحدا خلال السبعينيات وإذا أستـــمر تقدم التكنولوجيا السوفيتية بهذا المعدل فمـــن المحـــتمل أن تتســـاوى الأسلحـــة التي بين أيدي العرب وإسرائيل في الثمانينيات.

الخشونة في المعاملة:

كانت الأخلاق والطبائع الروسية مثار كثير من الخلافات. كانت أحاديثهم فيها خشـــونة وغلظـــة. وكانوا أحيانا يوجهون انتقاداتهم بشكل مثير. مثال ذلك " إنكم تطلبون من الاتحـــاد الســـوفيتي أن يمدكم بالأسلحـــة وتلومونا إذا تأخرنا في توريد هذه الأسلحة، علمـــا بأن الاتحاد السوفيتي يتحمل نصف ثمنها ويمدكم بقرض لتمويل النصف الثاني، ومع ذلك فانتم لا تعبئون مواردكم كلها للحرب كما تفعل الدول التي في حالة حرب وكـــما فعلنا نحن خلال الحرب الوطنية الكبرى [١٠] أن مـــن يسر في شوارع القاهرة لا يمكن أن يشعر بأن مصر في حالة حرب. إن الشوارع مليئة بالعربات الفاخرة والحوانيت مليئة بالبضائع وبالذهب والجواهر". كانـــت هـــذه الآراء وغيرهـــا يتبادلهـــا المستشارون والخبراء السوفيت الذين يتواجدون في الوحدات مع نظرائهم المصريين كانت هـــذه الآراء السوفيتية تجـــد تجاوبا وقبولا لدى بعض الأفراد ولكنها كانت تسبب إزعاجا كبيرا للقيـــادة السياسية لأنها كانت تعتبرها حضا على انتقاد السلطة وتشجيعا لانتشار الشيوعية في مصر.

وفي حالات أخرى كانوا يعرضون رأيهم وكأنه هو الرأي الوحيد الصحيح وليس مجرد رأي يقبل المناقشة والجـــدل. وقد مررت أنا شخصيا بعدد من مثل هذه الحـــالات ولكني ســـأقص قصـــة

واحدة كان بطلها هو الجنرال لاشنكوف LASHNEKOV خلال زيارته لمصر في نوفمبر ١٩٧٣. لقد كان الجنرال لاشنكوف يعمل كبيرا للمستشارين السوفيت في مصر خلال عامي ٦٨-٦٩ وخلال هذه الفترة لم يكن بيني وبينه أي اتصـــال مباشر. كنت في خلال هذه الفترة اشغل منصب قائـــد القوات الخاصة وكنت التقى به أحيانا في أحد المشاريع التدريبية أو البيانات العملية ونتبادل التحية وبعض الكلمات وبعدما توليت منصب (ر.ا.ح.ق.م.م) في مايو ٧١ شاهدت الجنرال لاشـــكنوف مرتين، مرة عندما كان مرافقا للمارشال جريشكو في إحدى زياراته والأخـــرى عنـــدما حضـــر الجنرال لاشنكوف رئيسا للجنة عسكرية سوفيتية خلال شهر فبراير ٧٣. وفي النصف الثاني من شهر نوفمبر ٧٣ حضر على راس وفد لدراسة الموقف فكان هذا هو لقاؤنا الثالث وأنـــا اشـــغل منصب ر.ا.ح.ق.م.م.

في يوم ١٩ من نوفمبر كان هناك اجتماع مصغر في غرفة العمليـــات في المركز ١٠ (مركـــز عمليـــات القوات المسلحة المصرية)، وقد حضر هذا الاجتماع الوزير وأنا واللواء سعد مـــأمون وحضر معنا الجنرال لاشنكوف. عندما تكلمت عن خبرتنا في الدفاع ضد الدبابات, أثنيت علـــى المالوتكا وعلى ر.ب. ج ٧ ولكني انتقدت المدافع عديمة الارتداد ب ١٠، ب ١١ [١١] لأنها ثقيلة وصعبة التداول بواسطة أفراد المشاة المترجلين. حيث أن المدى المؤثر لهذه المدافع هو ٦٠٠- ٨٠٠ متر ومخصصـــة أساسا لكي تغطى الأرض الميتة للمقذوفات الموجـــهة المضادة للدبابات (مالوتكا) [١٢] والتي تصل إلى ٥٠٠ متر. وهنا اقترحت ما يلي "لو أن العلماء الســـوفيت استطاعوا أن يطوروا المالوتكا بحيث تصبح الأرض الميتة ٣٠٠ متر فقـــط أو طـــوروا ر.ب.ج بحيث يصبح مداه المؤثر ٦٠٠ متر مثلا لأصبح في استطاعتنا الاستغناء عـــن المـــدفعين ب ١٠ وب ١١، وان يكون أساس الدفاع المضاد للدبابات لوحدات المشـــاة هـــو المقـــذوفات المضـــادة للدبابات الموجهة (المالوتكا أو أي جيل يظهر بعد ذلك) والقاذف الصاروخي ر.ب. ج ٧" كنـــت اعتقد أنني بهذه الأفكار أؤدي خدمة إلى الأصدقاء الذين أعطونا السلاح. فهم صنعوا هذا السلاح ولكنهم لم يقاتلوا به، أما نحن فقد كنا أول من استخدم هذه الأسلحة ضـــد عـــدو حســـن التنظـــيم والتجهيز. ولكني فوجئت بالجنرال لاشنكوف يقول "إن السلاح الروسي هو افضـــل ســـلاح فـــي العالم. وان العلماء الروس يحسبون كل شئ ولا اعتقد انهم في انتظار سماع هذه الأفكار". كـــان ردي عليه فوريا وبروح التحدي نفسها وقلت له "أولا أنا لم اقل أن السلاح الروسي رديء، لقـــد حاربنا وعبرنا وانتصرنا بالسلاح الروسي وإنما أقول عن خبرة قتال لكي نعمل علـــى تحســـين مواصفات بعض هذه الأسلحة. لقد صنعتم انتم هذه الأسلحة ولكنكم لم تقاتلوا، بها أما نحـــن فقـــد

قاتلنا بهذه الأسلحة واكتسبنا نتيجة ذلك خبرات قتالية. وإذا كنتم تعرفون كل شيء، فلماذا حضرتم لتسألونا عن تلك الخبرة القتالية التي اكتسبناها في هذه الحرب، وهنا أسرع الفريق احمد إسماعيل بالتدخل لتلطيف الجو و إعطاء تفسيرات هادئة لما قال الجنرال لاشكنوف وما قلته أنا، وقبل أن ننتقل إلى موضوع آخر.

وعندما جاء دور الجنرال لاشنكوف في التعليق على سير العمليات وبدا يتكلم عن دور القوات الجوية المصرية قال "إن مصر لم تستخدم قواتها الجوية بأسلوب جيد كما فعلت سوريا. كان عدد الطلعات التي قامت بها القوات الجوية المصرية خلال فترة القتال تعتبر قليلة جداً إذا قورنت بعدد الطائرات المتيسرة، ولهذا فإن خسائركم في الطائرات تعتبر قليلة جدا إذا ما قورنت بخسائر سوريا في الطائرات. وان هذا يدل على أن رئيس أركان حرب القوات المسلحة لم يخصص المهام الكافية للقوات الجوية لكي تقوم بتنفيذها. وقد رددت عليه قائلا " أنني سعيد بما تقول. أن ما تعتقد أنت خطأ اعتبره أنا صوابا. إن سلامة قواتنا الجوية وبقاءها بعد نهاية الحرب سليمة وقوية هو مفخرة اعتز بها. وبعد نهاية المؤتمر جاءني اللواء سعد مأمون وسألني على انفراد عما إذا كان هناك خلاف سابق بيني وبين الجنرال لاشنكوف، فأجبت بالنفي وقلت له أن هذه هي المرة الأولى التي أتعامل فيها مع هذا الرجل، فقال متعجبا، لقد دهشت عندما سمعتكما تتناقشان، وتصورت انه لابد أن تكون هناك خلافات قليلة بينكما"!

هناك قصة أخرى تبين أيضا أسلوب السوفيت في توجيه النقد و إن كنت لست طرفا في هذه القصة ولكني كنت أحد شهودها. كان بطلا هذه القصة الرئيس السادات والمارشال جريشكو. بدأت القصة بأن تقدم السادات في إحدى زياراته إلى موسكو بكشف مبينا به كميات الذخيرة التي نطلبها، وفي أثناء إحدى الجلسات علق المارشال جريشكو على هذا الكشف قائلا: "لماذا تطلبون هذه الذخيرة كلها؟ إن لديكم كذا مليون طلقة ذخيرة. بما يزيد على اكثر من ١٠٠٠ طلقة لكل جندي إسرائيلي!". كان الرقم من وجهة نظر السادات رقما كبيرا ولم يستطع أن يجادل في هذا الموضوع ولكنه قام بكتابة الرقم الذي ذكره المارشال جريشكو عن عدد ملايين الطلقات الموجودة في قواتنا المسلحة في سجله الخاص اعتقادا منه أنه قد حصل على معلومة مهمة.

وفي أحد اجتماعات الرئيس مع المجلس الأعلى للقوات المسلحة دون أن نكون على علم بهذه القصة، التفت إليّ حيث كنت أجلس على يساره وسألني"كم عدد الطلقات الموجودة في القوات المسلحة؟". اعتقدت أن الرئيس يمزح فابتسمت وقلت له لا أعرف. كان رد فعل الرئيس يدل على انه لم يكن يمزح، وانه كان يعني ما يقول فقد علق قائلا "كيف– وأنت رئيس أركان حرب القوات

المسلحة- لا تعرف عدد الطلقات الموجودة في القوات المسلحة؟". فأجبت " سيادة الرئيس.. على مستوى القيادات العليا في القوات المسلحة فإننا لا نحسب كـمية الذخـيرة بالطلقة بل إننا نحسبها بالوحدة النارية [١٣] وعدد أيام القتال التي يمكن أن تسـتنفد فيها الـذخيرة". أجـاب الـرئيس غاضبا كيف تقول ذلك والمارشال جريشكو يعرف عدد الطلقات التي لدينا وأخبرني بالرقم وهـو كذا مليون طلقة!" أجبت قائلا "سيـادة الرئيس.. إن هذه البيانات يمكـننا الحصول عليها بواسطة العقل الإلكتروني (الكمبيوتر) في أي وقت تشاء".

فقال الرئيس غاضبا "بصفتك رئيس الأركـان يجب أن تعرف هذه البيانات" ورغبة فـي تهدئـة الموقف وعدم إحـراجه اكثر من ذلك، قلت له "سوف أقوم بإعداد هذا البيـان وعرضـه علـى سيادتكم".

لاشك أن السادات قد أحس بان المارشـال جريشكو قد غرر به وسخـر منه عندما ذكر له عدد الطلقات الموجودة في القوات المسلحة المصرية , لأن الرئيس السادات لم يطلب مني قـط هـذه البيانات بعد هذا اللقاء.

هوامش الفصل الرابع والعشرون

(١) أقصى حمولة الطائرة انتنوف ١٢ هي ٢٠ طنا، وهي تعادل الطائرة الأمريكية سى ١٣٠، أما الطائرة انتنوف ٢٢ فإن أقصى حمولتها هو ٨٠ طنا.

(٢) أقصى حمولة الطائرة سى ١٤٠ عى ٤٠ طنا، أما حمولة الطائرة سى ٥ فتصل إلـى ١٠٠ طن.

(٣) الجسر البحري الأمريكي لإسرائيل بلغ ٣٣٢١٠ طنا، وعليه فإن إجمالي الجسر الأمريكي لإسرائيل براً وبحراً بلغ ٦١١٠٥ طنا.

(٤) وصل إسرائيل ضمن الكوبري الجوي ٣٨ طائرة فانتوم، وأحدث أنواع معدات الحرب الإلكترونية المضادة وصواريخ جو-أرض.

(٥) مجموع مجهود الكوبريين الجوي والبحري السوفيتي يساوي ٧٨٠٠٠ طن.

(٦) انظر الباب السابع.

(٧) في حديث للسادات نشر بجريدة الأهرام أول أكتوبر ٧٦.

(٨) الكوبري الثقيل هو الكوبري الذي تعبر عليه الدبابة وهو الوسيلة الرئيسية للعبور.

(٩) الجيل هو سلاح متطور يفوق في خصائصه الأسلحة التي سبقته ويستمر في الخدمة إلى أن يحل محله سلاح اخر أفضل منه في خصائصه فيبدأ بذلك جيل جديد.

(١٠) الاسم الذي يطلقه السوفيت على الحرب العالمية الثانية

(١١) ب ١٠ هو مدفع مضاد للدبابات عديم الارتداد عيار ٢ ممم.

ب ١١ هو مدفع مضاد للدبابات عديم الارتداد عيار ١٠٧ مم.

(١٢) المدى المؤثر للمالوتكا يتراوح بين ٥٠٠ و٤٠٠٠- متر، أي أنه لا يستطيع إصابة الدبابة إذا كانت على مسافة اقل من ٥٠٠ متر، وعندما نطلق تعبير "الأرض الميتة، لسلاح معين فإننا نقصد الأرض التي لا يستطيع هذا السلاح إصابة الهدف إذا دخل فيها. ولذلك فإنه يجب أن نغطي هذه المنطقة بنيران سلاح آخر.

(١٣) الوحدة النارية للسلاح هي كمية الذخيرة اللازمة لهذا السلاح خلال معركة عادية (لا هي شديدة ولا هي بسيطة)، وتختلف الوحدة النارية لكل سلاح تبعا لخصائصه.

الباب السادس

المساعدات العسكرية من الدول العربية

الفصل الخامس والعشرون

الدورة الثانية عشرة لمجلس الدفاع العربي المشترك

أداء يمين الولاء للجامعة العربية:

في يوم ٣٠ من يوليو ١٩٧١ وفي اجتماع عادي لمجلس الجامعة العربية في القاهرة أديت اليمين القانونية بصفتي الأمين العام المساعد للجامعة العربية للشئون العسكرية. وبموجب هذا المنصب فإني أصبح رئيسا للجنة الاستشارية العسكرية للجامعة العربية والتي تتكون من رؤساء أركان حرب القوات المسلحة في جميع الدول العربية، و أقوم بتقديم توصيات اللجنة الاستشارية إلى مجلس الدفاع في الدول العربية. وقد بدأت عملي في هذا المنصب بأن قمت بدراسة دقيقة لمعاهدة الدفاع المشترك ولجميع المحاضر والقرارات التي اتخذت منذ عقد هذه المعاهدة، وقد خرجت من هذه الدراسة بأربع نقاط رئيسية. كانت النقطة الأولى هي التحمس الواضح والخطب الرنانة التي كانت تلقى خلال هذه الاجتماعات من جميع الأعضاء، ثم القرارات القوية التي يتخذها المجلس حتى ليتصور المرء ورجل الشارع العربي أن كل شئ يسير على احسن ما يكون. وكانت النقطة الثانية هي أن الدول العربية – سواء كانت من دول المواجهة أم من غير دول المواجهة– كانت تنظر إلى الدعم العربي على أنه معونة مالية فحسب، فقد كان كل ما تطلبه دول المواجهة هو الدعم المالي، وكانت الدول العربية الأخرى تعتقد أنها بتقديم الدعم المالي لدول المواجهة قد أدت دورها النضالي نحو القضية العربية. وكانت النقطة الثالثة هي عدم فاعلية قرارات مجلس الدفاع المشترك. فعلى الرغم من أن قرارات مجلس الدفاع المشترك–طبقا لمعاهدة الدفاع المشترك– تعتبر ملزمة لجميع الأعضاء، إذا اتخذ القرار بأغلبية ثلثي الأصوات، إلا أن هذه القرارات ولاسيما ما يتعلق منها بالدعم المالي كانت تبقى معطلة وكان يتوقف تنفيذها أو تنفيذ جزء منها على مدى النشاط والزيارات التي يقوم بها المسئولون في دول المواجهة إلى الدول العربية الأخرى. أما النقطة الرابعة والأخيرة فهي أن مؤتمرات القمة العربية (الملوك والرؤساء) هي المؤتمرات الوحيدة التي يتحقق فيها شئ من النجاح، لأن الملوك والرؤساء هم الأشخاص الوحيدون الذين يمسكون بزمام السلطة في البلاد العربية.

قومية المعركة تتطلب عدالة توزيع الأعباء:

قمت بإجراء دراسة تشمل الدخل القومي والإنفاق العسكري في كل من الدول العربية وإسرائيل، فكانت الأرقام تثير الدهشة حقا. كان أجمالي الدخل القومي للدول العربية ذات ال١١٠ ملايين نسمة، هو ٢٦٠٠٠ مليون دولار، بينما كان الدخل القومي لإسرائيل (٢،٨٢٢٠٠٠ نسمة) هو ٣٦٧٢ مليون دولار، وهذا يعني أن متوسط دخل الفرد العربي في العام هو ٢٣٦ دولارا بينما متوسط دخل الفرد الإسرائيلي هو ١٣٠٠ دولار في العام [١] فإذا نظرنا إلى كيفية توزيع الثروة في المنطقة العربية فإننا نجد تباينا واضحا. ففي بعض الدول العربية نجد أعلى متوسط لدخل الفرد في العالم، وفي دول عربية أخرى نجد اقل مستويات الدخل في العالم. واكثر من ذلك فإن جميع الدول ذات الحدود المشتركة مع إسرائيل والتي تتحمل العبء الأكبر من التهديد الصهيوني هي من مجموعة الدول العربية الفقيرة , أما الدول العربية الغنية فإنها تقع بعيدا عن إسرائيل وبالتالي فإنها لا تشعر بالتهديد الصهيوني والخطر الصهيوني بالقدر نفسه الذي تشعر به وتتحمله الدول الفقيرة المتاخمة لها. وبدراسة حجم الإنفاق العسكري في الدول العربية اتضح لي أن مصر التي كان متوسط دخل الفرد فيها هو ٣٠٣ دولارات كانت تنفق ٢١،١% من دخلها القومي على شئون الدفاع، بينما كانت هناك دول اكثر غنى لا يصل إنفاقها العسكري إلى ٣% من دخلها القومي. [٢]

كانت الأرقام مفجعة ومثيرة للتساؤل. هل حقا المعركة قومية وإنها مسئولية العرب جميعا أم أنها مسئولية دول المواجهة؟ إذا كانت الإجابة بان المعركة قومية كما ينادي الجميع فهل قام العرب بتوزيع أعباء هذه الحرب بأسلوب عادل؟ هنا يجب أن تكون الإجابة لا ثم لا. إذا نحن راعينا العدل الاجتماعي في توزيع الأعباء فالمفروض أن تتحمل الدول الغنية أكثر مما تتحمله الدول الفقيرة ولكن الواقع كان يصرخ ويقول أن العكس هو الصحيح. كانت الدول الفقيرة،- وفي مقدمتها مصر -هي التي تدفع أكثر والدول الغنية- أو على الأقل معظمها- هي التي تدفع اقل. قد يتصور بعضهم أن مؤتمر الخرطوم المنعقد عام ١٩٦٧ قد حل هذا التناقض وذلك عندما تعهدت بعض الدول العربية الغنية بان تخصص مبلغا من المال لتدعيم دول المواجهة، ولكن الحقيقة هي غير ذلك. [٣] لاشك أن مقررات مؤتمر الخرطوم هي أول خطوة عملية في اتجاه التضامن العربي، وان الدول الثلاث التي أسهمت في هذه المعونة لها أن تفخر بأنها كانت أولى الدول التي حاولت أن تخطو خطوة عملية لمساعدة الأشقاء في معاناتهم بدلا من مجرد كلمات التشجيع الجوفاء ولكن هل كانت هذه الخطوة كافية؟ وهل يعني ذلك قومية المعركة ؟ كلا، ثم

كلا. إن قومية المعركة تعني اشتراك الدول العربية جميعها – ليس ثلاثا منها فقط – كل في حدود إمكاناته البشرية والمالية. أن قومية المعركة تعني أن تقوم الدول الغنية بتخصيص نسبة من دخلها القومي للمعركة تكون اكبر من النسبة التي تخصصها الدول الفقيرة وكلا هذين الشرطين قد أهمل في مقررات مؤتمر الخرطوم. حاولت أن أطبق شعار قومية المعركة مستعينا بالأرقام. استخدمت أرقام الدخل القومي لكل دولة عربية ومتوسطة دخل الفرد السنوي فيها. استخدمت أرقام الأنفاق العسكري في كل بلد عربي وما تتطلبه المعركة من اعتمادات مالية,الخ.

وفي النهاية تبلور في ذهني مشروع متكامل يحدد ما يجب أن تخصصه الدول العربية لشئون الدفاع عنها. كان المشروع يتكون من النقط الرئيسية التالية:

١- تخصص كل دولة لشئون الدفاع النسبة التالية من دخلها القومي سنويا:

الدولة التى متوسط دخل الفرد السنوى فيها بالدولار		النسبة التى تخصصها سنويا من دخلها القومى لشئون الدفاع
من	إلى	
١٠٠	٢٠٠	١٠٪
٢٠٠	٥٠٠	١٥٪
٥٠٠	١٠٠٠	٢٠٪
١٠٠٠	٢٠٠٠	٢٥٪
٢٠٠٠	فاكثر	٣٠٪

٢- ينشأ صندوق قومي للمعركة في الجامعة العربية يتولى توزيع هذه الاعتمادات على جميع الدول حسب احتياجات الدفاع بحيث لا يقل ما يخصص لدول المواجهة مع إسرائيل عن ٥٠% من تلك الاعتمادات ويخصص الباقي للدول العربية الأخرى جميعها.

٣- النسب المذكورة أعلاه هي الحد الأدنى للإنفاق العسكري في كل دولة عربية طبقا لمتوسط دخل الفرد. ولكن ليس هناك حد أقصى لمن يريد أن يخصص أكثر من ذلك.

كنت أرى في هذا المشروع تجسيدا لقومية المعركة وتكافلا اجتماعيا بين الدول العربية وتصحيحا للتناقضات الموجودة في العالم العربي حيث يتحمل الفرد في الدول الفقيرة اكثر مما يتحمل الفرد في الدول الأغنى. وعندما أخذت أناقش هذه الآراء مع بعض المصريين والاخوة

العرب لم أجد أحدا على استعداد لأن يقبل ذلك. كانوا يظنون إنها خطوة تقدمية اكثر من اللازم قد تفسر تفسيرات خاطئة. فأحجمت عن تقديم المشروع إلى مجلس الدفاع المشترك بصفة رسـمية. ومع ذلك فأني انتهزت فرصة أول اجتماع لي مع رؤساء أركان حرب القوات المسلحة في الدول العربية فبينت لهم بالأرقام حجم الإنفاق العسكري في كل دولة ونسبته إلى الدخل القومي لكي أبين لهم مدى التناقض الكبير بين ما تنفقه الدول الفقيرة وما تنفقه الدولة الغنية. وطالبت بتعديل هـذه الأوضاع المقلوبة، ولكن لم اقترح تلك النسب التصاعدية في الإنفاق العسكري.

قرارات مجلس الدفاع المشترك:

عندما اجتمع مجلس الدفاع المشترك في دورته الثانية عشرة في المدة من ٢٧- ٢٩ نـوفمبر ٧١ تقدمت أليه بمشروعين. كان المشروع الأول يرمي إلى تعبئة الإمكانات العسكرية الفعليـة فـي الدول العربية، وهذا يعني بحث موقف القوات المسلحة في كل دولة عربية وتحديد حجم القـوات التي تشارك بها في المعركة، وهكذا فأنه بدلا من أن تطلب دول المواجهة دعما ماليا من أشقائها العرب فإنها تطلب منهم دعما عسكريا. وقد كنت أرمي من وراء ذلك الاقتراح أن أحقـق ثلاثـة أهداف: الهدف الأول هو أن أجنب دول المجابهة هوان طلب المال، فقد كان طلب المال ينظر إليه كنوع من الاستجداء وليس بصفته فريضة على جميع الدول العربية. وثانيا، فقد كنت أرمـي أن أجعل الدول العربية التي ليست من دول المواجهة، تشعر بالكبرياء وتشعر بالذنب في وقت واحد. تشعر بالكبرياء إذ تسهم في المعركة بصورة إيجابية، وفي الوقت نفسه تشعر بالذنب عندما تقارن بين حجم مساعداتها العسكرية وحجم القوات التي تسهم بها دول المواجهة.أما الهدف الثالث فهـو توفير الوقت. إن النقود لا تقاتل، وأن تحويل هذه النقود إلى قدرات قتالية على شكل لواء مدرع أو سرب طائرات الخ قد يحتاج إلى سنتين أو ثلاث (٤). لذلك فإن الوحدة المدرعة لمن يريد أن يقاتل تعتبر افضل بكثير من مجرد التبرع بالمال. أن الإسهام بسرب من المقاتلات افضل بكثيـر مـن التبرع بخمسين مليونا من الدولارات.

واقتناعا مني بهذا الخط اقترحت أن تقوم الدول العربية التالية بتدعيم دول المواجهة بـالتعزيزات التالية:

الجمهورية العرا قية:

سربي هوكر هنتر ١١ [الجبهة الأردنية].

ثلاثة اسراب ميج ٢١ [الجبهة السورية]

سرب ميج١٧ [الجبهة السورية]

فرقة مدرعة [الجبهة الأردنية]

فرقة مشاة [الجبهة الأردنية]

المملكة العربية السعودية:

سربي ليتننج [الجبهة الأردنية]

الجمهورية الليبية:

سرب ميراج ٣ [الجبهة المصرية]

الجمهورية الجزائرية:

سربي ميج ٢١ [الجبهة المصرية]

سربي ميج ١٧ [الجبهة المصرية]

المملكة المغربية:

سرب اف ٥ [الجبهة المصرية]

لواء مدرع [الجبهة المصرية]

(تم تحديد هذه القوات بعد زيارتي للمملكة المغربية في فبراير ٧١)

لم اخطر الفريق صادق بهذا المشروع قبل أن اعرضه على مجلس الدفاع المشترك، إذ أنني لم اكن أرى سببا واحدا يدعوني إلى أن اخطر وزير الحربية المصري قبل أن اخطر وزراء حربية الدول العربية الأخرى. وعندما كنت أقدم المشروع أمام المجلس لم أذكر أهدافي من هذا المشروع كما ذكرتها في تلك المذكرات ولكني ركزت فقط على عامل الوقت وان الاعتمادات المالية لن تتحول إلى قدرات قتالية قبل مرور ٢-٣ سنوات في حين أن تلك الوحدات يمكن الاستفادة منها فورا أو بعد أشهر قليلة. فوجئ صادق بالمشروع وبتعليقاتي التي كنت اشرح بها المشروع وأسبابه وأهدافه فأرسل لي ورقة كتب فيها "إن هذا الخط الذي تسير فيه يتعارض مع مصالح مصر". بعد أن قرأت ما في الرسالة استرسلت في الخط نفسه الذي كنت أنادى به وكان شيئا لم يحدث كنت ومازلت اعتقد بأن ذلك كان في مصلحة العرب ومصلحة مصر على السواء.

وفي خلال فترة الراحة انتحى بي الوزير جانبا وقال لي كيف تطلب قوات بدلا من المال؟ إننا في مصر محتاجون إلى المال ؟. قلت له "أنا لا امثل مصر في هذا المجلس أنت الذي تمثل مصر ولك أن تتكلم وتطلب باسم مصر ما تشاء". فقال غاضبا " لماذا لم تخطرني بهذا المشروع قبل أن تعرضه؟". فقلت له "ولماذا اعرضه عليك؟ وأني اعرضه على المجلس بصفتي الأمين العام المساعد العسكري للجامعة العربية. وليس بصفتي ر.ا.ح.ق.م.م"، وتطور الحديث بيننا إلى

أن قال "سأقوم بإخطار الرئيس بتصـــرفاتك هذه" فقلت له وتستطيع أن تفعل ما تشاء".

وافق مجلس الدفاع المشترك على المشروع بالإجماع بما في ذلك مصر. وطلب المجلس مني أن أقوم بزيارة الدول التي أوصى القرار بأن تقوم بتدعيم دول المواجـــهة بالوحـــدات لتأكيد هذا القرار وللتأكد من مستوى كفاءة هذه الوحدات.

كان المشروع التالي الذي تقد مت به هو مشروع رسم خرائط عن أعماق البحـــار المحيطـــة بالسواحل العربية. لقد اتضح لي أن السواحل العربية للدول الأعضـــاء في جامعة الدول العربيـــة في ذلك الوقت تبلغ ١٦٤٨٠ كـــيلومترا، وهي تأتي بعد الاتحاد السوفيتي الذي يبلغ طول سواحله ١٩٨٦٠ كـــيلومترا وقبل الولايات المتحدة التي يبلغ طول سواحلها ١٥٥٣٠ كـــيلومترا. وعلـــى الرغم من أننا نقف في المركز الثاني في العالم من حيث طول سواحلنا العربية إلا انه لم تكن لدينا خريطة عن أعماق البحار حول هذه الشواطئ!! كانت أساطيلنا تعتمد على الخرائط التـــي قامـــت البحرية البريطانية والبحرية الفرنسية بوضعها عن بعض السواحل العربية. وحيث أن مثل هـــذه الخرائط تعتبر من الأسرار الحربية التي لا يجوز للدولة صاحبة الشان أن تعتمد على دولة أجنبية في عملها فقد رأيت أن نقوم بوضع هذه الخرائط لقد كانت لدينا الخبرة الفنية لرسم هذه الخـــرائط وكان كل ما ينقصنـــا هو السفينة والمعدات اللازمة لتنفيذ هذا العمل. وبدراسة الموقف اتضح انه يمكن شراء السفينة والمعدات الفنية المطلوبة من بريطانيـــا في حدود مبلغ مليون ونصف المليون جنيه إسترليني. وكـــان المبلغ المطلوب موجودا وبذلك لم تكن هناك أية مشكلة.

كانت الدول العربية قد تبرعت منذ عدة سنوات بمبالغ مالية باسم القيـــادة العربيـــة الموحـــدة وكانت هذه القيـــادة قد جمدت ولكن بقي في حوزتها مبلغ ٣ ملايين جنيه إسترليني كانت مودعة في البنك الأهلي المصري باسم تلك القيادة وعندما علمت بوجود هذا المبلغ اقترحت أن نأخذ منه مليونا ونصف المليون لهذا المشروع، وعندما عرضت المشروع على مجلس الدفاع المشـــترك، صدق المجلس عليه بالإجماع، كما صدق على سحب مبلغ المليون ونصف المليون جنيه إسترليني من الرصيد المتبقي باسم القيادة العربية. وعلى الرغم من أهمية هـــذا المشـــروع ومـــن تـــوافر الإمكانات الفنية والاعتمادات المالية لتنفيذه إلا انه لم ينفذ لمجرد أن وزير الحربية المصري رأى أن يعرقل تنفيذه!! [٥]

الرئيس لا يوافق على زيارتي للجزائر والمغرب:

لكي أقوم بزيارة دول الدعم العسكري [٦] تنفيذا لتوصيات مجلس الدفاع المشـــترك كان على أن أستأذن السيد الرئيس في السفر إلى تلك البلاد. كانت العلاقـــات. بيني وبين وزير الحربية قد

ساعت ولم أكن أدرى كيف ينظر السادات إلى هذا الموضوع، ماذا قال له صادق؟ وهل تأثر بكلام صـــادق أم لا؟ وإذا كـــان قد تأثر بكـــلام صادق فلابد انه لا يشعر نحوي بالارتيـــاح، فكيــف يمكنني أن أعالج هذا الموضوع؟ قررت ألا أثير موضوع خلافي مع صادق أمام الــرئيس إلا إذا سألني شخصيا عن هذا الموضوع، كما قررت ألا أتعجل موضوع سفري إلـــى الـــبلاد العربيـــة واكتفيت بان أرسلت مذكرة إلى السيد الرئيس أخطره فيها بتوصـــية المجلس واطلب منـــه الإذن بالسفر.

مضت عدة أسابيع دون أن أتلقى أي رد على مذكرتي إلى السيد الرئيس، ولم أحاول أن أساله عن هذا الموضوع في المناسبات التي كنت أقابله فيها إلى أن جاء يوم ٢٧ من يناير ٧٢، وكـــان قـــد مضى ما يقرب من شهرين دون أن يتخـــذ الرئيس أي قرار سواء بالرفض أم الموافقة، سألته عن قراره بخصوص هذه الزيارة فقال، لا أوافق أنها مضيعة للوقت ولن تكون هناك أية نتـــائج مفيدة لهذه الزيارة.. إني أوافق على أن تزور ليبيا والسعودية لأن هاتين الدولتين فقط علـــى اســـتعداد حـــقا لتقديم العون أما الدول الأخرى- الجـــزائر والمغرب والعراق- فإنها لن تعطي شيئـــا. إنهم يزايدون فقط . سوف يســـتفيدون دعائيا من زيارتك ولكنهم لن يعطوا شيئا للمعركة". قلـــت لـــه وسوف يكون سفري إلى هذه البلاد بصفتي الأمين العام المســـاعد العسكري للجـــامعة العربيـــة وليس بصفتي (ر.ا.ح.ق.م.م) "، قال الرئيس "إن سفرك بصفتك الأمين العام المســـاعد العسكري للجـــامعة العربيـــة لن يلغي صفـــتك (ر.ا.ح.ق.م.م) وسوف يستغلون صفتك هذه في دعايـــاتهم إلى ابعد الحدود". قلت له "سيادة الرئيس، إن علاقة مصر مع تلك الدول سيئه فإذا نجحت زيارتي في الحصول على أي شيء لمصر فهو مكسب وإذا لم تستطع زيارتي أن تحقق أي نجاح فلـــيس هناك شئ نخسره. وهنا ثار الرئيس وقال غاضبا "شوف يا سعد أنت راجل عسكري محترف ولا تفهم في السياسة. إني اعمل في السياسة و أتعامل مـــع هؤلاء الناس منذ عشرين عاما واعـــرفهم جيدا. انهم يزايدون أحيانا، وينتقدون أحيانا، و أحيانا يعرضون مساعدتهم بعد أن يفرضوا شروطا غير مقبولة. ليس هناك أي أمل يرجى من هؤلاء الناس. كيف تقوم بزيـــارة دول تقـــوم يوميـــا بالتهجم علينا وانتقاد سياستنا؟ " أجبت بهدوء "سيادة الرئيس- قد تكون لك تجربة سابقة مع بعض الناس جعلتك تفقد الثقة بالناس جميعا، ولكن اسمح لي يا سيادة الرئيس بان أذكرك بقول رسول الله "أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما. وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكـــون حبيبك يوما ما"، أنصت الرئيس إلى الحديث النبوي الشريف وطلب مني أن أعيد قوله مرة أخرى ففعلت عاد الهدوء إليه وقال ضاحكا "الله يجازيك يا سعد أنا لم اسمع بهذا الحديث قبل ذلك ولكـــن

كلماته محبوكة ومنطقية. فعلا يجب ألا ندمر الجسور بيننا وبينهم يمكنك أن تزورهم وسوف نرى ما سوف تتمخض عنه هذه الزيارة. بدأت في الإعداد للزيارة مع سفراء المغرب والجزائر وليبيا وبعد التنسيق معهم جميعا تقرر أن أغادر القاهرة يوم ٦ من فبراير إلى الجزائر ومنها إلى المغرب ثم إلى ليبيا ومنها إلى القاهرة.

زيارة الجزائر:

قابلت الرئيس هوارى بومدين صباح يوم ٧ من فبراير، أخبرته عن طبيعة مهمتي وأفكاري بخصوص تعبئة الموارد العربية للمعركة، تطبيقا لشعار قومية المعركة. أنصت الرئيس بومدين إلى ما كنت أقوله وعبر عن تحمسه للاشتراك بكل جندي وكل قطعة سلاح تستطيع الجزائر أن تقدمهما للمعركة ولكنه أعرب عن شكوكه في جدية العزم على استئناف القتال و أضاف قائلا "إذا قامت الحرب فيجب أن تتأكد أن الجزائر ستقوم بإرسال كل ما عندها لكي يقاتل الجزائريون جنبا إلى جنب مع إخوانهم المصريين ". قلت "سيادة الرئيس.. أني أتفهم شكوكك في انه ليست هناك جدية لإثارة الحرب من جديد. في مصر أيضا هناك الكثيرون ممن يعتقدون انه لن تكون هناك حرب أخرى وان الكلام عن الحرب هو للاستهلاك المحلي. (٧) ولكن عندما تقع الحرب فلن يكون هناك وقت لإرسال القوات الجزائرية إلى الجبهة والاستفادة منها في المعركة. وبالإضافة إلى ذلك فإنه لا يمكننا إدخال القوات الصديقة في الخطة الهجومية ما لم تكن هذه القوات الصديقة موجودة فعلا في الجبهة. لا يمكن أن ندخل ضمن خطتنا وحدات غيبية قد لاتصل لأي سبب كان، فتترتب على ذلك ارتباكات كبيرة" أبدى الرئيس بومدين اقتناعه برأيي ولكنه لفت نظري إلى المشكلات المعنوية والإدارية والاجتماعية التي تترتب على إرسال قوات جزائرية إلى مصر حيث تبقى سنة أو اكثر في انتظار حرب قد تقوم وقد لا تقوم وعلق قائلا " نحن الجزائريين دماؤنا ساخنة، إذا كانت هناك حرب فإننا نقاتل. أن رجالنا عندما نرسلهم للحرب فإنهم سوف يكونون ذوى معنويات عالية وعلى أهبة الاستعداد لها، فإذا طالت المدة دون أن تكون هناك حرب فإنهم سيثيرون المشكلات لكم ولنا وسوف تزداد المشكلات الإدارية: سوف يطلبون أن ترحل لهم عائلاتهم، وسوف يطالبون بإجازات دورية ليقضوها بين عائلاتهم و أهلهم بالجزائر، الخ. أن هذه المشكلات كلها يمكن تلافيها إذا نحن أرسلنا الدعم العسكري الجزائري بعد أن يتحدد ميعاد المعركة،. كان واضحا أن وصول الدعم العسكري قبل ميعاد المعركة بوقت طويل هو أمر غير مستحب كما أن إرسالهم عند قيام الحرب أو قبلها بأيام هو أمر غير مستحب أيضا،. وكحل وسط اتفقنا على أن ترسل الإمدادات الجزائرية إلى الجبهة بناء على طلبنا بحيث نضمن أن الحرب سوف تشتعل في

أي وقت وبحد أقصاه ٩٠ يوما من تاريخ طلب هذه القوات، ويتم سحب هذا الدعم أما من قبل الرئيس السادات شخصيا أو من قبلي.

وفي أثناء لقائي مع الرئيس بومدين، تحدث الرئيس بمرارة عن القيادات السياسية المصرية وعن السادات أنه لم يستعمل قط لفظ القيادة السياسية في مصر، كذلك لم يذكر قط اسم السادات ولكن قصده كان واضحا عندما يقول "انتم في مصر، فقد قال لي الرئيس بومدين "إنكم في مصر تهاجمونني باستمرار وتقولون أنني أريد أن انصب نفسي زعيما على العرب بعد موت عبد الناصر. هذا غير حقيقي وأني أريد أن تفهموا في مصر إنني لم أفكر في ذلك مطلقا. أني أريد أن أضع يدي في أيديكم بنية صادقة لطرد الإسرائيليين من أراضينا المحتلة. انه من المهانة أن نرى هذه الدولة التوسعية تستمر في احتلال الأراضي العربية دون أن نستطيع نحن العرب أن نقوم بردعها".

قضيت اليومين التاليين في زيارة الوحدات العسكرية والوحدات الجوية الجزائرية، وقد أدركت مدى المشكلات والتحديات التي واجهت الجزائر منذ استقلالها. لقد حققت الجزائر تقدما كبيرا منذ استقلالها قبل عشر سنوات مضت في جميع المجالات. لقد ابتدأت من الصفر. لم تكن هناك حكومة أو جهاز أداري. لم تكن هناك قوات مسلحة نظامية. لم يكن هناك نظام اقتصادي. وأكثر من ذلك لم تكن هناك لغة. كانت فرنسا قد قضت على اللغة العربية و أحلت محلها الفرنسية التي اخذ الجزائريون يستخدمونها بينهم. وبعد عشر سنوات تغير كل شئ وكان أهم ما فتنني هو إصرار الدولة على إعادة تعريب الجزائر بعد فرنستها لمدة تزيد على قرن من الزمان.

زيارة المغرب:

قابلت جلالة الملك الحسن الثاني في الرباط يوم ٩ من فبراير ٧٢، وكانت إجراءات ومظاهر المقابلة مثيرة للغاية. لقد تحركت أولا إلى مبنى وزارة الحربية حيث استقبلني الجنرال أوفقير [٨] الذي رافقني إلى القصر الملكي، وفي مدخل القصر كان هناك حرس شرف بالملابس العربية، وعلى مدخل باب غرفة الملك كان يقف المعلن ومعه عصاه التقليدية. وبينما كنت أخطو إلى داخل المكتب ضرب المنادي الأرض بعصا. ليلفت الأنظار ثم أعلن بصوت جهوري "الفريق سعد الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية، [٩] كان الملك يقف في نهاية الغرفة بجوار مكتبه ويدير به عدد من مستشاريه. لقد أوحى لي هذا الاستقبال بان الملك يحاول أن يحافظ على التقاليد العربية بعد أن ادخل عليها بعض اللمسات الغربية وفي خلال الأيام القليلة التي قضيتها بعد ذلك في المغرب ازددت اقتناعا بحقيقة ذلك. إن المغرب هي- في الحقيقة- مزيج

غريب من الشرق والغرب" ففي بعض المظاهر قد تبدو شرقية اكثر من أي بلـد عربـي، وفـي مظاهر أخرى قد تبدو المغرب وكأنها غربية اكثر من أي بلد عربي آخر.

حضر مقابلتي مع الملك الجنرال اوفقير ورئيس الديوان الملكي. أنصت الملك إلى كلامي ثم علق في النهاية "إن القوات المسلحة المغربية جميعها تحت تصرفك إن كل فرد في المغـرب سـوف يكون سعيدا عندما يرى قواتنا المسلحة تقاتل من اجل القضية العربية". قلت "يا صاحب الجلالـة قبل أن احضر إلى هنا كانت لدى فكرة عامة عن القوات المغربية من حيث الحجم والتنظيم، وأني أود أن تتاح الفرصة لزيارة تلك الوحدات للتعرف على مستواها التدريبي وقدراتها القتالية"، قـال الملك واعتبارا من باكر يمكنك أن تزور أية وحدة ترغب في زيارتهـا. وبعـد أن تنتهـي مـن زياراتك كلها تعالى لمقابلتي مرة أخرى وقال لي ماذا تريد", ثم أضاف قائلا "لا تشغل نفسك طوال الوقت حاول أن توفر بعض الوقت لكي تزور بلادنا،. بعد أن تحدثنا عن هذا الموضوع الرئيسي الذي حضرت من اجله وبعد أن أعطى الملك تعليماته إلى الجنرال اوفقير بان يقوم بترتيب بعض الزيارات الترفيهية لي، انتقل إلى موضوع آخر هو موضوع العقيد معر القذافي. لقد تكلم الملـك بمرارة عن موقف القذافي وقال "إن القذافي يخصص ساعة كل يوم في الإذاعة الليبية لكي يهاجم المغرب انه يشتمنا ويتهمنا باتهامات باطلة. ماذا يريد منا القذافي ؟ ماذا فعلنا لكي يهاجمنـا هـذا الهجوم. هل من مصلحة العرب أن نستنفد جهودنا في مهاجمة بعضنا بعضا بدلا من أن نوجههـا إلى عدونا المشترك؟ أن القذافي صديقكـم في مصر وقد تستطيعون أن تنصحوه لكي يقلع عـن هذه التصرفات و أرجو أن تقوم بإبلاغ ذلك إلى السادات عسى أن يؤثر على صديقة القذافي لكي يعدل موقفه منا".

قضيت اليومين التاليين في زيارة عدد من الوحدات المغربية حيث قمت ببحث موقفها من حيث التنظيم والتسليح والتدريب وبعد أن انتهيت من هذه الزيارات قابلت الملك للمرة الثانية وطلبت أن تشمل الإمدادات المغربية ما يلي:

- سرب اف ٥.
- لواء دبابات.

وافق الملك وسألني عن ملحوظاتي عن الوحدات التي زرتها فذكرت له وجهة نظري بأمانـة. ثم ناقشت معه أسلوب نقل هذه الوحدات إلى الجبهة وبعض التفصيلات الأخرى وقبل أن اتركـه قال بحماس "يا أخ شاذلي قد تكتب مذكراتك في يوم من الأيام ولسوف تكتب إن شاء الله فيها: لقد وعد الملك الحسن فأوفي بوعده، فقلت له "إن شاء الله " وفي يوم ١١ من فبراير غادرت المغرب

إلى ليبيا.

زيارة ليبيا:

في يوم ١٢ من فبراير ٧٢ قابلت الرئيس معمر القذافي في مكتبه بمجلس قيادة الثورة وقد حضر هذه المقابلة المقدم أبو بكر يونس ر.ا.ح.ق.م الليبية، والرائد مصطفي الخروبي مساعد ر.ا.ح.ق.م والرائد عبد السلام جلود رئيس الوزراء، والرائد عبد المنعم الهوني وزير الداخلية وجميعهم أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبية. كانت القوات المسلحة الليبية محدودة ولم يكن هناك ما يمكن الاستعانة به–في ذلك الوقت– للمعركة إلا القليل، ولكن القذافي كان يضع قواته المسلحة كلها في خدمة المعركة. كان أهم ما عنده هو طائرات الميراج ٣ الفرنسية التي كانت تصله بأعداد لا تستطيع ليبيا استيعابها فكان يستعين بمصر للتغلب على ذلك. كنا نقوم بإرسال الطيارين المصريين وهم يحملون جوازات سفر ليبية إلى فرنسا حيث يتلقون تدريبا أوليا على الطائرة قبل أن يعودوا بها إلى ليبيا. كان في ليبيا في ذلك الوقت سربان عاملان أحدهما كان يقوده طيارون ليبيون مازالوا قيد التدريب أما السرب الآخر فكان يقوده طيارون مصريون وكان متمركزا في ليبيا وجاهزا للتحرك إلى مصر إن دعت الحاجة إلى ذلك، وقد تم ذلك كله بناء على اتصالات ثنائية مباشرة بين مصر وليبيا، وهكذا كانت رحلتي إلى ليبيا تختلف في طبيعتها عن رحلتي إلى الجزائر والمغرب. لقد كان التعاون العسكري بين مصر وليبيا تعاونً كاملا، فقد كانت مدارسنا العسكرية مفتوحة على مصراعيها لتأهيل الضباط وضباط الصف الليبيين من مختلف التخصصات وكان لدينا في ليبيا مئات من الضباط وضباط الصف المصريين لتدريب الوحدات الليبية وتقديم الخبرة الفنية لها، وعلاوة على ذلك فقد كانت بعض الوحدات الميدانية المصرية تتمركز في ليبيا، وكان المصريون يقومون بتشغيل العديد من الأسلحة والمعدات الليبية التي لم يكن في استطاعة ليبيا تدبير الأطقم اللازمة لتشغيلها. ونتيجة لهذا الموقف فقد كان الهدف الأساسي من زيارتي إلى ليبيا هو إطلاع الرئيس القذافي على نتيجة رحلتي إلى الجزائر والمغرب ثم انتهز الفرصة بعد ذلك لكي أصور الوحدات المصرية، التي كانت متمركزة في القواعد الليبية.

في مكتب متواضع وبعيدا عن جميع مظاهر الأبهة، اجتمعنا مساء ذلك اليوم. كان الجميع يلبسون "الأوفرولات" البسيطة حتى خيل إلي وكأني في اجتماع ميداني في أحد مواقعنا النائية في الصحراء أخطرت المجلس بنتيجة لقائي بكل من الرئيس هواري بومدين والملك الحسن ولكني لم أخطرهم بشكوى الملك من هجوم القذافي على النظام الملكي في المغرب؛ وبعد أن انتهيت علق القذافي قائلا بأنه لا يعتقد أن الملك الحسن سوف يبعث بقواته إلى الجبهة كما وعد، ولكني قلت له

أنني اعتقد أنه سيبعث بها، تدخل القذافي قائلا مما الذي يجعلك تقول هذا؟"، فأجبت، إنني أتعامل مع الرجال منذ اكثر من ثلاثين عاما واعتقد أن لدي الخبرة الكافية لكي اعرف من يعني ما يقول ومن لا يعني ما يقوله، أدار القذافي وجهه إلى أعضاء المجلس وقال "إذا فعل الحسن ذلك فإن ذلك يعني أنه يخشى على نفسه من جيشه وأنه لذلك يريد أن يرسلهم خارج البلاد لكي يتخلص منهم ويتفادى تهديدهم لعرشه".

تدخلت بسرعة لكيلا أعطى الفرصة لأحد من أعضاء المجلس أن يعلق على ما قاله القذافي وقلت له "سيادة الرئيس لنفترض أن ما تقوله حقيقي، هل يغير ذلك شيئا بالنسبة لك أو بالنسبة لنا مادامت هذه القوات سوف تشترك في المعركة؟، هز القذافي رأسه وقال "حقا ما تقول.. انه لن يغير شيئا"ـ وبنهاية الجلسة كان القذافي سعيدا جدا بنتائج رحلتي وقال وهو في قمة السعادة موجها كلامه إلى أعضاء مجلس قيادة الثورة "أيها الاخوة. يبدو أن قومية المعركة التي طالبنا بها قد بدأت تظهر نتائجها".

قضيت اليومين التاليين في زيارة بعض الوحدات الليبية والمصرية وعدت إلى مصر يوم ١٤ من فبراير. وفي مساء اليوم نفسه حضرت حفل عشاء كان يقيمه الرئيس السادات تكريما لرئيس الوزراء البلغاري الذي كان في زيارة رسمية لمصر. وفي كلمتين قصيرتين خلال حفل الاستقبال قلت له "كانت الرحلة ناجح".

وبعد أيام قليلة قدمت تقريرا كاملا عن الرحلة إلى الرئيس. وبعد حوالي ثلاثة أسابيع كنت اجلس مع السادات لمناقشة تقريري عن الرحلة. كنت اعتقد انه سيكون سعيدا بهذه النتائج ولكنه قال "ضحكوا عليك وجعلوك تبرئهم بتصريحاتك أنا كنت أتابع تصريحاتك وأنت هناك. الملك الحسن سبق أن أعطى وعودا مماثلة أمام الملوك والرؤساء (١٠) ولكنه لم ينفذها قط أما بخصوص بومدين فإن الشروط التي يضعها شروط غير مقبولة. كيف يمكننا أن نقول له أن الحرب سوف تبدأ بعد ثلاثة اشهر؟ "حاولت بقدر ما أستطيع أن أوضح ما دار من حديث بيني وبين كل من الملك الحسن والرئيس هواري بومدين ولكن كان يبدو لي انه غير مقتنع بما أقول وانه كان مقتنعا تماما بأنهما لن يقوما بإرسال أي دعم إلى الجبهة وان ما قالاه هو مجرد أقوال".

انتقل الحديث بعد ذلك إلى موقف الأردن فهاجم السادات الملك حسين هجوما عنيفا وقال انه غير مخلص ولا أمل يرجىّ منه. وانه قد باع نفسه للأمريكان والاستعمار الغربي وبالتالي فإننا لا يمكن أن نتعامل معه. ورفض رفضا باتا أن اقبل دعوة الأردن لزيارته.

وعلى الرغم من التعليقات المتشائمة التي أدلى بها السادات عن رحلتي إلى الجزائر والمغرب،

فأن هذه الرحلة قد نجحت في هدم الحواجز التي كانت تقف بين مصر وبين تلك الــدولتين، لقــد كنت أول شخصية مصرية كبيرة تزور هاتين الدولتين منذ سنوات، وبعد بضعة اشهر من زيارتي تلك قام وزير خارجية مصر بزيارتهما، وبعد ذلك قام السادات نفسه بزيارة لهما.

هوامش الفصل الخامس والعشرون

(١) جميع هذه الأرقام كتبت على أساس إحصاءات الأمم المتحدة ١٩٧٠.

(٢) سوريا كان متوسط دخل الفرد بها ٢٤٤ دولارا وتخصص للدفاع ١١،٨%

والأردن كان متوسط دخل الفرد بها ٢٨٠ دولارا وتخصص للدفاع ٨ ,١٣ %.

(٣) كانت مفردات مؤتمر الخرطوم هي أن تدفع دولة الكويت ٥٥ مليون جنيه إسترليني والمملكة العربية السعودية ٥٠ مليون جنيه وليبيا ٣٠ مليون جنيه فيكون الإجمالي هو ١٣٥ مليون جنيه إسترليني، ويتم توزيع هذا المبلغ على كل من مصر والأردن فيكون نصيب مصر هو ٩٥ مليون جنيه إسترليني سنويا والأردن ٤٠ مليون جنيه إسترليني سنويا.

(٤) يحتاج تدريب الطيار إلى ٣-٥ سنوات ويتكلف خلالها حوالي مليون دولار (طبقا لحسابات عام ١٩٧١).

(٥) التفاصيل في الفصل السابع عشر.

(٦) المقصود بدول الدعم العسكري. هي الدول العربية التي ليست من دول المواجهة ولكنها سوف تخصص جزئا من قواتها العسكرية لتعزز القوات العسكرية لدول المواجهة.

(٧) كانت زوجتي من بين هؤلاء الذين يعتقدون انه ليست هناك حرب أخرى. كانت تطلب مني أن تؤدي فريضة الحج فكنت أقول لها بعد الحرب بأذن الله فكانت تحتج قائلة "لن تكون هناك حرب أخرى. أنكم تقولون ذلك للشعب ولكنكم تعرفون أنكم لن تقوموا بهذه الحرب " فكنت أرد عليها "لو أني اعلم أنه لن تكون هناك حرب لتركت القوات المسلحة. ستقع الحرب وسنحج معا بإذن الله ".

(٨) كان الجنرال اوفقير يتولى منصب وزير الداخلية ومنصب وزير الحربية ومنصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المغربية.

(٩) لا اعرف إذا كان "المعلن" هذا تقليدا عربيا قديما، ولكنه معمول به في بريطانيا ويطلق عليه "announcer" وأعتقد أن المملكة المغربية هي الدولة العربية الوحيدة التي تأخذ بهذا التقليد.

(١٠) الرئيس السادات يقصد هنا مؤتمر الملوك والرؤساء الذي عقد في الرباط في ديسمبر ١٩٦٩.

الفصل السادس والعشرون

الدورة الثالثة عشرة

لمجلس الدفاع العربي المشترك

لجنة الكويت:

لقد كان ضمن قرارات مجلس الجامعة في دورته رقم ٥٨ المنعقدة بالقاهرة في المدة من ٩ إلى ١٣ من سبتمبر ٧٢، تأليف لجنة من وزراء الخارجية والدفاع في دول المواجهة والكويت والسعودية لتقييم الموقف من جميع نواحيه ووضع الأسس لخطة عمل عربي مشترك محدد الوسائل والالتزامات لمواجهة العدوان الإسرائيلي. كما تقرر ان تجتمع هذه اللجنة في الكويت في ١٥ من نوفمبر ٧٢. [١] بعد ان وصل عدد الدول المشتركة في هذه اللجنة إلى ١٣ دولة من مجموع ١٩ دولة هي الدول الأعضاء في الجامعة العربية في ذلك الوقت أصبحت اللجنة وكأنها اجتماع محدود لمجلس الدفاع المشترك.

تقدمت أمام اللجنة في الكويت بتقرير يعتبر اكثر صراحة من التقرير الذي تقدمت به أمام مجلس الدفاع المشترك في نوفمبر ٧١. وفي الحقيقة فإن كل ما قلته في نوفمبر ٧٢ كان في ذهني في نوفمبر ٧١ ولكني أحجمت عن ذكره في ذلك الوقت ويتلخص ما ورد في التقرير فيما يلي:

١- أن قومية المعركة أفعالاً وليست أقوالاً. وأن الدول العربية التي ليست من دولة المواجهة لا تشارك في المعركة بالقدر الكافي، وأن المساعدات التي تقدمها إلى دول المواجهة هي مساعدات محدودة لا يمكن ان ترقى الى مستوى المشاركة في الأعباء. وللتدليل على ما أقول قدمت لهم الأرقام التالية:

(أ) أنفقت مصر على قواتها المسلحة منذ ١٩٦٧ حتى ١٩٧٢، ٤١٢٥ مليون جنيه، فإذا أضفنا الى ذلك خسائرنا في الممتلكات ارتفع الرقم الى حوالي ٤٥٠٠ مليون جنيه ولا يدخل ضمن هذا الرقم خسائرنا نتيجة إغلاق قناة السويس وفقدان أبار البترول في سيناء مما يصل بهذا الرقم الى حوالي ٦٠٠٠ مليون جنيه.

(ب) بلغت خسائر مصر في الأرواح نتيجة أعمال العدو خلال هذه الفترة ٢٨٨٢ شهيدا علاوة على ٦٢٨٥ جريحا.

(ج) حصلت مصر خلال هذه الفترة على دعم مالي من السعودية والكويت وليبيا يبلغ ٥٦٦ مليون جنيه. أي ما يعادل حوالي ٩% مما تنفقه مصر دون حساب للأرواح التي تستشهد من اجل

القضية العربية.

(د) إن الدخل القومي المصري يمثل ٣٦% من أجمالي الدخل القومي العربي، ومع ذلك فإن مصر تتحمل ٥٠% من الإنفاق العسكري العربي. [٢]

٢- وقد أخبرت اللجنة انه يجب أن تكون لدينا سياسة بعيدة المدى وسياسة أخرى لمجابهة الموقف في الحاضر والمستقبل القريب، وقد اقترحت أن تشمل سياسة المستقبل القريب ما يلي:

(أ) كل دولة عربية يجب أن تلتزم بان تخصص ١٥% على الأقل من دخلها القومي كميزانية عسكرية مع إعطاء الأولوية للقوات الجوية والدفاع الجوي. لا يمكن أن نقبل المناداة بقومية المعركة، بينما إحدى الدول العربية تخصص ٢٢,٧% من دخلها القومي للإنفاق العسكري ودولة أخرى تخصص ٣% فقط من دخلها القومي للإنفاق العسكري.

(ب) إذا كانت إحدى الدول العربية غير قادرة على إنفاق نسبة ١٥% من دخلها القومي لشئون الدفاع نتيجة النقص في عدد الأفراد أو الفنيين فإنها تقوم بتحويل هذا الفائض الذي لا يستطيع استيعابه إلى صندوق قومي يطلق عليه "صندوق المعركة" يخصص لدعم دول المواجهة مع إسرائيل.

٣- أما السياسة البعيدة المدى فيجب أن تشمل ضرورة اعتمادنا على أنفسنا في إنتاج أسلحتنا بأنفسنا، وقدمت لهم الأمثلة التاريخية التي تؤيد أن الدول التي تصنع أسلحتها تستطيع في النهاية أن تهزم عدوها الذي لا يقوم بتصنيع أسلحته.

(أ) أجريت مقارنة بين الإنتاج الحربي في إسرائيل والدول العربية ووضعت أمامهم الأرقام التالية:

الإنتاج الحربي في إسرائيل والدول العربية (ملايين الدولارات)

	عام ١٩٦٦	عام ١٩٧٢
إسرائيل	٩٠	٤٢٨
الدول العربية (مصر)	٧٠	٩٣

(ب) طالبت بإنشاء مؤسسة للإنتاج الحربي تسهم فيها كل دولة عربية بنسبة ٢% من دخلها القومي لمدة ٥ سنوات متتالية وذلك لتكوين راس مال الشركات التي تنتج مختلف أنواع الأسلحة.

(ج) طالبت بان تكون هذه المؤسسة العربية

للإنتاج الحربي مستقلة تماما عن الدول العربية جميعها وان تعتمد المؤسسة على المبادئ والأسس الاقتصادية السليمة بحيث يمكنها أن تقوم بإمداد الدول العربية باحتياجاتها من الأسلحة المتطورة بأسعار لا تزيد على الأسعار العالمية مع توزيع الأرباح على المساهمين فيها. [٣] هذا ويجب مراعاة توزيع المصانع التابعة لهذه المؤسسة على الدول العربية بحيث يخضع هذا التوزيع إلى العوامل الاستراتيجية والفنية والاقتصادية.

٤- أوضحت لهم مدى الضعف العربي و أخبرتهم أن القوات الجوية الإسرائيلية بما لديها من طائرات وطيارين تستطيع أن تقصف أهل المواجهة بما يعادل ٢٥٠٠ طن يوميا من القنابل في حين أن طاقة القوات الجوية المصرية والسورية مجتمعة تعادل ٧٦٠ طنا من القنابل يوميا. وقد أكدت في اكثر من مجال أن الدول العربية يجب أن تعمل جاهدة لزيادة مقدرة قواتها الجوية ودفاعها الجوي.

اجتماع رؤساء أركان حرب الجيوش العربية (الهيئة الاستشارية لمجلس الدفاع المشترك):

في يوم ١٣ من ديسمبر ١٩٧٢ اجتمع رؤساء أركان حرب القوات المسلحة العرب في القاهرة وفي هذا الاجتماع التاريخي دارت مناقشات قوية وبناءه [٤] " انتهت بالتوصيات التالية:

١- تستمر الدول العربية في تقد يم الدعم العسكري طبقا لمقررات مجلس الدفاع المشترك في دورته الثانية عشرة فيما عدا التعديلات التالية:

(أ) تقوم المملكة العربية السعودية بتقديم سرب ليتننج إلى الجبهة المصرية الآن. وتقوم بتقديم سرب ليتننج آخر عام ٧٤.

(ب) تقوم دولة الكويت بتقديم سرب ليتننج للجبهة المصرية الآن وتقوم بتقديم سرب آخر في وقت يتم الاتفاق عليه فيما بعد.

(ج) تقدم ليبيا سربي ميراج الآن، وسوف تعمل على تقديم سرب آخر يتم الاتفاق عليه فيما بعد،

وعلاوة على ذلك فإن ليبيا تلتزم بوضـــع كافـــة
إمكاناتها العسكرية لخدمة المعركة.

٢- توصى الهيئـــة بأن تلتزم كل دولة عربية بتخصيص ١٥% على الأقل من دخلهـــا القـــومي لتطوير ورفع الكفاءة القتالية لقواتها المسلحة مع إعطاء الأسبقية الأولى فـــي التطـــوير والـــدعم للقوات الجوية والدفاع الجوي، وإذا كانت ظروف الدولة لا تتيـــح لها إنفاق هـــذه النســـبة علـــى قواتها المسلحة نتيجة نقص في الأفراد والخبرات فعلى هـــذه الدولـــة أن تـــدعم دول المواجهـــة بالأموال التي تستكمل بها هذه النسبة.

٣- إن الهيئة الاستشارية وهي تؤمن بأهمية بناء قاعدة صناعية حربيـــة متطورة داخل الـــوطن العربي لتحقيق الاكتفاء الذاتي في الصناعات الحربية للقوات المسلحـــة العربية والصـــمود أمـــام الاحتكارات العالمية في مجال توريد الأسلحة توصى بضرورة الإسراع في إنشاء مؤسسة عربية للإنتاج الحربي تسهم فيها كل دولة بنسبة ٢ % على الأقل من دخلها القومي ولمدة خمس سنوات. ويجب ألا تخضع هذه المؤسســـة لسلطة أي بلد عربي بل تكون لها حرية العمـــل علـــى أســـس اقتصادية وتجارية بحتة. وتوضع النقط التالية موضع الاعتبار عند إنشاء المؤسسة:

(أ) يشرف على المؤسسة مجلس إدارة من الدول الأكثر اشتراكا في راس المال والأكثر تعاملا مع المؤسسة.

(ب) يتم توزيع المصانع التـــابعة لهذه المؤسسة على الأراضي العربيـــة جميعـــــها، علـــى أن يوضع في الحسبان التوزيع الإستراتيجي والاقتصادي ومصادر المواد وتوفيـــر الخبرات والأيدي العاملة.

(ج) يجوز للمؤسسة أن تشتري المصانع الحربية القائمة فعلا علـــى الأراضـــي العربيـــة مـــن الدول صاحبة الشأن وذلك إذا توافرت فيها الشروط الفنية والاقتصـــادية التـــي تحقـــق أهـــداف المؤسسة.

(د) لا تقوم المؤسسة بتوزيع أرباح عن الأسهم عن السنوات الخمس الأولى.

اعتقد أن توصيات الهيئة الاستشارية في دورتها الثالثة عشرة تعتبر أهم وأخطر قرارات اتخذها رؤساء الأركان العرب. حقيقة أن قراراتهم في هذا الشأن لا تعدو أن تكون توصيات وان التنفيـــذ يتوقف في النهاية على مدى رغبة كل دولة في تنفيذ التزاماتها. ولكن هذه التوصيـــــات عنـــدما تصدر من القمة العسكرية في العالم العربي فلابد أن يكون لها أثر بعيد حتى ولو لم تظهر هـــذه النتائج مباشـــرة. إن التوصية بان تلتزم كل دولة بإنفاق ١٥% من دخلهما على قواتها المسلحة-

كما جاء في البند رقم ٢- تعتبر تجسيدا لقومية المعركة. لقد مضت ست سنوات على هذا القرار وقد تغيرت نسب الإنفاق العسكري في بعض الدول ولم تتغير في دول أخرى، ولكن- على الأقل- اصبح هناك مقياس يحسب على أساسه مدى جدية كل دولة في المساهمة الفعالة في المعركة، كذلك فإن قرار إنشاء المؤسسة العربية للإنتاج ولو انه لم يخرج إلى حيز التنفيذ، فإنه أنار الطريق أمام بعض الدول، فقد قامت مصر والسعودية وقطر والإمارات العربية بالاشتراك في إنشاء مؤسسة خاصة بها.

لي تحفظات كثيرة حول هذه المؤسسة. وبصفة عامة يمكن القول إن الدعاية التي تصاحب هذه المؤسسة تفوق بكثير حقيقة ما قامت به أو ما سوف تقوم به. إن الخطوط التي تسير عليها تختلف تماما عن الخطوط التي كنت أتصورها وارسمها في خيالي عن المؤسسة وأهدافها. إنني إذا نظرت إلى ما حققته تلك المؤسسة التي أسست عام ١٩٧٥ براس مال قدره ١٠٤٠ مليون دولار، وجدت أنها لم تحقق شيئا يذكر في مجال الإنتاج الحربي الحقيقي. إنها تعاقدت لإنتاج محركات لطائرات تدريب وعربات جيب وطائرات مروحية (هيليكوبتر)**LYNX** وجميع هذه الأصناف لا يمكن أن تضيف شيئا إلى قوة العرب في الميدان، وليست هناك أية قيود في الدول الغربية على بيع هذه الأصناف. إنني أريد أن نصنع الأصناف المتطورة التي تفرض الدول التي تصنعها قيودا على بيعها، وكنت أريد أن أعتمد على شراء العقول والخبرة لتحقيق ذلك، وليس مجرد التعاقد مع الدول لتصنيع هذه الأصناف لأنني اعلم مسبقا أن تلك الدول لن تساعدنا في إنتاج السلاح المتطور. لن تساعدنا في إنتاج طائرة قتال متطورة أو دبابة متطورة أو صواريخ متطورة. إن الشيء الوحيد الذي يمكن أن نعترف بان هذه المؤسسة قد قامت به هو التعاقد على تصنيع المقذوفات الموجهة سوينج فاير Swing fire مع العلم بأن هذا الصاروخ لم يتم إنتاجه في مصانع المؤسسة حتى الآن (يوليو ١٩٧٩)٠ إن فكرة التضامن لإنتاج السلاح هي فكرة صحيحة أما الأسلوب الذي اتبعته تلك المؤسسة والنتائج التي حققتها خلال أربع سنوات من عمرها فتعتبر نتائج محزنة. (٥)

عندما قابلت السادات يوم ١٣ من ديسمبر ٧٢ أخبرته بتوصيات رؤساء الأركان العرب الخاصة بإنشاء الصناعات الحربية، وقلت له "طبقا لتقديراتي فإن راس مال هذه المؤسسة سوف يصل في نهاية السنوات الخمس إلى ٣٠٠٠ مليون دولار" فرد السادات " أنك متفائل جدا. إذا استطعنا أن نحصل على ١٠% فقط من هذا المبلغ فإننا نستطيع أن ننشئ صناعات حربية حقيقية".

قرارات مجلس الدفاع المشترك:

لم يجتمع مجلس الدفاع المشترك في دورته الثالثة عشرة خلال شهر ديسمبر ٧٢ كما كان مقررا و إنما انعقد في الفترة من ٢٧-٣٠ يناير ٧٣. وكانت قرارات المجلس تنحصر في تأكيد التزامات كل دولة من الدول التي ليست من دول المواجهة بتقديم الدعم العسكري السابق تحديده بواسطة اللجنة الاستشارية التي تتكون من رؤساء أركان الحرب في الدول العربية جميعها.

هوامش الفصل السادس والعشرين

(١) اخذ عدد أعضاء الدول التي تنضم إلى اللجنة يزداد حتى اصبح ١٣ دولة هي: الأردن، تونس، الجزائر،السعودية،السودان، سوريا، العراق، الكويت، لبنان، ليبيا، مصر، المغرب، فلسطين. وهذا يعني أن الدول العربية التي لم تحضر هذا الاجتماع هي اليمن الشمالي، اليمن الجنوبي، قطر، دولة الإمارات العربية، البحرين، وسلطنة عمان.

(٢) إن هذه النسبة على أساس ١٩٧٢. وقد اختلفت الآن اختلافا كبيرا.

(٣) يبدأ توزيع الأرباح بعد ٥ سنوات من الاتفاق على إنشاء هذه المؤسسة وذلك لتغطية فترة بناء المصانع واكتساب الخبرات الفنية.

(٤) يمكن الاطلاع على محضر الجلسات في محفوظات الجامعة العربية.

(٥) قامت كل من السعودية وقطر ودولة الإمارات العربية بالانسحاب من هذه المؤسسة اعتبارا من أول يوليو ١٩٧٩، وذلك احتجاجا على قيام مصر بالتوقيع على معاهدة السلام مع إسرائيل في ٢٦ من مارس ٧٩. وأعلن السادات أن مصر توافق على تصفية المؤسسة ولكنه أعلن في الوقت نفسه أن مصر ستستمر وحدها في العمل على تحقيق عمليات التصنيع التي كانت تستهدفها المؤسسة التي تم حلها.

الفصل السابع والعشرون

الدعم العراقي

صدام حسين في القاهرة

قام العراق بإرسال وفد عراقي على مستوى عال إلى القاهرة ما بين ٢٦- ٢٨ من مارس ٧٢ وكان يرأس الوفد السيد صدام حسين الرجل الثاني في العراق وأحد الأعمدة الرئيسية التي يرتكز عليها النظام العراقي، وكان هذا يشير إلى مدى الأهمية التي يعلقها العراق على هذا اللقاء العراقي المصري. كان هذا اللقاء بناء على مبادرة عراقية إذ تلقت السلطات المصرية إخطارا من بغداد يفيد ان وفدا عراقيا على مستوى عال سوف يصل إلى القاهرة يوم كذا لإجراء مباحثات مهمة. قامت مصر بتشكيل وفد مصري من الدكتور محمود فوزي نائب رئيس الجمهورية، وحافظ إسماعيل مستشار الرئيس لشئون الأمن القومي، وممدوح سالم وزير الداخلية، ومراد غالب وزير الخارجية. والفريق سعد الدين الشاذلي ر.ا.ح. ق.م.م وعبد المنعم النجار سفير مصر في العراق. في يوم ٢٣ من مارس اجتمع الوفد المصري برئاسة الدكتور فوزي اجتماعا تمهيديا بقصد دراسة الموضوعات التي يحتمل أن يثيرها الوفد العراقي، ثم طلب رئيس الوفد الكلمة من الأعضاء.

استمعنا إلى تقرير من السفير المصري في العراق، وكان يتلخص فيما يلي:

١- العراق حريص على تحسين علاقته مع مصر وانه لا يريد ان يتم ذلك على حساب العلاقات المصرية السورية. انه يهدف إلى إقامة محور بغداد- القاهرة بحيث يمر المحور خلال دمشق.

٢- سواء أكان حزب البعث السوري وحزب البعث العراقي جسمين براس واحد او جسمين

برأسين، فإنه من الممكن ان يتعايش النظامان مع بعضهما.

٣- أن العراق على استعداد للمشاركة في المعركة بقواته المسلحة بالحجم الذي يراه الأمين العام المساعد العسكري للجامعة العربية.

٤- أن العراق مستعد للمشاركة في عملية التصنيع العسكري العربي.

٥- إن العراق يؤيد قيام الوحدة العربية. وإذا كان ذلك غير ممكن في الظروف الحالية فإنه يؤيد أي إجراء يقرب هذه الوحدة.

ونصح السفير بان تقوم مصر بتشجيع هذه الخطوة ومباركتها حيث أن رجال الحكم في العراق مخلصون في أيمانهم بالقومية العربية.

تكلم الأعضاء الآخرون فأظهروا شكوكهم في تلك المبادرة وتراوح رأيهم بين الحذر والتخوف وبين الرفض الصريح، إلا أن أحد الأعضاء أعلن رفضه بطريقة لا تخلو من الاتهام حين قال: "لا اعتقد أنهم يرغبون في أي نوع من الاتحاد أو الوحدة العربية مهما قالوا ذلك. ولا اعتقد انهم سوف يشاركون بأية قوات عسكرية في المعركة ضد إسرائيل مهما قالوا ذلك. إن المبادرة العراقية ليست سوى مناصرة حزبية". (الطبعة الرابعة: كان المتكلم هو ممدوح سالم).

وعندما جاء دوري في الكلام أوصيت بأن نقوم بتشجيع المبادرة العراقية وأدليت بالنقاط الرئيسية التالية:

١- لا يجب أن نتجاهل القوة العسكرية العراقية وأثرها على المعركة ضد إسرائيل. أن العراق من وجهة نظري تعني ٢٥٠ طائرة قتال، ٤ فرق مشاة وفرقتين مدرعتين. فإذا استطعنا بأية وسيلة كانت أن نشرك تلك القوات أو جزئا منها في المعركة ضد إسرائيل في الجبهة الشرقية فإن ذلك سوف يضيف أبعادا جديدة للمعركة.

٢- أني اعتقد أن العراق سوف يثير مشكلة القيادة بالنسبة لقواته التي تشترك مع سوريا ولكن كمبدأ عام فإن قوات الدعم العراقية يجب أن تخضع للقيادة العامة السورية باعتبارها الدولة المضيفة.

٣- قد يقول العراق بأنه سوف يرسل قواته العسكرية إلى جبهة القتال عند قيام الحرب ولكن يجب أن نوضح له أن عامل الوقت لن يسمح بأن تكون هذه القوات ذات تأثير فعال على المعركة ما لم تتمركز في الجبهة السورية قبل المعركة بوقت كاف.

٤- قد يذكر العراق أن سبب أحجامه عن إرسال جزء من قواته الجوية والبرية إلى الجبهة السورية الآن، هو ضعف الدفاع الجوي في سوريا، ونتيجة لاتصالاتي بالجانب السوري فإننا

نستطيع أن نؤكد له بان سوريا ترحب بأن يقوم العراق ببناء مطارات متقدمة له في سوريا وان يجهزها بالدفاع الجوي المناسب قبل أن يرسل قواته إلى سوريا.

وفي نهاية الجلسة اتفقنا على أن يخضع اتجاه الوفد في مناقشاته مع الجانب العراقي للاعتبارين التاليين:

١- المساعدات التي يمكن للعراق أن يقدمها للمعركة.

٢- إن تمركز القوات العراقية في سوريا يخضع في النهاية لقرار الحكومة السورية. اجتمعنا مع الوفد العراقي وأخذنا ندور في حلقات مفرغة. كان الدكتور محمود فوزي يتكلم باسم الوفد المصري. وكان الدكتور فوزي صاحب مدرسة في الدبلوماسية التي تعتمد على الكلمات المرنة والمعاني الواسعة. كان يتكلم لمدة ساعة أو اكثر دون أن يستطيع مستمعوه أن يفهموا حقيقة ما يعنيه، وبالتالي فانه يترك الباب مفتوحا للمناورة والمراوغة. [١]

كان الوفد المصري حريصا على ألا يخطو أية خطوة في اتجاه العراق حتى لا يؤثر ذلك على العلاقات المصرية السورية. وكان لا يأخذ الضمانات والتأكيدات التي يقدمها الوفد العراقي مأخذ الجدية، وانتهت المباحثات دون الوصول إلى أي حل وعاد الوفد العراقي إلى بلده في ٢٨ من مارس. كانت النتيجة الإيجابية الوحيدة هي إصرار صدام حسين على أن أقوم بزيارة رسمية للعراق وان أصور التشكيلات والوحدات العراقية أسوة بما فعلته في الجزائر والمغرب.

زيارتي للعراق:

عارض الرئيس السادات أن أقوم بزيارة العراق. لقد كان رأيه في الرئيس حسن البكر لا يقل سوءا عن رأيه في الرئيس هواري بومدين والملك الحسن الثاني، ولكنه وافق في النهاية على أن أقوم بهذه الزيارة في ٢٦ من مايو إلى ٢ من يوليو ٧٢. كان قيامي بهذه الزيارة الرسمية للعراق يعني الكثير بالنسبة لمصر وبالنسبة للعراق، فقد كانت أول زيارة رسمية تقوم بها شخصية مصرية كبيرة إلى بغداد منذ سنوات عديدة لذلك فإنه كان ينظر إلى هذه الزيارة على إنها بداية لإعادة فتح الجسور بين القاهرة وبغداد. في بغداد كانت البصمات الثقافية المصرية واضحة في جميع المجالات. كان هناك عدة آلاف من المدرسين والأساتذة المصريين وكان ارتباط الشعب العراقي بأخبار مصر وفنونها يشكل ظاهرة ملفتة للنظر. كان برنامج زيارتي حافلا فقد زرت الكثير من الوحدات العراقية البرية والجوية في أقصى المناطق الجبلية في الشمال، حيث تنخفض درجة الحرارة في هذا الوقت من السنة إلى حوالي الصفر. كما زرت الوحدات التي تتمركز في أقصى الجنوب، حيث ترتفع درجة الحرارة في الظل إلى حوالي ٤٥ درجة مئوية. زرت

مناطق الأكراد ومناطق الحدود العراقية الإيرانية وقمت برحلة بحرية داخل شط العرب المتنازع عليه بين العراق وإيران. (٢)

قابلت الرئيس حسن البكر وعددا من الزعامات العراقية. وكانت آراء الجانب العراقي تتلخص في النقاط التالية:

١- إن العراق تواجه مشكلتين رئيسيتين، الأولى هي التنازع مع جارته إيران حول الحدود ولاسيما ما يتعلق منها بشط العرب، والمشكلة الثانية هي ثورة الأكراد في الشمال، وإن هذا التهديد الذي يأتي من اتجاهين مختلفين يرغم العراق على الاحتفاظ بقواتها قريبة من هذه المناطق.

٢- إن العراق تمثل الجناح الأيمن للأمة العربية وهي لذلك يجب أن تكون قوية في تلك المنطقة حتى تستطيع أن تحمي المصالح العربية من أي هجوم إمبريالي.

٣- عندما تبدأ المعركة ستقوم العراق بإرسال جزء من قواتها المسلحة إلى الجبهة الشرقية بحيث لا يؤثر على موقفها في الجبهة الإيرانية والجبهة الكردية.

٤- إنهم سيقومون بإصلاح وتجديد الطائرات هوكرهنتر، ولكنهم يفضلون إرسالها بعد تمام تجهيزها إلى الجبهة المصرية بدلا من الجبهة السورية أو الجبهة الأردنية.

ذوبان الثلوج بين بغداد والقاهرة:

كانت رحلتي إلى العراق محدودة النجاح. كانت هناك وعود عراقية بدعم الجبهة الشرقية (جبهة سوريا) ولكن هذا الدعم كان مشروطا بالموقف على الجبهة الإيرانية وموقف الأكراد في الشمال كما انه كان مشروطا بقيام حرب فعلية، وبالتالي فإن الجبهة الشرقية لا تستطيع أن تدخل في حساباتها القوات العراقية أو جزءاً منها كعنصر أساسي عند التخطيط للمعركة. كان هذا على صعيد العلاقات العربية، أما على صعيد العلاقات المصرية-العراقية فقد فتحت الزيارة الأبواب بين بغداد والقاهرة مؤذنة ببدء مرحلة جديدة من التعاون بين البلدين.

بعد عودتي إلى القاهرة بأربعة أيام فقط وصل اللواء عدنان عبد الجليل مساعد وزير الدفاع العراقي إلى القاهرة وأخبرني بان صدام حسين سوف يقوم بزيارة فرنسا في المدة ما بين ١٤-١٦ يوليو ٧٢ وأن السلطات العراقية تود أن تعرف الأصناف التي ترغب مصر في أن تشتريها من الغرب بصفة عامة ومن فرنسا بصفة خاصة، حتى يمكنها أن تتعاقد عليها وذلك كنوع من الدعم المادي لمصر. لقد بدأت العلاقات المصرية العراقية تأخذ مظهرا من مظاهر التعاون. وهذا التعاون -وان كان محدودا- فإنه كان خطوة كبيرة نحو تفاهم افضل. لقد فتحنا مدارسنا العسكرية لاستقبال بعض الطلبة العراقيين. كما أرسلنا عددا من الخبراء العسكريين المصريين إلى العراق.

وقامت الحكومـــة العراقيـــة من جانبها بوضع ٧ ملايين جنيه إسترليني باسم وزارة الحربيـــــة المصرية في أحد مصارف لندن حتى يمكن الإنفاق منها على شراء بعض الأصـــناف التكميليـــة الغربية التي قد نحتاج إليها.

وفي ١٢ من فبراير ٧٣ وصل الفريق عبد الجبار سنشل –رئيس أركـــان حـــــرب القـــوات المسلحة العراقية– في زيارة رسمية لمصر تســـتغرق أسبوعا، قام خلالها الفريق سنشل بزيـــارة الكثير من الوحدات والمنشآت العسكرية واطلع على كل ما يريد الإطلاع عليه، وبهذه الزيارة التي تمت بعد ٩ اشهر من زيارتي لبغداد كانت العلاقات المصرية العراقية قد وصلت إلى ما لم تصل إليه من قبل، وبعد حوالي شهر من زيارة الفريق سنشل بدا السرب العراقي من طراز هوكر هنتر يصل إلى مصر، حيث بقي بها إلى أن قامت حرب أكتوبر ٧٣ واشترك فيها. (٣)

ويجدر لي بهذه المناسبة أن أشيد بالسرب العراقي وبالطيارين العراقيين، فقد كان أداؤهم فـــي ميدان المعركة رائعا مما جعلهم يحوزون ثقة وحداتنا البرية، ففي اكثر من مناسبة كانت تشكيلاتنا البرية عندما تطلب معاونة جوية ترفق طلبها بالقول " نريد السرب العراقي"، أو "نريـــد ســـرب الهوكر هنتر" إن هذا في حد ذاته يعتبر خير شهادة لكفاءة الســـرب العراقي وحسن أدائه خـــلال حرب أكتوبر.

لم يقتصر الدعم العراقي على الجبهة المصرية ولكنه اسهم إسهاما فعالا في الجبهة الســـورية، فبمجرد اندلاع حرب أكتوبر ٧٣ قام العراق بإجراء سريع يهدف إلى تأمين جبهتـــه مـــع إيـــران ويسمح له بإرسال جزء من قواته إلى الجبهة السورية، وقد أشـــرك العراق في القتال ٤ أســـراب جوية، وفرقة مدرعة، وفرقة مشاة، فكانت قواته في الترتيب الثـــالث بعد مصر وســـوريا مـــن ناحـــية الكم والكيف. لقد اشترك أول سربين جويين في القتال يوم ٨ من أكتوبر، كما أن العناصر المتقدمة من القوات البرية قد بدأت تصل إلى الجبـــهة يوم ١١ من أكتوبر. ولو أن تلك القـــوات العراقية كانت متمركزة في سوريا قبل بدء القتال لتغيرت نتائج القتال على الجبهة الشرقية، وهذا درس يجب أن نستفيد منه في المستقبل.

هوامش الفصل السابع والعشرون

(١) أثناء حديث للدكتور فوزي خـــلال هذه الاجتماعات وجدت نفسي غير متفهم لمـــا يقولـــه، فهمست في أذن جاري وقلت له "أنا مش فاهم الدكتور فوزي عاوز يقول إيه، فرد صـــاحبي "ولا أنا ولكن هذا هو بالضبط ما يريده الدكتور فوزي. إنه لا يريد لأحد أن يفهم ما يريد أن يقوله".
(٢) في مدينة الجزائر، في ٥ مارس من ١٩٧٥ تم الاتفاق بين العراق وإيـــران علـــى تســـوية المشكلات المعلقة بين البلدين ولاسيما فيما يتعلق بمشكلة الملاحة والحدود داخـــل شـــط العـــرب والتزام إيران بوقف مساعداتها للأكراد الذين يحاربون السلطة الشرعية في العراق.
(٣) لم يستطع العراق إصلاح جميع طائرات هوكر هنتر التي عنده، وقد كان كل ما اســـتطاع إصلاحه هو ما يمكنه من تشكيل سرب واحد.

الفصل الثامن والعشرون

الدعم العسكري من دول عربية أخرى

الدعم الليبي:

منذ ان وصل القذافي إلى الحكم في الفاتح من سبتمبر ٦٩ وهو يقوم بمجهود كبير لبناء قـــوات

مسلحة ليبية حديثة. ولكن مشكلتهم في ليبيا أن طموحهم يفوق قدراتهم. انهم يملكون المال ولكنهم يفتقدون الكثير بعد ذلك. إذ أن النقص في عدد الأفراد بالنسبة لاتساع الإقليم، والنقص في الخبرة الفنية والمستوى الثقافي بين الأفراد يشكلان تحديا كبيرا لطموح القذافي ورفاقه. وعلى الرغم من هذه التحديات كلها الا ان ليبيا بذلت مجهودا ضخما لبناء قواتها المسلحة في السنوات الأربع التي سبقت حرب اكتوبر ٧٣، وقد اعتمدت في ذلك على معونة مصر الفنية اعتمادا كبيرا. قامت ليبيا بإرسال عدة آلاف من طلبتها الى مراكز التدريب والمدارس العسكرية في مصر، كما استقدمت مئات من الضباط وضباط الصف المصريين لتدريب الضباط والجنود الليبيين في ليبيا.

وعندما اشترت ليبيا صفقة طائرات الميراج عام ١٩٧٠ من فرنسا اعتمدت اساسا على الطيارين المصريين الذين كانوا يحملون جوازات سفر ليبية. وفي خلال عامي ٧١ و ٧٢ ازداد التعاون بين مصر وليبيا الى الحد الذى بدا وكأنه وحدة قائمة غير معلنة. وقد حاول القذافي أن يجعل من هذه الوحدة القائمة على الممارسة الفعلية وحدة رسمية بوثيقة رسمية ولكنه لم يجد تشجيعا من السادات، فحاول ان يفرض الوحدة على مصر، ونظم مسيرة شعبية ما بين طرابلس والقاهرة خلال شهر يوليو ٧٣، وقد انضم الى هذه المسيرة عدة آلاف من راكبي السيارات وحطموا بوابة الحدود التي تفصل بين البلدين باعتبارها آثرا من آثار الاستعمار الذي خلق هذه الحدود الوهمية بين الدول العربية. كانت ليبيا قيادة وشعبا تصرخ مطالبة بالوحدة، ومع ذلك فقد رفض السادات قبول تلك الوحدة فكان ذلك خطأ تاريخياً جسيماً.

وعند قيام حرب اكتوبر ٧٣ كانت القوات الليبية المتمركزة في مصر عبارة عن سربي ميراج (أحدهما يقوده طيارون ليبيون، والآخر يقوده طيارون مصريون) ولواء مدرع. إن حجم هذه القوات يجعل ليبيا في المركز الثالث بين الدول العربية التي ليست من دول المواجهة، من حيث الدعم العسكري الذي قدمته للمعركة، وهى تأتي بعد العراق والجزائر.

الدعم السعودي:

لم تكن لي أية علاقات مباشرة مع المملكة العربية السعودية سواء على المستوى الثنائي بصفتي ر.ا.ح.ق.م.م. أم على المستوى العربي بصفتي الأمين العام المساعد العسكري للجامعة العربية. لقد كانت الاتصالات مع السعودية تتم على مستويات خاصة:الرئيس السادات، سكرتيره الخاص الدكتور اشرف مروان، وزير الحربية الفريق صادق ومن بعده الفريق أحمد إسماعيل. أما أنا فلم يحدث قط أن زرت السعودية أو تفاوضت مع أحد المسئولين فيها طوال الفترة التي شغلت فيها منصب ر.ا.ح.ق.م.م لذلك فإني سأذكر هنا ما اعرفه على وجه اليقين، وإني لا استبعد

مطلقا أن تكون السعودية قد قدمت بعض المعونات المالية إلى مصر دون أن يكون لدي أي علـــم بها.

كنت قد اقترحت في اجتماع مجلس الدفاع المشترك- كما سبق أن ذكرت في الفصل الخـــامس والعشرين (الباب الســـادس) - أن تسهم السعودية بسربي ليتتنج لتدعم الجبـــهة الأردنية، وأقـــر المجلس ذلك في دورتيه الثانية عشرة والثالثة عشرة وقد كنت أنـــوي زيـــارة المملكـــة العربيـــة السعودية بعد عودتي من زيارة الجزائر والمغرب، ولكن السلطات المصرية أبلغتني أن اسقط من حسابي زيارة السعودية، حيث إنه سيتم تنظيم الدعم العسكري المطلوب منهـــا علـــى مســـــتوى الاتفاق الثنائي بينها وبين مصر وكـــان الاتصال وقتذاك يتم بواسطة الوزير صادق بالتنسيق مع الرئيس السادات مباشرة.[١]

أخبرني الفريق صادق بان السلطات الســـعودية لا توافق على إرسال الطائرات ليتتنج بطيارين سعوديين ولكنها على استعداد لإرسالها إلى الجبهة المصرية على أن يقوم طيـــارون مصـــريون بقيـــادتها ولذلك فإنه يجب علينا أن نرسل عددا من الطيارين المصـــريين إلى السعودية، حيـــث يجري تدريبهم هناك على قيادة هذه الطائرات، ثم يعودون بها إلى مصر. كان ذلك نقيض فكرتي تماما. لم نكن نشكو قط من النقص في عدد الطائرات. لقد كان عدد الطائرات عندنا يزيـــد علـــى عدد الطيارين. لقد كان الطيار المدرب هو المشكلة الحقيقية. لقد كان هناك ما يقـــرب مـــن ١٠٠ طيار سوفيتي يقودون ٧٥ طائرة ميج ٢١، فكيف يمكن أن ندير ١٠-١٥ طيارا لإرســـالهم إلـــى السعودية؟

لم ترق لي هذه الفكرة و أظهرت اعتراضي عليها، ولكن كـــما هي العادة دائمـــا فـــان القـــرار السياسي يفرض نفسه في النهاية. في ٢ من مايو ٧٢ أرسلنا الدفعة الأولى إلى السعودية وكانـــت تتكون من ٧ طيارين و٣٣ ميكانيكيا وبعد وصول هذه المجموعة إلى السعودية بدأت تظهر الكثير من المشكلات: درجة الصلاحية في الطائرات لا تسمح بتدريب الطيارين الذين أرسلوا للتـــدريب عليها، عدم توافر المدربين الذين يقومون بتدريب الطيـــارين، المشـــكلات الإداريـــة الخاصـــــة بالتدريب... الخ. وبعد حوالي عام من المحاولات لم نصل إلـــى شئ. عاد الطيارين والميكانيكيون دون الطائرات ليتتنج ولم تشترك تلك الطائرات في معركة أكتوبر ٧٣ لا بطيارين مصريين ولا بطيارين سعوديين.

في تمام الســـاعة ١٨٣٠ يوم ٩ من يوليو ٧٣ اتصل بي الدكتور أشرف مروان وأخذ يكلمني في أمور غريبة بالنسبة لي، وليس لدي أي علم بها، فلما أخبرته بأنني لا اعلم شـــيئا عـــن هـــذه

الموضوعات قال لي: إن حسني مبارك يعلم بذلك. وكان مما قاله الدكتور اشرف مروان ما يلي:

١- بخصوص عقد الطائرات Sea King

مطلوب الانتهاء من العقد غدا حتى يمكن تسليمه إلى العقيد عبد الرؤوف الذي سيسافر به إلى السعودية يوم الخميس ١٢ من يوليو، أما بخصوص الصواريخ والأصناف التكميلية التي لم يكن قد تم الاتفاق النهائي عليها مع الجانب البريطاني فيجري إدراجها ضمن عقد آخر لاحق. (٢)

٢- موضوع ٣٢ طائرة ميراج:

إن كمية الذخيرة المطلوبة لعقد طائرات الميراج كبيرة جدا وتصل قيمتها إلى ٣٥ مليون دولار، ومطلوب تخفيض هذه الكمية.

٣ -طائرة هيلوكوبتر هدية للرئيس:

إن الملك فيصل قرر إهداء الرئيس السادات طائرة هيلوكوبتر ومطلوب إرسال طيارين مصريين إلى السعودية لاستلامها.

٤- لدى السعودية ١٠٠٠ طلقة عيار ١٥٥ مم، ومطلوب تحديد الوقت اللازم لاستلامها.

٥- مطلوب تحرير كشف بقطع الغيار المطلوبة للمدافع ١٥٥ مم، لتسليمه إلى العقيد عبد الرؤوف قبل سفره إلى السعودية يوم الخميس القادم.

٦- الطائرات سى ١٣٠ السعودية مطلوب سفرها إلى السعودية كل ١٥ يوم لإجراء الصيانة ولأغراض سياسية. ويمكن الاستفادة من هذه الطلعات في نقل الأصناف المرسلة من مصر إلى السعودية وبالعكس. (٣)

٧- اعتبارا من اليوم فإن الاتصال بين السعودية ومصر يتم على مستوى الملك فيصل والرئيس السادات، ويجب ألا يتم على اتصال بين وزير الحربية المصري ووزير الحربية السعودي بخصوص هذه الموضوعات (كان وزير الحربية في زيارة رسمية إلى الصومال وأثيوبيا من ٧-١٦ من يوليو ٧٣).

قمت بالبت في البنود أرقام ٤ و٥ و ٦ المدرجة أعلاه أما البنود ١ و ٢ و ٣ فقد أحلتها إلى حسني مبارك الذي أفادني بأنه لم يطلب ذخيرة في عقد الميراج، كما أفادني بأنه بمعاينة طائرة الهليوكوبتر التي يريد الملك فيصل أن يهديها إلى الرئيس السادات اتضح إنها من نوع أوجستابل ١٣ (Augusta Bell) ذات محرك واحد وزلاجات وهي متواضعة جدا وأوصى بأن يعتذر الرئيس عن عدم قبولها.

الدعم السوداني:

إن مشاركة السودان في تقديم الدعم العسكري للجبهة المصرية كانت تتوقف أولا وأخيرا على العلاقات الثنائية التي تربط مصر بالسودان والتي كانت في الأعوام ٧١-٧٣ متغيرة، فتارة حسنة وتارة سيئة، دون أية أسباب واضحة.

كانت العلاقة بين مصر والسودان على احسن ما يرام بعد ثورة مايو ٦٩ في السودان ووصول النميرى إلى الحكم. وإظهارا لروح التعاون بين البلدين قام السودان بإرسال لواء مشاة للتمركز في جبهة قناة السويس. وعندما وقع انقلاب مضاد في السودان في ١٩ من يوليو ٧١ وقفت مصر بجانب نظام النميرى ورفعنا درجة استعداد لواء المظلات ولكن استبعد التدخل العسكري بعد أن ترامى إلينا أن الثوار قد سيطروا على الموقف سيطرة تامة. طلب القادة الجدد سحب لواء المشاة السوداني وبدأنا في ترحيله وكانت آخر كتائبه تغادر القاهرة يوم ٢٤ يوليو، وقبل أن تغادر الكتيبة الأخيرة القاهرة انهار الانقلاب فجأة بعد أن نجحت ليبيا في القبض على عدد من زعمائه أثناء سفرهم في طائرة مدنية من لندن إلى الخرطوم عبر طرابلس. بعد عودة النميري إلى السلطة بمعاونة أشخاص جدد- ليسوا من جماعة خالد عباس [٤]- قام بتحديد سلطات خالد عباس وأخذت سلطاته كوزير للدفاع تتلاشى شيئا فشيئا حتى اصبح منصبا دون أية سلطة ثم أبعد نهائيا من تلك الوظيفة. سبّب إبعاد اللواء خالد عباس من السلطة فتورا في العلاقات بين السادات و النميري. واستمر ذلك إلى أن نشطت الثورة في جنوب السودان و أصبحت الحكومة المركزية في الخرطوم عاجزة عن السيطرة على الموقف فطلبت بعض المعونات الفنية من مصر في نوفمبر ٧١.

استجاب السادات لطلب النميري وصدرت التعليمات يوم ١٣ نوفمبر بإرسال كميات من قنابل الطائرات وكذلك ٤٠٠ صاروخ جو-ارض تستخدم بواسطة طائرات الهليوكوبتر، وقد بلغت في مجموعها حوالي ١٠٠ طن، واعتبارا من يوم ١٥ نوفمبر قامت طائراتنا من طراز انتنوف ١٢ بنقل هذه الأصناف ومعها بعض الفنيين إلى جوبا في جنوب السودان. كانت مساعدتنا للسودان في قمع الثورة في الجنوب ذات اثر مباشر في تحسين العلاقات بين البلدين، وهكذا بدأ لواء المشاة السوداني يعود إلى الجبهة المصرية خلال ربيع عام ٧٢. ولكن لم تكد تمضي ستة اشهر حتى بدأت العلاقات بين السادات والنميري تتدهور مرة أخرى، وفي يوم ٢٧ من سبتمبر حضر إلى مكتبي العميد سعد بحر قائد لواء المشاة السوداني ومعه المستشار القانوني للسفارة السودانية في مصر، وأبلغني أنه قد تلقى أمرا بالاستعداد للعودة إلى السودان ولكنه لا يعرف

متى. وفي يوم ٥ من أكتوبر تأكدت لديه الأوامر وبدأ اللواء السوداني ينسحب من الجبهة على ثلاث دفعات أيام ٥ و ١٢ و ١٩ من أكتوبر ٧٢. قمت بإخطار السيد الرئيس و بدأنا في تقديم المساعدات اللازمة لترحيل الإخوان السودانيين للمرة الثانية [٥]. وبينما كنا نقوم بترحيل اللواء السوداني إلى الخرطوم وصلتنا معلومات بان منشآتنا التعليمية التي كانت متمركزة في السودان بدأت تعاني بعض المضايقات من السلطات السودانية، فاتخذت القاهرة قرارا بتاريخ ١٤ من أكتوبر بسحب جميع أفرادها العسكريين من السودان، وبدأت عملية الإخلاء جوا وبرا وبحرا اعتبارا من ١٧ من أكتوبر ولمدة أسبوعين، وتدهورت العلاقات مرة أخرى بين السادات والنميري.

وفي أثناء اجتماع الهيئة الاستشارية ومجلس الدفاع المشترك في دورته الثالثة عشرة وعد السودان أن يدعم الجبهة المصرية بلواء مشاة عند قيام الحرب. وهكذا بعد اندلاع حرب أكتوبر ٧٣ بدا لواء المشاة السوداني يعود إلى الجبهة المصرية للمرة الثالثة. ولكنه لم يستطع أن يصل إليها إلا بعد وقف إطلاق النار.

الدعم الجزائري:

كانت العلاقات بين مصر والجزائر قد تدهورت بعد هزيمة يوليو ١٩٦٧، وقامت الجزائر على اثر ذلك بسحب لواء المشاة الجزائري الذي كان قد أرسل إلى مصر عند قيام الحرب. وقد ساعدت زيارتي الأولى للجزائر التي قمت بها في فبراير ٧٢ على إعادة فتح الجسور بين البلدين، وفي أثناء زيارتي تلك أخبرني المسئولون الجزائريون بأنهم عندما سحبوا لواء المشاة الجزائري فإنهم سحبوا الأفراد ومعهم أسلحتهم الخفيفة فقط، أما باقي الأسلحة الثقيلة التابعة للواء فقد تركت في مصر وانهم لا يرغبون في استعادة هذه الأسلحة"إنما يطلبون إخطارا بتسلمها حتى يمكنهم تسوية ذلك في قيودهم، فوعدتهم بتنفيذ ذلك بمجرد عودتي إلى القاهرة حيث لم يكن لدي علم مسبق بهذا الموضوع. وفعلا فور عودتي للقاهرة أصدرت تعليماتي إلى مدير إدارة الأسلحة بإرسال وثيقة إلى الجزائر تثبت تسلمنا تلك الأسلحة. وقد قابل الجزائريون هذا التصرف بالشكر والتقدير. وفي ديسمبر من العام نفسه أرسلوا إلينا ٢٤ قطعة مدفعية ميدان فقبلناها شاكرين.

في يوم ١٦ من سبتمبر ٧٣ سافرت تحت اسم مستعار إلى الجزائر، وقابلت الرئيس هواري بومدين صباح ١٧ من سبتمبر .أخطرت الرئيس بقرارنا بدخول الحرب سألني عن توقيتها فأجبت بأنه لم يتحدد بعد ولكن من المؤكد انه سيكون قبل مرور الأشهر الثلاثة المتفق عليها. سألني عن كفاءة القوات المسلحة فأجبت بأنها لم تكن في يوم ما أفضل مما هي عليه الآن. سألني عن

مستوى كفاءة القوات السورية فقلت له أنني اعتقد إنها تقريبا في مستوى القوات المصرية، فعلـــق قائلا: "إذا كان الموقف هكذا فبماذا تفسر الأسباب التي جعلت القوات الإسرائيلية تسقط ١٢ طائرة سورية في المعركة الجوية التي وقعت منذ أربعة أيام ؟" فأجبت "إن القوات الجوية الإسرائيليـــــة متفوقة على القوات الجوية العربيـــة سواء في ذلك السوريـــة أو المصرية، ويجب علينا أن نعمل تحت هذه الظروف. ومع ذلك فأني أوافق سيـــادتكم على انه ما كـــان يجب علينـــا أن نسمـــــح للعدو بان يحـــقق تلك المكاسب في معركة جوية واحدة وفي اعتقادي أن إخواننا السوريين لابــد انهم ارتكبوا بعض الأخطاء ولابد أنهم وقعوا في كمين جوي نصبه لهم العدو بمهارة وعموما فهذا مثل للأخطاء التي يمكن أن ترتكب أثناء القتـــال، وعلينا أن نتقبلها ونتعلم منها". لقد تحدثنا طويلا ولمدة ساعة ونصف الساعة حول المعركة. وإني اذكر جيدا ما قاله" إن قرار الحرب هـــو قـــرار صعب، ولكن اصعب منه أن نبقى- نحن العرب- في الوضع المهين الذي نحن فيه الآن". وقبـــل أن أغادره وعدني بأنه سيتصل بالرئيس السادات بخصوص هذا الموضوع.

بمجرد اندلاع الحرب قامت الجزائر بإرسال الدعم التالي إلى الجبهة المصرية:

سرب ميج ٢١	
سرب سوخوى ٧	} وصلت أيام ٩ و ١٠ و ١١ من أكتوبر ٧٣
سرب ميج ١٧	
لواء مدرع	**وصل يوم ١٧ أكتوبر ٧٣**

وتعتبر الجزائر في المركز الثاني بين الدول العربية التي ليست من دول المواجهة من حيث الدعم العسكري الذي قدمته للمعركة ويأتي ترتيبها بعد العراق.

وعلاوة على الدعم العسكري الذي قدمته الجزائر، فقد سافر الرئيس هـــوارى بومـــدين إلـــى موسكو في نوفمبر ٧٣ حيث دفع للاتحاد السوفيتي ٢٠٠ مليون دولار ثمنا لأية أسلحة أو ذخـــائر تحتاج إليها كل من مصر وسوريا وذلك بمعدل ١٠٠ مليون دولار لكل منهما.

الدعم المغربي:

غادرت الجزائر إلى المغرب بعد ظهر يوم ١٧ من سبتمبر ووصلت الدار البيضاء ليلا حيث كان السفير المصري في انتظاري. انطلقنا من الدار البيضـــاء إلى الرباط حيث كان في انتظارنا الكولونيل الدليمى وتناولنا معه العشاء في منزله [٦]، وفي أثناء تناول العشاء أخبرت الكولونيـــل الدليمى بأني قادم لمقابلة الملك في مهمة سرية وعاجلة ورجوت أن تتم الزيارة بعيدا عن وســـائل

الإعلام والمظاهر البروتوكولية.

في الساعة السادسة من بعد ظهر يوم ١٨ من سبتمبر كنت ادلف أنا والكولونيل الدليمى إلى مكتب الملك وبعد أن دعاني الملك للجلوس انسحب الكولونيل الدليمى واغلق الملك الباب من خلفه بالمزلاج ثم عاد إلى مكتبه. كنت اعلم قبل سفري إلى المغرب انه قد حدث الكثير من المتغيرات في الفترة الأخيرة مما سوف يؤثر دون شك على اتفاقنا السابق. كنت اعلم أن معظم طياري السرب اف ٥ الذي كان مقررا أن يدعم الجبهة المصرية قد اشترك في الانقلاب الفاشل ضد الملك، وان طياري السرب أما مقبوض عليهم أو هم ممنوعون من الطيران. كنت اعلم أن لواء الدبابات الوحيد لدى المغرب قد أرسل منذ عدة أسابيع إلى الجبهة السورية.

أخبرت الملك بقرار الحرب دون ذكر التاريخ وسألته إذا كان يستطيع أن يخصص وحدات إضافية لتدعيم الجبهة المصرية. وهنا أجاب "يا أخ شاذلي- إن ما سمعته منك الآن من أخبار هو افضل ما سمعت طوال حياتي. أنا سعيد بان اسمع إننا- نحن العرب- سوف نتحدى عدونا وسوف نتخلص من الموقف المهين الذي نحن فيه. إننا سوف نشارك في المعركة بقوات اكثر من القوات التي وعدتك بها في لقائنا السابق. أنت تعلم إننا أرسلنا لواء الدبابات إلى سوريا ولكننا على استعداد لإرسال لواء مشاة أخر إلى الجبهة المصرية".

قضيت يوم ١٩ من سبتمبر في بحث تنظيم وتجهيز لواء المشاة الذي سوف يرحل إلى الجبهة المصرية وخطة نقله بحرا إلى الإسكندرية. عندما قابلت الملك في اليوم التالي اقترحت أن يتم تجهيز اللواء خلال ٧-١٠ أيام وان يغادر المغرب في أول أكتوبر، ولكن الملك عقب قائلا "إننا سوف نحتاج إلى وقت أطول لإعادة تنظيمه وتجهيزه، ثم إننا نحب أن نمنح الضباط والجنود إجازات ليزوروا فيها أهلهم قبل السفر، وسوف يدخل علينا رمضان بعد أيام، لذلك فإنني افضل أن يقضى اللواء هذا شهر رمضان وعيد الفطر ويكون جاهزا للترحيل في النصف الثاني من نوفمبر". لم أحاول الإصرار على ميعاد اقرب من ذلك حتى لا أكشف يوم بدء القتال.

عندما علم الملك بأنباء الحرب من وكالات الأنباء قرر إرسال لواء المشاة فورا ودون أي انتظار، وقد استخدم في ذلك جميع وسائل النقل الجوي المتيسرة في المغرب جميعها بما في ذلك شركة الخطوط الجوية المغربية، وعندما حضر الكولونيل الدليمى إلى مصر لزيارة الوحدات المغربية زارني في المركز ١٠ يوم ٢٧ من أكتوبر وقال لي "إن جلالة الملك يهنئك على الأداء الرائع الذي قمتم به ويتمنى لكم التوفيق، وقد طلب مني أن أقول لك لو انك قلت له أن الحرب قريبة إلى هذا الحد لأرسل اللواء معك". فشكرته وقلت له "أرجو أن يقدر جلالة الملك دقة موقفي

بخصوص هذا الموضوع".

إن الدعم الذي قدمه المغرب للجبهتين السورية والمصرية يجعله يحتل المركز الخامس بين الدول العربية التي ليست من دول المواجهة ويأتي بعد العراق والجزائر و ليبيا والأردن.

السلاح العربي ضد السلاح العربي:

في أواخر سبتمبر ٧٢ اندلعت الحرب الأهلية بين اليمن الشمالي واليمن الجنوبي، وفي ٣٠ من سبتمبر اتصل بي الدكتور اشرف مروان وأبلغني بأن الرئيس أمر بأن ندعم اليمن الشمالي بخمس طائرات ميج ١٧ وطائرتي اليوشن ٢٨، ولكن دون طيارين على أن نقوم بتسليم الطائرات في مطار عبد الناصر في ليبيا اليوم.

اتصلت بالرئيس السادات لتأكيد معلومات تسليم الطائرات قبل تسليمها في ليبيا فأشار الرئيس إلى ما يلي:

(أ) يتم ترحيل طائرات الإليوشن ٢٨ بواسطة طيارينا يوم ٤ من أكتوبر عن طريق جدة لا يجوز لطيارينا الاشتراك في العمليات فواجبهم هو توصيل الطائرات فقط ولكن لا مانع من قيامهم ببعض الطلعات التدريبية لتدريب الطيارين اليمنيين.

(ب) طائرات الميج ١٧ يتم تسليمها إلى ليبيا، وستتولى ليبيا مع اليمن إرسالها إلى هناك. في يوم ٣ من أكتوبر أمر الرئيس بزيادة طائرات الاليوشن إلى أربع بدلا من اثنتين، وفي حديث آخر مع الرئيس في اليوم نفسه أبلغته بأنه تم تسليم ٥ طائرات ميج ١٧ إلى ليبيا يوم ٢ من أكتوبر وان طائرات الإليوشن ٢٨ الأربع ستصل ميناء الحديدة يوم ٥ من أكتوبر عن طريق جدة.

وفي يوم ١٥ من أكتوبر ٧٢ اتخذ الرئيس قرارا سياسيا آخر بتدعيم اليمن الشمالي ب ٢٢ دبابة ت ٣٤ على أن تسلم أيضا عن طريق جدة وقد تحركت الدبابات بالقطار يوم ١٨ من أكتوبر إلى قنا ومنها إلى سفاجة حيث تم تحميلها يوم ٣ من نوفمبر و أقلعت بها الباخرة يوم ٤ من نوفمبر من سفاجة في طريقها إلى جدة، وبعد وصول الدبابات إلى جدة طلب إبقاء السائقين مع الدبابات فصدق الرئيس على ذلك. وأني أحكي هذه القصة لا لشيء إلا لأبين لهؤلاء الذين عندما يقارنون بين قوة العرب وإسرائيل يحسبون الأسلحة العربية جميعها مقابل الأسلحة الإسرائيلية، وهذا خطأ جسيم، لأن جزءا كبيرا من السلاح العربي يأكل بعضه بعضا.

هوامش الفصل الثامن والعشرون

(١) يرجى الرجوع إلى الفصل السادس عشر القسم الخاص بلقاء السادات مع الجنرال اوكينيف يوم ١٨ من مارس ١٩٧٢.

(٢) يلاحظ أن طائرة الهليوكوبتر إذا لم تسلح بالصواريخ جو-سطح فإنها لا تعدو أن تكون وسيلة نقل مريحة.

(٣)كانت ليبيا قد خصصت طائرتي سي ١٣٠ للتمركز في مصر منذ أوائل عــام ٧٣، ونتيجــة للخلافات السياسية بين القذافي والسادات قامت ليبيا بسحب هاتين الطائرتين في أواخر يوليو ٧٣ ، فقامت السعودية بإرسال طائرتي سي ١٣٠ ســعوديتين لــتحلا محــل الطــائرتين الليبيتــين (هذه الطائرة هي ما كان يقصدها اشرف مروان في حديثه).

(٤)خالد عباس كان عنصرا رئيسا في انقلاب مايو ٦٩ وعلى أثره رقيّ إلى رتبة لــواء وتــولى وزارة الدفاع في السودان، وكان ينافس النميري على السلطة داخل القوات المسلحة وخارجهــا. وعند وقوع الانقلاب المضاد في يوليو ٧١ كان خالد عباس خارج القطر ولم يعد إلــى الســودان إلا بعد فشل الانقلاب وعودة النميري مرة ثانية إلى السلطة.

(٥)هناك خفايا في السياسة المصرية من الصعب معرفتها حتــى علــى مســتوى العديــد مــن الشخصيات المسئولة. فأنا على سبيل المثال لا اعرف الخــلافات السياســية التــي كانــت بــين السادات و النميري والتي أدت إلى سحب اللواء السوداني وطرد وحداتنا المصرية التــي كانــت متمركزة في السودان.

(٦)بعد أن فشمل الانقلاب الذي دبره الجنرال اوفقير ضد الملك عام ٧٢ ترك منصبا وزير الدفاع ورئيس أركان حرب القوات المسلحة المغربية شاغرين. وصار الملك يشرف بنفسه على شــئون الجيش والقوات المسلحة المغربية وكــان الكولونيــل الــدليمى يقــوم بعمــل مــدير مكتــب أو chef de cabinet للملك فيما يتعلق بالشئون العسكرية.

الفصل التاسع والعشرون

تقييم الدعم العسكري العربي

وإذا نحن حسبنا إجمالي الدعم العسكري الذي قدمتــه الــدول العربيــــة إلــى دول المواجهــة سواء قبل بدء حرب أكتوبر ٧٣ أم بعدها يتضح لنا ان إجمالي هذه القــوات كــان كمــا يلــي:

الجبهة المصرية:

سرب ميج ٢١	جزائري
سرب سوخوي	جزائري
سرب ميج ١٧	جزائري
سربي ميراج	ليبيــين واحد يقوده طيارون ليبيون وآخر يقوده مصريون

سرب هوكر هنتر	عراقي
لواء مدرع	جزائري
لواء مدرع	ليبي
لواء مشاة	مغربي
لواء مشاة	سوداني
كتيبة مشاة	كويتية
كتيبة مشاة	تونسية

الجبهة السورية:

ثلاثة أسراب ميج ٢١	عراقية
سرب ميج ١٧	عراقي
فرقة مدرعة	عراقية
فرقة مشاة	عراقية
لواءين مدرعين	أردنيين
لواء مدرع	مغربي

الجبهة الأردنية:

لواء مشاة	سعودي

وإذا نحن قارنا بين وحـدات الدعم العسكري هذه وبين مقررات مجلس الـدفاع المشـترك العربي في دورتيه الثانية عشرة والثالثـة عشرة نجد أن هناك وحدات دعم لم ترسـل إلـى الجبهات طبقا لتلك القرارات وبيانها كما يلي:

- سرب ليتننج سعودي.
- سرب ليتننج كويتي.
- سرب ميج ١٧ جزائري. (١)
- سرب F-5 مغربي. (٢)

وبصرف النظر عن الأسباب التي منعت تلك الدول من إرسال وحـدات الـدعم هـذا سـواء أكانت ضعف مستوى التدريب أم عدم صلاحية الطائرات أم عدم توافر الطيارين، فإن ذلك لا يقلل مطلقا من مظهر التعاون العربي الذي ظهر في أجمل صورة له خلال حرب أكتوبر ٧٣ والذي يمكن أن يكون نموذجا لأي عمل عربي مشترك في المسـتقبل، بعد أن نتحـاشى طبعا

الأخطاء التي ارتكبت عند حشد هذه القوات وبعد أن نستوعب الدروس التي تعلمناها نتيجة لهذه التجربة.

لقد قامت تسع دول عربية بتقديم الدعم العسكري لدولتي المواجهة، وإذا رغبنا في تقييم هذا الدعم من ناحية قوة التأثير فإنه يمكن ترتيب هذه الدول تبعًا للأسبقية التالية. [٣]

المركز الأول	الجمهورية العراقية	١٥٠
المركز الثاني	الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية	٧٠
المركز الثالث	الجمهورية العربية الليبية	٥٠
المركز الرابع	المملكة الأردنية	٢٠
المركز الخامس	المملكة المغربية	١٥
المركز السادس	المملكة العربية السعودية	٥
المركز السابع	جمهورية السودان الديمقراطية	٥
المركز الثامن	دولة الكويت	١
المركز التاسع	الجمهورية التونسية	١

هناك ٧ دول عربية أخرى لم تسهم في المعركة بقوات عسكرية وهي: الإمارات العربية المتحدة، دولة البحرين، سلطنة عمان، دولة قطر، الجمهورية اللبنانية، الجمهورية العربية اليمنية، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. [٤] ولعل عدم اشتراك هذه الدول في تقديم الدعم العسكري لا يعني أحجاما منها عن ذلك وإنما يعني أنه لم يكن لديها ما تستطيع أن تقدمه للمعركة.

وهكذا يمكن القول إن التعاون العربي خلال حرب أكتوبر كان أفضل صورة ظهر بها العرب منذ إنشاء دولة إسرائيل. ولكن يجب أن نعترف بأخطائنا وان نتعلم منها، فقد كان الخطأ الأول هو التأخير الواضح في إرسال هذا الدعم العسكري إلى الجبهات المختلفة مما جعل الكثير من وحدات الدعم تصل في وقت متأخر لا يسمح بان يكون لها تأثير كبير على سير المعركة والخطأ الآخر هو أن بعض وحدات الدعم كان مستوى تجهيزه وتدريبه لا يسمح له بان يدخل في معركة ضد القوات الإسرائيلية التي كانت على مستوى عال من التجهيز والتدريب.

ولكي نتعلم من أخطاء الماضي فإني أوصى الدول العربية بما يلي:

١- تقوم دول المواجهة ببناء نظام دفاع جوي قوي يستطيع الدفاع عن قواتها المسلحة وعن منشآتها الحيوية والمدنية، وعلاوة على ذلك يستطيع أن يوفر الدفاع الجوي المؤثر لقوات الدعم العربي التي تصل قبل بدء العمليات الحربية مع العدو وبعدها.

٢- تقوم دول المواجـهة ببناء أعداد إضافية من المطارات تزيد على حاجـتها الفعليـة بحيث تسـتطيع هذه المطارات أن تستـوعب أسراب الـدعم العربي عندما يتقـرر حشـدها في الجبهة.

٣- تلتزم كل دولة عربية بتنفيذ توصيات رؤساء أركان حرب القوات المسلحة للدول العربية في الدورة الثالثة عشرة المنعقدة بالقاهرة في ١٣ من ديسمبر، بأن تخصـص ١٥% مـن دخلهـا القومي لتطوير ورفع الكفاءة القتالية لقواتها المسلحة مع إعطاء الأسبقية الأولـى فـي التطـوير والدعم للقوات الجوية والدفاع الجوي، ثم القوات المدرعة بعد ذلك. إن الحرب القادمة مع إسرائيل سوف تعتمد أساسا على الطائرات والدبابات. ويجب أن نعلم أن الكيف هو أسـاس النجـاح فـي المعركة وان الكم يمكن أن يؤثر على المعركة إن كان فارق الكيف ليس كبيرا، أما إذا كان فارق الكيف كبيرا فلن يجدي التفوق في الكم شيئا.

أن الشجاعة والروح المعنوية تلعبان دورا مهما في إحراز النصر ولكن يجب أن نعلـم أن قائـد الطائرة F-5 مهما كان شجاعا فإنه لن يستطيع أن يسقط طائرة الفانتوم أو طـائرة F16 أو F15 ومن هنا يجب أن يعلم العرب كيف ينتقون أسلحتهم، فإما أن يشـتروا السلاح الذي يسـتطيع أن يواجه السلاح الإسرائيلي أو يوفروا أموالهم ولا يشتروا به أي سلاح متخلف تستطيع إسرائيل أن تدمره في أي وقت تشاء. إن دول المواجهة لا يعوزها فرد المشاة وإنما تعوزها الطائرة والدبابـة والصواريخ الموجهة ضد الدبابات والصواريخ الموجهة ضد الطائرات إلى غير ذلك من الأسلحة المتقدمة والمتطورة ومن هنا يجب على كل دولة عربيـة ترغب في أن تقـدم دعمـا عسـكريا حقيقيا، أن تشـرع فورا في تطوير قواتها المسلحة ورفع مستواها إلى المستويات العالمية.

٤- مرة أخرى أنادي بان تتعاون الدول العربية في خلق صناعة حربية متطورة طبقا لما جاء في توصيـات رؤساء أركان حرب القوات المسلحة للدول العربية في ديسـمبر ٧٢ نظرا، لأن إقامة صناعات عسكرية تحتاج إلى أموال وخبرة فنية وسوق للسلاح لا يمكن توافره في دولة واحدة أما إذا اجتمعت الدول العربية في مجموعة واحدة- أو حتى في مجموعتين- فإنها تستطيع أن تشـكل بذلك ظروفا مثالية للإنتاج الحربي.

٥- وأخيرا يجب أن تتمركز وحدات الدعم العربي في دول المواجهة قبل بدء العمليـات بوقـت كاف حتى يمكن الاستفادة منها على الوجه الأكمل.

الدعم المالي العربي:

لقد ذكرت فيما سبق أن الدعم العسكري العربي لدول المواجهة يفوق في أفضليته الدعم المـادي،

حيث إنه يزيد من قوتها وقدراتها القتالية بصفة مباشرة، أما الدعم المادي فإنه يحتاج إلى وقت لكي تظهر نتائجه. وإني لم أتعرض في هذه المذكرات إلى الدعم العربي المادي، إلا في حالات ثلاث وهي: مقررات مؤتمر الخرطوم ٦٧، والمعونة المالية العراقية لمصر، والمعونة الجزائرية لمصر عام ٧٣. ولا يعني هذا أن هذا هو كل ما قامت به الدول العربية من دعم مادي لمصر أو دول المواجهة، وإنما يعني أن تلك هي المعونات الثابتة والمسجلة والتي كنت أنا على علم بها، وإننا نسمع الآن كلاما كثيرا عن معونات مالية كبيرة دفعت إلى مصر، ولكن للأسف الشديد ليست هناك مراجع رسمية تؤكد وتحدد هذه المعونات.

يقول الأستاذ هيكل في كتابه "الطريق إلى رمضان" إنه خلال الأيام الأولى لحرب أكتوبر ٧٣ تبرعت ليبيا بمبلغ ٤٠ مليون دولار، ٤ ملايين طن من الزيت، وإن المملكة العربية السعودية تبرعت بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار وإن دولة الإمارات تبرعت بمبلغ ١٠٠ مليون دولار. قد تكون هناك تبرعات أخرى من هذه الدول أو من دول عربية أخرى قبل حرب أكتوبر وأثناءها.

ولكي نقيم المساعدات المالية تقييما عادلا، فقد قمت بعمل دراسات تبين تكاليف إنشاء الوحدات المختلفة وأدامتها بالنسبة لأسعار ما قبل عام ١٩٧٣، فاتضح لي أن كل عشرة ملايين دولار تتبرع بها أية دولة من غير دول المواجهة تعادل نقطة واحدة وبالتالي فإن من يتبرع بمائة مليون دولار فكأنه ساهم في المعركة بعشر نقاط ومن تبرع بآلف مليون دولار فإنه يحرز مائة نقطة في قومية المعركة، وهكذا. فإذا نحن عرفنا على وجه اليقين الأموال التي تبرعت بها كل دولة عربية فإنه يصبح في إمكاننا إعادة النظر في الترتيب الذي ذكرناه.

هوامش الفصل التاسع والعشرون

(١) أرسلت الجزائر لواءً مدرعاً بدلا من سرب ميج ١٧.

(٢) أرسل المغرب لواء مشاة بدلا من سرب F-5

(٣) لقد أجرى تقييم الدعم العربي بناء على الأسس التالية:

سرب جوي يعادل ٢٠ نقطة.

لواء مدرع يعادل ١٠ نقاط.

لواء مشاة يعادل ٥ نقاط.

كتيبة مشاة تعادل نقطة واحدة.

وفي حالة التعادل تعطى الأسبقية لتاريخ الوصول.

(٤) الدول الآتية لم تكن قد انضمت بعد إلى الجامعة العربية قبل أكتوبر ٧٣: الصومال، موريتانيا

، جيبوتي.

ا
لـ
بـ
ا
ب

ا
لـ
سـ
ا
بـ
ع

إدارة العمليات الحربية

الفصل الثلاثون

الهدوء الذي يسبق العاصفة

الاجتماع المصري- السوري في الإسكندرية أغسطس٧٣:

في تمام الساعة ١٤٠٠ يوم ٢١ من أغسطس ٧٣ دخلت ميناء الإسكندرية باخرة ركاب سوفيتية وعليها ٦ رجال سوريين كان يتوقف على قرارهم مصير الحرب والسلام في منطقة

الشرق الأوسط. كــان هؤلاء هم اللواء طلاس وزير الدفاع، واللواء يوسف شــكور(ر.أ.ح.ق.م.س)، واللواء ناجي جــميل قــائد القوات الجوية والدفاع الجوي، واللواء حكمت الشهابي مــدير المخابرات الحربية، واللواء عبد الرزاق الدردرى رئيس هيئة العمليات، والعميد فضل حسين قائد القوات البحرية. كانوا جميعا بملابسهم المدنية ولم يخطر وسائل الإعلام في مصر أو في ســوريا بأي شيء عن هذا الموضوع سواء قبل وصــول الوفد ام بعده. كنت أنا في استقبــــالهم علــى رصيف الميناء حيث خرجنا دون أية مراسم إلى نادي الضباط حيث أنزلوا خلال فتــرة إقــامتهم بالإسكندرية.

وفي الساعة ١٨٠٠ من اليوم نفسه اجتمع الوفدان المصري والسوري في مبنى قيادة القــوات البحرية المصرية في قصر رأس التين بالإسكندرية. كان الوفد المصري يتكون من الفريــق اول احــمد إسماعيل وزير الحــربية، والفريق سعد الدين الشاذلي (ر.ا.ح.ق.م.م)، واللواء محمد علي فهمي قائد الدفاع الجــوي، واللواء حسني مبارك قائد القوات الجوية، واللواء فؤاد زكرى قــــائد القوات البحرية، واللواء عبــد الغني الجمسي رئيس هيئـــة العمليات، واللواء فؤاد نصار مــدير المخــابرات الحربيــة. كان هؤلاء الرجــال الثلاثة عشــر هم المجلس الأعلى للقوات المصرية والسورية المشتركة، وكان يقوم بأعمال السكرتارية لهذا المجلس اللواء بهي الدين نوفل.

كان الهدف من اجتماع هذا المجلس هو الاتفاق على ميعاد الحرب. وحيث أن قرار الحرب هو في النهاية قراراً سياسياً وليس قرارا عسكريا فقد كانت مسئوليتنا تنحصر في إعطـــاء الإشـــارة للقيادة السياسية في كل من مصر وسوريا بأننا جاهزين للحرب في حدود الخطط المتفق عليهـــا، وأن نحدد لهم افضل التواريخ المناسبة من وجهة نظرنا استمرت اجتــماعاتنا خلال يوم ٢٢ من أغسطس، وفي صباح يوم ٢٣ من أغسطس كنا قد اتفقنا على كل شيء وأخــذنا نعــد الوثــائق الرسميــة لهذا الاجتماع التاريخي. وكــان قرارنا يتلخص في أننا مستعدين وجاهزون للحـــرب وفيما يتعلق بتاريخ الحرب فقد اقترحنا توقيتين أحدهما خلال الفترة من ٧ إلى ١١ مــن ســبتمبر والثاني خلال الفترة من ٥ إلى ١١ من أكتوبر ٧٣. وعلاوة على ذلك فقد اقترحنا افضل الأيـــام داخل كل مجموعة من التوقيتية وقد طالبنا القيادة السياسية بأن تخطرنا بالقرار الخاص بتوقيــت الحرب قبل بدء القتال بخمسة عشر يوما، وقد حرر محضر الاجتماع من صورتين وتم التوقيــع عليهما من قبل كل من ر.ا.ح.ق.م السوري والمصري (اللواء يوســف شــكور عــن الجانــب السوري، والفريق سعد الدين الشاذلي عن الجانب المصري). كان انتخاب توقيت سبتمبر يعني أن القيادة السياسية يتحتم عليها اتخاذ القرار و إخطارنا به قبل يوم ٢٧ من أغسطس أي بعد ٤ أيـــام

على الأكثر من تاريخ انتهاء المؤتمر، فلما جاء يوم ٢٨ دون أن نخطر بشيء بــدا واضــحا أن الحرب ستكون في ٥ من أكتوبر أو بعد ذلك بقليل.

فرض قيود مشددة لإخفاء نوايانا:

تم في اجتماع الإسكندرية تنسيق الخطط المصرية السورية الخاصة بــالسرية والأمن والخداع التعبوي والإستراتيجي والسياسي، وأني أذكــر تلك اللحظة التي انتحى فيها بي اللــواء يوســف شكور جانبا وقال هامسا" يجب أن تفرض احتياطات أمن مشددة حول هؤلاء الضــباط الأربعــة عشر الذين حضروا اجتماع الإسكندرية. يجب ألا يسافر أي منهم إلى خارج البلاد يجب ألا يركب أحدهم أية طائرة حتى في الخطوط الداخــلية. إن اختطاف أحــدهم قد يتسبب لنا مشكلات كبيرة !!" ولم يكن ما همس به اللواء يوسف شكور إلا بعضا من عشرات الإجراءات التي اتخذت لتأمين السرية والخداع والأمن بالنسبة للقوات والقادة و إخفاء نوايانا عن العدو.

بدأ أعضاء الوفد السوري في العودة إلى بلادهم اعتبارا من يوم ٢٤ من أغسطس، ولكن بأسلوب مختلف تماما عن أسلوب حضورهم. فمنهم من عاد جوا عن طريق السعــودية، ومنهم من عــاد بطريق البحــر، ومنهم من بقي عدة أيام أخرى ، واعتبارا من ٢١ من سبــتمبر بدأ العد التنازلي نحو حرب أكتوبر. كان علينا أن نقوم بالكثير خلال تلك الأيام الخمسة عشر لكي نتخذ أوضــاع الهجــوم النهائية: حشد وحدات المدفعية، حشد وحــدات المهندسين التعبئة واستدعاء الاحتياطي، تحرك الغواصــات واتخاذ أوضاعها، الخ.. وكنا قد اعددنا جدولا محــددا يشــمل جميــع هــذه الإجراءات وما يجب أن يتم في كل ليلة وعلى طول امتداد فترة العد التنازلي. وفــي الأول مــن أكتوبر ٧٣ أخطرنا قائدي الجيش الثاني والثالث بان تمام الاستعداد لتنفيذ الخطة بدر هو يــوم ٦ من أكتوبر، وقد فرضــنا عليهما أن يجري تبليغ قادة الفرق يوم ٣ من أكتوبر فقط وقادة الألويــة يوم ٤ من أكتوبر وقادة الكتائب والسرايا يوم ٥ من أكتوبر وقادة الفصائل وضباط الصف والجنود بتمام الاستعداد قبل بدء الهجوم بــ٦ ساعات فقط لقد كــانت عملية إخفاء أخبار الحــرب عــن رجــالنا عملية شــاقة حقا فهناك بعض الأفعال والتصرفات التي يمكــن للجندي المحتــرف أن يفسرها بسهولة على إنها الحرب حتى دون أن يخطره أحد بذلك، مثــال ذلك التصرفات التي تتم خــلال فترة العد التنازلي: فتــح القوات واتخاذ أوضاع الهجوم بدلا من أوضاع الدفاع، الخ.... ومن هنا كــان من الواجب علينا أن نجد تفسيرات أخرى لمثل هذه التصرفات، وقد اعددنا خطة لذلك واعتــقد أننا نجحنا إلى حد كبير في حجب قرار الحرب وتوقيتها عن رجالنا حتى المواعيد المحددة لذلك والتي سبق لي أن ذكرتها.

ولكي أعطي صورة لمدى السرية التي فرضت على رجـالنا فأني سـوف أحكـي القصـة التالية: لقد تحركت يوم الجمعة ٥ من أكتوبر إلى الجبهة حيث زرت كلا مـن الجيشـين الثـاني والثالث للتأكد من تمام الاستعداد و إن كل شيء يسـير طبقا للجدول الزمني السابق تحديده وبينما كنت في الجـيش الثاني جال بخاطري أن ألقي نظرة أخيرة على مواقـع العـدو شـرق القنـاة فتحركت ومعي اللواء سعد مأمون إلى نقطة ملاحظة لنا لا يفصلها عن مواقع العدو سوى اقل من ٢٠٠ متر. كان كل شيء هادئا تماما ولا توجـد أية مظاهر تـدل علـى أن العـدو قـد شـعر باستعداداتنا وانه يقوم بتحضيرات مضادة التفت إلى سعد مأمون وقلت له: "يبدو أن العدو لا يشعر بشيء مما يدور في جانبنا، ولكن ترى ماذا يعتقد رجالنا؟ هل يفسرون تصرفاتنا على أنها الحرب أم انهم يصدقون تفسـيراتنا؟ فأجاب سعد مأمون: "نعم هناك الكثير ممن يعتـقدون أن الحرب وشـيكة ولكنها مجرد شكوك لم تصل إلى درجـة اليقين، وحتى مـن تـم إخطـارهم بتـمام الاستعداد فإنهم مازالوا متشككين. لقد حضر إلي أمس أحد قادة ألوية المشاة وقال لي هامسا: هل هي الحرب أم أنه مجرد تنفيذ مشـروع تدريبي كما قيل لنا، فأجبته بان يتم استعداده في التوقيتات المحددة له كما لو كانت الحرب فعلا.

أما بخصوص خداع العدو عن نوايانا بالهجوم فقد كـانت لدينا خطة متكاملـة تشـمل الخـداع التكتيكي والتعبوي والإستراتيجي والسياسي. وقد تم تنسـيق خططنا للخداع مع خطـط الجانـب السوري خلال مؤتمر الإسكندرية في أغسطس ٧٣. كانت الخطة تعتمد على سلسلة من الأحداث تقع في عدة تواريخ محددة على المسـتويين العسكري والسياسي مما يعطي انطباعا بأن الحرب ليست متوقعة في الوقت الذي حددناه لها. وفي هذا المقام يجب إلا ننسى إجراءين مهمين لعبـا دوراً أساسيا في عملية الخداع، وكـان أولهما قد بدأ منذ عدة سنوات وأما الثاني فكان قـد بـدأ اعتبارًا من أكتوبر ١٩٧٣. كنا قد حشـدنا للدفاع عن قناة السويس ٧ فرق (٥ فـرق مشـاة + فرقتين مدرعتين). كانت فرق المشاة الخمس تحتل النسق الأول في الدفاع (النسـق الأول يعنـي الخط الأول. وكانت مواقع هذه الفرق تبدأ من الحـافة الغربية للقنـاة وتستمر بضعة كيلومترات إلى الغرب)، وكـانت الفرقتان المدرعتـان تحتلان النسق الثاني للدفاع وكانت تتجمع خلف فرق المشـاة وعلى مسـافة ٢٠ إلى ٢٥ كيلومترا غرب القناة كانت خطتنا الهجومية تعتمد علـى أن تقوم فرق المشاة الخمس هذه باقتحام قناة السويس، كل واحدة في حـدود قطاع معين يدخل ضمن حـدود القطاع الذي كانت مكلفـة بالدفاع عنه. وقد كـان حشد قواتنا بهذا الأسلوب يسمـح لنا بالاستـغناء عن الكثير من التحركات التي يحتّمها حشد القوات لاتخاذ أوضاع الهجـوم [1]. أمـا

الإجراء الثاني فقد كان تعديل نظام التعبئة في القوات المسلحة المصرية اعتبـــارا من شهر يوليو ٧٢، كـــما سبق أن بينت في الباب الثاني. لقد كان أول استدعاء طبقا للنظام الجديد هو ٥ إلــــى ١٠ من أكتوبر ٧٢، وتوالت بعد ذلك الاستدعاءات بأشكال مختلفة حتى بلغت ٢٢ استدعاء قبــل أكتوبر ٧٣. وكان الاستدعاء رقم ٢٣ هو الاستدعاء للحرب، فاعتقد العدو أن هذا الاســتدعاء لا يختلف عن غيره من الاستدعاءات الأخرى.. وهكذا فإن المفاجأة التي حـــققناها يــوم ٦ مــن أكــتوبر ٧٣ كانت نتيجة سلسلة من الإجراءات المتعددة التي كان يجري تنفيذها ضـــمن خطــة محـــبوكة الأطراف تم وضع أسسها قبل بدء الحرب بمدة طويلة.

عدت من رحلتي السرية إلى الجزائر والمغرب في الســاعة الواحدة والنصف بعد منتصف ليــل ٢٢/٢١ من سبتمبر، وفي الساعة التاسعة صباحـــا كنت احضر المؤتمر الشهري مع القادة لقــد كان مؤتمري السادس والعشرين. كنت أحس بشعور غريب خلال هذا المؤتمر. لم يبق سوى ١٤ يومـــا على بدء الحرب وهاأنذا أجتمع بالقادة الميدانيين وكـــبار ضباط القـــيادة العامـــة للقـــوات المسلحة جميعهم. هؤلاء الرجال الذين وضعت مصر ثقتها بهم.. هؤلاء الرجـــال الـــذين ســوف يقودون اصعب عمليـــة عبور في التـــاريخ. لقد كنت أشـــعر بالثقة بأننا سوف ننتصر. لقد أعددنا العدة لكل شيء وقدرنا الاحتمالات جميعها فلماذا لا ننتصر؟ إن كلا مـــن هـــؤلاء القـــادة–بـــل والمستويات الأقل منهم– يعلم دوره في العملية الهجومية والإجراءات التي يتحتم عليه القيام بها، بتفاصيلها كلها منذ بدء الهجوم وحتى ٢٤ ســـاعة بعد ذلك بتفاصيل التفاصيل وبالساعة والدقيقـــة والمكان.

إنهم يعلمون أيضا تفـــاصيل الإجراءات التي يقومون بها قبل بدء الهجـــوم. إن كل ما ينقصهم هو معرفة يوم الهجوم وساعته وعندئذ تدور عجلة الحرب الرهيبة التي يشترك فيها بصفة مباشرة ما يقرب من ٤٠٠٠٠٠ رجل من أبناء مصر (قوات برية وجوية ودفاع جوي وبحريـــة) بينمـــا يحمي خطوط مواصلاتهم وقواعدهم ومنشآتهم حوالي ٨٠٠٠٠٠ رجل آخر، ومن ورائهم يقـــف ٣٥ مليون مصري. لقد جـــال ذلك بخاطري وأنا أقف أمام هؤلاء الرجال الذين ستكتب أعمـــالهم تاريخ مصر. لقد قلت لهم في بعض مؤتمراتي السابقة: عندما ننجح في عبور القناة وتحطيم خط بارليف سوف يسجل هذا العمل كأعظم عمل عسكري في تاريخ الحروب، وسيكون مجال فخـــر لكل رجل عسكري أن يذكر بكل اعتزاز لأبنائه وأحفاده أنه خدم في القوات المســـلحة المصـــرية خلال تلك الفترة [٢]. أما في ذلك اليوم ٢٢ من سبـــتمبر فلم أذكـــر أيـــة كلمـــة عـــن الحـــرب واحتمالاتها وحبست شعوري إلى أن أنتهي مؤتمرنا في الساعة الرابعة والنصف من بعـــد ظهـــر

ذلك اليوم.

وفيما بين الساعة ١٩٠٠ و ٢٢٠٠ من اليوم نفسه حضرت اجتماعًا برئاسة الوزير وحضر معنا اللواءات: حسنى مبارك، ومحمد على فهمي، و الجمسى ، ونوفل، وحسن الجر يدلى وقد استمعنا خلال هذا اللقاء إلى التعديلات الأخيرة التي أدخلت على خطة القوات الجوية السورية.

في الأيام التالية وحتى بدء القتال وزعت وقتي بين مهام العمليات والعمل الروتيني. لقد كنت حريصا ألا أقوم بإلغاء أي التزام اجتماعي أو روتيني حتى لا يستطيع أحد أن يستنتج شيئا. لقد كانت زوجتي هي الأخرى أحد أهدافي في عملية الخداع وقد أعددت العدة لذلك قبل بدء القتال بفترة طويلة. لقد عودتها طوال الفترة التي اشغل فيها منصب (ر.ا.ح.ق.م.م) أن تتلقى فجأة هاتفا من مكتبي يخطرها بأنني أقوم بزيارة الوحدات، وأن أتغيب لمدة أسبوع دون أن اتصل بها. وهكذا أمكنني أن أقوم برحلتي السرية إلى الجزائر والمغرب ما بين ١٦ و ٢٢ من سبتمبر دون أن تعرف إنني خارج القطر، وعندما انتقلت إلى المركز ١٠ اعتبارا من أول أكتوبر وانقطعت أخباري عن المنزل لم يكن ذلك شيئا غريبا عليها، إذ أنها تعودت على ذلك، إلى أن استمعت إلى أخبار الحرب من الإذاعة والتليفزيون مثلها في ذلك مثل أية مواطنة مصرية عادية.

كانت الأمور تسير في مجراها الطبيعي، ففي يوم ٢٧ من سبتمبر دعا وزير الحربية رفاقه من الوزراء لزيارة القيادة العامة للقوات المسلحة حيث شرح لهم تنظيم القيادة وأسلوب عملها. وكان أكثر ما شد انتباههم هو الماكينات المكتبية Office machines التي كانت قد وصلتنا منذ عدة أشهر فقط [٣]. وفي صباح ٢٧ من سبتمبر رافقت الوزير ومعنا عدد من ضباط القوات المسلحة لزيارة قبر الرئيس عبد الناصر ثم حضرنا حفل تأبين له في القيادة العامة حضره عدة مئات من الضباط من مختلف فروع القوات المسلحة. وفى المساء حضرت الحفل الذي أقامه الاتحاد الاشتراكي بمناسبة ذكرى الرئيس الراحل عبد الناصر، وقد ألقى الرئيس السادات خطابا بهذه المناسبة ولكن كان خطاباً معتدلا بعكس خطاباته السابقة كلها التي كان يدق فيها طبول الحرب. وبين تلك المناسبات الاجتماعية كنت ألتقي بأحد القادة أو أحضر مؤتمرا من مؤتمرات العمليات لتدقيق خطة أو بحث مشكلة طارئة. كانت الحلقة الأخيرة من سلسلة الإجراءات الخداعية هي الإعلان المسبق بقيامنا بإجراء المشروع الإستراتيجي السنوي في المدة ما بين أول أكتوبر وحتى ٧ من أكتوبر، وتحت هذا الستار كنا سنقوم باستدعاء الاحتياطي وننتقل من مراكز القيادة العادية إلى مراكز القيادة الميدانية [٤]. وفي خلال تلك الفترة كنت اركز

مجهودي على ثلاثة مواضيع رئيسية: الأول هو عملية استدعاء الاحتياط طبقا للتــخطيط المسبق، والثاني هو استمرار عملية حــشد القوات ولاسيما عناصر المدفعية ومعدات العبور التي كانــت مؤجلة حتى آخــر وقت ممكن، والأخير هو مراقبة مدى نجــاح خطة الخــداع وتقيــيم أعمــال العدو، حتى يمكننا أن نستنتج من تلك الأعمال ما إذا كان قد اكتشف نوايانا للهجوم أو لا. وإلــى جــانب ذلك كانت هناك عشرات المواضيع الأخرى الأقل أهمية. مثــال ذلــك اختبــار خطــة المواصلات، تنظيم واختبار خطة الدفاع عن المركز ١٠. مراجعة البيانين الأول والثــاني اللــذين ستصــدرهما القيادة العامة للقوات المسلحة بعد بدء العمليات الخ...

اللمسات الأخيرة قبل المعركة:

في الأول من أكتوبر اجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة تحت رئاسة الرئيس السادات. قام كل قائد بإعطاء الإشــارة أمام الرئيس بأنه مستعد وقادر على تنفيذ المهمة المكلف بها، واتبع ذلــك بعض الكلمات المشجــعة من الرئيس، وانتهى الاجتماع بعد ساعتين فقط [٥]. وفي يــوم ٣ مــن أكتوبر سافر الوزير إلى سوريا ومعه اللواء نوفل وبعد عودته قال لي"لقد كان السوريون يريدون أن يؤجلوا يوم ى (يوم بدء القتال) لمدة ٤٨ ساعة ولكني قلت لهم إن هذا لا يمكن الآن، إن مثــل هذا التأجيل قد يضيع عامل المفاجأة، فكروا في موقف الفريق الشاذلي على الجبهة المصرية وما يمكن أن يسببه ذلك له من مشكلات، لا اعتقد أنه يمكن أن يوافق على هذا التأجيل، وقد وافقوا في النهاية على أن يبقى يوم ى كما هو وأن تكون ساعة س هي ١٤٠٠ يوم ٦ من أكتوبر ٧٣ ، لقد كان فعلا من المستحيل إيقاف عجلة الحــرب أو تأجيلها لقد كــانت الحرب قــد بــدأت فعــــلا بالنسبة لبعض الوحــدات. لقد أبحرت بعض غواصاتنا يوم الأول من أكتوبر لتتخذ أوضاع القتال وتقوم بتنفيذ المهام المتخصصة لها في التوقيتات المحددة لذلك، ولأغراض الأمن والســرية فقــد فرضنا صمتا لاسلكيا ولم تكن هناك أية وسيلة للاتصال بهذه الغواصات إلا بعد بــدء العمليــات الفعلية. وقد تذكرت في تلك اللحظة اللواء زكرى قائد البحــرية عندما اتصل بي قبل أن تخــرج الغواصات إلى البــحر وقــال "ستخرج الغواصات إلــى البحــر الآن، إني أؤكد لك مرة أخرى انه ليس هناك من وســيلة للاتصال بهم لإجراء أي تعديل في التوقيت. هل أعطي لهــم الأمــر بالخروج؟ قلت له نعم لا تغيير في أي شيء".

وفي يوم ٤ من أكتوبر وقع حادث مهم كــان من الممكن أن يكشف نوايانا للهجوم، ففي هــذا اليوم قامت شــركة مصر للطيران بإلغاء رحلاتها وبدأت تقوم بتنفــيذ خطة إخــلاء لطائراتهــا، وعندما علمنا في القيادة بهذا التصرف الغريب واستفسرنا عن أسبابه قيل لنا إنه تم بنــاء علــى

تعليمات من وزير الطيران، وقد اتصل وزير الحربية بزميله وزير الطيران وطلب منـــه إلغـــاء تعليماته الســـابقة والعودة إلى الحـــالة العادية، وصباح يوم الجمعة ٥ من أكتوبر كان العمل فـــي شركة مصر للطيران قد عاد إلى حالته الطبيعية [٦].

الله أكبر.. الله أكبر:

في صباح يوم الجمعة تحركت إلى الجبهة لكي أتأكد بنفسي من أن كل شيء كان يسير على مـــا يرام، د خلت على اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثـــالث في مركز قيادته فوجدته يراجـــع الكلمة التي سوف يلقيها على جنوده عند بدء القتـــال، فعرضها عليّ وطلب رأيي فيها. كانت كلمة قوية ومشجعة حقا قلت له لا إنها ممتازة ولكني لا أتصور أن أحدا ســـوف يســـمعها. إن هـــدير المدافع والرشاشات وتساقط القتلى والجرحى لن يسمح لأحد بأن يستمع أو ينصت لأحد، فما بالك بهذه الخطبة الطويلة ؟"، ثم لمعت في ذهني فكرة بعثها الله تعالى لتوها ولحظتها "إن أفضل شيء يمكن أن يبعث الهمم في النفوس هو نداء الله أكبر، لماذا لا نقوم بتوزيع مكبرات للصوت علـــى طول الجبهة ونناد في فيها الله أكبر، الله أكبر... سوف يردد الجنود بطريقة آلية هذا النداء وسوف تشتعل الجبهة كلها به؟ إن هذه هي أقصر خطبة و أقواها. وافق على الفور ولكنه أخبرني بأنـــه ليس لديه العدد الكافي من مكبرات الصوت التي يستطيع بها أن يغطي مواجهة الجـــيش الثالـــث، ومن مكتب اللواء عبد المنعم واصل اتصلت بمدير إدارة الشئون العامة وقلت له "أريـــد منـــك أن تدبر ٥٠ مكبر صوت ترانزيستور وإن تسلم ٢٠ منها إلى الجيش الثالث و٣٠ للجيش الثاني على أن يتم ذلك قبل الساعة العاشرة صباح غد، حتى لو تطلب تنفيذ هذا الأمر سحب مكبرات الصوت جميعها من وحدات القوات المسلحة التي ليست ضمن تنظيم الجيشين الثاني والثالث " وطلبت إليه آن يعاود الاتصال بي بعد حوالي ساعتين في قيادة الجيش الثاني.

بعد أن اطمأننت على الجيش الثالث تحركت إلى الجيش الثاني حيث قابلت اللواء سعد مأمون. الذي اشتكى من أن وحدات المهندسين التي كان يتحتم دفعها حتى ليلة أمس لم تصل إليه كاملـــة واحضر أمامي رئيس المهندسين في الجـــيش ليدلي بشكواه اتصلت فورا بمدير إدارة المهندســـين للقوات المسلحة وتم حل الموضوع، وبينما كنت مع سعد مأمون اتصل بي مـــدير إدارة الشـــئون العامة وأعلمني بأنه سوف يكون قادراً على تنفيذ التعليمات التي أصـــدرتها بخصـــوص تـــدبير مكبرات الصوت وتسليمها في التوقيتات التي حددتها له فشكرته على ذلك وأخبرت اللـــواء ســـعد مأمون بموضوع مكبرات الصوت التي سوف تسلم له وهتاف الجنود في أثناء اقتحام القناة بـــالله أكبر. عدت إلى المركز ١٠ وأنا أكثر اقتناعا بأننا سننتصر. لم يبق على بدء المعركة سوى أقـــل

من ٢٤ ساعة وجميع المظاهر تؤكد أن العدو لم يشعر بتحضيراتنا وهذا في حد ذاته يعتبر مكسبا كبيراً. إن إسرائيل تحتاج إلى ٧٢ ساعة لإتمام المرحلة الأولى من تعبئتها (تعبئة القوات المسلحة) وتحتاج إلى ٩٦ ساعة أخرى لإتمام المرحلة الثانية من التعبئة والتي تشمل تعبئة موارد الدولة بأكملها للحرب، فلو فرضنا وعرفت إسرائيل الآن بنوايانا فلن يسعفها الوقت لتعبئة قواتها بشكل مؤثر [٧].

شعوري وأفكاري قبل بدء المعركة :

وبنهاية يوم الجمعة قررت أن أنام مبكراً لكي آخذ أكبر قسط من الراحة قبل أن تبدأ العمليات ويصبح من الصعب الحصول على فرصة للنوم أو الراحة. تناولت عشاء خفيفا وأويت إلى فراشي الذي يقع في غرفة ملاصقة لغرفة العمليات حاولت النوم ولكن دون جدوى. كان سيناريو SENARIO عملية اقتحام قناة السويس وحصار وتدمير خط بارليف يمر في خيالي، وكلما انتهى عرض هذا الفيلم عاد ليعرض نفسه من جديد. وهنا بدأت حواراً مع نفسي حول تصوير المعركة. كنت أناقش مع نفسي فكرتين: إحداهما تنادي بتصوير معركة العبور، والأخرى كانت تعارض الفكرة الأولى. ونظرا لوجاهة الأسباب التي كانت تؤيد كل فكرة فسوف أعرض مزايا وعيوب الفكرتين تاركًا للقارئ حرية الحكم على أفضلية كل منهما [٨].

فكرة تصوير الفيلم عن معركة العبور:

أ- إذا قمنا بتصوير فيلم عن معركة العبور فإن قيمته السوقية يمكن أن تزيد على ١٠٠ مليون دولار، أما قيمته التاريخية فإنها لا تقدر بثمن. ولكن كيف يمكن تصوير هذا الفيلم دون أن يكون مخرج الفيلم على علم مسبق بالسيناريو والمواقف والتوقيتات كلها. إن هذا يعني إذاعة أسرار الخطة للمخرج في الوقت الذي حجبنا فيه هذه المعلومات عن كثير من القادة، وحتى القادة فإن كلا منهم يعرف فقط ما يخص القوات التي تحت قيادته ولا يعرف عن عمل باقي القوات الأخرى إلا بالقدر الذي يتيح له التعاون معها.

أما هذا المخرج فيجب أن يعرف كل شيء لكي يمكنه القيام بواجبه على الوجه الأكمل.

ب- صباح غد سوف يعلم عشرات الألوف من الضباط والجنود بنبأ الحرب، فماذا لو عرف أيضا مخرج الفيلم؟ يمكنك أن تدعو أحد المخرجين صباح غد وتكلفه بالمهمة.

أ- ماذا تقول؟ غدا هذا مستحيل. لن يكون لديه الوقت الضروري لتنفيذ المهمة. إن مخرج الفيلم يحتاج إلى يوم كامل لفهم السيناريو. ثم يحتاج إلى ٣ أو ٤ أيام لتجهيز نفسه لعملية التصوير.

ب- من قال لك ذلك ؟

أ- لا أحد، ولكني اعتقد ذلك. إن هذا هو التفكير المنطقي.
ب- الوقت ليس متأخراً كما تعتقد. ما عليك إلا أن تستدعي المخرج صباح غد وتكلفه بالمهمة ثم تستمع إلى ما يقول.
أ- ربما يطلب مني طائرتي هليوكوبتر على الأقل لكي يستخدمهما في التصوير وهناك احتمال أن يقوم رجالنا بإسقاطهما على اعتبار أنهما طائرتان معاديتان، وحتى لو أصدرنا تعليمات مشددة بعدم إطلاق النار على هاتين الطائرتين فلا يمكن لأحد أن يضمن وصول هذه التعليمات إلى الأفراد جميعا وعلاوة على ذلك فان إصدار مثل هذه التعليمات للجنود لتأمين طائرتي تصوير الفيلم قد يخلق لدى الجنود نوعا من التردد في إطلاق النار على طائرات الهليوكوبتر المعادية ظنا منهم أنها طائرات صديقة.
ب- أن المزايا التي يمكن الوصول عليها نتيجة تصوير هذا الفيلم تفوق بكثير المخاطرة باحتمال إسقاط طائرتي هليوكوبتر. لقد تعودنا أن نسمع منك في كثير من المناسبات عبارة "المخاطرة المحسوبة" لماذا لا ندخل هذا العمل ضمن "المخاطرة المحسوبة"؟
أ- هذا شيء مختلف أن هذا العمل لن يكون له أي اثر مباشر أو غير مباشر على نتيجة الحرب انه فقط للتسجيل التاريخي.
ب- إن تسجيل التاريخ هو عملية مهمة. إن من حق أبنائنا وأحفادنا أن يعرفوا ما قام به آباؤهم وأجدادهم لكي يفخروا به ويستفيدوا ويتعلموا منه.
أ- إني مقتنع بما تقول ولكني مقتنع أيضا بأن إذاعة سيناريو العبور بكامله أمام مخرج الفيلم قبل بدء العمليات الحربية هي مخاطرة كبيرة ليس هناك ما يسوغها.
وبهذه المناسبة يجب أن اقرر هنا أن الصور التي نشرت في الصحافة الوطنية والصحافة العالمية والتي كانت تمثل دباباتنا وهي تعبر فوق الكباري والمعديات وجنودنا المشاة وهم يركبون القوارب التي يرفرف عليها العلم المصري في أثناء العبور، كلها صور مزيفة لم يتم تصويرها في أثناء المعركة.أنها صور قام الإعلام المصري بالتقاطها بعد المعركة لأغراض الدعاية وقام بتمثيلها جنود كومبارس وأخذت لهم تلك الصور بعيدا عن قصف المدافع ولعلعة الرشاشات. وأني أعلن أنه لم يدخل مصور وأحد إلى منطقة القتال إلا بعد ظهر يوم ٨ من أكتوبر أي بعد بدء القتال بأكثر من ٤٨ ساعة. أني لا أقول هذا لكي ألوم أحدا من المصورين، فلم يطلب من أي مصور الذهاب إلى الجبهة ورفض، ولكن أقول ذلك لأنه الحقيقة، وقد اكتشفت ذلك عندما زرت الجبهة يوم ٨ من أكتوبر. فأمرت بإلحاق بعضهم بالوحدات فقاموا بتنفيذ ذلك اعتبارا من بعد ظهر يوم ٨

من أكتوبر. لم يكن يهمني أن أقول هذه الحقيقة لو أن الصور التي التقطت تمثـل حقـا الجنـدي المصري الشجاع وهو يقتحم القناة ولكني صدمت عندما شاهدت هـذه الصـور فـي الصـحف الأجنبية. إن بعض هذه الصور يمثل جنودا يعبرون بصورة غوغائية ينعدم فيها الضبط والـربط والنظام الدقيق الذي كان مفروضا في أثناء عملية العبور. إنها صور لا تمثـل مطلقـا الجنـدي المصري الذي عبر القناة كم اشـعر الآن بتأنيب الضمير لأنني لم استمع إلـى النداء الذي كـان يطلب مني أن نقوم بتصوير هذا العبور ورفضت ذلك من اجل المحافظة على السرية.

ماذا يقصد السوفيت بسحب خبرائهم؟

لابد أني غفوت قليلا بعد هذا الصراع الفكري بيني وبين نفسي حول تصوير فيلم عن عبورنا لقناة السـويس، ولكن هذه الغفوة كانت قصيرة كان ذهني متيقظا وكانت حواسي كلهـا متيقظـة أيضا: كـان ذهني يبقى مستيقظا عندما ترقد عيناي قليلا. كـانت أقدام جنود الحراسـة التـي تروح وتغدو أمام غرفتي لا تسمح لي بالنوم العميق فكنت أغفو لفترات قصيرة ثم استيقظ فتطول فترة الاستيقاظ نتيجة تزاحم الأفكار. كل فكرة تريد أن تفرض نفسها، ومن بـين الأفكـار التـي شغلتني هذه الليلة قرار السوفيت بسحب خبرائهم من مصر.

أ- ماذا يعني قيام السوفيت بسحب خبرائهم وعائلاتهم قبل بدء المعركة بحوالي ٢٤ ساعة؟

ب- لابد انهم لا يريدون أن يتورطوا في هذه الحرب، ولكي يظهروا للعالم اجمع أن أيـاديهم نظيفة من هذه العملية.

قد يعنـي أيضا انهم لا يوافقون على الخطوة التي اتخـذناها، وأن ما قاموا به هو في الواقـع احتجاج صامت.. أضف إلى ذلك قرارهم بسحب سفنهم الثلاث التي كانت راسية في ميناء بـور سعيد.

أ- حقا. إننا لسنا في حاجـة إلى مساعدتهم العسكرية ولكننا في حـاجة إلـى مسـاعدتهم وتأييدهم السـياسيين. لابد أن هذا الموقف قد أصاب الرئيس السادات بقلق كبـير. تـرى كيـف يفكر الآن ؟

ب- قد يصدر قرارا بإيقاف الحرب.

أ- مستحيل؟

ب- لماذا مستحيل؟ أمن أجل الغواصـات التي في عرض البحـر ولا يمكن إيقافها عن تنفيذ مهامها؟ إن العالم مستعد لأن يضحي بإغراق باخرة أو باخرتين كثمن لتجنب الحرب.

أ- وإذا كان ذلك مقبولا على المسـتوى العالمي، فكيف يقبل على المستوى الوطني؟ لقد تم شحن

رجالنا بروح القتال والرغبة في الانتقام من العدو الذي هزمهم عام ٦٧، وان لديهم الآن فرصة كبيرة لتحقيق النصر بعد سلسلة من الهزائم التي هزت ثقتهم بأنفسهم. إذا لم نعط رجالنا هذه الفرصة فقد تموت فيهم روح القتال لعدة أجيال قادمة.

ب- انك تتكلم كجندي محترف. أن السياسيين يفكرون بأسلوب مختلف هل نسيت ما قاله لك السادات ألم يقل لك انك لا تفهم في السياسة؟

أ- نعم أذكر ذلك، ولكن هذا لا يعني أن الرئيس على حق. إذا كان الرئيس يعني بالرجل السياسي أن يكون من طراز ميكافيللي فإني أكره أن أكون كذلك. أنا أؤمن بالصدق والصراحة والأمانة ولا أؤمن بالكذب والخديعة. أنا اعلم أن قرار الرجل السياسي العاقل هو القرار الذي يدخل في اعتباره العوامل كلها مهما كانت متعارضة. إن القرار السليم هو في النهاية عبارة عن محصلة لتلك العوامل جميعها التي بينها دون شك الروح المعنوية للشعب والعزة والكرامة والشعور بالفخر والكبرياء إن الفرد هو أغلى عنصر في الثروة البشرية للدولة. أن الفرد المقهور الذي لا يملك ثقته بنفسه لا يمكنه أن يقدم شيئا لبلاده، ولو في أي مجال آخر.

ب- انك مازلت تفكر بعقلية الجندي المحترف هناك سؤال يجب أن تفكر فيه الآن: ماذا سنفعل لو أن الرئيس أمر بإيقاف وإلغاء العملية الهجومية ؟

أ- هذا سؤال سخيف لن أجيب عنه.

ب- أنت تخشى أن تجيب عن هذا السؤال.

أ- نعم. أني أريد أن أنام. أن لدينا عملا كبيرا ينتظرنا غدا ويحب أن آخذ قسطا من الراحة. كان نومي طوال هذه الليلة هو سلسلة من الغفوات والاستيقاظات وفي كل مرة استيقظ فيها كنت ابحث مشكلة حتى وكأني بحثت جميع مشكلات القوات المسلحة في تلك الليلة واستيقظت في الصباح وأنا اشعر بنشاط كبير.

رقيب يرفض القتال:

في الساعة العاشرة من صباح يوم السبت ٦ من أكتوبر أبلغني أحد قادة الجيوش هاتفيا بان لديه ضابط صف برتبة رقيب يرفض القتال عندما أخطر بمهمته في القتال في صباح ذلك اليوم قال لقائدة " أن القتل والعنف ليسا من طبيعتي كما انهما يتعارضان مع معتقداتي وأنا لا أستطيع أن أقوم بتنفيذ هذه المهمة"، وقد حاول أصدقاؤه وقادته أن يثنوه عن هذه الفكرة ولكنه أصر على رأيه. كان قائد الجيش في ذروة الغضب وهو يبلغني بهذا الخبر.

و أضاف قائلا بأنه سوف يأمر بتشكيل مجلس عسكري عال لمحاكمة الرقيب المذكور. ولكني

أخذت الموقف بمنتهى البساطة وقلت له "لا علينا إنه مجرد فرد واحد مـن ١٠٠ ,٠٠٠ سـوف يقتحمون القناة بعد ساعات قليلة. إني اعلم أن نسبة الذين يرفضون القتال في الجـيوش الأخـرى أعلى من ذلك بكثير. لا تشغل نفسك بهذا الموضوع أرسله تحت الحراسة إلى السـجن الحربـي وسوف نبحث موضوعه فيما بعد".. كنت أعرف أن محاكمة هذا الشخص بمجلس عسكري عال وصدور الحكم والتصديق عليـه لم تكن لتستغرق نصف ساعة. إن المتهم يرفض القتال ويعترف بذلك والإعدام هو الجزاء المنتظر لذلك، ومن الممكن أن ينفذ فيه حكم الإعدام أمام أفراد وحدته. لقد جال هذا الشريط بسرعة في خيالي فاستبعدته. لم أكن أريد أن أبدا عمليتنا الهجومية بإعـدام لأحد رجالنا. قد يقال فيما بعد إن المصريين لم يعبروا القناة إلا بعدى أن رأوا راس زميلهم معلقا في الهواء، وبذلك يسـتطيع أعداؤنا أن يشوهوا سمـعة الجندي المصري. لا لن نعطيهم الفرصة لذلك سوف نقدمه للمحكمة فيما بعد. سوف نحاول دراسة نفسيته لكي نعرف كـيف تتولـد هـذه الأفكار وكيف يمكن التغلب عليها [٩]. قد يخجل بعض المصريين الشرفاء من سماع هذه القصة ولكنى أطمئنهم بان هذه الحالات تحدث في الجيوش الأجنبية بنسبة أعلى من ذلك بكـثير. لقـد اشترك في حرب أكتوبر بطريق مـباشر حوالي ٤٠٠،٠٠٠ رجل عبر منهم حوالي ١٠٠ ,٠٠٠ رجل، فهل يضير الشـرف العسكري المصري أن يتخلف منهم رجل واحد؟.

هامش الفصل الثلاثين

(١) كان توزيع قواتنا بهذه الصورة كما كانت خططنا الهجومية اعتبارا من المآذن العاليـة عـام ٧١، إلى جرانيت ٢ عام ٧٢/٧١، إلى بدر عام ٧٣ كانت جميعها تعتمد أساسا على قيـام فـرق المشاة الخمس بالهجوم من أوضاعها الدفاعية دون أية عملية إعادة تجميع بين الفرق.

(٢) نشرت صحيفة الأهرام يوم ٢٥ من يناير ٧٣ حديثا للفريق الشاذلي ألقاه في الضباط والجنود الذين قاموا بتنفيذ مشروع تدريب لعبور قنـاة السويس جاء فيه ما يلي :-

"إننا نعترف بأن ما أقامه العدو من ساتر ترابي ومن تحصينات على الشـاطيء الشـرقي للقنـاة

يعتبر من الأعمال الهندسية الضخمة، وأن قناة السويس في صورتها الجديدة قد أصبحت مانعا فريدا، ومع ذلك فإننا نؤكد أننا قادرين على اقتحامه، وسوف نقتحمه، ونثبت للعالم اجمع أننا- نحن أحفاد الفراعنة العظام، والعرب البواسل- قادرين على أن نقدم للعالم نماذج جديدة من قدراتنا القتالية لاسترداد حقنا المسلوب وأرضنا المغتصبة. ليت مصر كلها كانت معنا اليوم لترى، فتزداد ثقتها بنفسها وبقدرة أبنائها على تحقيق النصر إن شاء الله. إنني أثق بقدرة قواتنا المسلحة وأتعشق أن تتاح لنا الفرصة قريبا لكي نثبت للعدو فوق ارض المعركة أن الجندي المصري قادر على الوصول إليه وهزيمته. وسوف يسجل التاريخ إلى الأبد معركة الجيش المصري في اقتحام قناة السويس كإحدى المعارك الخالدة في التاريخ العسكري. وسوف يكون مجرد ذكر أحدكم أنه اشترك في معركة القناة ما يعادل أرفع الأوسمة وستشهد لصاحبها بالبطولة والشجاعة".

(٣) قبل ذلك بعامين أدخلنا تعديلات جذرية على تنظيم إدارة المطبوعات والنشر. وبعد ذلك قمنا بإدخال العديد من أجهزة المكاتب الحديثة التي تساعد في رفع مستوى الإدارة في جميع القيادات وعلى جميع المستويات.

(٤) القيادة العامة للقوات المسلحة تنقل إلى المركز رقم ١٠ خلال المشاريع الاستراتيجية وخلال الحرب.

(٥) اجتماعات المجلس الأعلى للقوات المسلحة تستغرق في المتوسط ٤ ساعات للاجتماع الواحد. وهناك تسجيل كامل لما دار في هذا الاجتماع أتعشم أن يذاع في يوم من الأيام.

(٦) إن هذا التصرف يثير بعض التساؤلات. لابد أن وزير الطيران علم بميعاد الحرب فمن **الذي** اخبره؟

(٧) قامت إسرائيل بعد حرب ٧٣ بتعديل خطة تعبئتها. وهي تدعى اليوم أن بمقدورها تعبئة قواتها كلها خلال ٢٤ ساعة.

(٨) الفكرة (أ) تعارض تصوير الفيلم، أما الفكرة (ب) فإنها تؤيد ذلك.

(٩) لقد شغلتني أحداث المعركة ولا اعرف حتى الآن مصير هذا الرقيب البائس، ولكني اعتقد أن حالته جديرة بالدراسة العلمية والنفسية.

الفصل الحادي والثلاثون

معركة العبور

بدء العمليات الحربية:

في الساعة ١٣٠٠ يوم ٦ من أكتوبر وصل رئيس الجمهورية ومعه وزير الحـــربية إلى المركز ١٠ ودخلا غرفـــة العمليات حيث كان كل فرد في مكانه منذ الصباح. كان الوقت المحدد لعبور الموجـــة الأولى من المشاة هو الساعة ١٤٣٠ ولكن كان هناك الكثير من المهام الأخرى التي يجري تنفيذها قبل ذلك. ولعل أهم هذه المهام هو قيام قواتنا الجوية بتوجيـــه ضربة جوية إلى مطارات العدو ومراكز قيادته ومناطق حشد مدفعيه في سيناء وقد اشترك في هذه الضربة الجوية اكثر من ٢٠٠ طائرة عبرت خـــط القناة على ارتفاع منخـــفض جدا في الساعة ١٤٠٠. وبمجرد عبور قواتنا الجوية لخط القنـــاة بدأت مدفعيتنا عملية القصف التحضيري المكثف على مواقع العدو شرق القناة وفي

الوقت نفسه تسللت عناصر استطلاع المهندسين وعناصر من الصاعقة إلى الشاطئ الشـــرقي للقناة للتأكد من تمام إغلاق المواسير التي تنقل السائل المشتعل إلى سطح القناة.

وبينما كانت تلك الأعمال جميـــعها تتم بنجاح كان الجميع ينتظرون أخبار عبور المشاة حيث إن ذلك هو الذي سيحدد مصير المعركة [١]. وبينما كنا ننتظر وكان على رءوسنا الطير وصلت المعلومات بتمام عبور الموجة الأولى ودوت مكبرات الصوت داخل المركز ١٠ تعلن الخبر المهم الذي بعث الفرحـــة والسكينة في نفوس الجميع. أخذت المعلومات عن عبور الموجـــات التاليـــة للمشاة تتوالى وفي توقيتات تتطابق تماما مع توقعاتنا [٢]. وبعد أن اطمئن الرئيس بهذه الأخبـــار السارة انسحب هو ووزير الحربية من غرفة العمليات للراحة، وحوالي الســـابعة مســـاء غـــادر الرئيس المركز ١٠ عائدا إلى قصر القاهرة.

وفي الساعة ١٨٣٠ من يوم ٦ أكتوبـــر كان قد عبر إلى الشاطئ الآخر ٢٠٠٠ ضابط و

٣٠, ٠٠٠ رجل من خمس فرق مشاة واحـــتفظوا بخـــمسة رءوس كـــباري قاعدة كل منها تتراوح بين ٦ و ٨ كيلومترات وعمق كل منها يتراوح بين ٣ و٥ كيلومترات. كان المهندسون مازالوا يعملون بجد في فتح الثغرات في الســـاتر الترابي ولكنهم لم يكونوا قد انتهوا بعد من **هذا العمل، وبالتالي لم تكن لدينا دبابات أو مركبات على الجانب الآخر، وذلك فيما عدا اللواء البرمائي الذي عبر البحيرات المرة ما بين ١٤٠٠ و ١٥٠٠ في قطاع الجيش الثـــالث وقد بدا يعمل في عمق العدو وكان معه ٢٠ دبابة برمائية و ٨٠ مركبة برمائية توباز، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك أعداد محدودة أخرى من المركبات البرمائية التي عبرت بحيرة التمساح لكي تعمل في قطاع الجيش الثـــاني. كانت دبابات اللواء١٣٠ البرمائي هي الدبابة ت ٧٦ وهي تشكل قوة نيران كبيرة إذا استخدمت ضـــد وحدات العدو الإدارية ومراكز قيادته والمواقع غير الحصينة ولكن خـــفة تدريعها وصغر عيار مدفعها يجعلانها ليست ندا لدبابات العدو المتوسطة بأنواعها كلها والتي كانت مسلحـــة بالمدفع ١٠٥ ملليمتر. لذلك كنت انتظر بفارغ الصبر بتمام عملية فتح الثغرات في الســـاتر الترابي للعدو. إن فتح هذه الثغرات هو الذي سيمكننا من البدء في عملية نقل دباباتنا إلى الضفة الشرقية سواء عبر المعديات أو عبر الكباري.**

في الساعة ١٨٣٠ وصلت المعلومات عن فتح أول ثغرة وتشـــغيل أول معـــدية في قطاع الجيش الثاني، ثم توالت الأخبار خلال الساعة التالية عن فتح المزيد من الثغرات، وبالتالي بدأ تشغيل المعديات التي أخذت تنقل دباباتنا إلى الشاطئ الآخر بإعداد محدودة، وفي الساعة

٢٠٣٠ كان قد تم بناء أول كوبري ثقيل على القناة، وفي الساعة ٢٢٣٠ كـــان قد تم بناء٧ كباري ثقيلـــة أخرى، وكانت دباباتنا وأسلحتنا الثقيلة تتدفق نحو الشرق مستخدمة ٧ كباري ثقيلة و ٣١ معدية.

خطة العدو شوفاخ يونيم:

كانت خطة العدو شوفاخ يونيم SHOVACH YONIM تتلخص فيما يلي :-

١- تقسيم جبهة قناة السويس إلى ثلاثة قطاعات رئيسية تمثل ثلاثة اتجاهات رئيسية: القطاع الشمالي ويدافع عن الاتجاه القنطرة -العريش، والقطاع الأوسط ويدافع عن الاتجاه الإسماعيلية -ابو عجيلة، والقطاع الجنوبي ويدافع عن الاتجاهات السويس- الممرات.

٢- يتم الدفاع على شكل نسقين واحتياط:

أ- النسق الأول: خط بارليف ويحتله لواء مشاة يتقوقع داخل ٣٥ حصنا ونقطة قوية بينها فواصل مجهزة بمرابض نيران للدبابات بمعدل مربض كل ١٠٠ متر [٣].

ب- النسق الثاني: على مسافة ٥-٨ كيلومترات وتحتله ٣ كتائب دبابات قوامها ١٢٠ دبابة.

ج. يتجمع الاحتياط وقوامه ثلاثة ألوية عدا ثلاث كتائب على مسافة ٢٥-٣٠ كيلومترا شرق القناة، وقوامه ٢٤٠ دبابة.

٣- في حالات رفع درجات الاستعداد يندفع النسق الثاني لتدعيم النسق الأول ويندفع الاحتياط ليحتل أمكنة النسق الثاني، وبذلك تنضم ١٢٠ دبابة إلى خط بارليف (بعضها يدخل ضمن النقط القوية وبعضها الآخر يحتل الفواصل فيما بينها).

٤- كان في تقديرنا أن العدو سوف يقوم بهجمات مضادة بقوة سرايا أو كتائب دبابات في حدود ١٥-٣٠ دقيقة من بدء العبور، وان يقوم بهجمات مضادة بقوة حوالي لواء مدرع بعد حوالي ساعتين من بدئه.

كيف تصارعت الخطة بدر مع الخطة شوفاخ يونيم ساعة بعد ساعة، وكيف انتصرت الخطة بدر؟ هذا ما سوف نقصه في الصفحات القليلة القادمة. إن عملية عبور القوات المسلحة المصرية لقناة السويس يوم ٦ أكتوبر ٧٣ تمثل سيمفونية رائعة اشترك فيها عشرات الآلاف من البشر، وكان عمل كل منهم ذا أهمية خاصة في إنجاحها. وإن قيامي بذكر بعض الأحداث في عملية العبور لا يعني مطلقا التقليل من أهمية الأحداث الأخرى، وإنما يعني استحالة تسجيل تلك الأحداث جميعها.

ليلة ٥ و ٦ من أكتوبر:

قامت عناصر من المهندسين بالتسلل إلى الشاطئ البعيد حيث قامت بإغلاق فتحات الأنابيب التي تنقل السائل الملتهب إلى سطح مياه القناة.

تسللت بعض دورياتنا إلى مؤخرة العدو.

سعت ١٤٠٠ يوم ٦ أكتوبر:

عبرت حوالي ٢٠٠ طائرة قناة السويس على ارتفاع منخفض جدا يكاد يلامس الساتر الترابي للعدو في الضفة الشرقية للقناة وقامت بتوجيه ضربة جوية مركزة ضد مطارات العدو في سيناء ومراكز قيادته ومحطات الرادار والإعاقة الالكترونية ومواقع الهوك (SAM) وبعض مواقع المدفعية.

وبعد عبور طائراتنا لخط القناة بحوالي ٥ دقائق بدأت مدفعيتنا تصب نيرانها فوق حصون خط بارليف. اشترك في هذا التمهيد الناري حوالي ٢٠٠٠ مدفع وهاون وكان كل منها له واجب خاص يحدد له الهدف الذي يقصفه وعدد الطلقات التي يطلقها.

وتحت ستر نيران المدفعية تسللت عناصر من المهندسين إلى الشاطئ البعيد للتأكد من أن مواسير نقل السائل الملتهب التي أغلقت في اليوم السابق كانت ماتزال مغلقة.

وتحت ستر نيران المدفعية عبرت بعض عناصر من الصاعقة لكي تسبق العدو في احتلال الموقع والمصاطب التي تقع خلف خط بارليف بحوالي كيلومتر إلى كيلومترين.

بدا اللواء١٣٠ برمائي عبوره للبحيرات المرة من طرفها الجنوبي بقوة ٢٠ دبابة ت ٧٦و ٨٠ مركبة توباز.

بدأت سرية مشاة في عبور بحيرة التمساح مستخدمة في ذلك حوالي ١٠ مركبات برمائية.

سعت ١٤٢٠ يوم ٦ أكتوبر:

توقفت المدفعية ذات خط المرور العالي عن قصف النسق الأمامي لخط بارليف ونقلت نيرانها إلى العمق حيث مواقع النسق الثاني للعدو.

قامت المدفعية ذات خط المرور المسطح بالضرب المباشر على مواقع العدو في خط بارليف وذلك بهدف إسكات أية نيران يطلقها العدو على مشاتنا وهي تعبر القناة.

بدأت الموجة الأولى من المشاة بركوب القوارب وأخذت تجدف نحو الشاطئ الشرقي للقناة وتهتف مع كل ضربة مجداف "الله اكبر" كان قوام هذه الموجة ٤٠٠٠ رجل يركبون ٧٢٠ قارب مطاط.

لقد نجحنا في تحقيق المفاجأة التكتيكية أيضا. إن العدو لم يتمكن من رفع درجة استعداد قواته في منطقة القتال إلى الحالة القصوى قبل أن نبدأ هجومنا. لقد بدأ يدفع دباباته التي تحتل النسق الثاني لتدعيم خط بارليف حوالي الساعة ١٤٢٠. ولكن قواتنا من رجال الصاعقة كانت قد سبقته في احتلال عدد من المصاطب التي كان قد أعدها لنفسه لتكون مرابض نيران له واشتبكت معه

ودمرت عددا من دباباته بينما كان يتقدم غربا. كما أن دباباتنا وصواريخنا المضـــادة للدبابات التي كانت على الشاطئ الغربي أخـــذت تدمر دباباته المتحركة الواحدة بعد الأخرى.

نجحت سرية المشاة في عبور بحيرة التمساح بمركبات التوباز.

سعت ١٤٣٠ يوم ٦ أكتوبر:

لقد وصلت الموجـــة الأولى من المشاة إلى الشاطئ الشرقي للقناة واحـــتلت بعض أجزاء السائر الترابي الذي يقع بين حصون خط بارليف. كان كل قارب يحمل معه سلالم حـــبال وعلامة إرشاد كبيرة تحمل رقم القارب. قام أفراد هذه المجموعة بفرد سلالم الحبال وتثبيتها على الساتر الترابي (١٤٤٠ سلما)، كما قاموا بتثبيت علامات الإرشاد التي تبين رقم القارب (رقم مسلسل من ١ إلى ٧٢٠)، كانت تلك الأرقام تحدد أمكنة وصول القوارب وقد روعي أن تكون المسافات بينها كما يلي:

٢٥ مترا فاصل بين كل قارب داخل سرية المشاة.

٢٠٠ متر فاصل بين كل سرية وأخرى.

٤٠٠ متر فاصل بين كل كتيبة وأخرى.

٨٠٠ متر فاصل بين كل لواء وآخر.

وكانت المسافة بين كل فرقة مشاة وأخرى حوالي ١٥ كيلومترا. بدأت عناصر المهندســين العمل في فتح الثغرات في الساتر الترابي باستخدام ضغط المياه وقد اشترك في هــذا العمــل ٧٠ فصيلة مهندسين معهم ٣٥٠ مضخة مياه. كـــان المهندسون يقومون بفــتح هــذه الثغــرات فـــي الفواصل التي بين الوحـــدات الفرعيـــة (الألوية والكتـــائب والسرايا) التي ذكرناها سابقا.

لقد بدأت القوارب التـــي نقلت الموجة الأولى من المشاة تعود مرة أخـــرى إلى شاطئنا لكي تنقل الموجات الأخرى، وكان في كل قارب رجلان من وحدات المهندسين.

المعركة بالنيران مستمرة بين العدو وبين قواتنا وكانت المعركة الرئيسية تـــدور بـــين دباباتنـــا وأسلحتنا المضادة للدبابات التي تحتل موقعها غرب القناة وبين دبابات العدو التي تحاول أن تشق طريقها نحو القناة. وفي الوقت نفسه فإن المعركة بين رشاشاتنا وجميع أسلحتنا ذات خط المرور المسطح، كانت مستمرة بهدف إسكات المواقع الحية في خط بارليف.

طائراتنا التي قامت بتنفيذ الضربة الجوية تعود إلى قواعدها خـــلال ممرات جوية محددة تم الاتفاق عليها بين قيـــادة القوات الجوية وقيادة الدفاع الجوي من حيث الوقت والارتفاع. وقد خسرنا في هذه الضربة ٥ طائرات كانت هي خسائرنا كلها خلال معركة القناة (حتى صباح يوم ٧ أكتوبر).

سعت ١٤٤٥-١٥٣٠ يوم ٦ أكتوبر:

عبرت الموجة الثانية من المشاة القناة (حوالي ١٤٤٥) وتلتها الموجات الأخــرى بمعدل حوالي ١٥ دقيقة بين كل موجة وأخــرى. وبنهاية الموجة الرابعة كان قد عبر لنا ٢٠ كتيبة مشاة قوامها ٨٠٠ ضابط و ١٣٥٠٠ جندي ومعهم الأسلحة التي يستطيعون حملها أو جرها. وقد بدا مشاتنا على الجانب الآخر يتحملون نصــيبا اكــبر في المعركــة ضد هجمات العدو المضادة. لقد بدا مشاة الموجة الأولى المعركــة ضد دبابات العدو منذ أن وضعوا أقدامهم على الشاطئ الآخر سعت ١٤٣٠، ولكن الدور الرئيسي للمعركة في ذلك الوقت كان يقع على دباباتنا وأسلحتنــا المضادة للدبابات التي تقع على الشاطئ الغربي. ومع استمرار وصول الموجات المتتالية اخذ العبء الرئيسي للمعركــة ينتقل شيئا فشيئا إلى المشاة التي عبرت. وحتى الساعة ١٥٣٠ لم تكن مشاتنا قد تقدمت اكثر من ٢٠٠ متر شرق الساتر الترابي.

المدفعية مستمرة في ضرب الأهداف في عمق العدو وقد اصبح من الممكن توجيه نيرانها بدقة بفضل ضــباط المدفعية الذين يرافقون المشاة شرق القناة ويقومون بتصــحيح النيران وتحديد الأهداف.

المهندسون مســتمرون في عملهم لفتح الثغرات في الســـاتر الترابــي، بينمــا وحــــدات المهندسين المكلفة بتشغيل المعدات وبناء الكباري قد تم إنذارها لكي تكون جاهزة للتحــرك مــن مواقع تجمعها إلى النقاط المحددة.

لقد بدأ العدو يقحم قواته الجــوية في المعركة حوالي الساعة ١٥٠٠ ودخل معــه دفاعنــا الجوي في المعركة وتمكن من إسقاط ٧ طائرات.

سعت ١٥٣٠-١٦٣٠ يوم ٦ أكتوبر:

موجات المشاة مستمرة في العبور وقد عبرت حتى هذا الوقت ٨ موجات، وبحلــول الســاعة ١٦٣٠ كان قد اصبح لدينا في الجانب الآخر خمسة رؤوس كبــاري، كــل منهــا قاعدتــه ٦-٨ كيلومترات وعمقه كيلومتران، وكانت تحــتل رؤوس الكباري هذه ثلاثون كتيبة مشــاة قوامهــا ١٥٠٠ ضابط و ٢٢٠٠٠ رجل.

وخلال تلك الفترة اشتد ضغط مشــاتنا على حصن خط بارليف ونقطه القوية وسقطت بعض مواقع العدو في أيدي رجالنا. كما تم إسكات مواقع أخرى.

قواتنا مستمرة في صد هجمات العدو المضادة التي يقوم بها ضد قواتنا، لقد اصبح العبء الأكبر في صد الهجمــات المضادة يقع الآن على عاتق المشاة التي عبرت وليس على الأسلحة المضادة للدبابات التي كانت ما تزال على الشاطئ الغربي.

قوات المهندسين تعمل بنشاط في فتح الثغرات.

وحدات الكباري تصل إلى النقاط المحدد ة لها وتنزل معداتها في الماء وتبدأ المرحلة الأولى من بناء الكباري.

وحدات المهندسين المكلفة بتشغيل المعدات تتحرك إلى الأمكنة المحــدد ة لها وتبدأ في الاستعداد

والتحضير انتظارا لإتمام فتح الثغرات .

المدفعية مستمرة في الاشتباك ضد الأهداف التي تحددها المشاة.

الدفاع الجوي مستمر في الاشتباك مع الطائرات المغيرة.

سعت ١٦٣٠-١٧٣٠ يوم ٦ أكتوبر:

لقد أتمت الموجة الثانية عشرة من المشاة عبورها وبحلول الساعة ١٧٣٠ كان قد اصبح لنا في الشاطئ الآخر ٤٥ كتيبة مشاة قوامها ٢٠٠٠ ضابط و٣٠٠٠٠ رجل. لقد اصبح عمق رؤوس الكباري للفرق حوالي ٣-٤ كيلومترات لكل منها.

مشاتنا تهاجم مواقع خط بارليف وتستولي على بعض النقاط.

قوات الشرطة العسكرية التي عبرت بالقوارب مع المشاة بدأت تقوم بعملها الخاص بتحديد الطرق وترقيمها وتمييزها لمساعدة الدبابات والمركبات التي سوف تعبر على المعدات وعلى الكباري في التعرف على اتجاهها حتى لا تضل الطريق عند تحركها للانضمام إلى الوحدات الأم التي سوف تقوم بتدعيمها.

لقد بدأت النيران التي تنبعث من خط بارليف تخف وتضعف نتيجة احتلال بعض المواقع وإسكات بعضها الآخر، ولكن مازال هناك الكثير من المواقع التي- وإن كانت غير قادرة على إطلاق نيران مؤثرة- كانت قادرة على توجيه وإدارة نيران المدفعية والطيران للعدو.

قوات المهندسين مستمرة في العمل على فتح الثغرات.

وحدات الكباري مستمرة في تنفيذ المرحلة الأولى من مراحل البناء.

وحدات المعديات مستمرة في تنفيذ مرحلة التجهيز والاستعداد.

معركة المدفعية مستمرة.

وحدات الدفاع الجوي مستمرة في الاشتباك مع طائرات العدو المغيرة.

من سعت١٧٣٠-١٨٣٠ يوم ٦ من أكتوبر:

لقد وصلت رؤوس كباري الفرق إلى عمق حوالي ٥ كيلومترات، وقد أصبحت معظم أجزاء خط بارليف محاصرة من قبل قواتنا.

قوات المهندسين مستمرة في فتح الثغرات وتجهيز المطالع على الجانب الآخر، وفي حوالي الساعة ١٨٣٠ فتحت أول ثغرة في الساتر الترابي، أي بعد ٤ ساعات من بدء عبور المشاة. أتمت الوحدات المكلفة بتشغيل المعدات تحضيراتها، وأخذت تنتظر انتهاء الوحدات المكلفة بفتح الثغرات في الساتر الترابي.

وحدات المهندسين المكلفة ببناء الكباري انتهت من المرحلة الأولى، وأصبحت تنتظر الانتهاء من فتح الثغرات حتى يمكنها أن تبدأ المرحلة الثانية والأخيرة من اجل بناء الكباري.

دبابات ومركبات الأسبقية الأولى التي كان محددا لها أن تعبر على المعديات تتقدم في اتجاه المعابر المحددة لها.

في حوالي الساعة ١٧٣٠ تم إبرار ٤ كتائب صاعقة بواسطة طائرات الهليوكوبتر في عمق العدو في أمكنة متفرقة داخل سيناء.

من سعت ١٨٣٠-٢٠٣٠ يوم ٦ من أكتوبر:

المشاة تعزز مواقعها على الشاطئ الشرقي، وتقوم بإرسال ضباط اتصال إلى مخارج المعديات والكباري لاستقبال الدبابات والمركبات وتلقينها واجباتها تبعا لآخر موقف عمليات. تم خلال هذه الفترة فتح معظم الثغرات في الساتر الترابي.

بدا عبور الدبابات والأسلحة الثقيلة عبر المعديات بمجرد إتمام فتح الثغرات وبحلول الساعة ٢٠٣٠ كان قد أصبح لنا ٣١ معدية تعمل بين الشاطئين الغربي والشرقي للقناة.

تم بناء أول كوبري ثقيل على القناة الساعة ٢٠٣٠.

كانت الدبابات والعناصر ذات الأسبقية الأولى - والتي كان مقررا لها أن تعبر على الكباري [٤]- تتحرك في اتجاه الكباري تبعا لمدى التقدم الذي يحرزه المهندسون في بناء الكباري المختلفة.

استمرار التراشق المتقطع بالمدفعية.

استمرار الدفاع الجوي في التصدي للطائرات المغيرة.

سعت ٢٠٣٠-٢٢٣٠ يوم ٦ من أكتوبر:

قوات المشاة تستمر في تعزيز مواقعها في رؤوس الكباري شرق القناة.

أتم المهندسون فتح الثغرات وتشغيل معظم المعديات والكباري [٥]. وبحلول الساعة ٢٢٣٠ كان المهندسون قد أتموا إنجاز الأعمال الهندسية التالية:

أ- فتح ٦٠ ثغرة في الساتر الترابي وذلك بتجريف ٩٠٠٠٠ متر مكعب من الرمال.

ب- إتمام بناء ٨ كباري ثقيلة.

ج- إتمام بناء ٤ كباري خفيفة هيكلية.

د- إتمام بناء وتشغيل ٣١ معدية.

كانت دباباتنا ومركباتنا تعبر فوق الكباري والمعديات فور تجهيزها وقد بلغت ذروتها في

الساعة ٢٢٣٠ عندما كانت وسائل العبور الثقيل جميعها تعمل بأقصى طاقة لها وذلك فيمـا عـدا قطاع الفرقة ١٩ مشاة حيث ظهرت مشكلات غير متوقعة بخصوص طبيعة التربة.

استمرار التراشق بالمدفعية.

العدو يقوم بغارات على الكباري ويتعرض لــه دفاعنا الجوي فيسقط مزيدا مــن الطــائرات وبحلول الساعة ٢٢٣٠ كان قد بلغ ما أسقطه دفاعنا الجوي منذ بدء القتال ٢٧ طائرة.

سعت ٢٢٣٠ يوم ٦ من أكتوبر إلى ٠٨٠٠ يوم ٧ من أكتوبر:

قامت الدبابات والأسلحة الثقيلة بالانضمـــام إلى المشاة في رؤوس الكباري ما بين الساعة ٢٢٣٠ يوم ٦ من أكتوبر والساعة ١٠٠ يوم ٧ من أكتوبر.

قامت المشاة مدعمة بالدبابات وأسلحة الدعم الأخرى بدفع رؤوس الكباري إلى عمق ٨ كيلو مترات.

قام العدو خلال الليل بهجمات مضادة وقد نجحت قواتنا في صدها جميعا، ولكن العدو تمكن فـــي حالتين من الوصول إلى خط المياه واستخدام دباباته في تعطيل كوبريين اثنـــين وتـــدمير بعــض وسائل العبور الأخرى، ولكن الصراع بين مشاتنا وبين دباباته التي نجحت في اختراق مواقعنـــا استمر طوال الليل واستخدمت فيه القواذف RPG والقنابل المضادة للدبابات. وقبل الصباح كان قد تم تدمير الدبابات التي نجحت في اختراقها خلال الليل ولم تنج منها إلا أعداد قليلة جدا شـــوهدت في الصباح وهي تهرب بأقصى سرعة نحو الشرق. المهندسون يقومون بإصلاح الكباري التـــي تتعطل نتيجة قصف المدفعية والطيران ويعيدون تشغيلها بعد فترة وجيزة.

معركة القناة:

بحلول الساعة الثامنة من صباح يوم الأحد ٧ من أكتوبر ٧٣ كانت قواتنا قد حــققت نجاحا حاسما في معركة القناة، فقد عبرت اصعب مانع مائي في العالم وحطمت خط بارليف فـــي ١٨ ســـاعة، وهو رقم قياسي لم تحققه أية عملية عبور في تاريخ البشرية، وقد تم ذلك بأقل خسائر ممكـــــنة. فقد بلغت خسائرنا ٥ طائرات و ٢٠ دبابة و٢٨٠ شهيدا [٦]. ويمثل ذلك ٢,٥% في الطائرات و ٢% في الدبابات و ٠,٣% في الرجال. أما العدو ففقد ٣٠ طائرة و ٣٠٠ دبابة وعدة آلاف مـــن القتلى وخسر معهم خط بارليف بكامله. لقد تم سحق ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مشاة كانت تـــدافع عن القناة وأصبحت أسطورة خط بارليف التي كـــان يتغنى بها الإسرائيليون في خبر كان.

هوامش الفصل الحادي والثلاثين

(١) تفاصيل خطة العبور سبق شرحها في البابين الأول والثاني.

(٢) كانت المشاة تعبر في ١٢ موجـــة بين كل موجة والتي تليها ١٥ دقيقة هي زمن رحلة القارب ذهابا وإيابا إلى الشاطئ البعيد، بما في ذلك وقت التحميل والتفريغ.

(٣) خط بارليف ومواقع العدو سبق شرحها بالتفصيل في الفصل السابع.

(٤) بعض الدبابات والأسلحة الثقيلة من الأسبقية الأولى كان مقررا لها أن تعبر فوق المعدات، وهذه كان يتم تشغيلها قبل الكباري بحوالي ساعة إلى ساعتين.

(٥) تأخر إنشاء كوبريين اثنين و ٤ معدات في القطاع الجنوبي للقناة.

(٦) اشترك في عملية العبور ١٠٠٠٠٠ رجل، توزيعهم كما يلي بصفة تقريبية:

٣٢٠٠٠ في قوارب مطاطية.

١٠٠٠ في دبابات ومركبات برمائية عبر المسطحات المائية في البحيرات المرة وبحيرة التمساح.

٤٥٠٠ فوق المعديات.

٩٥٠٠ فوق الكباري الخفيفة.

٦١٠٠٠ فوق الكباري الثقيلة.
عبرت القناة ١٠٢٠ دبابة و ١٣٥٠٠ مركبة بوسائل العبور التالية:

	سابحة	فوق معديات	فوق الكباري الثقيلة	فوق الكباري الخفيفة	المجموع
دبابات	٢٠	٢٠٠	٨٠٠	–	١٠٢٠
مركبات	١٠٠	٧٥٠	١٢١٥٠	٥٠٠	١٣٥٠٠

الفصل الثاني والثلاثون

الهجوم المضاد الرئيسي للعدو

الموقف يوم ٧ من أكتوبر:

لقد كان يوم الأحد ٧ من أكتوبر يوم فرح وسعادة بالنسبة لنا. لقد انتصرنا في معركة العبور واصبح لنا على الشاطئ الشرقي خمس فرق مشاة بكامل أسلحتها الثقيلة ومعها حوالي ١٠٠٠ دبابة، بينما العدو في تلك المنطقة قد اصبح في حالة فوضى عارمة وقد أبيدت قواته تماما. ولكن لم تكن هذه الصورة الوردية للموقف صباح يوم ٧ من أكتوبر لتنسينا الحقائق التي كانت تفرض نفسها في رؤوسنا. لقد نجحنا في تحقيق المفاجأة الاستراتيجية وبالتالي فإن العدو لم يقم بإجراء التعبئة الشاملة، إذن فإن المعارك الكبرى مع قوات العدو الرئيسية كانت لم تبدأ بعد.

لقد كان تقدير مدير المخابرات الحربية أن العدو سيقوم بالهجوم المضاد بقواته الرئيسية بافتراض قيامه بإتمام تعبئة قواته قبل بدء الهجوم بعد ٦– ٨ ساعات من بدء هجومنا. وحتى صباح يوم الأحد أي بعد ١٨ ساعة من بدء القتال– لم تكن هناك أية ظواهر تدل على أن قوات العدو المعبأة قد دخلت المعركة في الجبهة المصرية. وكان السؤال الذي يدور في رؤوسنا في ذلك الوقت هو "متى يقوم العدو بالهجوم المضاد الرئيسي؟ يوم ٨ أم يوم ٩ من أكتوبر؟".

لقد كان يوم ٧ من أكتوبر هو يوم سباق بينا وبين العدو استعدادا للمعركة التالية. لقد دفع العدو إلى جبهة سيناء بخمسة ألوية مدرعة جديدة كما دفع ب٣٠٠ دبابة أخرى لتعويض خسائر الألوية المدرعة الثلاثة التي كانت موجودة أصلا. وبحلول صباح يوم ٨ من أكتوبر كان العدو قد حشد أمامنا ثمانية ألوية مدرعة منظمة في ثلاث فرق: فرقة من ثلاثة ألوية مدرعة في

القطاع الشمالي تحت قيادة الجنرال برن أدان، فرقة من ثلاثة ألوية مدرعة في القطاع الأوسط تحت قيادة الجنرال شارون ، فرقة من لواءين مدرعين في القطاع الجنوبي تحت قيادة الجنرال ألبرت ماندلر.

ومن ناحيتنا فقد قمنا بالاستفادة من يوم ٧ أكتوبر في إنجاز ما يلي:

١- قامت الدبابات والأسلحة الثقيلة الخاصة بالفرقة ١٩ مشاة بالعبور على كباري الفرقة السابعة.

٢- قامت فرق المشاة بتوسيع رؤوس الكباري وسد الثغرات التي بينها وبين الفرق المجاورة داخل كل جيش. وبحلول صباح يوم الاثنين ٨ من أكتوبر كانت رؤوس كباري الفرق الخمس قد أدمجت في رأسي كوبريين في جيشين كان راس كوبري الجيش الثاني يمتد من القنطرة شمالا إلى الدفرسوار جنوبا، [١] وراس كوبري الجيش الثالث يمتد من البحيرات المرة شمالا حتى بور توفيق جنوبا. وكان راس كوبري كل جيش يصل في عمقه إلى حوالي ١٠ كيلو مترات. كان ما يزال هناك ثغرة تفصل بين رأسي الكوبري للجيشين، وكان طولها حوالي ٣٠-٤٠ كيلومترا، وكانت هذه الثغرة لا تدخل ضمن مظلة الدفاع الجوي، وبذلك فإن قدرتنا على التحرك داخل هذه المنطقة كانت محدودة جدا، وبهذا الموقف كانت حصون ومواقع خط بارليف جميعها قد سقطت في أيدينا، وذلك فيما عدا موقعين، أحدهما في أقصى الشمال، والآخر في أقصى الجنوب، وإن كان الموقع الجنوبي قد تم حصاره حصارا تاما، واصبح سقوطه في أيدينا مسالة وقت فقط.

٣- وفي خلال يوم ٧ أكتوبر قامت قواتنا الخاصة التي تعمل في مؤخرة العدو بعدة إعمال نشطة، كان لها اثر كبير في إرباك قيادات العدو، وتعطيل تحرك احتياطياته نحو الجبهة. قامت عناصر من اللواء١٣٠ مشاة الأسطول (برمائي) بالتقدم خلال ممري متلا والجدي، حيث قامت بمهاجمة مركز رئاسة القطاع الجنوبي ومحطات الرادار والمعسكرات، وقد تقدمت إحدى سرايا اللواء خلال ممر الجدي حتى وصلت إلى مطار تمادا، الذي يقع على مسافة حوالي ٨٠ كيلومترا شرقي القناة في الوقت نفسه كانت عناصر الصاعقة التي تم إبرازها بطائرات الهليوكوبتر قبل آخر ضوء يوم ٦ من أكتوبر، تعبث بمؤخرة العدو، وتقوم بمهاجمة قواته التي تتحرك نحو الجبهة، مما أثار الذعر بين صفوفه، وأرغمه على التحرك ببطء وحذر، وبالتالي تأخر وصوله إلى الجبهة.

٤- لقد استفدنا أيضا من يوم ٧ من أكتوبر في تحسين الموقف الإداري، الذي كان في حاجة ماسة إلى دفعة قوية. إن النجاح الذي أحرزناه في معركة العبور كان على حساب التضحية بالموقف الإداري. لقد كان كل جندي يحمل تعيينا لمدة يوم واحد، وتعيينا مخفضا من

المياه لمدة يوم واحد [٢]، وأقصى ما يستطيع حمله من الذخيرة لقد كان شعارنا-كما سبق أن ذكرت- "أقصى ما يمكن من السلاح والذخيرة، اقل ما يمكن من المطالب الإدارية الأخرى"، وعلى الرغم من أن معظم العربات والوحدات الإدارية كانت قد عبرت قبل صباح يوم ٧ من أكتوبر، إلا أن الخسائر التي وقعت في تلك العربات نتيجة تدخل العدو، والتأخير غير المتوقع في وسائل العبور في قطاع الفرقة ١٩، قد حرمنا من بناء احتياطي معقول من الاحتياجات الإدارية شرق القناة، وهكذا كان لابد من بذل مجهود إداري كبير لتعويض ما استهلك خلال معركة العبور، وبناء احتياطي إداري استعدادا للمعركة القادمة.

مقارنة بين قواتنا والقوات المعادية يوم ٨ من أكتوبر:

إذا قارنا بين حجم القوات البرية المصرية والإسرائيلية في جبهة القناة صباح يوم ٨ من أكتوبر، نجد أنها تكاد تكون متساوية. لقد كان لدى العدو ٨ ألوية مدرعة قوامها ٩٦٠ دبابة ما بين سنتوريان ، م٤٨، م ٠٦٠ أما نحن فكان لدينا حوالي ١٠٠٠ دبابة ما بين ت ٦٢، ت ٥٥، ت ٣٤، ت ٧٦. ومع أن عدد الدبابات كاد يكون متساويا فقد كان هناك عاملان مهمان يمكن أن يكون لهما تأثير حاسم على المعركة، إذا ما حدثت المجابهة بين الدبابات وحدها دون إدخال الأسلحة الأخرى في المعركة، كان العامل الأول هو التسليح، والعامل الآخر هو التجميع.

كانت دبابات العدو جميعها مسلحة بالمدفع ١٠٥ ملليمتر، وكانت مجهزة بوسائل جيدة لتقدير المسافة والتسديد. أما دباباتنا فكان توزيعها كما يلي:

- ٢٠٠ دبابة ت ٦٢ مجهزة بالمدفع ١١٥ مم.
- ٥٠٠ دبابة ت ٥٤، ت ٥٥ مجهزة بالمدفع ١٠٠ مم.
- ٢٨٠ دبابة ت ٣٤ مجهزة بالمدفع ٨٥ مم.
- ٢٠ دبابة ت ٧٦ مجهزة بالمدفع ٧٦ مم.

من هنا يمكن القول إن تسليح دبابات العدو كان أفضل من تسليح دباباتنا، لكن هذا التفوق النوعي في التسليح يمكن التغلب عليه إذا نحن أحسنا استخدام الأرض وتحاشينا الدخول مع العدو في معركة دبابات في ارض مفتوحة، حيث يصبح مدى المدفع هو السلاح الحاسم في المعركة.

كان العامل الآخر هو أسلوب الطرفين في تجميع واستخدام دباباته، حيث كانت دباباتنا مربوطة بالأرض، وكان نصفها ضمن الهيكل التنظيمي لألوية المشاة على شكل كتائب دبابات

وكان تدريبها مقصورا على تعاون المشاة في الهجوم والدفاع، لكـــنها لم تكن مدربة على القيـــام بالدخول في معارك الدبابات حيث يكون عنصر القتال الرئيسي هو دبابة ضد دبابة. أما النصـــف الآخر من دباباتنا فقد كان موزعا على فرق المشاة بمعدل لواء مدرع لكل فرقـــة، وذلـــك لرفـــع قدراتها القتالية في صد هجمات العدو المركزة بواسطة الدبابات. لم تكن لدينا الفرصة إذن في أن نناور بدباباتنا من مكان لآخر من الجبهة إلا في حدود ضيقة جدا. أما العدو فقد كانـــت ظروفـــه افضل منا بكثير، فلم تكن دباباته ملزمة بأن ترتبط بالأرض للدفاع عن المشاة كما في حالتنا وكان لديه العمق الكافي الذي يسمح له بالمناورة وتحريك ألويته المدرعة من قطاع إلى قطاع بحريـــة تامة، وخلال ساعات قليلة.

وخلاصة القول.. فقد كان العدو يستخدم دباباته الاستخدام الصحيـــح، أي انه كان يســـتخدمها كدبابات أما نحن فقد كنا نستخدمها كمدافع مضادة للدبابات ذاتية الحركـــة،أكثر مـــن اســـتخدامها كدبابات.

ولم يكن ذلك جهلا منا بأصول استخدام الدبابة، بل كان بسبب الظروف التي فرضـــت نفســـها علينا. إذ أن ضعف تسليح دباباتنا، وضعف قواتنا الجوية، كانا يفرضـــان علينا أن نستخدم دباباتنا بأسلوب دفاعي، ويدعواننا إلى تحاشي الدخول في معارك دبابات بحتة، وقد أثبتت الأيام التالية أننا كنا على صواب عند اتباع هذا الأسلوب، وان استخدامنا للدبابات ضمن تشكيلات المشاة قد حقق نتائج مبهرة، وعندما قمنا بتغيير هذا الأسلوب في ١٤ أكتوبر- بناء على قرار سياسي كما سيأتي فيما بعد- تمكن العدو من أن يدمر لنا ٢٥٠ دبابة في اقل من ساعتين.

زيارتي الأولى إلى الجبهة يوم ٨ من أكتوبر:

في الصباح الباكر من يوم ٨ من أكتوبر تحركت إلى الجبهة، لمناقشة الموقف على الطبيعـــة مع القادة الميدانيين. وبدأت رحلتي بزيارة اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثـــاني- ثم تحركت إلى الفرقة الثانية مشاة ومنها إلى قيادة الجيش الثالث، ومنها إلى الفرقة السابعة مشاة، ثم عـــدت فـــي نهاية النهار إلى المركز ١٠ لقد سعدت جدا بهذه الزيارة حيث شاهدت الضباط والجنود وهم فـــي قمة السعادة ويتمتعون بروح معنوية عالية، على الرغم من المجهودين الذهني والجسماني اللـــذين تحملوهما خلال ألـــ ٤٢ ساعة الماضية، التي تخـــللتها ليلتان متتاليتان دون نوم، كان الكثيـــرون منهم يهتفون عند رؤيتي "التوجيه رقم ٤١ كان ممتازا. كان خير دليل لنا!!".

قابلت العميد حســـن أبو سعده- قائد الفرقة الثانية مشاة- في مركز القيادة المتقدم للفرقـــة، كـــان يستـــعد لملاقاة الهجوم المضاد المنتظر من العدو. كان يتمتع بروح معنوية عالية، وكـــان واثقـــا

من انه سوف ينجح في صد العدو. بعد أن تركت حسن أبو سعده توجـهت لزيارة أحد مواقع خط بارليف المواجه لمدينة الإسماعيلية، كان هذا الموقع حصينا منيعا، ولم يسقط في أيدينا إلا فجـر يوم ٨ من أكـتوبر، أي قبل ساعات قليلة من زيارتي له. كان هو الموقع نفسه الذي نظرت إليه يوم الجمـعة الماضي قبل بدء العمليات بـ ٢٤ سـاعة، بغية التعرف على ما إذا كان العدو قـد أحس باستعداداتنا للهجوم، أم لا. ما أغرب هذا الشعور الذي أحس به و أنا ادخل الحصـن كـان حصنا شامخا ومنيعا كغيره من حصون خط بارليف، وظن بنو إسرائيل أن حصونهم ستحميهم من أيدينا، وهانحن أولاء قد دمرنا حصونهم بفضل الله، وهانحن أولاء ندخل حصـونهم مرفـوعي الرأس والكرامة، ولا شـعوريا وجدت نفسي انطق وأنا ادخل هذا الحصـن "الحمـد لله.. والله اكبر". (٣)

بعد أن زرت هذا الحصن أخذت أتجول في ميدان المعركـة، فوقع بصري على منظر حزين، منظر أربع دبابات مصرية محترقة يواجه بعضها بعضـا، على مسافة تقل عن ٥٠٠ متر، لقـد دمرت بعضـها بعضـا خطأ، ويظهر من برج إحداها رجل متفحم يشير بيده إلى الدبابات التـي في مواجهته. إن مثل هذه الحـوادث تحدث بكثرة في الحرب، ولا يمكن تجنبها بتاتا، وإن كـان من الممكن الإقلال منها، والشـعور بالذنب الذي يستولي على الرجال الذين يقتلون زملائهم خطا خلال الحرب قد يحولهم إلى حطام، ما لم يجر علاجهم علاجا نفسيا ومساعدتهم على التخلص من تأنيب الضمير الذي يلازمهم. لقد سبق أن قلت إن فرق المشاة كانـت تقـوم بتوسـيع رؤوس الكباري وسد الثغرات التي بينها. وفي فجر يوم ٨ من أكتوبر كانت فصيلة دبابات مـن الفرقـة الثانية مشاة تتحرك جنوبا، بينما كانت فصيلة دبابات أخرى مـن الفرقـة ١٦ مشـاة تتحـرك شمـالا، بهدف التلاقي وإكـمال حـصـار موقع العدو في الإسماعيلية شـرق (٤) " وبعـد أن عبرت الدبابات الثـلاث المتقدمـة شمالا أحـد التلال فوجئت بالدبابات الثلاثة الأخرى المتقدمة جنوبا. كـان وقع المفاجأة عنيفا على الطرفين، وتصرف كل منهما بما تمليه الغريزة في ميـدان القتـال، فأطلقت كل فصيلة النار على الأخـرى، وكانت النتيجة تدمير دبابتين من كل فصيلة من الطلقة الأولى. لم يطلق سوى أربع طلقات وكانت خسائرنا أربع دبابات و أربعة أطقم. لقد وقفت خاشعا أمام دباباتنا المحطمة، لكنني لم أستطع أن اكتم شعورا داخليا بـالفرحة لمستوى الجنـدي المصري، من حيث الروح القتالية ومستوى التدريبي مهما كانت الأسباب لهذا الحادث المحـزن فإنه يشهد لأصحابه بأن المفاجئة لم تشل تفكيرهم وانهم أطلقوا نيرانهم فـي وقـت واحـد، وان تسديدهم كان دقيقا للغاية.

عند وصولي إلى قطاع الفرقة السابعة مشاة وجدت الطريق المؤدي للكوبري مزدحما، مما دفعني إلى الترجل والسير بضع مئات من الأمتار للوصول إلى الكوبري، وهناك وجدت قائد الفرقة العميد بدوي يقف بجوار الكوبري، عبرنا الكوبري سيرا على الأقدام حيث ركبنا عربة قائد الفرقة التي كانت تنتظره شرق القناة وأخذنا نقوم بجولة على القوات داخل راس كوبري الفرقه لم تكن الأمور قد استقرت تماما في قطاع الفرقة فقد عثرنا على ملازم ومعه ثلاث دبابات في مكان منعزل دون أن يعرف مكان وحدته الأم. كان الموقف الإداري ليس جيدا، فقد شاهدت بعض الجنود وهم يعبرون إلى الشاطئ الغربي، ومعهم صفائح فارغة لملئها بالمياه [٥].

لقد كان اكثر ما أزعجني خلال تلك الزيارة هو موقف الكباري، لقد بلغت خسائرنا ما يعادل في مجموعه ثلاثة كباري ثقيلة، وقد كان ذلك يمثل حوالي ٢٥% من مجموع الكباري التي بدأنا بها الحرب قد يبدو هذا الرقم مقبولا بالنسبة لعملية عبور بهذا الحجم، لكنني كنت أفكر فيما قد يحدث بعد أسابيع أو اشهر، ماذا يمكن أن يحدث لو أن العدو ركز مجهوده الجوي ومدفعيته البعيدة المدى على الكباري سوف نسقط له العديد من طائراته ما في ذلك من شك لكن في الوقت نفسه سوف يتمكن من تدمير عدد إضافي من الكباري، ويخلق لنا موقفا صعبا، وهنا برزت في ذهني فكرة بناء كباري صماء من الرمل والحجارة بدلا من الكباري العائمة التي نستخدمها، إن مثل هذه الكباري لا تستطيع الطائرات أن تدمرها بسهولة، إننا نستطيع دائما أن نصلح الحفر التي تحدثها قنابل الطائرات المغيرة في هذه الكباري، بأن نردم تلك الحفر بمزيد من الرمل والحجارة فكرت مليا في هذه الفكرة وأخذت اقلبها بيني وبين نفسي في أثناء عودتي من الفرقة السابعة، متجها إلى قيادة الجيش الثالث. وفيما يلي الحوار الذي دار بيني وبين نفسي، وكأننا شخصان يتحدثان:

أ-أنها فكرة جيدة لكن هل من الممكن تنفيذها من الناحية الهندسية؟

ب- اعتقد أن ذلك ممكن. أنها لن تكون اصعب من السد العالي.

أ- إن بناء السد العالي استغرق ١٠ سنوات، فهل تريد أن ننتظر عشر سنوات؟

ب- بالتأكيد لا.. أني أريد أن تكون جاهزة خلال أسبوعين ، أو ثلاثة، أو أربعة على الأكثر. إني لا أريدها سدا مستديما مثل السد العالي. إني أريدها سدا مؤقتا. إني أتصور أن نقوم بردم جزء من القناة، بإلقاء الرمل والحجارة في المجرى المائي، ثم نمهد الجزء العلوي لكي يتحمل مرور الدبابات والنقل الثقيل، لا خرسانة ولا حديد ولا شيء من هذا القبيل، وبمجرد انتهاء الحرب يتم رفعها، وتطهير مجرى القناة من بقاياها.

أ- اسأل المهندسين. إنهم هم الذين يستطيعون أن يقولوا إذا كانت مثل هذه الفكرة ممكنة أم لا.
ب- بالتأكيد.. سوف اسأل المهندسين، بل سوف أسأل اكثر من مهندس، لأن المهندسين كثيرا ما تختلف آراءوهم.

لم ارغب في الانتظار حتى عودتي إلى المركز ١٠، لكي ابحث مع مدير المهندسين فكرتي عن بناء كباري صماء فوق القناة وصممت أن أستشير أول مهندس أقابله، وفي أثناء وجودي في قيادة الجيش الثالث استدعيت رئيس المهندسين بالجيش، وانتحيت به جانبا، حيث أطلعته على الفكرة، وسألته عن رأيه من الناحية الفنية. أجاب دون تردد بان ذلك ممكن من الناحية الهندسية. وعندما سألته عن الوقت اللازم لإنشاء٣ كباري من هذا النوع. أجاب قائلا: "لكي أجيب عن هذا السؤال هل لي أن أعرف أولا من الذي سيقوم بإنشاء هذه الكباري، وهل سيتم ذلك بإمكانات القوات المسلحة وحدها، أم أن ذلك سوف يتم بإمكانات الدولة كلها؟ ". قلت له إنه بمجرد أن يتخذ القرار بخصوص هذا الموضوع فسوف توضع إمكانات الدولة في خدمة المشروع. فأجاب قائلا: "في هذه الحالة يمكن بناء هذه الكباري الثلاثة في إسبوع"، "إسبوع؟ الست تغالي في هذا التقدير؟" صرخت في وجهه صراخا مفعما بالدهشة والفرح. لكنه عاد يؤكد لي مرة أخرى بأن هذا ممكن. وأضاف قائلا: إنها عملية بسيطة جدا، إننا سوف نحتاج فقط إلى بولدوزرات، أما الرمال التي سوف تردم بها القناة فإنها هناك في مكان العمل، ولن نحتاج إلى نقلها".

بعد عودتي من الجبهة إلى المركز ١٠ في نهاية ذلك اليوم، أخبرت الوزير بالفكرة، لكنه كان مترددا للغاية. أوضحت له خطورة الموقف وما يمكن أن يحدث لو أن خسائرنا في الكباري اسمترت بهذا المعدل، فاضطر في النهاية أن يقول انه سيخطر الرئيس فيما بعد. لم أرغب في أن أضيع وقتي واقف ساكنا إلى أن يأذن أو لا يأذن الرئيس لي بذلك، وقررت أن اتخذ بعض الخطوات الإيجابية في هذا الاتجاه بحثت الفكرة مع اللواء جمال على مدير المهندسين، فنصح بأن نناقش الموضوع كله مع كل من الدكتور بدران وزير الإصلاح الزراعي، والمهندس مشهور احمد مشهور رئيس هيئة قناة السويس، والمهندس عثمان احمد عثمان مدير شركة المقاولين العرب وفى الساعة ٢١٠٠ من اليوم نفسه كان جميعهم ومعهم اللواء جمال علي في مكتبي في المركز ١٠ لبحث هذا الموضوع. شرحت الأسباب التي دفعتني إلى ذلك وسألتهم العون والمشورة كان رد الفعل لدى المهندس عثمان احمد عثمان سريعا ومؤيدا، ومد يده إلى مصافحا وهو يقول: "سيادة الفريق.. أهنئك على هذه الفكرة، لقد فكرت فيها أنا شخصيا وكنت أفكر في أن أتقدم بها إلى القوات المسلحة، إنها فكرة رائعة ويمكن تنفيذها بسهولة. آما بخصوص

الوقت اللازم لإتمام هذه الكباري فأني احتاج إلى بعض الوقت لإنجاز الحسابات اللازمة لـــذلك".
أما فيما يتعلق بالمهندس مشهور أحمد مشهور فقد أصيب بدهشة وخيبة أمل كبيرتين بمـــا ســـمع مني، وعلق قائلا: "كيف تفكر في ردم القناة ، علما بان الرئيس اتصل بي اليوم وأخبرني بان اعد العدة والخطة لتطهير القناة، وإعادة فتحها للملاحة؟"[٦] قلت له: " إنني لا اردم القناة أنني أريد أن ابني عليها الكباري التي تحقق لنا النصر، ثم أننا لن نبدأ العمل في هذا المشروع إلا بعد الحصول على تصديق رئيس الجمهورية وسوف يقوم وزير الحربية بالاتصال به وطلب الإذن منه بـــذلك" قام المهندس عثمان احمد عثمان بطمأنة المهندس مشهور، وقال له انه يســـتطيع أن يرفـــع هـــذه الكباري من مجرى القناة في خلال أيام قليلة بعد انتهاء الحرب وفى نهاية المؤتمر اتفقنا على أن يتولى المهندس عثمان احمد عثمان تنفيذ المشروع، على أن تضع هيئه قنـــاة الســـويس ووزارة الإصلاح الزراعي إمكاناتها جميعها في خدمته.
لقد كانت الساعة ٢٣٠٠ عندما خرج الرجال الأربعة من مكتبي في طريقهم إلى مكتـــب عثمـــان احمد عثمان، لإجراء الدراسات الخاصة بالمشروع.

وفي مساء٩ من أكتوبر كانت مجموعة العمل قد انتهت من دراسة المشـــروع، وتقـــدم المهندس عثمان احمد عثمان بتقريره. الذي كان يشمل النقاط التالية:

١- انه من الصعوبة بمكان إنشاء كوبري من هذا النوع في الشط أو في أي مكـــان فـــي قطـــاع الجيش الثالث، حيث أن سرعة تيار المياه في هذا القطاع تجعل إنشاء كوبري أصـــم فـــي هـــذه المناطق عملية باهظة التكاليف.

٢- إن منطقة الدفرسوار والفردان والقنطرة هي أفضل الأمكنة لإنشاء هـــذه الكبـــاري. وتعتبـــر الدفرسوار أفضلها جميـــعا، حيث أن سرعة التيار في هذه المنطقة تصل إلى الصفر تقريبا.

٣- بمجرد إصدار الأمر بالبدء في التنفيذ فإنه يحتاج إلى سبعة أيام، لحشد ونقل المعـــدات إلـــى مناطق العمل، ثم يحتاج إلى ٩ أيام أخرى لإنجاز العمل (المجموع ١٦ يوما).

٤- إن إنجاز المشروع في الوقت المذكور يعتمد علـــى أن يقـــوم المقـــاولون العـــرب بســـحب البلدوزرات والمعدات الميكانيكية التي تعمل في مشاريع لهم في ليبيا، وهم يلتمســـون أن نتصـــل بالسلطات الليبية لاستئذانها في ذلك.

حاولت الضغط مرة أخرى للحصول على موافقة الرئيس، وفي النهاية جاءت موافـــقته مساء يوم ١٠ من أكتوبر وشرعت فورا في اتخاذ الخطوات التنفيذية، لكن نجاح العدو في اختراق مواقعنـــا عند الدفرسوار يوم ١٦ من أكتوبر سبب إسقاط مشروع بناء الكوبري في تلك المنطقة.

استمر العمل في بناء كوبري في منطقة الفردان، وآخر في منطقة القنطرة وبعد سلسلة من المتاعب والمشكلات الهندسية تم بناء الأول في الأول من ديسمبر، والآخر في ٩ من ديسمبر ٧٣ (٧). والغريب حقا.. أن يتبنى العدو الفكرة نفسها التي جالت بخاطري، وان يقوم ببناء كوبري أصم في المكان نفسه الذي حددناه لذلك. وقد انتهى العدو من إنشاء هذا الكوبري في منطقة الدفرسوار، وافتتحه في ٧ من ديسمبر ١٩٧٣.

فشل الهجمات المضادة التي قام بها العدو:

نعود مرة أخرى إلى هجوم العدو المضاد الذي كنا نتوقعه يوم ٨ من أكتوبر، فقد كنا نتوقع أن يقوم باستغلال حرية المناورة التي يتمتع بها، ويقوم بحشد دباباته في اتجاه أحد القطاعات ويوجه له ضربة قوية تمكنه من الحصول على نتائج حاسمة. لكننا فوجئنا بأنه يتصرف عكس ما توقعناه تماما، فقد استخدم دباباته في توجيه ضربات متفرقة، وفي عدة اتجاهات مما ترتب عليه فشل هذه الهجمات جميعا. ففي صباح يوم ٨ من أكتوبر هاجم العدو الفرقة ١٨ مشاة بأحد ألويته المدرعة في اتجاه القنطرة، وفي الوقت نفسه هاجم لواء مدرع آخر الفرقة الثانية مشاة في اتجاه الفردان، وقد تمكنت قواتنا من صد الهجومين.

وبعد ظهر اليوم نفسه قام العدو بهجوم آخر أشرك فيه ثلاثة ألوية مدرعة، اثنان منهما كانا يهاجمان الفرقة الثانية مشاة في اتجاه الفردان، بينما اللواء الثالث يهاجم الفرقة ١٦ مشاة في اتجاه الإسماعيلية، وقد نجحت الفرقة الثانية مشاة في إبادة أحد الألوية إبادة تامة، بينما انسحب اللواء الآخر بعد أن تكبد خسائر كبيرة. كذلك نجحت الفرقة ١٦ مشاة في صد هجوم العدو، وإرغامه على الانسحاب.

وفي اليوم التالي (الثلاثاء٩ من أكتوبر) عاود العدو هجومه مرة أخرى واستخدم هذه المرة لواءين مدرعين ضد الفرقة ١٦ مشاة ولكن العدو فشل مرة أخرى في إحراز أي نجاح، ولم يقم العدو بعد هذا التاريخ بأية هجمات قوية. وبالتالي يمكن القول إن هجومه المضاد الرئيسي قد تم صده يومي ٨ و ٩ من أكتوبر.

في يوم ١٠ من أكتوبر حوالي الساعة ١٦٤٥ أبلغتنا الفرقة الثانية مشاة بأن العدو قد هاجم جناحها الأيسر بقوة تقدر بكتيبة دبابات مدعمة بعناصر من المشاة في عربات مدرعة وان هذه القوة تمكنت من اختراق مواقع الفرقة إلى عمق حوالي كيلومترين، ولكن هذه القوة أرغمت على الانسحاب خلال الليل. (٨)

الطيران المعادى يشتت لواء المشاة الأول:

في خلال يوم ١٠ من أكتوبر قامت عناصر من لواء المشاة الأول بالتقدم جنوبا واحتلت مواقــع عيون موسى [٩]، وفي خلال ليلة ١١/١٠ من أكتوبر تلقينا إشارة خطيرة أثارت القلق والانزعاج. كانت الإشـــارة تقول "لقد فقد لواء المشـــاة الأول ٩٠% من رجالـــه وأسلحتـــه ومعداته ". كانت المعلومات التي تصل إلينا من الجــيش الثالث ومن الفرقة ١٩ مشاة تدل على فقــدان الاتصـــال تماما بين اللواء الأول والقيادات جميعها، وبالتالي فـــلا أحد يعرف على وجه التحديد ماذا حــدث لهذا اللواء. أرسلت ضابط اتصــــال برتبة كبيرة إلى الجبهة بمهمة جمع الحقائق عن هذا اللواء لقد كان اللواء الأول مكلفا بالتحرك ليلا إلى الجنوب واحتلال منطقة سدر، ولكن قائد اللواء فكر فـــي أن يبدأ تحركه قبل غروب الشمس ببضع ساعات وقد كانت القوات الجوية الإسرائيليـــة تراقبـــة عن كثب فتركته يتقدم جنوبا إلى أن خرج تماما من تحت مظلة دفاعنا الجوي وأصبح يعبر أرضا ضيقة لا تسمح له بالانتشار إذا ما هوجم من الجو، وهنا انطلقت القوات الجوية الإسرائيلية فـــي هجومها الشرس على اللواء الذي لم تكن لديه الوسيلة الفعالة للدفاع ضد هذا الهجـــوم. إن هـــذه المعركة تعتبر مثالا لما يمكن أن تحققه القوات الجوية المجـــهزة بالصواريخ جـــو-أرض ضـــد قوة برية لا تملك دفاعا جويا مؤثرا وخـــفيف الحركة. لم تشترك أية قوات أرضية معاديـــة فـــي المعركة، ومع ذلك فقد نجح طيران العدو في تشتيت اللواء [١٠]. وقد أمكن خلال الأيـــام التاليـــة جمع الكثيرين من أفراده وإنقاذ الكثير من

معداته مما جعل خسائره اقل بكثير من رقم ٩٠% الذي جاء في أول بلاغ ولكن الحقيقة الثابتـــة هي أن اللواء خرج من المعركة وفقد الاعتبار كقوة مقاتلة لعدة أيام إلى أن تمت إعـــادة تنظيمـــه وتعويض خسائره.

زيارتي الثانية للجبهة:

لقد كان واضحا من هجمات العدو المضادة يومي ٨ و ٩ من أكتوبر أن العدو يركز هجومه على اتجاه القطاع الأوسط محور الطاسه -الاسماعيليه الذي يقع في حدود الجيش الثاني. لذلك قـــررت أن ازور الجيش الثاني مرة أخرى . في صباح يوم الخميس ١١ من أكتوبر تحركت إلى الجبهـــة للمرة الثانية فوجدت الموقف فيها مطمئنا وكنا جميعا مقتنعين بأن قواتنا قادرة على صد أي هجوم مدرع آخر ولتعزيز دفعاتنا ضد أية هجمات أخرى قررت صرف ١٠٠٠٠ لغم مضاد للـــدبابات فورا لتعزيز الدفاع.

لقد عدت من تلك الزيارة الثانية وأنا اكثر اقتناعا بقدرتنا على صد أي هجوم مضاد آخر، ولكـــن اكتشفت نقطة ضعف خطيرة لم تكن قد ظهرت في أثناء رحلتي الأولى تلك هي مـــدى الســـيطرة

على الكباري ووسائل العبور المختلفة. لقد كانت تعليماتي خلال مرحلة العبور تقضى بان يكـون رئيس أركان كل فرقة هو المسئول الأول عن تنظيم العبور والسيطرة عليه ومن هنا تمت عملية العبور بنظام وتحت سيطرة حازمة واستمر ذلك خلال فترة زيارتي الأولى. أما بعد ذلك فقد ترك رؤساء أركان الفرق هذه المسئولية لبعض صغار الضباط وضباط الصـف، ومـن هنـا بـدأت الفوضى تظهر في منطقة الكباري لم يكن من الممكن أن نحرم فرق المشاة من رؤساء أركانهـا بصفة دائمة لكي يشرفوا على تنظيم المعابر، ولكن لم يكن أيضا من المقبـول أن نتـرك هـذه المسئولية في أيدي صغار الضباط. لذلك قررت أن أقوم بتشكيل قيادة خاصة لهذه المهمـة، وقـد عينت اللواء صالح أمين قائدا للمجموعة التي تعمل في خدمة الجيش الثاني، والعميد منير سـامي قائدا للمجموعة التي تعمل في الجيش الثالث، ومع كل منهما عددا من الضباط من ذوي الرتـب الكبيرة.

هوامش الفصل الثاني والثلاثين

(١)الدفرسوار تدخل ضمن مسئولية الجيش الثاني.

(٢) يحتاج الجندي الذي يقاتل في الأجواء الحارة إلى ٥ لترات مياه يوميا وقد قمنا بتخصيص لترين ونصف اللتر فقط لكل جندي.

(٣) عندما زار الجنرال بوفر الفرنسي ميدان المعركة بعد وقف إطلاق النار رافقته في زيارته، وعندما شاهد هذا الحصن فغر فاه مستغربا وقال "كيف استطعتم أن تتغلبوا على هذا الحصن؟ " وعندما شاهد حفرة ضخمة من حفر المدفعية في فناء الحصن سأل مستغربا "حفرة أي مدفع هذه؟، فقلت له إنها حفرة هاون ٢٤٠ ملليمتر.

(٤) هو الموقع نفسه الذي زرته، ويطلق العدو عليه اسم بركان PURKAN ويتحكم في طريق الإسماعيلية الطاسة.

(٥) يلاحظ أن استخدام كبارى الفرقة السابعة لعبور الفرقة ١٩ مشاة وإعاشتها قد ألقىّ عبئا ثقيلا على تلك الكباري.

(٦) إن تطور الأحداث في الأعوام ٧٤- ٧٩، تجعلنا نتوقف لدراسة ماذا كان يقصد السادات يوم ٨ من أكتوبر عندما طلب إلى المهندس مشهور أحمد مشهور أن يضع الخطة لتطهير القناة وإعادة فتحها للملاحة .

(٧) لقد سبب تيار المياه في القناة متاعب ضخمة عند بناء الكباري الصماء، فقد كنا كلما اقتربنا من منتصف القناة زادت سرعة اندفاع المياه وأخذت تلتهم ما نقذف به من رمال في وسط المجرى- وفي النهاية اقتنع المهندسون المصريون بضرورة أن نترك فتحة لمرور المياه عرضها

حوالي ٤٠ أو ٥٠ مترا. وهكذا تطورت فكرتي في النهاية إلى تضييق مجرى القناة إلـــى ٤٠ أو ٥٠ مترا وقد تم بناء كوبري عائم فوق هذا المجرى.

(٨)من المعتقد أن هذه القوة المعادية كانت مكلفة بواجب الاستطلاع بقوة.

(٩)كانت عيون موسى مازالت تقع تحت مظلة شبكة دفاعنا الجوي SAM

(١٠) إن هذا يوضح لنا عدم فعالية القوات المصرية التي تحتل سيناء طبقـا لاتفاقيـة الصـلح المصرية حيث إن تلك المـعاهدة تحرم على مصر إقامة أي دفاع صاروخي مضـاد للطـائرات SAM في سيناء.

الفصل الثالث والثلاثون

ثغرة الدفرسوار

القرار السياسي الخاطئ:

بعد عودتي من الجبهة يوم الخميس ١١ من أكتوبر فاتحني الوزير في موضوع تطوير هجومنـا نحو ألمضائق. ولكني عارضت الفكرة للأسباب نفسها التي سبق أن ذكرتها سابقا [١]. وأضـفت قائلا "مازالت القوات الجوية الإسرائيلية قوية وتشكل تهديدا خطيرا لأية قوات برية تتحرك فـي العراء دون غطاء جوي. يجب أن نأخذ درسا من التجربة القاسية التي مر بها اللواء الأول مشـاة أمس". وبدا لي وكأنه اقتنع بهذا واغلق الموضوع. ولكنه عاد وفاتحني في الموضوع مرة أخرى في صباح اليوم التالي مدعيا هذه المرة أن الهدف من هجومنا هو تخفيف الضغط علـى الجبهـة السورية. عارضت الفكرة مرة أخرى على أساس أن هجومنا لن ينجح ولن يخفف الضغط علـى الجبهة السورية وأضفت قائلا: " إن لدى العدو ٨ ألوية مدرعة أمامنا ولن يحتاج إلى سحب قوات إضافية من الجبهة السورية حيث أن هذه القوات قادرة على صد أي هجوم نقوم به. لـيس لـدينا دفاع جوي متحرك إلا أعدادا قليلة جدا من سام ٦ لا تكفي لحماية قواتنا. وقواتنا الجوية ضـعيفة ولا تستطيع تحدى القوات الجوية الإسرائيلية في معارك جوية وبالتالي فإن قواتنا البريـة سـتقع فريسة للقوات الجوية الإسرائيلية بمجرد خروجها من تحت مظلة الدفاع الجوي أي بعد حوالي ١٥ كيلومترا شرق القناة. إذا نحن قمنا بهذه العملية فإننا سوف ندمر قواتنا دون أن نقدم أية مسـاعدة لتخفيف الضغط على الجبهة السورية". وحوالي الظهر تطرق الوزير لهذا الموضوع للمرة الثالثة خلال ٢٤ ساعة. وقال هذه المرة: "القرار السياسي يحتم علينا ضرورة تطـوير الهجـوم نحـو المضائق، ويجب أن يبدا ذلك صباح غد ١٣ من أكتوبر!!". وحـوالي السـاعة ١٣٣٠ كانـت

التعليمات الخاصة بتطوير الهجوم قد تم أعدادها وتحرك اللواء غنيم إلى الجيش الثاني واللواء طه المجدوب إلى الجيش الثالث حاملين معهم تلك الأوامر إلى قائدي الجيشين.

وحوالي الساعة ١٥٣٠ كان اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني يطلبني على الهاتف وقد قال بغضب "سيادة الفريق أنا مستقيل. أنا لا أستطيع أن أقوم بتنفيذ التعليمات التي أرسلتموها مع اللواء غنيم"، ولم يمض بضع دقائق حتى كان اللواء عبد المنعم واصل هو الآخر على الخط الهاتفي وأبدى معارضة شديدة لتلك التعليمات التي وصلته مع اللواء طه المجدوب. وفي محادثتي مع كل من اللواءين سعد مأمون وعبد المنعم واصل لم أخف عنهما أنني أنا أيضا قد عارضت هذه التعليمات ولكني أجبرت عليها. فاتحت الوزير مرة أخرى في الموضوع وتقرر استدعاء سعد مأمون وعبد المنعم واصل لحضور مؤتمر بالقيادة في الساعة ١٨٠٠ من اليوم نفسه، وفي خلال هذا المؤتمر الذي امتد حتى الساعة ٢٣٠٠ كرر كل منا وجهة نظره مرارا وتكرارا، ولكن كان هناك إصرار من الوزير على أن القرار سياسي ويجب أن نلتزم به. وكل ما أمكن عمله هو تأجيل الهجوم إلى فجر يوم ١٤ بدلا من فجر يوم ١٣ كما كان محددا.

لقد كان هذا القرار هو أول غلطة كبيرة ترتكبها القيادة المصرية خلال الحرب وقد جرتنا هذه الغلطة إلى سلسلة أخرى من الأخطاء التي كان لها اثر كبير على سير الحرب ونتائجها، ولكي نطور هجومنا للشرق مع المحافظة على رؤوس الكباري قوية ومؤمنة كان لابد لنا من أن ندفع الأنساق الثانية إلى المعركة. وفى خلال ليلة ١٣/١٢ وليلة ١٤/١٣ عبرت الفرقة ٢١ مدرعة من خلال الفرقة ١٦ مشاه بينما عبرت الفرقة الرابعة المدرعة عدا لواء مدرع من خلال رأس كوبري الجيش الثالث.

كانت خطتنا في الهجوم تشمل استخدام ٤ ألوية مدرعة ولواء مشاة ميكانيكيا في أربعة اتجاهات مختلفة طبقا لما يلي:

- لواء مدرع في اتجاه ممر ممتلا (القطاع الجنوبي).
- لواء مشاة ميكانيكي في اتجاه ممر الجدي (القطاع الجنوبي).
- لواءآن مدرعان في اتجاه الطاسة (القطاع الأوسط).
- لواء مدرع في اتجاه بالوظة (القطاع الشمالي).

لقد خسر العدو خلال قتال يومي ٨ و ٩ من أكتوبر حوالي ٢٦٠ دبابة وكان خلال هذين اليومين يستخدم دباباته في اقتحام مواقع المشاة بالأسلوب القديم نفسه الذي كان يعتمد على سرعة التحرك وأحداث الصدمة النفسية لدى جندي المشاة نتيجة اقتحام المدرعات. ولكنه سرعان ما

اكتشف أن المشاة المصريين بما لديهم من أسلحة مضادة للدبابات، وبما يتمتعون بـــه مـــن روح معنوية عالية قادرون على سحق المدرعات التي تستخدم هذا الأسلوب.

واعتبارا من يوم ١٠ من أكتوبر بدا يستخدم دباباته بأسلوب حذر يعتمد على التحــرك البطــيء والاستفادة من الأرض والسواتر الطبيعية، ونتيجة لذلك انخفضت خسائره في الدبابات انخفاضـــا ملحوظا. وقام العدو بتعويض الجزء الأكبر من خسائره في الدبابات بحيث وصل عدد الـــدبابات التي في ألويته المدرعة الثمانية التي أمامنا يوم ١٣ من أكتوبر إلى ٩٠٠ دبابة .

كان علينا يوم ١٤ من أكتوبر أن نهاجم ٩٠٠ دبابة معادية في المكان الذي يختاره العدو لهذا اللقاء وتحت سيطرة جوية معادية بقوة ٤٠٠ دبابة مصرية فقط هل كان هذا القـــرار نتيجـــة الجهل أم المقامرة أم الخيانة؟ مازال هناك كثير من الغموض يحيط بهذا الموضوع. لقد نجح العدو في استدراج ألويتنا المهاجمة إلى مناطق قتال اختارها بعناية، ونجح في تدمير معظم دباباتنا. لقد فقدنا في هذا اليوم الأسود ٢٥٠ دبابة، وهو رقم يزيد على مجموع خسائرنا في الأيـــام الثمانيـــة الأولى للحرب وحول ظهر يوم ١٤ انسحـــبت قواتنا مرة أخرى إلى داخل رؤوس الكباري شرق القناة [٢].

في الساعة ١١٠٠ من يوم ١٤ من أكتوبر حاولت الاتصال هاتفيا باللواء سعد مأمون ولكـــن قيل لي انه في الراحة، لم يكن هذا بالأمر العادي إذ انه لا يجوز للقائد أن يكون في الراحة بينمـــا تكون قواته مشتبكة في معركة كبيرة ولكني تصورت أنه لابد أن يكون في غاية الإرهـــاق لكـــي يتصرف مثل هذا التصرف.

وفي حوالي الساعة ١٣٠٠ وصل الرئيس إلى المركز ١٠ بعد أن اخبره الوزير بـــالموقف. أمرني الرئيس بأن أتحرك إلى الجبهة لرفع معنويات الجنود وفى الساعة ١٤٠٠ كنت في طريقي إلى الجبهة للمرة الثالثة، وفي الساعة ١٦٠٠ كنت في مركز قيادة الجيش الثاني. لم يكن اللـــواء سعد مأمون في غرفة العمليات وعندما سالت عنه عرفت الأسباب الحقيقية لأول مرة. لقـــد كـــان لأخبار هزيمة قواته صباح اليوم ذاته اثر كبير عليه فانهار، وكان معاونوه يعتقدون أنه بعد عـــدة ساعات من النوم سوف يستعيد نشاطه ولذلك حجبوا هذه المعلومات عن القيادة العامة. ذهبت إليه في غرفته حيث كان مستلقيا فـــي فراشه ويجلس بجواره الطبيب الذي يشرف على علاجه. حاول أن يجلس في سريره عند دخولي عليه، ولكن الطبيب منعه من ذلك، وفي حديث خاص بيني وبين الطبيب خارج غرفته اخبرني أن حالته تستدعي رعاية خـــاصة لا يمكن توافرها فـــي المنطقـــة الأمامية وانه يجب إخلاؤه إلى الخلف. وعندما أبلغت اللواء سعد مأمون بأننا سنخليه إلى مستشفى

المعادى انزعج كثيرا ورجاني أن لا أفعل ذلك مدعيا انه يشعر بأنه يسترد صحته بسرعة وانـــه يستطيع أن يمارس مسئولياته فورا. وأمام إصراره قررت أن نؤجل إخلاؤه إلى القاهرة إلى صباح اليوم التالي انتظارا لما قد تسفر عنه حالته. وقد اتفقت مع الطبيب أن يتصل بي صـــباح اليـــوم التالي ليطلعني على حالته [٣].

بعد أن غادرت غرفة اللواء سعد مأمون اجتمعت مع ضباط قيادة الجيش الثاني، وبحثت معهم الموقف كما قمت بالاتصال بقادة الفرق جميعهم وأبلغتهم بتحيات الرئيس وتشجيعه. صـــممت أن ازور الفرقة المدرعة ٢١، حيث أنها كانت التشكيل الذي تحمل العبء الأكبر من المعركة صباح هذا اليوم. ولكن العميد عرابي قائد الفرقة نصحني بألا افعل ذلك، حيث أن الظلام قد بـــدا يهـــبط وسوف يكون التحرك ليلا في ميدان المعركة عملية بالغة الخطورة وعلى الرغم مـــن تحـــذيرات عرابـــي صممت على الذهاب إليه، وبدأ تحركـــي الساعة ١٧٠٠ في اتجاه معـــابر الفرقـــة ١٦ مشاة كان أحد الكـــباري مدمرا فتحركت إلى الكوبري الآخر فوجدته مرفوعا من مكانه ليتفـــادى التدمير بواسطة مدفعية العدو التي كانت مستمرة في الضرب. لقد خيم الظـــلام تمامـــا واصـــبح التحرك بطيئا نتيجة احتياطات الأمن المفروضة على التحركات الليلية فقررت العودة مرة أخرى إلى قيادة الجيش الثاني. وأثناء العودة كـــانت منطقة الكوبري المدمر تقـــع تحت نيران المدفعيـــة فعبرنا المنطقة بسرعة عالية لنقلل فرصة التعرض إلى اقل وقت ممكن. لقد كنـــت أتحـــرك فـــي عربتين كنت اركب العربة الأولى وكان يركب العربة الثانية جماعة من الحراس. وقـــد مرقـــت عربتي من المنطقة المضروبة بالمدفعية دون أن تصاب بأذى. أما العربة التاليـــة فقـــد أصـــيبت ببعض الشظايا وأصيب أحد أفراد الحراسة إصابة تستلزم إخلاءه إلى المستشفى.
وأخيرا وصلت إلى قيادة الجيش الثاني مرة أخرى حوالي الساعة ٢٠٠٠، حيث اتصـــلت مـــرة أخرى بالعميد عرابي وأخطرته بالموقف وبعد أن أخلينا الجندي المصاب إلى أحـــد مستشـــفيات الجيش الثاني تحركت عائدا إلى المركز ١٠ فوصلته حوالي الساعة ٢٣٠٠، حيث أبلغت الوزير بالموقف. وحوالي منتصف الليل اتصل بي الرئيس وسألني عن الموقف فأعدت على مسامعه مـــا رايته كله وما فعلته كله.

لقد كثر الكلام وتعددت الآراء حول الأسباب التي منعت المصريين من تطوير هجومهم

إلى الشرق فور نجاحهم في عملية العبور، وقد انتشرت شائعات كثيرة تقول بأنني كنـــت من أنصـــار الاندفاع الســـريع نحو الشرق سواء يوم ١٤ من أكتوبر أم قبل ذلك بكثيـــر، وقـــد امتنعت القوات المسلحة عن التعليق على هذه النقطة بالتأييد أو بـــالنفي ســـواء علـــى المســـتوى

الإعلامي أم على المستوى العلمي [٤]، وهكذا بدأت وسائل الأعلام العالمية تؤكد تلك الشـائعات. لقد وصفوني بأنني رجل مظللي قوي، عنيد هجومي، مقدام، الخ.. وانه لما يسعدني أن استمـع إلى هذا المديح ولكني لا أود أن نربط بين تلك الصفات الجميلة وبين قرار تطوير الحرب ضـد الشرق. إني على استعداد دائم لأن أضحي بحياتي في سبيل وطني ولكني لا أسـتطيع أن أقـامر بمستقبل بلادي لقد كنت دائما ضد فكرة تطوير الهجوم نحو الشرق سواء كان ذلك فـي مرحلـة التخطيط أم في مرحلة إدارة العمليات الحربية للأسباب الكثيرة التي سبق لي أن ذكرتهـا. وقـد أبديت رأيي هذا بصراحة تامة أمام كثيرين ممن ما يزالون أحياء يرزقون.

بماذا يبرر السادات خطاه؟:

أما بخصوص ادعاء السادات بأن هجومنا يوم من ١٤ أكتوبر كان يهدف إلى تخفيف الضـغط عن سوريا فهو أيضا ادعاء باطل، الهدف منه هو تسويغ الخطأ الذي ارتكبته القيـادة السياسـية المصرية، وذلك للأسباب التالية:

١- كان بعد القوات المصرية في جبهة قناة السويس عن قلب إسرائيل (حوالي٢٠٠ كيلـومتر من ارض سيناء المفتوحة) وكان تفوق القوات الجوية الإسرائيلية تفوقا ساحقا يجعل إسرائيل قادرة على احتواء الجبهة المصرية بالقليل من القوات مع حشد الجزء الأكبر من قواتها ضـد الجبهـة السورية وقد حذرت من هذا الموقف في خلال اجتماعي مع الهيئة الاستشارية العسكرية العربيـة (التي تتكون من رؤساء أركان حرب القوات المسلحة بالدول العربية)، وكذلك خلال اجتماعـات مجلس الدفاع المشترك في دورته الثانية عشرة في نوفمبر ١٩٧١، وقد قلت أن الجبهة المصرية لا تستطيـع أن تمنع إسرائيل من حسم المعركة ضد الجبهة الشرقية في خلال أسبوع واحـد [٥]، وان ما قلته عام ٧١ كان ما يزال قائما عام ٧٣، وسوف يستمر طالما كانت سـيناء محتلـة أو منزوعة السلاح وطالما بقيت القوات الجوية المصرية على ضعفها.

٢- لقد كان أمام الجبهة المصرية ٨ ألوية مدرعة، وقد كانت اكثر من كافية لصد أي هجـوم مصري في اتجاه الشرق. وبالتالي فإن قيامنا بالهجوم لن يرغم إسرائيل على سحب جـزء مـن قواتها من الجبهة السورية إلى الجبهة المصرية.

٣- لقد استقر الوضع في الجبهة السورية يوم ١٢ من أكتوبر، فقد وصلت العناصر المتقدمة مـن فرقتين عراقيتين (فرقة مدرعة+ فرقة مشاة ميكانيكيـة) إلى الجبهة السورية واشتركت في القتال يوم ١١. كذلك دفع الأردن لواءين مدرعين إلى الجبهة السورية، وقد وصل أولهما يوم ١٣ مـن أكتوبر، ووصل اللواء الآخر بعد ذلك بأيام. وهكذا فان موقف الجبهة السورية لم يكن بالصـورة

التي يحاول السادات أن يصورها لكي يجد لنفسه مخرجا من تبعات قراره السياسي الخاطئ.

٤- إذا كان دفع الفرقة المدرعة ٢١ والفرقة المدرعة الرابعة قد تم لتخفيف الضغط عن سوريا، فلماذا لم تسحب الفرقتان إلى الغرب بعد أن فشل الهجوم وصرف النظر نهائيا عن موضوع تطوير الهجوم نحو الشرق؟

أهمية الاحتفاظ باحتياطي من القوات

إن نجاح القوة المهاجمة في اختراق الخط الدفاعي للخصم والنفاذ إلى مؤخرته هو حلم كل قائد مهاجم، لأن الوصول إلى مؤخرة الخصم سوف تمكن المهاجم من تدمير النظام الإداري للقوات المدافعة وتدمير وسائل القيادة والسيطرة وعزل القوات المدافعة عن مناطق إعاشتها وبالتالي يجعل مهمة تدمير تلك القوات المحاصرة مسألة وقت فقط ويمكن للمدافع أن يمنع عدوه المهاجم من تحقيق هذا الهدف بطريقين: الاحتفاظ بقوة احتياطية، والمناورة بالقوات.

من المسلم به في العلم العسكري أنه لا يوجد ما يسمى بالخط الدفاعي الذي لا يمكن اختراقه. فأي خط دفاعي- مهما كانت تحصيناته وتجهيزاته- من الممكن اختراقه بواسطة الخصم الذي يملك التصميم والعزيمة على النصر مهما كان الثمن. لقد اخترق الألمان خط ماجينو الفرنسي في الحرب العالمية الثانية ١٩٤٠، وقد اخترق الحلفاء خط زيجفريد الألماني عام ١٩٤٥، وقد اخترق المصريون خط بارليف الإسرائيلي عام ١٩٧٣٠ إن أي خط دفاعي لابد أن تكون فيه بعض نقاط الضعف لأنه من المستحيل أن يكون المدافع قويا في كل مكان. وحيث إن المهاجم يتمتع بحرية اختيار المكان الذي يخترق فيه الخط الدفاعي لخصمه فإنه عادة ينتخب هذه النقاط، حيث تكون فرص نجاحه أفضل. ومن هنا كان من الواجب أن يحتفظ المدافع بقوة احتياطية خلف مواقعه تكون مستعدة لضرب أية قوات معادية تنجح في اختراق مواقعه، ويختلف حجمها تبعا لعوامل كثيرة، وتتراوح عادة ما بين الثلث والخمس بالنسبة لحجم القوات المدافعة. ولا يجوز أن يقل حجمها عن ٢٠% إلا في حالات الضرورة القصوى ولفترة قصيرة.

وبينما كنا نعد خططنا لعبور القناة فأننا لم نستبعد مطلقا أن يقوم العدو باختراق مواقعنا سواء في مراحل ما قبل العبور أم في أثنائه أو بعد نجاحه. بل تصورنا أيضا المناطق التي يحتمل أن يعبر منها. وحددنا ثلاث نقاط محتملة كانت الدفرسوار إحداها [٦] ووضعنا الخطط اللازمة لضرب هذه. الاختراقات فور حدوثهما وحددنا القوات التي تقوم بتنفيذها ودربنا تلك القوات على تنفيذ هذه الواجبات.

ولكي نستطيع أن نسحق أي اختراق في مراحله الأولى فقد حشدنا معظم دباباتنا في

المنطقة الأمامية. كان مجموع ما نملك من الدبابات عند بداية الحرب هو ١٧٠٠ دبابة حشدنا منها ١٣٥٠ في اتجاه القناة ووزعنا ١٠٠ أخرى في منطقة البحر الأحمر وأماكن أخرى متفرقة في مصر واحتفظنا بالباقي، وهو ٢٥٠ دبابة كاحتياطي استراتيجي [٧] ، وكان يدخل ضمن الاحتياطي الاستراتيجي اللواء المدرع المكلف بحراسة رئاسة الجمهورية وبه ١٢٠ دبابة، وقد كان طبقا للخطة أن يعبر الجيش الثاني والثالث بحوالي ١٠٢٠ دبابة، وان يتم الاحتفاظ ب ٣٣٠ دبابة غرب القناة بحوالي ٢٠ كيلو مترا، وكانت تلك الدبابات ضمن تشكيل الفرقتين المدرعتين ٢١ التي كانت تحمي ظهر الجيش الثاني والرابعة التي كانت تحمي ظهر الجيش الثالث [٨]. أن بقاء هاتين الفرقتين في أماكنهما غرب القناة كفيل بان يسحق أي اختراق يقوم به العدو على طول الجبهة.

كان قرار تطوير الهجوم الذي اتخذ مساء يوم ١٢ من أكتوبر، وما ترتب عليه من دفع الفرقتين المدرعتين ٢١ والرابعة عدا لواء مدرع، خطا كبيرا كما سبق أن بينته واعتبارا من فجر يوم ١٤ من أكتوبر لم يكن لدينا غرب القناة في منطقة الجيشين الثاني والثالث سوى لواء مدرع واحد.وهنا اختلت الموازين واصبح الموقف مثاليا لكي يقوم العدو بمحاولة لاختراق مواقعنا.

طائرة استطلاع أمريكية فوق مواقعنا:

في حوالي الساعة ١٣٣٠ يوم ١٣ من أكتوبر ظهرت طائرة استطلاع فوق منطقة القتال ولم تكتف بتغطية الجبهة بالكامل بل طارت فوق الدلتا قبل أن تخرج نهائيا من مجالنا الجوي دون أن تصاب بأي أذى كنت أراقب تحرك الطائرة على شاشة الدفاع الجوي في غرفة العمليات في المركز ١٠ وأتعجب كيف استطاعت أن تبقي في الجو طوال هذه المدة دون أن يتمكن رجال دفاعنا الجوي من إسقاطها حيث أنها كانت تطير فوق مناطق مكتظة بصواريخ SAM طلبت اللواء محمد علي فهمي هاتفيا وسألته عن السبب في عدم إسقاط هذه الطائرة فقال إنها تطير على ارتفاع خارج مدى صواريخنا. وقد عرفنا من ارتفاعها وسرعتها أنها لابد أن تكون الطائرة الأمريكية SR-71-A التي تطير على ارتفاع ٣٠ كيلومترا وبسرعة ٣ مآخ [٩]. كان معنى هذا أن إسرائيل أصبحت تعلم بموقف قواتنا شرق القناة وغربها على وجه اليقين وانه لم يعد هناك ما يمكن إخفاؤه على العدو، وانه يجب علينا أن نفترض أن إسرائيل تعرف موقعنا تماما.

لماذا رفضت القيادة السياسية سحب الفرقتين المدرعتين إلى الغرب؟

في صباح يوم ١٥ من أكتوبر اقترحت إعادة تجميع الفرقة ٢١ مدرعة والفرقة الرابعة المدرعة في غرب القناة حتى يمكننا أن نعيد الاتزان إلى موقعنا الدفاعي، ولكن الوزير عارض الاقتراح

على أساس أن سحب هذه القوات قد يؤثر على الروح المعنوية للجنود وقد يفسره العدو على انـــه علامة ضعف فيزيد من ضغطه على قواتنا، ويتحول الانسحاب إلى ذعر [١٠]. لم اكـــن لأوافـــق على هذا الرأي كنا نتكلم بلغتين مختلفتين ولا يستطيع أي منا أن يقتنع بما يقوله الآخر. كان هناك أيضا سبب أخر لعدم سحب القوات ولكنه كان سببا سياسيا. لقد كان مقررا أن يلقي السادات خطابا سياسيا مهما أمام مجلس الشعب المصري، وكان السادات يريد أن يسمع صوته لأمريكا و إسرائيل من موقع قوة [١١].

وفي خلال يوم ١٥ من أكتوبر قامت الطائرة SR-71-A برحلة استطلاعية أخرى فـــوق الجبهـــة والمنطقة الخلفية، وبذلك تحقق للعدو خلو المنطقة غرب القناة من الدبابات تقريبا. كان من الممكن أن تكون هذه الطلعة الاستطلاعية إنذارا للقيادة المصرية بأن العدو يمكنه أن يقوم باختراق الجبهة وهو مطمئن تماما، وانه يتحتم علينا أن نسحب الفرقة ٢١ مدرعة والفرقة ٤ مدرعة إلى غـــرب القناة ولكن هذا لم يحدث للأسف الشديد، لا جهلا أو إهمالا من القادة العسكريين ولكـــن مقـــامرة وغرورا من القيادة السياسية. لم يضع العدو الوقت وبدأ عملية اختراق مواقعنا خلال ليلة ١٦/١٥ من أكتوبر.

اختراق العدو ليلة ١٦/١٥ من أكتوبر:

على مستوى القيادة العامة للقوات المسلحة وصلتنا المعلومات الأولى عن اختراق العدو صـــباح يوم ١٦ من أكتوبر. كانت المعلومات مكتضة ولا تثير أي انزعاج. وكان البلاغ يقول لقد نجحت جماعات صغيرة من العدو في العبور إلى الضفة الغربية ويقوم الجيش باتخاذ الإجراءات اللازمة للقضاء عليها [١٢]. وعلى الرغم من هذه المعلومات المطمئنة فقد رفعت درجة اســتعداد اللـــواء المدرع ٢٣ الموجود في القاهرة وأصدرت إليه أمرا إنذاريا بأن يستعد للتحرك إلى الجبهـــة فـــي قطاع الجيش الثاني، وفي خلال نهار يوم ١٦ بدأت المعلومات تصل إلينا بأن عددا مـــن كتائـــب الصواريخ المضادة للطائرات قد هوجمت بواسطة دبابات العدو وكانت بعض هذه الكتائـــب تقـــع على عمق حوالي ١٥ كيلومترا غرب القناة لقد كان الموقف مائعا وعجزت قيـــادة الجيش عـــن تحديد حجم ومكان القوة المعادية. كانت دبابات العدو تظهر فجـــأة بقوة ٧-١٠ دبابات بالقرب من أحد مواقع تلك الكتائب، ثم تشـــتبك مع الموقع من مســـافة ١٥٠٠-٢٠٠٠ متر فتقوم بتدميره أو إسكاته، ثم تنسحب فجأة لتظهر في مكان آخر وهكذا. لم تكن كتائب الصواريخ المضادة للطائرات لديهما الأسلحة التي تستطيع أن ترد بها على مثل هذا الهجوم وبالتالي فإن دبابات العدو كانـــت تنســـحب بعد تنفيذ المهمة بها دون أن تتلقى أي عقاب [١٣].

الصدام بيني وبين الرئيس حول تصفية الثغرة:

عقد مؤتمر بالقيادة بعد ظهر يوم ١٦ لبحث الموقف واتفقت مع الوزير على أن نقوم بتوجيه ضربة قوية ضد العدو في منطقة الاختراق صباح يوم ١٧، ولكننا اختلفنا مرة أخرى على طريقة توجيه هذه الضربة. لقد كانت نظريتي في ضرورة إعادة الاتزان إلى مواقعنا الدفاعية بسحب جزء من قواتنا في الشرق إلى غرب القناة مازالت قائمة ولكن مع تعديل في الأسلوب طبقا للموقف الجديد. لقد اقترحت في اليوم السابق سحب الفرقة ٢١ مدرعة والفرقة ٤ مدرعة أما اليوم فلم يعد من السهل أن نقوم بسحب الفرقة ٢١ مدرعة في الوقت الذي تتعرض فيه لضغط العدو.

لذلك اقترحت أن نقوم بسحب الفرقة ٤ مدرعة، واللواء المدرع ٢٥ من قطاع الجيش الثالث خلال الليل. وان نقوم فجر باكر بتوجيه الضربة الرئيسية ضد قطاع الاختراق بقوة لواءين مدرعين من غرب القناة وفي اتجاه شمال شرقي، وفي الوقت نفسه يقوم اللواء١١٦ مشاة بتوجيه ضربة ثانوية من الغرب إلى الشرق، بينما تقوم الفرقة ٢١ مدرعة بتوجيه ضربة من مواقعها شرق القناة في اتجاه جنوبي بهدف إغلاق الطريق المؤدي للثغرة من الشرق (١٤).

كان الوزير مازال ضد أية فكرة لسحب القوات من الشرق إلى الغرب وبالتالي رفض سحب الفرقة الرابعة المدرعة وقرر أن يقوم اللواء المدرع ٢٥ بتوجيه ضربة من شرق القناة في اتجاه من الجنوب إلى الشمال لكي يلتقي مع هجوم الفرقة ٢١ مدرعة وأن يقوم اللواء ١١٦ مشاة بتوجيه ضربة ثانوية من الغرب إلى الشرق. كأن هناك إذن خلاف بيني وبين الوزير، فبينما كنت أريد أن تكون ضربتنا الرئيسية موجهة إلى الثغرة من غرب القناة مع توجيه ضربة ثانوية ضد فتحة الثغرة شرق القناة كان الوزير يرى العكس تماما، فقد كان يرى أن تكون الضربة الرئيسية من شرق القناة وان تكون الضربة الثانوية من غرب القناة كانت المزايا التي يمكن-أن تحققها الخطة التي تقدمت بها ما يلي:

١- اللواء المدرع ٢٥ كان من ضمن الواجبات التي تدرب عليها قبل بدء القتال تدمير العدو إذا نجح في الاختراق في منطقة الدفرسوار، وبالتالي فإن ضباط وجنود اللواء كانوا على إلمام تام بطبيعة الأرض التي تقع غرب القناة ويعرفون كل ثنية أرضية التي سوف يقاتلون عليها، وتلك ميزة عظيمة يجب ألا نضحي بها.

٢- إن سحب الفرقة المدرعة الرابعة واللواء المدرع من شرق القناة إلى غربها سوف يعيد الاتزان إلى مواقعنا الدفاعية ويجعلنا اكثر قدرة على مقابلة أي تهديد يقوم به العدو للوصول إلى

مؤخرة قواتنا.

٣- إن قيامنا بتوجيه الضربة الرئيسية غرب القناة يضمن لنا إتمامها تحت مظلة الدفاع الجــوي ســـام، أما إذا قمنا بها من الشرق فسوف تتم خارج هذه المظلة ويمكن أن تقــع قواتنـــا فريســـة للهجوم الجوي المعادي. وإن حـــادث تدمير اللواء الأول مشاة بواسطة طيران العدو لم يكن قــد مضى عليه سوى خمسة أيام فقط.

٤- إن توجيه الضربة الرئيسية بقوة لواءين مدرعين من غرب القناة يحقق لنا قوة الصدمة التـــي يمكن أن نوجهها للعدو بالإضافة إلى توفيـــر القوات اللازمة لتأمين قاعدة الهجوم وأجنابه. أمـــا إذا قام بها اللواء المدرع ٢٥ من الشرق فإن الضربة ستكون ضعيفة وسوف تكون قاعدة هجومه وجانبه الأيمن معرضين للخطر.

وعلى الرغم من وضوح تلك النقاط بشكل صارخ لأي قـــائد عسكري فقد رفض الوزير رفضـــا باتا سحب اللواء المدرع ٢٥ إلى الغرب. وفي حديث هاتفي مع اللواء عبد المنعم واصل لتبـــادل الرأي في هذا الموضوع أفاد بأنه يفضل أن يتم سحب اللواء المدرع ٢٥ وان يقوم بتوجيه ضربته ضد الثغرة من الغرب وابلغني بان قائد اللواء المدرع ٢٥ يشاركه هذا الرأي، وعلى الرغم مـــن وجود هذا الإجـــماع بين القادة العسكريين إلا أن الوزير رفض هذا الاقتراح [١٥].

وبعد ساعات قليلة وصل الرئيس إلى المركزي١٠ . لقد كان مازال هناك متسع مـــن الوقـــت وفكرت أن استعين برئيس الجمهورية لكي ينقض قرار الوزير وان يوافق على وجهة نظري فيما يتعلق بسحب بعض القوات من الشرق وان نقوم بتوجيه ضربتنا الرئيسية ضد الثغرة من الغـــرب [١٦]. شرحت الاقتراحـــات السابق ذكرها، ولكن الرئيس لم يمهلني لكي أتم مقترحاتي وثار ثورة عارمة وفقد أعصابه واخذ يصرخ في وجهي بعصبية "أنا لا أريد أن اسمـــع منك مرة ثانية هذه الاقتراحات الخـــاصة بسحب القوات من الشرق، إذا أثرت هذا الموضوع مرة أخرى فإني سوف أحاكمك". حاولت أن اشرح له بأن المناورة بالقوات شيء والانسحاب شيء آخر ولكنه كان فـــي ثورة عارمة لا يريد أن يسمع ولا يريدني أن استرسل في الكلام [١٧]. لقد أصابني كلام السادات بجرح عميق. جال بخـــاطري أن أستقيل، ولكن سرعان ما استبعدت هذا الخاطر. كـــيف اتـــرك القوات المسلحة في أوقات الشدة؟ ماذا سيقول عني الخصوم؟ هرب عند وقوع أول أزمة؟ لا لـــن اقبل ذلك على نفسي. لقد عشت مع القوات المسلحة فترة مجد، ويجب أن اقف معها وقت الشـــدة حـــتى لو لم أستطع أن أنفـــذ ما أريد إنقاذه كله. ابتلعت كبريائي والتمست العذر للسادات وقلـــت

لنفسي "لابد أن السادات أعصابه متوترة، حتى انه لم يستطع أن يواجه الموقف. يجب أن أتحملـه ولو مؤقتا من اجل مصر [١٨]". وهكذا قمنا بإصدار التعليمات الخاصـة بعمليات يوم ١٧ طبقـا للقرار الذي اتخذه الوزير والرئيس كما سبق شرحه [١٩].

وحوالي منتصف الليل أويت إلى فراشي ولكن ضـابط العمليات المناوب أيقظني في الساعة ٠٣٠٠. وأخبرني بان اللواء عبد المنعم واصل يطلب محادثتي بصفة عاجلة. أخبرني بان اللـواء المدرع ٢٥ لن يستطيع التحرك في هذا اليوم لأسباب فنية. كـان واضحا أن اللواء عبد المـنعم واصل وقائد المدرع ٢٥ يتوقعان وقوع كارثة بالنسبة لهذا اللواء وانهما يريدان خلق المشـكلات التي قد تؤدي إلى منع قيامـه بهذه العملية الانتحـارية. لقد كنت أشـعر في قرارة نفسي بصدق وإحساس كل كلمة يقولها اللواء عبد المنعم واصل ولكن مسئوليتي في ذلك الوقت كانت تحتم على أن أعارض عبد المنعم واصل. كمبدأ عام يمكن للقادة أن يختلفوا عند إبداء وجهة نظـرهم قبـل اتخاذ القرار، أما بمجرد اتخاذ القرار، فيجب أن يعمل كل منهم قدر طاقته لتنفيذه سواء كان يتفق مع وجهة نظره أم لا. وقد تم اتخاذ القرار ولا سبيل إلى التراجع عنه الآن، وبعد حديث طويل مع عبد المنعم واصل قال لي بيأس شديد "لاحول ولا قوة إلا بالله. سوف أقوم بتنفيذ هـذه الأوامـر ولكني أقولها مسبقا، سوف يدمر هذا اللواء".

كانت قوات العدو أمام الجبهة اعتبارا من فجر يوم ١٧ من أكتوبر هي ٨ ألوية مدرعة ولـوائي مشاة ميكانيكيين وكان توزيعها كما يلي [٢٠]:

– فرقة تقوم بتـامين راس الكوبري في منطقة الدفرسوار، وكان لهذه الفرقـة لواء مدرع ولواء مشاة غرب القناة وتحتفظ بلواء مدرع آخر لتامين الثغرة من الشرق.

لواء مدرع ولواء مشـاة يقومان باحتواء الفرقة ٢١ مدرعة (لواءان مدرعان) التي تؤمن الجناح الأيمن للجيش الثاني.

– لواء مدرع يحتوي مواجهة الجيش الثاني بكامله (الفرقة ١٨، الفرقة ٢، الفرقـة ١٦، ومعهـا لواءان مدرعان، ١٢ كتيبة دبابات) [٢١].

– لواء مدرع يحتوي مواجهة الجيش الثالث بكامله (الفرقة ٧، الفرقة ١٩، لواء المشـاة الأول، الفرقة الرابعة المدرعة عدا لواء مدرع، اللواء المدرع ٢٥، وكـان مجموع المـدرعات داخـل راس كوبري الجيش الثالث ٣ ألوية مدرعة و ١٠ كتائب دبابات).

فرقة من ثلاثة ألوية مدرعة تتجمع شرق القناة بحوالي ٢٠ كـيلومترا مستعدة للعبور إلى الغرب بمجرد أن يتم تركيب الكوبري على القناة في منطقة الدفرسوار [٢٢].

وأني لأشعر بالخجل وأنا اذكر أوضاع قواتنا فجر يوم ١٧ من أكــتوبر. ولكن من اجل مصــر ومن أجل أن نتعلم من أخطائنا ومن أجل أن يعرف العرب من هم الذين تــآمروا علـــى القــوات المسلحة لأغراض سياسية خفية. من اجل ذلك كله يجب أن أتكلم. إن أية فرقة مشاة مصرية كان يدخل ضمن تنظيمهـــا ٤ كتائب دبابات: كتيبة BMP وكتيبة مقذوفات مضادة للـــدبابات موجهـــة مالوتكا، وكتيبة مدفعية مضادة للدبابات، و ١١ كتيبة مدفعية ميدانية يمكــن استخــــدامها وقــت الضرورة كأسلحة مضادة للدبابات، علاوة على ذلك يوجــد ضمن تنظيم الفرق ٩٠ قطعة ســلاح مضـــادة للدبابات ب ١٠، ب ١١ للقتال القريب مع الدبابات ٤٥٠ قطعة ســلاح RBG مضـــادة للدبابات للقتال المتلاحم. لقد روعي عند تنظيم فرقة المشاة جعلها قادرة– دون أي دعم خارجي– على أن تصد أي هجوم مدرع يقوم به العدو بقوة تقدر بفرقة مدرعة قوامها ثلاثة ألوية مدرعـــة. وعلى الرغم من ذلك إلا أننا دعمنا كــل فرقة– لأهداف العبور– بلواء مدرع إضـــافي وبأعـــداد إضافـــية من المقذوفات الصاروخية الموجهة مالوتكا قمنا بسحبها من التشكيلات الأخرى التي لا تشترك بصفة مباشرة في عملية العبور. وكان المفروض أن نقوم بسحب هذه التدعيمات بمجـــرد أن يســـتقر الموقف على الضفة الشرقية، فتعود المالوتكا إلى وحداتها الأصلية وتعــود الألويـــة المدرعة أو– على الأقل– الجزء الأكبر منها إلى غرب القناة لكي نشـــكل احتياطيـــات مدرعـــة تستطيع أن تواجه وتتحدى ضربات العدو. ولكن للأسف الشديد فقد حدث العكس تماما. فبدلا من أن نسحب هذه القوات من الشرق إلى الغرب دفعنا يوم ١٣، ١٤ الفرقة ٤ المدرعة والفرقـــة ٢١ المدرعة إلى الشرق. وعندما طالبت بإعادة هاتين الفرقتين إلى الغـــرب رفـــض الـــوزير وثـــار السادات كما سبق أن بينت. لقد كان لدينا في الجبهة يوم ١٧ أكتوبر ٨ ألوية مدرعة، وهو عـــدد يماثل ما لدى العدو، ولكن أوضـــاع هذه الألوية صباح يوم ١٧ من أكتوبر كانت تدعو إلى الرثاء كانت أوضاعها كما يلي:

– ٤ ألوية مدرعة لا تقوم باي عمل، وهي مربوطة بالأرض في منطق الفرقة ١٨ مشاة، الفرقة ٢ مشاة الفرقة ٧ مشاة الفرقة ١٩ مشاه.

– اللواء المدرع ٢٥ يتحـــرك من داخل راس كـــوبري الجيش الثـــالث شرق القناة في اتجـــــاه الشمال ولمسافة تصل إلى حوالي ٣٠ كيلومترا خارج مظلة الدفاع الجوي وخارج مدى أية معاونة من مدفعيتنا وفي منطقة تتواجد بها ٤ ألوية مدرعة للعدو ويتمتع فيها العدو بسيطرة جوية كاملـــة (٢٣).

– يقوم لواءان من الفرقـــة ٢١ مدرعة التي أنهكت في القتال خلال الأيـــام الثـــــلاثة الماضـــية

بالهجوم جنوبا بهدف إغلاق الطريق المؤدي إلى الثغرة من الشرق.
- لواء آخر يحرس المنطقة الخلفية للجيشين الثاني والثالث.
لقد كان معنى ذلك أن القيادة العامة للقوات المسلحة تحشد لمعركة الدفرسوار ٣ ألوية مدرعة (بما في ذلك اللواء المدرع ٢٥ الذي كانت هناك شكوك في إمكان وصوله إلى منطقة المعركة) ولواء مشاة في حين أن العدو كان يحتفظ في المنطقة نفسها ٦ ألوية مدرعة ولوائي مشاه وهكذا كان للعدو التفوق الساحق في منطقة المعركة. لقد كان هذا القرار هو ثالث خطا كبير ترتكبه القيادة المصرية (٢٤)، وقد ترتبت على تلك الأخطاء الكبيرة سلسلة أخرى من الأخطاء مما سوف نشرحه بالتفصيل فيما بعد.

كيف سارت معركة الدفرسوار يوم ١٧ من أكتوبر:

١- تحرك اللواء ١١٦ مشاة من الغرب إلى الشرق في اتجاه راس الكوبري الذي كانت قاعدته حوالي ٥ كيلومترات ونجح في تدمير عدد من الدبابات أثناء تقدمه. عندما وصل إلى بعد حوالي كيلومترين من القناة وقع تحت نيران كثيفة من العدو اضطرته إلى التقهقر بعد أن أصيب بخسائر كبيرة.

٢- نجحت الفرقة ٢١ مدرعة في قطع الطريق المؤدي إلى ثغرة الدفرسوار من الشرق ولكنها عجزت عن إحراز أي تقدم جنوب هذا الطريق وبالتالي ظل الطريق الذي يقود إلى الثغرة من الجنوب والجنوب الشرقي مفتوحا.

٣- تقدم اللواء المدرع ٢٥ ونظرا لما يتمتع به العدو من تفوق ساحق في المدرعات في تلك المنطقة فقد وجه العدو فرقة مدرعة من ثلاثة ألوية مدرعة لمواجهة هذا اللواء (كانت هذه الفرقة تتمركز في الاحتياط وعلى بعد ٢٠ كم شرق القناة). قامت فرقة العدو المدرعة بتخصيص أحد ألويتها لكي يسد طريق تقدم اللواء ٢٥ إلى الشمال بينما تحرك اللواءان الثاني والثالث ليتخذا مواقع إلى اليمين وإلى المؤخرة بالنسبة لاتجاه تقدم اللواء المدرع ٢٥، وعندما دخل اللواء المدرع ٢٥ منطقة الكمين هوجم بالنيران من ثلاثة اتجاهات وتم تدميره تدميرا تاماً، كما سبق أن توقعت أنا واللواء عبد المنعم واصل وقائد اللواء (٢٥).

تدفق قوات العدو إلى الغرب:

وفي خلال ليلة ١٨/١٧ من أكتوبر نجح العدو في بناء أول كوبري له في منطقة الدفرسوار وعبر عليه لواءان مدرعان من فرقة برن، وبحلول فجر يوم ١٨ من أكتوبر كانت للعدو غرب القناة فرقتان مدرعتان، كانت إحداهما بقيادة الجنرال شارون وتتكون من لواء مدرع ولواء مشاة

وكانت الثانية بقيادة الجنرال برن وتتكون من لواءين مدرعين وضد هذه القوات كلهـــا وجهــت القيـــادة المصرية اللواء المدرع ٢٣ ليوجه ضربة إلى العدو غرب القناة وكانت النتيجة طبعا هي فشل الهجوم وخسران اللواء عددا كبيرا من دباباته، وبتدمير اللواء المدرع ٢٣ الذي كـــان يمثل الاحتياطي الاستراتيجي أصبحت الضـــفة الغــربية عارية من الدبابات، اللهم إلا من لواء مدرع خلف الجيش الثاني والثالث ولواء الحرس الجــمهوري في القاهرة وبحلول ظهر يوم ١٨ عبــر لواء مدرع آخر للعدو وانضم إلى فرقـــة برن واصبح للعـــدو غرب القــناة ٤ ألويـــة مدرعـــة ولواء مشـــاة (فرقة برن : ٣ ألوية مـــدرعـــة، فرقة شارون: لواء مدرع+ لواء مشاة).

لم يفهم رئيس الجمهورية ووزير الحربية أهمية المناورة بالقوات إلا بعد ظهـــر يـــوم ١٨ مـــن أكتوبر، وبعد أن أصبحت قواتنا مهددة بالتطويق، وبعد أن دمر العدو الكثير من مواقع صواريخنا سام وبعد أن أصبحت القوات الجوية المعادية قادرة على العمل بحرية من خـــلال الثغــرة التـــي أحدثتها في دفاعنا الجـــوي وحتى عندما فهما أنني كنت على حق في المطالبة بسحب جزء مـــن قواتنا من الشرق فإنهما لم تكن لديهما المقدرة على تصور ما يمكن أن يحدث بعد يومين أو ثلاثة. كانا يفكران فيما سوف نفعله غدا مفترضين أن العدو سيبقى كما هو خلال تلك الفترة وهذا خطـــا جسيم. لقد اتخذ أخيرا قرار بسحب الفرقة الرابعة المدرعة ليلة ١٩/١٨ من أكـــتوبر، وقد كنـــت أريد أن اسحـــب هذه الفرقة هي واللواء المدرع ٢٥ ليلة ١٧/١٦، ولو تم ذلك لتغير الموقف. أما الآن فإن سحـــب الفرقة الرابعة المدرعة وحدها لن يجعلنا قادرين على استعادة الموقــف. لقــد أصبحت للعدو فرقتان مدرعتان غرب القناة وقد تصبح ثلاث فرق مدرعة قبل فجر غد ١٩ من أكتوبر!

هوامش الفصل الثالث والثلاثين

(١) انظر الباب الأول.

(٢) كانت خسائرنا في الدبابات كما يلي:

من يوم ٦- ١٣ أكتوبر ٢٤٠

يوم ١٤ أكتوبر ٢٥٠

وكانت خسائر العدو كما يلي:

يوم ٦ أكتوبر وحتى فجر يوم ٧ من أكتوبر ٣٠٠

يوم ٨ و ٩ من أكتوبر ٢٦٠

يوم ١٠- ١٣ من أكتوبر ٥٠

يوم ١٤ من أكتوبر ٥٠

(٣) في صباح يوم ١٥ من أكتوبر اتصل بي الطبيب واخبرني بان حالته لم تتحسن، وبالتالي تقرر إخلاؤه إلى مستشفى المعادي حيث بقي فيه إلى ما بعد وقف إطلاق النار.

(٤) لم تتعرض السلطات المصرية لهذه. النقطة خلال مناقشات الندوة الدولية لحرب أكتوبر ٧٣ التي انعقدت في القاهرة في الفترة ما بين ٢٧- ٣١ من أكتوبر ١٩٧٥.

(٥) يرجى الرجوع إلى محاضر هذه الجلسات المحفوظة في الجامعة العربية ولدى الدول الأعضاء.

(٦) الدفرسوار هي المكان الذي اخترق فيه العدو دفاعنا في ليلة ١٥/ ١٦ من أكتوبر ٧٣.

(٧) كان الاحتياطي الاستراتيجي يتمركز في منطقة القاهرة وكان عبارة عن اللواء المدرع ٢٣، واللواء المدرع بالحرس الجمهوري.

(٨) كلتا الفرقتين المدرعتين ٤ و ٢١ كانت تتكون من لواءين مدرعين ولواء مشـــاة ميكـــانيكي، ولأهداف العبور الحق أحد الألوية من الفرقة ٢١ مدرعة بالفرقة ١٦ مشاة.

(٩) هذه الطائرة تشبه في خصائصها الطائرة السوفيتية ميج ٢٥.

(١٠) لم يقم احمد إسماعيل بزيارة الجبهة طوال فترة القتال وبذلك لم يكن بينه وبين الجنود ذلـك الرباط الذي كان يربطني بهم والذي كان يجعلني قادراً على أن أحس واشعر بما يستطيعون عمله وما لا يستطيعون. لقد كان احمد إسماعيل يعيش ويفكر بعقلية عام ٦٧ ولا يستطيع أن يحس بإمكانات الجندي المصري عام ٧٣ لأنه لم يره .

(١١) من السذاجة أن يعتقد السادات أن أمريكا وإسرائيل تصدق ما يقوله ولا تصدق ما تقوله لها أقمارها الصناعية وطائرات استطلاعها،SR-17.

(١٢) لقد ثبت فيما بعد أن العدو كان قد عبر خلال الليل بقوة تقدر بلواء مشـــاة وكتيبة دبابـــات قوامها ٣٠ دبابة.

(١٣) هذا مثل من المتاعب التي يلاقيها المدافع إذا نجح المهاجم في اختـــراق خطـــه الـــدفاعي والوصول إلى مؤخرة قواته. إن الوحدات التي تتمركز في المؤخرة ليست لديها القدرة على مواجـــهة هجوم الدبابات.

(١٤) انظر الخريطة رقم ٣.

(١٥) لم اكن حتى هذه اللحظة على علم باللعبة السياسية. وكنت اعتقد أن معارضـــة الوزير في سحب جزء من قواتنا في الشرق هو جمود فكري من قبله وليس جزءا من لعبـــة سياســـية كبيرة لذلك فكرت في أن استعين بالرئيس في تصحيح الموقف.

(١٦) يبدو أن هذا الإصرار من جانب الوزير كان بناء على تعليمات من الرئيس ويمكن استنتاج ذلك من غضب الرئيس وثورته عندما فاتحته في الموضوع من جديد.

(١٧) هذا يدل على أن المعارضـــة في سحب جزء من قواتنا من الشرق إلى الغرب كانت قرارا للسادات اكثر منها قرارا للوزير.

(١٨) قال تعالى "عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم " صدق الله العظيم. لم أكن اعلم وقتئـــذ أن ثورة السادات أمام حوالي سبعة من الضباط في غرفة العمليات يوم ١٦ من أكتوبر، هـــي عمل أراد الله به أن يظهر الخلاف بينـــي من جهة وبينه هو والوزير من جـــهة أخـــرى. ولكي يبين بطريقة علنية– لا يستطيع السادات أن ينكرها في المستقبل– أنني كنت على حق وانهما كانا على باطل.

(١٩) انظر الخريطة رقم ٤.
(٢٠) انظر الخريطة رقم ٢.
(٢١) كل ٣ كتائب دبابات تعادل تقريبا لواء مدرعا.
(٢٢) لواء المشاة واللواء المدرع اللذان عبرا ليلة ١٦/١٥ ليلة ١٧/١٦ استخدما القوارب والمعديات.
(٢٣) انظر الخريطة رقم ٢.
(٢٤) كان الخطأ الأول هو دفع الفرقة الرابعة والفرقة ٢١ إلى الشرق.
وكان الخطأ الثاني هو رفض إعادة هاتين الفرقتين بعد فشل هجوم يوم ١٤ من أكتوبر.
(٢٥) لكي يغطي السادات وأحمد إسماعيل مسئوليتهما في تدمير هذا اللواء فقد عاملا ضباطه وجنوده بعد الحرب على انهم جبناء وأنهم لم يقاتلوا كما كان يجب عليهم أن يقاتلوا .

الفصل الرابع والثلاثون

القتال غرب القناة

القيادة السياسية تخفي الحقائق:

لقد كان لستار السرية الذي فرضته القيادة السياسية على الموقف غرب القناة آثار سيئة للغاية. إنه لم يخدع الشعب المصري فقط عن حقيقة الموقف بل خدع أيضا أفراد القوات المسلحة. لقد كانت الوحدات الإدارية ووحدات الدفاع الجوي ومراكز القيادة غرب القناة تفاجأ بظهور دبابات تطلق النار عليها دون أن تدري هوية هذه الدبابات. وفي الوقت نفسه تكتشف فيه حقيقة الموقف تكون هذه الوحدات قد تم تدميرها أو أسرها. كانت العربات والأفراد الذين يتحركون في الضفة الغربية للقناة، وهم يعتقدون بصحة البلاغات المصرية التي تصور أن العدو ليست له سوى ٧ دبابات تختبيء في الأشجار في منطقة الدفرسوار، كانوا يفاجأون بمن يظهر أمامهم ويطلق النار عليهم فيقتل فريقا ويأسر آخر. لقد قتل المئات من الجنود وأسر الآلاف دون أن يقاتلوا لأن أحدا منهم لم يكن يتوقع وجود العدو في هذه الأمكنة، لقد كان هذا النوع من القتال هر ما تريده إسرائيل لأغراض الدعاية. إنهم لم يستطيعوا أن يأسروا جنديا واحدا في الضفة الشرقية إلا إذا وقع في أيديهم وهو جريح لا يستطيع أن يقاتل أو يدافع عن نفسه. أما في الضفة الغربية للقناة فهاهم يأسرون المئات دون أي قتال وذلك لأن القيادة المصرية قد خدعت رجالها واخفت عنهم الحقائق.

وقد كان لتدمير العديد من كتائب صواريخ سـام اثر كبير على سير المعركة فـي الضـفة الغربية. فقد دخلت القوات الجوية المعادية المعركة و أصبحت تقدم المعاونة الأرضـية للقـوات المهاجمة ،بينما كانت قواتنـا الجوية عاجزة عن التدخل ضـد القوات البرية المعادية لصـعوبة التمييز بين الصديق والعدو نظرا لميوعة الموقف. ومما زاد من صعوبة الموقف ضعف إمكانات الدفاع المضـاد للدبابات بالنسبة للتشكيـلات والوحدات التي في غرب القناة. وكما سبق أن قلت، كنا قد سـحبنا وحدات الصواريخ المضـادة للدبابات الموجهة (المالوتكا) من التـشكيلات التي لا تشترك في العبور لكي ندعم بها التشكيلات المكلفة به. وهكذا فقد كانت هناك كتيبتا مالوتكا فـي الشرق: واحدة منها تخص الفرقة الثـالثة مشاة ميكانيكية والأخرى كانت تخص فرقة المظـلات، ودون هاتين الكتيبتين فإن قدرات هاتين الفرقتين في صد المدرعات تنخفض انخفاضـا كبيـرا. وحيث أن الرئيس والوزير كانا يعارضان سحب أي سلاح من الشرق فقد قررت أن اسحب هاتين الكتيبتين (المالوتكا) دون أن أخطرهما بذلك.

وباتفاق سري بيني وبين اللواء سعيد الماص قائد المدفعية قررت أن اسحب تلك الكتيبتين، وتم فعلا سحب بعض منهما يومي ١٧ و ١٨ دون علم الوزير، على الـرغم مـن معارضـة قـادة التشكيلات التي كان قد تم تدعيمها بهما. إذ قال لي أحد قادة فرق المشاة عندما طلبت إليه إخلاء سرية الصواريخ المضادة للدبابات (مالوتكا) التي كانت قد ألحقت به لأهداف العبور: "إن الموقف الدفاعي للفرقة سيتعرض للخطر إذا انسحبت مني هذه السرية!!". إني اعلم من خبرتي السابقة أن ما قاله قائد الفرقة هو تسجيل موقف يمكن أن يستخدمه للدفاع عن نفسه فيما لو فشل فعلا في صد هجوم العدو ووجد نفسه موضع تسـاؤل. لقد كان اهتمامي بإنقاذ الموقف في غرب القنـاة أهـم بكثير من أي شيء أخر، ولذلك قلت له "أنا المسئول عن كل شيء، أرسل السرية فورا هذه الليلة". إن هذا الحديث يبين بوضوح أن أبعاد الموقف وخطورته لم يكونا معروفين حتى على مسـتوى قادة الفرق.

زيارتي الرابعة للجبهة:

في حوالـي الساعة ١٤٠٠ يوم ١٨ من أكتوبر وصل رئيس الجمهورية إلـى المركـز ١٠ واستمع إلى تقرير عن الموقف من الوزير. لم يسألني الرئيس ولم أبادر أنا بالكلام، وبعـد ذلـك طلب مني أن أتحرك إلى الجيش الثاني لكي اعمل على رفع الروح المعنوية وابذل مـا أسـتطيع لمنع تدهور الموقف. وقد أبلغت بأن الفرقة الرابعة المدرعة التي تعمل خلف كل مـن الجيشـين الثاني والثالث تعمل بأوامر من القيادة العامة (المركز ١٠) وليس للجيش الثاني أي سلطان عليها،

وهذا يعني أن الجيش الثاني لم تكن لديه دبابة واحدة غرب القناة وجنوب ترعة الإسماعيلية. تحركت من المركز ١٠ حوالي الساعة ١٤٤٥ يوم ١٨ من أكتوبر فوصلت قيادة الجيش الساعة ١٧٣٠ من اليوم نفسه. [١]

قواتنا:

عند وصولي إلى قيادة الجيش الثاني مساء يوم ١٨ من أكتوبر كانت أوضاع الجناح الأيمن للجيش الثاني كما يلي: (انظر الخريطة رقم ٥)

١- لقد اضطرت الفرقة ٢١ مدرعة إلى الارتداد للخلف (في اتجاه الشمال) بعد أن وقعت تحت النيران التي يطلقها عليها العدو من مواقعه في غرب القناة، وقد اصبح الخط الذي تحتله يتحاذى مع سرابيوم على الضفة الغربية للقناة.

٢- اللواء ١٥٠ مظلات يعمل غرب القناة جنوب ترعة الإسماعيلية ويحاول منع انتشار العدو شمالا في اتجاه الإسماعيلية.

قوات العدو:

كانت قوات العدو في الضفة الغربية مع آخر ضوء يوم ١٨ من أكتوبر كما يلي:

١- خلال فترة ما بعد ظهر يوم ١٨ من أكتوبر عبر إلى الضفة الغربية لواء مدرع آخر وبذلك وصلت قوات العدو غرب القناة في منطقة الدفرسوار غرب القناة إلى ٥ ألوية مدرعة ولواء مشاة وكانت هذه القوة مشكلة من فرقتين مدرعتين: فرقة بقيادة الجنرال شارون وتتكون من لواءين مدرعين ولواء مشاة وتواجه الشمال، وفرقة أخرى بقيادة الجنرال برن وتتكون من ٣ ألوية مدرعة وتواجه الغرب والجنوب.

٢- يسيطر العدو سيطرة تامة على مسافة ٥ كيلومترات شمال الدفرسوار ويحتل المصاطب التي في هذه المنطقة بقواته. بينما يسيطر بالنيران على بضعة كيلومترات أخرى شمال ذلك.

القرار:

بعد وصولي إلى قيادة الجيش الثاني استمعت إلى قرار اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش، وكان يتلخص فيما يلي:

١- يتم سحب اللواء المدرع ١٥ من الضفة الشرقية للقناة إلى الضفة الغربية كان تحت قيادة الفرقة ١٨ مشاة ويتمركز في المنطقة شمال ترعة الإسماعيلية ويعمل كاحتياطي للجيش.

٢- يقوم اللواء ١٥٠ مظلات بالدفاع النشيط عن الضفة الغربية جنوب ترعة الإسماعيلية ويقوم أيضا بتأمين مؤخرة الفرقة ٢١ مدرعة والفرقة ١٦ مشاة المتمركزة في الضفة الشرقية.

٣- تقوم كلتا الفرقتين ٢١ مدرعة و ١٦ مشاة بالضغط جنوبا في محاولة لإعادة إغلاق الطريق المؤدي إلى الدفرسوار.

٤- تتمسك كلتا الفرقتين ٢ و ١٨ مشاة بمواقعهما شرق القناة.

٥- تقوم مدفعية الجيش بتركيز نيرانها على منطقة الدفرسوار.

٦- القيام بأعمال الإغارة على قوات العدو المتمركزة في منطقة الدفرسوار بواسطة وحدات الصاعقة.

لقد كان للعدو في منطقة الدفرسوار في تلك الليلة فرقتان مدرعتان، كما سبق أن قلت. وكانت فرقة شارون تضغط على قواتنا في اتجاه الشمال بهدف الوصول إلى الإسماعيلية وتطويق الجيش الثاني، ولم يكن لدينا للتصدي له سوى اللواء ١٥٠ مظلات. لم يكن قائد الجيش ينتظر المعجزات من لواء المظلات لذلك أمر بنسف الكباري التي على ترعة الإسماعيلية جميعها لكي يمنع العدو من عبور هذه الترعة فيما لو نجحت قواته في التغلت على مقاومة لواء المظلات صدقت على قرار قائد الجيش فلم يكن هناك ما يمكن عمله بالنسبة للقتال خلال تلك الليلة ونهار اليوم التالي اكثر من ذلك.

معارك الجيش الثاني ١٨-٢٠

بدا لواء المظلات يتقدم جنوبا ليلة ١٨/١٩ واحتل عددا من المصاطب إلى أن وصلت عناصر منه إلى مكان تستطيع منه أن ترى الكوبري الذي أقامه العدو في الدفرسوار، وقد ساعدنا في تصحيح نيران المدفعية إلى أن حددنا مكان الكوبري بدقة.

ومنذ ذلك الوقت أخذت مدفعيتنا تصب عليه النيران دون هوادة طوال الليل وطوال نهار اليوم التالي، وقد تنبه العدو إلى دقة نيران المدفعية التي تقوم بتوجيهها العناصر المتقدمة من لواء المظلات فقام بهجوم مضاد واحتل المصطبة التي كنا ندير منها نيران المدفعية. وعلى الرغم من أن لواء المظلات عجز عن استرداد تلك المصطبة وعلى الرغم من أنه لم تكن هناك مصطبة بديلة يمكن منها أن نوجه نيران المدفعية ضد الكوبري، فقد كانت المعلومات التي حصلنا عليها من اشتباكاتنا السابقة كافية لأن نستمر في الضرب كانت الإشارات الملتقطة من العدو نتيجة ضرب مدفعيتنا مشجعة للغاية وتفيد بأن العدو قد تحمل خسائر فادحة. وبمجرد أن وصلتنا المعلومات بقيام العدو بنصب كوبري أخر شمال الكوبري الأول وجهنا نيران مدفعيتنا على الكوبري وأصبناه بخسائر فادحة [٢]. إن الدفاع المستميت الذي قام به لواء المظلات وكتيبتان من الصاعقة خلال ليلة ١٨/١٩ والأيام التالية كان له الأثر المباشر في منع تقدم العدو شمالا

وإفشـــال محاولته في تطويق الجيش الثاني. يقول الجنرال هوتزوج في كتابه:
THE WAR OF ATONEMENT في صفحة ٢٤٥ ما يلي :-

"لقد قوبلت فرقة شارون المدرعة ولواء المظلات (الإسرائيلي) بمقاومة عنيفة من المشاة والمدفعية (المصرية) وتحملت خسائر فادحة. لقد كانت مهمة شارون هي احتلال الإسماعيلية ولكن المقاومة التي قام بها الكوماندوز المصريين أوقفت تقدمهم". (٣)

الموقف مساء يوم ٢٠ من أكتوبر:

عدت إلى المركز ١٠ مساء يوم ٢٠ من أكتوبر بعد أن قضيت حوالي ٤٤ ســاعة مــع الجــيش الثاني.. وبعد أن اطلعت على كافة تقارير المخابرات ظهرا أمامي الموقف العام التالي:-

١- موقف العدو:

أ- كان للعدو غرب القناة ٥ ألوية مدرعة ولواء مظلي، وكانت هذه القوة مشــكلة فــي فــرقتين مدرعتين: فرقة بقيادة الجنرال شارون وتتكون من لواءين مدرعين ولواء مظلي وتضغط في اتجاه مؤخرة الجيش الثاني، وفرقة مدرعة أخرى تتكون من ثلاثة ألوية مدرعة بقيادة الجنــرال بــرن وتضغط في اتجاه مؤخرة الجيش الثالث.

ب- كان للعدو فرقتان مدرعتان أخريان شرقي القناة تتكون كل منهما من لواءين مدرعين ولواء مشاة ميكانيكي تقوم بتثبيت قواتنا شرق القناة.

ج- بعد أن نجح العدو في تدمير أو إسكات كتائب صواريخ سام التي تتمركز غرب القناة حتــى عمق ١٥ كيلومترا تقريبا، اصبح في إمكانه -ولأول مرة منذ بدء القتال- أن يستخدم قواته الجوية في تقديم المعاونة الجوية لقواته البرية في أثناء قيامها بعمليات تعرضية.

٢- كان موقف الجيش الثاني كما يلي:

أ- في الشرق توجد ٣ فرق مشاة وفرقة مدرعة ولواء مدرع.

ب- في الغرب وجنوب ترعة الإسماعيلية يوجد لواء مظلي وكتيبتا صاعقة.

ج- في الغرب وشمال ترعة الإسماعيلية يوجد لواء مدرع.

٣- كان موقف الجيش الثالث كما يلي:

أ- في الشرق توجد فرقتا مشاة ولواء مدرع ولواء مشاة ولواء برمائي.

ب- في الغرب لواء مشاة ميكانيكي (٤).

٤- النسق الثاني للجبهة:

الفرقة الرابعة المدرعة، وتأخذ مسئولية الدفاع عن المنطقة الممتدة من ترعة الإسماعيلية

شمالا حتى جبل عتاقة جنوبا، وتعمل بأوامر من القيادة العامة.

٥- الاحتياطي الإستراتيجي:

لواء الحرس الجمهوري المدرع ويتمركز في منطقة القاهرة.

المطالبة بسحب أربعة ألوية مدرعة من الشرق:

كان من الواضح أن توزيع قواتنا لا يتماشى مطلقا مع متطلبات المعركة. إن مسئولية كل قائد هو أن يحشد قواته وإمكاناته في المعركة، لا أن يترك جزءا من قواته تقاتل تحت ظروف سيئة بينما تقف باقي القوات موقف المتفرج واللامبالاة لقد أصبحت خطة العدو واضحة وضوح الشمس: إنه يهدف إلى تطويق الجيشين الثاني والثالث، حيث إنه يقوم بتوسيع الثغرة في منطقة الدفرسوار كل يوم، ويجب ألا ننتظر المعجزات من قواتنا التي تقاتل غرب القناة. إن لواء مظليا مصريا يخوض معركة مريرة ضد فرقة مدرعة من لواءين مدرعين ولواء مظلي إسرائيلي، قد يستطيع المقاومة ٣ أو ٤ أيام أخرى، ولكن لا يمكن أن تستمر مقاومته إلى الأبد. كان جدول مقارنة القوات بيننا وبين العدو يصرخ بالانتقاد. إن نظرة واحدة من رجل مدني لا يفهم في الشئون العسكرية لكفيلة بأن تقنعه بأن هذا التوزيع خاطئ وانه إذا لم يتم إصلاحه فورا فقد تحدث الكارثة.

ومع ذلك فإني لم استطع أن أقنع لا وزير الحربية ولا الرئيس السادات بتعديل هذه الأوضاع.

كان جدول توزيع القوات في جبهة قناة السويس مساء يوم ٢٠ من أكتوبر كما يلي (٥):

بحثت الموقف مع احمد إسماعيل وقلت له إنه إذا لم نعد توزيع قواتنا لمقابلة التهديد القائم فقد تحدث كارثة في خلال ثلاثة أيام أو أربعة، وأن العدو يستطيع أن يدفع بفرقة مدرعة جديدة هذه الليلة إلى الغرب دون أن تكون هناك أي خطورة على مواقعه في الشرق، وإنه

توزيع			غرب القناة		إجمالي	
القوات	لواء مشاة	لواء مدرع	لواء مشاة	لواء مدرع	لواء مشاة	لواء مدرع
العدو	٢	٤	١	٥	٣	٩
قواتنا	١٨	٤	٢	٣	٢٠	٧(٦)

ليست هناك خطورة كبيرة من إمكان تطويق الجيش الثاني نظرا لوجود ترعة الإسماعيلية واللواء المدرع ١٥ شمال الترعة واللواء١٥٠ مظلات الذي يمكنه أن يقاتل لمدة ٣ أو ٤ أيام أخرى، ولكن الخطورة الكبرى تقع في الجنوب بالنسبة للجيش الثالث، حيث إن الأرض

مناسبة لعمل المدرعات وقد أصبح في إمكان العدو أن يستخدم قواته الجوية ضد قواتنا البرية اليوم ولأول مرة منذ بدء القتال. وإذا قام العدو بنقل فرقة مدرعة أخرى إلى الغرب فسوف يصبح له في القطاع الجنوبي غرب القناة فرقتان مدرعتان تدعمهما القوات الجوية الإسرائيلية مقابل فرقة مدرعة واحدة من جانبنا، ولهذا الموقف يجب أن نسحب ألويتنا المدرعة من الشرق لمقابلة التهديد في الغرب [٧]. كان في رأيي أن سحب هذه الألوية الأربعة من الشرق في خلال الأربع والعشرين ساعة التالية لن يؤثر على سلامة خطوطنا ومواقعنا في الشرق وسوف يزيد من قدرتنا على مقابلة تهديد العدو لنا في الغرب.

استدعاء رئيس الجمهورية إلى المركز ١٠:

بعد أن فشلت في إقناع الوزير بوجهة نظري، أفضيت لبعض مساعدي بقلقي على الموقف وأفضيت لهم بأنه إذا لم نسحب جزءا من قواتنا من الشرق إلى الغرب فسوف تقع كارثة لا يعلم أبعادها إلا الله، وهنا اقترح علي اللواء سعيد الملحي قائد المدفعية أن أدعو الرئيس وأشرح له الموقف. لم أتحمس أول الأمر لهذا الاقتراح لأني أعرف وجهة نظر الرئيس السادات منذ الخلاف الذي وقع بيني وبينه في غرفة العمليات يوم ١٦ من أكتوبر، ولاعتقادي بأن احمد إسماعيل –هو رجل عسكري قبل أن يكون سياسيا– ما كان ليقبل مثل هذا الموقف لولا أنه تحت ضغط سياسي، ولكن بعد أن فكرت قليلا وجدت أن استدعاء السادات وشرح الموقف أمامه سوف يضعه أمام مسئوليته التاريخية. ذهبت إلى أحمد إسماعيل في غرفته وقلت له "إن الموقف خطير ويجب أن يحضر الرئيس للاستماع إلى وجهة نظر القادة" [٨]. حاول أن يثنيني عن رأيي وقال إن الوقت متأخر ولا داعي لإزعاج الرئيس الآن. ولكني أصررت على ضرورة حضور الرئيس إلى المركز ١٠ فورا. لأنها مسئولية تاريخية ويجب أن يستمع الرئيس إلى الموقف العسكري بأمانة. لم أخرج من عند الوزير إلا بعد أن وعدني بأنه سيتصل به فورا.

عدت إلى غرفة العمليات وبعد دقائق حضر الوزير وأخبرني بأنه اتصل بالرئيس وقد وعد بأنه سيحضر فورا. اتفقت مع الوزير على أن يحضر هذا اللقاء مع الرئيس كل من أحمد إسماعيل، وسعد الشاذلي، ومحمد علي فهمي. وحسني مبارك، وعبد الغني الجمسي، وسعيد الماحي، وفؤاد نصار. وصل رئيس الجمهورية ومعه المهندس عبد الفتاح عبد الله [٩] إلى المركز ١٠ حوالي الساعة ٢٢٣٠ يوم ٢٠، وتوجه فورا إلى غرفة احمد إسماعيل حيث بقي معه ما يقرب من ساعة، بينما كنت أنا مجتمعا مع باقي الأعضاء في غرفة المؤتمرات الملاصقة لغرفة العمليات

نتبادل وجهات النظر حول الموقف.

وفي النهاية دخل علينا الرئيس ومعه احمد إسماعيل والمهندس عبد الفتـــاح عبـــد الله. طلـــب الرئيس الكلمة من المجتمعين واحدا بعد الآخر. وقد قام كل منهم بشرح موقف القوات بأمانة تامة، وبعد أن استمع إليهم جميعا لم يطلب مني الكلمة وعلق قائلا:" لن نقوم بســحب أي جنــدي مــن الشرق ". لم أتكلم ولم اعلق. غمزني المهندس عبد الفتاح عبد الله وهمس في أذنـــي:"قــل شــيئا" ولكني تجاهلت نصيحته. مـــاذا أتكلم، وقد اتخذ الرئيس القرار ولا يريد أن يسمعني إنني أريد أن اسحب ٤ ألوية مدرعة من الشرق وهو يعارض سحب جندي واحد. إنه لم يتخذ هذا القرار عـــن جهل، بل عن معرفة تامة بالموقف. إنه لا يســتطيع أن يدعي بعد ذلك بأنه كان يعتقد أن العـــدو لديه ٧ دبابات في الغرب. انه يعرف الحــقائق كلها عن الموقف وهذا هو قراره.

يدعي السادات في مذكراته (الصفحة ٣٤٨) بأنني عدت من الجبهة منهارا يوم ١٩ مـــن أكتـــوبر وأنني طالبت "بسحب قواتنا في شرق القناة لأن الغرب مهدد ويؤسفني بأن أقول إن هـــذا كـــذب رخيص. لقد كنا تسعة أشـــخاص مات واحد ومـــازال الثمانية الآخـــرون أحياء وإني أتحدى إذا كان أحد من هؤلاء الأحياء يستطيع أن يشهد بصدق ما يدعيه السادات. لقد طالبت حقـــا بســـحب جـــزء من قواتنا من الشرق إلى الغرب وكانت مطالبتـــي بهذه العملية يوم ٢٠ من أكتوبر خامس محاولة جادة لإنقاذ الموقف. وكانت هذه المحاولات الخـــمس كما يلي:

١- عارضت دفع الفرقتين المدرعتين ٢١ و ٤ من الضفة الغربية إلى الضفة الشـــرقية يومي ١٢ و ١٣ من أكتوبر.

٢- طالبت يوم ١٥ من أكتوبر بإعادة الفرقتين المدرعتين ٢١ و ٤ إلى الضـــفة الغربيـــة بعـــد فشل هجومنا يوم ١٤ من أكتوبر.

٣- طالبت يوم ١٦ من أكتوبر بســـحب الفرقة ٤ المدرعة واللواء المـــدرع ٢٥ مـــن الضفـــــة الشرقية إلى الضفة الغربية، وثار الرئيس في وجهي ثورة عارمة كما سبق أن بينته.

٤- سحبت دون علم الوزير والرئيس يومي ١٧ و ١٨ من أكتوبر وحدات فرعية مـــن كتيبتـــين قواذف صاروخية موجهة "مالوتكا"، كانتا تخصان تشكيلاتنا في الغرب، وسحبت منها قبل بـــدء العمليات لكي ندعم بها فرق المشاة المكلفة بالعبور.

٥- طالبت يوم ٢٠ من أكتوبر بسحب ٤ ألوية مدرعة من الشرق إلى الغرب [١٠].

مسئوليه السادات عن حصار الجيش الثالث:

إن شرف القوات المسلحـــة المصرية وتاريخها الرائع الذي كـــتبته بدمائها فـــي أكتـــوبر ٧٣

يتطلبان منا أن نحـــدد من هو المسئول الحقيقي عن حدوث الثغرة ولماذا لم تدمر في حينها ، ومن هو المسئول الحقيقي عن حصار الجيش الثالث. إن حصار الجيش الثالث جريمة لا تغتفر وإنـــي لاتهم السادات بأنه هو المسئول الأول عنها. يقول السادات في مذكراتـــه صفحة ٣٥٣ إنه أمـــر قائد الجيش الثالث بالا يسمح للعدو بتحقيق أي تقدم نحو الجنوب وأن قائد الجيش الثالـــث أهمـــل تنفيذ ذلك. هذا كلام غريب لا يعتمد على المنطق أو العلم العسكري. كيف يستطيع قائد الجيش أن يمنع العدو من التقدم جنوبا في الوقت الذي لا يستطيع فيه أن يسحب جنديا أو أيـــة بندقيـــة مـــن الشرق ولا يملك في الغرب سوى لواء مشاة مقابل فرقتين مدرعتين للعدو. لا أعتقـــد أن عـــاقلا يمكنه أن يلوم قائد الجيش الثالث على ذلك.

ومن الغريب حقا أن السادات يعترف في مذكراته (صفحـــتا ٣٥٠ و ٣٥١) بأنه قرر فـــي هـــذه الليلة أن يطلب وقف إطلاق النار ولكنه يعطي لذلك أسبابا ومسوغات غريبة. فلو أنه أخذ برأيـــي أيام ١٣ و ١٥ و ١٦ أكتوبر لما ظهر موقف يوم ٢٠ أكتوبر، ولو اخذ برأيي يوم ٢٠ أكتوبر لما كانت له حـــاجة إلى طلب وقف إطلاق النار ولأصبح في إمكاننا أن نقـــاتل ونمنع العـــدو مـــن حصار الجيش الثالث وندمر قوات العدو غرب القناة بدلا من أن يطلب وقف إطلاق النار وهو في موقف ضعف. لقد رفض الســـادات وقف إطلاق النار عندما كنا في موقف قوة وطلـــب وقـــف إطلاق النار عندما أصبحنا في موقف ضعف. إن هذا يدل على انه لايستطيع أن يرى أو يتصور المستقبل. انه يعيش حاضره ومـــاضيه فقط، وليس هذا من صفات الرجل السياسي المحنك لقـــد كان اقتراحي الخاص بسحب ٤ ألوية مدرعة من الشرق ليلة ٢١/٢٠ من أكتوبر هـــي الفرصـــة الأخيرة لإنقاذ الشرف العسكري المصري. لقد فقـــدنا المبادرة نهائيا بعد ذلك وحتى نهاية الحرب.

حصار الجيش الثالث ومدينة السويس:

في خلال ليلة ٢١/٢٠ من أكتوبر والليلة التالية دفع العدو بفرقة مدرعة ثالثة إلى الغـــرب بقيـــادة الجنرال ماجن MAGEN ومن ثم كـــانت فرقـــة شارون تضغط شـــمالا فـــي اتجـــــاه الإسمـــاعيلية وفى مواجهتها اللواء المظلي ١٥٠، وإلى الغرب والجنوب كـــــانت فرقتـــا بـــرن وماجن تضـــغطان على الفرقة الرابعة المدرعة بقيـــادة قابيل. كان قابيل يقاتل تحت ظروف سيئة جدا، حيث كانت المواجهة واسعة جدا والأرض مناسبة للمدرعات مما يسمح لمـــدرعات العـــدو بالتسرب وتفادي المواقع التي تريد أن تتفاداها، كما كانت القوات الجوية الإسرائيلية تقدم معاونـــة فعالة للوحدات المدرعة وكـــانت تسيطر على سماء المعركـــة غرب القناة. وعندما دفعنا بقواتنا الجـــوية لاعتراض طائرات العدو في منطقة المعارك غرب القناة يوم ٢٠ من أكتـــوبر، قامـــت

القوات الجوية الإسرائيلية بإسقاط تسع عشرة طائرة لنا في معركـــة جوية واحدة. وبالإضافة إلى هذا التفوق الجوي الساحق فقد كان العدو يتفوق أيضا في المدرعات غرب القناة بنسبة تزيد على ٢:١.

وعلى الرغم من تلك الظروف السيئة كلها إلا أن العدو لم يكتسب الكثير مـــن الأرض خـــلال قتـــاله في الأيام ٢٠ و٢١ و٢٢. ففي الشمال لم تستطع فرقة شارون الوصـــول إلـــى تـــــرعة الإسماعيلية، وفي الجنوب توقفت فرقة برن عند جنيفة، وإلى الغرب والشمال منها فرقة مـــاجن، وإلى الغرب وصلت دبابات العدو إلى حوالي ١٥ كـــيلومترا غرب القناة لم يكن العـــدو يســـيطر على هذه المنطقة و كان ما يزال بداخلها بعض وحدات المشـــاة وكتائب ســــــام التـــي تفادتهـــا القوات المدرعة وبالتالي فلم تكن هناك خطوط دفاعية. إن وحداتنا التي تركها العدو خلفه تـــتحكم في خطوط مواصـــلات دباباته، وفي الوقت نفســـه فإن دبابات العدو أصـــبحت تتحكم في خطوط مواصـــلات وحداتنا التي تركتها الدبابات المعادية في الخلف. كان هذا هـــو الموقـــف عندمـــــا اصـــبح وقف إطـــلاق النار نافذ المفعول الســـاعة ١٨٥٢ يوم ٢٢ أكتـــوبر ١٩٧٣ [١١]. وقبـــل وقف إطلاق النار ببضع دقـــائق أطلقنا ٣ قذائف من صواريخنا SCUD R- 17-E على العدو في منطقة الدفرسوار، وقد تم إطلاق هذه القذائف بناء على أوامر من السادات وأعلن لوسائل الإعلام بأنها "القاهر" الذي تم تصنيعه في مصر. كان السادات يريد أن يوهم إسرائيل بان لديه الأســـلحة التي يستطيع بها أن يضرب العمق الإسرائيلي. وقد كرر هذا القول في مذكراته في صفحة ٢٨٠. إذ قال إنه عندما قابل كيسنجر يوم ١٣ من ديسمبر ١٩٧٣ قال له: "كـــان في إمكاني أن اضرب في عمق إســـرائيل وهي تعلم ذلك وتعلم أنت أن لدي السلاح الذي يقوم بذلك". [١٢]

ولكي يفاوض الإسرائيليين من موقف قوة ولكي يملوا شروطهم على الســـادات اســـتأنفوا القتـــال صباح يوم ٢٣ من أكتوبر بهدف إتمام حصار الجيش الثالث وبحجة أن الجيش الثالث انتهك قرار وقف إطلاق النار. لقد اعتمدت عملياتهم يوم ٢٣ من أكتوبر على عنصر المفاجأة والعامل النفسي الذي يدفع الفرد إلى التراخي بعد فترة مرهقة من القتال المستمر لعدة أيام متتالية، وفوق هذا وذاك على تفوقهم العسكري الواضح في الدبابات وفي الطيـــران في المنطقة التي اختاروها لقتالهم. لقد ثبتوا الفرقة الرابعة المدرعة بأحد ألويتهم المدرعة واندفعوا جنوبا بثلاثة ألوية مدرعـــة ضـــد لا شيء.. ضد وحدات إدارية ومعسكرات نقاهه، إلخ. قاموا بتطويق مدينة السويس واستمروا فـــي اندفاعهم جنوبا على خليج السويس حتى وصلوا إلى ميناء الأدبـــية التي تقع جنوب مدينة السويس بـــ ١٥ كيلومترا فوصلوها منتصف الليل. كانت الدبابات تضيء كشافاتها وكأنهـــا فـــي طـــابور

استعراض ليلي. كان الجنود المصريون في بعض المواقع المنعزلة يتفرجون على هذا القول من الدبابات وهو يسير على طريق الإسفلت على شكل قطار فردي (دبابة وراء أخرى) و أنوارها مضاءة و لا يتصور أي منهم أن تلك دبابات معادية، فلا هي تطلق النار على أحد ولا أحد يطلق عليها النيران. إن الإسرائيليين يصفون هذه العملية في كتبهم التي نشرت بعد الحرب بـ "الاندفاع المدرع الجري" نحو الجنوب.. أية شجاعة وأية جرأة هذه؟ أين كانت هذه الجرأة قبل ذلك إن فرقة شارون المدرعة ومعها لواء مظلي ظلت تقاتل لواء مظليا مصريا لمدة أسبوع كامل ولم تستطع أن تكسب اكثر من عشرة كيلومترات، وفرقة برن هي الأخرى تقاتل منذ إسبوع وانضمت إليها فرقة ماجن منذ يومين ولم تستطع الفرقتان المدرعتان أن تتقدما اكثر من ٢٠ كيلومتراً إلى الجنوب من الدفرسوار. وبعد أن يعلن وقف إطلاق النار فإن الجرأة والإقدام يحلان بالإسرائيليين فجأة فيتقدمون حوالي ٣٥ كيلومترا في يوم واحد هو يوم ٢٣ أكتوبر!.

إن من يريد أن يقوم بأي عمل فإنه يستطيع دائما أن يجد المسوغ لذلك. لقد ادعت إسرائيل عام ١٩٦٧ أننا بدأنا القتال ولم يكن ذلك صحيحا. وادعت مصر عام ١٩٧٣ان إسرائيل هي التي بدأت القتال ولم يكن ذلك صحيحا أيضا، وقد اعترف كل منا بالحقيقة بعد ذلك. ولذلك فإني لا ألوم إسرائيل على ادعائها يوم ٢٣ من أكتوبر بأنها استأنفت القتال مدعية كذبا بان الجيش الثالث كسر وقف إطلاق النار، ولكني ألوم الجنرال دايان على استمراره في هذا الادعاء الباطل وذلك في مذكراته التي نشرت عام ١٩٧٥. إن الأمانة التاريخية كانت تفرض عليه أن يقول الحقيقة ولكنه لم يقلها. ومع ذلك فإن في مذكرات دايان ما يفضح بطلان إدعائهم حيث يقول دايان "أنه طالب الجنرال بارليف قائد الجبهة الجنوبية صباح يوم ٢٢ من أكتوبر بضرورة احتلال جبل عتاقة قبل وقف إطلاق النار". (١٣)

ويقول أيضا "وبوصول قواتنا إلى ميناء الأدبية واشتراك قواتنا البحرية في إغلاق الممر المائي إلى السويس، تم حصار الجيش الثالث ومدينة السويس من هذا الاتجاه" لقد كان الهدف إذن هو حصار الجيش الثالث قبل وقف إطلاق النار حتى يمكن التفاوض والمساومة من موقف قوة فلما لم تتمكن القوات الإسرائيلية من تنفيذ ذلك قبل وقف إطلاق النار يوم ٢٢ من أكتوبر كان لابد من تنفيذ المهمة حتى بعد وقف إطلاق النار.

فوجئت الحامية البحرية في الأدبية بدخول الدبابات عليها فنشبت معركة قصيرة غير متكافئة بين رجال البحرية وبين دبابات العدو، وتمكنت الزوارق السريعة من الهرب، وبعد أن اتضحت صورة الموقف قرر قائد قطاع بير عديب القيام بهجوم مضاد فجر يوم ٢٤ من أكتوبر لاسترداد

القاعدة وفي الصباح قامت قوة تقدر بسرية مشاة تدعمها ٧ دبابات ت ٣٤ بمهاجمة القاعدة، وعلى الرغم من صغر حجم هذه القوة المهاجمة إلا أن العدو- الذي يحتل الميناء- طلب معاونة جوية. هاجم طيران العدو القوة المهاجمة أصاب دباباتنا السبع إصابات مباشرة أصيبت سرية المشاة بخسائر جسيمة. عندما زرت هذا المكان بعد أيام قليلة وقفت خاشعا أمام تلك الدبابات المحترقة التي تشهد بشجاعة وإقدام الجندي المصري التي ظهرت بأعلى صورها خلال حرب أكتوبر ٧٣.

وبحلول يوم ٢٤ من أكتوبر اصبح الموقف سيئا للغاية، فقد أتم العدو حصار قوات الجيش الثالث الموجود شرق القناة وعزلها عن مركز قيادة الجيش الثالث غرب القناة، وقد هاجمت دبابات العدو مركز قيادة عبد المنعم واصل ودمرته ونجا هو بأعجوبة. لقد أصبحت فرقتا مشاة مدعمتان قوامهما حوالي ٤٥٠٠٠ ضابط وجندي ومعهم حوالي ٢٥٠ دبابة ومن خلفهم مدينة السويس، أصبح هؤلاء كلهم محاصرين حصارا تاما . وقد أصبحت هذه القوة كلها خارج إمكانات شبكة الدفاع الجوى SAM وبالتالي أصبحت مهددة بالقصف الجوي المعادي دون أية فرصة لردع الطائرات المهاجمة. لم تكن لدينا في الغرب القوات الكافية التي تسمح لنا بفك الحصار. كان العدو يعلم هذه الحقائق كلها فقامت القوات الجوية المعادية يوم ٢٤ من أكتوبر بهجوم مركز على الجيش الثالث وقامت خلال هذه الغارات بتدمير وسائل العبور جميعها من كباري ومعديات كانت ماتزال في منطقة الجيش، وبذلك قضت نهائيا على أية فرصة لانسحاب هذه القوات.

لقد كان القضاء على الثغرة يوم ١٦ من أكتوبر سهلا ميسورا لو لم يثر السادات في وجهي وكأني ارتكبت حماقة، وفي يوم ٢٠ من أكتوبر كان الموقف ما يزال تحت سيطرتنا ويمكن القضاء على الثغرة لو أن السادات اخذ برأيي ولم يرفض سحب جزء من قواتنا في الشرق. إن في ذلك لعبرة ودرسا لمصر وأبنائها. أنه درس قاس دفعت مصر والعرب ثمنا غاليا له، ولكنه درس على أي حال. إن السادات هو أحد مئات من حكام مصر الذين حكموا هذه البلاد عبر ٧٠٠٠ عام سيذهب ويجئ من بعده مئات آخرون، وستبقى مصر شامخة عزيزة الجانب وسيشهد التاريخ أن حرب أكتوبر ٧٣ قد أبلى فيها الجندي المصري احسن بلاء وأن الضباط والجنود جميعا قد بلوا جهدهم وأدوه أروع أداء، إلا أن حاكم مصر في ذلك الوقت المتعطش إلى السلطة وحب الظهور- قد أجهض انتصارهم.

الإنذار السوفيتي:

بينما كانت إسرائيل تدفع بفرقتين مدرعتين صباح يوم ٢٣ أكتوبر لإتمام حصار الجيش الثالث، كان كيسنجر وزير خارجية أمريكا يغمض عينيه وكأن طائرات الاستطلاع والأقمار الصناعية الأمريكية قد فقدت بصرها. كان كيسنجر يهدف من وراء ذلك مساعدة أبناء شعبه في إسرائيل كي يصلوا إلى موقف يستطيعون منه أن يفاوضوا من موقف قوة وهكذا لم يجد السادات من يلجأ إليه في ذلك الوقت سوى الاتحاد السوفيتي. ومن ثم لجأ السادات إلى الاتحاد السوفيتي مرة أخرى بعد أن لجا إليه يوم ٢١ من أكتوبر، وبعد أن كان يرفض وساطته منذ بدء القتال وحتى يوم ١٨ أكتوبر. لجا يطلب منه العون فاستجاب له الاتحاد السوفيتي وفي صباح يوم ٢٤ من أكتوبر انتقد الاتحاد السوفيتي إسرائيل وهاجم أمريكا بصفة علنية في الأمم المتحدة واتهمها بأنها بينما تتظاهر بأنها تؤيد قرار وقف إطلاق النار في الأمم المتحدة فإنها تشجع إسرائيل في اعتداءاتها وتمدها بأسلحة بلغ ثمنها ٢٢٠٠ مليون دولار. (١٤) وفي اليوم نفسه رفع الاتحاد السوفيتي درجة الاستعداد لـ ٦ فرق جنود مظلات قوامها ٤٥٠٠٠ رجل وسلمت رسالة إلى نيكسون من بريجنيف وصفها بعضهم بالإنذار ووصفها آخرين بالعنف الشديد. وعلى الرغم من أن الرسالة لم تنشر بكاملها إلا أنه عرف بعض محتوياتها وفيها يقول "سوف أقولها بصراحة.. إذا لم يكن من الممكن أن تعملوا معنا في هذا الموضوع، فقد نجد أنفسنا أمام موقف يضطرنا إلى اتخاذ الخطوات التي نراها ضرورية وعاجلة.. لا يمكن أن يسمح لإسرائيل بان تستمر في عدوانها هكذا".

وبعد وصول هذه الرسالة الشديدة اللهجة قام نيكسون برفع درجة الاستعداد في القوات المسلحة الأمريكية في جميع أنحاء العالم، وبدا الموقف وكان الدولتين العظميين على وشك المجابهة وأصيب العالم بالذعر وكانت الحرب العالمية الثالثة على وشك الحدوث، وبضغط خفيف من أمريكا- وبعد أن أتمت إسرائيل حصار الجيش الثالث- قبلت إسرائيل إيقاف إطلاق النار مساء يوم ٢٤ من أكتوبر، ولكنها عارضت الالتزام بقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٩ لأنه ينص على أن تنسحب القوات المتحاربة فورا إلى خطوط يوم ٢٢ أكتوبر، وكانت معارضة إسرائيل لهذه النقطة بالذات هي بحجة أنها لا تعرف بالضبط ولا يمكن لأحد أن يحدد بالضبط أين كانت خطوط يوم ٢٢ من أكتوبر مرة أخرى فأنا لا ألوم إسرائيل على ادعائها بأنها لا تعرف أين كانت خطوط يوم ٢٢ أكتوبر ولا ألوم أمريكا أيضا عن سكوتها على هذا الادعاء إن ذلك كله هو جزء من قواعد اللعبة السياسية.. اللعبة التي لا تعتمد إلا على القوة.

وعلى الرغم من إعلان إسرائيل قبولها وقف إطلاق النار الثاني الذي اصبح ساري المفعول

اعتبارا من مساء ٢٤ من أكتوبر، إلا أنها استمرت في عملياتها ضد قوات الجيش الثالث ومدينة السويس طوال الأيام ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ أكتوبر. كان الإسرائيليون يأملون بذلك أن يستسلم الجيش الثالث المحاصر وأن يدخلوا مدينة السويس قبل أن تصل قوات الأمم المتحدة، ولو قدر لهم أن يحققوا ما كانوا يهدفون إليه لادعوا أنهم استولوا على الجيش الثالث يوم ٢٢ من أكتوبر. وهذا يفسر مرة أخرى لماذا ادعت إسرائيل في الأمم المتحدة يوم ٢٤ أكتوبر بأن خطوط وقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر لم تكن معروفة.

وهكذا قام الإسرائيليون بهجمات جوية مكثفة ضد وحدات الجيش الثالث المحاصرة والتي كانت قد أصبحت خارج مظلة دفاعنا الجوي، واستخدم الإسرائيليون لأول مرة أنواعا جديدة من صواريخ جو–ارض لم تكن لديهم عند بداية الحرب. لقد توالت البلاغات بأن بعض الدبابات المخندقة أصيبت إصابات مباشرة بواسطة الصواريخ جو– ارض. وهنا ثبت لنا أن العدو قد بدا يستخدم الصواريخ الأمريكية الحديثة مافريك MAVERICK التي وصلت إليه ضمن الجسر الجوي الأمريكي، ولكن تلك الهجمات الجوية لم تؤثر في معنويات الوحدات المحاصرة فقد سبق لها أن تعودت عليها خلال فترة حرب الاستنزاف ٦٨–٧٠، وصمدت وحدات الجيش الثالث ولم تستطع إسرائيل أن تحقق هدفها.

العدو يحاول احتلال مدينة السويس:

وفي يوم ٢٤ من أكتوبر هاجم الإسرائيليون مدينة السويس مستخدمين في ذلك ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مظليا، ولكن مدينة السويس –التي لم تكن بها أية وحدات عسكرية– قاومت الهجوم وصدته. لم تكن بالمدينة أية وحدات عسكرية ولكن بعض الجنود الشاردين نتيجة القتال الذي دار في يوم ٢٣ من أكتوبر توافدوا إلى المدينة وليس معهم سوى أسلحتهم الشخصية من بندقية أو رشاش خفيف أو ر.ب.ج. وبمبادرة من العميد يوسف عفيفي قائد الفرقة ١٩ مشاة التي كانت شرق القناة، وبالتعاون مع محافظ مدينة السويس قام الطرفان بتجهيز المدينة للمقاومة خلال يوم ٢٣ من أكتوبر. لقد تم تجميع الجنود الشاردين وتنظيمهم في مجموعات صغيرة وتم توزيع السلاح على الأهلين المدنين وقام العميد يوسف عفيفي بسحب بعض جماعات اقتناص الدبابات من الشرق ونقلها إلى المدينة في الغرب، وقبل فجر يوم ٢٤ من أكتوبر كانت المدينة قد جهزت نفسها للقاء العدو.في حوالي السابعة من صباح يوم ٢٤ من أكتوبر وبعد قصف مكثف من المدفعية والطيران بدا العدو هجومه على مدينة السويس. لواء مدرع يتقدم من الشمال على محور الاسماعيلية السويس، لواء مدرع مدعم بكتيبة مظلات يتقدم على محور القاهرة السويس،

لواء مدرع يتقدم من اتجاه الزيتية (إتجاه جنوب وجنوب شرق)، فشل هجوم اللواء المدرع الـــذي على المحور الشمالي ولم يستطع دخول المدينة. بينما نجحت دبابات العدو التـــي تهـــاجم علـــى المحورين الغربي والجنوبي في الدخول إلى شوارع المدينة ودار قتـــال عنيف مع العـــدو كـــان السلاح الرئيسي فيه هو ر.ب.ج RPG والأسلحة الصغيرة وخسر العدو الكثيـــر مـــن الـــدبابات واضطر إلى الانسحاب من المدينة قبل حلول الظلام تاركـــا خلفه دباباته المحطمـــة ومجموعـــة كبيرة من المظليين المحاصرين داخل المدينة، وقد حاول العدو ســـحب هذه القـــوة المحاصـــرة خلال الليل تحت ستار عنيف من قصف المدفعية فافلت بعضـــهم وسقط الكثير قتلى. لقد خســـر العدو في محاولته احتلال السويس ١٠٠ قتيل وحوالي ٥٠٠ جريح، وعلى الرغم من انه استخدم فرقة مدرعة من ثلاثة ألوية مدرعة ولواء مظلي إلا أن سكان السويس وحفنة من الجنود الشاردين صدوا هجومه. إن ملحمة السويس هي شهادة أخرى للمواطن المصري ومدى قدرته على التحمل والتحدي وقت الشدائد. ولكي يغطي العدو خيبة الأمل التي أصيب بها بعد فشـــل هجومـــه علـــى السويس أطلق على المدينة الباسلة قواته الجوية ومدفعيته واستمر يقصفها طوال الأيام ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ أكتوبر.ولم يتوقف القصف إلا صباح يوم ٢٨ من أكتوبر بعد وصول قوات الأمم المتحـــدة إليها. لقد بلغت خسائر الجيش الثالث ومدينة السويس نتيجة قصف الطيران والمدفعية خلال الفترة من٢٤-٢٧ أكتوبر حوالي ٨٠ شهيد و٤٢ جريحا.

هوامش الفصل الرابع والثلاثون

(١) من الثابت في سجلات الحرب و اجتماعات المجلس الأعلى للقوات المسلحة أني تحركت إلى الجيش الثاني بعد يوم ١٨ من أكتوبر و أنني عدت يوم ٢٠ من أكتوبر ومن الثابت أيضاً من سجلاتنا ومن اعترافات العدو في الكتب التي نشرت بعد الحرب جميعها أن العدو لم يعبر بأية قوات إضافية خلال تلك الفترة.وأن الجنرال دايان وزير الدفاع الإسرائيلي يعترف في مذكراته(صفحة ٤٣٩) بأنه كاد يقتل الساعة ١١٣٠ يوم ١٩ من أكتوبر وهو يحاول أن يعبر إلى غرب القناة وأنة اضطر إلى العودة إلى تل أبيب وعدل عن زيارة الوحدات الإسرائيلية غرب القناة لاستحالة العبور نتيجة قصف المدفعية. وبالرغم من هذه الحقائق الجامعة يدعي السادات في مذكراته (صفحة ٣٤٨) بأنني ذهبت إلى الجيش الثاني من يوم ١٦ وعدت منه يوم ١٩!!

(٢) يقول هرتزوج في كتابه The war of atonement صفحة ٢٣٩: "لقد كان الكوبري تحت نيران مستمرة وفي ليلة واحدة قتل ٤١ شخصاً من قوة جاكي (المكلفة بتشغيل الكوبري) وجرح عدة مئات.

(٣) ماذا يمكن أن يفعل لواء مظلات وكتيبتان من الصاعقة أكثر من ذلك؟ لقد صدرت فرقة شارون التي كانت تتكون من لواءين مدرعين ولواء مظلي، اعتبارا من ليلة

١٩/١٨ من أكتوبر حتى نهاية الحرب. وشهد بذلك شاهد من أهلهم وهو الجنرال هرتزوج الإسرائيلي.

(٤) لقد ثبت خلال حرب أكتوبر عدم صلاحية المشاة الميكانيكية من حيث التنظيم في قتال المدرعات، فإذا كانت في الدفاع وفي حفر مستورة فإن مدرعات العدو تستطيع الالتفاف حولها وتطويقها، وإذا كانت في دفاع على عجل وكانت عرباتها ظاهرة فوق سطح الأرض فإن دبابات العدو تستطيع تدميرها بمدافعها ١٠٥ مم بينما لا تستطيع المشاة الميكانيكية أن ترد عليها لعدم توافر الأسلحة المضادة للدبابات للمدى البعيد، وإذا قامت بالهجوم فإن العدو يستطيع أن يدمر مركباتها!!

قد تكون فرقة المشاة الميكانيكية ذات فائدة في بعض الجيوش ولكن بالنسبة لمصر حيث يعتمد العدو في الدفاع والهجوم على الدبابات فإن هذه الفروق تعتبر قليلة الأهمية.

الفصل الخامس والثلاثون

مأساة الجيش الثالث

صدام آخر بين أحمد إسماعيل و الشاذلي:

في الساعة ١١٠٠ يوم ٢٥ من أكتوبر اجتمع المجلس الأعلى للقوات المسلحة برئاسة السيد الوزير لأول مرة منذ اندلاع القتال وكان الموضوع الرئيسي للمناقشة هو كيف يمكن إعادة فتح الطريق إلى الجيش الثالث. وقد تكلم المجتمعون كلهم بإخلاص تام، ولكننا لم نستطع الوصول إلى أي حل وانفض الاجتماع على أساس إجراء الدراسات اللازمة حول هذا الموضوع (انظر الخريطة رقم ٧).

في الساعة ١١٠٠ يوم ٢٦ من أكتوبر حضر العميد قابيل قائد الفرقة الرابعة المدرعة إلى المركز ١٠ ليعرض نتيجة دراسته، وكان تقرير العميد قابيل- يؤيده في ذلك اللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث- هو أن الفرقة الرابعة المدرعة لا تستطيع أن تقوم بتنفيذ هذه المهمة. كان كلام قابيل وعبد المنعم واصل كلاما منطقيا يعتمد على قواعد وأصول العلم العسكري ولم اكن أنا شخصيا أتوقع غير ذلك منذ يوم ٢٣ أكتوبر. ولكن الوزير اخذ يحاور قابيل محاورات غريبة. وهنا قال قابيل "إنني وضباط وجنود الفرقة جميعنا مستعدين للقيام بهذه العملية الانتحارية، ولكني لا اعتقد أننا سننجح في فتح الطريق إلى القوات المحاصرة بعد ذلك كله. وإذا

دمرت هذه الفرقة فسيكون الطريق مفتوحا أمام العدو إلى القاهرة".

قال الوزير "إذن نعدل المهمة من فتح طريق السويس إلى حماية قوات إدارية تتحرك من القاهرة إلى الجيش الثالث عبر المسالك والطريق الثانوية كدت أصعق وأنا استمع إلى الوزير وهو يدلي بهذا القول. لأن مثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر من شخص بكامل قواه العقلية نظرا لأنه كلام غير منطقي إطلاقا فكيف يصدر من وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة؟

١- إن الحد الأدنى لمطالب الجندي من التعيينات والمياه وقت الحصار هو ٣,٥ كيلوجرام في اليوم، وهذا يعني أن القوات المحاصرة -عدا المدنيين الموجودين في مدينة السويس- تحتاج إلى ١٥٠ طنا يوميّا لكيلا يموت الجنود جوعا وعطشًا.
٢- إن استخدام المسالك والأرض المفتوحة يتطلب عربات ذات جنازير حتى يمكنها عبور الأراضي المفتوحة ومجاري السيول، ولو حملت كل من هذه العربات ١،٥ طن فإننا نحتاج إلى حوالي ١٠٠ عربة مجنزرة على الأقل لتنقل احتياجات يوم واحد بفرض أنها جميعا ستصل سليمة ولن ينجح العدو في تدمير أي منها.
٣- أن العدو يتمتع بالسيطرة الجوية في تلك المنطقة ويستطيع أن يكشف أية تحركات كبيرة بالحملة عبر هذه المسالك ويقوم بتدميرها.
٤- إن مخارج هذه الأراضي المفتوحة جميعا يجب أن تمر في النهاية خلال المنطقة ما بين جبل عتاقة وجبل جنيفة أو ما بين جبل جنيفة والبحيرات المرة، وهي مناطق يسيطر عليها العدو.
٥- من غير المعقول أن نقوم بهذه المغامرة من اجل إرسال احتياجات يوم واحد، فلو فرضنا إمداد القوات المحاصرة باحتياجات سبعة أيام فإننا نحتاج إلى ٧٠٠ مركبة مجنزرة للقيام بهذه المهمة الإدارية، وهذا رقم كبير غير متيسر. ولو تيسر لنا هذا العدد من المجنزرات واستخدمناها بهذا الأسلوب الساذج لكان سبة في جبيننا.
٦- إذا كانت الفرقة الرابعة المدرعة لا تستطيع أن تفتح الطريق وحدها فكيف نحملها مسئولية عبء ثقيل وهو حماية ٧٠٠ مركبة تحمل مطالب إدارية؟
٧- هل نترك الباب مفتوحا إلى القاهرة بينما تكون الفرقة الرابعة المدرعة مشغولة بهذه العملية؟

عارضت الوزير ولكنه أصر وطلب إلى أن اصدر أمرّا كتابيا إلى قائد الفرقة بتنفيذ هذه المهمة فرفضت وقلت له "لن أوقع بإمضائي على هذه المهمة، يمكنك أن توقع على هذا الأمر وحدك إن شئت". وهنا لجا الوزير إلى مناقشات غير منطقية الهدف منها تسجيل مواقف فقال "أنا لا افهم

ماذا تريد بالضبط ؟ هل تريد لهؤلاء الرجال المحاصرين أن يستسلموا؟" فأجبت "بالطبع لا أريد ذلك، ولكن في الوقت نفسه لا أريد أن نفقد الفرقة الرابعة المدرعة دون أن يتغير الموقف في شيء" ، فقال يجب ألا تقول هذا الكلام في حضور قائد الفرقة المكلف بهذه المهمة""، [١] قلت "إنني ابدي رأيي بصراحة تحتمها عليّ مسئوليتي، وعموما هناك تقرير مكتوب من قائد الجيش الثالث يتفق مع وجهة نظري". قال الوزير "إذا لم توقع على الأمر للفرقة الرابعة لتنفيذ هذه المهمة فسوف أقوم بإخطار الرئيس بذلك"، أجبت بهدوء "يمكنك أن تفعل ذلك بكل تأكيد". قام الوزير بتوقيع الأمر بعد ذلك وسلمه إلى العميد قابيل [٢]. ولكن المهمة ألغيت بعد ذلك ولم تنفذ قط ربما لأن الوزير لم يستطع أن يتحمل وحده مسؤولية هذه العملية الطائشة.

السادات في قبضة كيسنجر:

في الساعة ٢٣٠٠ من يوم ٢٦ من أكتوبر وصلت إلى القاهرة الدفعة الأولى من قوة الطوارئ الدولية وكان عددها ٥٠ فردا. واعتبارا من الساعات الأولى من يوم ٢٧ من أكتوبر وضعت الأطراف جميعها أوراقها على المنضدة ذهب الوزير لمقابلة الرئيس في الساعة الرابعة صباحا وعاد حوالي السادسة، وأدلى بالتعليمات التالية:

١- لقد تلقى الرئيس رسالة من الرئيس نيكسون يخطره بأنه سوف يكون هناك حل مشرف لمشكلة الجيش الثالث.

٢- يجب أن نوقف النشاطات العسكرية جميعها اعتبارا من الساعة ١٣٠٠ اليوم .

٣- يدفع اليوم رتل من الحملة يحمل المطالب الإدارية للجيش الثالث. يتحرك الرتل في الساعة ١٣٠٠.

٤- تبدأ المفاوضات اليوم الساعة ١٥٠٠ عند علامة الكيلو ١٠١ طريق مصر- السويس ويرأس الوفد المصري اللواء عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات.

ومنذ هذه اللحظة- من الناحية الواقعية منذ ٢٣ من أكتوبر- أصبح الجيش الثالث رهينة في يد إسرائيل وفي يد كيسنجر. لقد اصبح مصير الجيش الثالث مرتبطا بمدى المطالب التي تطلبها إسرائيل وأمريكا ومدى خضوع السادات لهذه المطالب. وقد استغلت كل من إسرائيل وأمريكا هذه الرهينة احسن استغلال كما سوف نرى.

مفاوضات الكيلو ١٠١:

كان المصريون يستعجلون الأمور، وكان الإسرائيليون يعلمون ذلك فيتعمدون تأخير كل شيء وتعطيل كل شيء لقد أصبحت المعركة الآن معركة سياسية واصبح من بيده إمداد الجيش الثالث

بكسرة خبز واحدة هو كيسنجر. كان كيسنجر يعلم تلك الحقيقة وكان يعلم أيضا أن السادات هو الآخر يعلمها، ولكنه كان يريد أن يذكر السادات بهذه الحقيقة باستمرار حتى يستطيع أن يسيطر عليه سيطرة تامة.

كانت الخطة التي وضعها كيسنجر مع إسرائيل تتلخص فيما يلي:

١- كلما طالت مدة حصار الجيش الثالث كان ذلك افضل، حيث إن ذلك سيعطي إسرائيل وأمريكا فرصة أفضل لتحقيق مطالبهما.

٢- يتم إمداد الجيش الثالث في أضيق الحدود بحيث يكون دائما "من اليد إلى الفم" وليس لديه أي احتياطي من التعيينات أو الاحتياجات. ومن هنا يصبح كل يوم يمر عنصر ضغط سياسي على السادات وكأنه يقول له " توافق على هذا الطلب أم نمنع مرور قول التموين إلى الجيش الثالث؟ ".

٣- إن مصر يجب أن تدفع- بسخاء- لكل من إسرائيل وأمريكا ثمنا لإنقاذ الجيش الثالث. كان الثمن الذي تريده أمريكا هو طرد النفوذ السوفيتي من المنطقة، وإلغاء الحظر الذي فرضته الدول العربية على إمداد أمريكا والدول الغربية بالوقود. أما إسرائيل فكانت مطالبها كثيرة ومتعددة كما سوف نرى، وكان أهم ما فيها هو اتفاقية يناير ٧٤ الخاصة بفض الاشتباك الأول والتي تعهدت فيها مصر بسحب قوات الجيشين الثاني والثالث من المنطقة شرق القناة وذلك فيما عدا ٧٠٠٠ جندي و٣٠ دبابة فقط.

بدأت مرحلة ابتزاز النظام المصري واستغلال وجود الجيش الثالث كرهينة اعتبارا من صباح يوم ٢٧ من أكتوبر. ففي هذا اليوم وبناء على اتفاق السادات وواشنطن تحرك قول إساري من القاهرة لإمداد الجيش الثالث. كان القول الإداري مكونا من ١٠٩ عربات تحمل ١٠٠٠ طن من الاحتياجات من مواد الإعاشة وكان معه ٢٠ عربة إسعاف لإخلاء الجرحى. ولكن الإسرائيليون رفضوا السماح له بالمرور. كذلك ذهب الجمسي إلى الكيلو ١٠١ طريق السويس ولكنه عاد لأنه لم يجد أحدا يريد استقباله. واهتزت أسلاك الهاتف بين القاهرة وواشنطن وتل أبيب، ثم قيل للجمسي اذهب مرة أخرى وميعاد المقابلة هو منتصف الليل، وذهب الجمسى إلى الكيلو ١٠١ مرة أخرى ولكنه عاد أيضا دون أن يقابله أحد، واهتز الهاتف مرة أخرى بين القاهرة وواشنطن. وبعد سلسلة من التأجيلات وافق الجانب الإسرائيلي على استقبال الجمسي عند علامة الكيلو ١٠١ الساعة ١٢٠٠ يوم ٢٩ من أكتوبر ٧٣.

أما بخصوص إمداد الجيش الثالث فقد أثاروا الكثير من العقبات وفرضوا الكثير من القيود التي قبلها الجانب المصري بأكملها لأنه لم تكن لديه أية فرصة للمساومة. [٣]

(أ) قالوا إنهم لن يسمحوا إلا بمرور الإمدادات الطبية فقط وبعد مناقشات مطولة وافقوا في الساعة ١٧٠٠ يوم ٢٩ من أكتوبر على إمداد القوات المحاصرة بثلاثين طناً فقد من الاحتياجات (٢٠ طن مياه و ٨ أطنان تعيينات و ٢,٥ من المواد الطبية). [٤]

(ب) كانوا يجرون تفتيشاً دقيقاً ومهيناً للعربات التي تحمل تلك الاحتياجات الإدارية.

(ج) رفضوا السماح للسائقين المصريين أن يتقدموا بتلك العربات بعد علامة الكيلو ١٠١ وأصروا على أن يقودها سائقون إسرائيليون أو سائقون تابعون للأمم المتحدة خلال الرحلة ما بين الكيلو ١٠١ والقوات المحاصرة وقبل المفاوض المصري، وعلى الرغم من هذه التنازلات المهينة كلها إلا أن نسبة كبيرة من إمداداتنا إلى القوات المحاصرة كان ينهبها الإسرائيليون خلال الطريق.

كانت مفاوضات الكيلو ١٠١ غريبة في طبيعتها. لقد كانت عبارة عن تلقي تعليمات الجانب الإسرائيلي يومياً كثمن لإمداد الجيش الثالث باحتياجاته. في أول يوم للاجتماع طلب الجانب الإسرائيلي الإفراج عن جاسوس إسرائيلي كان في قبضتنا أسمه أفيدان Avidan وكان قد حكم عليه بالسجن بحكم محكمة وكان حينئذ يقضي العقوبة في أحد سجوننا. وافق الرئيس وفي اليوم التالي كان أفيدان يرافق الجمسي في عربته إلى الكيلو ١٠١ ليسلمه بنفسه إلى الجانب الإسرائيلي.. كان أفيدان هو المقدمة ثم تبع ذلك المطالبة بتسليم الجواسيس الإسرائيليين كلهم الذين يقضون أحكاما في السجون المصرية بما فيهم الجاسوس المصري باروخ مزراحي وهو يهودي مصري اختفى قبل ذلك من مصر ثم ضبط في إحدى الدول العربية تحت اسم آخر وكان يتجسس لحساب إسرائيل. طالبوا بعد ذلك بتبادل أسرى الحرب كانت وجهة نظر مصر أن يؤجل تبادل أسرى الحرب إلى ما بعد التوقيع على اتفاقية فض الاشتباك. رفضت إسرائيل. فعدلت مصر طلبها بأن يكون تبادل الأسرى بعد انسحاب الإسرائيليين إلى خط ٢٢ من أكتوبر فرفضت إسرائيل وأعلنت جولدا مائير في الكنيست في ١٤ من نوفمبر ٧٣ "لن يمر كيلو جرام واحد من الاحتياجات إلى الجيش الثالث إلا بعد أن يصل إلينا رجالنا الأسرى الذين في يد المصريين "، وأذعن السادات وبدأ تسليم الأسرى اعتبارا من يوم ١٥ من نوفمبر واستمر حتى ٢٢ من نوفمبر. وعندما اشتد البرد حاولنا إرسال البطانيات والملابس الصوفية إلى رجالنا ولكن الجانب الإسرائيلي رفض السماح بمرور هذه الأصناف.

كيسنجر يستغل حصار الجيش الثالث:

وعندما اشتكت القاهرة إلى واشنطن من التعنت الإسرائيلي، وصلت رسالة من الدكتور كيسنجر إلى وزير الخارجية المصري في ٤ من ديسمبر ٧٣ تتضمن النقاط التالية:

١- يجب أن تستأنف مفاوضات الكيلو ١٠١ على أساس تبادل المصالح [٥].
٢- إن مقترحات يا ريف YARIV (نظير الجمسي ورئيس الوفد الإسرائيلي في مفاوضات الكيلو ١٠١) يوم ٢٣ من نوفمبر يمكن أن تكون أساسا لمؤتمر سلام [٦].
٣- إن عدم رفع قيود البترول قبل انعقاد مؤتمر السلام قد يجعل أمريكا غير قادرة على اتخاذ موقف مؤثر.

ها هو ذا كيسنجر قد بدأ يساوم هو الآخر لصالح أمريكا. إن إمداد الجيش الثالث بالتعيينات والمياه يجب أن يقابله إمداد أمريكا والغرب بالوقود. إن طبيعة سلاح البترول هو أن قوة تأثيره لا تظهر إلا بعد بضعة أشهر. وفي الوقت الذي بدأت فيه أمريكا والدول المؤيدة لإسرائيل تشعر بالأثر الاقتصادي نتيجة للحظر الذي فرضته الدول العربية.. أقول في هذا الوقت وضع كيسنجر سلاح البترول في كفة الميزان وإنقاذ الجيش الثالث في الكفة الأخرى. كان على السادات أذن أن يلتمس من الإخوان العرب أن يقوموا بوقف استخدام هذا السلاح وهذا ما حدث فعلا. كان السادات هو اكثر الزعماء العرب تحمسا لإلغاء الحظر البترولي ضد أمريكا والدول المؤيدة لإسرائيل. مرة أخرى أقول أني لا ألوم كيسنجر على هذه السياسة فمن واجبه أن يخدم مصالح أمريكا، ولكني ألوم السادات لأنه هو الذي تسبب في حصار الجيش الثالث ولم يتصور ما يمكن أن يجره ذلك من مصائب.

وللاستفادة من حصار الجيش الثالث أرغمتنا إسرائيل على إعلان فك الحصار البحري عنها. كنا قد ألغينا هذا الحصار البحري عمليا يوم أول نوفمبر عندما سمحنا لناقلة بترول تحمل ١٢٣٠٠٠ طن بأن تدخل البحر الأحمر وتتجه شمالا إلى إسرائيل تحت نظرنا وفي مرمى صواريخنا. كان إغراق هذه الباخرة يعني التضحية بالجيش الثالث. كانت إسرائيل تعرف هذه الحقائق وتعرف أن غواصاتنا ولنشات صواريخنا التي تعمل في جنوب البحر الأحمر كان في استطاعتها أن تغرق هذه الباخرة ولكننا سمحنا لها بالمرور ثمنا لإمداد الجيش الثالث. ولكن هذا لم يكن ليكفي غرور إسرائيل التي كانت تستغل حصار الجيش للقيام بعملية ابتزاز فظيعة، وأرادت أن يكون إلغاء الحصار البحري بطريقة علنية يعلم بها العالم أجمع، وهكذا أعلنت أن الباخرة الإسرائيلية بيرسبع ستتحدى الحصار البحري وستدخل مضمور باب المندب يوم ٢ أو ٣ من ديسمبر وتتجه شمالا إلى إسرائيل، ودخلت السفينة ومرت أمام قطعنا البحرية وهي تتهادى، بينما ينظر إليها رجالنا في غيظ وحنق مكظومين.

السادات يكذب على الشعب:

وبينما كانت هذه الإجراءات المهينة تجري على المستوى السياسي والعسكري. كان الشعب المصري كالزوج المخدوع آخر من يعلم.. لم يكن يدري بما يحدث، كان يسمع ما يقال له وما يكتب له بواسطة وسائل الإعلام التي تسيطر عليها الدولة، وكم من مرة ومرات خدع حكام مصر هذا الشعب و أخفوا عنه الحقائق؟ ولكن إخفاء حصار جيش يتكون من ٤٥٠٠٠ رجل ومدينة كاملة لم يكن بالأمر الهين، إذ أن مئات الألوف من أقارب وأصدقاء هؤلاء الرجال بدأوا يتشككون في الموقف ونجح بعضهم في التقاط بعض الإذاعات الأجنبية، وهنا ظهرت الصحف يوم ٣٠ من نوفمبر بعناوين ضخمة " أن قواتنا تسيطر سيطرة تامة على الضفة الغربية تماما ما بين الدفرسوار والسويس.. إن معابر الجيش الثالث جميعها سليمة وان الإمداد يتم بانتظام". وفي حديث للرئيس السادات أمام مجلس الشعب في فبراير ٧٤ نفى أن الجيش الثالث قد حوصر !! أنني لا أتصور أن يكذب رئيس دولة -يدعي بان نظامه نظام ديمقراطي- بهذه الصورة ثم لا يجد من يسأله أو يراجعه لقد طرد الشعب الأمريكي الرئيس نيكسون لأنه كذب على الشعب الأمريكي كذبة صغيرة لو قيست بأكاذيب السادات لبدت وكأنها لا تدخل ضمن تعريف الكذبة وفي خلال اجتماع مجلس الشعب قام الرئيس السادات بإخراج تمثيلية ليقنع بها الأعضاء أن هذه التمثيلية مازالت عالقة بالأذهان وقد قام بعضهم بتسجيلها على الفيديو كجزء من تاريخ السادات استدعى الرئيس السادات اللواء بدوي الذي كان قائدا للقوة المحصورة ويشغل الآن منصب (ر.ا.ح.ق م.م) واخذ يوجه له أسئلة ويتلقى أجوبة تثبت أن الجيش الثالث لم يكن محاصرا [٧] هل هذا معقول ؟ وهل يصل الاستهتار بعقول الشعب أن يتمادى الحاكم في الكذب إلى هذا الحد؟!

اتفاقية فض الاشتباك:

في يوم ١٨ من يناير ١٩٧٤ تم التوقيع على الاتفاقية الأولى لفض الاشتباك بين مصر وإسرائيل، وكانت بنودها الرئيسية تشمل ما يلي:

١- تقوم إسرائيل بسحب قواتها إلى خط يقع شرق قناة السويس بحوالي ٣٠ كيلومترا.

٢- تقوم مصر بسحب قواتها جميعها من شرق القناة وذلك فيما عدا قوة صغيرة لا يزيد عددها على ٧٠٠٠ رجل وبحيث لا يكون معهم سوى ٣٠ دبابة وألا يتجاوز وجودها شرق القناة اكثر من ١٠ كيلومترات.

٣- تبقى قوات الأمم المتحدة في المنطقة العازلة بين القوات الإسرائيلية والقوات المصرية وعرضها حوالي ٢٠ كيلومترا.

٤- لا تعتبر هذه الاتفاقية معاهدة سلام ولكنها تعتبر مجرد خطوة على الطريق للوصول إلى

معاهدة سلام طبقا لقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ وداخل إطار مؤتمر جنيف للسلام [٨].

إسرائيل تنهب الأرض المحتلة:

لقد احتلت إسرائيل مساحة في الضفة الغربية لقناة السويس بلغت حوالي ١٥٠٠ كيلومتر مربع، وبقيت تحتل هذه البقعة لمدة تزيد على ثلاثة اشهر إلى أن انسحبت منها خلال شهر فبراير ٧٤ بناء على اتفاقية فصل القوات. وفي خلال تلك المدة انتهكت إسرائيل جميع قواعد القانون والعرف الدوليين ومبادئ الأخلاق. حيث ردموا ترعة المياه الحلوة التي تنقل المياه من الإسماعيلية إلى مدينة السويس والجيش الثالث. وفكوا مصنع تكرير الوقود ومصنع السماد اللذين كانا يقعان خارج مدينة السويس ونقلوهما إلى إسرائيل، أما الأجزاء الثقيلة التي لا يمكن نقلها فقد نسفوها عن آخرها قبل أن يغادروا المكان. لقد فكوا المواقع والمعدات من ميناء الأدبية وأخفوها معهم ثم نسفوا ما لا يستطيعون نقله. وفكوا خطوط أنابيب المياه وأنابيب البترول التي كانت تمر في المنطقة. ونهبوا واستولوا على المواشي والمحاصيل التي كانت في حوزة الفلاحين الذين كانوا يسكنون تلك المنطقة. لم تكن عملية النهب والسلب عملية محلية يرتكبها الجنود والقادة المحليون كما هي العادة دائما بالنسبة لجيوش الاحتلال، وإنما كانت عملية منظمة تتم بناء على تعليمات من الحكومة الإسرائيلية وتأييدها، وهذا هو الجرم الأكبر. لقد انسحب الإسرائيليون من تلك المنطقة بعد أن تركوها خرابا تشهد لهم بأنهم قد فاقوا القبائل المنغولية التي اجتاحت أسيا وأوربا خلال القرن الثالث عشر الميلادي.

أني أتهم:

ما أغلى الثمن الذي دفعته مصر نتيجة حصار الجيش الثالث يوم ٢٣ من أكتوبر لقد أجهض حصار الجيش الثالث انتصارات أكتوبر المجيدة و أجهض سلاح البترول. و أجهض الحصار البحري الفعال الذي فرضته مصر على إسرائيل. وافقد القيادة السياسية المصرية القدرة على الحركة والمناورة وجعلها ألعوبة في يد إسرائيل وأمريكا. وفي سبيل إنقاذ الجيش الثالث كانت مصر ترى إسرائيل وهي تنهب وتسلب ثرواتها وتقف مكتوفة الأيدي لا تستطيع الرد ولا حتى مجرد الاجتماع. وهنا يبرز السؤال مرة أخرى: من هو المسئول عن حصار الجيش الثالث؟ إذا رغبت مصر في أن تغسل شرفها العسكري من الشوائب التي أصابته نتيجة حصار الجيش الثالث فإنها يجب أن تبحث عن المسئول عن هذه الكارثة. وأني أتهم السادات بهذه الجريمة ولدي الوثائق التي تؤيد هذا الاتهام (انظر خطاب الفريق الشاذلي إلى النائب العام في ٢١ من يوليو ٧٩ والذي يطلب فيه تقديم السادات للمحاكمة).

هوامش الفصل الخامس والثلاثون

(١) حضر هذا اللقاء علاوة على الوزير وأنا والعميد قابيل كل من اللواء عبد الغنـــي الجمســـي، واللواء سعيد الماحي، واللواء نصار.

(٢) يدعو الرئيس السادات في مذكراته في الصفحة ٣٤٩ بأنه قال للعميد قابيل " ثبت الإسرائيليين ولا تجعلهم يتمكنون من التوسع و إياك أن تشتبك معهم إلى أن تصلك الإمدادات "أن الرئيس لـــم يذكر تاريخ هذا الأمر وأن كان يفهم من المذكرات أن ذلك كان في الساعات الأولى من يـــوم ٢٠ من أكتوبر. كلام مشوش وغير مفهوم. وإننا نسأل السادات سؤالا صريحا: في أي تاريخ اصـــبح قابيل قادرا على العمل ضد العدو في الغرب؟

(٣) منذ حصار الجيش الثالث يوم ٢٣ من أكتوبر ٧٣ اصبح السادات كالخاتم في يـــد كيســـنجر. ومن هنا تبرز أهمية تحديد من هو المسئول عن حصار الجيش الثالث المصري.

(٤) الحد الأدنى للمطالب الإدارية هو ١٥٠ طنا يوميا.

(٥) إن هذا بالمعنى العام المصري "خد وهات" ولكن للأسف فأن إسرائيل كانت تطلب ثمنا غاليا نظير إمداد الجيش الثالث. وأني لا ألوم إسرائيل على ذلك ولكني ألوم السادات لأنه هـــو الـــذي تسبب في حصار الجيش الثالث.

(٦) المقصود بمؤتمر السلام هو مؤتمر جنيف الذي كان مقررا عقده قبل نهاية ديسمبر ٧٣.

(٧) شغل بدوي بعد ذلك منصب وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة، ثم قتل بعد ذلك في حادث سقوط طائرة هيلوكوبتر يوم ٢ من مارس ٨١ . وقد قتل معه في هذا الحادث ١٢ من كبار القادة العسكريين في مصر.

(٨) مؤتمر جنيف للسلام هو المؤتمر الذي تتولى رئاسته كل من أمريكا والاتحاد السوفيتي وتحضره الدول الأطراف في مشكلة الشرق الأوسط جميعها.

الفصل السادس والثلاثون

قصة إقالتي من منصب (ر.ا.ح.ق.م.م)

البيانات العسكرية المصرية وحقيقتها:

لقد اتفقت مع أحمد إسماعيل قبل الحرب على أن تكون بلاغاتنا العسكرية دقيقة وصادقة وأن نذكر الحقائق كلها مجردة من أية مبالغات أو أكاذيب كما كان الحال في حربنا السابقة مع إسرائيل. وقد التزمت القيادة هذا الخط إلى أن جاء يوم ١٤ من اكتوبر ٧٣ الذى خسرنا فيه حوالي ٢٥٠ دبابة مقابل خسائر محدودة من العدو. ونظرا لما كان يحس به السادات وأحمد إسماعيل من شعور بالذنب- لأنهما هما اللذان أصرا على هذا الهجوم على الرغم من معارضتي أنا وقادة الجيوش كما سبق أن ذكرت- فقد صدر البيان العسكري، ولأول مرة منذ بداية الحرب، وفيه تزوير للحقائق. ثم جاء بعد ذلك اختراق العدو في منطقة الدفرسوار ليلة ١٦/١٥ من أكتوبر فكان عاملا جديدا في استمرار بياناتنا العسكرية في أكاذيبها.

في خلال الأيام الأولى من الاختراق نفت البيانات العسكرية نفيا قاطعا وجود أي اختراق للعدو

غرب القناة وبعد أن تطورت قوة العدو في الغرب إلى الحد الذي أصبح معه مستحيلا إخفاء وجود هذه الاختراقات عمدت البيانات إلى التقليل من أهمية هذا الاختراق [١].

وأني أذكر كيف كان أحمد إسماعيل يتصل هاتفيا من غرفة العمليات بالدكتور حاتم نائب رئيس الوزراء ووزير الإعلام لكي يشرح له الموقف، ومن بين تلك المحادثات مكالمة هاتفية يوم ١٨ من أكتوبر، قبل أن أتحرك إلى الجيش الثالث ظهر هذا اليوم. كانت قوة العدو في ذلك الوقت تقدر بأربعة ألوية مدرعة ومع ذلك كان أحمد إسماعيل يقول للدكتور حاتم "إن للعدو ٧ دبابات فى الغرب وإنهم يتبعون أسلوب حرب العصابات. إذ يظهرون فجأة حيث يضربون ثم يهربون ويختفون في الأشجار ولذلك فإننا نجد صعوبة فى اكتشافهم وتدميرهم!! ". ومع أني لم أكن اسمع ما يقوله الدكتور حاتم من الجانب الآخر من الخط إلا أني كنت أستنتج انه لا يستطيع أن يتقبل هذا التفسير الساذج، مما كان يضطر أحمد إسماعيل إلى ان يعيد ويكرر ما سبق أن قاله مرات ومرات.

وعندما كنت أناقش هذا الموضوع مع الوزير وأطالبه بضرورة إعلان الحقائق فإننا كنا نصطدم معا كعقليتين وعقيدتين مختلفتين تماما. فقد كان يقول إن إذاعة هذه المعلومات السيئة سوف تكون لها اثر سيئ على الروح المعنوية للقوات المسلحة وعلى الشعب. وكنت أقول إن المعلومات السيئة تستحدث الهمم وتولد عند كل مواطن روح التحدي للعدو وتدفعه لأن يقدم لوطنه أقصى ما يستطيع أن يقدمه. كما أن إعلانها للقوات المسلحة سيدفع التشكيلات والوحدات غير المشتركة في القتال لكي تكون اكثر تعاونا واستعدادا لتقديم المساعدة والدعم للقوات المشتركة في القتال. نظريتان مختلفتان تماما. والنتيجة هي أن الوزير استمر في إصدار البيانات العسكرية الكاذبة- ويعلم السادات بكذبها- طوال مدة الحرب.

مقابلة مع مندوب مجلة نيوزويك الأمريكية:

في الساعة ١٧٠٠ يوم ٥ من ديسمبر ٧٣ أجريت مقابلة صحفية مع المستر أرنولد بورشجريف محرر مجلة نيوزويك الأمريكية، وقد تكلمت معه بمنتهى الحرية والصراحة وأجبت عن أسئلته كلها وذلك فيما عدا المعلومات التي قد يستفيد العدو من إذاعتها. وقد منعت الرقابة المصرية المستر بورشجريف من إرسال هذا الحديث الصحفي إلى مجلته، وقامت بترجمة الحديث إلى اللغة العربية وأرسلته إلى المخابرات الحربية للموافقة على النشر، فقامت المخابرات الحربية بعرض الأمر على السيد الوزير. سألني الوزير عما إذا كنت قد قلت هذا الكلام فأجبت بالإيجاب. قال كان يجب عليك أن تعرضها على المخابرات الحربية قبل إرسالها

إلى الصحافة. قلت له "كيف أطلب من المخابرات الحـــربية وهي إدارة مرؤوسة لي أن تراجع ما أقول". أنا أعرف ما هو سر وما هو ليس سراً أكثر من مدير المخابرات لأن لدي قدرة تصـــور أوسع واتصالات عالمية اكثر. لماذا نخفي شيئا يعرفه العالم أجمع إلا شعب مصر؟.. إنني لم أقل شيئا يستطيع العدو أن يستفيد منه. وعلى سبيل المثال فقد امتنعت عن الإجابة عندما طلب مني أن أقارن بين قوتنا وقوة العدو قبل ٦ من أكتوبر والآن. لأن الإجابة عن هذا السؤال قد تضـــطرني إلى إذاعة بعض المعلومات التي ليست معروفة على المســـتوى الدولي حتى الآن. مثـــال ذلـــك خسائرنا في الحرب والإمدادات التي وصلتنا حتى الآن. أما أنت ففي حديث لك مع الأســـتـــــاذ حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الأهرام، أذعت بيـــانا عن خســـائرنا في الحرب. ولو استطاع العدو أن يعرف الإمدادات التي وصلت إلينـــا بعد ٦ من أكتوبر وحتـــى الآن فإنـــه يســـتطيع أن يعرف قوتنا على وجه التحديد. لقد كانت مناقشة حادة حقا. طلـــب منـــي الـــوزير أن اســـتدعي بورشجريف وأن اسحب منه ما قلت فرفضت.

جريدة الأهرام تذيع خبرا كاذبا:

في صباح يوم ١١ من ديسمبر ٧٣ فوجئت بعنوان ضخم في جريدة الأهرام "قواتنا فـــي الشـــرق والغرب تتقدم عشرة كيلومترات "، وكانت الجريدة تنسب الخبر إلى قيادة قوة الطوارئ الدولية في القاهرة لقد كان الخبر صورة أخرى من صور التزوير لواقع الأمر. حاولت معرفة مصدر هـــذا الخبر. اتصلت بقيادة قوة الطوارئ الدولية فنفت نفيا باتا إنها أصدرت بيانا عن ذلك اتصلت بإدارة المخابرات الحربية فنفت هي الأخرى أي علم بمصدر أو مؤلف هذا الخبر. كان الوزير يجلـــس بجواري في غرفة العمليات وأنا أجري هذه الاتصالات دون أن يعلق بشيء. مما جعلني اشك أنه هو مصدر هذا الخبر. قلت بصوت عال وبغضب دون أن اوجه كلامي لأحد هذا جنون. ليس هذا هو الأسلوب الصحيح للأعلام. يجب أن نعرف من هو الشخص الذي وراء هذا الخبر ويجب أن يعاقب. وهنا تدخل الوزير قائلا "لماذا تغضب هل أنت وزير الإعلام؟ قد يعتقدون أن إصدار هذا الخبر في مصلحة الوطن". سألت "من هم الذين يعتقدون؟" [٢]. قال "لا أعـــرف، ولكنـــي أود أن أقول لك لا تتدخل في عمل المخابرات أو في عمل الإعلام". فأجبته بأنني سوف أتدخل.

وفي اليوم نفسه صممت على أن التقي بالدكتور حاتم. وفي الساعة ١٣٠٠ كـــنت في مكتبه فـــي وزارة الإعلام.. حكيت له رأيي في الإعلام عموما ثم تطرقنا إلى الخبر الذي نشر فـــي جريـــدة "الأهرام " صباح ذلك اليوم وقلت له "لقد اتصلت بجميع الجهات التي يمكن أن تكون مصدرا لهذا الخبر وجميعها نفت علمها بهذا الموضوع. هناك شخصان أشتبه فيهما: الشخص الأول هو الأستاذ

حسنين هيكل رئيس تحرير "الأهرام"، والشخص الثاني هو وزير الحربية. وحيث أنه ليست لـــدي أية سلطة لكي استجوب أياً منهما فإني أرجو أن تحقق سيادتكم عن مصدر هذا الخبر". ذكر لـــي الدكتور حاتم أن الخط الإعلامي للدولة كان مرتبطا بالبلاغات العسكرية التي تصـــدرها القيـــادة، وأنه على الرغم من عدم قناعته الشخصية بها إلا انه كان ملتزما بها. أما بخصوص الخبر الذي نشر في جريدة "الأهرام " صباح ذلك اليوم فقد أكد لي عدم علمه بمصدره ووعد بالبحث لمعرفـــة الحقيقة.

وفي صباح يوم ١٢ من ديسمبر ظهرت جريدة "الأهرام"، وفيها تصحيـــح للخبر واعتـــذار عـــن الخطأ وأعطت بعض التبريرات لهذا الخطأ. لقد بلغ التحدي بيني وبين السلطة السياسية مداه. إن بقائي سوف يفسد الألاعيب التي يقومون بها. لقد تحملوا مني الكثير وكان لابد أن يتخلصوا مني، وفي مساء يوم ١٢ من ديسمبر ٧٣ أقالني السادات من منصبي كرئيس لأركان حـــرب القـــوات المسلحة المصرية.

كيف علمت بخبر الإقالة؟!

لم اذهب إلى منزلي منذ أول أكتوبر حتى ١٣ من ديسمبر إلا مرة واحدة لمدة ســـاعتين لإحضار بعض الملابس الإضافية وللاستحمام بالماء الساخن. وحوالي منتصف نوفمبر كانت الأمـــور قـــد استقرت واصبح الموقف لا يتطلب أن أكون بصـــفة دائمة في المركز ١٠ أو بين القوات كما كان الحال فترة العمليـــات، وفي منتصف نوفمبر استأنفت القيـــام بتـــدريباتي الرياضـــية اليوميـــــة واكتشفت أنني فقدت من وزني ٥ كيلوجرامات خـــلال تلك الفترة الماضية، وعلى الرغم من أنه كان في استطاعتي أن أعود إلى منزلي الذي لم يكن يبعد أكثر من بضعة كيلومترات عن مركـــز القيادة فإني لم أفعل ذلك. كنت أشعر بالأسى بالنســـبة لرجال الجيش الثـــــالث المحـــــاصرين، كـــيف يمكنني أن أذهب إلى منزلي وهناك ٤٥٠٠٠ رجل من رجـــالنا محاصرون؟ حقا إن يدي نظيفتـــان من مسئولية حصـــارهم ولكن ليس هذا هو وقت تحديد المسئولية. إنهـــم أولا وأخيـــرا أبناء مصر، ويجب أن أشاركهم أحزانهم وقلقهم. صـــممت ألا أعود إلى منزلي إلا بعد أن يعـــود هؤلاء الرجال إلى ديارهم.

كان يوم ١٣ من ديسمبـــر هو عيد زواجي فأقنعت نفسي مســـاء يوم ١٢ من ديسمبر أن أقضي ليلة بالمنزل. وحيث إني أشك فيما يدور حولي كله فقد أخذت معي قبل أن أغادر المركـــــز ١٠ أوراقي كلها ومذكراتي الخاصـــة. لم يدر بخلدي قط وأنا اترك المركز ١٠ في الســـاعة ١٧٠٠ يوم ١٢ من ديسمبر ١٩٧٣، أن تلك الســـاعة هي نهاية خدمتي بالقوات المسلحة المصرية. ومع

ذلك فإن الحاسة السادســـة قد دفعتني إلى أن آخذ معي أوراقي المهمة ومذكراتي جميعهـــا. وقــد صدق حدسي حــيث إني بعد أن ذهبت إلى مكتبي بعد ذلك بأيام لأجمع باقي أوراقي وجــدت أن إدارة المخابرات الحربية قد قامت بواجبها على الوجه الأكمل، فقد اخــتفت جميع هــذه الأوراق بما فيها برقيات التهاني التي كـــانت قد وصلتني من الأهلين ومن رؤساء أركان الجيوش العربية. كنت في قمة السعادة لأنهم لم يستطيعوا الحصول على ما كانوا يبحثون عنه.

وفي حوالي الســاعة ٢٠٠٠ من يوم ١٢ من ديسمبر ٧٣ وبينما كنت فـــي منزلـــي رن جــرس الهاتف وكان الوزير على الطرف الآخر. أخبرني بأنه يحدثني من مكتبه بـــالوزارة ويـــود لـــو أستطيع أن أحضر لمقابلته. وبعد حوالي نصف ساعة كنت أدخل عليه مكتبه، وعند دخولي عليه وجدت عنده الجـــمسي وسعد مأمون، وبعد دخولي عليهم قطع الوزير الحديث وطلب من الجمسي وسعد مأمون أن ينسحبا ويتركانا على انفراد. اخذ الوزير يدور ويلف إلى أن دخل فـــي صـــلب الموضوع الذي استدعاني من أجله ودار بيني وبينه الحديث التالي:

الوزير:

لقد قرر رئيس الجمهورية إنهاء خدمتكم كـــرئيس أركان حرب القوات المسلحـــة وأصدر قـــرارا جمهوريا بتعيينكم سفيرا في وزارة الخـــارجية، وعليكم التوجه اعتبارا من الساعة الثامنة صباحا إلى وزارة الخارجية في ميدان التحرير.

الشاذلي:

أشكر الرئيس على هذا التـــعيين وأرجو أن تقوم بإبلاغه بأنني اعتذر عن قبول منصب الســـفير وافضل أن أبقى في منزلي.

الوزير:

هل تعني أنك ترفض إطاعة أمر الرئيس الذي يقضي بذهابك إلى وزارة الخارجية؟

الشاذلي:

سيادة الوزير.. يمكنك أن تفسرها كما تشاء. إذا كان الرئيس يعتبر أن هذا التعيين خدمة لي فمـــن حقي أن اقبل الخدمة أو ارفضـــها. وإذا كان المقصود بهذا التعيين هو العقاب فأنا ارفضه وافضل أن يكون هناك تحقيق ومحاكمة حتى تظهر الحقائق.

الوزير:

إن ما تقوله شيء خطير.. هل أقوم بإبلاغ الرئيس بما قلته؟

الشاذلي:

طبعا.. الهاتف بجوارك ويمكنك أن تبلغه الآن وفوراً.

الوزير:

حاول الوزير بعد ذلك أن يقنعني بطريق اكثر تهذيبا بأن أقبل هذا المنصب السامي، حيث إن رفضي سوف يغضب الرئيس وانه يقدر عملي ومجهودي اللذين قدمتهما للقوات المسلحة الخ.. الخ..!

الشاذلي:

إني أصر على الرفض وأفضل أن يكون عزلا وليس نقلا إلى وزارة الخارجية، وهذا اعتذار رسمي عن عدم قبول منصب السفير (وحررت له الاعتذار كتابة وسلمته إليه). ماذا سيفعل الرئيس بعد أن يعلم أني رفضت منصب السفيرة هل سيأمر بمحاكمتي؟ إني أفضل ذلك وأنا على أتم الاستعداد له.

وبعد حوار دام حوالي نصف الساعة غادرت مكتب الوزير بعد أن أكدت له أنني لن أذهب غدا لا إلى وزارة الخارجية ولا إلى المركز ١٠، وأنني سأبقى في منزلي.

بعد أن عدت إلى منزلي أخبرت زوجتي بما دار بيني وبين الوزير من حوار وقلت لها "الحمد لله الذي جعلهم يتخذون هذه الخطوة. إن كل شيء كان يسير مؤخرا في عكس الاتجاه الذي أريده. لم يكن يسعدني البقاء ولكن لم لكن أستطيع أن أتقدم بالاستقالة في مثل هذه الظروف الصعبة". استقبلت زوجتي الخبر بشجاعة وأيدت موقفي في رفض منصب السفير وقالت "الحمد لله انك تترك القوات المسلحة بعد أن عبرت بهم القناة ولم يكن أحد يصدق أن هذا عمل ممكن. الحمد لله الذي تترك القوات المسلحة ونحن في صحة جيدة. لو حسبت الوقت الذي قضيته في منزلك منذ أن تزوجنا فانه لن يزيد على ربع تلك السنين. لنسترح ونستمتع بما بقي لنا من عمر". ضحكت وتعجبت لقد كنت أسمع أن خبر التقاعد هو أصعب خبر تتلقاه الزوجات وهاهي ذي زوجتي تتلقى الخبر بفرح وارتياح. إن الخبر بالنسبة لها هو استعادة للزوج الذي كانت قد فقدته لأنه أعطى وقته واهتمامه كلهما للقوات المسلحة على حساب بيته وعائلته. ضحكنا وأخذنا نتجاذب الحديث وننتظر حضور المستر بورشجريف مراسل جريدة النيوزويك الأمريكية الذي كنت قد وعدته باستقباله في منزلي تلك الليلة.

بورشجريف أول من يعلم بخبر الإقالة:

كان بورشجريف قد اتصل بي صباح ذلك اليوم وأخطرني بأنه سوف يغادر القاهرة في اليوم التالي، وأنه يرغب في لقائي قبل سفره ليعبر لي عن شكره على الحديث الذي أدليت به له،

فوعدت بأن استقبله في منزلي في مساء اليوم نفسه. ولم تكد تمر ١٥ دقيقة على عـودتي إلـى المنزل حتى وصل بورشجريف هو وزوجته. قلت له: مستر بورشجريف.. إنك صحفي محظوظ. سوف أقول لك خـبرا لم يعرفه أي صحفي في العالم حتى الآن. وحكيت له قصة مقـابلتي مـع الوزير ورفضي لمنصب السفير الذي عرض عليّ. لم يكن بورشجريف وزوجته يصدقان ما أقول وكانا يعتقدان أنني أمزح وعندما أكدت له ذلك اكثر من مرة قال: فإن الطريقة التي تتكلم بها أنت وزوجتك تدل على انك سعيد بهذا ولا يبدو عليك أو على حرمك أي حزن أو أسف" [٣]. فقلت له هذه فلسفتي. "لو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوك بشيء ما نفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمع أهل الأرض على أن يضروك بشيء ما ضروك بشيء كتبه الله لك، جفت الأقلام وطويت الصحف".. وقد جال بخاطر بورشجريف أن يكون حديثي معه هو السبب في إعفائي من منصبي فقال لي على استحياء: "أرجو ألا أكون سببا فيما أصابك؟" ، فقلت له "لا أعتقد ذلك. أنني علـى خـلاف معهم في أمور كـثيرة وأن موضوعك يعتـبر واحداً منها ولكنه يكاد يكون ابسـطها"، ولكنني شعرت من كثرة تساؤلات بورشجريف حول هذا الموضوع أنه كان يشـعر بأنـه أحـد الأسباب الرئيسية. وعموما فإذا كانت مقابلة بورشجريف يوم ٥ من ديسمبر وتكذيب الخبر الـذي نشر في جريدة الأهرام يوم ١١ من ديسمبر هما من الأسبـاب المباشـرة الظـاهرة فإنهمـا لا يعدوان أن يكونا القشة التي قصمت ظهر البعير.

لقد كانت الساعة قد بلغت الحادية عشـرة مساء عندما غادر منزلي بورشجريف، وهو لا يكـاد يصدق ما رآه بعينه وسمعه بأذنيه.

زيارة غير متوقعة من حسني مبارك:

بعد حوالي ١٥ دقيقة من مغادرة بورشجريف منزلي، رن جرس الهاتف. كان المتحدث هو اللواء حسني مبـارك، حيث قال لي إنه يريد أن يقابلني لأمر مهم. لم أكن أعرف إذا كان قد علم بخبر إقالتي أم لا فحاولت أن أؤجل المقابلة إلى الغد على اعتبار انه إذا لم يكن يعـرف الآن فسـوف يعرف غدا وينتهي الموضوع، ولكنـه أصر على المقابلة. قلت له "لا داعي لهذه المقابلة حيـث إني لم أعد رئيس أركان حرب القوات المسلحة". فأجاب لا أنا اعرف ذلك، ولذلك أريد أن أقابلك. إني احمل رسالة لك من السيد الرئيس،. فأجبت "أهلا وسهلا".

وفي حوالي الساعة ٢٣٣٠ وصل حسني مبارك. كان ملخص رسالة الرئيس السادات ما يلي:

أ- إن الرئيس يقدر تمـاما ما قمت به من أعمال في خـدمة القوات المسلحة وقت السلم و الحرب.

ب- إن الخلافات المستمرة بينك وبين الوزير قد تفاقمت وقد أصبح من الخطورة أن تستمر بهــذا الشكل.

ج- إن تعيينك سفيرا لا يعني تنزيلا من درجــتك فسوف تستمــر بدرجة وزير وتنـــال راتــب وبدل تمثيل الوزير.

د- إن الرئيس ينوي إرسالك سفيرا إلى لندن، وهو أسمى منصب دبلوماسي يطمع فيه إنسان.

هــ- ولكي يؤكد الرئيس أن هذا التعيين لا يعني أي تنزيل من مقامك فإنه يرقيك إلى رتبة فريق أول.

و- وإن الرئيس يتعشم أن تقبل هذا المنصب.

كانت خــلاصة أقوالي لحسني مبارك ما يلي "لو أن الرئيس استدعاني وقــال لي هــذا الكــلام لقبلت، ولكن أن يكلف احمد إسماعيل - وهو يعلم جــيدا مــا بينـــي وبينـــه- بــإبلاغي الخبــر وبالصورة التي قالها، فإن هذا يعني أن الرئيس يصـــدق ما يقوله أحمد إسماعيل ويؤيد موقفـــه. لذلك فإني ارفض مرة أخرى قبول العرض"، ثم كررت على مسامعه ما ســبق أن قلتــه لأحمــد إسماعيل قبل ساعات قليلة "إذا كان الرئيس يعرض علي هذا المنصب مكافــأة لي فأرجو إبلاغه شكري واعتذاري عن عدم قبول المنصب، وإذا كــان هذا المنصب عقابا لي فلنضع النقاط على الحروف ولنناقش هذا الموضوع بطريقة علنية. لن أقبل هذا المنصب ولــن يســتطيع أحــد أن يرغمني على قبوله".

غادر حــسنى مبارك منزلي بعد منتصف الليل دون أن يستطيع إقناعي بقبول المنصــب. وفـــي صباح يوم ١٣ من ديسمبر ظهرت صحف الصبــاح وفيها نبأ تعيين الجمسي رئيسا للأركان دون أي ذكر لمصير الفريق سعد الدين الشاذلي. هل أقيل ؟ هل استقال؟ هل عين سفيرا؟ هل مات؟ لا شيء على الإطلاق.

مقابلة الرئيس في أسوان:

على الرغم من عدم ذهابي إلى وزارة الخـــارجية أو قيامي باستـــلام أي عمل فإن الإجــراءات الخاصة بتعييني في الخارجية استمرت في سيرها كالمعتاد، وبعد عدة أيام كتبت بعض الصحــف أنني عينت سفيرا في لندن. وهنا اتصلت بـــالرئاسة وطلبت مقــابلة الرئيس لكي أوضح مــوقفي ولكي أؤكد له أنني أبلغت رفضي لهذا المنصب إلى كل من أحمد إسماعيل وحسني مبارك وأنني مازلت مقيما في منزلي. وبعد بضعة أيام من طلبي المقابلة اتصل بي مكتب الرئيس وأبلغني بأنه سوف يستقبلني في أسوان يوم ٦ من يناير ٧٤. وعلى الرغم من أن القرار الجمهوري الخـــاص

بتعييني سفيرا بالدرجة الممتازة كان قد صدر قبل ذلك، إلا أنني لم أكن حتى ذلك الوقت اعتــرف بهذا القرار الجمهوري، وبالتالي سافرت إلى أسوان على حسابي الخاص ودون أن أخطر وزارة الخــارجــيــة بذلك. عندما وصلت طائرتي إلى أسوان كــان ما يزال أمامي ســاعتان قبــل أن يحــل موعد مقابلة الرئيس فذهبت إلى فندق الكتراكت لكي أقضي بعض الوقت. وهناك قابلــت حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام. أخذنا نتجاذب أطراف الحــديث في موضوعات شتى اغلبها يدور حول حرب أكتوبر إلى أن حان ميعاد ذهابي إلى الرئيس فتركته وذهبت للقاء الرئيس.

كان حديث الرئيس ظريفا طيبا، واخذ يسألني عن أحوال زوجتي والعائلة الخ. ثم فــاتحني فــي الموضوع الرئيسي. بدأ الرئيس حديثه بنبرة عتاب ولكنه من نوع العتاب الضاحك الباســم فقــال "لا لا لا.. أنا زعلان منك. إزاي تعمل كده؟ أنت اتجننت؟ أبعت لك حــسني مبــــارك برســالة مني فترفض الرسالة. أنا لما قال لي حسني إنك رفضت، قلت أبعث أجــيبك وأكلمك بنفسي لكن حسني قال لي بلاش دلوقت. ده مصمم وراكب دماغه. قلت طيب بعــدين". قلــت لــه "ســيادة الرئيس.. أنا لست منزعجا من أن أترك القوات المسلحة. إن كــل ضابط يجب عليــه أن يتــرك القوات المسلحة في يوم ما ليخلي الطريق لغيره، وهذه هي سنة الحيــاة ولكن ما ضــايقني هــو الأسلوب الذي أبلغتني به هذا القرار. سيادتك تعلم جــيدا ما بيني وبين أحــمد إســماعيل، ومــع ذلك طلبت من احمد إسماعيل أن يقوم بإبلاغي بهذا القرار". قال الرئيس أنا أعرف ما بينك وبين احمد إسماعيل وعلشــان كده لما أبلغني أحمد إسماعيل بأنك رفضت المنصب وقال لــي الكــلام الذي قلته له، اعتقدت أن احمد إسماعيل يبالغ فقررت أن أرسل لك حســني مبــــارك فرفضــت أيضا. وعندما قلت أحضرك أمامي وأبلغك بنفسي، حسني قال لي بلاش دلوقــت ". وأضـــــاف ضاحكا "لازم حسنــي بيخاف منك قل لي ماذا تعمل لكي تجعل مرؤوسيك يخافونك ويخشونك؟".

– استرسل الرئيس في حــديثه فــأثنى عليَّ وأفاض في ذلك كــثيرا وقال أنني مــازلت موضع ثقــته وأن كل ما حدث هو أنه ينقلني من مجال عمل إلى مجــال عمل آخر وإن ما أضطره إلى ذلك هو الخلاف الشديد الذي يسود العلاقات بيني وبين أحمد إسماعيل. وحكى لي كيــف ولمـــاذا أعفي الدكتور محمود فوزي من رئاسة الوزراء فقال "كان فوزي يشتكي لي كل يوم ويقول لــي الوزير فلان والوزير فلان ما بيسمعوش كلامه. أنا مش فاضي علشان اعمل قاضي بين كـــبار الموظفين. واستطرد بعد ذلك "وفيما يتعلق بك أنت واحمد إسماعيل كــان لازم واحـــد مــنكم يمشـــي. وأنا فكرت ووجــدت انه من الأفضل انك أنت اللي تمشي وعرضــت عليــك افضــل المناصب عندنا. وإذا اخترت لك لندن ليس لمركزها الأدبي فحسب بل لأني محتــاج لأن يكــون

لنا رجل ذو خبرة عسكرية كبيرة في لندن. إننا على اتصال الآن مع ألمانيا الغربية وستقوم ألمانيا بإمدادنا بأسلحة متطورة ومتقدمة. وإن سفيرنا في ألمانيا رجل مدني اسمه محمد إبـــراهيم كامـــل (٤). كان معي في السجن وأنا عينتـــه في الخارجية وبعد ذلك هو الآن سفير في ألمانيا، إنما طبعا لا يفهم في الشـــئون العسكرية ولا يستطيع أن يتابع عمليات المباحثات والعقود العسكرية. وأنـــا أهدف إلى أنك من لندن تقوم برحلات مستمرة إلى ألمانيا للإشـــراف على هـــذا الموضـــوع. إن وظيفتك كسفير في لندن ستكون موضوعا ثانويا بالنسبة للوظيفة الأولى وهي تســـليح الجـــــيش المصري. وليس لدينا من هو افضل منك للقيام بهذه المهمة" (٥) و أفاض في حديثـــــه... حتـــى اعتبرت إن ما قاله هو ترضية كـــافية وأن منصب سفير مصر في لندن هو امتداد لمسئوليتي في خدمة القوات المسلحة المصرية وتقويتها وقبلت المنصب. انتقلنا بعد ذلـــك إلـــى الحـــديث عـــن العلاقات المصريـــة البريطانيـــة والمصريين الذين يعيشون في المملكة المتحـــدة وموضـــوعات أخرى. وكانت الســـاعة قد بلـــغت الواحدة والنصف بعد الظهر عندما غادرت استراحة الـــرئيس في أسوان.

عدت مرة أخـــرى إلى فندق الكتراكت لكي أتناول الغداء وانتظر الطائرة التي ســـأعود بها إلى القاهرة وهناك التقطني الأستاذ حسنين هيكل مرة أخرى. وكمـــا كـــــان بورشـــجريف أول صحفي في العـــالم يعلم بإعفائي من منصبي ورفضي قبول منصب سفير. كان هيكل أول صحفي في العالم يعرف نتيجـــة مقابلتي مع الرئيس في أسوان، ولكن لم اخبره بموضوع تسليح الجـــيش المصري عن طريق ألمانيـــا الغربية حـــيث أن هذا الموضوع- كـــما ذكـــر لي الرئيس- كـــان يتم على مستوى عال من السرية.

السفر إلى لندن:

بعد أن أذيع خبر تعييني سفيراً لمصر في لندن بدأ الناس يتهامسون ويقولون إن تعييني في لندن لا يقصد به إبعادي من القاهرة فحسب بل إنه جزء مـــن مـــؤامرة لقتلـــي. إن المخـــابرات الإسرائيلية والمتطرفين الصهاينة يستطيعون اغتيالي في لندن دون أن يتركوا من ورائهـــم أثـــرا يكشف دورهم. إنهم يعتبرونني العدو رقم ١ بالنسبة إليهم. وبدا بعض الناس ينصـــحونني بعـــدم الذهاب إلى لندن حفاظا على حياتي، ولكني لم استمع إلى هذه النصـــائح والتحذيرات وقلت لنفسي "لقد كانت حياتي سلسلة من المخاطرات. وان خدمتي في لندن لن تكون سوى امتداد لهذه الحيـــاة التي تحـــيط بها المخاطر دائما. إنني لا أخشى الموت الآن. وفي الحقيقة فإني أحيانا أتعجب كيف عشت طوال هذه السنين على الرغم من المخاطر كلها التي مررت بها. لو أنني مت اليوم فـــإني

سوف أموت سعيدا. لقد أعطيت بلادي كل ما أستطيع أن أعطيه وقد رأيت ثمرة كفاحي. رأيت جنود مصر بعد أن هزمتهم إسرائيل في ثلاث حروب سابقة. رأيتهم وهم يعبرون قناة السويس ويحطمون خط بارليف ويهتفون الله اكبر. ماذا أريد بعد ذلك كله ؟ لا شيء. أيها الموت أهلا بك فإني لا أخشاك إن الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى ولن يستطيع أحد أن يقدم أجلي أو يؤخره عن الوقت الذي حدده الله ولو بثانية واحدة". وقبل سفري إلى لندن بعدة أيام طلبني اللواء رفعت حسنين نائب رئيس المخابرات العامة وأخبرني بأن لديهم معلومات تفيد بان مجموعة من المتعصبين الإسرائيليين سوف يسافرون إلى لندن لاغتيالي وأن المخابرات الإنجليزية لديها المعلومات نفسها ولذلك يطلب مني أن أكون حذرا وأن أتحاشى بقدر الإمكان الإعلان المسبق عن تحركاتي. ولذلك فأن ميعاد سفري إلى لندن يجب أن يبقى سراً وألا أبوح به لأحد [٦]. وعملا بنصيحة المخابرات العامة، سافرت سراً من القاهرة إلى لندن يوم ١٣ من مايو ٧٤. وبعد وصولي ببضعة اشهر بدأت تثور شكوكي حول السادات وأهدافه فيما يتعلق بشخصي. فقد بدأ يصعد هجومه علي ويوجه إليّ اتهامات باطلة، ومن هنا بدأت اعد العدة للمجابهة التي لابد أنها ستقع بيننا يوما ما. وبينما كنت اقدر الموقف استعدادا لهذه المجابهة توصلت إلى نتيجة هي أن السادات له مصلحة في التخلص من حياتي أكثر من مصلحة المتعصبين الإسرائيليين. إن حياتي تشكل خطراً كبيراً عليه. لذلك يجب أن احتاط ولقد تذكرت كيف مات الفريق الليثي ناصف بطريقة غامضة في لندن في أغسطس ٧٣ وكيف قيدّت حادثة وفاته على إنها انتحار بينما يثور كثير من الجدل والتساؤلات حول وفاته. وبطريقة سرية لم يعلم بها أحد من رجال السفارة المصرية أو الليبية حصلت على جواز سفر ليبي لي وآخر لزوجتي ولكن بأسماء مستعارة.

هوامش الفصل السادس والثلاثين

(١) قد يكون من المناسب للباحثين والمؤرخين أن يراجعوا البيانات العسكرية المصـــــرية ومـــا نشر في الجرائد المصرية في ذلك الوقت ومقارنته بالحقائق كما رويتها في هذه المذكرات.

(٢) لقد عرفت من كان يقصده الوزير بكلمة "هم" بعد حوالي ٤ سنوات ونصف السنة مـــن هـــذه المجابهة. إنه كان يقصد السادات. وقد اعترف السادات بذلك في مذكراته في صـــفحة ٣٥٥ عندما قال "في ديسمبر ٧٣ بدأت قواتنا حرب الاستنزاف. ولم يتوقف ضغطها على الثـــغرة لحظة واحدة مما جعلنا نكسب أرضا جديدة كل يوم. تارة بالأمتار وتارة بالكيلومترات ولكننا كنا نكسب دائما"

(٣) يقول هيرتزوج في كتابه "حرب الغفران "، إنه عندما وصلني خبر الإقالة كان عندي صحفي أجنبي وإنني بكيت. وأنا من جانبي أؤكد أن هذه قصة مختلقة.أن بورشجريف مـــازال حيـــا يرزق يعمل في مجلة "نيوزويك" ويمكن الرجوع إليه.

(٤) محمد إبراهيم كـــامل عين وزيرا للخارجية في ديسمبر ١٩٧٧ بعد أن اســـتقال إسمـــــاعيل

فهمي احتجاجا على قرار الرئيس الذهاب إلى القدس، ثم استقال إبراهيم كامل بعد ذلك في سبتمبر ٧٨ احتجاجا على اتفاقية كامب ديفيد.

(٥) لم أكن أتصور أن الرئيس يختلق موضوع تسليح الجيش بواسطة أسلحة ومعدات ألمانية اختلاقا تاما. وبعد وصولي إلى لندن في مايو ٧٤ أجريت اتصالا مع سفير ألمانيا في لندن ولم تكن لديه بالطبع أية فكرة عن هذا الموضوع، وبعد عدة اتصالات سرية بينه وبين حكومته في بون، اتضح أن ما قاله الرئيس لي بخصوص هذا الموضوع كان من نسج خياله.

(٦) أرجو أن يفهم الأقارب والأصدقاء الآن السبب الذي دفعني إلى السفر فجأة دون أن أخطرهم، بل أحيانا خدعتهم بان وعدتهم باستقبالهم في منزلي في وقت كنت أعلم فيه إنني ساكون في لندن.

الفصل السابع والثلاثون

السادات يبحث عن كبش فداء

اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم ٢١ من نوفمبر٧٣:

لابد أن مسئولية ثغرة الدفرسوار وحصار الجيش الثالث كانت تقلق السادات وتدفعه للبحث عن شخص لكي يلقي عليه بهذه المسئولية. هذه هي طبيعة السادات وقد اعترف بها في مذكراته في أكثر من موضع. انه لكي يبرئ نفسه من أية تهمة لا يتردد في أن يتهم شخصا أخر بتهمة لم يرتكبها. لقد روى لنا في مذكراته –دون حياء في الصفحات من ٨٨ إلى ٩٤– كيف انه ادعى كذبا على القاويش وكيل النيابة، وعلى مأمور السجن، وعلى سعيد الجزار، بأنهم كانوا يعذبونه عندما كان في المعتقل، وذلك لكي يفسد القضية ويبرئ نفسه..

وقد بدا السادات يكشف عن نواياه لأول مرة في يوم ٢١ من نوفمبر ٧٣ اثناء اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة. في هذا الاجتماع قال بطريقة عفوية وهو يستعرض أحداث الحرب "إنها ليلة واحدة هي السبب في المشكلات كلها التي حدثت، تلك هي ليلة ١٩/١٨ اكتوبر. لو إننا عملنا

بحسم وقوة خلال تلك الليلة لقضينا على الثغرة إنها تلك الليلة التي كنت فيها يا سعد في الجيش الثاني" (١) لقد فهمت بسرعة ماذا يقصد الرئيس من وراء هذا وتعجبت لماذا يختار هذه الليلة بالذات وهل يعتقد الرئيس انه بمجرد ان يقول ان هذا كان ممكنا يوم ١٨ فإن الناس جميعا يجب ان يصدقوا ما يقول. الا يعرف ان هناك علما عسكريا يقرر ما هو ممكن وما هو غير ممكن في كل يوم وفي كل ساعة طبقا للظروف المحيطة؟ تدخلت بسرعة قائلا "سيادة الرئيس. لقد بذل رجال الجيش الثاني أقصى ما يمكن عمله خلال تلك الليلة". فرد قائلا "بعد أن تنتهي الحرب سوف نقوم بتحقيق لتحديد المسئولية عن عملية اختراق الدفرسوار" فقلت له بصوت لم استطع أن أخفي ما فيه من ثقة وتحد "فعلا. يجب أن نحدد من هو المسئول ؟" (٢)

بعد أن انتهى الاجتماع رافقته أنا والوزير إلى عربته كما هي العادة وبعد أن غادر الرئيس مبنى القيادة وفي أثناء عودتنا إلى الداخل قال لي الوزير وكيف تخاطب الرئيس بهذا الشكل ؟ ولماذا تأخذ كلام الرئيس على أنه اتهام لك؟ هل أنت قائد الجيش الثاني؟ إذا كانت هناك مسئولية فهي مسئولية الجيش الثاني". قلت له "إن مجرد وجودي في الجيش الثاني يجعلني مسئولا عن كل ما يقوم به الجيش من أعمال. لقد وافقت وشاركت في كل قرار اتخذ في الجيش خلال الفترة التي عشتها معهم ". وبعد أن انفض الاجتماع استدعيت اللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني وقلت له "يا عبد المنعم أني أشم رائحة الخيانة والغدر. يبدو انهم يبحثون عن شخص يلقون عليه أضرار أخطائهم كلها. كن حذرا وحافظ على وثائق الجيش حتى لا يقوم أحد بسرقتها أو تزويرها".

في خلال اجتماع المجلس الأعلى للقوات أثار الرئيس موضوعاً مهماً وركّز عليه طويلا وهو موضوع الجيش والسياسة. قال الرئيس "إن القوات المسلحة يجب أن تلتفت إلى عملها وألا تتدخل في السياسة. إن عملية الفصل بين القوات هي عملية سياسية. وسواء تم التوصل إلى اتفاق أم لا فإن هذا لا يعنيكم في شئ . وعليكم أن تهتموا فقط بأعمالكم، ومن خبرتنا الطويلة في القوات المسلحة فإن مثل هذه التصريحات لا يمكن أن تصدر من رئيس الجمهورية، إلا إذا كانت ردا على شائعة أو كان المقصود منها إبلاغ شخص ما برسالة أو إنذارا بطريقة مستترة من هم يا ترى الأشخاص الذين يعنيهم الرئيس بهذا الكلام؟ من هم اكثر الناس إلماما بأسرار حرب أكتوبر وخفاياها وبعد ثلاثة أسابيع من هذا اللقاء جاء الرد على هذا التساؤل. لقد أقال الرئيس كلا من الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة واللواء عبد المنعم خليل قائد الجيش الثاني واللواء عبد المنعم واصل قائد الجيش الثالث من مناصبهم، وفي وقت لاحق أقيل أيضا سعد مأمون الذي قاد الجيش الثاني حتى يوم ١٤ أكتوبر. لقد عرض الرئيس علينا نحن

الأربعة مناصب سامية: حيث عرض علي منصب سفير في لندن بدرجة وزير، وعين عبد المنعم واصل محافظا مدنيا بدرجـــة نائب وزير، وعين عبد المنعم خليل مساعداً لوزير الحربية، وعين سعد مأمون في وقت لاحق محافظا مدنيا هو الآخر. ولكن هذه الوظائف السامية لم تســتطيع أن تخفي الحقيقة وهي أن السادات تخلص من اكثر الناس إلماما بأسرار الحرب.

يشتمني في زفة ويصالحني في عطفة:

وعندما ذهب السادات إلى مجلس الشعب في فبراير ٧٤ لكي يحتفل بتنفيــذ الاتـــفاقية الأولـــى للفصل بين القوات. وأخــذ يوزع الأنواط والأوسمة على القادة الذين حــــاربوا خــلال حــرب أكتوبر حدثت همهمة بين الناس واخذوا يتساءلون فيما بينهم: أين الشاذلي؟ أين عبد المنعم واصل؟ أين سعد مأمون؟أين عبد المنعم خليل؟ كانت تساؤلات خافتة لا يستطيع أحد أن يجاهر بها في ظل نظام اوتوقراطي، ثم إنها كانت مناسبة سعيدة للاحتفال بانتصار أكتوبر ولا أحد يريــد أن يثيــر الجدل حول أي موضوع حتى لا يؤثر في هذا الجو المرح السعيد. ومن سخرية القدر أنه بينمــا كان مجلس الشعب يحتفل بانتصار حرب أكتوبر كان سعد الدين الشاذلي يتابع هذا الاحتفال على شاشة التليفزيون في منزله. قامت زوجتي بإغلاق التليفزيون وقالت "ما هذا التهريج؟ إن هـــي إلا تمثيلية سخيفة". ولكني طلبت منها إعادة فتح التليفزيون وقلت لها "إنها حقا تمثيلية ولكنها جزء من تاريخ مصر ويجب أن نشاهدها". وفكرت في هذه اللحظة ما سبق أن قاله سعد مأمون قبل الحرب "إذا فشل العبور فسوف تطير ثلاثة رؤوس في الهواء" لم يكن يتصور سعد مأمون وهو يقول هذا الكلام أن الرؤوس الثلاثة نفسها سوف تطير أيضا لو نجح العبور.

ولكي يثير السادات الشكوك حول مسئولية الثغرة فان اسمي لم يذكر بين أسماء القادة الذي جرى تكريمهم في مجلس الشعب وســلمت إليهم "الأنواط والأوسمة"، ولكن بينمـــا الســـادات -وأقـــول السادات وليس مصر- تعمد إسقاط دوري في حرب أكتوبر فإن العرب بصـــفة عامـــة وســـوريا بصفة خاصة أخذوا يشيدون بالنصر الذي قمت به في هذه الحرب. ففي الحفل الكبير الذي أقامته سوريا لتكريم أبطال حرب أكتوبر لم ينس السوريون دور الفريق سعد الدين الشاذلي وانعموا علي بأعلى وسام عسكري سوري. كان حفل تكريم أبطال الحرب السوريين يذاع على الهواء وكـــان الكثيرون من الأهلين في مصر يستمعون إليه. عندما ذكر أسمي والوسام الذي منـــح لي -وعلى الرغم من عدم وجودي بينهم- ضجت القاعة بالتصفيق لمدة طويلة حتى ظن معظم المســـتمعين المصريين أنني في دمشق. لقد كان التصرف السوري صفعة شديدة للسادات, لقــد أراد الأخـــوة السوريون أن يوضحوا للعالم العربي والمصري أن السادات يتكلم عن الوفاء ولكنه لـــيس وفيـــا

لأحد، وانه يدعو الناس لئلا يحقدوا على أحد، وهو الحقود الذي يجري الحقد فـي دمائـه. أراد السادات أن يصلح خطأه تجاهي فارتكب خطأ أخر. ففي خلال عام ١٩٧٤ –وبينما كنت سـفيرا لمصر في لندن– حضر إلى مكتبي ذات يوم الملحق الحربي المصري وهو يكاد ينهار خجـلا.. كان مترددا ومتلعثما وهو يحاول أن يتكلم إلى أن شجعته على الكلام فقال "سيادة الفريق.. أني لا اعرف كيف أبدأ الحديث في هذا الموضوع، وكم كنت أتمنى ألا أجد نفسي أبدا في هذا الموقـف ولكنها الأوامر صدرت إلي وأنت اعلم بما يجب أن أقوم به لتنفيذها. لقد طلب إلي أن اسلم إلـيكم نجمة الشرف التي انعم عليكم بها رئيس الجمهورية ". استلمت منه الوسام في هدوء وأنا واثق أن مصر –وليس السادات حاكم مصر– سوف يكرمني في يوم من الأيام بعـد أن تعـرف حقـائق وأسرار حرب أكتوبر. ليس التكريم هو أن أمنح وساما في الخفاء ولكن التكـريم هـو أن يعلـم الشعب بالدور الذي قمت به. سوف يأتي هذا اليوم مهما حاول السادات تـأخيره ومهمـا حـاول السادات تزوير التاريخ. أنه لن يستطيع لأنه لا يصح إلا الصحيح.

كان ما قاله السادات خلال اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة في ٢١ من نوفمبر ٧٣ من أن ليلة ١٨/ ١٩ من أكتوبر هي سبب كارثة الدفرسوار هو بداية الحملة التي رسمها السـادات فـي خياله ليحملني مسئولية الثغرة ثم جاء بعد ذلك اجتماع مجلس الشعب لتكريم أبطال الحرب وغيابي عن حضور التمثيلية التي أخرجها السادات ثم بدأ بعد ذلك يصعد حملته شيئا فشيئا علـى شـكل أحاديث صحفية وتليفزيونية الخ. وتركته يتكلم ويناقض نفسه بنفسه شهراً بعد شهر وعاما بعد عام إلى أن نشر مذكراته في مايو ١٩٧٨، فكـانت هذه المذكرات ذات فائدة مزدوجـة لـي. كانـت الفائدة الأولى هي استخدام الاعترافات التي وردت على لسان السادات في هذه المذكرات كوثيقـة اتهام ضده أما الفائدة الثانية فإنها قد أعطت لي المبرر كي أنشر مذكراتي وأرد فيها على الأكاذيب التي ملا بها مذكراته.

التاريخ الحقيقي لإقالتي:

يدعي السادات في مذكراته (صفحة ٣٤١) بأنه عزلني يوم ١٩ من أكتوبر ٧٣. ولو أنه قال بدلا من ذلك نويت أن أعزله لكان اقرب إلى الصدق منه إلى الكذب لأن العـزل معنـاه ألا يمـارس الشخص أي عمل بعد عزله، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك فقد مكثت أمارس عملي حتى ١٢ من ديسمبر ٧٣. قد يتعجب بعض الناس لماذا أقول هذا الكلام ؟ وقد يرى الأذكياء منهم أنه خير لـي آلف مرة أن أرحب بهذا الادعاء لأن القوات المسلحة لم تحقق شيئا بعد يوم ١٩ من أكتوبر، بـل على العكس توالت المصائب بعد هذا التاريخ. فبعد هذا التاريخ تم حصار الجيش الثالث، وبعد هذا

التاريخ فقدنا المبادرة نهائيا على المستويين العسكري والسياسي. ولهؤلاء أقول أن الأمانة في كتابة التاريخ هي التي تفرض على أن أقول كل شئ.

لقد كان بقائي عنصر ضغط وتأثير على القرارات حتى لو لم يؤخذ بوجهة نظري. وإذا كان بقائي حتى ١٢ من ديسمبر لم يحقق شيئا سوى إنقاذ الفرقة الرابعة المدرعة من التدمير و إبقائها سليمة للدفاع ضد أي هجوم معاد لاحتلال القاهرة فإن هذا وحده يكفيني ويجعل من بقائي فائدة لمصر.

إن رفضي التوقيع على الأمر هو الذي أرغم الوزير على التراجع. لابد أن الرئيس قد نوى أن يعزلني قبل يوم ١٩ من أكتوبر بكثير. إن السادات إذا أراد أن يتخلص من أحد فإنه يرسم ويخطط لذلك ويحاول أن يخلق أو يدعي أسبابا أبعد ما تكون عن الأسباب الحقيقية. فقد فعل ذلك مع الفريق الليثي ناصف، والفريق محمد صادق والدكتور عزيز صدقي، وجاء دوري، ثم جاء من بعدي ممدوح سالم، ثم عبد الغني الجمسي ومحمد علي فهمي، والبقية تأتي. وأني أنصح هؤلاء الذين مازالوا يتعاملون مع السادات أن يأخذوا حذرهم منه وأن يتعظوا مما فعله مع أعوانه السابقين. أعود وأقول انه لابد أنه عزم على إقالتي اعتبارا من يوم ١٢ من أكتوبر ٧٣ للأسباب الآتية:

١- بعد النجاح الرائع الذي حققته القوات المسلحة المصرية في عبور قناة السويس ركزت الصحافة العربية والأجنبية كلها على النصر الكبير الذي قام به الفريق سعد الدين الشاذلي ر.ا.ح.ق.م.م. ولقد بلغ الأمر أن صورتي كانت تعلق داخل البيوت في مصر والبلاد العربية، وظهرت كصورة غلاف على كثير من المجلات الأجنبية. لقد وصل ذلك كله إلى السادات فدبت الغيرة والحقد في قلبه.

٢- وفي يوم ١٢ من أكتوبر عارضت دفع الفرقتين المدرعتين ٢١، ٤ وأصر السادات. وفي ١٥ من أكتوبر طالبت بإعادة نفس الفرقتين إلى الضفة الغربية ورفض السادات وفي يوم ١٦ من أكتوبر اختلفت مع السادات والوزير في أسلوب القضاء على الثغرة، وثار السادات وفقد أعصابه كما سبق أن بينت (الفصل الثالث والثلاثون).

من هنا نرى أن النية في إقالتي لابد أنها بدأت تتكون في فكر السادات منذ الأيام الأولى للحرب نتيجة لعنصر الغيرة ثم أخذت الفكرة تختمر اعتبارا من يوم ١٢ من أكتوبر نتيجة ما كنت أبديه من معارضة لأدائه [٣]. وقد كانت ثورته العارمة يوم ١٦ من أكتوبر دليلا قاطعا على انه اصبح لا يطيق وجودي ولو أن هجومنا في تصفية الثغرة نجح يوم ١٧ من أكتوبر طبقا للخطة التي وضعها أحمد إسماعيل ووافق عليها السادات لأعلن بعد الحرب انه عزلني يوم ١٦ من أكتوبر،

ولكن فشل الهجوم كما توقعت اثبت أني كنت على حق، وبالتالي أصبح يوم ١٦ من أكتوبر ليس يوما مناسبا لإعلان العزل.

ادعاءات السادات الباطلة ضدي:

١- لم يبدأ السادات في مهاجمتي إلا في أبريل عام ١٩٧٤.. ففي حديث أجراه مع الأستاذ سليم اللوزي رئيس مجلة الحوادث ونشر في المجلة المذكورة يدعو أنه أمرني يوم ١٦ من أكتوبر بما يلي: "عليك أن تكون بعد ساعة ونصف الساعة في الإسماعيلية وتضرب طوقا حول الدفرسوار، بحيث نترك اليهود يدخلون إلى هذه المنطقة بعدها تصبح القوة الإسرائيلية كلها في يدي.. ". وليس لدي تعليق على هذا الكلام سوى أن أقول أنه كلام مصاطب قد تحكيه جدة عجوز لطفل ريفي لتساعده على النعاس كما كانت جدة الرئيس تحكي له وهو طفل قصة زهران. ليس هكذا تدار الحرب وليس هكذا تخصص المهام العسكرية. أني اخجل ويخجل معي كل مثقف أن ينسب إلى رئيس جمهورية مصر هذا الكلام. وبعد ذلك كله فلم يحدث أن أمرني السادات أن اذهب إلى الجبهة يوم ١٦ ولم اذهب إلا يوم ١٨ من أكتوبر وسجلات الحرب المكتوبة تثبت ذلك. إن السادات بهذه القصة تحاشى أن يذكر قصة المواجهة التي دارت بيني وبينه بخصوص تصفية الثغرة كما سبق أن ذكرته.

٢- يدعي السادات بأنني طالبت يوم ١٩ من أكتوبر بالانسحاب الكامل من سيناء وهذه كذبة كبيرة أخرى سبق أن شرحتها بالتفصيل (الفصل الثالث والثلاثون). إن كل ما طالبت به يوم ٢٠ هو سحب ٤ ألوية مدرعة وكان سيبقى لنا بعد سحبها ٩٠٠٠٠ رجل في الشرق. وشتان ما بين حجم هذه القوات وبين حجم القوات التي حددتها اتفاقية فض الاشتباك الأولى، والتي كان بموجبها لا يسمح لمصر بأن تحتفظ شرق القناة بما يزيد على ٧٠٠٠ رجل و٣٠ دبابة.. شتان ما بين ما أمكن أن يحصل عليه السادات بالسياسة، وما كان يمكن أن نحصل عليه بالحرب. فلو أنه قال أنه أقالني لأنني طالبت بسحب ٤ ألوية مدرعة وانه سيبقى لنا في الشرق بعد ذلك ٩٠٠٠٠ رجل ومعهم اكثر من ٣٥٠٠ قطعة سلاح مضاد للدبابات (٥٠٠ دبابة+ ٣٥٠ مالوتكا+ حوالي ١٥٠ مدفعا ٨٥ ملليمتر+ ٢٥٠٠ مدفع مضاد للدبابات ذو مدى قصير ب ١٠/ ب ١١/ ر.ب.ج) علاوة على حوالي ٧٠٠ قطعة مدفعية ميدان يمكن استخدامها وقت الضرورة كأسلحة مضادة للدبابات+ حوالي ٢٥٠ هاونا ثقيلا ١٢٠/ ١٦٠ مم [٤]. لو قال السادات هذه الحقائق لظهرت ادعاءاته بشكل لا يمكن لعاقل أن يقبله. لذلك ابتكر السادات كذبة كبيرة فربط بين الإقالة وبين سحب القوات كلها من سيناء. وأني أتحدى أن يذكر أحد شهود هذا الاجتماع–وهم ستة أشخاص

علاوة على الرئيس والوزير وأنا- أنني طلبت انسحاب القوات كلها من سيناء, وفي الحديث السابق نفسه يتحدث السادات عن نفسه فيقول: "أنني استطعت أن أوقف القتال على خط ٢٢ أكتوبر"، ولم يقل لنا السادات لماذا لم يستطع التمسك بخط ٢٢ أكتوبر. إن من يوقف عدوه عند خط معين يجب أن يكون قادرا على التمسك بهذا الخط إن عدم قدرتنا على التمسك بهذا الخط عندما بدأ العدو هجومه يوم ٢٣ من أكتوبر هو دليل قاطع على ضعف قواتنا العسكرية في هذا الخط ولو أن السادات وافق على اقتراحي بسحب هذه الألوية الأربعة (ثلاثة من الجيش الثاني في الشرق وواحد من الجيش الثالث في الشرق) في ليلة ٢١/٢٠ أكتوبر لظهر أثر ذلك في القتال اعتبارا من صباح يوم ٢١ من أكتوبر ولكان في إمكاننا ضرب الثغرة يومي ٢١ و٢٢ وفي أسوأ الظروف كان يمكن تضييقها. ولو حدث وتوقف القتال وتلك الألوية الأربعة حول الثغرة لما استطاع العدو أن ينتهك وقف إطلاق النار يوم ٢٣ أكتوبر، ولو انتهكه لكنا قادرين على صده وتدميره.إن مسئولية حصار الجيش الثالث يوم ٢٣ أكتوبر تقع أولا وأخيراً على الرئيس السادات وهو يحاول أن يهرب منها.. ولكن هيهات هيهات

٣- أما ادعاؤه بأني عدت منهاراً من الجبهة يوم ١٩ من أكتوبر فإن هذا قول رخيص. فلست أنا الذي انهار ولم يحدث أن انهرت في حياتي حتى الآن والحمد لله. أنا رجل مظلات يعرفني رجالي ويعرفني أصدقائي جيدا ولا أحد يستطيع أن يصدق ما يدعيه السادات؟ أما السادات فله تاريخ طويل من الانهيار والأمراض النفسية وهذا بنيان بعضها:

(أ) اعترف في حديث له مع همت مصطفى (الإذاعة المصرية) بمناسبة ١٥ مايو ١٩٧٧ بأنه أصيب بمرض عصبي نتيجة القبض عليه في الساعة الثالثة صباحا في برد الشتاء القارص في كل من عامي ٤٢، ٤٦ وأن هذا المرض لازمه لمدة سنة ونصف السنة. وقد أضاف السادات قائلا بأنه شفي، وقد أكد هذه القصة بشكل مخفف في مذكراته صفحة ١٠٤. ولكن الذي لا يريد أن يعترف به السادات هو أنه مازال مريضا وأن هذه الحالة حدثت له اكثر من مرة بعد خروجه من السجن عام ١٩٤٦.

(ب) يقول في مذكراته صفحة ٢٢٨ عن الحالة التي انتابته بعد هزيمة عام ١٩٦٧ "استولى عليّ ذهول غريب لم اعد أستطيع معه أن أتبين الزمن أو المسافات أو حتى المكان نفسه في بعض الأحيان ".

(ج) يقول في مذكراته في الصفحة ٢٦٤ عن الحالة التي انتابته بعد وفاة عبد الناصر "بعد أن أصبحت الجنازة على وشك الابتداء أصبت بانهيار مفاجئ فحملوني إلى مجلس قيادة الثورة

وأعطاني الأطباء خمس حقن لم أفق منها إلا حوالي الساعة بعد الظهر.

(د) يقول في مذكراته في الصفحة ٣٥٧ عن حالته النفسية يوم ١٢ ديسمبر "أصبت بنزيف لمدة ٤ أيام، وقال لي الأطباء إن هذا النزيف بسبب التوتر النفسي" ويقول في الصفحة نفسها "كنت في حالة نفسية مرهقة ".

(هـ) هناك حالة أخرى شهدها كل من الرئيس معمر القذافي والأخ عبد السلام جلود ولن أتعرض لذكرها.

إن للسادات تاريخا طويلا في الأمراض النفسية. أما أنا فأني أحمد الله واشكره لأني لم اصب طوال حياتي بأي مرض عصبي أو أي حالة نفسية. اللهم لا شماتة وإنما أشكرك على ما أنعمت به علي وأقول أن السادات – وهو الرجل المريض– يرى في غيره ما يحس هو به، فيتهم كل من يختلف معه في الرأي بأنه انهار. ولست أنا أولهم ولن أكون اَخرهم.. فإذا كان السادات قد أتهمني بهذا الاتهام الباطل، فإنه قد اتهم من بعدي وزيرين للخارجية بالاتهام نفسه. لقد اتهم إسماعيل فهمي وزير الخارجية الذي رفض أن يسافر معه إلى القدس بالتهمة ذاتها وقال عنه في الصفحة رقم ٤٠٧ من مذكراته "مسكين، لم تستطع أعصابه أن تتحمل المبادرة واستقال". وبعد أن رفض محمد إبراهيم كامل (وزير الخارجية الذي حل محل إسماعيل فهمي) التوقيع على اتفاقية كامب ديفيد واستقال احتجاجا على ذلك، اتهمه السادات في تصريحاته بالاتهام نفسه. إن السادات له تاريخ طويل وثابت يؤكد انه يعاني أمراضا عصبية ونفسية، وهو في مرضه هذا يتصور نفسه وكان جميع الناس مرضى وانه هو وحده الذي لا يعاني هذه الأمراض، وهذا هو أخطر حالات المرض.

هوامش الفصل السابع والثلاثين

(١) يلاحظ أن السادات يقول في مذكراته إنه أرسلني إلى الجيش الثاني يوم ١٦. وثابت في محضر المجلس الأعلى انه قال وبصوته إنه أرسلني إلى الجبهة يوم ١٨ من أكتوبر وليس ١٦.

(٢) أن هذا الحديث كله مسجل على أشرطة أرجو أن تذاع في يوم من الأيام.. وإذا حاول السادات أن يمسح ما بها كما فعل نيكسون رئيس الولايات المتحدة فسوف يعرف الخبراء ذلك.

(٣) لو أن السادات رجل ديمقراطي لاستمع إلى كل رأي معارض لكي يستفيد منه، ولكن للأسف فإنه يعتبر كل من يختلف معه في الرأي متحديا لسلطته.

(٤) هذا الموقف هو بعد استنزال جميع الخسائر حتى مساء يوم ٢٠ أكتوبر، وعلى أساس سحب الألوية الأربعة المدرعة من الشرق.

الفصل التاسع والثلاثون

تطوير الهجوم نحو المضايق

"لا يستطيع أي جيش في العالم أن يدعي أنه كان باستطاعته أن يفعل افضل مما فعله المصريون في تخطيط وإدارة واقتحام قناة السويس. أما القرار باستغلال النجاح فكان خطأ جسيما. ولنتذكر جيدا أن أحد العوامل الرئيسية في الخطة المصرية ، كان هو الاعتراف بالتفوق الكبير للسلاح الجوي الإسرائيلي والتفوق المساوي له تقريبا في حرب المدرعات المتحركة" .

الخبير الأمريكي
الكولونيل تريفور دي بوي
الندوة الدولية عن حرب أكتوبر بالقاهرة ١٩٧٥

كتاب هيكل عن حرب أكتوبر

في أواخر عام ١٩٩٣، نشر الأستاذ محمد حسنين هيكل كتابه "أكتوبر ٧٣.. السلاح والسياسة".

الذي أثار ضجة كبيرة نظرا لما يتمتع به الأستاذ هيكل من شهرة كـبيرة. وقد علقت علـى هـذا الكتـاب باستفاضـة، ونشر هذا التعليق في صحيفـة الأهالي الأسبوعية في ثلاث حلقات كانت كل منها تغطي صفحـة كاملة من الصحيفة، وكان ذلك في الأيام ١٩ من يناير، و ٢٦ من يناير، و ٢ من فبراير ٩٤. كما قامت مجلة المجلة التي تصدر في لندن بنشر ملخص لهذا التعليق في عـددها رقم ٧٣٩ بتاريخ ١٠ أبريل ١٩٩٤. وفي ٢١ من مارس ١٩٩٥ نشرت صحيفة الشعب تعليقا لـي أوضح فيه ما ورد في كتـاب هيكل عن تطوير هجومنا نحو المضايق يـوم ١٤ أكتـوبر ١٩٧٣. وحيث أني كنت و أنا اكـتب هذه التعليقات أفترض أن القارئ لم يقرأ كتابي هذا عن حرب أكتوبر، فقد كنت مضطرا إلى أن اذكر في هذه التعليقات الكثير من الأحداث التي لاشك أن القارئ قد أصبح ملما بها بعد قراءته للفصول السابقة في كتابي هذا، وبالتالي فليس هناك مـن داع إلـى تكرارهـا. وسوف اكـتفي بالإشارة إليها إذا دعت الضرورة إلى ذلك .

وفي هذا الفصل سوف أناقش فقط ما أثير حـول تطوير هجوم قواتنا نحو المضايق. والأسـئلة المطروحة للمناقشة هي:

* هل كان من ضمن نوايانا قبل بدء العمليات أن نصل بقواتنا إلى المضايق؟
* هل كان في استطاعة قواتنا أن تصل إلى المضايق بعد نجاحها في عبور قناة السويس وتـدمير خط بارليف؟

يقول هيكل إن الخطة التي دخلنا بها الحرب كانت تتضمن الوصول بقواتنا إلى المضايق. وهو يعتمد في هذه المعلومـة على شهادة المشير عبد الغني الجمسي الذي كان يشغل خلال حرب أكتوبر منصب رئيس هيئة العمليات برتبة لواء. وكـان هذا المنصب يضع الجمسي في الترتيب الثالث في الهرم القيادي بعد الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام للقوات المسلحة والفريق سعد الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة. ومرة أخرى يقول هيكل في كتابه إن قواتنا كان في اسـتطاعتها أن تتقدم إلى الممرات بعد نجاحها في العبور. وهو يستند في ذلك إلى ثلاثة مصـادر.
المصدر الأول هو مجموعة من الخبراء في مركز دراسات الأهرام كانت ترى انه كان يجب علينا أن نبدأ في تطوير هجومنا نحو المضـايق يوم ٧ أو ٨ أكتوبر.
المصدر الثاني هو ما سمعه من السفير السوفيتي يوم ٩ من أكتوبر. والمصدر الثالث والأخير هو ما جاء في كـتاب الجمسي "يوميات حرب أكتوبر" الذي نشر عام ١٩٩٢، والذي يقول فيه إنه كان من الممكن أن يتم تطوير الهجوم نحو المضايق بنجاح لو أنه تم يوم ٩ أو ١٠ من أكتوبر.

ومع احترامي لوجهة نظر الأستاذ هيكل، فإن هذا الرد لا يرقى إلـى الحقيقـة التاريخيـة.. فالحقائق التاريخية في الحروب لا تتأكد إلا من خلال ثلاثة مصادر المصـدر الأول هـو الوثـائق

الرسمية التي لا تثار الشكوك حول تزييفها، وإجماع الشهود أو الغالبية العظمى من الشهود الأقرب إلى المعلومة التي يدور البحث حولها، و إجماع الخبراء أو اتفاق الغالبية العظمى منهم على صحة المعلومة نتيجة التحليل السياسي والعسكري في الوقت والتاريخ الذي أثيرت فيه هذه المعلومة. ويؤسفني جدا أن أقول إن الأستاذ هيكل تجاهل تماما تلك المصادر الثلاثة عندما تحدث عن موضوع تطوير هجومنا نحو المضايق.

الوثائق الرسمية

على الرغم من أن الأستاذ هيكل نشر في كتابه المذكور ١٤٢ وثيقة.. إلا أنه لم تكن بين هذا الكم الهائل من الوثائق الوثيقة التي أصدرتها القيادة العامة إلى قادة الجيوش قبل بدء العمليات ولو تم نشر هذه الوثيقة لعلم العامة والخاصة انه لم يكن من ضمن خطتنا أن تتقدم قواتنا نحو المضايق سواء يوم ٩ من أكتوبر أم ١٠ من أكتوبر أم قبل ذلك أم بعده. أما لماذا لم تتضمن الخطة عملية تطوير هجومنا نحو المضايق فإن ذلك يرجع إلى أسباب عسكرية كثيرة أهمها هو ضعف قواتنا الجوية وعدم توافر صواريخ مضادة للطائرات خفيفة الحركة تستطيع مرافقة قواتنا البرية المتقدمة وحمايتها ضد هجمات العدو الجوية (راجع الفصول ٢،٣،٤ من هذا الكتاب).

لقد نجحت قواتنا البرية في اقتحام قناة السويس وتدمير خط بارليف بينما كانت كتائب صواريخ الدفاع الجوي من طراز سام ٢، سام ٣ تحمي سماء قواتنا المهاجمة من مواقعها الثابتة غرب القناة وكانت هذه الصواريخ توفر لقواتنا الحماية ضد هجمات العدو الجوية حتى مسافة ١٠- ١٥ كيلومتراً شرقي القناة. وحيث إن احتلال المضايق كان يحتم علينا التقدم عبر سيناء حوالي ٥٠ كيلومترا، فإن التقدم عبر هذه المسافة دون حماية جوية ودون توافر وسائل الدفاع الجوي الذاتي الحركة (تتحرك على جنزير وترافق القوات البرية إثناء تحركها) سوف يعرض قواتنا البرية للتدمير بواسطة القوات الجوية المعادية.. حيث إن المعركة في هذه الحالة ستكون معركة غير متكافئة، بل معركة من جانب واحد: معركة بين قوات جوية تملك قدرات هائلة للتدمير وبين قوات برية لا تستطيع أن تدافع عن نفسها ضد هذه الهجمات. ومع ذلك فيجب أن اعترف بان القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية قد قامت بإصدار وثيقة مزورة قبل الحرب، وكان ذلك بناء على أوامر القيادة السياسية. كان الهدف من هذه الوثيقة المزورة هو إقناع السوريين بدخول الحرب إلى جانبنا في المعركة القادمة، وذلك بإخطارهم بأن هدف القوات المسلحة المصرية هو الوصول إلى المضايق وليس التوقف على مسافة ١٠-١٥ كيلومتراً شرق القناة كما في الخطة الأصلية . (ذكرت هذه المعلومة في الفصل الرابع من هذا الكتاب.. كما أشرت إليها في تعليقي على كتاب هيكل، وتم نشرها بصحيفة الأهالي في ١٩ من يناير ١٩٩٤)، وهذه الوثيقة المزورة لم تكن أبدا

تمثل نوايانا الحقيقية، ويؤكد ذلك ما يلي:-

١- فيما عدا الجمسي، فأن أكثر الناس معرفة بالخطة و أهدافنا- كما سيرد ذكرهم فيما بعد- ينكرون أن الوصول إلى المضايق كان هو هدف القوات المسلحة.

٢- لم تشمل الخرائط التي عرضت على السوريين التوقيتات التي يبدأ فيها التحرك نحو المضايق بعد نجاح العبور، والتوقيتات التي تصل فيها قواتنا إلى المضايق، بل أكتُفي بالقول بأنه بعد وقفة تعبوية تستأنف قواتنا تقدمها نحو المضايق. وكما سبق أن قلت فإن التعبير العسكري وقفة تعبوية يعني التوقف إلى أن تتغير الظروف التي أدت إلى هذا التوقف وقد تكون الوقفة التعبوية عدة أسابيع أو عدة شهور أو اكثر. ويختلف ذلك اختلافا جذريا مع المشاريع الاستراتيجية التي كنا نتدرب عليها خلال السنوات ٦٨-٧٢. فقد كنا خلالها نحتل المضايق في اليوم السابع ونحرر سيناء في اليوم الثاني عشر. وكان يظهر على تلك الخرائط ما تحققه قواتنا كل يوم. وإن عدم اتباع هذا الأسلوب بالنسبة للخطة التي تقضي باحتلال المضايق يؤكد أننا لم نكن جادين في تنفيذ هذه المرحلة.

٣- تصدر عن كل خطة وثيقة رئيسية تبين الهدف والقوات الرئيسية التي تكلف بتنفيذ هذه الخطة والتوقيتات التي يتم فيها تحقيق هذه الأهداف. ثم تصدر بعد ذلك عشرات الوثائق الفرعية توضح قرارات قادة الوحدات المرؤوسة وتنظيم التعاون بينها الخ.. وإن عدم إصدار تلك الوثائق الفرعية بالنسبة لمرحلة التقدم للمضايق يؤكد مرة أخرى أننا لم نكن جادين في تنفيذ هذه المرحلة.

فإذا نحن تركنا هذه الوثيقة المزورة رجعنا إلى الوثائق الحقيقية، فإننا نجد تناقضا كبيرا مع تلك الوثيقة المزورة. يقول التوجيه الذي أصدره الرئيس السادات إلى الفريق أول احمد إسماعيل ما يلي "الهدف الاستراتيجي للقوات المسلحة هو تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي. وذلك عن طريق عمل عسكري حسب إمكانات القوات المسلحة، يكون هدفه إلحاق اكبر قدر من الخسائر بالعدو وإقناعه بأن مواصلة احتلاله أراضينا يفرض عليه ثمنا لا يستطيع دفعه. وبالتالي فإن نظريته في الأمن- على أساس التخويف النفسي والسياسي والعسكري- ليست درعا من الفولاذ يحميه لا في المدى القريب ولا في المدى البعيد (كتاب البحث عن الذات ص ٤٤١).

إن جوهر الخطة الأصلية التي تم وضعها والتصديق عليها في شهر أغسطس ١٩٧١ -أي قبل أن يعين الجمسي رئيسا لهيئة العمليات، وقبل أن يعين احمد إسماعيل قائدا عاما للقوات المسلحة- كان هو أن نفرض على إسرائيل الحرب بأسلوب يختلف اختلافا جذريا عما تعودت عليه في جميع حروبها السابقة. إذ أنها كانت تتفادى الهجوم بالمواجهة وتلجا إلى عمليات الالتفاف ومهاجمة قواتنا من الخلف فإذا نحن توقفنا شرق القناة بحوالي ١٠-١٥ كيلومترا واستند خطنا الدفاعي على

البحر الأبيض شمالا وخليج السويس جنوبا فإنه سيصبح من المستحيل تطويق هذا الخط وبالتالي فإننا سنضع إسرائيل أمام خيارين كلاهما مر بالنسبة لإسرائيل وكلاهما حلو بالنسبة لنا. الخيار الأول هو أن تهاجم مواقعنا الدفاعية بالمواجهة وسوف يتيح لنا ذلك الفرصة لأن نكبد إسرائيل خسائر فادحة في الأفراد، وهذا هو المقتل الأول لإسرائيل، أما الخيار الآخر فهو عزوف إسرائيل عن الهجوم فتطول فترة الحرب لعدة اشهر دون أن يكون في استطاعتها إنهاء التعبئة العامة، وبذلك تستنزف قوتها الاقتصادية. وهذا هو المقتل الثاني لإسرائيل (راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب).

مما تقدم يتضح أن الوثيقة الخاصة بالتوجيه الذي أصدره السادات إلى القائد العام.. والوثيقة الخاصة بالخطة الأصلية.. وأن إصدار عشرات الوثائق الفرعية عن مرحلة العبور وعدم إصدار وثائق فرعية تتعلق بالتقدم إلى المضايق.. كل ذلك يؤكد أن التوقف عند مسافة ١٠-١٥ كيلومترا شرق القناة كان هو هدفنا النهائي في أكتوبر ٧٣. بل أن السادات ذكر في كتابه "البحث عن الذات" في صفحة ٣٢٩ ما يلي "في حياة عبد الناصر كنت أقول له على سبيل المبالغة أننا لو أخذنا حتى عشرة سنتيمترات في سيناء ووقفنا فيها ولم ننسحب، فسوف يتغير الموقف شرقا وغربا وكل شيء.. وبناء على هذا وضعت توجيهي الاستراتيجي وقلت للقوات المسلحة في فبراير ٧٣، إن الذي يكسب الأربعة والعشرين ساعة الأولى سوف يكسب الحرب".

يقول الفريق أول محمد فوزي في كتابه "حرب الثلاث سنوات" ١٩٨٣ إنه جهز خطة هجومية هدفها تحرير سيناء على أن يبدأ تنفيذها فور انتهاء فترة إيقاف النيران في ١٧/ ١٠/ ١٩٧٠. وكان من المفترض أن يصدق عليها الرئيس عبد الناصر في الأسبوع الأول من سبتمبر. ولكن أحداثا أخرى شغلت عبد الناصر عن التصديق على الخطة ثم وافته المنية قبل أن يصدق على الخطة (ص ٢١٠). ويقول في نفس المرجع انه أدار مشروعا تدريبيا لاختيار خطة تحرير سيناء، كان هذا المشروع بدأ يوم ٧١/٣/١٤ وانتهى يوم ٧١/٣/٢٥ وتأكد من خلاله إمكان تحرير سيناء خلال مدة ١٢ يوما (ص ٣٦٦).

وبناء على طلب اللواء حسن البدري -رئيس لجنة كتابة تاريخ حرب أكتوبر- تحدد يوم ١٢ إبريل ١٩٩٤ لإجراء لقاء بيني وبين الفريق أول محمد فوزي لبحث الخلاف بين ما سبق أن قلته في كتابي بأنه عندما عينت رئيسا للأركان فإنه لم تكن هناك خطة هجومية (راجع الفصل الثاني).. وبين ما يقوله الفريق أول فوزي بأنه كانت هناك خطة هجومية. وقد حضر هذا اللقاء كل من اللواء حسن البدري واللواء عبد المنعم خليل. وفي هذا اللقاء سألت الفريق أول فوزي عن الشخص الذي كانت بعهدته وثائق هذه الخطة حتى يمكن سؤاله عن مصير هذه الوثائق، فأجاب بأنه كان يخشى تسليم الوثائق لأي أحد حتى لاتفقد سريتها. وهذه الإجابة تؤكد ما قلته بأنه لم تكن هناك أي خطة

هجومية عندمـــا توليت رئاســـة الأركان. وإن ما ذكره فوزي ليس إلا أفكارا كانت مازالت حبيسة في صدره وفي بعض الأوراق الخاصة به.

ويقول الجمســـي في مذكراته "في مصر ظهرت بعض المذكرات والكتب تقول بأنه كانـــت هنـــاك الخطة ٢٠٠ التي وضعت عام ١٩٧٠ لتحرير سيناء في ١٢ يوما إلا أن الظروف في ذلك الوقت لم تسمح لتنفيذها. ولقد ظهر اسم هذه الخطة والغرض منها في مـــذكرات أحـــد القـــادة العســـكريين المصريين السابقين (يقصد الفريق أول فوزي). ومن هنا نقلت إلى مذكرات وكتب أخرى. وســـوف يســـجل التاريخ أن الخطة ٢٠٠ كـــانت خطة دفاعية عن منطقة قناة السويس وضعت بعد حـــرب ١٩٦٧، واشتركت في وضعها عندما كنت أعمل رئيسا لأركان جبهة قناة السويس في ذلك الوقـــت. الخطة ٢٠٠ كانت خطة دفاعية عن منطقة قناة السويس وضعت بعد حرب ١٩٦٧، واشتركت فـــي وضعها عندما كنت اعمل رئيسا لأركان جبهة قناة السويس في ذلك الوقت ووثائقها موجـــودة فـــي وزارة الدفاع " (مذكرات الجمسي ص ٣٠٢). وهكذا يؤكد الجمسي مـــا قلته بأنه لم تكن هنـــاك أي خطة هجوميـــة عندما توليت رئاســـة الأركان في مايو ١٩٧١.

ويؤكد أمين هويدي –وزير الدفاع الأسبق ورئيس جهاز المخابرات العامة الأسبق، والذي كان مـــن المقربين لجمال عبد الناصر– تشككه في أقوال الفريق أول فوزي، فيقول في اجتماع تم مساء يـــوم ٧٠/٩/٣٠ في مكتب وزير الحربية الفريق أول فوزي وحضره كل من السادة محمود رياض وزير الخارجية، و شعراوي جمعة وزير الداخلية، وحافظ إسماعيل رئيس أركـــان المخـــابرات العامـــة، وسامي شرف وزير الدولة لشـــئون رئاســـة الجمهورية، ومحـــمد حسنين هيكل وزير الإرشـــاد، و أمين هويدي وزير الدولة، للوصول إلى قرار بشان تجديد قرار وقف إطلاق النـــار الـــذي كـــان ينتهي في ١٧/ ١٠/ ١٩٧٠. وقد سئل الفريق فوزي هل يناسبك من الناحيـــة العسكرية أن تبـــدأ القتال على الفور، أم انك تفضل أن يتاح لك المزيد من الوقت والاستعداد؟ فـــرد علـــى الفـــور: إذا منحت فرصـــة شهرين آخرين فإني أظن أن موقفي سيكون احسن. إذ ستكون بطاريات الصواريخ في مصر العليا قد استقرت في موضـــعها وسأشعـــر بمزيد من الأمن. وعلى أي حـــال أنا جندي. وإذا صدر لي أمر مكتوب فإني سأنفذ ما تطلبه القيادة السياسية" . ويستطرد أمين هويـــدي فيقـــول وعلى اثر ذلك تقرر مد إيقاف إطلاق النار. ولم يعرض في هذا الاجتماع موضوع خطـــة ٢٠٠ أو جـــرانيت أو عبور قناة السويس. كل ما كان معروضا هو استئناف حرب الاستنزاف مرة أخـــرى. ولم تكن قواتنـــا المسلحة مســـتعدة لذلك في هذا الوقت، لأن الصعيد بأكمله كـــان مكشـــوفا ضـــد الغارات المعادية (أمين هويدي: الفرص الضائعة ص ٣٢٨، و ٣٢٩).

شهادة الشهود

يتفق كل الباحثين على أن الوثيقة هي المصدر الرئيسي للحقيقة. ولكن حيث إن تزوير بعض الوثائق هو احتمال وارد لايمكن استبعاده فإن إجماع الشهود أو الغالبية العظمى منهم على صحة الوثيقة وصحة ما ورد فيها من معلومات لابد أن يضيف بعدا جديدا للحقيقة. وعندما نتكلم عن الشهود فإننا نعني بذلك الأشخاص الذين تسمح لهم مناصبهم بأن يلموا بالمعلومة التي يدور البحث حول صحتها من عدمها. وإذا نحن طبقنا ذلك على المعلومة الخاصة بتطوير هجومنا نحو المضايق.. فإننا نجد أن اكثر الناس إلماما بهذه المعلومة هم الآتون بعد حسب رتبهم ومناصبهم في أكتوبر عام ٧٣:

الرئيس أنور السادات.. رئيس الجمهورية
فريق أول احمد إسماعيل علي.. القائد العام للقوات المسلحة
فريق سعد الشاذلي.. رئيس أركان حرب القوات المسلحة
لواء عبد الغنى الجمسي ..رئيس هيئة العمليات
لواء محمد علي فهمي.. قائد قوات الدفاع الجوي
لواء محمد حسني مبارك.. قائد القوات الجوية
لواء فؤاد زكري.. قائد القوات البحرية
لواء سعد مأمون.، قائد الجيش الثاني
لواء عبد المنعم واصل.. قائد الجيش الثالث

وفيما عدا اللواء عبد الغني الجمسي، فلم يذكر أحد من الثمانية الآخرين أن التقدم إلى المضايق كان ضمن نوايانا في حرب أكتوبر. وبالإضافة إلى الأسماء المذكورة فقد كان هناك شخصان آخران قريبان من تلك المجموعة أدليا برأيهما في هذا الموضوع. أولهما هو السيد حافظ إسماعيل مستشار رئيس الجمهورية لشئون الأمن القومي وآخرهما هو المشير أبو غزالة.

يقول السيد/ حافظ إسماعيل في كتابه "أمن مصر القومي في عصر التحديات" تحت عنوان "١٠- ١٣ أكتوبر، وقفة تعبوية"، ما يلي "كانت قواتنا خلال المرحلة التي انتهت قد أتمت تحقيق الهدف المباشر. وكنت من خلال أحاديثي مع الفريق أول احمد إسماعيل قبل نشوب الحرب أدرك انه لا ينوي التقدم حتى الممرات الجبلية وان ما جاء في تعليمات عمليات القيادة العامة بان الهدف هو احتلال المضايق.. إنما قُصد به حث القيادات الصغرى خلال مرحلة بناء رؤوس الكباري على استمرار التقدم حتى الهدف المباشر" (محمد حافظ إسماعيل/ أمن مصر القومي في عصر التحديات/ الطبعة الأولى ص ٣٢٣).

ويقول حافظ إسماعيل انه في الساعة الأولى من صباح يوم ٢١ من أكتوبر استدعاه الرئيس السادات، حيث ابلغه انه قرر طلب وقف إطلاق النار غير المشروط بالانسحاب الإسرائيلي (المؤلف: لاحظ أيها القاري أن هذا التوقيت يعني أنه فعل ذلك بعد أن حضر مؤتمر القيادة في المركز ١٠ والذي امتد حتى منتصف الليل كما جاء في الفصل الرابع والثلاثين تحت عنوان "استدعاء رئيس الجمهورية إلى المركز ١٠"). ويستطرد حافظ إسماعيل فيقول: إن الموقف العسكري كان يحتم ضرورة تخفيف القوات في الشرق حتى يمكن توفير القوات اللازمة- وخاصة المدرعة- للعمل ضد الثغرة في الغرب. إلا أن الرئيس رفض أي اقتراح بسحب قوات من الشرق إلى الغرب (المرجع السابق ص ٣٤٥).

ويستطرد حافظ إسماعيل في سرده للأحداث فيقول: إن تقييم السادات للموقف كما شرحه لمساعدي الرئيس ونواب رئيس الوزراء ومستشار الأمن القومي بعد قرار مجلسي الأمن بوقف إطلاق النار إننا خسرنا يوم ١٤ أكتوبر ٢٢٠ دبابة. وكانت هذه المعركة هي المقدمة للاختراق الإسرائيلي في منطقة الدفرسوار. وأوضح أننا دخلنا الحرب لإقناع إسرائيل بأن الحرب لا تحل المشكلات وإننا كسبنا الاحترام بدلا من احتقار العالم لنا. ثم أضاف بأننا لا نستطيع تحرير سيناء عسكريا"٠(المرجع السابق ص ٣٤٨).

وعن انفراد السادات بالقرارات السياسية والعسكرية يقول حافظ إسماعيل في الصفحة ٣٦٠ من المرجع السابق "لقد اختار السادات أن يواجه الموقف وحده. إذ انه اتخذ وحده من قبل قرارات مصيرية متعددة. وربما لم يجد ضرورة الآن وحدة الأزمة تتصاعد أن يدعو رفاقه ومعاونيه. واختار أن يجتاز الأزمة وحده.

لقد اختار أن يكون صاحب النصر عندما ننتصر. وهو الآن يرفض إلا أن يكون المسئول عن تحول المعركة (المؤلف: هذا ليس بصحيح.. فإنه أراد أن يلقي بمسئولية أخطائه على الفريق سعد الشاذلي كما جاء في كتابه البحث عن الذات).

كان وزير الدفاع الأسبق المشير أبو غزالة ضابطا برتبة عميد إبان حرب أكتوبر وكان يشغل منصب قائد مدفعية الجيش الثاني، وإذا كان هذا المنصب لم يكن يؤهله لكي يعرف كل أسرار الحرب.. إلا انه من المؤكد أنه كان يؤهله لمعرفة بعض الأسرار التي على مستوى الجيش. فلو افترضنا أن القيادة العامة للقوات المسلحة كان في نيتها تطوير هجوم قواتنا يوم ٩ من أكتوبر كما ذكر الجمسي فإنه كان يتحتم عليها إخطار قادة الجيوش المنوط بهم تنفيذ هذه النوايا. وإذا افترضنا أن اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني كان يعلم بهذه النوايا فمن المؤكد انه كان سيطلع قائد مدفعيته العميد أبو غزالة بذلك. وفي حديث له مع مجلة روز أليوسف نشر بتاريخ

٩٤ /٣/٢٦- ورغم استخدامه لغة دبلوماسية رفيعة- قام أبو غزالة بنقد شهادة الجمسي على أنها غير مقبولة وغير منطقية.

يقول أبو غزالة "ولا يعقل أن تكون أفكار القيادة العامة غير معلومة لقادة الجيوش حتى تكون الجيوش مستعدة لتنفيذ هذه الأفكار. ولقد ذكر لي كثير من القادة انهم لم يعلموا بأن هناك نية للتطوير إلا يوم ١٢ أكتوبر. وكان بهدف تخفيف الضغط عن سوريا أساسا. وأنا لا أقول هذا إن ما قاله الجمسي ليس صحيحا فهو رأي ولاشك سليم. ولكن كان يجب أن يكون معلوما للقادة والقوات حتى تكون على استعداد تام لتنفيذ المهمة بكفاءة".

وبشهادة كل من حافظ إسماعيل، وأبو غزالة تصبح شهادة الجمسي هي النشاز الوحيد بين كل ما أدلى به القادة حول موضوع تطوير الهجوم نحو المضايق. ترى ما الذي دفع الجمسي إلى هذه الشهادة التي لم يؤيده فيها شخص مسئول واحد؟! ثم ما هي الأسباب التي دفعت هيكل إلى أن يتغاضى عن شهادة عشرات المسئولين ويتبنى من دونهم جميعا شهادة الجمسي؟! ترى هل كان لرسالة السادات إلى كيسنجر يوم ٧ من أكتوبر تأثير كبير على أفكار وآراء هيكل اكثر مما يجب؟! وانه وجد في رأي الجمسي ما يستند إليه لتأكيد أفكاره وشكوكه في السادات؟!.

رأي الخبراء

استعرض أمين هويدي ما جاء في تصريحات السادات وفي كتابه البحث عن الذات وما جاء في كتاب الشاذلي وما جاء في كتاب الجمسي وما جاء من تصريحات الفريق أول أحمد إسماعيل للصحافة قبل وفاته، وأضاف إلى ذلك توزيع القوات أثناء عملية عبور قناة السويس وانتهى في نهاية ذلك إلى القول بان كل ذلك يثبت صدق ما ذهب إليه الشاذلي من أن الخطة لم تهدف على الإطلاق احتلال خط المضايق (أمين هويدي/ الفرص الضائعة ص ٣٣٠- ٣٣٩). ثم يستطرد بعد ذلك فيقول "وعلينا أن نلاحظ على السادات انه كان يتبع الازدواجية في قراراته.. أي أن معظم قراراته كانت تآمرية بحيث يوافق على القرار ويصدره ولكنه ينفذ قرارا آخر حتى ولو تم ذلك من وراء مساعديه. وانه عندما اجتمع مع حافظ الأسد في برج العرب في إبريل ٧٣ وأيقن أن الأسد لن يقاتل إلى جانبه ما لم يكن الهدف المشترك هو تحرير سيناء والجولان بالضغط المتزامن على إسرائيل، فإن السادات باعه خطة جرانيت ٢ (الوصول بقواتنا إلى المضايق)، بينما كان ينوي تنفيذ خطة المآذن العالية. ثم يصل هويدي في استنتاجه إلى أن السادات كان يلعب على الأسد وان الأسد كان يلعب على السادات (عندما اتصل بالاتحاد السوفيتي بعد بداية القتال لاتخاذ قرار بإيقاف النيران دون علم السادات).. أي أن الرئيسان كانا يلعبان على بعضهما البعض وليس مع بعضهما البعض (نفس المرجع السابق ص ٣٤٩ و٣٥٠).

انعقدت في القاهرة في الفترة ما بين ٢٧ و ٣١ من أكتوبر ١٩٧٥، ندوة دولية عــن حــرب أكتوبر شارك فيها ١٨٥ خبيرا أجنبيا ينتمون إلى ٥٠ دولة. وقد قدم هؤلاء الخبراء ١١ بحثا قيمــا تناولوا فيها جميع جوانب حــرب أكتوبر. وقد أشارت جميع هذه البحوث بعملية العبور الرائعة التي قامت بها قواتنا المسلحة. ولكنهم في نفس الوقت وجــهوا نقدا لاذعــا للقيـــادة العامــة للقــوات المسلحـــة إزاء تصرفاتها تجاه موضوعين رئيسيين: الأول هو تطوير هجومنا نحــــو المضـــايق. والأخير هو أسلوب التعامل مح الثغرة، وقد جاء في تعليق الخبير الأمريكي الكولونيل تريفــور دي بوي ما يلي:

"لا يستطيع أي جيش في العالم أن يدعي أنه كــأن باستطاعتـــه أن يفعل أفضل مما فعله المصريون في تخطيط وإدارة اقتحام قناة السويس. أما القرار باستغلال النجاح والتقدم نحو المضايق فقد كـــان خطأ جــسيماً. ولنتذكر جيدا أن أحد العوامل الرئيسية في الخطة المصرية، كان هـــو الاعتـــراف بالتفوق الكبير للســـلاح الجوي الإسرائيلي، والتفوق المساوي له تقريبا في حرب المدرعات الخفيفة. لقد واجه قائدان مهمان في التاريخ نفس المشكلة التي واجهت المشير احمد إسماعيل أحـــدهما هـــو الجنرال الأمريكي اندرو جـــاكسون في موقعه نيو اورليانز عام ١٨١٥، فقد حقق نصرا دفاعيا ضد افضل قوات الجيش البريطاني. وبعد ذلك رفض بحكمة التحـــول للمطاردة بعد أن اتضح له أنهـــا ربما تطيح بالنصر الذي أحـــرزه. نفس الشيء أيضا فعله الجنرال مونتجومري في معركـــة علـــم حلفا عام ١٩٤٢. إذ رفض بحـــذر إعطاء روميل فرصة للهجوم المضاد وتحويـــل هزيمتـــه إلـــى انتصار. وعلى ذلك أقول إن أي هجوم مصري في ٩ و١٠ من أكتوبر، أو بعد هذا التـــاريخ كـــان سيلقي نفس المصير الذي انتهى إليه الهجوم المصري يوم ١٤ أكتوبر، حتى وان لم يكـــن سيحســـم بنفس الطريقة".

قد يقول قائل ولماذا نفترض صـــحة رأي الخبراء الأجانب. وله الحق في ذلـــك إذا كـــان رأي الخبير الأجنبي يتعارض مع العلم العـــسكري ومع المنطق ومع إجماع آراء الخبراء الوطنيين؟ أما إذا كـــان رأي الخبراء الأجانب مؤيدا لوجهة نظر الغالبية العظمى من الخبراء الوطنين، ومع العلم العسكري، فإن رأيهم في هذه الحـــالة يعتبر دعما إضـــافيا لصحـــة رأي القادة والخبراء الوطنيين.

يقول هيكل إنه شكل في الأهرام مـــا أطلق عليه "المركز رقم ١١"، وإن هذا المركز كـــان يضم اللواء طلعت حسن علي ومصطفي الجمل وحسن البدري. وأن هذا المركز كـــان مكلفـــا بمتابعـــة مجرى العمليات عن بعد متـــحررين من ضغوط المعركة وأن يبعثوا بما يعن لهم إلى القيادة العامة للقوات المسلحـــة (هيكل أكتوبر ٧٣ ص ٤٣٧) إن مؤسسة الأهرام حرة فـــي أن تنشـــئ مركـــزاً للدراسات الاستراتيجـــية وان تطلق عليه ما تشـــاء من الأسماء ولكـــن مـــع احترامـــي لهـــؤلاء

الأشـــخاص الذين جاء ذكرهم، ومع اعترافي بأنهم من خيرة الضابط إلا أنه لا يمكن اعتـــبار هذا المركز التابع للأهرام بديلا عن المركز ١٠ التابع للقيـــادة العامـــة للقوات المسلحة أو موازيا لـــه. وماذا لو قامت مؤسسة أخـــبار اليوم بإنشاء مركز مثيل.. ثم ماذا لو تصورنا فـــي ظـــل التعدديـــة الحزبية الحالية أن صحيفة الشعب التـــابعة لحزب العمل المعارض قامت هي الأخرى بإنشاء مركز مثيل!! إن هذه المراكز مهما تعددت ومهما ضمت من ضباط ممتازين فإنها ستكون دائما في حاجة ماسة إلى المعلومات التي تتغير يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة والتي لا يمكن متابعتها إلا من خلال مركز القيادة الرئيسي التابع للقوات المسلحة والذي كان يطلق عليه المركز ١٠.

وإني أذكر أن اللواء مصطفي الجمل قد زارنا في المركز ١٠ واقترح أن نقوم بتطوير هجومنـــا نحو المضـــايق. ولكنه لقي معارضة ورفضا من كل من الفريق أول أحمد إسماعيل ومن الفريـــق سعد الدين الشاذلي رئيس الأركان. وقد أوضحت له بنفسي الأسباب التي تدعو إلى ذلك. وإن رفض الأخذ بتوصية اللواء مصطفي الجمل لا تعني- حاشا لله- الاستخفاف بها.. ولكنها كـــــانت تعنـــي ببساطة شديدة انه هو وزملاؤه في مركز دراسات الأهرام لم يكونوا على دراية كاملة بموقف قواتنا وقوات العدو في اللحظة التي تقدم فيها باقتراحه.

يتبنى هيكل في كتابه الرأي القائل بأن قواتنا المسلحـــة كانت لديها القدرة علـــى التقـــدم إلـــى المضايق يوم ٩ من أكتوبر ولكنها لم تفعل ذلك. ويستشهد هيكل على صحة مـــا يقول بما سمعه من السفير السوفيتي فينوجراسرف والجنرال السوفيتي ساماخودسكي في الساعات الأولى من يوم ٩ من أكتوبر (هيكل/ أكتوبر ٧٣ ص ٣٩٢ و ٣٩٣). ويبدو أن هيكل قد وقع في خطا التصور بان صور الأقمار الصناعية الســـوفيتية كانت تصب أولا بأول في السفارة
السوفيتية، وأن خريطة الموقف التي شاهدها عند الجنرال ساماخودسكي كانت تبين توزيـــع قواتنـــا وقوات العدو حتى آخر لحظة.. حيث أن ذلك هو ابعد ما يكون عن الحقيقة. فقد كانت صور الأقمار السوفيتية تصل إلينا من موسكو برفقة ضابط سوفيـــتي حيث تسلم مباشرة إلى المركـــز ١٠، أمـــا الجنرال ساماخردسكي فقد كـــان يزورنا في المركز ١٠ مرة في كل يوم لكي يحصل منـــا علـــى المعلومات التي طرأت على الجـــبهة خلال الأربـــع والعشـــرين ساعة السابقة.
وبالتالي فإن توصية السفير السوفيتي بتطوير هجومنا نحو المضايق يوم ٩ من أكتوبر تتساوى مـــع توصية مركز الدراسات الاستراتيجية في كونها تفتقر إلى المعلومات الصحيحة. وقد حصـــل هيكل على هذه الإجابة من الفريق سعد الدين الشاذلي عندما اتصل به الساعة الثالثة صباح يـــوم ٩ مـــن أكتوبر، كما حصل على نفس الإجابة من الفريق أول أحمد إسماعيل عندما اتصل به بعد ذلك بثلاث ساعات (المرجع السابق ص ٣٩٤)

تخفيف الضغط عن سوريا

حيث إن السادات لم يعلن قط أن الهدف الذي حدده للقوات المسلحة قبل الحرب كان هو الوصول إلى المضايق، وحيث أنه هو نفسه الذي أمر يوم ١٢ من أكتوبر بالتطوير نحو المضايق. وحيث إن هجومنا نحو المضايق يوم ١٤ من أكتوبر– تنفيذا لقرار السادات وعلى الرغم من المعارضة الشديدة من القادة العسكريين– قد فشل فشلا ذريعا.. فإن السادات لجأ إلى تبرير هذا القرار الخاطئ بان الغرض منه كان هو تخفيف الضغط عن الجبهة السورية. وهذا الادعاء هو إكذوبة كبرى من أكاذيب السادات الكثيرة وقد سبق لي أن أوضحت تلك بالتفصيل في الفصل الثالث والثلاثين وهناك ثلاث حقائق تؤكد عدم مصداقية هذا التبرير وهي:

الحقيقة الأولى هي ما ذكره السادات لهيكل مساء ١١ من أكتوبر إذ قال "أنا مرتاح للموقف في سوريا.. السوريين تمكنوا من تثبيت الجبهة. والإمدادات تتدفق عليهم من الاتحاد السوفيتي، وقد وصلتهم اليوم حمولة ٤٠ طائرة (يقصد طائرات انتنوف ٢٢ حمولة كل منها ٨٠ طنا). احمد إسماعيل أول ما دخل كان عاوز يقول لي إن السوريين استطاعوا تثبيت الهجوم المضاد الإسرائيلي، فقلت له يا أحمد أنا عارف قبل ما تقول لي وأنا مطمئن " (هيكل/ أكتوبر ٧٣ ص ٤٢٧). فإذا كان هذا هو رأي السادات مساء ١١، فما الذي دفعه إلى إصدار الأمر صباح يوم ١٢ بالتطوير بحجة تخفيف الضغط عن الجبهة السورية ما الذي حدث خلال العشر ساعات السابقة لاتخاذه هذا القرار؟

الحقيقة الثانية هي لغة الأرقام. ففي يوم ١٢ من أكتوبر كان تحت تصرف قيادة الجبهة السورية ١٣ لواء مدرع عربي (٨ سوري، ٣ عراقي، ١ أردني، ١مغربي) في مقابل ٦ ألوية مدرعة إسرائيلي. نعم كانت الألوية المدرعة العربية قد تحملت بعض الخسائر، ولكن إذا أضفنا إلى عدد الدبابات الأسلحة المضادة للدبابات، فإن قدرة سوريا على صد الهجوم المضاد الإسرائيلية كانت مؤكدة، بل إن الموقف النسبي بين سوريا وإسرائيل على الجبهة السورية كان افضل بكثير من الموقف النسبي بين مصر وإسرائيل على الجبهة المصرية، حيث كانت إسرائيل تحشد ٨ ألوية مدرعة في مواجهة ١٠ ألوية مدرعة مصرية (اللواء المدرع الإسرائيلي ١٢٠ دبابة أما اللواء المدرع العربي فهو ٩٠ دبابة).

أما الحقيقة الثالثة والأخيرة فإنه طبقا لأصول العلم العسكري، وما تتمتع به إسرائيل من موقع مركزي بين الجبهتين المصرية والسورية مما يمكنها من العمل على خطوط داخلية، واضطرار الجبهتين المصرية والسورية إلى العمل في خطوط خارجية، وابتعاد الجبهتين عن بعضهما حوالي ٢٥٠ كيلومترا، والتفوق الجوي الإسرائيلي الساحق.. فإن كل من الجبهة المصرية أو الجبهة

الشرقية لا تستطيع أن تخفف الضغط عن الأخرى، وقد أوضحت ذلك في تقرير قدمته بصفتي الأمين العام المساعد العسكري للجامعة العربية إلى مجلس الدفاع العربي المشترك في دورته الثانية عشرة عام ٧١.

فإذا علمنا انه لم يحدث على الجبهة السورية أي تغيير خلال العشر ساعات التي سبقت اتخاذ السادات القرار الخاص بتطوير هجوم قواتنا نحو المضايق.. وإذا افترضنا- كما تؤكد الأحداث وطبقا لما جاء في حديث السادات مساء يوم ١١- أن الجبهة السورية كانت متماسكة وابعد ما تكون عن الانهيار.. وإذا افترضنا أن القائد العام أحمد إسماعيل لابد انه اخطر السادات بالمخاطر التي سوف تجابه قواتنا إثناء تحركها، ويبدو ذلك جليا من الحديث الذي أدلى به احمد إسماعيل إلى هيكل بعد الحرب يوم ١٤ نوفمبر ١٩٧٣.. إذا افترضنا كل ذلك فإنه يتحتم علينا أن نجيب عن السؤال المهم الذي يفرض نفسه وهو: "لماذا إذن اتخذ السادات هذا القرار؟".

لقد ذهب خصوم السادات إلى حد اتهامه بالخيانة وانه كان عميلا للمخابرات الأمريكية.

وأنه كان يتقاضى راتبا شهريا من CIA عندما كان نائبا لرئيس الجمهورية. وهم يستندون في ذلك على ما نشر في الصحف الأجنبية عام ١٩٧٨، ثم ما أكده الصحفي الأمريكي بوب ودورد Bob Woodwardفي كتابه الذي نشر في أغسطس ١٩٨٧ (The Secret Wars of the CIA, Page 352)، والذي يعطي لهذا الكتاب الأخير أهمية خاصة هو انه صدر بناء على أحاديث أجراها بوب ودورد مع المستر Caesy مدير وكالة المخابرات الأمريكية.

أما من ناحيتي فأني اعتقد أن ذلك كان يرجع إلى شوفينية كاذبة تولدت وتعظمت لدى السادات بعد نجاح قواتنا في عبور قناة السويس كرد فعل لما عاناه في طفولته البائسة. ويبدو ذلك جليا لمن يقارن بين ما جاء في كتابه البحث عن الذات.. وبين حديثه مع هيكل مساء ١١ أكتوبر ٧٣. فهو يصف طفولته في كتاب البحث عن الذات "كنت أسير خلف جدتي صبيا اسمر ضئيل الجسم حافي القدمين يرتدي جلبابا تحته قميص من البفتة لا تفارق عيناه زلعة العسل.. ذلك الكنز الذي استطعنا الحصول عليه أخيرا (ص ١١) وهو يشرح في الصفحات التالية كيف كان يخرج في الفجر ليشتغل بالطنبور في ري الأرض، وكيف كان يأخذ البهائم إلى الترعة لتشرب. وانه عندما ذهب إلى المدرسة الثانوية عرف معنى الطبقة والفوارق وأنه كان يعيش تحت خط الفقر".. أما في حديثه مع هيكل مساء يوم ١١ أكتوبر فإنه يقول "بعثت اليوم للبكر (يقصد الرئيس العراقي حسن البكر) أطلب منه السماح باستخدام طيارة الردع تي يو من بغداد ضد إسرائيل بعث البكر يقول لي حاضر. حكمتك يارب. كل الناس في العالم العربي بياخدوا مني دلوقتي أوامر.. أقول أي شيء يقولوا حاضر يا أفندم". ولنا أن نتصور ما يمكن أن يحدثه هذا التطور الهائل في حياة وتفكير

هذا الشخص. لابد أن شيـــاطين الجن والإنس –قد يكشف لنا المستقبل عمن هم شياطين الإنس الذين تكالبوا عليه مساء يوم ١١ أكتوبر– قد قالوا له "إن نجاح القوات المسلحة المصرية في عبور قنـــاة السويس وتدمير خط بارليف قد جعل منك بطلا مصرياً.. فلماذا لا تستغل هذا الموقف لكي تصبح بطلا عربيا كصلاح الدين وغيره من القادة الأبطال؟.

وإذا علمنا أن الســـادات لم يخدم بالقوات المسلحـــة سوى ثلاث سنوات في الأربعينيات.. وانه ليس بقارئ وليس له أي ثقافة عسكرية.. وانه لم يتول أي قيادة ميدانية فإننـــا لا نتجنـــى عليـــه إذا وصـــفناه بالجهل. وإذا اجتمعت الشوفينية والجهل في شـــخص ما فهي لابد تؤدي إلى الكـــوارث. ولاشك أن علماء النفس هم اقدر مني على تحليل شـــخصـــية الســـادات والتوصل إلـــى الأســـباب الحقيقية التي دفعته لاتخاذ قرار التطوير الخاطئ وذلك إذا افترضنا استبعاد اتهامه بالخيانة.

الصواريخ المضادة للطائرات

المشير محمد علي فهمي كان إبان حرب أكتوبر برتبة لواء وكـــان قائدا لقوات الدفاع الجـــوي. وقد أبلت قوات الدفاع الجوي بلاء حسنا خلال حربي الاستنزاف وأكتوبر ١٩٧٣. ونظرا لضـــعف قواتنا الجوية التي من المفترض أنها تتحمل نصيبا من مسئولية الدفاع الجوي، فقد كانـــت نتيجـــة ذلك زيادة الحمل الملقى على عاتق قوات الدفاع الجوي، والذين عاشوا فـــي مصـــر عـــام ١٩٧٠ يعرفون ملحـــمة بناء قوات الدفاع الجوي، فبنهاية عام ١٩٦٩ كان الدفاع الجوي قد انهـــار تمامـــا وأصبحت الطائرات الإسرائيلية تقوم بغارات شبه يومية لا على الأهداف العسكرية فحســـب بـــل على الأهداف المدنيـــة في العمق أيضـــا (راجع الفصل العاشر).

وسافر جمال عبد الناصـــر إلى موسكو في يناير ٧٠ وطلب من الاتحـــاد السوفيتي أن يشاركوا بقواتهم في الدفاع الجوي عن مصر. واستجاب الروس لطلب عبد الناصر وبدأت الإمدادات الروسية تصل إلى مصر خـــلال فبراير ومارس، وبحلول شهر إبريل كـــانت الوحـــدات السوفيتيـــة قـــد أصبحت جاهزة للقيام بمهامها القتـــالية. وقد بلغ عدد أفراد الوحدات السوفيتية في مصـــر حينئـــذ ٦٠٠٠ فرد، وكانت تشمل ما يلي :-

- ٨٠ طائرة ميج ٢١ بأطقمها
- ٣٧ كتيبة صواريخ سام ٢، سام ٣ بأطقمها
- فوج صواريخ سام ٦.
- ٤ طائرات ميج ٢٥ بأطقمها
- ١ سرب استطلاع وإعاقة إلكتروني
- ١ وحدة سمالطا يمكنها إعاقة جهاز التوجيه في صواريخ هوك الإسرائيلية

- ١ وحدة تاكان يمكنها إعاقة أجهزة التوجيه في الطائرات المعادية
- مجموعة رادارات مختلفة الأنواع

كانت صواريخ سام ٢ وسام ٣ من النوع الثقيل الذي يستخدم في الدفاع الثابت وتحتاج إلى بناء قواعد وملاجئ من الخرسانة المسلحة.. كان العدو يشن هجمات يومية على المهندسين والعمال الذين يقومون ببناء هذه الملاجئ وفيما بين يناير وإبريل ١٩٧٠ بلغ مجموع الغارات الجوية الإسرائيلية ٣٣٠٠ طلعة أسقط خلالها ٨٨٠٠ طن من المتفجرات، سقط خلالها بضعة آلاف من القتلى كان غالبيتهم من العمال الذين يقومون ببناء قواعد الصواريخ. وفي أواخر يونيو بدأ تحرك كتائب الصواريخ من القاهرة في اتجاه القناة كان التحرك يتم على وثبات، وفي خلال أسبوعين وصل حائط الصواريخ إلى خط يقع حوالي ٢٠ كيلومترا غرب القناة.

وفي عام ١٩٧٧ نشر محمد علي فهمي كتابه "القوة الرابعة، تاريخ الدفاع الجوي في مصر". ولم يدع في كتابه أن التقدم نحو المضايق كان هو هدف القوات المسلحة في خطة الحرب ولكنه كان حريصا على ألا تتحمل قيادة قوات الدفاع الجوي مسئولية عدم إدراج التطوير في الخطة.. وان عدم توافر كتائب الصواريخ خفيفة الحركة مثل سام- ٦ بأعداد كافية كان هو أحد الأسباب الرئيسية لذلك. وهو يدافع عن وجهة نظره هذه بالنقاط التالية:

- تم إدخال تعديلات فنية على التنظيم والمعدات والتدريب لتسهيل عملية التحرك والإستبانه حتى اصبح من الممكن تجهيز موقع قاعدة الصواريخ في عدة ساعات (المؤلف: لم يذكر الأخ محمد علي فهمي عدد هذه الساعات ولكن على ما أتذكر فإنها كانت تستغرق ثمان ساعات أثناء التدريب وقت السلم وبدون أي تدخل من العدو. وهي مدة طويلة جدا لا تتناسب مطلقا مع سرعة المعركة الهجومية).
- إن قوات الدفاع الجوي دفعت فعلا عددا من كتائب الصواريخ إلى شرق القناة حينما قررت القيادة العامة للقوات المسلحة تطوير الهجوم شرقا يوم ١٤ أكتوبر لتخفيف الضغط عن سوريا.

ومع احترامي لوجهة نظر الأخ محمد علي فهمي فأنني أذكره بما يلي:

١- في المؤتمر الذي عقد برئاسة الرئيس السادات في بيته بالجيزة في ٢ من يناير ٧٢ قال محمد علي فهمي "مشكلة الدفاع الجوي حاليا أني عاوز أحارب حرب هجومية بأسلحة دفاعية. الصواريخ الخفيفة الموجودة عندي من نوع ستريلا وقوتها التدميرية محدودة ومداها لا يتعدى كيلو ونصف. السوفيت عندهم نوع متقدم ويمكن غير موجود عند الدول الغربية لأنه محمل على وسيلة نقل مجنزرة ويضرب على الكونتراست ولا يضرب بالإنفرارد. بالوسائل الموجودة لا نقدر على توفير دفاع كافي أمام طائرات سكاي هوك وطائرات الفانتوم. ومن ناحية القيادة والسيطرة ليس لديّ وسيلة

اتصال مأمونة أثناء التحرك وهذا يضطرني إلى إرسال الإشارات بالشيفرة ومعنى هذا اَخذ ٢٠-٣٠ دقيقة علشان أوصل معلوماتي. العدو عنده إمكانات عالية جدا في التصنت والإعاقة والشوشرة اللاسلكية". (المؤلف: يلاحظ أن محمد علي فهمي لم يذكر إطلاقا إمكان استخدام سام ٢ وسام ٣ في العمليات الهجومية. أننا نذكره بالوقت والخسائر التي تحملتها كتائب الدفاع الجوي إثناء تحركها من منطقة القاهرة وحتى ٢٠ كيلومترا غرب القناة في شهر يونيو ١٩٧٠- فقد استغرق ذلك حوالي إسبوعين رغم انه كان يتم فوق ارض تسيطر عليها قواتنا البرية سيطرة كاملة، وتستخدم الخطوط التليفونية المؤمنة في القيادة والسيطرة على هذه الكتائب إثناء تحركها وأثناء اشتباكها).

٢- إن دفع عدد محدود من كتائب الصواريخ إثناء عملية التطوير يوم ١٤ أكتوبر إلى مسافة حوالي ٥ كيلومترات شرق القناة لا ينهض دليلا على أماكن استخدام كتائب سام ٢ وسام ٣ في العمليات الهجومية، حيث أنها كانت تنتقل من مكان تسيطر عليه قواتنا البرية إلى مكان آخر تسيطر عليه أيضا قواتنا البرية.. وهذا الوضع يختلف تماما إلى أن هذه الكتائب أن تفتح على مسافة تزيد على ١٥ كيلومترا شرق القناة.

٣- الصواريخ المضادة للطائرات خفيفة الحركة لا تعني مجرد سرعة هذه الصواريخ في الانتقال من موقع مجهز يقع تحت سيطرة قواتنا البرية إلى موقع مجهز يقع أيضا تحت سيطرة قواتنا. بل أنها تعني القدرة على القفل والتحرك بعد كل اشتباك حتى تتفادى هجمات طيران العدو ومدفعيته بعد أن يكون قد حدد مواقعها. وبالتالي فانه تكون لها القدرة على مفاجأة طائرات العدو من مواقع متعددة.

٤- إن الخسائر الفادحة التي تكبدتها قواتنا البرية أثناء عملية التطوير هي خير شاهد على عدم نجاح كتائب الصواريخ سام ٢ وسام ٣. كما أن قيام هذه الكتائب بإسقاط عدد من طائراتنا يدل على أن وسائل القيادة والسيطرة لدى تلك الكتائب كانت غير كافية.

٥- إذا كان في إمكاننا دفع كتائب صواريخ من طراز سام ٢ وسام ٣ بمثل هذه السهولة التي يصورها الأخ محمد علي فهمي، فلماذا لم ندفع بكتيبة أو اثنتين من تلك الكتائب مع اللواء الأول مشاه عندما كلف بالتحرك ليلة ١٠/١١ إلى سدر.. حتى لا يتسبب طيران العدو في تشتت اللواء كما حدث؟!.

٦- أذكّر الأخ محمد علي فهمي بموقف هذه الكتائب بعد أن نجح العدو في اختراق مواقعنا في منطقة الدفرسوار، وبعد أن اهتزت سيطرتنا على الأرض التي تقع خلف الجيش الثالث حيث تتمركز كتائب الصواريخ. فإن افتقار هذه الكتائب لصفة الحركة قد حدّ كثيرا من فعاليتها.

٧- وأخيراً فلو أن صواريخ سام ٢ وسام ٣ يمكن استخدامها في العمليات الهجومية لما كانت هنالك

ضرورة لاختراع الصواريخ المضادة للطائرات الهجومية من طراز سام ٤ وسام ٦ أو من طـــراز الصواريخ التي طالب بها قائد قوات الدفاع الجوي في المؤتمر الذي عقد بمنزل الرئيس بالجيزة في ٢ من يناير ١٩٧٢.

تقدير الموقف العسكري على الجبهة المصرية

يقول الجمسي في كتابه يوميات حرب أكتوبر "كان من رأيي ضرورة استغلال الموقف لتطوير الهجوم شرقا طبقا للخطة دون أن نتوقف طويلا (يعني بعد العبور) حتى نحرم العدو مـــن فرصـــة تدعيم مواقعه أمام قواتنا. وقد ناقشت الفريق أول احمد إسماعيل في هذا الموضـــوع يـــوم ٩ مـــن أكتوبر خلال مقابلتين معه. فوجدت منه الحذر الشديد من سرعة التقدم شرقا. حيـــث كـــان يـــرى الانتظار لتكبيد العدو اكبر خسائر ممكنة من خلال أوضاع قواتنا في رؤوس الكباري قبل اســـتئناف الهجوم. وكان الفريق أول احمد إسماعيل يرى أيضا أن القوات البرية القائمة بالهجوم ســـتتعرض بشدة للطيران الإسرائيلي في وقت لا تتمكن فيه المقاتلات وصواريخ الدفاع الجـــوي مـــن تـــوفير الحماية الكافية لها. أوضحت له أن استئناف هجومنا يترتب عليه التحام قواتنا مع قوات العدو، الأمر الذي يجعل تأثير السلاح الجوي المعادي الإسرائيلي اقل. وللحد من تاثير السلاح الجوي المعـــادي، يجب استغلال طاقة قواتنا الجوية التي أثبتت قدرتها ضد طيران العدو خلال الأيام الأربعـــة ٦-٩ أكتوبر. وفضلا عن ذلك فإن صواريخ الدفاع الجوي خفيفة الحركة على الرغم من قلتهـــا إلا إنهـــا مؤثرة وفي الوقت نفسه يمكننا تحريك بعض كتائب صواريخ دفاعنا الجوي بطيئة الحركـــة علـــى وثبات للأمام (الجمسي/ يوميات حرب أكتوبر ص ١٥٠ و١٥١).

وعلى الرغم من أن التطوير يتعارض تماما مع جوهر الخطة كما سبق أن أسلفنا، وكما اتضح مـــن معارضة أحمد إسماعيل لهذا الرأي.. إلا أننا حتى لو افترضنا جدلا بأنه حتى لو كان التطوير مقررا ضمن نوايانا فهل كان الموقف يوم ٩ أو الأيام التالية يسمح بهذا التطوير؟ لقد بنى الجمســـي رأيـــه على ثلاثة افتراضات جميعها خاطئة.

١- الافتراض الأول هو أن قواتنا الجوية أثبتت قدرتها ضد طيران العدو خلال الأيام ٦-٩ أكتوبر، وهذا الافتراض لا يؤيده عدد الاشتباكات الجوية وعدد خســـائر الطرفين نتيجة هذه الاشتباكات.

٢- الافتراض الثاني هو قدرة الدفاع الجوي الصاروخي على حماية تقدم قواتنا داخل ســـيناء وقـــد سبق أن ناقشت ذلك.

٣- الافتراض الأخير هو التحام قواتنا البرية مع قوات العدو البرية للحد من تأثير السلاح الجـــوي الإسرائيلي. ومع أن هذه التوصية بالالتحام تحمل اعترافا ضمنيا بعدم اطمئنانه إلى قـــدرة قواتنـــا الجوية وقوات الدفاع الجوي على حماية قواتنا البرية.. إلا أن هذا الافتراض هو أيضـــا افتـــراض

خاطئ لقد كان على قواتنا أن تتقدم حوالي ٤٠-٥٠ كيلومتر، خارج رؤوس الكباري.. أي بعيدا عن مظلة الدفاع الجوي الثابتة والالتحام الذي يحد من قدرة القوات الجوية الإسرائيلية على التمييز بين دباباتنا ودبابات العدو، يعني الاقتراب منها إلى مسافة ٥٠٠ متر فأقل.. فهل من المعقول أن القوات الجوية الإسرائيلية ستقف موقف المتفرج أثناء تحركها لمسافة ٤٠-٥٠ كيلو مترا إلى أن يحدث الالتحام بين القوتين؟؟.

لقد مضت ٢٢ سنة على هذه الحرب وان حجم وتوزيع قواتنا وقوات العدو على الجبهة في كل يوم من أيام الحرب بات معروفا. كما وان خسائرنا وخسائر العدو في كل معركة وفي كل يوم قد اصبح معروفا. فلماذا لا نقوم بإجراء تقدير موقف للجبهة المصرية عن كل يوم من أيام الحرب على ضوء المعلومات المؤكدة عن قواتنا وقوات العدو في كل يوم حتى تتبين الحقيقية. إن تشكيل لجنة لتقصي الحقائق يكون من حقها الاطلاع على كل الوثائق واستجواب من تراه من الأشخاص، اصبح ضرورة وطنية.. حتى يتعلم الأبناء والأحفاد الدروس المستفادة الصحيحة عن تلك الحرب المجيدة.

احتلال طريق المدفعية

يرى بعض النقاد انه كان يعب علينا أن نعمق مواقعنا شرقي القناة حتى تحتل طريق المدفعية العرضي الذي تستخدمه القوات الإسرائيلية في تحركاتها العرضية. وإلى أصحاب هذا الرأي نقول أن طريق المدفعية كان يمتد على مسافة حوالي ٢٥ كيلومترا شرقي القناة. وانه كان خارج مدى مظلة الدفاع الجوي. وبالتالي فإن احتلاله والاحتفاظ به كان سيترتب عليه زيادة انتشار قواتنا واتساع الفواصل بين تشكيلاتنا مما يعرضها للتطويق بواسطة قوات العدو.

وإن احتلال خط دفاعي شرق القناة ١٠-١٥ كيلومتراً هو افضل من احتلال خط دفاعي على مسافة ٢٥-٣٠ كيلومتراً شرق القناة للأسباب التالية:

١- يحتاج إلى قوات اقل نظرا لوجود موانع مائية داخل هذا الخط (بحيرة التمساح والبحيرات المرة).

٢- يستند جناحه الأيمن على خليج السويس ويستند جناحه الأيسر على البحر الأبيض وبذلك يصعب على العدو تطويقه. أما خط المدفعية فإن جناحه الأيسر يستند على البحر الأبيض في حين أن جناحه الأيمن سيكون معلقا في الهواء وبالتالي يمكن تطويقه. وإذا أردنا أن يستند هذا الخط على خليج السويس فإن ذلك يعني إضافة حوالي ٢٥- ٣٠ كيلومتراً للخط الدفاعي. وسوف يؤدي ذلك إما إلى زيادة الفواصل بين التشكيلات فيسهل على العدو تطويق وحداتنا من الأجناب، وإما إلى احتلال الموقع الدفاعي على نسق واحد وبالتالي يصبح من السهل على العدو اختراقه.

مؤتمر القناطر يوم ٦ يونيو ١٩٧٢

يقول هيكل "كان اختيار الفريق احمد إسماعيل علي اختياراً سليما. فهو من مدرسة نضج اقتناعها بان القتال اصبح ضرورة سياسية وعسكرية وبالوسائل المتاحة لتحقيق هدف محدود أو محدد تتغير به المعادلة السياسية التي جمدت حل الأزمة (هيكل/ أكتوبر ٧٣ ص ٢٩٦) ، وكان هيكل قد ذكر قبل ذلك في الصفحة ٢٦٧ من نفس المصدر السابق ما يلي "اصدر السادات تعليماته إلى الوزير الجديد الفريق أول احمد إسماعيل بالاستعداد للعمل المسلح على الجبهة في شهرديسمبر ٧٢ أي بعد اقل من شهرين من تولي الوزير الجديد مسئوليته الضخمة. وسافر احمد إسماعيل إلى سوريا خلال الفترة من ١٠- ١٣ نوفمبر، وقدم بعد عودته تقريرا إلى السادات نشره هيكل في الوثيقة رقم ٤١ وجاء فيه تكليف القيادة العامة للقوات المسلحة السورية بالتخطيط وإعداد القوات للعملية الهجومية على النحو التالي:

- الانتهاء من التخطيط وعرض الخطط في ١٥ من ديسمبر ٧٢.
- استعداد القوات للعمليات الهجومية في ٣١ من ديسمبر ٧٢.

والذي يثير الانتباه والتعجب في نفس الوقت أن هيكل لم يشر من قريب أو بعيد إلى التقرير الذي كان أحمد إسماعيل قد بعث به -بصفته رئيس جهاز المخابرات العامة- إلى الرئيس السادات في يونيو ٧٢. هذا التقرير الذي حذر فيها احمد إسماعيل من أن تقوم القوات المسلحة بأية عملية هجومية لأسباب متعددة أهمها هو ضعف قواتنا الجوية، وضعف إمكاناتنا في الدفاع الجوي الصاروخي ذاتي الحركة. هذا التقرير الذي دعا السادات مجموعة مصغرة من القادة لمناقشته يوم ٦ من يونيو ١٩٧٢ في استراحة الرئيس بالقناطر الخيرية (راجع الفصل الثامن عشر لمعرفة تفاصيل هذا المؤتمر وتعليق الشاذلي بأنه يجب علينا أن نخطط لمعركة هجومية محدودة في ظل تفوق جوي معاد).

لم يحدد السادات موقفه في هذا المؤتمر بوضوح. وكان تعقيبه لا يعني الرفض ولا يعني القبول. فقد عقب قائلا "أنا والفريق صادق يشاركني الرأي نرى انه يجب علينا إلا نقوم بأية عملية هجومية إلا بعد أن يكون لدينا قوة الردع. أي يكون لدينا طيران يستطيع أن يضرب عمق العدو. ولكن يجب أن نفكر فيما إذا اضطرنا الموقف السياسي إلى بدء المعركة قبل الانتهاء من بناء قوة الردع".

وإذا كان هذا هو موقف السادات وموقف أحمد إسماعيل في يونيو ٧٢، فكيف يمكن أن يتحول هذا الموقف إلى نقيضه بعد خمسة اشهر.. رغم أنه لم يحدث خلال هذا الفاصل الزمني أي تغيير في القوى العسكرية النسبية بيننا وبين العدو؟! وهنا تبرز عدة أسئلة مازالت بدون إجابة من بينها: هل كان تقرير احمد إسماعيل هو جزء من مؤامرة الغرض منها هو إيهام الفريق أول صادق بأن رأيه حول ضرورة تفادي الحرب هو الرأي الأصوب ، في الوقت الذي كان السادات يهيئ فيه

الظروف لإقالته بعد اقل من خمسة اشهر على أساس انه لم يجهز القوات المسلحة للحرب كما أمره السادات؟ وهل هناك علاقة بين إحجام السادات عن اتخاذ قرار الحرب يوم ٦ يوليو ٧٢، وبين قراره بطرد الخبراء السوفيت والوحدات السوفيتية بعد ذلك بشهر واحد؟

رسالة السادات إلى كيسنجر

لقد أثار هيكل ضجة كبرى حول الرسالة التي أرسلها السادات إلى كيسنجر يوم ٧ أكتوبر والتي قال فيها " إننا لا نعتزم تعميق مدى الاشتباك أو توسيع مدى المواجهة" ومع أني لم أعلم بهذه الرسالة إلا بعد نشرها في جريدة الأهالي بتاريخ ١٨ من مايو ٨٣ .. ومع إني كنت سأعترض على إرسال مثل هذه الرسالة إذا اخذ رأيي قبل إرسالها. أما وقد أصبحت هذه الرسالة تاريخا، فإني وان كنت أدينها إلا أني في الوقت نفسه لا أعتقد أنها تستحق كل هذه الضجة التي أثارها هيكل حولها.

يقول هيكل في تعليقه على هذه الرسالة "كانت هذه هي أول مرة في التاريخ كله يقول فيها طرف محارب لعدوه نواياه كاملة ويعطيه من التأكيدات ما يمنحه حرية في الحركة السياسية والعسكرية على النحو الذي يراه ملائما له ". ومع قناعتي بأن هذه الرسالة ستصل إلى إسرائيل، إلا أنني لا أعتقد أن إسرائيل ستفترض أن هذه الرسالة تمثل نوايانا المستقبلية بصفة مؤكدة.. إذ ليس من الممارسات السياسية والعسكرية أن يصدق القادة كل ما يعلنه الأعداء من تصريحات ورسائل. وعن نفسي فلو قيل لي أن جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل قالت كذا، أو إن موشي دايان وزير الدفاع قال كذا فان أول ما يتبادر إلى ذهني وأتوقعه من إسرائيل هو عكس ما يقولون اللهم إلا إذا كانت لدي قناعة مؤكدة أن المتكلم أو صاحب الخطاب هو عميل مضمون.

إن القادة السياسيين والعسكريين –إذا استبعدنا ما يصلهم من معلومات عن طريق الجواسيس والعملاء– لا يتخذون قراراتهم بناء على التصريحات التي تصدر عن أعدائهم، أو التي تصلهم عن طريق تدخل طرف ثالث.. ولكنهم يتخذون قراراتهم بناء على ما تسجله وسائل الاستطلاع والرصد والتصنت السلكي واللاسلكي والإلكتروني والبشري. وبناء على ما تسفر عنه نتائج تقدير موقف العدو على ضوء إمكاناته الحقيقية وليس بناء على ما يعلنه أو يدعيه.

الفصل الأربعون

أسلوب التعامل مع ثغرة الدفرسوار

"لا نشارك الآخرين جريمة التستر على الأخطاء التي تجري فالأخطاء ليست عيبا. ولكن التستر عليها جريمة في حق الأمن القومي للوطن".

أمين هويدي

رئيس جهاز المخابرات الأسبق ووزير الدفاع الأسبق

الفرص الضائعة / ص ٤٩٦

"في تقديري كان الشاذلي على حق عندما اقترح مساء يوم ٢٠ سحب أربعة ألوية مدرعة من الشرق لإعادة التوازن المختل إلى الجبهة. ولم يكن سحب هذه الألوية المدرعة وربما اكثر منها يسبب أية خطورة في الشرق".

أمين هويدي

المصدر السابق/ ص ٤٨٦ و ٤٩٣

"يبدو أن القادة المصريين أُخذوا على غرة بالعبور الإسرائيلي. وتصرفت الرتب العليا وكأن على أعينهم غشاوة وتمزقت الهجمات المضادة شر ممزق. بل بدا وكأن القائد العام يفتقر إلى احتياطي عام "

الخبير السويدي

الليفتنانت جنرال ستمج لوفجرين

الندوة الدولية عن حرب أكتوبر بالقاهرة ١٩٧٥

الحدود بين الجيوش والمناطق

كثر الحديث بعد الحرب عن انه كان هناك فاصل بين الجيشين الثاني والثالث، وان الإسرائيليين استغلوا وجود هذا الفاصل غير المؤمن فنفذوا من خلاله إلى الضفة الغربية للقناة كان السادات هو أول من أطلق هذه الفرية ليغطي بها قراره الخاطئ بالتطوير الذي ترتب عليه دفع الفرقتين المدرعتين الرابعة والحادية والعشرين من غرب القناة إلى شرقها، ثم قراره الخاطئ الآخر برفض إعادة هاتين الفرقتين إلى مواقعهما غرب القناة بعد فشل هجومهما يوم ١٤ أكتوبر. وعن طريق السادات نقلت وسائل الإعلام المحلية والعالمية هذه المعلومة.. وافترض المحللون العسكريون

صحة هذا الخبر عند تقييمهم لموقف القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية. ولكن هذه الفرية التي أطلقها السادات، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة. فقد كانت الجبهة مؤمنة- طبقا للخطة- من البحر الأبيض شمالا حتى خليج السويس جنوبا. ولم يكن هناك متر واحد لا يقع تحت مسئولية إحدى القيادات. فقد كانت مسئولية قطاع بور سعيد تمتد من البحر الأبيض حتى القنطرة (خارج). وكانت مسئولية الجيش الثاني تمتد من القنطرة (داخل) حتى الدفرسوار (داخل). وكانت مسئولية الجيش الثالث تمتد من جنوب الدفرسوار بحوالي عشرة كيلومترات حتى ميناء الأدبية على خليج السويس (داخل). ثم كانت مسئولية منطقة البحر الأحمر من جنوب الأدبية بحوالي عشرة كيلومترات حتى أقصي الجنوب. وبالتالي فإن منطقة الدفرسوار كانت تدخل- بصفة مؤكدة- ضمن مسئولية الجيش الثاني (راجع الخريطة رقم ٢).

ولكن هذا لا يعني مطلقا انه يتحتم على كل قائد أن يحتل بقواته كل متر من المواجهة التي تقع في نطاق مسئوليته، حيث إن ذلك لابد أن يؤدي إلى أن يصبح ضعيفا في كل مكان. ويتعارض ذلك مع مبدأ مهم من مبادئ الحرب وهو مبدأ الاقتصاد في القوة وبالتالي فإن وجود ثغرات غير محتلة بالجنود بصفة دائمة بين التشكيلات وبين الجيوش يعتبر أمراً طبيعيا، وذلك بشرط أن يقوم القادة باتخاذ الإجراءات اللازمة لتامين هذه الثغرات. ويكون التأمين عادة برقابة هذه الثغرات بعدد من الدوريات الثابتة أو المتحركة أو الجوية، والاحتفاظ باحتياطي من القوات ومن النيران للتصدي للقوات المعادية إذا ما قامت بالمرور من تلك الثغرات. وبصرف النظر عما اتخذته قيادة الجيشين الثاني والثالث من إجراءات لتأمين الثغرات التي بين تشكيلاتها أو تلك التي في أماكن لا تشكل طريقا محتملا لاقتراب العدو (البحيرات المرة على سبيل المثال)، فقد اتخذت القيادة العامة للقوات المسلحة إجراءات إضافية لتدمير أي قوات للعدو قد تنجح في اختراق مواقع الجيشين الثاني والثالث وقطاع بور سعيد.

وقد تصورنا عند وضع الخطة أن العدو قد ينجح في اختراق مواقعنا في واحدة أو اثنتين من ثلاث نقاط محتملة. وكانت الدفرسوار هي واحدة من تلك النقاط الثلاثة وعلى الرغم من أن هذه النقاط الثلاث كانت مؤمنة بالقوات من الشرق بكثافة (كانت الفرقة ١٦ مشاة تؤمن منطقة الدفرسوار بقوة من شرق القناة)، إلا أننا لم نستبعد مطلقا احتمال نجاح العدو في اختراق مواقعنا في أي من تلك النقاط الثلاث إذا ما ركز هجومه عليها. ولذلك فقد قاست القيادة العامة بالاحتفاظ بالفرقتين المدرعتين الرابعة والحادية والعشرين وبعض الوحدات الأخرى في النسق الثاني للجيوش. وكانت هذه القوات مكلفة بواجب تدمير أي عدو قد ينجح في عبور القناة إلى الغرب. بل أن هذه القوات قامت بتنفيذ مشروعات تدريبية لتنفيذ هذا الواجب على نفس الأرض التي سوف تقاتل عليها حتى اصبح تنفيذ هذا الواجب وكأنه طابور تدريب تكتيكي يعلم كل ضابط وجندي تفاصيله.

ولكن القرار السياسي الخاطئ بضرورة تطوير الهجوم نحو المضايق- والذي سبق أن شرحته بالتفصيل في الفصل السابق، والذي ترتب عليه دفع الفرقة ٢١ مدرعة، والفرقة الرابعة المدرعة عدا لواء في عملية التطوير- حرم القيادة العامة للقوات المسلحة من أي احتياطات فعالة يمكن أن تتصدى لأية عملية اختراق يقوم بها العدو لمواقعنا شرق القناة. كان القرار السليم- طبقا للموقف وطبقا لأصول العلم العسكري- هو أن نسحب الفرقتين المدرعتين الرابعة والحادية والعشرين بعد فشل هجومنا يوم ١٤ إلى مواقعهما الأصلية غرب القناة لنعيد الاتزان إلى مواقعنا الدفاعية. ولكن احمد إسماعيل المصاب بعقدة هزيمة ٦٧ عارض هذا الاقتراح على أساس أن سحب هذه القوات قد يؤثر على الروح المعنوية للجنود (راجع الفصل الثالث والثلاثين)

لمناورة بالقوات

المناورة بالقوات هي مبدأ مهم جدا من مبادئ الحرب. ويندر أن لم يكن من المستحيل كسب أي حرب دون تطبيقه. والمناورة بالقوات في العلم العسكري تعني أن يقوم القائد بتحريك قوات قبل وأثناء المعركة من مكان إلى آخر، حيث تستطيع من موقعها الجديد أن تحقق نجاحا اكبر في القتال. ففي العمليات الهجومية يستطيع القائد الذي يطبق هذا المبدأ استغلال الفرص التي قد تظهر له أثناء القتال نتيجة سوء توزيع العدو لقواته في الدفاع أو نتيجة بدء حركتها، فيدفع قواته في الاتجاهات الضعيفة حيث يمكن اختراق خطوط خصمه الدفاعية والوصول إلى مؤخرته. ويستطيع القائد أن يحقق هذا المبدأ أيضا في المعارك الدفاعية. فهو يستطيع أن يتظاهر بالضعف في قطاع معين سواء بالتقهقر أمام خصمه في قطاع من الجبهة، أم بأن يترك ثغرة غير مؤمنة بين جناحيه تغري المهاجم على المرور خلالها بغية الوصول إلى مؤخرة القوات المدافعة.. فإذا ما نجح القائد المدافع في استدراج خصمه إلى منطقة القتل التي يريدها انقضت عليه قواته من الأمام والخلف والأجناب لإبادتها. فالمناورة بالقوات إذن شيء والانسحاب شيء أخر. فالأولى هي الاستمرار في القتال في مكان آخر أما الثانية فهي التخلص أو الهروب من المعركة.

وقد بين القرآن العظيم الفرق بين المناورة بالقوات والانسحاب في قوله تعالى(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تُوَلُّوهُمُ الأدبار. ومن يولِّهم يومئذٍ دُبُرَهُ إلا مُتحرِّفاً لقتال أو متحــيّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنَّمُ وبئس المصير) (١٥،١٦ الأنفال). فتولية الــدبر معناهــا الانسحاب من القتال. أما التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة فهو ما يطلق عليــه اليــوم فــي العلــم العسكري مبدأ المناورة بالقوات.

لقد كان الخلاف الرئيسي بيني من جانب وبين السادات وأحمد إسماعيل من الجانب الآخر يدور طول فترة الحرب حول تطبيق هذا المبدأ. واشتد الصراع بيني وبينهما بصفة خاصة خــلال الأيام من ١٥ وحتى ٢٠ من أكتوبر. ومنعا للتكرار فأرجو مراجعة الفصــلين ٣٣ و ٣٤.. حيــث أنــي سأقتصر في هذا الفصل على الرد على ما كتبه النقاد بعد صدور هذا الكتاب.

كنت حريصا منذ البداية على أن نستغل خفة حركة وقوة نيران قواتنا المدرعة، وذلــك عــن طريق الاحتفاظ بها في الاحتياطات والأنساق الثانية للجيوش وألا نستخدمها إلا في المراحل الأخيرة

والحاسمة للحرب، وبعد أن تتحطم قوات العدو المدرعة على صخرة دفاعاتنا شـرق القنـاة هـذه الصخرة التي كانت تتكون من ٥ فرق مشاة تستطيع كل منها –بما لديها من دبابات وأسلحة مضادة للدبابات تدخل في تنظيمها العضوي – صد هجوم تقوم به ثلاثة ألوية مدرعة قوامها ٣٦٠ دبابة. فقد كـان يدخل ضمن تنظيم كل فرقة مشـاة ما يلي من الأسلحة:

٤ كتيبة دبابات (١٢٤ دبابة).

١ كتيبة BMP (٤٠ قطعة).

١ كتيبة قواذف صواريخ موجهة مالوتكا (٣٦ قطعة).

١ كتيبة مدفعية مضادة للدبابات ٨٥ ملليمتر (٣٦ قطعة).

٩٠ مدفع بي ١٠ و بي ١١ مضاد للدبابات.

٤٥٩ قاذف صاروخي قصير المدى (ر.ب.ج).

٣ كتائب هاون ١٢٠ ملليمتر (٣٦ قطعة).

٣ كتائب مدفعية ١٠٠ ملليمتر (٣٦ قطعة).

٣ كتائب هاوتزر ١٢٢ ملليمتر (٣٦ قطعة).

ولذلك فإن خطة الهجوم الأصلية (المآذن العالية) لم تكن تتضمن تدعيم الفرقة المشـاة أثنـاء عملية اقتحام قناة السويس بأي وحدات مدرعة. بل أنها كانت أيضا لا تتضمن كتيبة **B MP** حيث أن هذه الوحدة لم تدخل ضمن تنظيم الفرقة المشاة إلا قبل بدء حرب أكتوبر ببضعة اشهر (تم التعاقـد على توريد هذه الكتائب فقط في مارس ١٩٧٣، ووصلت بعد ذلك ببضعة اشهر).

بعد أن تولى احمد إسماعيل منصب القائد العام للقوات المسلحة، طلب منه السادات أن يضـمن سرعة احتلال القنطرة شرق، حيث أنه يريد أن يستغل تحريرها سياسيا. وبناء عليـه أمـر احمـد إسماعيل بأن تدعم الفرقة ١٨ مشاة التي تقع مدينة القنطرة شرق في قطاعها بلواء مدرع. ثم عـاد السادات بعد ذلك فطلب منه أيضا ضرورة سرعة تامين مدينتي السويس والإسماعيلية من الشـرق فأمر احمد إسماعيل بتدعيم كل من الفرقة ١٩ مشاة التي تقع السويس في قطاعها والفرقة ١٦ مشاة التي تقع الإسماعيلية في قطاعها بلواء مدرع. وبعد ذلك اشتكى قائـدا الفـرقتين المشـاة السـابعة والثانية، من أن هذا التوزيع سيكون دعوة للعدو لكي يركز هجومه عليهما من دون فـرق المشـاة الأخرى فأمر احمد إسماعيل بتدعيم كل منهما بلواء مدرع. ومع أن توزيع نصف قواتنا المدرعـة بهذا الأسلوب يعتبر استخداما سيئا لخصائص القوات المدرعة، إلا انه كان من الممكن التغاضي عنه مؤقتا على أساس أن هذه الألوية المدرعة سوف تسحب من فرق المشاة وتعود إلى مواقعها غـرب القناة بعد أن تنجح فرق المشاة في تجهيز مواقعها الدفاعية. وكان من الممكن أن يحدث ذلك اعتبارا

من يوم ١٠ من أكتوبر. ولكن كما سبق أن أوضحنا فقد اتخذ يوم ١٢ من أكتوبر قرار بدفع باقي الفرقة ٢١ مدرعة والفرقة الرابعة المدرعة عدا لواء. وبالتالي فإنه بحلول يوم ١٤ أكتوبر كان قد اصبح لنا في الشرق ٧ ألوية مدرعة. ولم يبق في غرب القناة خلف الجيشين الثاني والثالث سوى لواء مدرع واحد من الفرقة الرابعة المدرعة. وكان يتمركز في منطقة القاهرة لواء مدرع بالإضافة إلى لواء مدرع الحرس الجمهوري.

وثار الخلاف مرة أخرى بيني وبين احمد إسماعيل يوم ١٥ من أكتوبر عندما اقترحت سحب الفرقتين المدرعتين الرابعة والحادية والعشرين المدرعة إلى مواقعهما السابقة غرب القناة ثم تجدد الخلاف يوم ١٦ من أكتوبر بعد حدوث الثغرة عندما طالبت بسحب الفرقة الرابعة المدرعة واللواء ٢٥ مدرع من الشرق لضرب وتصفية الثغرة من الغرب. ثم بلغ الخلاف بيني وبين السادات ذروته ليلة ٢٠/ ٢١ من أكتوبر عندما طالبت بسحب أربعة ألوية مدرعة من الشرق إلى الغرب.

رأي النقاد

- يقول أمين هويدي عن اقتراح الشاذلي ليلة ٢٠/ ٢١ أكتوبر سحب أربعة ألوية مدرعة ما يلي "وفي رأيي فإن اقتراح الشاذلي- كما سبق أن أوضحت في كتابي كيسنجر وإدارة الصراع الدولي- كان أحسن اقتراح عملي متاح في تلك الظروف الحرجة: إن تعليق جمال حماد بالقول بأن الموقف التكتيكي المتردي الذي أصبحت فيه قواتنا يجعل من المستحيل على أي إنسان أن يهتدي إلى حل سليم مهما كانت عبقريته يعني التسليم بالأمر الواقع، وهو ما رفضه الشاذلي. وكان اقتراح الشاذلي فيه مخاطرة مقبولة لأنه لا قتال دون مخاطرة وكان تنفيذ الاقتراح سيطيل أمد القتال، يكبد العدو مزيدا من الخسائر التي كان من الصعب عليه الاستمرار في تعويضها حتى في ظل وجود الجسر الجوي الذي أعدته الولايات المتحدة (أمين هويدي/ الفرص الضائعة/ ص ٤٩٣).

- ويعلق حافظ إسماعيل على الموقف في الساعات الأولى من يوم ٢١ من أكتوبر عندما قرر السادات طلب وقف إطلاق النار بما يلي "كان الاختراق الذي حدث في الجبهة العسكرية منذ ١٦ من أكتوبر قد تطور الآن بحيث أصبحنا اليوم نواجه هجوما إسرائيليا مضادا واسع النطاق يستهدف عزل قواتنا في شرق القناة وكان مثل هذا التقييم يقتضي تثبيت القوات الإسرائيلية في غرب القناة تمهيدا للقضاء عليها. ولتحقيق ذلك كان من الضروري تخفيف رؤوس الكباري في شرق القناة حتى يمكن توفير القوات اللازمة وخاصة المدرعة للعمل في غرب القناة ضد منطقة الثغرة في الدفرسوار، مع استمرار الحفاظ على مراكزنا في الشرق بصفة فعالة. إلا أن رفض الرئيس أي اقتراح بسحب قوات من الشرق إلى الغرب- بينما كانت قواتنا المتوافرة في غرب القناة اضعف من أن تتمكن من تثبيت القوات الإسرائيلية داخل منطقة الاختراق- جعل من المحتم القبول بوقف إطلاق النار قبل أن تتمكن القوات الإسرائيلية من الانطلاق من منطقة

الدفرسوار فتدمر النجاح الذي تحقق.. واحتمال التسوية السياسية المرضية (محمد حافظ إسماعيل/ أمن مصر القومي في عصر التحديات/ ص ٣٤٥).

- يقول الكولونيل تريفور دي برى ما يلي "كان رد الفعل المصري للعبور الإسرائيلي في منطقة الدفرسوار بطيئا. وما من شك في أن هجوما مضادا رئيسيا من جانب مصر يوم ١٦ بل ويوم ١٧ من أكتوبر كان يمكن أن يحطم قوة شارون على الشاطئ الغربي لأنها كانت تتألف من اقل من لواءين (الندوة الدولية لحرب أكتوبر/ القطاع العسكري/ ص ٤٩).
- يقول الليفتنانت جنرال ستيج لوفجرين ما يلي "لقد أثبتت القوات المسلحة المصرية قدرتها على إعداد وتنفيذ هذه العملية المعقدة التي هي عبور قناة السويس. ولكن عندما أصبحت الحرب متحركة، ولم تعد تتبع سيناريو معدا من قبل. حاق بالمصريين أسوا ما فيها. ويبدو أن القادة على جميع المستويات أخذوا على غرة بالعبور الإسرائيلي. وتوقفت البيانات، وتصرفت الرتب العليا وكان على أعينهم غشاوة وتمزقت الهجمات المضادة شر ممزق. بل بدا وكان القائد العام يفتقر إلى احتياطي عام" (المصدر السابق/ ص ٨٥).
- يقول الكولونيل ادجار أوبالانس وهو يتحدث عن الموقف ليلة ٢١ من أكتوبر ما يلي "وعلى الضفة الغربية للقتال كان هناك افتقار للسيطرة والقيادات ويبدو أن المستويات العليا

من القيادة المصرية أصيبت بحالة من الشلل". (المصدر السابق/ ص١٨٥).

الدفرسوار ليست معركة تليفزيونية

- يقول أمين هويدي "لا يجوز أن نسمي ما قام به العدو من اختراق لثغرة الدفرسوار أنه مجرد معركة تليفزيونية كما أطلق عليها الرئيس السادات أو مجرد قصة جسدتها الإعلام الإسرائيلية مستغلة عبور بعض القوات الإسرائيلية إلى غرب القناة لإبراز نجاح إسرائيل في هذه المعركة وانه كان من الواجب مقاومة ذلك بخطة دعائية مضادة كما كتب الجمسي في مذكراته. هذه معالجة سيئة لأمور تتعلق بأمننا القومي. فعلاوة على ما في هذا الأسلوب من استخفاف بالرأي العام وافتئات على الحقائق التاريخية، فهو أيضا تهديد لقواتنا المسلحة وتغطية لسلبياتها بما يسمح للسوس بأن ينخر في عظامها (أمين هويدي/ الفرص الضائعة/ ص ٤٣٧).
- ويقول أمين هويدي في مكان آخر "فليس صحيحا أو ليس في صالح مصر أو جيشها أن يسمي الجمسي ما حدث "قصة الثغرة"، وهي التي نقلته أحداثها في فجر أحد الأيام السوداء في تاريخ مصر من موقعه تحت الأرض في المركز ١٠ إلى إحدى الخيام عند الكيلو ١٠١ طريق السويس- القاهرة، ليجري هو وحفنة من الضباط أول محادثات مباشرة مع إسرائيل (نفس المصدر السابق ص ٤٧٢).

وفي تعليقه على ما جاء في صفحة ٤٣٦ من مذكرات الجمسي التي يقول فيها إن القوات الإسرائيلية الموجودة غرب القناة تحولت من سلاح تضغط به علينا إلى رهينة نضغط بها نحن على إسرائيل ومصدر استنزاف لأرواح ومعدات واقتصاد إسرائيل، يقول أمين هويدي بسخرية "اذكّر الجمسي بما قاله في مذكراته في صفحة ٤٨١ بان إسرائيل كانت تتحكم في السماح بإمداد الجيش الثالث ومدينة السويس. و اذكّره بما قاله من إن عينيه اغرورقتا بالدموع عندما وافق السادات يوم ١٧/ ١/ ٧٤ على اتفاقية فض الاشتباك نظرا لما حوته من شروط مهينة. ولأول مرة نسمع أن الفريسة- كما يصور الجمسي موقف إسرائيل على الضفة الغربية- هي التي بيدها السماح بمرور الأكل للصياد. ولأول مرة أيضا نسمع أن الفريسة يمكنها الضغط علي الصياد حتى تبكيه!!" (المصدر السابق ص ٥٢٥).

وعن لهفة المصريين على وقف إطلاق النار طبقا للشروط الإسرائيلية- مما يعكس سوء موقفهم العسكري- يقول دايان "حضر نائب سيلاسفو كبير المراقبين الدوليين لمقابلتي في القدس، واخبرني بأنه تلقى برقية من القاهرة تقول إن رد المصريين على شروطنا الثلاثة لقبول وقف إطلاق النار أنهم موافقون موافقون موافقون. وسألته عما إذا كان المصريون كرروها ثلاث مرات فأجابني بأنها أربعة (أمين هويدي/ الفرص الضائعة ص ٤٧٢).

وفي أثناء المقابلة التي تمت بين الرئيس السادات والمستر كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي، بعد ظهر يوم ١٧/ ١٠، حاول السادات أن يقلل من أهمية الثغرة فقال له كوسيحين "إن صديقنا السادات يقلل من الخطر الذي تواجهه القوات المصرية. وأنا مضطر لأن أوضح أمامه الحقيقة حتى يستطيع أن يقيم حساباته على أساس سليم ". ثم وضع كوسيجين أمام السادات ١٨ صورة التقطتها الأقمار الصناعية السوفيتية تظهر فيها قوات للعدو التي في غرب القناة وعلق كوسيجين على تلك الصور بما يلي: "هذه الصور تظهر انه حتى ساعة التقاطها ظهر اليوم، كان لإسرائيل في الغرب ٧٦٠ قطعة مدرعة ما بين دبابات وعربات مصفحة. وهذه قوة كبيرة وتطويرها مازال مستمرا (مقال هيكل بالأهرام يوم ٩٣/١٢/٦ عن السلاح والسياسة).

وقد كشف الأستاذ حسنين هيكل في صحيفة الأهرام يوم ٩٣/١٢/١١ عن سر جديد فيما يتعلق بموقف السادات تجاه الثغرة (الحلقة التاسعة من مقالات هيكل عن كتابه السلاح والسياسة). تقول الوثيقة التي نشرها هيكل: إن حافظ إسماعيل مستشار الرئيس السادات لشئون الأمن القومي، أرسل برقية يوم ٢ من

نوفمبر إلى وزير الخارجية إسماعيل فهمي الذي كان موجودا حينئذ في واشنطن، يلح فيها على مطالبة كيسنجر بأن يقدم ضمانا تتعهد فيه أمريكا بألا تقوم إسرائيل بأية عمليات عسكرية ضد القوات المصرية في الضفة الغربية من قناة السويس. وإن كيسنجر إمعانا في إذلال مصر، ورغبة منه في انتهاز هذا الموقف كتب خطابا لا يلزم أمريكا بشيء بل يمكن أن يعطيها ورقة تضغط بها على السادات للحصول منه على تنازلات في مقابل وعود – مجرد وعود لا توجد أي نية صادقة لتنفيذها– بأن تكبح جماح إسرائيل.

- تقول برقية إسماعيل فهمي إلى الرئيس السادات "بعد حوار طويل سلمني كيسنجر الضمان المكتوب. وكان يود في أول الأمر عدم توقيعه بالحروف الأولى. ثم وقعه. وأضاف ضاحكا بأنه يرجو ألا ينشر الضمان في الأهرام. ويشير الضمان إلى انه اتصالا بأي اتفاق يتم بين مصر وإسرائيل بخصوص تنفيذ الفقرة الأولى من قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨، تضمن الولايات المتحدة أنها ستفعل أقصى ما تقدر عليه لمنع عمليات عسكرية هجومية تقوم بها القوات الإسرائيلية في الضفة الغربية ضد القوات المصرية أثناء وجود القوات الإسرائيلية في الضفة الغربية. وكان الضمان مكتوبا بالآلة الكاتبة وعلى ورقة بيضاء (أي ليست الأوراق التي تحمل في أعلاها اسم وزارة الخارجية الأمريكية)، كما أن كيسنجر لم يوقعه بالحروف الأولى الكاملة وهي HAK هنري الفريد كيسنجر كما هو متعارف عليه دبلوماسيا بل إنه وقعه بحرفين هما H.K (هيكل/ أكتوبر ٧٣/ وثيقة رقم ١٢٧/ ص ٨٦٩).

ولعل الأخ الجمسي يقتنع– بعد أن يقرأ كل ذلك– أن اختراق العدو لمواقعنا لم يكن معركة تليفزيونية كما كان يدعي السادات– وان قوات العدو غرب القناة لم تكن رهينة.. بل إن الجيش الثالث هو الذي كان رهينة في يد إسرائيل وفي يد كيسنجر. ولعل الجمسي يقتنع أيضا أن السادات كانت له سياسة ذات وجهين تجاه الثغرة كان يدعي أمام شعب مصر أنها معركة تليفزيونية.. وانه كان في استطاعته تصفيتها.. بل انه ذهب إلى ابعد من ذلك عندما قام بعملية تمثيلية في مجلس الشعب في الجلسة الخاصة بتكريم قادة حرب أكتوبر في فبراير ٧٤. فقد ادعى في تلك الجلسة أن الجيش الثالث لم يحاصر قط ولعل الأخ الجمسي يذكر الحوار الذي دار بين السادات وبين اللواء بدوي في جلسة مجلس الشعب (تولى اللواء بدوي قيادة الجيش الثالث في الحصار). وإلى من لم يشهد تفاصيل هذه الجلسة من جيل الشباب على التليفزيون، فإني أذكر بعضا مما دار فيها من حوار:

السادات: الجيش الثالث كان محاصرا يا بدوي؟ .

بـــدوي: لا يا أفندم.

السادات: الأكل كان بيوصلكم بانتظام يا بدوي.

بـــدوي: ايوه يا أفندم.

كان الراديو والتليفزيون يذيعان هذا الحفل على الهواء. وكان السادات يعلم وهو يدير هذا الحوار بأنه يكذب على شعب مصر وكـــان يعلم أن مليون ضابط وجندي في القـــوات المســـلحة - وعـــن طريقهم يعلم شعب مصر بأكمله- يعلمون أن الجيش الثالث كان محاصراً اعتباراً من يوم ٢٣/ ١٠ وانه بقي في الحصار أكثر من ثلاثة اشهر إلى أن تم التوصل إلى فك الحصار في إطـــار تســـوية سلمية. كان هذا هو الوجه الذي يواجه به شعب مصر. أما الوجه الآخر الذي يواجـــه بـــه أمريكـــا بخصوص هذه المشكلة فقد كـــان شيئا آخر. بينه كان يعلـــم أن قواتنا التي تحيط بالثغرة- كما يبدو من خطاب الضمان الذي يطلبـــه من أمريكا- غير قادرة على فك حصار الجيش الثالث.

ونخلص من كل ذلك إلى أن اختراق العدو لمواقعنا في منطقـــة الدفرســـوار لـــم يكـــن معركـــة تليفزيونية. بل إن الاحـــتفال الذي أقامه السادات في مجلس الشـــعب في فبراير ١٩٧٤، كان إطلاق النار. فعلى الرغم من أن العدو قد دفع إلى الجبهة المصرية بأربعة ألوية مدرعة جديدة ليصبح أمام الجبهة المصرية ١٢ لواء مدرعا إسرائيليا (كان ٦ ألوية مدرعة منها غرب القناة و ٦ ألوية أخرى شرق القناة). إلا أن احمد إسماعيل لكي يوفر القوات اللازمة لتنفيذ الخطة "شـــامل" -التـــي كثـــر الحديث الإعلامي عنها- فإنه أمر بسحب جميع الألوية المدرعة من الشرق إلى الغرب وهو نفس ما كان يطالب به الشـــاذلي يوم ٢٠ من أكتوبر (الفرقة ٢١ مدرعة وبها ل١م، ل١٤م+ ل٢٤م الـــذي كان تحت قيادة الفرقة المشاة الثانية)، ولم يكن من الممكن سحب اللواء المدرع الذي كان في الجيش الثالث بعد أن دخل الجيش الثالث بجميع قواته داخل الحصار اعتبارا من ٢٤ من أكتوبر. إلا ترى يا أخ جمسي أن قرار سحب الألوية المدرعة من الشرق إلى الغرب لتوفير القوات اللازمـــة للخطـــة شامل، يعتبر اعترافا من احمد إسماعيل وممن يؤيده في هذا القرار بأن فرق المشاة التي في الشرق لديها القدرة على صد أي هجمات يقوم بها العدو؟ (انظر توزيع الألوية المدرعة الإســـرائيلية فـــي الملحق المرفق بهذا الفصل).

ولكن للأسف الشديد فإن قرار احمد إسماعيل جاء متأخرا حوالي أسبوعين عن التـــاريخ الـــذي اقترح فيه الشاذلي الأخذ بهذا القرار!!

حول مؤتمر القيادة يوم ٢٠

يلومني بعض النقاد بأنني لم أتكلم خلال المؤتمر الذي عقد في المركز ١٠ مساء يـــوم ٢٠ مـــن أكتوبر. ولكي أوضح لهم وللقراء السبب في ذلك فإنه يتحتم علـــي أن اشـــرح لهـــم أســـلوب إدارة

المؤتمرات التي تعقدها القيادة العامة للقوات المسلحة لمناقشة الخطط العسكرية والتصديق عليها. فهذه المؤتمرات تعقد إما تحت رئاسة القائد العام للقوات المسلحة أو تحت رئاسة رئيس الجمهورية، ويحضرها رئيس الأركان ورئيس هيئه العمليات ومدير المخابرات الحربية وقادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة (القوات الجوية، القوات البحرية ، قوات الدفاع الجوي)، وقد يدعا إليها عدد اَخر من الرؤساء والقادة إذا دعت الضرورة إلى ذلك. ويقوم رئيس المؤتمر بطلب الكلمة من الحاضرين واحدا بعد الآخر حيث يتكلم كل منهم في تخصصه فقط ويكون أول المتكلمين هو مدير المخابرات حيث يتكلم عن آخر المعلومات عن العدو من حيث حجم قواته وأماكن تمركزها الخ.. ثم يصل في النهاية إلى استنتاج نواياه المستقبلية. ثم يتكلم بعد ذلك المشاركون في المؤتمر طبقا لما يشير إليه رئيس المؤتمر. ولا يجوز لأي من هؤلاء المشاركين أن يتحدث إلا في تخصصه فقط فعلى سبيل المثال لا يتكلم قائد القوات الجوية إلا فيما يتعلق بموقف القوات الجوية. ولا يتكلم قائد قوات الدفاع الجوي إلا فيما يتعلق بموقف قوات الدفاع الجوي.. الخ. وبعد أن يستمع القائد العام إلى تقارير الرؤساء فإنه يطلب من رئيس الأركان التقدم بالخطة المقترحة... حيث إن رئيس الأركان هو الوحيد الذي له الحق في تقديم الخطة المقترحة على ضوء تقارير الموقف الذي تقدم به الرؤساء وبعد أن يدلي رئيس الأركان بالخطة المقترحة يصدر القائد العام أو رئيس الجمهورية- إذا كان حاضرا- قراره ويكون إما "تصدق" ويعني التصديق على الخطة المقدمة من رئيس الأركان. وإما "تصدق فيما عدا كذا.." أو أنه يرفض الخطة المقترحة ويصدر قرارا جديدا. وبعد أن يصدر القرار فإنه يجب على الجميع أن يلتزموا بتنفيذه. وحيث أن هذا الأسلوب يحتاج إلى كثير من الوقت فإنه وان كان ضروريا في وقت السلم وأثناء تحضير الخطط الحربية قبل اندلاع العمليات الحربية، إلا أننا لا نلتزم به أثناء الحرب، لما قد يسببه ذلك من تعطيل في اتخاذ القرارات وحيث أن رؤساء الأفرع الرئيسية يقومون بإخطار رئيس الأركان بالأحداث فور وقوعها فإن رئيس الأركان ليس في حاجة إلى الدعوة لمثل هذا المؤتمر قبل أن يتقدم للقائد العام بالخطة المقترحة.. وإن كان ذلك لا يمنع من القيام بالاستماع إلى واحد أو اثنين من هؤلاء الرؤساء عن طريق حديث تليفوني أو عن طريق استدعائه للتشاور معه. والدليل على ذلك هو أن مؤتمر يوم ٢٠ من أكتوبر هو المؤتمر الوحيد الذي عقد خلال فترة العمليات، وذلك على الرغم من عشرات القرارات التي اتخذت قبل وبعد هذا التاريخ.

ولكي اذكّر النقاد والقراء، اكرر أني أنا الذي طالبت باستدعاء رئيس الجمهورية مساء يوم ٢٠ ليفصل بيني وبين احمد إسماعيل حول الخطة التي اقترحتها على احمد إسماعيل والتي كانت تقضي بضرورة سحب أربعة ألوية مدرعة من الشرق إلى الغرب حتى نتمكن من القضاء على

الثغرة. إذن فقد كانت هناك خطة اقترحها رئيس الأركـــان ولم يوافق عليها القائد العـــام. ونظـــرا للخطورة التي كنت أتوقعها إذا لم تنفذ الخطة التي اقترحتها، فقد رأيت أن أمن مصر وسلامة القوات المسلحة هي اكبر من أن يتركا في يد القائد العام وحده. ولذلك طالبت باستدعاء رئيس الجمهوريـــة لكي أضعه أمام مسئوليته التاريخية.

واذكّر القراء أيضا بان السادات بعد حضوره إلى المركـــز ١٠، انفـــرد مـــع احمـــد اســـماعيل والمهندس أحمد عبد الله حوالي ساعة. ولاشك انه سمع خلال تلك الســـــاعة عـــن الخطـــة التـــي يقترحـــها الشاذلي، حيث إنه حضـــر خصيصا لذلك، ولاشك أنه ناقش أيضـــا مـــع القائـــد العـــام الحلول البديلة لخطة الشاذلي.. وأنه وصل في النهاية إلى قرار قبل أن يدخل غرفة العمليات.

وتؤكد ذلك تصرفات السادات التالية:

- فهو لم يطلب من الشاذلي أن يعرض خطته لأنه سمعها من احمد إسماعيل. وبالتالي فإنـــه لـــم يكن في حاجة إلى سماعها مرة ثانية.
- انه بعد انتهاء المؤتمر وعود ته إلى قصر القاهرة ابلغ السيد حافظ إسماعيل بأنه اتخـــذ قـــرارا بطلب وقف إطلاق النار وطلب إبلاغ ذلك إلى كل من الاتحاد السوفيتي والرئيس حافظ الأســـد، وقد أكد حافظ إسماعيل هذه الواقعة في كتابه الذي صدر في عام ١٩٨٧ (محمد حافظ إسماعيل/ أمن مصر القومي في عصر التحديات/ ص ٣٤٤). ويقول حافظ إسماعيل إن السادات قد أعطى مبررا لذلك انه لا يســـتطيع أن يحارب أمريكا. (المؤلف لم اعرف أن السادات طالـــب بوقـــف إطلاق النار بعد عودته مباشرة من المركز ١٠.. إلا بعد أن توقف القتـــال. وهذا يؤكـــد أنـــه أتخذ قرارا بطلب وقف إطلاق النار بعد التشاور مع أحـــمد إسماعيل قبل أن يجتمع بنـــا فـــي غرفة العمليات).
- إنه ذكـــر في كتـــابه البحث عن الذات أنه اتخـــذ قراراً بعزلي من منصب رئيس الأركـــــان اعتبارا من يوم ١٩ من أكـــتوبر (ومع أن الحـــقيقة هي أني بقيت أمارس مسئولياتي كـــرئيس للأركان حـــتى يوم ١٢ ديسمبر. ومع أن التاريخ الحقيقي للمؤتمر هو يوم ٢٠.. فإن المعنـــى الحـــقيقي لما ورد على لسان الســـادات هو أنه عزلني لأنه لم يوافق على الخطة التي اقترحتها. وهذا يؤكد أن السادات استمع إلى خطتي من احمد إسماعيل قبل حضوره غرفة العمليات يـــوم ٢٠ من أكتوبر).

لقد طالبت باستدعاء الســـادات إلى المركز ١٠ يوم ٢٠ ليفصل في الخـــلاف بيني وبين القائد العام. وقد استمع واتخذ القرار. وإذا كـــان قد حاول بعد الحرب أن يبرر قراره بأنني طالبت بسحب كـــل قواتنا من الشرق، فهذه أكذوبة كبرى كتبها الجمسي في كتابه وسبق أن كتبها حسني مبارك ومحمد

على فهمي في حديث لهما مع الصحفي موسى صبري في أوائل عام ١٩٧٤.

الحرب ضد أمريكا

"السادات بياع شاطر". فهو عندما يريد أن يخفي خطأ ارتكبه أو عندما يريد أن يبرر قرارا لا يقبله المنطق.. فإنه يلجأ إلى تغليف ذلك في سلسلة من الأكاذيب. فإذا نحن قرانا تصريحاته وما نشره في كتابه البحث عن الذات، ثم قارنا ما جاء في هذا الكتاب مع ما جاء في كتب ومذكرات القادة التي نشرت بعد وفاته، فإننا نجد أن السادات ارتكب الكثير من الأكاذيب التي يظهر فيه العمد واضحا. وسوف أورد بعضها قبل أن انتقل إلى مناقشة موضوع الحرب ضد أمريكا:

- ادعى أن السوفيت لم يعطونا السلاح والعتاد، وان مصر هي التي قامت بتصنيع الكباري التي عبرت عليها قواتنا المسلحة يوم ٦من أكتوبر، وان الاتحاد السوفيتي لم يكن يطلعنا على المعلومات التي تلتقطها أقمارهم الصناعية عن إسرائيل. وكان السادات بهذه الأكاذيب يمهد الطريق للارتماء في أحضان أمريكا.
- ادعى أنني ذهبت إلى الجبهة يوم ١٦ من أكتوبر، وأنني عدت منها يوم ١٩ من أكتوبر، وأنني قد قضيت يوما كاملا في إنشاء قيادة أنافس بها غريمي أحمد اسماعيل، وقد أكد كل من الجمسي وعبد المنعم خليل أنني ذهبت إلى الجبهة مساء يوم ١٨ وعدت منها يوم ٢٠ من أكتوبر. وأنني لم أنشي أي قيادة خاصة بي، بل كنت أمارس القيادة والسيطرة من قيادة الجيش الثاني. وكان السادات يهدف من جراء التلاعب بهذه التواريخ أن يلقي على الشاذلي تبعة عدم القضاء على الثغرة بحيث أن العدو يوم ١٦ كان يقدر بحوالي لواء مشاة وكتيبة دبابات، في حين انه كان قد اصبح مساء يوم ١٨ أي وقت وصول الشاذلي- فرقتين مدرعتين بهما ٥ ألوية مدرعة ولواءان مشاة.
- ادعى أنني عدت منهاراً من الجبهة وأوصيت بسحب كل قواتنا من الشرق. ولكن الجمسي أكد أنني لم اكن منهاراً عند عودتي من الجبهة وأنني فقط طالبت بسحب أربعة ألوية مدرعة من الشرق حتى يمكن التصدي بها للعدو في منطقة الدفرسوار في الغرب. وكان السادات يرمي من وراء هذه الأكذوبة أن يبيع إلى الشعب قراره الخاطئ عن طلب وقف اطلاق النار.. وهو في موقف الضعف. فكأنه يريد أن يقول للشعب "الشاذلي يريد أن يسحب كل قواتنا، أما أنا السادات فإني نجحت من خلال اتفاقية فض الاشتباك في أن احتفظ بقوات في شرق القناة تقدر بحوالي ٧٠٠٠ ضابط وجندي".
- ادعى في كتابه (ص ٣٤٩) بأنه عزلني من منصبي يوم ١٩من أكتوبر في حين أنني بقيت في منصبي حتى ١٢ من ديسمبر ٧٣. ويؤكد ذلك القرار الجمهوري الذي صدر بنقلي إلى وزارة

الخارجية. وكان السادات يريد أن يربط بين قرار العزل والادعاء الباطل الذي إفتراه علي بأنني أطالب بسحب جميع قواتنا من الشرق.

- ادعى أن مؤتمر القيــادة عقد مساء يوم ١٩، وانه طلب في نفس الليلة السفير الســوفيتي ليبلغه بقراره الخاص بوقف إطلاق النار، في حين أن الحقيقة هي أن مؤتمر القيادة كان مساء يوم ٢٠ واستمر حتى منتصف الليل، وبالتالي فإنه قراره بطلب وقف إطلاق النار كــان فــي الســاعات الأولى ليوم ٢١. وقد أكد ذلك حافظ إسماعيل في كتابه في الصفحة ٣٤٥. كما أكد ذلك حســنين هيكل (هيكل/ أكتوبر ٧٣/ ص ٥١٨). وقد لجأ السادات إلى التلاعب في هذه التــواريخ حتــى يتماشى ذلك مع كذبة أخرى قالها أثناء انعــقاد المجلس الأعلى للقوات المسلحة يــوم ٢١ مــن نوفمبر ٧٣، والتي قــال فيها: إن ليلة ١٨/ ١٩ هي سبب كل المشكلات التي حــدثت ولو أننــا عملنا بحسم وقوة خلال تلك الليلة لأمكننا القضاء على الثــغرة (راجع الفصل السابع والثــلاثين) وكان السادات يرمي من وراء هذه الكذبة تحميل مسئولية الثغرة على الشاذلي وقت أن كان فــي قيادة الجيش، وكان يتحتم على الســادات أن يربط بين هذه الكــذبة وبين تاريخ عودة الشــاذلي وتاريخ طلبــه وقف إطلاق النار.
- بعد التوقيع على اتفاقية فض الاشــتباك في ١٧/ ١/ ٧٤، وبعد أن فك حصــار الجيش الثالث، دعا السادات مجلس الشعب للانعقاد ودعا إلى هذه الجلســة العميد احــمد بدوي قائــد الجــيش الثالث الذي كان في الحصار واخذ يستنطقه أمام أعضاء المجلس بأن الجيش الثالــث لــم يكــن محاصرا.. بينما كان العالم اجمع والكثير من أبناء الشعب المصري يعلمون أن الســادات كــان يكذب في غير خجل أو حياء.
- لكي يقنعني بقبول منصب سفير مصر في لندن، اخبرني بان هناك اتفاقا سريا للحصول علــى أسلحــة من ألمانيا الغربية، وان منصــبي سفيرا في لندن هو فقط للتغطيــة. ولكــن ســأكون مسئولا عن الإشراف على هذا الموضوع. فقبلت على أساس إن خدمتي سفيرا ستكون امــتدادا لخدمتي في القوات المسلحة. ولكن بعد أن ذهبت إلى لندن اكتشفت أن القصة بأكملها كانت مــن خيال السادات.
- نعود بعد ذلك إلى الشعــار الذي رفعه السادات أنا غير مستــعد لأن أحارب أمريكا. إنه شعار قد يصادف هوى لدى الذين ينفرون من الجهاد إن العلاقة الخاصة التي تــربط بــين إســرائيل والولايات المتحدة هي علاقة وطيدة يعلمها العامة والخاصة منذ عشرات السنين. فأمريكــا تمــد إسرائيل بأحدث الأسلحة والمعدات.. وتمدها بالتكنولوجيا الحديثة.. وتقدم لها المساعدات الماليــة والتي يقدر المنظور منها- عسكريا واقتصــاديا- بحوالي ٤٠٠٠ مليون دولار سنويا. أمــا إذا

أضيف إلى ذلك المساعدات والمكاسب غير المنظورة فإن الرقم يرتفع إلى حوالي ١٠٠٠٠ مليون دولار سنويا!!! وبالإضافة إلى ذلك فإن أمريكا تسمح لمن يرغب من اليهود الأمريكيين بأن يحتفظ بالجنسية المزدوجة الأمريكية والإسرائيلية.. وبالتالي فإن الكثير من اليهود الأمريكيين مدرجون في كشوفات الضباط والجنود الاحتياطي في الجيش الإسرائيلي ويتم استدعاؤهم للخدمة في إسرائيل عندما تعلن إسرائيل التعبئة العامة. ولعل هذه المعلومات هي التي دفعت الرئيس الراحل جمال عبد الناصر إلى التقارب مع الاتحاد السوفيتي منذ حوالي ٤٠ سنة لكي يخلق نوعا من التوازن بين التأييد الأمريكي لإسرائيل والتأييد السوفيتي لمصر.

- ولا يمكن لمنصف أن يقلل من حجم ونوعية الأسلحة والمعدات الفنية الحديثة التي قام الاتحاد السوفيتي بإمدادنا بها قبل وأثناء الحرب. وفيما عدا القوات الجوية، فقد كان لدينا قبل حرب أكتوبر أسلحة ومعدات لا تقل حجما ونوعية عما تملكه إسرائيل. وعندما اندلعت الحرب أقام الاتحاد السوفيتي جسرا جويا وبحريا نقل خلاله ٧٨٠٠٠ طن إلى مصر وسوريا، وأقامت أمريكا هي الأخرى جسراً جوياً وبحرياً نقلت خلاله ٦١١٠٥ أطنان إلى إسرائيل (راجع الفصل الرابع والعشرين).
- إن السادات يريد أن يقول أن الجسر الجوي الأمريكي هو السبب الرئيسي الذي دفعه إلى المطالبة بوقف إطلاق النار. وأني أقول هذه مغالطة فلولا تدخل السادات في إدارة العمليات واستجابة احمد إسماعيل لهذه التدخلات لما تأثر موقفنا بهذا الجسر الأمريكي، ولأصبح في استطاعتنا أن نطيل أمد الحرب إلى عدة اشهر أخرى وهو مالا تستطيع إسرائيل أن تتحمله.. حيث كان هذا هو جوهر الخطة التي دخلنا بها الحرب.
- وتحت شعار لا أستطيع محاربة أمريكا دعا السادات إلى لقاء مصغر في قصر القاهرة مساء يوم ٢٢ أكتوبر ٧٣. وحضر هذا اللقاء: مساعدا الرئيس، نواب رئيس الوزراء، حافظ إسماعيل. وقال لهم: إن الإسرائيليين قد حققوا التفوق نتيجة تدفق الإمداد الأمريكي، وان استمرارنا في القتال سوف يترتب عليه تدمير قواتنا. وأننا لا نستطيع أن نحقق تحرير سيناء عسكريا. وإنه سوف يعمل على عدم تصعيد الموقف العسكري حاليا، بينما يستمر في استخدام البترول كسلاح ضغطه ورغم أن ذلك هو ابعد ما يكون عن الحقيقة، إلا أن أحد الحاضرين بلغ من اقتناعه بتلك الأكاذيب أن اقترح على الرئيس بأن يحاط صغار الضباط والجنود علما بان قيادتهم العسكرية هي التي طلبت وقف إطلاق النار. (حافظ إسماعيل/ أمن مصر القومي/ ص ٣٤٨, ٣٤٩).

ورغم أن حافظ إسماعيل يستطرد فيقول: إن السادات لم يستجب لهذا الاقتراح. إلا أن الاتهامات الباطلة التي وجهها السادات إلى الشاذلي فيما بعد والتي اتهمه فيها بأنه طالب بسحب كل قواتنا من

الشرق تؤكد أن اقتراح هذا الانتهازي الذي حضر هذا الاجتماع، قد صادف هوى لـدى السـادات. وكان هدف السـادات من كل ذلك هو التستر على الأخطاء الجسيمة التـي ارتكبهـا خـلال تلـك الحرب. وهذه هـي طبيعة السادات إنه يقول شيئا، ولكنه يفعل شيئا آخـر. ولقـد اسـتطاع بهـذا الأسلوب أن يخدع الكثير من الناس بما في ذلك اقرب المقربين إليه. وعندما تتضح أعماله الشريرة أمام ضحاياه الذين خـدعهم، يكون هو قد حقق مآربه، ولم يعد في حـاجة إلى إخفاء نواياه التـي يقدم لها اكثر من مبرر... ثم يجد من بين بطانته من يدافع عن تلك التصرفات الشريرة.

الثغرة بعد وقف إطلاق النار

يقول السادات في الصفحة ٣٥٥ من كتابه البحث عن الذات ما يلي:" فـي ديسـمبر ١٩٧٣ كنـت مستعدا لتصفية جيب الثغرة.. ولكن الخطر الذي كان أمامي كان تدخل أمريكا. ففي ١١ من ديسمبر جاء كيسنجر وقلت له أنا مش مستعد أقبل الأسلوب اللي هم ماشيين به ده وأنا حصفي الثغرة. قـال لي أنا قبل ما احضر إليك عارف إنك جاهز. أنا طلبت صورة الموقف من البنتاجـون فـأعطوني تقريرا كاملا.. حائط صواريخك يتكون من كذا بطارية. دباباتك حول الثغرة ٨٠٠ دبابة.. مـدافعك عددها كذا.. وتستطيع فعلا أن تصفي الثغرة. ولكن اعلم أنك إذا فعلت هذا سيضربك البنتـاجون.. سيضـربك البنتـاجون لسـبب واحد.. وهو أن السـلاح الروسي قد انتصـر علـى السـلاح الأمريكي مرة ولن يسمح له في الاستراتيجـية العـالمية بتاعتنا أن ينتصر للمرة الثانية"، ثم عـاد السادات في الصفحة ٣٨٩ فأضاف أن كيسنجر قال له " إن دبابات إسـرائيل داخـل الثغـرة ٤٠٠ وأنت لديك ٨٠٠ دبابة حـولها. ولديك صـاروخ ونصف الصاروخ تقـريبا لكل دبابة ، وأنـت فعلا تستطيع أن تصـفي الثغرة بهذه القوات". ويستطرد السادات فيقول في نفس الصـفحة ٣٨٩ إنه خلال مؤتمر جنيف الذي عقد في ٢١ من ديسمبر اتفق السادات و كيسنجر على فض الاشـتباك في يناير ٧٤. والذي يلفت نظري من كل ذلك ما يلي:

* إن السادات يريد أن يوهم الشعب العربي بان مصـر كانت قادرة على تصـفية الثـغرة. ولأنه يعلم انه كذاب اشر، فإنه يريد أن يبعث الثقة في نفس القارئ أو المستمع بزعم أن هذه الأرقـام مصدرها الأقمار الصناعية الأمريكية. وحتى لو افترضنا جدلا صحة الرقمين اللـذين ذكرهمـا السادات فهناك عشرات الأرقام الأخرى التي يجب علينا معرفتها قبل أن نقرر ما إذا كان لـدينا القدرة على تصفية الثغرة أم لا.
* العقل والمنطق يقولان لو إن إسرائيل أو أمريكا تشك ولو بنسبـة واحد في الألف في أن السادات في نيته تصفية الثغرة عسكريا، لكان أسهل الإجراءات لديها هو أن تمنع مرور الإمدادات إلـى الجيش الثالث وكـما قال الأخ أمين هويدي فهذه هي أول مرة نسمع فيها أن الفريسة هي التـي

بيدها السماح بمرور الأكل إلى الصياد.

* إن الســـادات يعلم جيدا أنه لا يستطيع أن يبيع هذا الوهم إلى أمريكا أو حتى الاتحـــاد السوفيتي. ولذلك فقد كـــان هدفه من كل ذلك هو أن يبيع هذا الوهم إلى قادة القوات المسلحـــة. آسف إلـــى بعض قادة القوات المسلحة. ولذلك فإننا نراه يزعم- كما يقول في صفحـــة ٣٥٧ -أنه عقد فـــي يوم ٢٤ من ديســـمبر مؤتمرا لمناقشة خطة تصفية الثغرة!! ويبدو أن الجمسي الذي كـــان قـــد اصبح رئيسا للأركان اعتبارا من ١٣ من ديسمبر ٧٣، كـــان من بين من صـــدقوا مـــا يعلنـــه الســـادات عن نيته تصفيـــة الثغرة.. حيث انه (أي الجمسي) كما ذكر في صـــفحة ٤٨١ مـــن مذكراته، لم يســـتطع أن يحبس دموعه عند التوقيع على اتفاقية فض الاشتباك في ١٧ من يناير ٧٤.

والسؤال الذي يطرح نفسه اليوم هو "ماذا كان يمكن أن يحدث لو وافق احمد اسماعيل والسادات على اقتراح الشاذلي بسحب الأربعة ألوية المدرعة ؟ الإجابة من وجهة نظري هي أنه من المؤكد أننا كنا سنكون قادرين خلال يومي ٢١ و ٢٢ من أكتوبر على حصار الثغرة ومنع انتشـــارها.. ثم ندخل معه بعد ذلك في معارك تصادميـــة اعتبارا من يوم ٢٣ أكتوبر تمهيدا لتدميره بعد ذلك والذي يلفت النظر حقا انه بعد حوالي أسبوع من وقف إطلاق النار..وبعد أن كان العدو قد أتم حصار الجيش الثالث ومعه أحد الألوية المدرعة التي كان الشاذلي يريد سحبها، اصدر القائد العام أمرا بسحب الألوية المدرعة الثلاثة الباقية -التي كانت مع الجيش الثاني- من الشرق إلى الغرب ولكن التأخير في اتخاذ هذا القرار، وتنفيذه في ظل حصار الجيش الثالث ومدينة السويس وهما رهينتان غاليتان في يد العدو، كان يحد كثيرا من إمكان الاستفادة بها. ولعلنا نتعلم من ذلك درسا مهما وهو أهمية القرار المناسب في الوقت المناسب.

الفصل الحادي والأربعون

الأخطاء القيادية الجسيمة

- أطالب بإلغاء منصب القائد العام للقوات المسلحة. هذا المنصب الذي لا نجد له مثـــيلا إلا فـــي دول العالم الثالث المتخلفة.
- لو أن السادات لم يرتكب أي جريمة في حق الوطن سوى أنه عين أحمد اسماعيل قائـــدا عامـــا للقوات المسلحـــة وهو يعلم انه كان مريضا بالسرطان، لكان ذلك دليلا كافيا لإدانتـــه بارتكـــاب

جريمة الخيانة العظمى في حق الوطن.

- إن القائد الذي يخشى أن يسحب جزءا من قواته من القطاعات الغير مهددة للـزج بهـا فـي القطاعات المهددة بحجة أن ذلك قد يؤثر على الروح المعنوية. هو قائد انهزامي ولن ينجح قـط في تحقيق أي نصر في أي معركة.
- لقد عارض السادات واحمد إسماعيل اقتراح الشاذلي بسحب الفرقة الرابعة المدرعة واللـواء٢٥ المدرع من الشرق إلى الغرب يوم ١٦، ولكنهما قاما بسحب الفرقة الرابعة المدرعة يـوم ١٨. وعارضا اقتراح الشاذلي بسحب أربعة ألوية مدرعة من الشرق إلى الغرب يـوم ٢٠، ولكنهمـا قررا الأخذ بهذا الاقتراح يوم ٢٨ أكتوبر. وفي الحالتين جـاء القرار متـأخرا ولم يحقق الهدف من هذه المناورات.
- لماذا لم تتشكل لجنة قضائية عليا حتى الآن لتقصي الحقائق عن حرب أكتوبر، كـما حدث فـي إسرائيل، وكما يحدث في جميع الدول المتحضرة في أعقاب كل حرب؟.
- لماذا يخشى السادات قبول دعوة الشاذلي إلى مناظرة علنية كبديل مؤقت للجنة تقصي الحقائق؟

التستر على الخطأ جريمة

فكرت كثيرا قبل أن اختار عنوان هذا الفصل "الأخطاء القيادية الجسيمة". وكان العنوان الذي في رأسي أول الأمر هو "أخطاء أحمد اسماعيل والسادات" ، حيث انهما هما اللذان ارتكبا تلك الأخطاء دون غيرهما.. غير أن المناقشات والتصريحات التي أدلى بها بعـض القـادة وبعـض المحللـين العسكريين بعد الحرب كان بعضها يؤيد هذه الأخطاء. وحيث أن تلك الأخطاء التي سوف اسـردها تتعارض مع أصول العلم العسكري وما نقوم بتدريسـه لأبنائنـا فـي الكليـات والأكـاديميات العسكرية، فقد خشيت أن يقتنع بعض القادة الحاليين وبعض طلاب العلوم العسكرية بتلك الأخطـاء فتكون مصيبة كبرى بالنسبة لمستقبل مصر والبلاد العربية.

ولذلك فقد اخترت العنوان الذي ذكرته ليكون في نفس الوقت ردا لكل مـن يؤيـد تلـك الأخطـاء بالصمت أو بالكلمة.

عدم المحافظة على الغرض

المحافظة على الغرض مبدأ أساسي من مبادئ الحرية بل أنها هي المبدأ المحوري الذي تتأثر به جميع مبادئ الحرب الأخرى. ولذلك فإن المهمة التي تخصص للقوات المسـلحة يجـب أن تكـون واضحـة، وان تكون في حدود إمكـاناتها. وحيث أن الحرب هي امتداد للسياسة بوسيلة أخـرى، فإن القيادة السياسية هي التي تخصص المهمة التي تكلف بها القوات المسلحة. ولكن القيادة السياسية تلجأ عادة إلى مناقشة هذه المهمة مع القادة العسكريين قبل إصدارها حتى تضمن إمكان نجاح القوات

المسلحة في تنفيذها. ومنذ اليوم الأول لميلاد أول خطة هجــوميــة "المآذن العاليــة" فــي شــهر أغسطس ١٩٧١، كانت القيــادتان السيــاسيــة والعسكرية على قناعة بحقائق ثلاث:
هي تفوق العدو الساحق في مجال القوات الجوية. تفوق العدو علينا في مجال الحرب البرقية خفيفة الحركة BLITZ KRIEG كنتيجــة حتمية لتفوقه في القوات الجوية وفي وسائل الاتصال المؤمنة في الجو والأرض.والثالثة و الأخيرة هي أن أمريكا تؤيد إسرائيل تأييــدا مطلقــا سياســيا واقتصــاديا وعسكريا. وفي ظل هذه الحقائق كــان يجب أن يكون الهــدف متواضــعا.. حــــتى أن الــرئيس السادات كان يقول في مؤتمرات القادة قبل الحرب "أريد منكم أن تنجحــوا فــي احــتلال عشــرة سنتيمترات على الضفة الشرقية وان تحتفظوا بها. وسوف يؤدي ذلك إلى تعديل كبير في مــوازين القوة سياسيا وعسكريا".

وفي ظل هذه الحقائق وضعت خطة المآذن العالية التي كان هدفها هو عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف واحتلال من ١٠-١٢ كيلومتراً شرق القناة وفي خلال الفترة من أغســطس ٧١ حتــى أكــتوبر ٧٣، زاد حجم ونوعية قواتنا المسلحة، ولكن كانت تقــابلها أيضا زيادة في حــجم ونوعية قوات العدو.. وبالتالي فإن الحــقائق الثــلاث التي أدت إلى الخطة الهجوميــة بقيــت كمــا هــي، وبالتالي فإن الهدف المحدد للقوات المسلحة بقي كما هو. كان كل ذلك يتم شــفويا بــين القيــادتين السياسية والعسكرية، ولكــن أحمد إسماعيل بطبيــعته الحذرة طلب من القيادة السياسية أن تحــدد مهمة القوات المسلحة في وثيقة مكتوبة. فأصدر السادات في الأول من أكتوبر ٧٣ توجيها إلى القائد العام يحدد له مهمة القوات المسلحة والتي كانت كما يلي "تحــدي نظرية الأمن الإسرائيلي، وذلــك عن طريق عمل عسكري حسب إمكانات القوات المسلحة، يكون هدفه إلحاق اكبر قدر من الخسائر بالعدو، وإقناعه أن مواصلة احتلاله لأراضينا تفرض عليه ثمنا لا يستطيع دفعــه. وبالتــالي فــإن نظريته في الأمن- على أساس التخويف النفسي والسياسي والعسكري- ليست درعا مــن الفــولاذ يحــميه الآن أو في المستقبل".

وكــان هذا يتماشى تماما مع جوهر خطة "المآذن العــالية" التي تغير اســمها ليصبح "جرانيت-٢" ثم "بدر". وبحلول يوم ٩ من أكتوبر عام ١٩٧٣ كــانت القوات المسلحــة قد حققت المهمة التي كلفت بها. فقد نجحت في خلال ١٨ ساعة في عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف. وفي خــلال ألــ ٤٨ ساعة التاليــة كانت قد نجحت في صــد جميع الهجمات المضادة التي قــام بهــا العــدو. واعتبــارا من يوم ١٠ من أكتوبر كــان العدو يقف يائســا أمام قواتنا الصامدة. لقد كانت خطتنــا تهدف إلى وضع العدو أمام خيارين، كلاهما مر بالنسبة له وكلاهما حلو بالنسبة لنا. كــان الخيــار الأول :هو أن يقوم بهجمات مضـــادة على قواتنا، وقد اتبع هذا الخيار يومي ٨ و ٩ ولكنه فشل في

تحقيق أي نجاح. واعتبارا من يوم ١٠ بدأ يلجأ إلى الخيار الآخر وهو التوقف عن شن هجمات مضادة قوية. كانت المبادأة بأيدينا، وكان العدو يتصرف كما نريد له أن يتصرف طبقا للخطة.

ولو أن القائد العام تمسك بمبدأ المحافظة على الغرض لكان في إمكاننا أن نبقى في هذا الوضع عدة اشهر، بينما لا يستطيع العدو أن يتحمل هذا الوضع بضعة أسابيع، فلم يكن من الصواب إذن أن ننسى تفوق العدو علينا في القوات الجوية وفي أسلوب الحرب البرقية (الحقيقتان الأولى والثانية) وان ندفع بقواتنا في عمق سيناء ولم يكن من المقبول أن يبرر السادات أخطائه بالقول "إني لا أستطيع أن أحارب أمريكا" . فقد كنا نعلم مسبقا أن أمريكا سوف تؤيد إسرائيل سياسيا وعسكريا كما فعلت في الحروب السابقة (الحقيقة الثالثة). ولو أننا التزمنا بمبدأ المحافظة على الغرض لما استطاعت إسرائيل أن تزحزحنا عن مواقعنا شرق القناة مهما تحصل على مساعدات أمريكية.

عدم المناورة بالقوات

المناورة بالقوات أيضا مبدأ مهم من مبادئ الحرب فلو افترضنا وقوع اصطدام بين جيشين متساويين في الحجم وفي المعدات وفي النوعية وفي الروح المعنوية وفي كل شيء آخر.. فإن الغلبة ستكون للجيش الذي يطبق قائدة مبدأ المناورة بالقوات. تماما كما يحدث بين لاعبي الشطرنج اللذين يبدأن المباراة بقطع متساوية في العدد والنوعية والمواصفات. ومع ذلك فإن النصر يكون دائما لمن يحسن تحريك قطعه ونقلها من مكان إلى مكان.. فيخلق بذلك لنفسه حشدا متفوقا في الاتجاه الذي يهاجم فيه إذا كان يشن هجوما. وإذا كان اللاعب في الدفاع فعليه إن يستقرئ نوايا خصمه وان يسرع بتحريك قطعه إلى الأماكن المهددة حتى يكون على أهبة الاستعداد لإفشال هجوم خصمه.

ومادمنا نقوم بتعليم أبنائنا في معاهدنا العسكرية، أن تطبيق مبدأ المناورة بالقوات هو مفتاح النصر في كل الحروب على المستوى الاستراتيجي، وفي كل المعارك الكبرى والصغرى على المستويين التعبوي والتكتيكي.. فلكي تكون هناك مصداقية لما نقوله لهم، فإنه يجب علينا أن نعترف بان القائد العام للقوات المسلحة في حرب أكتوبر لم يطبق هذا المبدأ فحسب، بل إنه كان أيضا يرفض النصائح التي كانت تقترح عليه ضرورة المناورة بالقوات. كان أحيانا يبدي تخوفا شديدا من تأثير سحب قوات من قطاع ما على أمن وسلامة هذا القطاع. وكان أحيانا يبدي تخوفه من أن يؤثر هذا السحب على الروح المعنوية للجند وكان أحيانا يقول: إن الموقف العسكري العام لا يستدعي ضرورة القيام بهذا الإجراء. وفي الحالات النادرة التي استجاب فيها إلى تلك النصائح فإنه كان يقوم بها بعد تردد كبير، وبعد مضي بضعة أيام تكون فيها تلك

المناورة قد أصبحت عديمة القيمة. وأن واجبي الوطني يحتم على أن أوضح لأبنائنا وأحفادنا من قادة المستقبل، ما سببته لنا مواقف احمد إسماعيل المتخاذلة من مصائب مازلنا نقاسي منها حتى يومنا هذا.

– إن عدم المناورة بالقوات هو الذي أدى إلى ثغرة الدفرسوار.. إن عدم المناورة بالقوات هو الذي سمح لثغرة الدفرسوار أن تتسع.. إن عدم المناورة بالقوات هو الذي أدى إلى حصار الجيش الثالث ومدينة السويس.. وأن تطبيق العدو لمبدأ المناورة بالقوات، وإحجامنا عن تطبيقه، هو الذي أدى إلى أن يحقق العدو كل هذا النجاح، رغم أن قواتنا البرية بالجبهة كانت تتفوق في الحجم ولا تقل في النوعية عن القوات الإسرائيلية التي في مواجهتها. وسوف أذكر فيما يلي تلك السلوكيات الخاطئة التي ارتكبها أحمد إسماعيل... والتي أدعو قادة المستقبل إلى ضرورة تفاديها.

الحذر الشديد

كان الحذر الشديد يدفع أحمد إسماعيل إلى زيادة حجم القوات المكلفة بالدفاع بشكل يفوق كثيرا متطلبات الدفاع، وعلى سبيل المثال فإن الخطة الهجومية الأصلية "المآذن العالية" لم تكن تتضمن تدعيم فرق المشاة الخمس المكلفة بالهجوم بأية ألوية مدرعة.. حيث إن فرقة المشاة بما لديها من أسلحة عضوية قادرة على صد فرقة مدرعة إسرائيلية تضم ثلاثة ألوية مدرعة.. وكان في تقديراتنا أن أقصى ما يمكن للعدو أن يدفعه في اتجاه الجبهة المصرية هو ٨ ألوية مدرعة و ٤ ألوية من المشاة الميكانيكية. وبالتالي فإنه لن يستطع تدمير قواتنا التي تعبر إلى الشرق والتي كان قوامها ٥ فرق مشاة. إن أقصى ما يستطيع العدو أن يفعله هو أن يركز هجومه على فرقة واحدة أو اثنتين. وقد ينجح في تدمير إحدى الفرق ولكن بعد أن يكون قد فقد نصف مدرعاته وبالتالي يفقد القدرة على متابعة الهجوم، ويهيئ لنا الظروف للقيام بهجوم مضاد نستعيد به الموقف. ومع كل ذلك فقد أمر أحمد إسماعيل بتدعيم كل فرقة مشاة بلواء مدرع. وهكذا قمنا بتخصيص ٥ ألوية مدرعة للفرق المشاة، وكان ذلك بالتأكيد على حساب الاحتياطات التعبوية والاستراتيجية التي كان يتحتم علينا الاحتفاظ بها غرب القناة. كما انه كان يتعارض مع الأسلوب الأمثل في استخدام القوات المدرعة، والذي يحذر من تفتيت القوات المدرعة، ويدعو إلى استخدامها في حشود كبيرة في المكان والوقت المناسب لحسم المعركة.

وقد كان من الممكن إصلاح هذا الخطأ المؤقت لو أننا قمنا بسحب هذه الألوية المدرعة من الشرق واعدناها إلى وحداتها الأصلية المكلفة بواجبات الاحتياطات التعبوية والاستراتيجية. وقد كان من الممكن تحقيق ذلك اعتبارا من يوم ١٠ أكتوبر بعد أن تحطمت هجمات العدو المضادة يومي ٨ و ٩ أكتوبر. ولكن الحذر الزائد من جانب احمد إسماعيل دفعه إلى الإبقاء على هذه

الألوية مع الفرق المشاة بل انه عندما اتخذ يوم ١٢ قرارا بالتطوير -رغم المعارضة الشديدة من جانب رئيس الأركان وقائدي الجيشين الثاني والثالث- فإنه دفع بلواءين مدرعين إضافيين ولواء مشاة ميكانيكي إلى الشرق. ومرة أخرى كان من الممكن إصلاح هذا الخطأ بعد أن فشلت عملية التطوير يوم ١٤، وذلك بإعادة الفرقتين المدرعتين الرابعة والحادية والعشرين إلى مواقعهما الأصلية إلى الغرب. ولكنه رفض ذلك أيضا.

عدم القدرة على التنبؤ

إن تقدير قدرات العدو هو العامل الأول في تقدير الموقف الذي يقوم به كل قائد قبل أن يتخذ قرارا سواء كان هذا القائد يقود فصيلة أم كان يقود جيشا أم ما هو أكثر من ذلك. ولكن بالنسبة للقادة الأصاغر فإن الفاصل الزمني بين تقدير الموقف وبين تنفيذ القرار يكاد يكون معدوما. وبالتالي فإن تقدير قدرات العدو خلال فترة تقدير الموقف لا تختلف عن قدراته أثناء تنفيذ القرار. ولكن الأمر يختلف كثيرا بالنسبة للمستويات الأعلى.. حيث إن الفاصل بين الوقت الذي يتخذ فيه قائد الجيش أو القائد العام للقوات المسلحة قراره وبين الوقت الذي يتم فيه تنفيذ القرار قد يمتد إلى ٢٤ ساعة، بل قد يمتد إلى بضعة أيام. وفي خلال هذه الفترة سوف يتغير حتما حجم وأوضاع العدو عما كانت عليه وقت تقدير الموقف. وبالتالي فإن قادة التشكيلات الكبرى يجب أن تكون تقديرهم لقدرات العدو على أساس ما سوف تكون عليه وقت تنفيذ قراراتهم وليس على أساس ما كان عليه العدو عند اتخاذهم القرار. وهذا يتطلب من قادة التشكيلات الكبرى أن يكون لهم القدرة على التنبؤ واستقراء نوايا العدو المستقبلية لبضعة أيام قبل حدوثها.

وللأسف الشديد فإن احمد إسماعيل لم تكن لديه القدرة على استقراء نوايا العدو. لقد اخترق العدو مواقع الجيش الثاني في منطقة الدفرسوار ليلة ١٥/ ١٦ أكتوبر وبدأت قواته صباح يوم ١٦ تغير على مواقع كتائب الصواريخ المضادة سام-٢، سام-٣ غرب القناة بمجموعات من الدبابات تقدر بحوالي ٧ دبابات في كل إغارة وعندما ظهر لي أن قيادة الجيش غير قادرة على استعادة الموقف اقترحت في منتصف نهار يوم ١٦ أن نسحب الفرقة الرابعة المدرعة (كان للفرقة الرابعة لواء مدرع ولواء مشاة ميكانيكي في شرق القناة، بينما كان لها لواء مدرع في غرب القناة) واللواء ٢٥ مدرع مستقل من الجيش الثالث إلى غرب القناة. ثم تكليف الفرقة الرابعة المدرعة بالكامل بعد تدعيمها باللواء ٢٥ بتوجيه ضربة قوية لتصفية العدو في منطقة الدفرسوار في أول ضوء يوم ١٧. واعترض احمد إسماعيل على هذه الخطة قائلا: لماذا كل هذه القوات ضد ٧ دبابات وعبثا حاولت إقناعه أن قيام العدو بالإغارة على كتائب الصواريخ بقوة ٧ دبابات في كل مرة لا تعني أن كل ما يملكه من دبابات غرب القناة هو ٧ دبابات؟. ثم إنه بحلول فجر يوم ١٧ قد يصل حجم هذه

الدبابات إلى لواء مدرع أو لواءين!. وكانت الخطة البديلة التي أمر بتنفيذها هي توجيه ضربة من الشرق يقوم بها اللواء ٢٥ مدرع. تلك الخطة التي أدت إلى تدمير اللواء ٢٥ مدرع (راجع الفصل ٣٣).

التأثير المعنوي على الجنود

كان احمد إسماعيل يخشى أن يؤثر سحب قوات من الشرق إلى الغرب على الروح المعنوية للقوات، وان هذا السحب قد يتحول إلى ذعر تصعب السيطرة عليه. وكان ذلك انعكاسا للعقدة النفسية التي كانت تسيطر عليه منذ هزيمة ١٩٦٧. تلك العقدة التي جعلته يخلط خلطا مشينا بين انسحاب عام ٦٧ وبين المناورة المقترحة بالقوات عام ٧٣. فقد كانت قواتنا عام ٦٧ تنسحب تحت ضغط من قوات العدو البرية والجوية، وبدون أي دفاع جوي من جانبنا، وبدون أي سيطرة من القيادة العامة للقوات المسلحة. أما المناورة بالقوات عام ٧٣، فقد كانت تقوم بها قوات ليست على اتصال بالعدو. وكانت تتم تحت ستر ٥ فرق مشاه وتحت مظلة دفاعنا الجوي، وفي إطار خطة محكمة تحت سيطرة القيادة العامة. وبالتالي فان تحرك هذه القوات كان اقرب إلى أن يكون تحركا إداريا اكثر منه إلى تحركات العمليات. وبالإضافة إلى ذلك فإن انتصارنا في اقتحام القناة قد فجر في الضباط والجنود طاقات معنوية هائلة. إن إحجام وتردد احمد إسماعيل في المناورة بالقوات هو خطأ لا يمكن قبوله تحت أي عذر من الأعذار، وإن الادعاء بأن المناورة بالقوات ما بين شرق القناة وغربها يمكن أن تؤثر على الروح المعنوية هو ادعاء باطل وانهزامي، ومن يؤمن بهذا الادعاء فإنه لن ينجح في تحقيق الانتصار في أي حرب.

عدم اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب

كان تردد احمد إسماعيل في اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب هو أسوأ صفات أحمد إسماعيل. ورغم كل ما يقدمه من مبررات، فإن ذلك يرجع أساسا إلى سببين رئيسيين الأول هو العقدة النفسية التي ترسخت في أعماقه نتيجة هزيمة ٦٧ ونتيجة قيام عبد الناصر بإعفائه من منصبه مرتين، مما جعله يخشى المسؤولية ويتردد في اتخاذ القرارات الجريئة. أما السبب الآخر فهو كونه كان يقود معارك على الخرائط فقط، ولم يزر الجبهة قط إلا بعد وقف إطلاق النار ببضعة أسابيع، وبعد أن أصبحت مزارا لكل الناس بما في ذلك طلبة المدارس. وإن عدم اتصاله بالضباط والجنود لم يسمح له بأن يلمس ما أحدثه نجاحنا في عبور قناة السويس في رفع روحهم المعنوية، وفي استعادة ثقتهم بقادتهم الذين رسموا لهم الخطط وهيئوا لهم الظروف التي مكنتهم من تحقيق هذا النصر. وبالتالي فإن الصورة الكئيبة التي شاهدها عام ١٩٦٧ بقيت مترسخة في أعماقه ووجدانه. فأصبح يخلط بين المناورة بالقوات وبين الانسحاب . و بمعنى آخر يخشى أن

يتطور انتقال أي قوات من الشرق إلى الغرب بهدف القتال أو تشكيل احتياطي إلى انسحاب مذعور تصعب السيطرة عليه. وعندما يتشجع ويتخذ القرار في النهاية يكون الوقت قد فات. وفيما يلي أمثلة على القرارات التي لم تتخذ في الوقت المناسب:

١- عدم سحب الألوية المدرعة من الفرق المشاة بعد نجاح العبور ونجاح قواتنا في صد جميع هجمات العدو المضادة يومي ٨ و ٩ من أكتوبر.

٢- عدم سحب الفرقة الرابعة المدرعة والفرقة ٢١ المدرعة إلى الغرب بعد فشل عملية التطوير يوم ١٤ من أكتوبر.

٣- عدم سحب الفرقة الرابعة المدرعة واللواء ٢٥ مدرع يوم ١٦ بهدف تصفية الثغرة من الغرب. ولكنه عاد فسحب الفرقة المدرعة يوم ١٨، ولكن انسحابها جاء متأخراً ٤٨ ساعة زاد خلالها انتشار العدو في الغرب واصبح الأمر يحتاج إلى سحب أعداد أكبر من الألوية المدرعة.

٤- عدم سحب الألوية المدرعة التي طالب الشاذلي بسحبها يوم ٢٠ (الفرقة ٢١ مدرعة وبها لواءين مدرعين+ اللواء ٢٤ مدرع الذي كان ضمن تجميع الفرقة الثانية المشاة+ اللواء المدرع الذي كان ضمن تجميع الجيش الثالث). وقد أدى هذا التردد إلى حصار الجيش الثالث ومدينة السويس. وبعد أن توقف القتال في ٢٨ من أكتوبر ببضعة أيام أصدر أحمد إسماعيل أمرا بسحب جميع الألوية المدرعة من الشرق إلى الغرب. ولكن هذا القرار الذي جاء متأخرا مدة أسبوعين عن التاريخ الذي طالب فيه الشاذلي بسحب هذه الألوية افقدها الكثير من فعالياتها وتأثيرها على سير المعارك.

إغفال تشكيل احتياطات جديدة

يتحتم على كل قائد أن يحتفظ باحتياطي من القوات والنيران حتى يمكنه أن يواجه به أي تصرفات غير محتملة (راجع الفصل ٣٣). وإذا ما دعت الضرورة إلى إقحام الاحتياطيات أو جزء منها في المعركة، فإنه يجب تشكيل احتياطيات جديدة لكي تحل محلها. وحيث إنه ليس من المتيسر على مستوى القيادة العامة للقوات المسلحة تشكيل وحدات جديدة لكي تحل مكان الوحدات التي كانت تشكل الاحتياطيات التعبوية والاستراتيجية.. فإن التغلب على ذلك يمكن أن يتم بالمناورة بالقوات.. تماما كما يفعل لاعب الشطرنج الذي يبدأ بعدد محدد من القطع ولا يسمح له بزيادتها إلى أن تنتهي المباراة.

وطبقا للخطة الأصلية "المآذن العالية" فقد كنا نحتفظ في الاحتياطات التعبوية والاستراتيجية بقوات كبيرة قوامها فرقتان مدرعتان وثلاث فرق مشاة ميكانيكية وثلاثة ألوية مدرعة مستقلة (إجمالي الألوية المدرعة عشرة: اثنان في كل فرقة مدرعة وواحد في كل فرقة مشاة ميكانيكية، ولواءان مستقلان. لواء الحرس الجمهوري). ولكن الحذر الزائد من احمد إسماعيل

اضطرنا إلى تخصـــيص ٥ ألوية مدرعة لتدعيم الفرق المشاة. وقد كان مفروضا إعادة هذه الألوية إلى الاحتياط بعد أن نجـــحت الفرق المشاة في تثبيت مواقعها شرق القناة ولكن ذلك لم يحـــدث. بل إن أحمد إسماعيل لجأ إلى زيادة تفتيت الاحتياطات كما سبق أن أوضحنا في الفصول السابقة حتـــى تأزم الموقف تماما. وفي يوم ٢٠ من أكتوبر كانت الفرصة الوحيدة لإنقاذ الموقف هي سحب الألوية المدرعة الأربعة التي كانت في الشرق لكي نواجه بها الموقف المتأزم في الغرب ومع ذلـــك فـــإن احمد إسماعيل عارض هذا الاقتراح وانه لمن المؤسف حقا أن هناك بعضا من القادة يؤيدون اليوم هذا التصرف المعيب.

وإني أقولها صـــراحة: إذا لم نوضـــح لأبنائنا من طلبة الأكـــاديميـــــات العســـكرية أن عـــدم المناورة بالقوات، وتفتيت الاحتياطيات، وعدم تشكيل احتياطيات جديدة بدلا من تلك التي يتم إقحامها كانت جميعها من الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها أحمد إسماعيل خلال حرب أكتوبر ٧٣.. فابشـــروا بجيل جديد من القادة سيجلبون على مصر هزائم تتضاءل بجانبها هزيمة عام ١٩٦٧.. اللهـــم قـــد بلغت.

التدخل السياسي في القرارات العسكرية

ليس هنالك خلاف حول حتمية تبعية القيادة العسكرية للقيادة السياسية، حيث إن الحرب كما قـــال كلاوزوفيتز هي امتداد للسياسة بوسائل أخرى. ولكن الخـــلاف يدور حول حدود ومدى هذه التبعية. وتتساوى في ذلك جميع الأنظمة السياسية سواء كـــانت ديمقراطية أم دكتاتوريـــة أم شـــمولية، وإن اخـــتلفت الأسباب التي تراها الأنظمة لفرض هذه التبعيـــة. ففي الدول الديمقراطية تكون القيـــــادة السيـــاسية منتخبة بواسطة الشعب، وبالتالي فهي تمثل الشعب وتعمل على تحقيق أهدافه.. في حين أن القيادة العسكرية غير منتخبة وبالتالي يجب إخضاعها لإشـــراف القيادة السياسية المنتخبة. وقـــد ذهبت بعض الدول الديمقراطية إلى أبعد من ذلك عند تعيين رؤوس القمة العسكرية. ففي الولايـــات المتحدة يختـــار الرئيس الأمريكي رئيس الأركـــان، ولكن هذا الاختيـــار لا يكتمل إلا بعد عـــرض هذا الاسم على الكونجـــرس وإقراره. وقد يلجا الكونجرس إلى دعوة الشخص المرشح لهذا المنصب لمناقشته والحوار معه عدة جلسات قـــبل أن يوافق على تعيينه أو رفضه، فإذا رفض الكـــونجرس هذا التعيين فإنه يتحتم على الرئيس ترشيح شخص آخر يحظى بموافقة الكونجرس.

أما في الأنظمة الدكتاتورية والشمولية، فالأمر يختلف. فالقيادة السياسية فيها هي قيادة مغتصـــبة، والمغتصب يريد دائما أن يحافظ ويدافع عمـــا اغتصبه ضد أي غاصب محتمل آخر، أو ضـــد أي انتفاضة شعبية ضد نظامه. وحيث إن القوة العسكرية هي الوسيلة الأمضى لقمع أي انتفاضة شعبية ضد الحكم، وهي في الوقت نفسه تعتبر المرشح الأول لاغتصاب السلطة من مغتصبيها.. فإنه مـــن

الضروري للحاكم أن يسيطر سيطرة كــاملة على القوات المسلحة،وبذلك يمكنه استـــــخدامها فـــي قمـــع أي انتفاضة شعــبية، ويضمن في الوقت نفسه إلا تنقلب عليه. كانت الأنظمة الشمولية فـــي الاتحاد السوفيتي- قبل أن تتحول إلى أنظمة ديمقراطية في أوائل التسعينيات- تلجا إلـــى الســـيطرة على القوات المسلحة عن طريق تسييسها بصفة عامة، وعن طريق تسييس القادة بصفة خاصة. فقد كان غالبيـــة القادة الكبار أعضاء في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وكان وزير الدفاع دائما هو عضو في المكتب السياسي. ونتيجة لذلك فقد كان هناك فصل بين اختصاصات القيادة السياسية ممثلة في المكتب السياسي للحزب الشيوعي ، وبين القيادة العسكريـــة التي يرأسها رئيس أركان حـــرب القوات المسلحة والذي هو في نفس الوقت عضو في اللجنة المركزية.

ونتيـــجة لذلك فإن منصب رئيس الأركان كـــان قمة الهرم العســـكري ســـواء فـــي الأنظمـــة الديمقراطيـــة الغربية أم في الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشـــرقية ذات النظم الشمولية. وكـــان وزير الدفاع في كل من الكتلتين- سواء كان رجلا مدنيا أم عسكريا- هـــو حلقـــة الوصـــل بـــين القيادتـــين السياسية والعسكرية. وبالتالي فلم تكن هناك حاجـــة لدى تلك الأنظمة- رغـــم اخـــتلاف طبيعتها- إلى أن تخلق وظيفة نصفها عسكري ونصفها سياسي كما فعلت الغالبية العظمى من دول العالم الثالث.

لقد ابتكرت الأنظمة في دول العالم الثالث- وغالبيتها أنظمة غير ديمقراطية- نظاما فريدا يميزها عما هو مـــتبع في الدول الديمقراطيـــة ودول الكتلة الشـــيوعيـــة قـــبل تحولها إلى الديمقراطيـــة.. وذلك بخلق وظيفة جـــديدة تسمى القائد العام للقوات المسلحة. وهناك أربعة نماذج لهذه الوظيفـــة: النموذج الأول هو إسناد هذه الوظيفة إلى وزير الدفاع فـــيصبح لقـــبه وزير الدفاع والقائـــد العـــام للقوات المسلحـــة. النموذج الثاني هو أن يحتفظ رئيس الدولة بلقب القائد العام ويصبح وزير الدفاع هو نائب القائـــد العام. النموذج الثالث هو أن يحتفظ رئيس الدولة بمنصب وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة، ويلغي منصب رئيـــس الأركان، ويستبدله بمنصب ذي صلاحـــــيات محـــــدودة يسمى أمين عام وزارة الدفـــاع. النموذج الرابع والأخـــيـــر يلغى فيـــه منصـــب وزيـــر الـــدفاع ومـــنصب رئيس الأركـــان، ويمارس رئيس الدولة سلطات هذين المنصبين من خلال أحد مديري مكتبه. وهذه النمـــاذج الأربعة وإن اختلفت في الشكل، إلا أنها تتفق في المضمون والهدف، وهـــو تمكين رئيس الدولة من ممارسة أكـــبر قدر من السيطرة على القوات المسلحة. ومصر هي إحـــدى دول المجموعة التي تتبع النموذج الأول. هناك إجماع في الرأي علـــى أن القيادة السياســـية هـــي التي تحدد مهمة القوات المسلحة. ولكن جرت العادة على أن يتم التشاور بين القيـــادتين السياســـية والعسكرية قبل تخصيص المهمة حتى تكون المهمة التي تكلف بها القوات المســـلحة فـــي حـــدود

إمكاناتها. أما بعد تخصيص المهمة فإن القيادة السياسية يجب ألا تتدخل في أسلوب القيادة العسكرية في التنفيذ. وإن كان هذا لا يمنع عقد لقاءات مشتركة بين القيادتين لتبادل الرأي إذا دعت الضرورة إلى ذلك.. وحـتى يلم كل طرف بإمكانات وحـدود الطرف الآخـر. يحـدث هذا في كل من دول الكتلة الغربية بزعامة أمريكا ودول الكتلة الشرقية بزعامة الاتحاد السوفيتي السابق، حيث بالنسـبة لمصر ودول العالم الثالث، فالأمر يختلف.. حيث أن جمع وظيفة وزير الحـربية- وهو عضو في القيادة السياسية- ووظيفة القائد العام للقوات المسلحة في شخـص واحد، يعنـي أن نصـف هـذا الشخص سياسي والنصف الآخر عسكري. فهو إذا تحدث في موضوع معين مع رئـيس الأركـان حول أسلوب تنفيذ المهمة بصفته وزير الحربية، فإن رئيس الأركان يستطيع أن يرفض ذلك. أما إذا تحـدث معه بصفته القائد العام للقوات المسلحة فإن رئيس الأركان يصبح ملزما بتنفيـذ أوامرهـا وأقصى ما يمكن لرئيس الأركان عمله، هو أن يبين لـه العيوب والمشاكل والمخاطر التي سـوف تترتب على تنفيذ هذا الأمر، فإن أصر القائد على التنفيذ فانه يجب على رئيس الأركـان أن ينفـذ أوامر القائد وبنفس الحماس الذي عارض به الأمر قبل إقراره بصفة نهائية .. حـيث إن تقاليـد القوات المسلحة وسلامة وأمن أفرادها لا تسمح لأي قائد أو ضابط مرؤوس أن ينفذ من أوامر قائـد ما يعجبه ويستبعد منها مالا يعجبه. وفي ظل هذا التنظيم وهذه المفاهيم شاءت المقـادير أن يكـون الفريق أول أحمد إسماعيل هو القائد العام للقوات المسلحـة ووزير الحربية، وكان الفريـق سـعد الدين الشاذلي هو رئيـس أركان حرب القوات المسلحة، إبان حرب أكتوبر ٧٣. (راجـع الفصـل التاسع والعشرين).

ولاداعي لأن أكرر هنا ما سبق أن ذكرته في الفصول المسابقة عن الخـلافات التي وقعت بيني وبين أحمد إسماعيل خلال فترة إدارة العمليات الحربية. فقد عارضت الكثير من قراراتـه قبـل أن يتقرر إرسالها إلى القادة المرؤوسين ولكن الموقف كان يحسم في النهاية بضرورة الالتزام بما يأمر به بصـفته القائد العام للقوات المسلحة. حدث هذا بالنسبة لقرار التطوير، وبالنسـبة لموقفـه مـن مطالبتي بضرورة المناورة بالقوات وبالنسبـة لأسلوبه في التعامل مع الثغـرة، وبالنسبة لموقفه يوم ٢٠ من أكتوبر من اقتراحـي بسحب أربعة ألوية مدرعة من الشرق إلى الغرب. ثم كان يـوم ٢٥ من أكتوبر عندمـا تمردت على أوامره ورفضت توقيع الأمر الذي يتعلق بـدفع الفرقـة الرابعـة المدرعة لفك حصار الجـيش، حيث إني كنت على قناعة تامة بان توقيعي على هذا الأمـر يعنـي أنني اشترك في مؤامرة سوف تؤدي إلى تدمير هذه الفرقة (راجع الفصل الخامس والثلاثين).

ومن أجل مصر.. ومن أجل سلامة القوات المسلحة فإني أطالب بضرورة إلغاء منصب القائد العام للقوات المسلحة. هذا المنصب الذي لا نجد له مثيلا إلا في أنظمة دول العالم الثالث المتخلفة.. التي

تضع سلامة النظام وسلامة الحاكم قبل سلامة أمن البلاد. وبان نتبع في مصر نفس الأسلوب الذي تتبعه الدول الديمقراطية. وهو أن تكون وظيفة وزير الحربية وظيفة سياسية فقط فهو كعضو في القيادة السياسية يساهم في تخصيص مهمة القوات المسلحة في الحرب والسلم ولكنه لا يتدخل في أسلوب تنفيذ تلك المهام. فلو أن وظيفة أحمد إسماعيل خلال حرب أكتوبر كانت هي وزير الحربية فقط، لكان في إمكاننا تحقيق انتصارات تفوق كثيرا ما حققناه وهو يجمع بين وظيفتي وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة.

أحمد إسماعيل لاعب أم دمية؟!

أعتقد أن أحمد إسماعيل كان اقرب إلى أن يكون دمية في يد السادات من أن يكون شريكا معه في اتخاذ تلك القرارات المهمة. فعلى الرغم من أن التوجيه الاستراتيجي الذي أصدره السادات إلى أحمد إسماعيل ينص على أن تقوم القوات المسلحة بعمل عسكري يكون في حدود إمكاناتها، إلا أننا نجد أن السادات كلف القوات المسلحة بعمل يخرج عن حدود إمكاناتها عندما اتخذ قراراً يوم ١٢ من أكتوبر بتطوير الهجوم. وقد استجاب أحمد إسماعيل لهذا التكليف رغم علمه بأن العدو يتفوق علينا تفوقا ساحقا في مجال القوات الجوية، وأن هذا الهجوم محكوم عليه بالفشل قبل أن يبدأ ومما يؤكد سيطرة السادات الكاملة على أحمد إسماعيل، ذلك التصريح الذي أطلقه السادات في أحد خطبه عام ١٩٧٧ والذي قال فيه إنه كان يعلم بمرض أحمد إسماعيل بداء السرطان قبل وأثناء حرب أكتوبر ٧٣، وان الأطباء أخطروه بان حالته الصحية لاتسمح له باتخاذ القرارات، وإن السادات هو الذي كان يتخذ القرارات (راجع الفصل التاسع عشر). ولولا هذه الشهادة التي يدين فيها السادات نفسه بنفسه، لما كان في استطاعة أي محكمة تاريخية إدانة السادات على ما ارتكبه من أخطاء جسيمة أثناء الحرب. إذا ما قدم الدفاع عنه إلى المحكمة وثيقة التوجيه الاستراتيجي التي بعثها إلى احمد إسماعيل، والتي يربط فيها بين المهمة التي تكلف بها القوات المسلحة وبين حدود إمكاناتها.

قد يكون من السهل على النقاد أن يتهموا السادات بالجهل، لأنه لم يخدم في القوات المسلحة سوى ثلاث سنوات وهو برتبة الملازم والنقيب في بداية الأربعينيات، ولأنه لا يحب أن يجهد نفسه في القراءة والبحث. ولكن هذا لا ينطبق على أحمد إسماعيل. فلا أحد يستطيع أن يشك في علمه وثقافته العسكرية، وإن كان قد اشتهر بجموده الفكري وخشيته من تحمل المسئولية. ولكن هل من الممكن أن يصل الجمود الفكري بأحمد إسماعيل إلى حد إهمال مبدأ عام وحيوي من مبادئ الحرب لايمكن تحقيق أي نصر بدونه وهو المناورة بالقوات هل يمكن أن يصل الجمود الفكري إلى حد أن يقوم يوم ٢٥ أكتوبر بتكليف الفرقة الرابعة المدرعة بفك حصار الجيش الثالث، بينما كانت قوات العدو

غرب القناة تقدر بحوالي ٣ فرق مدرعة وكان يمتلك زمام الجو، ولولا تمردي ورفضي توقيع هذا الأمر لدمرت هذه الفرقة؟!

وهناك أسئلة كثيرة مازلنا نجهل إجاباتها حتى الآن نذكر منها: هل كان احمد إسماعيل يعلم بالرسالة التي بعث بها السادات إلى كيسنجر يوم ٧ من أكتوبر؟هل شارك احمد إسماعيل السادات بالرأي عندما طلبت بريطانيا يوم ١٣ من أكتوبر- عن طريق سفيرها في مصر السير فيليب آدامز- أن يبدي السادات رأيه في المشاورة الدائرة بين الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن حول إمكان وقف إطلاق النار في المواقع القائمة؟ وهل اتخذ السادات قراره برفض هذا الاقتراح؟ (البحث عن الذات/ ص ٣٤٤) دون التشاور مع صاحب المنصبين الرئيسيين اللذين لهما علاقة بهذا القرار؟؟ وهل طلب السادات مشورة احمد إسماعيل- صاحب المنصبين الرئيسيين- عندما رفض الاقتراح الذي تقدم به الاتحاد السوفيتي يوم ١٣ والأيام التالية، والذي كان يتضمن أيضا وقف إطلاق النار على الخطوط القائمة، أم أن السادات كان ينفرد باتخاذ القرار؟ وهل كان قرار دفع الفرقة الرابعة المدرعة -الذي تقرر إلغاؤه بعد أن رفضت التوقيع على أمر العمليات- صادرا من احمد إسماعيل عن قناعة أم انه كان ينفذ أمر السادات؟ هذه هي بعض الأسئلة التي يتحتم على المؤرخين الإجابة عنها قبل أن يمكننا أن نحدد طبيعة العلاقة بين الرجلين.

- وعموما فقد وردت شهادتين على لسان كل من حافظ إسماعيل وحسنين هيكل عن انفراد السادات باتخاذ القرارات خلال حرب أكتوبر. يقول حافظ في تعليقه على اتخاذ السادات قرار وقف إطلاق النار يوم ٢١ أكتوبر على الخطوط الحالية، دون أن يستشير أحد ما يلي "كان الرئيس وحيدا. كان هو الذي اختار أن يواجه الموقف وحده لقد اتخذ وحده من قبل قرارات مصيرية متعددة .. وربما لم يجد ضرورة الآن، وحدة الأزمة تتصاعد، أن يدعو رفاقه ومعاونيه. واختار بان يجتاز الأزمة وحده لقد أراد أن يكون صاحب النصر عندما ننتصر. وهو الآن يرفض إلا أن يكون المسئول عن نتائج تحول المعركة.. بينما كنت أظن أن هذه الساعات الحرجة التي نمر بها هي بالضبط الظروف التي من اجلها بني تنظيم الأمن القومي لكي يدعى ليتحمل مسئوليته ويعاون على اتخاذ القرارات المصيرية.. فلقد كان الموقف يتطلب تفويضا جديدا". (محمد حافظ إسماعيل/ أمن مصر القومي/ ص ٣٦٠).

- أما هيكل فهو ينقل إلينا موقف السادات من أي مشروع قرار يناقشه مجلس الأمن، فيذكر أن السادات قال له: "إنه من المستحسن أن يبت هو (السادات) في كل الأمور من هنا من القاهرة، وان يجيئوا إلي شخصيا كلما أرادوا إدخال أو تغيير كلمة أو حرف" (هيكل/ أكتوبر ٧٣/ ص ٤٥٥).

تعالوا إلى كلمة سواء

الحرب عملية باهظة التكلفة. وتكلفة الحرب لا تقاس بمجموع ما يتم إنفاقه خلال فترة العمليات الحربية وما تتحمله الدولة من خسائر بشرية ومادية خلال تلك الفترة. بل يضاف إليها ما تنفقه الدولة على قواتها المسلحة خلال سنوات السلم التي يتم خلالها تجهيز وتدريب تلك القوات، وما يتم إنفاقه لتامين الشعب ضد أخطار الحرب عند اندلاعها. ونتائج كل حرب هي التي تحدد مدى نجاح الدولة في تدبير شئونها العسكرية من حيث التسليح والتدريب وترشيد الإنفاق. الخ. ولذلك فإن الدروس المستفادة من كل حرب تعتبر ثروة لا تقدر بثمن، لأنها تكون رصيدا للدولة إذا ما اشتركت في حرب أخرى.

وهذه الدروس المستفادة لا يمكن التوصل إليها، إلا إذا عرفت الأخطاء التي ارتكبت بواسطة أحد الأطراف وأدت إلى هزيمته أو أدت إلى وضعه في موقف صعب. وان اكتفائنا بذكر الأعمال المجيدة التي تمت خلال حرب أكتوبر، وعدم ذكر الأخطاء التي ارتكبت يمكن أن يولد لدى قادة الأجيال التالية شعورا بالتفوق الزائف، الذي قد يؤدي إلى ارتكابهم نفس الأخطاء التي ارتكبها آباؤهم وأجدادهم. ولذلك فإنه يجب علينا أن نعترف بأنه رغم النجاح الباهر الذي حققناه بعبورنا قناة السويس وتدميرنا خط بارليف في ١٨ ساعة فقد ارتكبنا سلسلة من الأخطاء. إذ إن تطوير الهجوم يوم ١٤ أكتوبر كان قرارا خاطئا، وهو الذي أدى إلى حدوث ثغرة الدفرسوار ليلة ١٦/١٥ أكتوبر. كما أن عدم المناورة بقواتنا المدرعة واستغلال خفة حركتها لكي نتصدى بها للقوات المدرعة الإسرائيلية التي عبرت إلى الغرب كان تصرفا خاطئا. علاوة على أن التهوين من أهمية الثغرة في الإعلام المصري، ووصفها بأنها معركة تليفزيونية هو وصف ديماجوجي ومضلل، وأدى في النهاية إلى نجاح العدو في حصار الجيش الثالث ومدينة السويس.

والآن وبعد مرور حوالي ٢٢ عاما على حرب أكتوبر المجيدة، ألم يأن الأوان لأصحاب الآراء المختلفة حول القرارات التي اتخذت خلال تلك الحرب، أن يجلسوا مع بعضهم البعض، وان يتناقشوا حول نقاط الخلاف بغية التوصل إلى ما هو صحيح وما هو خطأ، وأن تتم هذه المناقشات على شكل مناظرة علنية يقوم فيها كل طرف بعرض وجهة نظره مع تقديم الحجج التي تؤيدها. نحن لسنا في حاجة إلى استدعاء خبراء أجانب فلدينا خبراء قد يتفوق الكثير منهم على الخبراء الأجانب. ولكن بشرط أن نوفر لهم المناخ الديمقراطي، وألا يضار صاحب رأي برأيه. مناظرة لا يكون كل هم المشاركين المصريين فيها- كما حدث في أثناء الندوة الدولية لحرب أكتوبر التي عقدت عام ١٩٧٥- هو الدفاع عن الأخطاء التي ارتكبتها القيادة السياسية والقيادة العسكرية خلال تلك الحرب. إن هذا هو اقل ما يمكن عمله اليوم.فإن لم نفعل ذلك فإن التاريخ لن يرحم هؤلاء الذين يريدون تزييف تاريخ مصر. وما لنا لا نفعل ذلك وقد سبقتنا دول كثيرة اتخذت

خطوات اكثر تشددا من تلك المناظرة التي ناديت بها منذ سنوات ومازلت أنادي بها حتى اليوم. لقد شكلت بريطانيا لجنة تقصي الحقائق في أعقاب حـــرب الفولكلاند عام ١٩٨٢. وشـــكلت إســـرائيل لجنة مماثلة في أعقاب حرب أكتوبر ، وأخرى في أعقاب الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. فهل يقبل الجمسي أن يدخل معي في مناظرة علنية حول نقط الخلاف؟ وهل يقبل هيكل أن يثـــري هـــذه المناظرة بآرائه وتحليلاته السديدة على ضوء المعلومات التي كانت خـــافية عنه وقت أن نشر كتابه عن حرب أكتوبر؟

الخاتمة

هذه هي القصة الكاملة والحقيقية لحرب اكتوبر ١٩٧٣ وهي تختلف كثيرا عن كل ما صدر عن هذه الحرب من كتب. إن هذا هو الكتاب الأول الذي يكتب عن هذه الحرب من وجهة النظر العربيـــة،

دون أن يكون تحت أي ضغط من أصحاب السلطة في مصر أو في غيرها. لقد سـردت الأحـداث بصراحة تامة لم يألفها المصريون حتى ليبدو للكثيرين منهم أني قد أذعت "أسرارا حربية" ما كـان يصح لي أن أبوح بها.

ولكي نوضح هذه النقطة يحب أن نتفق أولا على المعنى المقصود من تعبير "أسـرار حربيـة". إن التفسير المنطقي لذلك هو "إذاعة معلومات عن القوات المسلحة الوطنية لم يكن العدو يعرفها، ونتيجة معرفته لهذه المعلومات فإنه يستطيع ان يهدد أمن وسلامة الوطن". إن حجب المعلومـات التـي لا ينطبق عليها التفسير السابق عن الشعب المصري والعربي تحت شعار السرية هو إسراف في تفسير تعبير "أسرار حربية" وهو محاولة يائسة من السادات ونظامه لكي يحجب الحقـائق عـن الشـعب المصري، لكي ينقذ نفسه من مسئولية الأخطاء الجسيمة التي ارتكبها فـي حـق مصـر وقواتهـا المسلحة.

ان العدو يعرف جيدا إننا قمنا بدفع الفرقتين المدرعتين ٤ و ٢١ من غرب القناة إلى شرقها ليلتـي ١٣,١٢ أكتوبر، ويعلم جيدا إننا قمنا بهجوم فاشل يوم ١٤ من أكتوبر خسرنا فيه ٢٥٠ دبابة، ويعلم كذلك أنه عبر في منطقة الدفرسوار ليلة ١٦/١٥ من أكتوبر بقوة لواء مشاة ولواء مـدرع، ويعلـم جيداً بخطتنا للهجوم على الدفرسوار يوم ١٧ من أكتوبر وانه دمر اللواء المدرع ٢٥ بكامله، ويعلم جـيداً انه مساء يوم ١٨ اكتوبر كان له غرب القناة خمسة ألوية مدرعة ولواء مشاة إن العدو يعلـم جيدا أنه حاصر الجيش الثالث يومي ٢٣ و ٢٤ أكتوبر وانه عند وقف إطلاق النار يـوم ٢٤ مـن اكتوبر كان له ثلاث فرق مدرعة غرب القناة مقابل فرقة مدرعة مصرية واحدة. إن مـالا يعرفـه العدو هو"لماذا يتصرف المصريون بمثل هذه الحماقة، ومن هو المسئول الرئيسي عن هذه القرارات الخاطئة؟". ليس هناك إذن معلومات سرية يستطيع العدو أن يستفيد منها ضد مصر وإنمـا هنـاك أسرار يريد السادات أن يحجبها عن الشعب العربي. وهذه هي مشكلة الديمقراطية فـي مصـر. إن السادات لايريد أن يسمح لشعب مصر أن يقرأ ألا ما يريد له السـادات أن يقرأ. انه لا يريد لأحـد من أبناء مصر أن يكتب إلا إذا كـان ما يكتبه معبرا عن وجهة نظر حـاكم مصر. ومن هنا يكون هذا الكتاب تحديا خطيرا لهذه القواعد القمعية و ألاديمقراطية التي يمارسـها نظام السـادات فـي مصر.

إن هذه الحرب مليئة بالدروس والعبر، لعل أبرزها أكثرها تأثيرا على سير العمليات هو الصـراع بين القادة العسكريين والسياسيين ذلك الصراع الذي يعد مشكلة كل وقت وزمان، ولكنها لم تكن قط بهذه الصورة التي ظهرت بها خلال حرب أكتوبر ٧٣ على المسـتوى المصري.

لقد كان في استطاعتنا أن نحقق الكثير لولا تدخل السادات المستمر وإصدار سلسلة مـن القـرارات

الخاطئة التي كانت تجهض قدراتنا العسكرية. والآن وقد أذيعت الأسرار كلها التي كـان يحـرص السادات على إخفائها، فقد آن الأوان لكي نجري في مصـر حوارا نناقش فيـه أخطائنـا ونحـدد المسئول عن كل خطأ حتى نعرف من هم أبطال هذه الحـرب الحقيقيين ومن هم الأبطال المزيفون.

ملحق

نص الخطاب الذي وجهه الفريق سعد الدين الشاذلي إلى النائب العام المصري .. وفيه يطلب محاكمة السادات

السيد النائب العام:

تحية طيبة.. وبعد

أتشرف أنا الفريق سـعد الدين الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية في الفترة ما بين ١٦ من مـايو ١٩٧١ وحتى ١٢ ديسمبر ١٩٧٣، أقيم حاليـا بالجمهوريـة الجـزائرية الديمقراطية بمدينة الجزائر العاصمة وعنواني هو صندوق بريد رقم ٧٧٨ الجزائر- المحطة B.P 778 ALGER. GARE بان اعرض على سيادتكم ما يلي:

أولا:

إني أتهم السيد محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربيـة بأنه خلال الفترة ما بين أكتوبر ١٩٧٣ ومايو ١٩٧٨، وحيث كان يشغل منصب رئيس الجمهورية والقائد الأعلـى للقـوات المسلحة المصرية بأنه ارتكب الجرائم التالية:

١- الإهمال الجسيم:

وذلك انه وبصفته السابق ذكرها أهمل في مسئولياته إهمالا جسيما واصدر عدة قرارات خاطئة تتعـارض مع التوصيات التي أقرها القادة العسكريون، وقد ترتب على هذه القرارات الخاطئة ما يلي:

(أ) نجاح العدو في اختراق مواقعنا في منطقة الدفرسوار ليلة ١٦/١٥ أكتوبر ٧٣ في حين انه كان من الممكن ألا يحدث هذا الاختراق إطلاقا.

(ب) فشل قواتنا في تدمير قوات العدو التي اخترقت مواقعنا في الدفرسوار، فى حين أن تدمير هذه القوات كان في قدرة قواتنا، وكان تحـقيق ذلك ممكنا لو لم يفرض السادات على القادة

العسكريين قراراته الخاطئة.

(ج) نجاح العدو في حصار الجيش الثالث يوم ٢٣ من أكتوبر ٧٣، في حين أنه كان من الممكن تلافي وقوع هذه الكارثة.

٢- تزييف التاريخ:

وذلك انه بصفته السابق ذكرها حاول و لا يزال يحاول أن يزيف تاريخ مصر، ولكي يحقق ذلك فقد نشر مذكراته في كتاب اسماه (البحث عن الذات) وقد ملأ هذه المذكرات بالعديد من المعلومات الخاطئة التي تظهر فيها أركان التزييف المتعمد وليس مجرد الخطأ البريء.

٣- الكذب:

وذلك انه كذب على مجلس الشعب وكذب على الشعب المصري في بياناته الرسمية وفي خطبه التي ألقاها على الشعب أذيعت في شتى وسائل الإعلام المصري. وقد ذكر العديد من هذه الأكاذيب في مذكراته (البحث عن الذات) ويزيد عددها على خمسين كذبة، اذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

(أ) ادعاءه بان العدو الذي اخترق في منطقة الدفرسوار هو سبعة دبابات فقط واستمر يردد هذه الكذبة طوال فترة الحرب.

(ب) ادعاءه بأن الجيش الثالث لم يحاصر قط في حين أن الجيش الثالث قد حوصر بواسطة قوات العدو لمدة تزيد على ثلاثة أشهر.

٤ -الادعاء الباطل:

وذلك انه ادعى باطلا بأن الفريق الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية قد عاد من الجبهة منهارا يوم ١٩ من أكتوبر ٧٣، وانه أوصى بسحب جميع القوات المصرية من شرق القناة، في حين انه لم يحدث شيء من ذلك مطلقا.

٥- إساءة استخدام السلطة:

وذلك أنه بصفته السابق ذكرها سمح لنفسه بان يتهم خصومه السياسيين بادعاءات باطلة، واستغل وسائل إعلام الدولة في ترويج هذه الادعاءات الباطلة. وفي الوقت نفسه فقد حرم خصومه من حق استخدام وسائل الإعلام المصرية -التي تعتبر من الوجهة القانونية ملكا للشعب- للدفاع عن أنفسهم ضد هذه الاتهامات الباطلة.

ثانيا:

إني أطالب بإقامة الدعوى العمومية ضد الرئيس أنور السادات نظير ارتكابه تلك الجرائم ونظرا لما سببته هذه الجرائم من أضرار بالنسبة لأمن الوطن ونزاهة الحكم.

ثالثا:

إذا لم يكن من الممكن محـــاكمة رئيس الجمهورية في ظل الدستور الحـــالي على تلك الجـــرائم، فإن اقل ما يمكن عمله للمحافظة على هيبة الحكم هو محاكمتي لأنني تجرأت واتهمـــت رئـــيس الجمهورية بهذه التهم التي قد تعتقدون من وجهة نظركم أنها اتهامات باطلة. إن البينة على مـــن ادعى وإني أستطيع- بإذن الله- أن أقدم البينة التي تؤدى إلى ثبوت جميع هذه الادعـــاءات وإذا كان السادات يتهرب من محاكمتي على أساس أن المحاكـــمة قد تترتب عليهـــا إذاعـــة بعـــض الأســـرار، فقد سقطت قيمة هذه الحجة بعد أن قمت بنشر مذكراتي في مجلة "الوطن العربي" في الفـــترة ما بين ديسمبر ٧٨ ويوليو ١٩٧٩ للرد على الأكاذيب والادعاءات الباطلة التـــي وردت في مذكرات الســـادات. لقد اطلع على هذه المذكرات واستمع إلى محتوياتها عشرات الملايين من البشر في العالم العربي ومئات الألوف في مصر.

ملحق للفصل الأربعين

توزيع الألوية المدرعة الإسرائيلية خلال حرب أكتوبر ٧٣

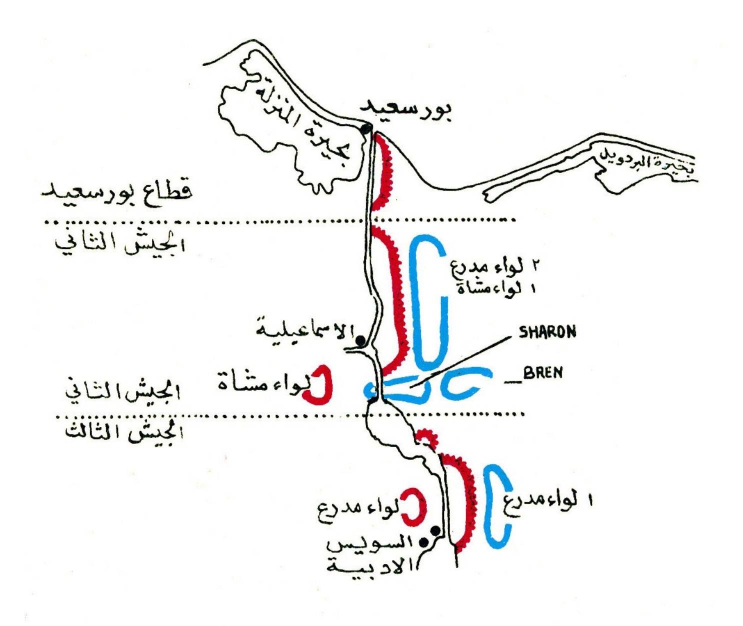
رقم اللواء	اسم القائد	
الجبهة المصرية		
٦٤٠	*جابي أمير*	
١٤	امنون ريشيف	
٤٠	ني شومرون	
٦٤	افراهام بارون	
٢١٧	اريه قارين	
٦٠٠	ناتك بارام	
٢٤٧	توفيا رافيف	
٤٢١	حاييم اريز	
الجبهة السورية		
١٨٨ (باراك)	لتزاك بن شوهام	
٧	افيجدو بن جال	
٧٩	يورى اور	
١٧	ران ساريج	
١٩	ميــــــــر	} نقلا إلى الجبهة المصرية بعد
٢٠	بوسي بليد	} وقف إطلاق النار
احتياطي استراتيجي		
٧٠	يفيفر	} نقلا إلى الجبهة المصرية بعد
٩ (تم تشكيله في ٧٣/١٠/٢٥)	موردخاي بن بورانت}	وقف إطلاق النار

ملحوظة

اللواء المدرع الإسرائيلي يتكون من ٣ كتائب في كل كتيبة ٤٠ دبابة .

خريطة رقم ٢

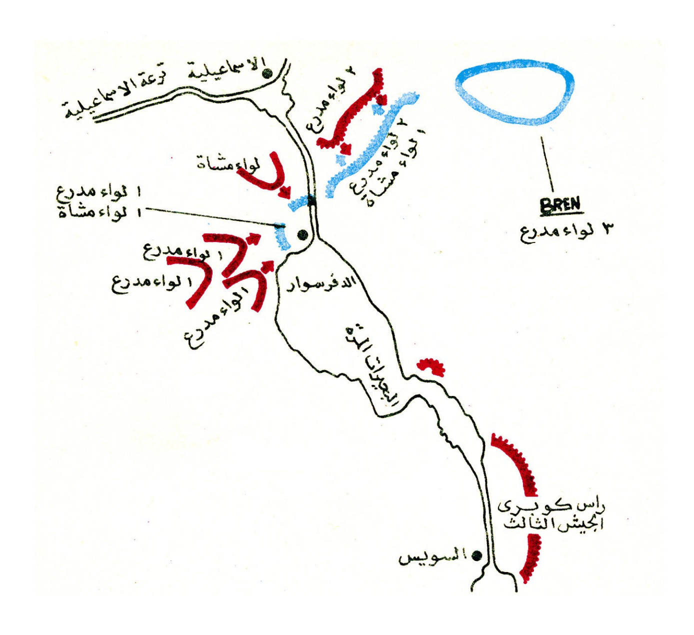
<u>توزيع القوات ليلة ١٧/١٦ أكتوبر ١٩٧٣</u>



- فرقة BREN مكونة من ثلاثة ألوية مدرعة
- فرقة SHARON مكونة من لوائين مدرعين و لواء مشاة عبر منها لواء مشاة إلى الغربو باقي منها لواء مدرع في الشرق
- قوات الجيش الثاني شرق القناة (١٠ لواء مشاة ، ٤ لواء مدرع، ١٢ كتيبة دبابات ، ٣ كتيبة BMP ، ٤ كتيبة مالونكا، ٣ كتيبة مدفعية مضادة للدبابات) يقوم العدو بتثبيتها بقوة ٢ لواء مدرع، لواء مشاة
- قوات الجيش الثالث شرق القناة (٩ لواء مشاة، ٣ كتيبة مالتوكا، ٢ كتيبة مدفعية مضادة للدبابات) يقوم العدو بتثبيتها بقوة لواء مدرع
- قطاع الإختراق (الدفرسوار): للعدو غرب القناة لواء مدرع ، لواء مشاة و لة شرق القناة في إتجاة في إتجاة الدفرسوار ٤ لواء مدرع و >لك في المواجهة لواء مشاة مصري واحد غرب القناة في إتجاة الدفرسوار

خريطة رقم ٣

<u>معركة الدفرسوار كما كان يريدها الفريق الشاذلي يوم ١٧ أكتوبر</u>



منطقة العمليات	قواتنا			العدو		نسبة المدرعات
	لواء مشاة	لواء مدرع	كتيبة دبابات	لواء مشاة	لواء مدرع	١ :
الدفرسوار	٢	٥	١	٢	٣	٢ : ١
باقي مواجهة الجيش	١٠	٢	١٢		١	٦ : ١
الجيش الثالث	٨	١	١٠		١	٤ : ١
إحتياطي العمليات					٣	
إجمالي	٢٠	٨	٢٢	٢	٨	٢ : ١

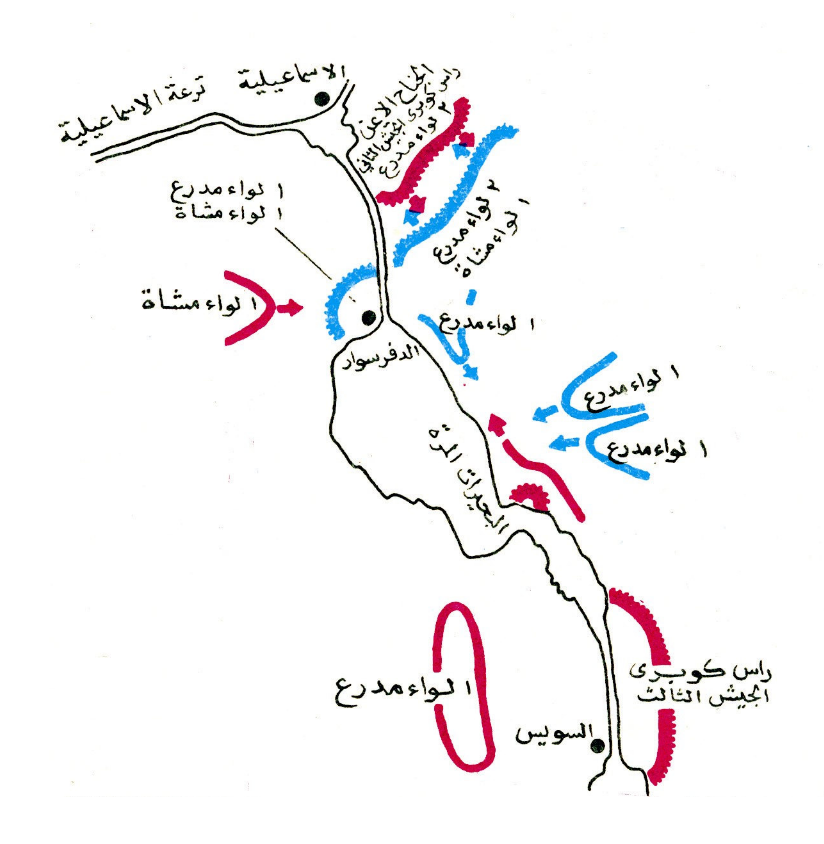
ملاحظات :

١. نسبة تفوقنا في المدرعات طبقا لهذة الخطة سوف نكون ٣ : ١ غرب القناة

٢. ليس من المنتظر أن يقوم العدو بدفع فرقة BREN إلى غرب القناة في الوقت الذي لم يكن قد اتم فيه بناء أي كبري حتى ذلك الوقت

خريطة رقم ٤

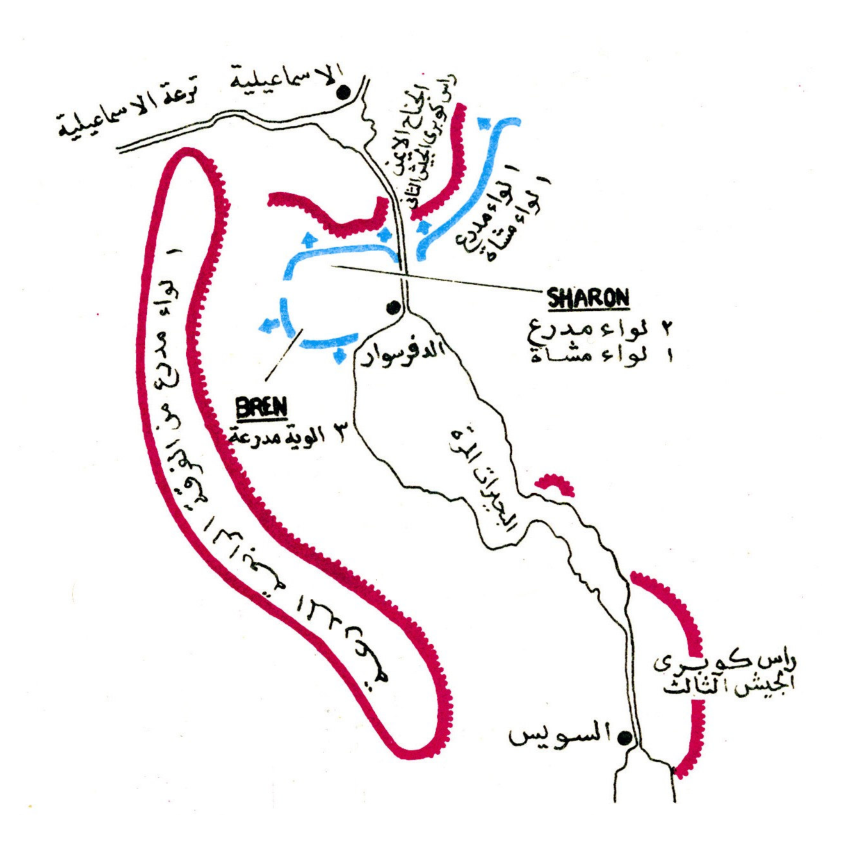
معركة الدفرسوار يوم ١٧ أكتوبر ١٩٧٣



منطقة العمليات	قواتنا			العدو		نسبة المدرعات
	لواء مشاة	لواء مدرع	كتيبة دبابات	لواء مشاة	لواء مدرع	:
الدفرسوار	١	٣	١	٢	٦	١ : ٢
باقي مواجهة الجيش	١٠	٢	١٢		١	٦ : ١
الجيش الثالث	٩	٢	١٠		١	٥ : ١
إحتياطي العمليات		١				
إجمالي	٢٠	٨	٢٣	٢	٨	٢ : ١

خريطة رقم ٥

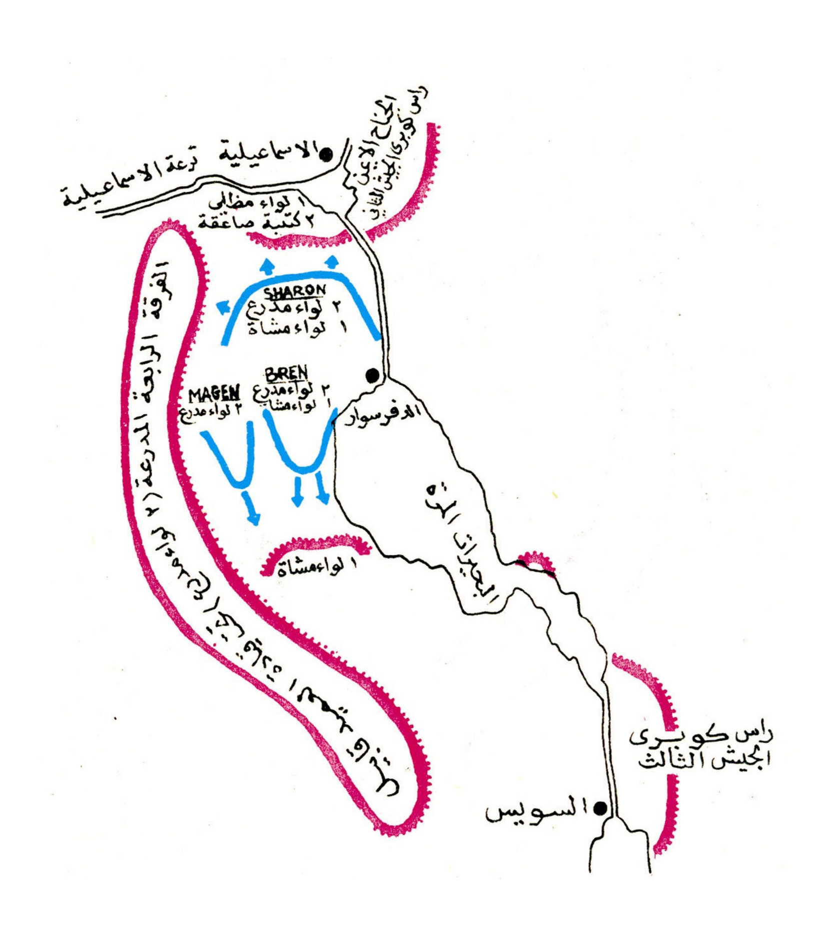
<u>الموقف في منطقة الدفرسوار مساء ١٨ أكتوبر ١٩٧٣</u>



منطقة العمليات	قواتنا			العدو		نسبة المدرعات
	لواء مشاة	لواء مدرع	كتيبة دبابات	لواء مشاة	لواء مدرع	:
الدفرسوار	١			١	٥	١ : ٥
باقي مواجهة الجيش	١٠	٤	١٢	١	٢	٤ : ١
الجيش الثالث	٩	٢	١٠		١	٥ : ١
إحتياطي العمليات		١				
إجمالي	٢٠	٧	٢٢	٢	٨	٢ : ١

خريطة رقم ٦

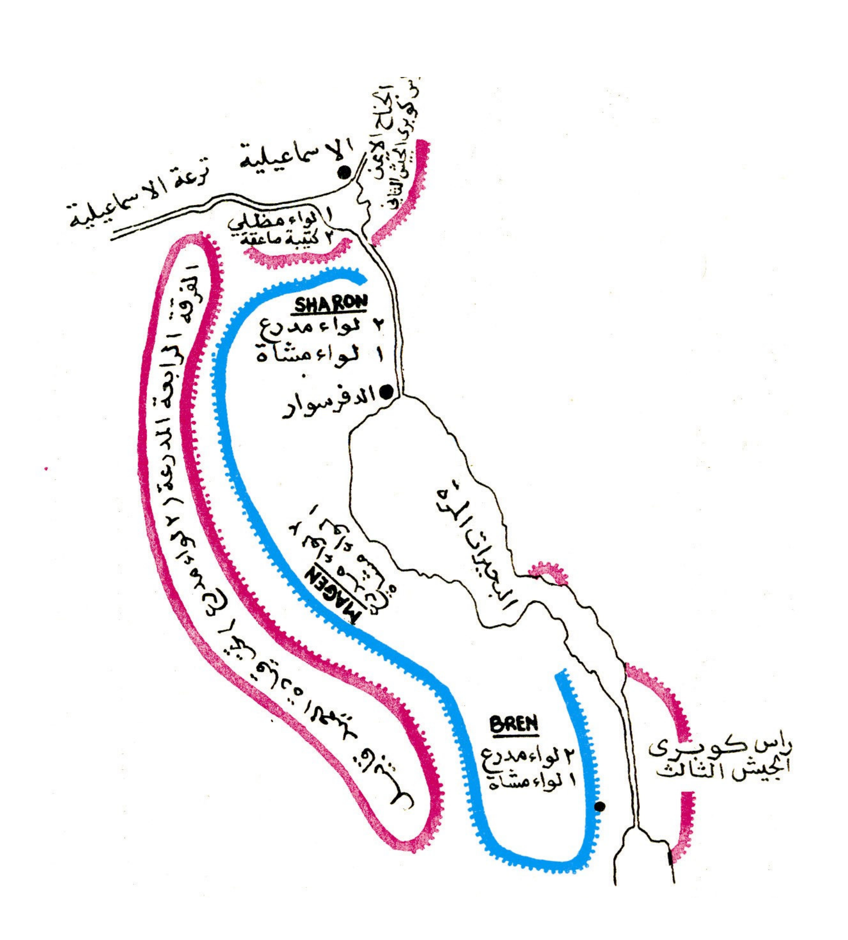
<u>الموقف في منطقة الدفرسوار مساء ٢٢ أكتوبر١٩٧٣</u>



منطقة العمليات	قواتنا			العدو		نسبة المدرعات
	لواء مشاة	لواء مدرع	كتيبة دبابات	لواء مشاة	لواء مدرع	:
الدفرسوار	٢	٢		٢	٦	١ : ٣
باقي مواجهة الجيش	١٠	٤	١٢	٢	٢	٤ : ١
الجيش الثالث	٨	١	١٠	٢	١	٤ : ١
إجمالي	٢٠	٧	٢٢	٢	٨	٢ : ١

خريطة رقم ٧

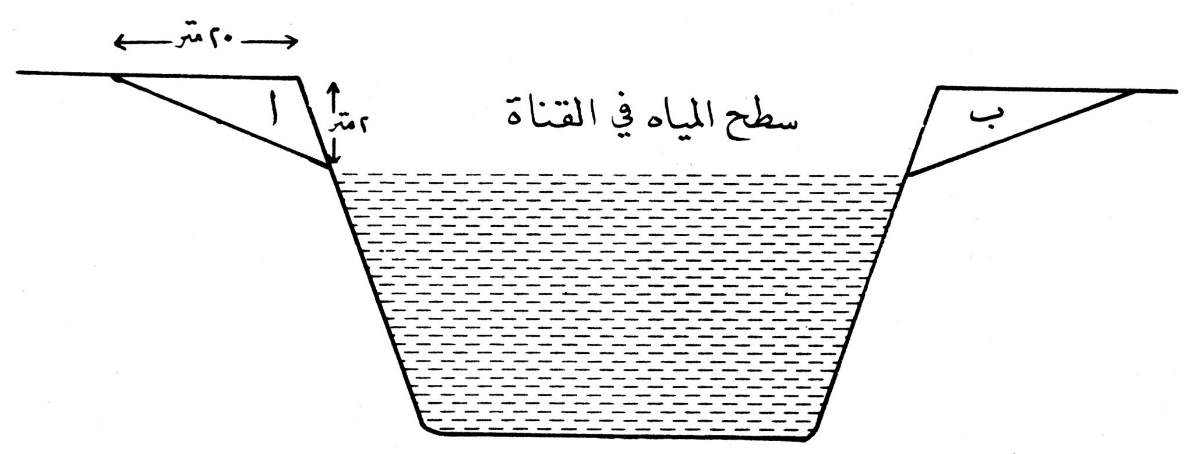
الموقف صباح يوم ٢٥ أكتوبر١٩٧٣



منطقة العمليات	قواتنا			العدو		نسبة المدرعات
	لواء مشاة	لواء مدرع	كتيبة دبابات	لواء مشاة	لواء مدرع	:
الجيب الإسرائيلي	٢	٢		٢	٦	١ : ٣
الجيش الثاني	١٠	٤	١٢	٢	٢	٤ : ١
الجيش الثالث	٨	١	١٠	٢	١	٤ : ١
إجمالي	٢٠	٧	٢٢	٧	٩	١,٥ : ١

الشكل رقم ١

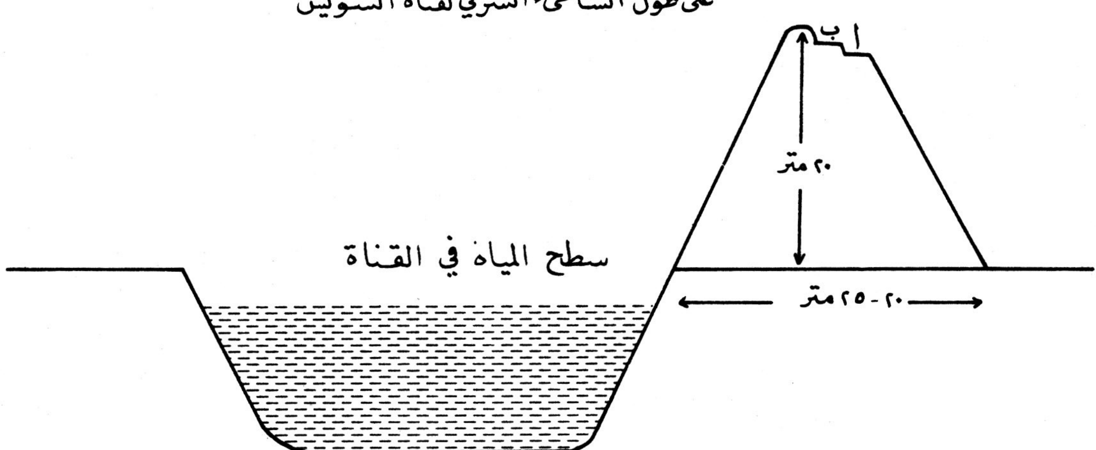
رسم تخطيطي يبين الأكتاف الخرسانية لقناة السويس
التي يتحتم نسفها لامكانية عبور المركبات البرمائية



أ = الكتف الخرساني الذي كان يجب علينا نسفه في الجانب الغربي للقناة
ب = الكتف الخرساني الذي كان يجب علينا نسفه في الجانب الشرقي للقناة

الشكل رقم ٢

رسم تخطيطي يبين الساتر الترابي الذي بناه العدو
على طول الشاطىء الشرقي لقناة السويس

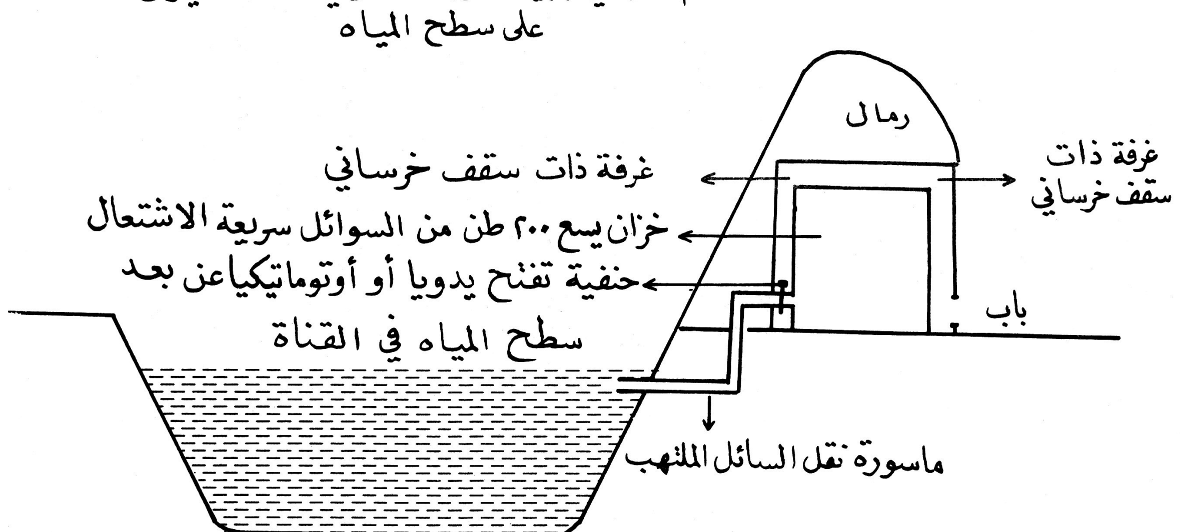


أ = طريق على مقربة من قمة الساتر الترابي ويسمح لدبابات العدو من التحرك عليه دون أن نستطيع رؤيتها من الجانب الغربي للقناة .

ب = مصطبة من ضمن مئات المصاطب التي تنتشر على طول الطريق أ بمعدل مصطبة كل حوالي ١٠٠ متر . وعندما تحتل الدبابة المعادية هذه المصطبة فانها تكون مختفية تماما ولايظهر منها سوى فوهة مدفعها. وتستطيع الدبابة أن تطلق من هذه المصطبة عدد من الطلقات ثم تختفي لكي تظهر على مصطبة أخرى بعد ذلك .

الشكل رقم ٣

رسم تخطيطي يبين اسلوب العدو في اشعال النيران على سطح المياه



الشكل رقم ٤

رسم تخطيطي يبين فكرة كوبرى مروات

